

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي

الجزء الخامس

نبذة: صدر المؤلف كتابه بذكر فتح مصر على يد جيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ثم ذكر من ملك مصر قبل الإسلام ، ثم عقب بمن تولى خلافة مصر بعد الإسلام؛ ذاكراً أهم الأحداث التي وقعت في خلافته. فجمع المؤلف بذلك بين دفتي كتابه من تولوا إمارة مصر قبل الإسلام وبعد الإسلام إلى نهاية سنة إحدى وسبعين وثمانمائة.

الفهرس:

- [قتل الأمير تغري بردي بن عبد الله المؤيدي](#)
- [أمر النيل في هذه السنة](#)
- [أمر النيل في هذه السنة](#)
- [أمر النيل في هذه السنة](#)
- [الأمير سيف الدين تماراز المؤيدي](#)
- [سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة](#)
- [سلطنة الملك العزيز على مصر](#)
- [بلغ أهل حلب أن تغري برمش يريد أن يأمر التركمان بنهب حلب](#)
- [سب مخالفة قاني باي وغيره](#)
- [عزل السلطان الطواشي فيروز الحاركسي](#)
- [خلع السلطان على الأمير طوخ مازي](#)
- [خلع السلطان على الأمير إينال العلاني الناصري](#)
- [ندب السلطان مملوكه جانبك الظاهري الخاصكي إلى التكلم](#)
- [سب نفي السودوني](#)
- [رمة قاسم المؤذي الكاشف غريم السقطي](#)
- [أشع بالقاهرة أن أبا الخير النحاس قد تحنن في سجنه](#)
- [الخميس حادي عشرون محرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة](#)
- [أمراء المدينة](#)
- [أمر النيل في هذه السنة](#)
- [أمر النيل في هذه السنة](#)
- [السنة العاشرة من سلطنة الظاهر حقمق](#)
- [أمر النيل في هذه السنة](#)
- [السنة الرابعة عشرة من سلطنة الظاهر حقمق](#)
- [أمر النيل في هذه السنة](#)
- [سلطنة المنصور عثمان بن حقمق](#)
- [مدة سلطنة الملك المنصور](#)
- [خلع السلطان على جماعة كبيرة بعدة وظائف](#)
- [الأربعاء ثالث عشر صفر من سنة ستين المذكورة](#)
- [الصاحب جمال الدين عظيم الدولة](#)
- [الحريق العظيم بساحل بولاق](#)
- [فش الطادون بالقاهرة](#)
- [مدة تحكم الملك الأشرف إينال](#)
- [السنة الثانية من سلطنة الأشرف إينال](#)
- [السنة السادسة من سلطنة الأشرف إينال](#)
- [السنة الثامنة من سلطنة الأشرف إينال](#)
- [الأشرفية خداشيته](#)
- [الملك المؤيد](#)
- [سنة ست وستين وثمانمائة](#)
- [سنة سبع وستين وثمانمائة](#)

- سنة إحدى وسبعين وثمانمائة يوم الأربعاء ويوافقه عشرون مسرى
- أمر النيل في هذه السنة
- الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله التاجي
- أمر النيل في هذه السنة
- خلع الملك الظاهر بلباي من سلطنة مصر
- خلع السلطان على الأتابك قايتباي

وهي سنة ثمان وعشرين وثمانمائة: فيها كانت أول غزوات الملك الأشرف التي سيرها في البحر حسبما تقدم ذكره.

وفيهما

▲ قتل الأمير تغري بردي بن عبد الله المؤيدي

المعروف بأخي قصره نائب حلب كان بقلعة حلب بعد أن حبس بها مدة في شهر ربيع الأول وأصله من مماليك الملك المؤيد شيخ وأحد خاصكته ثم أمره المؤيد عشرة ولما مات الملك المؤيد أنعم عليه الأمير ططر في دفعة واحدة بإمرة مائة وتقدمة ألف وجعله أمير آخور كبيرًا عوضًا عن طوغان الأمير آخور ثم ولاه نيابة حلب فعصى في أواخر دولة ططر وخرج عن الطاعة فولي تنبك البجاسي عوضه في نيابة حلب ومات ططر فتوجه تنبك إليه وقاتله وهزمه وملك حلب ثم حاصره بقلعة بهسنا حتى أخذه بالأمان وحمله إلى قلعة حلب فحبس بها إلى يوم تاريخه وكان شابًا طائشًا خفيًا غير مشكور السيرة واقتحم الرئاسة فنالها فلم يمهل الدهر وأخذ قبل أن تتم سنته.

وتوفي قاضي القضاة علاء الدين أبو الحسن علي ابن التاجر بدر الدين أبي الثناء محمود بن أبي الجود أبي بكر الحموي الحنبلي المعروف بابن مغلي قاضي قضاة الديار المصرية في يوم الخميس العشرين من المحرم وقد قارب السبعين سنة وأصله من سلمية وكان أبؤه يعانون المتجر وولد هو بحماة وطلب العلم وقدم القاهرة شابًا في زي التجار في سنة إحدى وتسعين ثم عاد إلى حماة وأكب على طلب العلم حتى برع واشتهر بكثرة الحفظ حتى إنه كان يحفظ في كل مذهب من المذاهب الأربعة كتابًا في الفقه ويحفظ في مذهبه كثيرًا إلى الغاية مع مشاركة جيدة في الحديث والنحو والأصول والتفسير وتولى قضاء حماة في عنفوان شببته ودام بها إلى أن طلبه الملك المؤيد وولاه قضاء الديار المصرية ونزل بالقاهرة في جوارنا بالسبع قاعات وسكن بها إلى أن مات.

حدثني صاحبنا قاضي القضاة جلال لدين أبو السعادات محمد بن ظهيرة قاضي مكة بها قال: قدمت القاهرة فدخلت إلى ابن مغلي هذا فإذا بالقاضي ولي الدين السفطي عنده فسلمت وجلست فأخذ السفطي يثني على ابن مغلي ويعرفني بمقامه في كثرة العلوم وكان مما قاله: مولانا قاضي القضاة يحيط علمه بالمذاهب الأربعة فقال ابن مغلي: يا قاضي ولي الدين أسأت في التعريف لم لا قلت بجميع مذاهب السلف قال: فمن يومئذ لم أجمع به.

قلت: كان عنده زهو وإعجاب بنفسه لغزير فضله وكثرة ماله.

وقد وقع له مع العلامة نظام الدين يحيى السيرامي الحنفي بحث بحضرة السلطان الملك المؤيد فقال له القاضي علاء الدين المذكور: يا شيخ نظام الدين أسمع مذهبك.

وسرد المسألة من حفظه وهذه كانت عادته وبذلك كان يقطع العلماء في الأبحاث فجاراه الشيخ نظام الدين في المسألة ولازال ينقله من شيء إلى شيء حتى دخل به إلى علم المعقول فارتبك ابن مغلي واستظهر الشيخ نظام الدين وصاح عليه في الملأ: مولانا قاضي القضاة حفظه طاح هذا مقام التحقيق.

فلم يرد عليه انتهى.

والذي اشتهر به ابن مغلي كثرة المحفوظ.

حكى بعض طلبة العلم قال: استعار مني ابن مغلي أوراقًا نحو عشرة كراريس فلما أخذها مني احتجت إلى مراجعة شيء منها في اليوم المذكور فرجعت إليه وقلت له: أريد أنظر في الكراريس نظرة ثم خذها ثانيًا فقال: ما بقي لي بها حاجة قد حفظتها ثم ألقاها إلي وسردها من حفظه فأخذتها وعدت وأنا متعجب من قوة حافظته.

وتوفي الأديب الشاعر زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري في سابع جمادى الآخرة وكان ولي حسبة مصر القديمة في الدولة الظاهرية برقوق بمال عجز عن أدائه ففر إلى اليمن واتصل بملوكها لفضيلة كانت فيه من كتابة المنسوب ونظم الشعر ومعرفة الأدب فأقام باليمن مدة ثم عاد إلى مكة وحج وقدم القاهرة ثم رحل إلى الشام ثم عاد إلى مصر فمات بعد قدومه إليها بأيام قليلة.

وكان له نظم جيد.

من ذلك ما قاله في مدح قاضي القضاة جلال الدين البلقيني لما عزل عن القضاء بالقاضي شمس الدين الهروي واتفق مع ذلك زينة القاهرة لدوران المحمل فتغالى في الزينة شخص يسمى الترجمان وعلق على باب بيته حمارًا بسرياقات على رؤوس الناس بأحسن هيئة وتردد الناس إلى الفرجة على الحمار المذكور أفواجًا فقال شعبان هذه الأبيات: الوافر أقام الترجمان لسان حال عن الدنيا يقول لنا جهارًا: زمان فيه قد وضعوا جلالًا عن العليا وقد رفعوا حمارًا وتوفي الشيخ الإمام الأديب الشاعر العلامة بدر الدين محمد بن عمر بن أبي بكر الدماميني المالكي الإسكندري شاعر عصره بمدينة كربوكا من بلاد الهند في شعبان عن نحو سبعين سنة.

وكان مولده ومنشأه بثمر الإسكندرية.

وبرع في الأدبيات وقال الشعر الفائق الرائق وعانى دويلة عمل القماش الحرير بإسكندرية فتحمل الديون بسبب ذلك حتى ألجته الضرورة إلى الفرار فذهب إلى الهند فأقبل عليه ملوكها وحسن حاله بها وأثرى وكثر ماله فلم تطل أيامه حتى مات.

ومن شعره: السريع لاما عذاريك هما أوقعا قلب المحب الضب في الحين فجدله بالوصل واسمح به ففبك قد هام بلامين وله: البسيط قد عطس الصبح ياحبيبي فلا تشتمه بالفراق وله: الرجز بدا وقد كان اختفى الرقيب من مراقبه فقلت: هذا قاتلي بعينه وحاجبه وله: الرمل قم بنا نركب طرف اللهو سبقًا للمدام واثن يا صاح عناني لكميت ولجام وتوفي الأمير سيف الدين أبو بكر حاجب حجاب طرابلس بها وكان يعرف بدوادار الأمير حكم نائب طرابلس.

أظنه تركمانيًا فإني رأيت كلامه يشبه ذلك ولا عرفت أصله.

وتوفي الأمير سيف الدين طوغان بن عبد الله الأمير آخور قتيلاً بقلعة المرقب في ذي الحجة.

وكان أصله تركمانيًا مكاريًا لبغال الأمير طولو الظاهري نائب صفد ثم تنقل في الخدم حتى اتصل بالملك المؤيد شيخ أيام إمرته وترقى عنده ليقظة كانت فيه حتى صار أمير آخوره فلما تسلطن أمره وولاه حجووية دمشق ثم نيابة صفد ثم جعله أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية وأمير آخور كبيرًا بعد الأمير تنك ميق لما نقل إلى نيابة دمشق بعد مسك أقباي.

ولما ولي الأمير آخورية نالته السعادة وعظم في الدولة إلى أن عينه المؤيد للسفر صحبة الأتابك الطنبغا القرمشي إلى البلاد الشامية من جملة من عينه من الأمراء.

ومات الملك المؤيد فوق ما حكيناه من اضطراب المملكة الشامية وعصيان جقمق فانضم طوغان هذا مع جقمق ولا زال من حزبه إلى أن انكسر وتوجه معه إلى قلعة صرخد.

ولما قبض على جقمق قبض على طوغان هذا معه ونفي إلى القدس.

ثم أمسك ثم أطلق ورسم له أن يكون بطالاً بطرابلس فدام بها مدة فبلغ السلطان عنه ما أوجب القبض عليه وحبسه بالمرقب ثم قتله في التاريخ المقدم ذكره وكان لا فارس الخيل ولا وجه العرب.

وتوفي الأمير ناصر الدين محمد بن أحمد بن عمر بن يوسف بن عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر التنوخي الحموي الشهير بابن العطار في ثالث عشر شوال بالخليل عليه السلام وهو متول نظره.

ومولده في سنة أربع وسبعين وسبعمائة بحماه وبها نشأ وتولي حجوبيتها ثم نقل إلى دمشق وولي دوايرية الأمير قاني باي نائب الشام بأمره إلى أن نوه القاضي ناصر الدين ابن البارزي بذكره واستقدمه إلى القاهرة لمصاهرة كانت بينهما فولاه الملك المؤيد نيابة الإسكندرية إلى أن عزله الأمير ططر في الدولة المظفرية وتعطل في داره سنين حتى ولاه الملك الأشرف نظر القدس والخليل فدام به إلى أن مات.

وكان فاضلاً عاقلاً سيوياً وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد البيري الشافعي شيخ خانقاه سعيد السعداء في يوم الجمعة رابع عشرين ذي الحجة على نحو الثمانين سنة.

وهو أخو جمال الدين يوسف البيري الأستاذار المقدم ذكره في الدولة الناصرية فرج.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع وعشرة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً سواء.

السنة الخامسة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة تسمع وعشرين وثمانمائة سنة.

فيها كان فتح قبرس وأخذ ملكها أسيراً حسبما تقدم ذكره في أصل ترجمة الأشرف هذا مفصلاً.

وفيها توفي شيخ الإسلام وأحد الأئمة الأعلام سراج الدين عمر بن علي بن فارس شيخ شيوخ خانقاه شيخون المعروف بقاريء الهداية في شهر ربيع الآخر بعد أن انتهت إليه رئاسة مذهب أبي حنيفة في زمانه هذا مع من كان في دوره من العلماء.

كان بارعاً مفنئاً في الفقه وأصوله وفروعه إماماً في العربية والنحو وله مشاركة كبيرة في فنون كثيرة وهو أول من أقرأني القرآن بعد موت الوالد.

ومات وقد صار المعول على فتواه بالديار المصرية بعد أن تصدى للإفتاء والإقراء عدة سنين وانتفع به غالب الطلبة.

وكان مقتصرًا في ملبسه ومركبه يتعاطى حوائجه من الأسواق بنفسه مع جميل السيرة وعظم المهابة في النفوس يهابه حتى السلطان مع عدم التفاته لأهل الدولة بالكلية حتى لعلني لم أنظره دخل لأحد منهم في عمره وهو مع ذلك لا يزداد إلا عظمة ومهابة.

ولما ولاه الملك الأشرف مشيخة الشيخونية مسؤولًا في ذلك أراد الشيخ سراج الدين المذكور أن يحضر إلى الخانقاه المذكور ماشيًا وكان مسكنه بالمدرسة الظاهرية بين القصرين وامتنع من ركوب الخيل فأرسل إليه الملك الأشرف فرسًا وألزمه بركوبها فلما ركبها أخذ بيده عصاة يسوقها بها حتى وصل إلى الخانقاه المذكورة فنزل عنها كما ينزل عن الحمار برجليه من ناحية واحدة هذا كله وعليه من الوقار والأبهة ما لم تنلها أصحاب الشكائم ولا كبار العمائم وهو أحد من أدركنا من الأفراد الذين مشوا على طريق فقهاء السلف رحمه الله تعالى.

ونزل بعده في مشيخة الشيخونية قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التفهني الحنفي بعد عزله عن القضاء بقاضي القضاة بدر الدين محمود العيني.

وتوفي الشيخ المعتقد خليفة المغربي نزيل جامع الأزهر في حادي عشرين المحرم فجاءة في الحمام بعدما كان انقطع بالجامع المذكور مكبًا على العبادة نيفًا وأربعين سنة.

وكان للناس فيه اعتقاد كبير ويقصد للزيارة والتبرك به.

ولما مات خلف مآلاً له صورة وكانت جنازته مشهورة.

وتوفي الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله النوروزي أمير سلاح في أول شهر ربيع الآخر بالقااهرة وأصله من مماليك الأمير نوروز الحافظي ودواداره ثم ولي بعده نيابة غزة ثم حماه ثم طرابلس إلى أن نقله الملك الأشرف إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية وخلع عليه باستقراره أمير مجلس ثم أمير سلاح فاستمر على ذلك إلى إن مات وفي نفسه أمور فأخذه الله قبل ذلك.

وكان متجمالاً في ملبسه ومماليكه ومركبه وسماطه إلى الغاية وفيه مكارم وحب للعظمة مع ظلم وخلق سييء وقلة دين وبطش بحواشيه ومماليكه وغلمانه وإظهار جبروت.

وهو صهري زوج أختي خوند فاطمة ومات عنها ولكن الحق يقال على أي وجه كان وفرح الناس بموته كثيرًا وأولهم السلطان الملك الأشرف برسباي.

وتوفي السيد الشريف حسن بن عجلان بن رميثة واسم رميثة منجد ابن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن أبي غرير قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن الحسن المثنى بن أبي محمد الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة بالقاخرة ودفن بالصحراء بحوش الملك الأشرف برسباي وقد أناف على الستين سنة.

ومولده بمكة وولي إمارتها في دولة الملك الظاهر برقوق في سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ثم ولي سلطنة الحجاز كله: مكة والمدينة والينبع من قبل الملك الناصر فرج في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة وثمانمائة واستتاب عنه بالمدينة الشريفة وخطب له على منبرها.

وطالت أيامه في السعادة على أنه وقع له أمور وجوادر ومحن وحمله ذلك على فعل أشياء ليست بمشكورة من مصادرة التجار وأخذ الأموال وقد ذكرنا أمر خروجه من مكة وقدمه مع الأمير تغري بردي المحمودي إلى القاهرة في أصل هذه الترجمة واستقراره في إمرة مكة على عادته إلى أن مات بها قبل أن يتوجه إلى مكة.

واستقر بعده في إمرة مكة ابنه الشريف بركات الآتي ذكره في محله.

وتوفي العلامة قاضي القضاة شمس الدين محمد بن عطاء الله بن محمد بن محمود بن أحمد بن فضل الله بن محمد الرازي الهروي الشافعي بالقدس في ثامن عشر ذي الحجة.

ومولده بهراة سنة سبع وستين وسبعمئة.

وكان إمامًا بارعًا في فنون من العلوم وكان يقرئ على مذهب أبي حنيفة ومذهب الشافعي والعربية وعلمي المعاني والبيان ويذاكر بالأدب والتاريخ ويستحضر كثيرًا من الأحاديث حفظًا.

وصحب تيمورلنك مدة طويلة ثم قدم القاهرة وصحب الوالد وولي قضاء الشافعية بالديار المصرية مرتين فلم ينتج أمره فيهما لبغض أولاد العرب له كما هي عادة المباينة بين أولاد العرب والأعاجم وتعصبوا عليه وأبادوه ووجدوا علومه.

وولي كتابة السر أيضًا بالديار المصرية أشهرًا ثم عزل ونكب ووقع له أمور في ولايته للقضاء في المرة الثانية إلى أن تولى نظر القدس والخليل إلى أن مات هناك.

وكان شيخًا ضخمًا طويلاً أبيض اللحية مليح الشكل غير أنه كان في لسانه مسكة تمنعه عن الطلاقة وله مصنفات تدل على غزير علمه واتساع نظره وتبحره في العلوم.

وتوفي قاضي القضاة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن خالد بن نعيم بن مقدم بن محمد بن حسن بن غانم بن محمد بن علي الطائي البساطي المالكي وهو غير قاض في يوم الاثنين العشرين من جمادى الآخرة عن ثمان وثمانين سنة وكان فقيهاً مشاركاً في فنون وعنده معرفة بالأحكام وسياسة ودربة بالأمور وقد تولى قضاء الديار المصرية سنين كثيرة وولي حسبة القاهرة شهرًا ثم صرف ولزم داره إلى أن مات.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين قجق بن عبد الله العيساوي الظاهري أتابك العساكر بالديار المصرية في تاسع شهر رمضان وهو أحد المماليك الظاهرية وممن أنشأه الملك الناصر فرج وصار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية ثم ولي حجوية الحجاب في الدولة المؤيدية شيخ ثم أمسك وحبس إلى أن أطلقه الأمير ططر وولاه أمير مجلس ثم صار أمير سلاح في أوائل دولة الملك الصالح ثم صار أتابك العساكر بالديار المصرية بعد مسك الأتابك ببيغا بن عبد الله المظفري إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وكان قجق أميرًا عاقلًا عارفًا بفنون الفروسية رأسًا في ركوب الخيل ولعب الكرة مع بخل وشح زائد وحسن شكالة وكان تركي الجنس رحمه الله تعالى.

وتوفي تاج الدين محمد بن أحمد المعروف بابن المكلفة وبابن جماعة في ثامن شهر ربيع الآخر وكان ولي حسبة القاهرة بالمال فلم تطل مدته وعزل عنها.

وتوفي القاضي شمس الدين محمد بن عبد الله أحد أعيان موقعي الدست بالديار المصرية المعروف بابن كاتب السمسرة وبابن العمري في يوم الأربعاء العشرين من شعبان.

وكان له وجهة في الدولة معدودًا من أعيان الديار المصرية رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع وخمسة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا سواء كالسنة الخالية.

وهي سنة ثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخ الإمام المعتقد زاهد وقته وفريد عصره أحمد بن إبراهيم بن محمد اليميني الأصل الرومي البرصاوي المولد والمنشأ المصري الدار والوفاة المعروف بابن عرب الحنفي في ليلة الأربعاء ثاني شهر ربيع الأول بخلوته بخانقاه شيخون فغسل بها وحمل إلى مصلاة المؤمني على رؤوس الأصابع ونزل السلطان الملك الأشرف وحضر الصلاة عليه وأم بالناس قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي ثم حمل وأعيد إلى الشيخونية فدفن بها وكان له مشهد عظيم إلى الغاية وأبيع بعده ما كان عليه من الثياب بأثمان غالية للتبرك بها.

قلت: وابن عرب هذا أعظم من أدركناه من العباد الزهاد في الدنيا وعدم الاجتماع بالملوك ومن دونهم والاقتصار في المأكل والملبس وكان أولًا ينسخ للناس بالأجرة وهو مكب على طلب العلم والعبادة سنين طويلة إلى أن استقر من جملة صوفية خانقاه شيخون بمبلغ ثلاثين درهمًا في الشهر فتعفف بذلك عن النسخ وانقطع عن مجالسة الناس وسكن بخلوة في الخانقاه المذكورة وأعرض عن كل أحد وأخذ في الاجتهاد في العبادة واقتصر على ملبس خشن حقير إلى الغاية وصار يقنع بيسير القوت ولا ينزل من خلوته إلا ليلاً لشراء قوته ثم يعود إلى منزله في كل ثلاثة أيام مرة واحدة بعد عشاء الآخرة.

وكان من شأنه إذا حابه أحد من السوقه فيما يشتريه من قوته تركه وما حابه به.

فلما عرف منه ذلك ترك الباعة محاباته ووقفوا عندما يشير إليهم به.

وكان في كل شهر خادم الخانقاه يحمل إليه الثلاثين درهمًا فلا يأخذها إلا عددًا لأن المعاملة بالفلوس وزنًا حدثت بعد انقطاعه عن الناس وكان لا يعرف إلا المعادة.

وكان لا يقبل من أحد شيئًا البتة.

وكان يغتسل بالماء البارد صيفًا وشتاءً في بكرة نهار الجمعة ويمضي إلى صلاة الجمعة من أول نهار الجمعة وبأخذ في الصلاة والقراءة.

وكان يطيل قيامه في الصلاة بمقدار أن يقرأ في كل ركعة حزبين من غير أن يسمع له قراءة ولا تسبيح.

وكان لا يرى نهارًا إلا عند ذهابه يوم الجمعة إلى الجامع.

وكان يعجز السلطان ومن دونه في الاجتماع به.

ويحكى عنه كرامات كثيرة ذكرنا بعضها في ترجمته في المنهل الصافي رحمه الله تعالى ونفعنا ببركته.

وتوفي الأمير سيف الدين قشتم بن عبد الله المؤيدي الدوادار الذي كان ولي نيابة الإسكندرية في دولة الملك المظفر أحمد ثم قبض عليه وأخرج بعد مدة إلى حلب على إمرة بها واستمر بحلب إلى أن خرج مع نائبها الأمير قصروه لقتال التركمان فقتل في المعركة في المحرم.

وكان غير مشكور السيرة وهو أخو إينال المؤيدي المعروف بأخي قشتم وكلاهما ليس بشيء من المهملين.

وتوفي الشيخ المحدث الفاضل شهاب الدين أحمد بن موسى بن نصير المتبولي المالكي في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الأول عن خمس وثمانين سنة.

وقد حدث عن عمر بن الحسن بن مزيد المعمر المسند الرحلة زين الدين أبي حفص المراغي الحلبي الشهير بابن أميلة وست العرب وجماعة وناب في الحكم سنين رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن الزعيفرني الدمشقي الشاعر في ربيع الأول.

وكان ينظم الشعر ويكتب المنسوب ويتكلم في معرفة علم الحرف ويتكلم أيضًا في المغيبات ومال إليه بسبب ذلك جماعة من الأكابر وأثرى وامتنح في سنة اثنتي عشرة وثمانمائة وقطع الملك الناصر لسانه وعقدتين من أصابعه ورفق به المشاعلي عند قطع لسانه فلم يمنعه ذلك من الكلام.

وكان سبب هذه المحنة أنه نظم لجمال الدين الأستاذار ملحمة أوهمه أنها ملحمة قديمة وأنه يملك مصر وبلغ ذلك الملك الناصر فرج فأمر به ما ذكرناه.

ولما قطعت أصابعه صار يكتب بعد موت الملك الناصر بشماله فكتب مرة إلى قاضي القضاة صدر الدين علي بن الأدمي الحنفي يقول: الطويل لقد عشت دهرًا في الكتابة مفردًا أصور منها أحرقًا تشبه الدرا وقد عاد خطي اليوم أضعف ماترى وهذا الذي يسر الله لليسرى لئن فقدت يمينك حسن كتابة فلا تحتمل همًا ولا تعتقد عسرا وأبشر ببشر دائم ومسرة فقد يسر الله العظيم لك اليسرى وتوفي الأمير الطواشي الرومي شبل الدولة كافور الصرغتمشي زمام دار السلطان وقد قارب الثمانين سنة من العمر في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الآخر.

وأصله من خدام الأمير صرغتمش الأشرفي ثم أخذه الأتابك منكلي بغا الشمسي وأعتقه.

وترقى إلى أن ولاه الملك الناصر فرج زمام داره فدام على ذلك إلى أن عزل بعد موت الملك المؤيد بمرجان الخازندار الهندي ثم أعيد إليها بعد مدة.

وهو الذي أنشأ التربة العظيمة بالصحراء وبها خطبة وعمائر هائلة وله مدرسة أخرى أنشأها بخط حارة الديلم من القاهرة.

وتولى بعده الزمامية الأمير الطواشي خشقدم الظاهري الخازندار.

وتوفي الشيخ الأديب البارع المفنن بدر الدين محمد بن إبراهيم بن محمد المعروف بالبشتكي الطاهري المذهب في يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الآخر فجاءة في حوض الحمام.

وكان من تلامذة الشيخ جمال الدين بن نباتة في الأدب وكان أحد الأفراد في كثرة النسخ: كان ينسخ في اليوم خمس كراريس فإذا تعب اضطجع على جنبه وكتب كما يكتب وهو جالس فكتب ما لا يدخل تحت حصر.

وكثيرًا ما يوجد ديوان شعر ابن نباتة بخطه.

ومن شعره: الوافر لأغسل بالكؤوس الهم عني لأن الراح صابون الهموم وكان بينه وبين ابن خطيب داريا أهاجي ومكاتبات تم بينه وبين شرف الدين عيسى العالية المعروف بعويس وفيه يقول عويس المذكور: المتقارب أيامعشرالصحب مني اسمعوا مقالي وكس اخت من ينتكي ألا فالعنوا أكلي الحشيش وبولوا على شارب البشتكي قلت: والبشتكي ضرب من المسكرات مثل التمربغاوي والششش.

وله أيضًا فيه صحبت جندي لوغيه في السكر وأنواع الشروب كيف ما أجي ألقاه سكران والبشتكي تحتو مكبوب وتوفي قاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجي بن موسى بن أحمد بن سعد الحسائي السعدي الدمشقي الشافعي قاضي قضاة دمشق وكتب السر بالديار المصرية مذبوغًا على فراشه ببستانه بالنيرب خارج دمشق في ليلة الأحد مستهل ذي القعدة عن ثلاث وستين سنة ونسب قتلة للزيني عبد الباسط وللشريف شهاب الدين أحمد كاتب سر دمشق ثم مصر وكان القاضي نجم الدين فقيهاً بارعًا فاضلاً كريمًا حشماً وقورًا له مكارم وأفضال وسؤدد وهو أحد أعيان أهل دمشق وفقهائهم رحمه الله تعالى.

وقد تقدم ذكر محنته عندما ولي كتابة سر مصر في وتوفي الملك المنصور عبد الله ابن الملك الناصر أحمد ابن الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن في جمادى الأولى بها وأقيم بعده أخوه الملك الأشرف إسماعيل ثم خلع بعد مدة وأقيم بعده الملك الظاهر هزبر الدين يحيى ابن الملك الأشرف إسماعيل في ثالث شهر رجب وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة والده من هذا الكتاب في سنة سبع وعشرين وثمانمائة.

وفي أيام هؤلاء الملوك تلاشى أمر اليمن وطمع فيها كل أحد.

وتوفي القاضي بدر الدين محمد بن محمد بن محمد بن إسماعيل بن علي البدر أبو عبد الله القرشي القلقشندي الشافعي أمين الحكم بالقاهرة في يوم الاثنين رابع عشرين المحرم وكان مولده أيضًا في أول المحرم من سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وكانت لديه فضيلة وعنده مشاركة.

وتوفي القاضي تقي الدين محمد بن زكي الدين عبد الواحد بن عماد الدين محمد ابن قاضي القضاة علم الدين أحمد الإخنائي المالكي أحد نواب الحكم بالقاهرة وهو بمكة في ثالث ذي الحجة عن ثلاث وستين سنة.

وكان من بيت فضل وعلم ورياسة.

▲ أمر النيل في هذه السنة

: الماء القديم أربعة أذرع وخمسة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا سواء.

وهي سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي أمير الملاء عذراء بن علي بن نعيم بن حيار بن مهنا مقتولًا في المحرم.

وتوفي الأمير الفقيه سيف الدين بكتمر بن عبد الله السعدي أحد أمراء الطيلخانات بالديار المصرية في يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأول بسكنه بدار أستاذه القاضي سعد الدين إبراهيم بن غراب بخط قنطرة طقزدمر ولم يخلف بعده في أبناء جنسه مثله بل ولا في غير أبناء جنسه لما اشتمل عليه من المحاسن: كان فاضلاً ديناً شجاعاً بارعاً في فنون الفروسية انتهت إليه الرئاسة في حمل المقيرة ورمي النشاب في زمانه هذا مع البشاشة والكرم وحسن الشكل والتواضع وحسن المحاضرة وجودة المشاركة في كل علم وفن مع الفصاحة في اللغة التركية والعربية والدين المتين والعفة عن المنكرات والفروج ولا أعرف من يدانيه في محاسنه فكيف يشابهه وكان طوالاً جسيماً ضخماً ذا قوة مفرطة مليح الشكل واللحية مدورة بادية الشيب.

قبض مرة بأكتاف شخص من أعيان الخاصكية المشاهير بالقوة وهزه وأفلته ثم قال له: ما بقي فيك شيء يا فلان فلم ينطق ذلك الرجل بكلمة وذهب خجلاً لكثرة دعاويه فقلت لبكتمر: " هذا الذي أنت فيه من كثرة الإدمان فقال: منذ بلغت الحلم وأنا متزوج غير أنني لا أهمل نفسي فقلت له: هذه منح إلهية.

ولما مات أنعم السلطان بطيلخانته على الأمير قجقار جغتاي السيفي بكتمر جلق.

ومات بكتمر السعدي هذا وسنه نحو خسين سنة تخمياً وكان رومي الجنس رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الأشرفي الدوادار الثاني وعظيم دولة أستاذه الأشرف برسبای في يوم الخميس سابع عشرين شهر ربيع الأول وسنه خو خمسة وعشرين سنة تخمياً ودفن بمدرسته التي أنشأها بخط القريبين خارج باب زويلة على الشارع ثم نقل منها بعد مدة إلى تربة أستاذه بالصحراء وحضر السلطان غسله ثم الصلاة عليه وكان أشيع عنه أن نفسه تحدثه بالملك فعاجلته النية.

وكان أصله من ممالیک الملك الأشرف برسبای اشتراه صغيراً في أيام إمرته وقاسى معه خطوب الدهر أيام حبسه بقلعة المرقب وغيرها ولما تسلطن الملك الأشرف عرف له ذلك مع محبته له فرقاه وأنعم عليه بإمرة عشرة وجعله خازن داراً ثم أرسله بتقاليد الأمراء نواب الشام: تنبک الجاسي وغيره ثم أنعم عليه بعد حضوره بإمرة طيلخانة وخلع عليه بالدوادارية الثانية عوضاً عن الأمير قرقماس الشعباني الناصري بحكم انتقاله إلى إمرة مائة وتقدمة ألف فعظم في الدولة ونالته السعادة حتى تزايد أمره وخرج عن الحد من كثرة إنعامه وإظهار الجميل والأخذ بالخواطر حتى ركن إليه غالب أعيان الدولة من الخاصكية وكثر تردد الناس إليه وصار أكابر الدولة مثل عبد الباسط وغيره تتردد أيضاً إلى خدمته إذا سمح لهم بذلك وله عليهم الفضل وصار أمره في نمو وزيادة وقصده الناس من الأقطار لقضاء حوائجهم.

وبينما هو في ذلك وقد اشتغل الناس به وأشير إليه بالأصابع وقد مرض ولزم الفراش مدة ونزل السلطان إلى عيادته مرة ثم رسم بطلوعه إلى القلعة فحمل إليها وتولى السلطان تمريره فأفاق قليلاً وترعرع فانزل إلى داره.

وكان سكنه بالدار التي في سوق القيو الحسيني وللدار باب من حدرة البقر وهي الآن سكن الأمير يشبك الفقيه المؤيدي وعند نزوله إليها عاوده المرض ونزل إليه ثانيًا فوجده كما قيل: السريع لم يبق إلا نفس خافت ومقلة إنسانها باهت يرثي له الشامت مما به يابح من يرثي له الشامت وبعد طلوعه مات في تلك الليلة فنزل السلطان إلى داره وحضر غسله كما تقدم والصلاة عليه.

وكان أميرًا شابًا حلو الشكالة للقوق أقرب أخضر اللون مليح الوجه صغير اللحية مدورها فصيحًا ذكيًا حاذقًا متحرًا متجملًا في مركبه وملبسه وسماطه إلى الغاية يكتب كتابه ضعيفة ويقرأ إلا أنه كان عاريًا من العلوم لم يسبق له اشتغال بعلم وما كان دأبه إلا فيما هو فيه من الأمر والنهي وتنفيذ الأمور واتهم السلطان بموته والله أعلم بحاله.

وتوفي الشيخ المعتقد الصالح سعيد المغربي نزيل جامع الأزهر به في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول بعد أن جاور بجامع الأزهر عدة سنين.

وكان للناس فيه اعتقاد كبير وله كرامات ويقصد للزيارة والتبرك بدعائه.

زرته غير مرة ومات وقد علا سنه وطال مرضه.

وترك نحو الألفي دينار ما بين ذهب وفضة وفلوس.

وتوفي الأمير سيف الدين أزدمر بن عبد الله من علي جان الظاهري المعروف بأزدمر شايا في سادس شهر ربيع الآخر.

وهو أحد أمراء حلب بعد أن تنقل في عدة إمرات بالشام ومصر وصار أمير مائة ومقدم ألف بديار مصر ثم أخرج إلى نيابة ملطية ثم نقل إلى إمرة بحلب إلى أن مات بها.

وقد تقدم التعريف بحاله عند إخراجه من مصر في ترجمة الملك الأشرف ومات وسنه نيف على خمسين سنة.

وكان من سيئات الدهر: لم يشهر بدين ولا كرم ولا شجاعة ولا معرفة ولا عقل مع كبر وجبروت وظلم وسوء خلق.

وكان قصيرًا نحيفًا أصفر دميمًا حقييرًا في العين وعد إخراجه من مصر من محاسن الملك الأشرف.

وتوفي الأمير سيف الدين كمشيغا بن عبد الله الجمالي الظاهري أحد أمراء الطبلخانات بطالا في يوم الجمعة رابع جمادى الأولى وقد علا سنه وكان من أكابر المماليك الظاهرية برقوق وممن تأمر في أيام أستاذه.

وكان تركي الجنس عاقلاً فقيهاً دينًا خيرًا عفيفًا عن المنكرات والفروج وطالت أيامه في الإمرة وتولى نيابة قلعة الجبل في الدولة الناصرية فرج واستمر من جملة أمراء الطبلخانات في صدر من الدولة الأشرفية برسباي إلى أن أخرج الملك الأشرف إقطاعه فلزم داره على أحسن وجه إلى أن مات وهو في عشر الثمانين.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين يشبك بن عبد الله الساقى الظاهري الأعرج أتابك العساكر بالديار المصرية في يوم السبت ثالث جمادى الآخرة وكان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ومن أعيان خاصكته وصار ساقيًا في أيام أستاذه الظاهر.

ثم ثار على الملك الناصر في أيام تلك الفتن ووقع له أمور وحروب انصاب في بعضها بجرح أصابه بطل منه شفته وصار يعرج منه عرجًا فاحشًا ثم عوفي وانتمى للأمير نوروز الحاقطي إلى أن ولاه نيابة قلعة حلب إلى أن أمسكه الملك المؤيد شيخ وحبسه بعد قتل نورز ثم نفاه إلى مكة بطالًا سنين عديدة إلى أن استقدمه الملك الظاهر ططر إلى القاهرة.

ومات ططر قبل أن ينعم عليه بإمرة فأنعم عليه الملك الأشرف برسباي بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضًا عن قرمش الأعور دفعة واحدة.

ثم صار أمير سلاح ثم ولي أتابكية العساكر بعد الأمير قجق العيساوي فاستمر على ذلك إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره.

وكان من رجال الدهر عقلاً وحزمًا ودهاء ومعرفة وتديبًا مع مشاركة جيدة في الفقه والقراءات ومعرفة تامة بفنون الفروسية وأنواع الملاعب كالرمح والنشاب وغيره.

وكان يكتب المنسوب ويحفظ القرآن.

وكانت نفسه تحدثه بأمور فإنه كان يكثر من ذكر أخبار تيمورلنك وشدة بأسه لكونه كان أعرج وقد صار أمره إلى ما صار.

وهو الذي حسن للملك الأشرف الاستيلاء على بندر جدة والقبض على حسن بن عجلان. ولو عاش لحسن له أخذ اليمن كله.

وتولى الأتابكية بعده الأمير جارقطفو الظاهري.

وتوفي بدرالدين حسن كاتب سر دمشق وناظر جيشها بها في يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الآخرة وكان أصله من سمرة دمشق.

وخدم عند الأمير بكتمر جلق نائب دمشق ثم ترقى إلى أن جمع له بين كتابة سر دمشق ونظر جيشها بسفارة الأمير أربك المحمدي الدوادر الكبير كون أربك كان متزوجًا ببنت زوجته.

وتوفي الشيخ الإمام العالم المفنن شمس الدين محمد بن عبد الدائم بن موسى البرماوي الشافعي أحد فقهاء الشافعية ومدرس المدرسة الصلاحية بالقدس الشريف في يوم الخميس ثاني عشرين جمادى الآخرة وقد أناف على ستين سنة بعدما أفتى واشتغل عدة سنين.

وتوفي القاضي بر الدين حسن بن أحمد بن محمد البرديني الشافعي أحد نواب القضاة الشافعية في يوم الاثنين خامس عشرين شهر رجب وقد أناف على الثمانين سنة.

وكان قاضي سوء لم أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ثلاثة أذرع سواء.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا سواء.

السنة الثامنة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد الوهاب بن محمد البارنباري الشافعي أحد فقهاء الشافعية في ليلة الأحد حادي عشر شهر ربيع الأول وقد أناف على التسعين سنة. وكان بارعًا في الفقه وأصوله والعربية والحساب مشاركًا في عدة فنون.

وخطب ودرس وأفتى وأقرأ عدة سنين بدمياط والقاهرة.

وتوفي القاضي نور الدين علي الصفطي وكيل بيت المال وناظر الكسوة في ليلة الثلاثاء سلخ جمادى الآخرة.

وكان يباشر الشهادة بديوان العلاني آقبا التمرزي أمير مجلس وعند أستاذه تمرز من قبله.

وتوفي الشريف عجلان بن نمير بن منصور بن جماز بن منصور بن جماز بن حماد بن شيحة.

بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مقتولاً في ذي الحجة بعدما ولي إمارة المدينة النبوية غير مرة.

وتوفي الأديب نور الدين علي بن عبد الله الشهير بابن عامرية في يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر بمدينة النحرية بالجزيرة من أعمال القاهرة.

وكان شاعرًا أديبًا مكثّرًا وأكثر شعره في المدائح النبوية.

وتوفي الواعظ المذكر شهاب الدين أحمد بن عمر بن عبد الله المعروف بالشاب التائب بدمشق في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رجب عن نحو سبعين سنة وكانت لديه فضيلة ورحل إلى البلاد وصحب المشايخ ونظم الشعر على قاعدة الصوفية وحصل له قبول تام من الناس.

وتوفي العبد الصالح شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أحمد الصوفي بعدما عمي بسنين في ليلة الثلاثاء ثالث عشر المحرم ومولده في سنة تسع وأربعين.

قال المقرئ: وهو أحد من صحبته من أهل العبادة والنسك.

ورأس مدة واتصل بالملك الظاهر برقوق وولي نظر البيمارستان المنصوري بالقاهرة وجال في الأقطار ورحل إلى بغداد والحجاز واليمن والهند رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير شمس الدين محمد بن سعيد المعروف بسويدان أحد أئمة السلطان في يوم الاثنين سابع صفر وكان أبوه عبدًا أسود سكن القرافة وولد له ابنه هذا.

وحفظ القرآن الكريم وقراء مع الأجواق فأعجب الملك الظاهر برقوق صوته فجعله أحد أئمته واستمر على ذلك إلى دولة الملك الناصر فرج فولاه حسبة القاهرة ثم عزله بعد مدة فعاد كما كان أولًا يقرأ في الأجواق عند الناس ويأخذ الأجرة على ذلك.

وصار رئيس جوقه واستقراته أنا كثيرًا.

وكان أسود اللون طوالًا.

وتوفي الشيخ المعتقد محمد بن عبد الله بن حسن بن المواز في يوم الأحد حادي عشر ربيع الأول.

وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الله الشطنوفي الشافعي في ليلة الاثنين سادس عشرين شهر ربيع الأول وقد قارب الثمانين.

وبرع في الفقه والفرائض وغير ذلك ودرس عدة سنين وانتفع به جماعة كبيرة من الطلبة.

وتوفي القاضي بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن مزهر الدمشقي النابلسي كاتب السر الشريف بالديار المصرية بها في ليلة الأحد سابع عشرين جمادى الآخرة عن نحو الخمسين سنة وكان من بيت رئاسة.

ولي أبوه كتابة سر دمشق وياشر بدر الدين هذا كتاب الإنشاء بدمشق واتصل بخدمة الأمير شيخ المحمودي نائب دمشق.

فلما قدم شيخ إلى مصر بعد قتل الملك الناظر فرج قدم ابن مزهر هذا معه مع من قدم من الشاميين.

ولما تسلطن شيخ ولاه نظر الإسطل السلطاني فدام على ذلك سنين.

ثم ناب عن القاضي كمال الدين محمد بن البارزي في كتابة السر وقام بأعباء الديوان في أيام علم الدين داؤد بن الكويز ومن بعده إلى أن خلع عليه السلطان الملك الأشرف برسباي باستقراره كاتب السر الشريف بالديار المصرية فباشر الوظيفة بحرمة وأفرة وأثرى وكثر ماله إلى أن مات في التاريخ المذكور.

قال: وخلف مالا كثيرا لطمع كان فيه وشح.

وتوفي الشريف خشرم بن دوغان بن جعفر بن هبة الله بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحة الحسيني أمير المدينة مقتولا أيضا في حرب في ذي الحجة.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع وسبعة أصابع.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا وستة عشر أصبعًا.

السنة التاسعة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ثلاث وثلثين وثمانمائة.

فيها كان الطاعون العظيم الذي لم ندرك بمثله بمصر وقراها بل وبغالب البلاد الشامية حسبما ذكرناه في ترجمة الملك الأشرف هذا في وقته.

وكان هذا الطاعون أعظم من هذه الطواعين كلها وأفضعها ولم يقع بالقاهرة ومصر بعد الطاعون العام الذي كان سنة تسع وأربعين وسبعمائة نظير هذا الطاعون وخالف هذا الطاعون الطواعين الماضية في أمور كثيرة منها أنه وقع في الشتاء وارتفع في فصل الربيع وكانت الطواعين تقع في فصل الربيع وترتفع في أوائل الصيف وأشياء غير ذلك ذكرناها في محلها.

وفيها توفي القاضي شرف الدين أبو الطيب محمد ابن القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن نصر الله الغزي الأصل المصري في ليلة الأربعاء سابع عشر ربيع الأول ودفن بالصحراء

ومات بغير الطاعون ومولده في ليلة السبت حادي عشرين ذي القعدة سنة سبع وتسعين وسبعمائة ونشأ بالقاهرة واشتغل يسيّرًا وخدم الأمير ططر موقعا عدة سنين فلما تسلطن رشحه لنظر الجيش فلم يتم له ذلك وولي نظر الكسوة ونظر أوقاف الأشراف ثم نظر دار الضرب إلى أن مات.

وكان شابًا كريمًا وفيه محبة لأهل العلم والفضل والصلاح إلا أنه كان فيه حدة مزاج وبادرة مع تدين وتحشم.

وتوفي الأمير سيف الدين أزيك بن عبد الله المحمدي الظاهري برقوق الدوادار الكبير بالقدس بطالا في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر ربيع الأول وهو أحد المماليك الظاهرية برقوق وترقى إلى أن صار أمير مائة ومقدم ألف بدمشق ثم قبض عليه الملك المؤبد شيخ بعد واقعة نوروز وحبسه سنين إلى أن أطلقه في أواخر دولته وأنعم عليه بإقطاع هين بدمشق أمير عشرة.

فلما أن صار الأمر إلى الأمير ططر أنعم عليه بإمرة طبلخانة بديار مصر ثم صار أمير مائة ومقدم ألف ثم رأس نوبة النوب بعد الأمير قسروه من تمراز في أوائل الدولة الأشرفية ثم نقل إلى الدوادارية الكبرى بعد سودون من عبد الرحمن لما نقل إلى نيابة دمشق بعد عصيان تنبك البجاسي فدام في الدوادارية إلى أن اشيع عنه أنه يريد الوثوب على السلطان ولم يكن لذلك صحة فأخرجه السلطان إلى القدس بطالا ومسفره الأمير قراخا الحسني رأس نوبة فدام بالقدس إلى أن مات.

وكان أميرًا ضخمًا عاقلًا حشمًا مهابًا دينًا عفيقًا عن المنكرات والفروج خليقًا للإمارة وهو أحد من تولى تربيتي رحمه الله تعالى.

ولقد كان به تجمل في الزمان وأهله.

وتوفي القاضي كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب حكم ناظر الخاص الشريف في ليلة الجمعة العشرين من شهر ربيع الأول بغير طاعون ودفن بالقرافة وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني وتولى ابنه القاضي سعد الدين إبراهيم وظيفه نظر الخاص من بعده وقد تناول أعناق بني نصر الله وغيرهم إلى الوظيفة فلم يلتفت السلطان إلى أحد وولاه لسعد الدين المذكور.

وكان القاضي كريم الدين المذكور رئيسًا حشمًا متواضعًا كريمًا بشوشًا هينًا لينًا ساكنًا عاقلًا.

ياشر في ابتداء أمره استيفاء الدولة ثم نظر الدولة وغيرهما من خدم أعيان الأمراء آخرهم الملك الأشرف برسباي إلى أن طلبه السلطان الملك الأشرف وولاه نظر الخاص الشريف بعد عزل صاحب بدر الدين حسن بن نصر الله عنها واستقراره أستاذًا في يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وكان ذلك آخر عهد بني نصر الله بهذه الوظيفة.

واستقر في نظر الدولة من بعده أمين الدين إبراهيم بن الهيصم.

وباشر القاضي كريم الدين الوظيفة بحرمة وافرة ونالته السعادة وعظم في الدولة وأثرى ومشى حال الخاص في أيامه حتى قيل إنه منذ ولي الخاص إلى أن توفي لم يبطل الواصل عنه يومًا واحدًا مبالغة في إقبال سعده وتيامن الناس بولايته ومات من غير نكبة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين كمشيغا بن عبد الله الفيسي المزوق الظاهري منفياً بدمشق في رابع عشر شهر ربيع الآخر وقد ناهز الستين سنة من العمرة وأصله من ممالك الملك الظاهر برقوق ورفاه الملك الناصر فرج إلى أن جعله أمير آخور كبيراً مدة يسيرة ثم عزله الملك الناصر أيضاً ثم وقع له أمور وانحط قدره في دولة الملك الأشرف برسباي وتولى كشف البر وساءت سيرته من كثرة ظلمه وقلة دينه مع الإسراف على نفسه وفي الجملة فمستراح منه ومن مساوئه.

وتوفي السيد الشريف علي بن عنان بن مغامس بن رميثة.

تقدم أن اسم رميثة منجد بن أبي نمي وقد ذكرنا بقية نسبه في ترجمة الشريف حسن بن عجلان وغيره فليُنظر هناك.

وكانت وفاته بقلعة الجبل في يوم الأحد ثالث جمادى الآخرة بالطاعون.

وكانت لديه فضيلة ويذاكر بالشعر وغيره.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين بيغا بن عبد الله المظفري وهو أمير جلس في ليلة الأربعاء سادس جمادى الآخرة بالطاعون.

وهو أحد أعيان المماليك الظاهرية برقوق وممن ترقى في الدولة الناصرية فرج حتى صار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية وصار من يوم ذاك ينتقل في الإمرة والحبوس شاماً ومصرًا وإسكندرية فكان حاله أشبه بقول القائل: المتقارب ويوم سمين ويوم هزيل ويوم أمر من الحنظله وليل أبيت جليس الملوك وليل أبيت على مزبله إلى أن خلع عليه الأشرف برسباي باستقراره أتاك العساكر بالديار المصرية بعد الأمير طرباي فأقام على ذلك نحو ثلاث سنين أو دونها وقبض عليه الملك الأشرف وحبسه أيضاً بالإسكندرية وذلك لبادرة كانت فيه ومخاشنة في كلامه مع الملوك مع سلامة الباطن ولذلك كان كثيراً ما يحبس ثم يفرج عنه.

وقد تقدم التعريف بحاله عندما أمسكه الملك الأشرف في أصل ترجمة الأشرف مستوفاة فدام بيغا المذكور في السجن مدة طويلة ثم أطلقه السلطان أوسيره إلى دمياط بطالاً ثم نقله إلى القدس فلم تطل مدته وطلبه السلطان وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف وخلع عليه باستقراره أمير مجلس.

ولما ولي إمرة مجلس صار يقعد على ميسرة السلطان فوق أمير سلاح مراعاة لما سبق له من الرئاسة من الأتابكية وغيرها وكون أمير سلاح كان الأمير إينال الحكمي أحد السيفية ينظره في عينه أنه مملوك بعرض خجداشيته.

وكان بيغا أميراً جليلاً شجاعاً مهيباً مقدماً مع كرم وسلامة باطن وفحش في خطابه من غير سفه على عادة جنس الأتراك.

ومع هذا كله كان فيه دعابة حلوة يحتمل بها فحش خطابه وانحرافه.

وهو أعظم من رأياه من الملوك في أبناء جنسه رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين بردبك السيفي يشبك بن أزدمر المعروف بالأمير آخور وهو أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية في يوم الأحد عاشر جمادى الآخرة بالطاعون وهو في الكهولية.

وكان خدم بعد موت أستاذه يشبك بن أزدمر عند الأمير ططر وصار أمير آخوره فلما تسلطن ولاه الأمير آخورية الثانية بإمرة طبلخانة دفعة واحدة ودام على ذلك سنين إلى أن نقله الملك الأشرف إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية فدام على ذلك إلى أن مات.

وكان شابًا أشقر مليح الشكل حلو الوجه معتدل القامة عاقلًا حشمتًا ساكنًا كريمًا متواضعًا وقورًا قل أن ترى العيون مثله.

وهو والد صاحبنا الزيني فرج بن بردبك أحد الحجاب بالديار المصرية.

وتوفي المقام الناصري محمد ابن السلطان الملك الأشرف برسباي صاحب الترجمة في يوم الثلاثاء سادس عشرين جمادى الأولى بالطاعون وقد ناهز الاحتلام ودفن بمدرسة والده الأشرفية بخط العنبريين من القاهرة.

وأمه خوند فاطمة من أولاد تجار القرم وكانت قبل الملك الأشرف تحت أستاذه الأمير دقماق المحمدي.

وكان المقام الناصري المذكور من أحسن الناس شكلًا تظهر فيه مخايل النجابة والسكون والعقل.

وتوفي المقام الناصري محمد ابن السلطان الملك الناصر فرج ابن السلطان الملك الظاهر برقوق ابن الأمير أنص الجاركسي بسجن الإسكندرية في يوم الاثنين حادي عشرين جمادى الآخرة بالطاعون وله من العمر إحدى وعشرون سنة.

وأمه أم ولد مولدة تسمى عاقولة.

ودفن بالإسكندرية ثم نقل منها إلى تربة جده بالصحراء فيما أظن.

وتوفي الشيخ الإمام العالم العلامة فريد عصره ووحيد دهره نظام الدين يحيى ابن العلامة سيف الدين يوسف بن محمد بن عيسى السيرامي الحنفي شيخ الشيوخ بالمدرسة الظاهرية البرقوقية في جمادى الآخرة بالطاعون.

وتولى مشيخة الظاهرية من بعده ولده عضد الدين عبد الرحمن أخذها عن أبيه وكان أبوه أخذها عن أبيه أيضًا.

وكان الشيخ نظام الدين إمامًا مفننًا بارعًا في المعقول والمنقول عارفًا بالمنطوق والمفهوم مشاركًا في فنون كثيرة وأفتى ودرس وأشغل سنين عديدة إلى أن مات.

وتوفي السلطان الملك الصالح محمد ابن السلطان الملك الظاهر ططر والسلطان الملك المظفر أحمد ابن السلطان الملك المؤيد شيخ والخليفة المستعين بالله العباسي: الثلاثة بالطاعون كلاهما في إسكندرية والصالح بقلعة الجبل.

وقد تقدم ذكر ذلك في ترجمتهم غير أننا ذكرناهم هنا في جملة من مات بالطاعون ولهذا لم يحرر يوم وفاتهم لأنه تقدم انتهى.

وتوفي الأمير الطواشي زين الدين مرجان الهندي المسلمي خازندار الملك المؤيد شيخ بالطاعون في سادس جمادى الآخرة.

وكان أصله من خدام التاجر ابن مسلم المصري ثم اتصل بخدمة الملك المؤيد شيخ أيام إمرته واختص به فلما تسلطن جعله خازن داراً ثم أمره بالتكلم في وظيفة نظر الخاص عوضاً عن صاحب بدر الدين حسن بن نور الله فتكلم عليها أياماً.

ومات المؤيد وأعيد ابن نور الله ثم ولاة الأمير ططر زمناً بعد أن قبض عليه بدمشق ثم أطلقه فدام في وظيفة الزمامية إلى أن عزله الملك الأشرف برسباي ونكبه وصادره فتخومل ولزم داره إلى أن توفي الأمير زين الدين عبد القادر ابن الأمير فخر الدين عبد الغني ابن الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج بعدما عزل عن الأستادارية في يوم الأربعاء سابع جمادى الآخرة بالطاعون ودفن على أبيه بمدرسته بين السورين خارج القاهرة.

وكان شاباً جميلاً عاقلاً ساكناً قليل الشر بالنسبة إلى أبائه وأقاربه كثير الشر بالنسبة إلى غيرهم.

باشر الأستادارية بقلعة حرمة وعدم التفات أهل الدولة إليه وقاسى في مباشرته خطوب الدهر ألواناً من العجز والقل وبيع موجوده وأملاكه إلى أن أعفي فلم تطل أيامه وومات.

وتوفي السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن علاء الدين علي بن إبراهيم بن عدنان الحسيني الدمشقي كاتب السر الشريف بالديار المصرية في ليلة الخميس ثامن جمادى الآخرة بالطاعون.

ومولده في شوال سنة أربع وسبعين وسبعمائة بدمشق وبها نشأ.

وتولى عدة وظائف بدمشق مثل كتابة السر وقضاء الشافعية ونظر الجيش ثم طلب إلى مصر وولي كتابة سرها فلم تطل أيامه وومات.

وتولى أخوه الشريف عماد الدين أبو بكر كتابة السر من بعده فركب إلى القلعة ثم مرض من يومه قبل أن يلبس خلعة كتابة السر وومات بالطاعون أيضاً في ليلة الجمعة ثالث عشر شهر رجب ولم يبلغ الأربعين سنة.

وكان أحسن سيرة من أخيه شهاب الدين صاحب الترجمة.

وتوفي السيد الشريف سرداح بن مقبل بن نخبار بن مقبل بن محمد بن راجح بن إدريس بن حسن بن قنادة بن إدريس ومن هنا يعرف نسبه من نسب حسن بن عجلان وومات في أواخر جمادى الآخرة بالطاعون.

وتوفي الأمير الطواشي افتخار الدين ياقوت بن عبد الله الأرغوني شاوي الحبشي مقدم المماليك السلطانية بالطاعون في يوم الاثنين ثاني شهر رجب ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء.

وتولى عوضه التقدمة نائبه خشقدم اليشبكي الرومي وتولى نيابة المقدم الطواشي فيروز الركني الرومي الجمدار.

وأصل ياقوت هذا من خدام الأمير أرغون شاه أمير مجلس الظاهر برقوق تنقل في الخدم إلى أن صار مقدم المماليك السلطانية.

وكان دينا ص خيّرًا جميل الطريقة محمود السيرة سافر أمير حاج المحمل مرتين رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله أخو الملك الأشرف برسباي في رابع شهر رجب بالطاعون ودفن بالتربة الأشرفية بعد أن صار من جملة أمراء الألوف أيامًا فإن السلطان كان أنعم عليه في أول قدومه إلى مصر في حدود سنة ثلاثين وثمانمائة بإمرة طبلخانة دفعة واحدة فدام على ذلك إلى أن توفي الأمير بردبك الأمير أخور المقدم ذكره بالطاعون فأنعم على يشبك هذا بتقدمته فمات هو أيضًا بعد أيام.

وقد تقدم في أصل ترجمة الملك الأشرف ذكر هذا الطاعون وعظمه وأنه كان ينتقل على الإقطاع الواحد الخمسة والستة من الممالك في مدة يسيرة والكل يموتون بالطاعون انتهى.

وأظن يشبك أنه كان أسن من السلطان الأشرف فإنه لما استقدمه من بلاده مع جملة أقاربه قام له واعتقه وعرض عليه الإسلام فأسلم وحسن إسلامه.

وكان لا بأس به في أمثاله مع قصر مدة إقامته بالديار المصرية.

وتوفي الشيخ نصر الله بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل العجمي الحنفي في ليلة الجمعة سادس شهر رجب وهو في عشر الثمانين.

وكان جميل الهيئة مقرّبًا من خواطر الملوك ورشح لكتابة السر.

وكان يكتب المنسوب ويتكلم في علم التصوف على طريق ابن عربي ويعرف علم الحرف على زعمه مع مشاركة في فنون.

وصحب الوالد مدة وهو الذي نوه بذكره وأنعم عليه برزقة هائلة وهي التي أوقفها نصر الله المذكور على داره التي جعلها بعد موته مدرسة بالقرب من خان الخليلي بالقاهرة.

وتوفي القاضي فخر الدين ماجد ويدعى أيضًا عبد الله بن السيد أبي الفضائل بن سناء الملك المعروف بابن المزوق في ليلة الخميس ثاني عشر شهر رجب بعد أن تولى نظر الجيش ثم كتابة السر بالديار المصرية في دولة الملك الناصر فرج بسفارة سعد الدين إبراهيم بن غراب ثم عزل وتولى نظر الإسطبل السلطاني ثم عزله عنه أيضًا.

وانحط قدره في الدولة إلى أن نكبه السلطان الملك الأشرف وأمسكه وضربه بالمقارع بسبب الأتابك جانبك الصوفي وقاسى بسببه أهوالًا ثم لزم داره على أقبح حالة من الخوف والرجيف إلى أن مات.

وتوفي الشيخ الإمام العالم الفقيه زين الدين أبو بكر بن عمر بن عرفات القمني الشافعي العالم المشهور في ليلة الجمعة ثالث عشر شهر رجب بالطاعون عن ثمانين سنة وكان من أعيان فقهاء الشافعية وفضلائهم وله سمعة وصيت وترداد للأكابر.

وأفتى ودرس بعدة مدارس سنين كثيره.

وتوفي الأمير سيف الدين هاويل بن عثمان المدعو قرايلك بن طرعلي التركماني الأصل بسجنه بقلعة الجبل في يوم الجمعة ثالث عشر شهر رجب المذكور.

وكان قبض على هاويل هذا وهو نائب لأبيه قرائك بمدينة الرها في واقعة بين العساكر المصرية وبينه حسبما تقدم ذكره كله في أصل هذه الترجمة.

ولما قبض عليه حمل إلى القاهرة فحبسه الملك الأشرف بالبرج بقلعة الجبل إلى أن مات بالطاعون بعد أن سأل أبوه السلطان في إطلاقه غير مرة.

وتوفي الشيخ الإمام العالم العلامة صدر الدين أحمد ابن القاضي جمال الدين محمود بن محمد بن عبد الله القيصري الحنفي المعروف بابن العجمي شيخ الشيوخ بخانقاه شيخون في يوم السبت رابع عشر شهر رجب بالطاعون بعد أن ولي نظر جيش دمشق وحسبة القاهرة غير مرة وعدة وظائف دينية ودرس بعدة مدارس آخرها استقراره في مشيخة الشيخونية وتدريسها.

وكان إمامًا بارعًا فاضلاً فقيهاً نحوياً مفتناً في علوم كثيرة معدوداً من علماء الحنفية مع الذكاء وحسن التصور وجودة الفهم رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي جلال الدين محمد ابن القاضي بدر الدين محمد بن مزهر في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رجب ولم يبلغ العشرين سنة من العمر.

وكان ولي كتابة السر بالديار المصرية بعد وفاة أبيه أشهرًا صورة والقاضي شرف الدين أبو بكر بن العجمي نائب كاتب السر هو المتكفل بمهمات ديوان الإنشاء إلى أن عزله السلطان وخلع عليه بعد مدة بتوقيع المقام الناصري محمد ابن السلطان فماتا جميعاً في هذا الطاعون.

وكان جلال الدين المذكور من أحسن الشباب شكلاً.

وتوفي القاضي زين الدين محمد بن شمس الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الملك الدميري المالكي في يوم الأربعاء ثالث شعبان بعدما ولي حسبة القاهرة ونظر البيمارستان المنصوري وكان معدوداً من الرؤساء.

وتوفي شمس الدين محمد بن المعلمة السكندري المالكي في سابع شعبان.

وكان يشارك في العربية وغيرها.

وولي حسبة القاهرة في وقت.

وكان مسرفاً على نفسه.

وتوفي الأمير مدلج بن علي بن نعيم بن حيار بن مهنا أمير آل فضل مقتولاً في ثاني شوال بظاهر حلب.

وتوفيت خوند هاجر زوجة الملك الظاهر برقوق و بنت الأتابك منكلي بغا الشمسي في رابع شهر رجب وكانت تعرف بخوند الكعكيين لسكنها بخط الكعكيين بالقاهرة.

وأما خوند فاطمة بنت الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون.

وماتت وهي أعظم نساء عصرها رئاسة وعراقة.

وتوفي القاضي تقي الدين يحيى ابن العلامة شمس الدين محمد الكرمانى الشافعى فى
يوم الخميس ثانى عشرين جمادى الآخرة وكان بارعًا فى عدة فنون.

وقدم من بغداد قبيل سنة ثمانمئة ومعه شرح أبىه على صحيح البخارى ثم صحب الملك
المؤيد شيخ أيام تلك الفتن وسافر معه إلى طرابلس وغيرها وتقلب معه فى سائر تقلباته
ثم قدم معه القاهرة فلما تسلطن أقره فى نظر البيمارستان المنصورى وكان ثقيل
السمع ثم عزل ولزم داره حتى مات.

▲ أمر النيل فى هذه السنة

: الماء القديم ستة أذرع وثلاثة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا ونصف ذراع.

وهى سنة أربع وثلاثين وثمانمئة.

ففىها توفي الأمير شهاب الدين أحمد الدوادر نائب الإسكندرية المعروف بابن الأقطع بعد
أن قدم القاهرة مريضًا فى يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة.

وكان أبوه أوجاقيا فى الإسطبل السلطانى وقيل بل كان أقطع يتكسب بالتكدي وهو
الأقرب.

ونشأ ابنه أحمد هذا تبعًا عند بعض الأجناد ثم ترقى حتى خدم جنديًا عند جماعة من
الأمراء إلى أن صار دوادارًا ثانيًا عند الأمير على باى المؤيدى.

ثم اتصل بخدمة الملك الأشرف وصار عنده دوادارًا فلما تسلطن جعله من جملة
الدوادرية الصغار.

واختص بالسلطان ونالته السعادة ثم أمره عشرة وجعله زردكاشًا كبيرًا ثم نقله إلى نيابة
الإسكندرية بعد عزل أقبغا التمرازى فلم تطل مدته ومات بعد مرض طويل.

ولم أدر لأى معنى كانت خصوصية أحمد هذا وعلى بن فحيمة السلاخورى بالسلطان مع
ما اشتمل عليه من الجهل المفرط وقبح الشكالة ودناوة الأصل.

وكان على السلاخورى يبدل القاف بالهمزة كما هى عادة أوباش الناس من العامة وكان
أحمد إذا تكلم أيضًا يتلغظ بالفاظ العامة السوقية.

وقد جالسته بالخدمة السلطانية كثيرًا فلم أجد له معرفة بفن من الفنون ولا علم من
العلوم.

وكان إذا أخذ يتلاطف ويتذوق يصحف ويقول: بتسردشى فأعرفه فيما بينى وبينه بأنه
يقول: تسرت وأوضح له أنها تصحيفة تشرب فيفهمها بعد جهد كبير.

ثم إذا طال الأمر ينساها ويقولها أيضًا بالبدال وأظنه دام على ذلك إلى أن مات.

ومع هذا كان فى نفسه أمور وله دعاوى بالعرفان والتعقل لا سيما إذا تمثل بأمثال
العامة السافلة فيتعجب من ذلك الأتراك ويثنى على ذوقه ومعرفته وغزير علمه وحسن
تأديه فى الخطاب وأولهم السلطان الملك الأشرف برسباى فإنه كان كثيرًا ما يقتدى

برأيه وبفاته في الكلام فيكلم أحمد في أمور المملكة بكلام لا يعرف هو معناه ويسكت من عداه من أرباب الدولة والمعرفة فأذكر أنا عند ذلك قول أبي العلاء المعري حيث قال: الطويل فوا عجبًا كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفاكم يدعي النقص فاضل وتوفي الشيخ الإمام العالم المفسن مجد الدين إسماعيل بن أبي الحسن علي بن عبد الله البرماوي الشافعي في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الآخر عن أربع وثمانين سنة.

وكان إمامًا في الفقه والعربية والأصول وعدة فنون وتصدى للإقراء والتدريس عدة سنين.

وتوفي صاحب الوزير تاج الدين عبد الرزاق بن إبراهيم بن الهيصم في يوم الخميس العشرين من ذي الحجة بعدما ولي الوزارة والأستادارية ونظر ديوان المفرد مرارًا عديدة.

وهو من بيت كبير في الكتبة قيل إنهم من فرية المقوقس صاحب مصر قبل الإسلام والله أعلم.

وتوفي الشيخ سراج الدين عمر بن منصور البهاري الفقيه الطيب الحنفي في يوم السبت ثاني عشر شوال بعدما برع في الفقه والنحو وانتهت إليه الرئاسة في الطب وناب في الحكم عن القضاة الحنفية بالقاهرة.

ومات ولم يخلف بعده مثله في التقدم في علم الطب وامتونه.

وتوفي القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن إسماعيل المعروف بابن الظريف أمين الحكم بالقاهرة في يوم السبت خامس شوال عن نحو ستين سنة ش ركان معدودًا من بياض الناس.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وثلاثة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا.

وكان الوفاء ثامن عشرين أيب مسرى بيومين وهذا من خرق العادة فسبحانه يفعل ما يشاء وبحكم ما يريد.

السنة الحادية عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة خمس وثلاثين وثمانمائة.

فيها توفي القاضي شرف الدين عيسى بن محمد بن عيسى الأقفهسي الشافعي أحد عظماء نواب الحكم بالديار المصرية في ليلة الجمعة سادس عشرين.

جمادى الآخرة.

ومولده في سنة خمسين وسبعمائة وكان إمامًا فقيهاً بارعًا في الفقه وفروعه مشاركًا في عدة فنون.

وتولى الحكم عن قاضي القضاة عماد الدين الكركي في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وشكرت سيرته وحمدت طريقته لتحريره في الأحكام ولعفته عما يرمى به قضاة السوء.

ولقد شاهدت منه من التثبت في أحكامه ما لم أشاهده من قضاة زماننا رحمه الله تعالى.

وتوفي السلطان حسين بن علاء الدولة ابن السلطان أحمد بن أويس قتيلاً بيد الكافر أصبهان بن قرا يوسف التركماني في ثالث صفر بعد أن حصره سبعة أشهر حتى أخذه وقتله.

وانقرضت بقتله دولة بني أويس الأتراك من العراق وصار عراقا العرب والعجم بيد إسكندر بن قرا يوسف وإخوته وهم كانوا سبباً لخراب تلك الممالك التي كانت كرسى الإسلام ومنيع العلوم أعني بني قرا يوسف.

وتوفي القاضي شهاب الدين أحمد ابن القاضي صلاح الدين صالح بن أحمد بن عمر المعروف بابن السفاح الحلبي الشافعي كاتب سر حلب ثم كاتب سر مصر وبها مات في ليلة الأربعاء رابع عشر شهر رمضان عن ثلاث وستين سنة بعد أن باشر فيها كتابة سر حلب سنين عديدة بعد أخيه وأبيه.

وصار لشهاب الدين هذا رئاسة بحلب وتمكن فلما ولي كتاب سر مصر ابتلعه المنصب ولم يظهر لمباشرته نتيجة وانحط قدره في الدولة بحيث إن المصريين صاروا يسخرون منه لأنه كان يكلم نفسه في حال ركوبه بين الناس في الشوارع وفي جلوسه أيضاً بين الملأ بكلام كثير ويغضب بعض الأحيان من نفسه ويشير بالضرب بيده ولسانه من غير أن يفهم أحد كلامه وكان يقع ذلك منه حتى في الصلاة.

ومع هذا كان فيه بعض حدة ونزاقة مع دين وعفة وصيانة مع أنه كانت بضاعته من العلوم مزجاة وخطه في غاية القبح ويظهر من كلامه عدم ممارسته للعلوم.

ووقع بينه وبين قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن العز البغدادي الحنبلي مفاوضة في بعض مجالس السلطان لمعنى من المعاني فكان من جملة كلام ابن السفاح هذا أن قال: ربع الوقف وشدد الياء فقال عز الدين المذكور: اسكت يا مرماذ فضحك السلطان ومن حضر وانتصف عليه الحنبلي.

فلما نزل من القلعة سألت من عز الدين عن قوله مرماذ فقال: الأتراك كثيراً ما يلعبون الشطرنج وقد صار بينهم أن الذي لا يعرف شيء يسمى مرماذ فقصدت الكلام بما اعتادوه وعرفتهم أنه لا يعرف شيئاً وأنه جاهل بما يقول وتم لي ما قصدته.

ولما مات ابن السفاح تولى كتابة السر من بعده الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ.

ومع عدم أهلية الصاحب كريم الدين لهذه الوظيفة نتج.

فيها أمره وهابته الناس ونفذ الأمور أحسن من ابن السفاح.

وتوفي قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التفهني الحنفي وهو غير قاض في ليلة الأحد ثامن شوال بعد مرض.

ومولده في سنة أربع وستين وسبعمائة ونشأ فقيراً مملقاً واشتغل حتى برع في الفقه والأصول والعربية وشارك في فنون وأفتى ودرس وناب في الحكم سنين كثيرة ثم استقل بوظيفة القضاء.

ولم تشكر سيرته في ولايته لحدة كانت فيه وسوء خلقه مع القيام في حظ نفسه وقصته مشهورة مع الميموني لما كفره التفهني هذا وحكم بإراقة دمه في الملاء بالمدرسة الصالحة.

ولما حكم بإراقة دم الميموني المذكور أراد من ابن حجر أن ينفذ حكمه فقال ابن حجر: قاضي القضاة منغاط حتى يسكن خلقه.

وانفض المجلس وتلاشى حكم التفهني.

وعاش الميموني بعد ذلك دهرًا بعد أن أوسعه الميموني إساءة في المجلس وهو يقول له: اتق الله يا عبد الرحمن أو نسيت قبقابك الزحاف وعمامتك القطن والتفهني يصفر ويكرر حكمه بإراقة دمه.

وكان سبب إبقاء الميموني في هذه القضية أنه شهد بعض الحكماء أنه يعتربه شيء في عقله في الأوقات فأبقي لذلك وكان أيضًا للناس فيه اعتقاد فإنه يكثر التلاوة ولقراءته موقع في النفوس وعلى شيبته نور ووقار وأنا ممن كان يعتقد أنه انتهى.

وتوفي جينوس بن جاك بن بيدو بن أنطون بن جينوس متملك قبرس وصاحب الواقعة مع المسلمين وقد تقدم ذكر غزوه والظفر به وقدمه إلى مصر في أوائل هذا الجزء مفصلًا ثم ذكر وتوفي صاحب علم الدين يحيى المعروف بأبي كم القبطي في ليلة الخميس ثاني عشرين شهر رمضان وقد أناف على السبعين سنة بعد أن ولي الوزارة في دولة الملك الناصر فرج.

وكان قد حسن إسلامه وترك معاشرته النصارى وحج وجاور بمكة وصار يكثر من زيارة الصالحين الأحياء والأموات وانسلخ من أبناء جنسه انسلاخًا كليًا بحيث إنه كان لا يجتمع بنصراني إلا عن ضرورة عظيمة وكان دأبه الأفعال الجميلة رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم لم يظهر فإنها حولت هذه السنة إلى سنة ست وثلاثين وثمانمائة.

السنة الثانية عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ست وثلاثين وثمانمائة.

فيها كانت سفرة السلطان الملك الأشرف هذا إلى آمد وعاد في أوائل سنة سبع وثلاثين وقد تقدم ذكر ذلك كله.

وفيها توفي قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد الأموي المالكي بدمشق في يوم الثلاثاء حادي عشر صفر وكان ولي في دولة الملك المؤيد شيخ قضاء المالكية بالديار المصرية وتوفي التاجر نصر الدين علي بن جلال الدين محمد الطنبيذ في ليلة الجمعة رابع عشر صفر عن سبعين سنة وترك مالا كبيرًا لم يبارك الله فيه لذريته من بعده.

ولم يشهر نور الدين هذا بكرم ولا دين ولا علم.

وتوفي الأمير علاء الدين منكلي بغا الصلاحي الظاهري المعروف بالعجمي أحد الحجاب بالديار المصرية في ليلة الخميس حادي عشر شهر ربيع الأول بعد مرض طال به سنين وكان أحد الدوادارية الصغار في أيام أستاذه الملك الظاهر برقوق وتوجه رسولًا إلى

تيمورلنك في دولة الملك الناصر فرج ثم ولي حسبة القاهرة في دولة الملك المؤيد شيخ ثم صار من جملة الحجاب إلى أن مات.

وكان فقيهاً صاحب محاضرة حلوة ومجالسة حسنة ويذاكر بالشعر باللغات الثلاث: العربية والعجمية والتركية ويكتب الخط المنسوب ويحضر مجالس الفقراء ويرقص فى السماع ويميل إلى التصوف جالسته كثيرًا وأسعدت من محاسنه رحمه الله.

وتوفي الأمير تغري بردي بن عبد الله المحمودي الناصري رأس نوبة النوب أولاً ثم أتاك دمشق آخرًا من جرح أصابه في رجله بسهم من مدينة آمد مات منه بعد أيام قليلة بآمد.

مات في شوال ودفن بآمد ثم نقل منها في سحلية عند رحيل العسكر وساروا به إلى الرها فدفن بها لمشقة نالت العساكر من ظهور رائحته.

وكان أصله من مماليك الملك الناصر فرج وممن تأمر في دولة أستاذه فيما أظن.

ثم انضم إلى الأمير نوروز الحافظي بعد موت أستاذه إلى أن أمسكه الملك المؤيد شيخ وحبسه بعد قتل نوروز فدام في السجن سنين إلى أن أخرجه المؤيد في أواخر دولته.

فلما آل الأمر إلى الأمير ططر أنعم عليه بإمرة طبلخانة ثم نقل إلى مقدمة ألف بعد موت ططر.

ثم صار رأس توبة النوب بعد الأمير أزيك المحمدي بحكم انتقال أزيك إلى الدوادارية الكبرى بعد ولاية سودون من عبد الرحمن لنيابة دمشق عندما خرج تنبك البجاسي عن الطاعة.

كل ذلك في سنة ست وعشرين وثمانمائة.

ودام المحمودي على ذلك سنين سافر فيها أمير حاج المحمل وقدم بالشريف حسن بن عجلان ثم توجه إلى غزوة قبرس وقدم بملكها أسيرًا.

وقد تقدم ذكر ذلك كله في أول هذا الجزء.

ثم بعد عوده من قبرس بمدة يسيرة أمسكه السلطان وحبسه بسجن الإسكندرية ثم نقله إلى ثغر دمياط بطالاً ثم أنعم عليه بأتابكية دمشق عوضاً عن قاني باي الحمزاوي بحكم انتقال الحمزاوي إلى مقدمة ألف بمصر.

ثم سافر المحمودي صحبة السلطان إلى آمد فأصيب بسهم فمات منه حسبما ذكرناه.

وكان أميرًا جليلاً شجاعاً مقدامًا طوالاً رشيقيًا مليح الشكل كثير التجمل في ملبسه ومركبه ومماليكه وهو أول من لبس التخافيف الكبار العالية من الأمراء وتداول الناس ذلك من بعده حتى خرجوا عن الحد وصارت التخفيفة الآن تلف شبه الكلفتاه وتوفي الأمير سيف الدين سولحون بن عبد الله الظاهري المعروف بسودون ميق أحد أمراء الألوف بالديار المصرية من جرح أصابه بآمد من سهم من مدينتها لزم منه الفراش أيامًا ومات أيضًا في أواخر شوال.

وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق الصغار وصار خاصكيًا ومن جملة الدوادارية في دولة الملك المؤيد شيخ ثم ترقى إلى أن صار من جملة أمراء الطبلخانات ورأس نوبة ثم

نقل إلى الأمير آخورية الثانية كل ذلك في دولة الملك الأشرف برسباي فدام على ذلك سنين إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف فاستمر على ذلك إلى أن مات.

وكان متوسط السيرة في غالب خصاله لا بأس به رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الحمزاوي بعد أن ولي نيابة غزة فمات قبل أن يصلها في عوده من آمد في ذي الحجة.

وكان أصله من مماليك الأمير سودون الحمزاوي الدوادار الكبير في الدولة الناصرية ثم تنقل في الخدم من بعد أستاذه إلى أن ولي نيابة بعض القلاع بالبلاد الشامية ولما خرج قاني باي نائب الشام وانضم معه غالب نواب البلاد الشامية كان جانبك هذا ممن انضم عليه وهرب بعد مسك قاني باي مع من هرب من الأمراء إلى قرا يوسف ثم قدم أيضًا معهم على الأمير ططر بدمشق فأنعم عليه ططر بإمرة بدمشق ثم صار حاجب حجاب طرابلس مدة سنين ثم نقل إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية وسافر صحبة السلطان إلى آمد وبعد عوده خلع السلطان عليه بحلب بنيابة غزة عوضًا عن الأمير إينال العلاني الناصري المنتقل إلى نيابة الرها لكونها كانت خرابًا ليس بها ما يقوم بكلفته وقد حكينا ذلك فيما سبق.

وكان جانبك هذا ممن اتهم بأنه يريد الوثوب على السلطان فلما وصل السلطان إلى حلب أقره في نيابة غزة على كره منه فهز رأسه وأمسك لحيته بعد لبسه الخلعة وبلغ الأشرف ذلك على ما قيل فقال: حتى يصل إلى غزة فمات حول بعلبك.

وكان شيخًا طويلاً مشهورًا بالشجاعة غير أني لم أعرف منه إلا الإسراف على نفسه والانهماك في السكر.

وأما لفظه وعبارته ففي الغاية من الجهل والإهمال.

ومن ركوبه على الفرس كنت أعرف أنه لم يمارس أنواع الفروسية كالرمح والبرجاس وغيره.

وبالجملة فإنه كان من المهملين وقد خفف الله بموته عفا الله عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين تنبك بن عبد الله من سيدي بك الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة المعروف بالبهلوان من جرح أصابه بآمد في شوال أيضًا بها.

وكان عارقًا بفرن الصراع من الأقوياء في ذلك مع تكبر وشمم وادعاء زائد.

وقد حكى لي عنه بعض أصحابه أنه كان إمامًا في فن الصراع ويجيد لعب الرمح لا غير وليس عنده من الشجاعة والإقدام بمقدار وتوفي الملك الأشرف شهاب الدين أحمد ابن الملك العادل سليمان ابن الملك المجاهد غازي ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الأوحى عبد الله ابن الملك المعظم توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ابن السلطان الملك الكامل محمد صاحب مصر ابن السلطان الملك العادل أبي بكر صاحب مصر ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الأيوبي صاحب حصن كيفا قتيلاً بيد أعوان قرايلك بين آمد والحصن وقد سار من بلده حصن كيفا يريد القدوم على السلطان الملك الأشرف برسباي على آمد فقتل في طريقه غدراً فإنه كان خرج من الحصن بغير استعداد لقتال وإنما تهيأ للسلام

على الملك الأشرف وبينما هو في طريقه أدركته بعض الصلوات فنزل وتوضأ وقام في صلاته وإذا بالقرابلية طرقوه هو وعساكره بغتة وقبل أن يركب أصابه سهم قتل منه. ووجد السلطان الملك الأشرف عليه كثيرًا وتأسف لموته.

وكان ابتداء ملكه بحسن كيفما بعد موت أبيه العادل في سنة سبع وعشرين وثمانمائة. وكان فاضلاً أديباً بارعاً وله ديوان شعر ووقفت على كثير من شعره وكتبت منه نبذة كبيرة في ترجمته في المنهل الصافي.

وتولى بعده سلطنة الحصن ابنه الملك الكامل صلاح الدين خليل.

وتوفي القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن أفتكين الدمشقي كاتب سر دمشق بها في ذي القعدة.

وتولى كتابة السر من بعده القاضي نجم الدين يحيى ابن المدني ناظر جيش حلب.

قلت: لا أعرف من أحوال تاج الدين هذا شيئاً غير أنني علمت بولايته ثم بوفاته.

وتوفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن غلام الله بن أحمد بن محمد الكوم ريشي في سادس عشرين شهر صفر وقد أناف على خمسين سنة.

وكان أستاذًا في علم الميقات ويحل التقويم من الزيج ويشارك في أحكام النجوم ومات ولم يخلف بعده مثله في فنونه رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وثلاثة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا وخمسة أصابع.

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة سبع وثلاثين وثمانمائة.

وفيهما توفي الأمير سيف الدين مقبل بن عبد الله الحسامي الدوادار نائب صفد بها في يوم الجمعة تاسع عشرين شهر ربيع الأول.

وأصله من مماليك شخص يسمى حسام الدين لاجين من أمراء دمشق والبلاد الشامية ثم خدم عند الملك المؤيد شيخ أيام إمرته فاخص به لغزير محاسنه ولما تسلطن المؤيد جعله خاصكيًا رأس نوبة الجمدارية وحج على تلك الوظيفة.

ثم بعد قدومه أنعم عليه بإمرة عشرة ثم جعله أمير طبلخاناه ودوادارًا ثانيًا بعد جقمق الأرغون شاوي بحكم انتقال جقمق إلى الدوادارية الكبرى بعد انتقال أقباي المؤيدي إلى نيابة حلب بعد عصيان إينال الصلاني.

ثم بعد سنين نقله إلى الدوادارية الكبرى بعد جقمق أيضًا بحكم انتقاله إلى نيابة الشام بعد عزل الأمير تنك ميقي وقدومه إلى القاهرة أمير مائة ومقدم ألف فدام مقبل على ذلك إلى أن مات الملك المؤيد وآل الأمر إلى الأميو ططر وأمسك قجقار القردي ففر مقبل المذكور من القاهرة ومعه السيفي يلخجا من مامش الساقى الناصري ومماليكه إلى جهة البلاد الشامية فعاقهم العربان أرباب الأدراك عن التوصل إلى قطيا وقاتلوهم بعد أن تكاثروا عليهم.

وكان مقبل من الشجعان فثبت لهم ولازال يقاتلهم وهو منهزم منهم إلى الطينة فوجدوا بها مركبًا فركبوا فيه وتركوا ما معهم من الخيول والأثقال أخذوها العرب وساروا في البحر إلى الشام.

واجتمع مقبل مع الأمير جقمق وصار مع حزبه ووقع له أمور ذكرناها في ترجمة الملك المظفر أحمد إلى أن آل أمره أنه أمسك وحبس ثم أطلق وولي حجوبية دمشق.

ثم نقله الملك الأشرف إلى نيابة صفد بعد عصيان نائبها الأمير إينال الظاهري ططر فاستمر في نيابة صفد إلى أن مات.

وكان رومي الجنس شجاعًا مقدامًا رأسًا في رمي النشاب يضرب برميهِ المثل.

وكان أستاذه الملك المؤيد يعجب به وناهيك بمن كان يعجب الملك المؤيد به من المماليك.

وتوفي قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن محمود بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن أبي العز الدمشقي الحنفي المعروف بابن كَشْك بدمشق في ليلة الخميس سابع شهر ربيع الأول بعد أن ولي قضاء الحنفية بدمشق سنين كثيرة وجمع بينها وبين نظر الجيش بدمشق في بعض الأحيان وطلب لكتابة سر مصر فأبى وامتنع واستعفى من ذلك حتى أَعْفَى.

وكان من أعيان أهل دمشق في زمانه ولم يكن في الشاميين من يدانيه في العراقة والرئاسة.

وقد رشح بعض أجداده من بني العز لخطابة جامع تنكز عندما عمره تنكز وهم بيت علم وفضل ورئاسة ليس بالبلاد الشامية من هو أعرق منهم غير بني العديم الحلبيين ثم بعد بني العز هؤلاء بنو البارزي الحمويون انتهى.

وتوفي قاضي القضاة جمال الدين محمد بن علي بن أبي بكر الشيباني الشافعي المكي قاضي قضاة مكة وشيخ الحجة باب الكعبة بها في ليلة الجمعة ثامن عشرين شهر ربيع الأول عن نحو سبعين سنة وهو قاض.

وكان خيرًا دينًا مشكور السيرة سمحًا متواضعًا بارعًا في الأدب وله مشاركة جيدة في التاريخ وغيره لما رآه فإنه كان رحل إلى اليمن وغيره وجال في البلاد رحمه وتوفي الأمير سيف الدين أقبغا بن عبد الله الجمالي الأستاذار وهو يلي كشف البحيرة قتيلًا بيد العرب في واقعة كانت بينه وبينهم في حادي عشرين شهر ربيع الآخر.

وكان أصله من مماليك الأمير كمشبغا الجمالي أحد أمراء الطبلخانات المقدم ذكره في سنة ثلاث وثلاثين وكان يسافر إلى إقطاعه.

ثم تعانى البلص ولا زال يترقى إلى أو ولي الكشف بعدة أقاليم.

ثم ولي الأستاذارية مرتين حسبما تقدم ذكره.

كل ذلك في حياة أستاذه كمشبغا الجمالي.

ونكب في ولايته الثانية وامتنح وضرب وصور.

ثم سافر مع الملك الأشرف إلى آمد فظهر منه هناك شجاعة وإقدام في قتال القرايلكية فأنعم عليه السلطان بإقطاع تنبك البهلوان بعد موته ثم ولاه بعد قدومه إلى مصر كشف الوجه القبلي ثم نقله إلى كشف الوجه البحري فقتل هناك.

وكان وضيغًا من الأوباش لا يشبه فعله أفعال المماليك في حركاته وسكونه ولا في قتاله.

على أنه كان مشهورًا بالشجاعة وشجاعته كانت مشتركة بجنون وسرعة حركة.

وكان أهوج قليل الحشمة ليس عليه رونق ولا أبهة وكان إذا تكلم يكرر في كلامه اسم دا غير مرة بحيث إنه كان يتكلم الكلمة الواحدة ثم يقول اسم دا وفي الجملة أنه كان من الأوغاد ولولا أنه ولي الأستادارية ما ذكرته في هذا الكتاب ولا غيره.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين جارقطلو بن عبد الله الظاهري أتاك العساكر بالديار المصرية ثم كافل المملكة الشامية بها في ليلة الاثنين تاسع عشر شهر رجب وهو في عشر السبعين.

وأصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ومن إنيات سودون المارداني.

وتأمر في الدولة الناصرية ثم ولي في الدولة المؤيدية نيابة حماه ثم نيابة صفد.

ثم أعاده الأمير ططر إلى نيابة حماه ثانيًا بعد إنيته تنبك البجاسي لما نقل إلى نيابة طرابلس فدام بحماه إلى أن نقله الملك الأشرف إلى نيابة حلب بعد إنيته تنبك البجاسي أيضًا لما نقل تنبك إلى نيابة الشام بعد موت تنبك ميق فدام جارقطلو في نيابة حلب إلى أن عزله الملك الأشرف واستقدمه إلى القاهرة أمير مائة ومقدم ألف ثم خلع عليه باستقراره أمير مجلس.

ثم نقله إلى الأنابكية بالديار المصرية بعد موت الأمير يشبك الساقى الأعرج فدام على ذلك سنين إلى أن ولاه الملك الأشرف نيابة دمشق بعد عزل سودون من عبد الرحمن عنها واستقر سودون من عبد الرحمن أتابكًا عوضه فاستمر على نيابة دمشق إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره.

وكان أميرًا جليلاً مهذبًا شهيمًا متجملًا في جميع أحواله.

وكان قصيرًا بطيئًا أبيض الرأس واللحية وفيه دعابة وهزل مع إسراف على نفسه.

وسيرته مشكورة في ولايته.

قلت: كان ظلمه على نفسه لا على غيره والله تعالى يسامحه بمنه وكرمه.

وكان له خصوصية زائدة عند الملك الأشرف برسباي بحيث إنني سمعته مرارًا يبالي في شيء لا يفعله بقوله: لو سألني جارقطلو في هذا ما فعلته.

وكان إذا جلس قاضي القضاة بدر الدين العيني عند السلطان في ليالي الخدم وأخذ في قراءة شيء من التواريخ يشير إليه السلطان بحيث لا يعلم جارقطلو فينتقل بما هو فيه إلى شيء من الوعظيات وبأخذ في التشديد على شربة الخمر وما أشبه ذلك وبيالغ في حقهم والأشرف أيضًا يهول الأمر ويستغفر فإذا زاد عن الحد يقول جارقطلو: يا قاضي ما

تذكر إلا شربة الخمر وتبالغ في حقهم بأنواع العذاب ليس ما تذكر القضاة وأخذهم الرشوة والبراطيل وأموال الأيتام ."

يقول ذلك بحدة وانحراف حلو.

فلما يسمع الملك الأشرف كلامه يضحك وينبسط هو وجميع أمرائه وكان يقع له أشياء كثيرة من ذلك انتهى.

وتوفي السيد الشريف رميثة بن محمد بن عجلان مقتولاً خارج مكة في خامس رجب بعد أن ولي إمرة مكة في بعض الأحيان فلم تحمد سيرته وعزل.

وتوفي الشيخ الإمام الأديب الشاعر المفنن تقي الدين أبو بكر بن علي بن حجة بكسر الحاء المهملة الحموي الحنفي الشاعر المشهور صاحب القصيدة البديعية وشرحها وغيرها من المصنفات.

مات بحماه في خامس عشرين شعبان ومولده سنة سبع وسبعين وسبعمئة.

وكان أحد ندماء الملك المؤيد وشعرائه وأخصائه وولي إمامة عدة وظائف دينية وعظم في الدولة ثم خرج من مصر بعد موت الملك المؤيد إلى مدينة حماه واستوطنها إلى أن مات بها.

وكان بارعاً في الأدب ونظم القريض وغيره من ضروب الشعر مفتحاً لا يجحد فضله إلا حسود ومن شعره مضمناً مع حسن التورية: الرجز سرنا وليل شعره منسدل وقد غدا بنو منا مضفراً فقال صبح ثغره مبتسماً عند الصباح يحمد القوم السرى وله عفا الله عنه: الخفيف في سويداء مقلة الحب نادى جفنه وهو يقنص الأسد صيدا لاتقولوا ما في السويدا رجال فأنا اليوم من رجال سويدا قلت: وهذا بعكس ما قاله ابن نباتة والصلاح الصفدي فقول ابن نباتة: السريع من قال بالمرء فإني امرؤ إلى النسا ميلي ذوات الجمال ما في سويدائي إلا النسا ما حيلتي ما في السويدا رجال وقول الصفدي: المقلة الكحلأ أجفانها ترشق في وسط فؤادي نبال وتقطع الطرق على سلوتي حتى حسينا في السويدا رجال فصرت من خصره وريقته أهيم بين الفرات والرقه ومما كتب إليه قاضي القضاة صدر الدين علي بن الأدمي الحنفي مضمناً لشعر امرئ القيس: الطويل أحن إلى تلك السجايا وإن نأت حنين أخي ذكرى حبيب ومنزل وأذكر ليالات بكم قد تصرمت بدار حبيب لا بدارة جلجل شكوت إلى الصبر اشتياقي فقال لي: ترفق ولا تهلك أسى وتجمل فقلت له: إني عليك معول وهل عند ريع دارس من معول فأجابه الشيخ تقي الدين بن حجة المذكور بقوله: سرت نسمة منكم إلي كأنها بريح الصبا جاءت برياً القرنفل فقلت لليلي مذ بدا صبح طرسها: ألا أيها الليل الطويل ألا انجل ورق فتأشعار امرئ القيس عندها كجلمود صخر حطه السيل من عل فقلت: قفا نضحك لرقتها على قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل وتوفي ملك الغرب وسلطانها أبو فارس عبد العزيز المتوكل ابن أبي العباس أحمد بن محمد بن ذي الحجة عن ست وسبعين سنة بعد أن خطب له بقابس وتلمسان وما والاها من المدن والقرى إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وأياماً.

وكان خير ملوك زمانه شجاعة ومهابة وكرمًا وجودًا وعدلًا وحزمًا وعزمًا ودينًا وقام من بعده في الملك حفيده المنتصر أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي فارس المذكور.

وتوفي سلطان بنجاله من بلاد الهند جلال الدين أبو المظفر محمد بن فنودو وكان فنودو يعرف بكاس.

كان أبوه فنودو المذكور كافرًا فأسلم جلال الدين هذا وحسن إسلامه وبنى الجوامع والمساجد وعمر أيضًا ما خرب في أيام أبيه من المدن وأقام شعائر الإسلام وأرسل بمال إلى مكة وبهدية إلى مصر وطلب من الخليفة المعتضد بالله أبي الفتح داؤد تقليدًا بسلطنة الهند فبعث إليه الخليفة الخلة والتشريف مع بعض الأشراف فوصلت الخلة إليه ولبسها ودام بعدها إلى أن مات وأقيم بعده ولده المظفر أحمد شاه وعمره أربع عشرة سنة.

وتوفي صاحب بغداد شاه محمد بن قرا يوسف بن قرا محمد في ذي الحجة مقتولًا على حصن من بلاد القان شاه رخ بن تيمورلنك يقال له شنكان وأقيم بعده على ملك بغداد أميره علي ابن أخي قرا يوسف.

وكان شاه محمد المذكور رديء العقيدة يميل إلى دين النصرانية قبحه الله ولعنه وأبطل شعائر الإسلام من دار السلام وغيرها بممالكه وقتل العلماء وقرب النصارى ثم أبعدهم ومال إلى دين المجوس وأخرب البلاد وأباد العباد أسكنه الله سقر ومن يلوذ به من إخوته وأقاربه ممن هو على اعتقاده ودينه.

وتوفي الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن حسين بن عروة بن زكنون الحنبلي الزاهد الورع في ثاني جمادى الآخرة خارج دمشق وقد أناف على الستين سنة.

وكان فقيهاً عالمًا شرح مسند الإمام أحمد وكان غاية في الزهد والعبادة والورع والصلاح رحمه الله.

▲ أمر النيل في هذه السنة

: الماء القديم ستة أذرع وثلاثة أصابع.

مبلغ الزيادة.

سبعة عشر ذراعًا وسبعة عشر إصبعًا.

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة ثمان وثلانين وثمانمائة.

فيها توفي سلطان كبرجه من بلاد الهند شهاب الدين أبو المغازي أحمد شاه بن أحمد بن حسن شاه بن بهمن في شهر رجب بعد ما أقام في ملك كبرجه أربع عشرة سنة.

وتسلطن من بعده ابنه ظفر شاه واسمه أيضًا أحمد وكان السلطان شهاب الدين هذا من خير ملوك زمانه وله مآثر بمكة معروفة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين طرباي بن عبد الله الظاهري جقمق نائب طرابلس في بكرة نهار السبت رابع شهر رجب من غير مرض فجأة بعد صلاة الصبح وهو جالس

بمصلاؤه وقد تقدم من ذكره نبذة كبيرة في ترجمة الملك الصالح محمد بن ططر بما وقع له من جانبك الصوفي ثم مع الملك الأشرف حتى قبض عليه وحبسه بالإسكندرية مدة طويلة ثم أخرجه إلى القدس ثم ولاة نيابة طرابلس فدام به إلى أن مات.

وكان أميرًا ضخمًا جميلًا شهيرًا مقدمًا دينًا خيرًا معظمًا في الدول لم يشهر عنه تعاطي شيء من القاذورات غير أنه كان يقتحم الرئاسة وفي أمله أمور فمات قبلها.

وهو أحد أعيان المماليك الظاهرية برقوق ورؤوس الفتن في تلك الأيام وكان أكبر منزلة من الملك الأشرف برسباي قديمًا وحديثًا وكان بينهما صحبة أكيدة عرفها له الأشرف وأخرجه من السجن وولاه طرابلس ولو كان غيره ما فعل معه ذلك لما سبق بينهما من التشاحن على الملك انتهى.

وتوفي السلطان أميره إبراهيم بن القان معين الدين شاه رخ ابن الطاغية تيمورلنك كوركان صاحب شيراز في شهر رمضان.

وكان من أجل ملوك جغتاي وأعظمهم كان يكتب الخط المنسوب إلى الغاية في الخسن يقارب فيه ياقوتًا المستعصي ووجد عليه أبوه شاه رخ كثيرًا وكذلك أهل شيراز.

ثم في السنة أيضًا توفي أخوه باي سنقر بن شاه رخ بن تيمور صاحب مملكة كرمان في العشر الأول من ذي الحجة.

وكان باي سنقر ولي عهد أبيه شاه رخ في الملك وهو أشجع أولاد شاه رخ وأعظمهم إقدامًا وجبروتًا وهو والد من بقي الآن من ملوك جغتاي بممالك العجم وهم: بابور وعلاء الدولة ومحمد والجميع أولاد باي سنقر هذا تولى تربيتهم جدتهم كهرشاه خاتون لمحبتها لأبيهم باي سنقر دون جميع أولادها ولهذا المعنى كان قدمه شاه رخ على ولده ألوغ بك صاحب سمرقند كل ذلك لميل زوجته كهرشاه إليه على أن ألوغ بك أيضًا ولدها بكرها غير أنها ما كانت تقدم على باي سنقر أحدًا من أولادها انتهى.

وتوفي الشريف زهير بن سليمان بن ريان بن منصور بن جماز بن شيحة الحسيني في محاربة كانت بينه وبين أمير المدينة النبوية مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جماز بن شيحة في شهر رجب وقتل معه عدة من بني حسين.

وكان زهير المذكور من أقبح الأشراف سيرة كان خارجًا عن الطاعة وبخيف السبيل ويقطع الطريق ببلاد نجد والعراق وأرض الحجاز في جمع كبير فيه نحو الثلاثمائة فارس وعدة رماة بالسهام وأعيان الناس أمره إلى أن أخذه الله وأراح الناس منه.

وتوفي الحطي ملك الحبشة الكافر صاحب أمهرة من بلاد الحبشة وممالكه متسعة جدًا بعد أن وقع له مع السلطان سعد الدين صاحب جبرت حروب.

الماء القديم خمسة أذرع واثنان وعشرون إصبغًا.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا وثمانية عشر إصبغًا.

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة تسع وثلاثين وثمانمائة.

وفيها توفي ملك تونس من بلاد إفريقية بالمغرب السلطان المنتصر بالله أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي فارس عبد العزيز المقدم ذكره ابن أحمد الهنتاتي الحفصي في يوم الخميس حادي عشرين صفر بتونس.

وكان ملك بعد جده أبي فارس فلم يتهن بالملك لطول مرضه وكثرت الفتن في أيامه وعظم سفك الدماء إلى أن مات.

وأقيم في مملكة تونس من بعده أخوه شقيقه عثمان فقتل عدة من أقاربه وغيرهم.

وكان من خبر المنتصر أنه ثقل في مرضه حتى اقعد وصار إذا سار إلى مكان يركب في عمارة على بغل وتردد كثيرًا في أيام مرضه إلى قصره خارج تونس للنزهة به إلى أن خرج يومًا ومعه أخوه أبو عمرو عثمان المقدم ذكره وهو يوم ذاك صاحب قسطنطينة وقد قدم عليه الخبر وولاه الحكم بين الناس ومعه أيضًا القائد محمد الهلالي فصار لهما مرجع أمور الدولة بأسرها وحجبا المنتصر هذا عن كل أحد.

فلما صاروا معه في هذه المرة إلى القصر المذكور تركاه به وقد أغلقا عليه يوهمان أنه نائم ودخلا المدينة.

واستولى أبو عمرو عثمان المقدم ذكره على تخت الملك ودعا الناس إلى طاعته ومبايعته والهلالي قائم بين يديه.

فلما ثبت دولته قبض أيضًا على الهلالي وسجنه وغيبه عن كل أحد.

ثم التفت إلى أقاربه فقتل عم أبيه وجماعة كبيرة من أقاربه فنفرت عنه قلوب الناس.

وخرج عليه الأمير أبو الحسن ابن السلطان أبي فارس عبد العزيز متولي بجاية وحاربه ووقع له معه أمور يطول شرحها إلى أن مات أبو عمرو المذكور حسبما يأتي ذكره في محله وأما المنتصر فإنه قتل بعد خلعه بمدة وقيل مات من شدة القهر.

وفيها توفي قاضي القضاة الشريف ركن الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الحنفي الدمشقي المعروف بدخان قاضي قضاة دمشق بها في ليلة الأحد سابع المحرم وقد أناف على ستين سنة.

وكان فقيهاً حنيفاً ماهراً بارعاً في معرفة فروع مذهبه وله مشاركة في عدة فنون.

ونشأ بدمشق وبها تفقه وناب في الحكم ثم استقل بالقضاء بعد موت ابن الكشك وحمدت سيرته.

وهو ممن ولي القضاء بغير سعي ولا بذل ولو لم يكن من محاسنه إلا ذاك لكفاه فخراً مع عريض جاهه بالشرف.

وتوفي التاج بن سيفا الشويكي الدمشقي القازاني الأصل والي القاهرة في ليلة الجمعة حادي عشرين شهر ربيع الأول بالقاهرة وقد أناف على ثمانين سنة وهو فور على المعاصي والإسراف على نفسه وظلم غيره والتكلم بالكفریات.

وكان من قبائح الدهر ومن سيئات الملك المؤيد شيخ المحمودي لما اشتمل عليه من المساوىء وقد ذكر المقرئزي عنه أمورًا شنة واستوعبنا نحن أيضًا أحواله في ترجمته من تاريخنا المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي.

وكان من جملة ما قاله الشيخ تقي الدين المقرئزي رحمه الله في حقه: وكان وجوده عارًا على بني آدم قاطبة.

قلت: وهو من قبيل من قيل في حقه: الكامل قوم إذا صفع النعال قفاهم قال النعال: بأي ذنب نصفع وتوفي الأمير سيف الدين قصره بن عبد الله من تراز الظاهري نائب دمشق في ليلة الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر.

وكان أصله من ممالك الملك الظاهر برقوق من إنيات جرياش الشخي من طبقة الرفرف.

وترقى بعد موت استاذه الظاهر إلى أن صار من جملة أمراء العشرات.

ثم أمسكه الملك المؤيد وحبسه مدة ثم أطلقه في أواخر دولته.

ولما آل التحدث في المملكة للأمير ططر أنعم على قصره المذكور بإمرة مائة وتقدمة ألف ثم صار رأس نوب النوب ثم أمير آخور كبيرًا في أواخر دولة الملك الصالح محمد بن ططر ودام على ذلك سنين إلى أن نقله السلطان الملك الأشرف برسباي إلى نيابة طرابلس بعد عزل إينال النوروزي وقدمه القاهرة على إقطاع قصره المذكور واستقر في الأمير آخورية بعده الأمير جقمق العلاني.

فدام قصره على نيابة طرابلس سنين ثم نقل بعد سنين إلى نيابة دمشق بعد موت الأتابك جارقطلو أيضًا فدام في نيابة دمشق إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره.

وكان أميرًا عاقلًا مدبرًا سيوسًا معظمًا في الدول.

وهو أحد من أدركناه من عظماء الملوك ورؤسائهم.

وهو أحد من كان سببًا لسلطنة الملك الأشرف برسباي وأعظم من قام معه حتى وثب على الملك.

وهو أيضًا استاذ كل من يدعى بالقصري لأننا لا نعلم أحدًا سمي بهذا الاسم ونالته السعادة غيره.

وتولى بعده نيابة دمشق الأمير إينال الحكمي.

وتوفي الأمير فخر الدين عثمان المدعو قرايلك ابن الحاج قطلبك ويقال: قطبك ابن طرعلي التركي الأصل التركماني صاحب ماردن وأمد وأرزن وغيرها من ديار بكر في خامس صفر بعد أن انهزم من إسكندر بن قرا يوسف وقصد قلعة أرزن فحيل بينه وبينها فرمى بنفسه في خندق المدينة لينجو بمهجته فوقع على حجر فشق دماغه ثم حمل إلى أرزن فمات بها بعد أيام وقيل بل غرق في خندق المدينة.

ومات وقد ناهز المائة سنة من العمر فدفن خارج مدينة أرزن الروم فنبش إسكندر عليه وقطع رأسه وبعث بها إلى الملك الأشرف فطيف بها ثم وكان أصل أبيه من أمراء الدولة الأرتقية الأتراك ونشأ ابنه عثمان هذا بتلك البلاد ووقع له مع ملوك الشرق وقائع.

ثم اتصل بخدمة تيمورلنك وكان جاليشه لما قدم إلى البلاد الشامية في سنة ثلاث وثمانمئة.

وطال عمره ولقي منه أهل ديار بكر وملوكها شدائد لا سيما ملوك حصن كيفا الأيوبية فإنهم كانوا معه في ضنك وبلاء.

وتداول حروبه وشروره مع الملوك سنين طويلة وكان صبارًا على القتال طويل الروح على محاصرة القلاع والمدن يباشر الحروب بنفسه.

ومع هذا كله لم يشهر بشجاعة وكان في الغالب يهزم ممن يقاتله ثم يعود إليه غير مرة حتى يأخذه إما بالمصابرة أو بالغدر والحيلة.

وكذا وقع له مع القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس ومع بيرعمر حتى قتلها.

وفي الجملة فإنه كان من أشد الملوك غير أنه خير من بني قرا يوسف لتمسكه بدين الإسلام واعتقاده في الفقراء والعلماء.

ولما مات خلف عدة أولاد وأولاد الأولاد وهم إلى الآن ملوك ديار بكر وبينهم قتل وحروب تدوم بينهم إلى أن يفنوا جميعًا إن شاء الله تعالى.

وتوفي الشريف مانع بن عطية بن منصور بن جماز بن شيحة الحسيني أمير المدينة النبوية وقد خرج للصيد خارج المدينة في عاشر جمادى الآخرة.

وثب عليه الشريف حيدر بن دوغان بن جعفر بن هبة الله بن جماز بن منصور بن شيحة وقتله بدم أخيه خشرم بن دوغان أمير المدينة.

وتوفي الشيخ المسلك زين الدين أبو بكر بن محمد بن علي الخافي الهروي العجمي في يوم الخميس ثالث شهر رمضان بمدينة هراة في الوباء وكان أحد أفراد زمانه.

وخاف: قرية من قرى خراسان بالقرب من مدينة هراة قلت: وفي الشيخ زين الدين نادرة: وهي أنه عجمي واسمه أبو بكر وهذا من الغرائب ومن لم يستغرب ذلك يأت بعجمي يكون اسمه أبا بكر أو عمر سنياً كان أو شيعياً.

وتوفي القاضي بدر الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز أحد أعيان الفقهاء الشافعية ونواب الحكم المعروف بابن الأمانة في ليلة الثلاثاء ثالث عشر شعبان.

ومولده في سنة اثنتين وستين وسبعمائة تخميناً.

وكان فقيهاً بارعاً في الفقه والأصول والعربية كثير الاستحضر لفروع مذهبه وأفتى ودرس سنين وناب في الحكم مدة طويلة وشكرت سيرته وكان في لسانه مسكة تمنعه عن سرعة الكلام رحمه الله.

وتوفيت خوند جليان بنت يشبك ططر الجاركسية زوجة السلطان الملك الأشرف برسباي وأم ولده الملك العزيز يوسف في يوم الجمعة ثاني شوال بعد مرض طويل ودفنت بتربة السلطان الملك الأشرف بالصحراء خارج الباب المحروق.

كان الملك الأشرف اشتراها في أوائل سلطنته واستولدها ابنه الملك عبد العزيز يوسف فلما ماتت خوند الكبرى أم ولده محمد المقدم ذكرها تزوجها السلطان وأسكنها قاعة العواميد فصارت خوند الكبرى ونالتها السعادة.

وكانت جميلة عاقلة حسنة التدبير ولو عاشت إلى أن ملك ابنها لقامت بتدبير دولته أحسن قيام.

وتوفي أحمد جوكي ابن القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك في شعبان بعد مرض تمادي به عدة أيام فعظم مصابه على أبيه شاه رخ ووالدته كهرشاه خاتون فإنهما فقدا ثلاثة أولاد ملوك في أقل من سنة وهم: السلطان إبراهيم صاحب شيراز وباي سنقر صاحب كرمان المقدم ذكرهما في السنة الخالية وأحمد جوكي هذا في هذه السنة.

وتوفي السلطان ملك بنجاله من بلاد الهند الملك المظفر شهاب الدين أحمد شاه ابن السلطان جلال الدين محمد شاه بن فندوكاس في شهر ربيع الآخر.

وثب عليه مملوك أبيه كالمو الملقب مصباح خان ثم وزير خان وقتله واستولى على بنجاله وقد تقدم وفاة أبيه في سنة سبع وثلاثين وثمانمائة من هذا الكتاب.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم أحد عشر ذراعًا وعشرة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا ونصف ذراع.

السنة السادسة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي فيها كانت الواقعة بين الأمير خجا سودون أحد أمراء السلطان وبين الأتابك جانبك الصوفي وانكسر جانبك وأمسك قرمش الأعور الظاهري وكمشبا أمير عشرة وقتلا حسبما تقدم ذكرهما في ترجمة الملك الأشرف.

وكان قرمش المذكور من أعيان المماليك الظاهرية برقوق وترقى حتى صار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية.

وانضم على جانبك الصوفي أولًا وآخرًا.

وقبض عليه الملك الأشرف وحبسه بالإسكندرية ثم أطلقه وأرسله إلى الشام أمير مائة ومقدم ألف بها.

فلما عصى البجاسي صار من حزبه.

ثم اختفى بعد كسرة البجاسي إلى أن ظهر لما سمع بظهور جانبك الصوفي وانضم عليه وصار من حزبه إلى أن واقع خجا سودون وانكسر وقبض عليه.

وأما كمشبا أمير عشرة فإنه كان أيضًا من المماليك الظاهرية برقوق ومن جملة أمراء حلب.

فلما بلغه خروج جانبك الصوفي سار إليه وقام بنصرته.

وقد تقدم ذكره ذلك كله غير أننا نذكره هنا ثانيًا لكون هذا محل الكشف عنه والإخبار بأحواله.

وتوفي الشيخ الأديب زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن سليمان بن عبد الله المروزي الأصل الحموي المعروف بابن الخراط أحد موقعي الدست بالقاهرة وأعيان الشعراء في ليلة الاثنين أول المحرم بالقاهرة عن نحو ستين سنة ودفن من الغد.

وكان صاحبنا وأنشدنا كثيرًا من شعره.

لا والذي صاغ فوق الثغر خاتمه ما ذاك صدع بياض في عقائقه وإنما البرق للتوديع قبله أبقى به لمعة من نور بارقه وتوفي قاضي القضاة شمس الدين محمد ابن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بي محمود الدمشقي الحنفي المعروف بابن الكشك قاضي قضاة دمشق في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الأول بدمشق وقد تقدم ذكر وفاة أبيه في سنة تسع وثلاثين وثمانمائة من هذا الجزء.

وتوفي قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن محمد بن صلاح الشافعي المصري المعروف بابن المحمرة بالقدس على مشيخة الصلاحية في يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الآخر.

ومولده في صفر سنة تسع وستين وسبعمائة بالمقير خارج القاهرة وتكسب بالجلوس في حانوت الشهود سنين.

وكان فقيهاً بارعاً مفنناً كثير الاستحضار لفروع مذهبه وأفتى ودرس سنين وناب في الحكم وتولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء ثم قضاء دمشق ثم مشيخة الصلاحية بالقدس إلى أن مات.

وتوفي الأمير سيف الدين أرغون شاه بن عبد الله النوروزي الأعور أستاذار السلطان بدمشق بها في حادي عشرين شهر رجب وقد جاوز الستين سنة تخمينًا بعدما ولي الوزارة بالديار المصرية والأستادارية غير مرة.

وكان من الظلمة الفسقة كان شيخًا طوآلاً أعور فصيحًا وتوفي الأمير حمزة بك بن علي بك بن دلغادر مقتولًا بقلعة الجبل في ليلة الخميس سابع عشر جمادى الأولى.

وتوفي الأمير سيف الدين برد بك بن عبد الله الإسماعيلي الظاهري برقوق وهو يوم ذاك أحد أمراء العشرات في جمادى الأولى بالقاهرة.

وكان جعله الملك الأشرف أمير طبلخانة وحاجبًا ثانيًا ثم نفاه مدة ثم أعاده إلى القاهرة وأنعم عليه بإمرة عشرة.

وكان لا للسيف ولا للضيف يأكل ما كان ويضيق المكان.

وتوفي القاضي شمس الدين محمد بن يوسف بن صلاح الدمشقي المعروف بالحلاوي وكيل بيت المال في ليلة الخميس سادس شوال.

ومولده في سنة خمس وستين وسبعمائة بدمشق.

وقدم القاهرة واتصل بسعد الدين بن غراب ورشحه سعد الدين لكتابة السر.

ثم تردد لجماعة من الأكابر بعد سعد الدين وأخيه فخر الدين ابني غراب مثل بدر الدين الطوخي الوزير وغيره.

وكان حلو المحاضرة حسن المذاكرة مع قصر الباع في العلوم.

وكان كبير اللحية جدًا يضرب بطول لحيته المثل.

ولما مات سعد الدين بن غراب وأخوه فخر الدين ثم توفي الوزير بدر الدين الطوخي أيضًا قال فيه بعض شعراء العصر: البسيط إن الحلاوي لم يصحب أخا ثقة إلا محاشؤمه منهم محاسنهم فزاد الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر بأن قال: وابن الكويز وعن قرب أخوه ثوى والبدر والنجم رب اجعله ثامنهم قلت: يعني بابن الكويز صلاح الدين بن الكويز وبأخيه علم الدين وبالبدر بدر الدين بن محب الدين المشير وبالنجم القاضي نجم الدين عمر بن حجي.

وفي طول لحيته يقول صاحبنا الشيخ شمس الدين الدجوي من أبيات كثيرة أنشدني غالبها أضريت عن ذكرها لفحش الفاظها غير أنني أعجبتني منها براءتها: البسيط ظن الحلاوي جهلاً أن لحيته تغنيه في مجلس الإفتاء والنظر وأشعرتها طولاً قد اعتزلت بالعرض باحثة في مذهب القدر وتوفي الأمير قرقماس بن عذرا بن نعيم بن حيار بن مهنا في هذه السنة.

وتوفي الشيخ شاب الدين أحمد ابن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايمار بن عثمان بن عمر الأبوصيري الشافعي أحد مشايخ الحديث في ليلة الأحد ثامن عشرين المحرم.

وتوفي صاحب صنعاء اليمن الإمام المنصور نجاح الدين أبو الحسن علي ابن الإمام صلاح الدين محمد بن علي بن محمد بن علي بن منصور بن حجا بن يوسف الحسيني العلوي الشريف في سابع صفر بعد ما أقام في الإمامة بعد أبيه سنًا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأضاف إلى صنعاء وصعدة عدة من حصون الإسماعيلية أخذها منهم بعد حروب وحصار.

ولما مات قام من بعده ابنه الإمام الناصر صلاح الدين محمد بعهدة إليه فمات بعد ثمانية وعشرين يومًا فأجمع الزيدية بعده على رجل منهم يقال له صلاح بن علي بن محمد بن أبي القاسم وبايعوه ولقبوه بالمهدي وهو من بني عمرو عم الإمام المنصور.

قلت: والجميع زيدية بمعزل عن أهل السنة.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وثمانية عشر أصبعا مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا وستة أصابع.

السنة السابعة عشرة من سلطنة الأشرف برسباي وهي سنة إحدى وأربعين وثمانمائة.

فيها كانت وفاة الأشرف المذكور في ذي الحجة حسبما تقدم ذكره.

وفيها كان الطاعون بالديار المصرية.

وكان مبدؤه من شهر رمضان وارتفع في ذي القعدة في آخره.

ومات فيه خلائق من الأعيان والرؤساء وغيرهم لكنه في الجملة كان أضعف من طاعون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة.

وفيها توفي القاضي سعد الدين إبراهيم ابن القاضي كريم الدين عبد الكريم بن سعد الدين بركة ناظر الخاص الشريف وابن ناظر الخاص المعروف بابن كاتب حكم في يوم الخميس سابع عشر شهر ربيع الأول بعد مرض طويل وسنه دون الثلاثين سنة وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني من تحت القلعة ودفن عند أبيه بالقرافة.

وكان شابًا عاقلًا سيوسًا كريمًا مدبرًا.

ولي الخاص صغيرًا بعد وفاة أبيه فباشر بحرمة ونفذ الأمور وساس الناس وقام بالكلف السلطانية أتم قيام لا سيما لما سافر الملك الأشرف إلى آمد فإنه تكفل عن السلطان بأمور كثيرة تكلف فيها كلفة كبيرة.

كل ذلك وسيرته مشكورة إلا أنه كان منهمكًا في اللذات التي تهواها النفوس مع ستر وتجميل سامحه الله تعالى.

وتولى نظر الخاص من بعده أخوه الصاحب جمال الدين يوسف ابن القاضي كريم الدين عبد الكريم وهو مستمر على وظيفته مضافة لنظر الجيش وتديير الممالك إلى يومنا هذا إلى أن مات حسبما يأتي ذكره في مواطن كثيرة من هذا الكتاب وغيره إن شاء الله تعالى.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين جانبك بن عبد الله الصوفي الظاهري صاحب الوقائع والأهوال والحروب في يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر بديار بكر وقطعت رأسه وحملت إلى مصر وطيف بها على رمح ثم أقيت في قناة سراب.

وقد تقدم ذكر ذلك كله مفصلاً في مواضع كثيرة وما وقع للناس بسببه بالديار المصرية والبلاد الشرقية غير أننا نذكر هنا أصله كان أصله من ممالك الظاهر برقوق الصغار وترقى في الدولة الناصرية فرج إلى أن صار أمير مائة ومقدم ألف ثم ولاه الملك المؤيد رأس نوبة النوب ثم نقله بعد مدة إلى إمرة سلاح ثم أمسكه وحبسه إلى أن أطلقه الأمير ططر بعد موت المؤيد وأنعم عليه بإمرة وتقدمة ألف ثم خلع عليه باستقراره أمير سلاح بعد مسك قحقار القردمي ثم خلع عليه بعد سلطنته باستقراره أتاك العساكر بالديار المصرية ثم أوصاه الملك الظاهر ططر عند موته بتديير ملك ولده الملك الصالح محمد.

ومات الملك الظاهر ططر فصار جانبك المذكور نظام الملك ومدبر الممالك فلم يحسن التدبير ولا استمال أحدًا من أعيان خدائشيته من الأمراء فنفروا عنه الجميع ومالوا إلى الأمير طرباي وبرسباني حسبما ذكرنا ذلك كله مفصلاً ولا زالوا في التدبير عليه حتى خذلوه في يوم عيد النحر بعدما لبس آلة الحرب هو والأمير يشبك الجكمي الأمير أخور وأنزلوه من باب السلسلة بإرادته راکبًا وعليه آلة الحرب إلى بيت الأمير بيغا المظفري فحال دخوله إلى البيت قبض عليه وقيد وحمل إلى القلعة ثم إلى ثغر الإسكندرية بعد أن كان ملك مصر في قبضته وأمسك معه يشبك الجكمي أيضًا وحبس بثغر الإسكندرية كل ذلك في أواخر ذي الحجة من سنة أربع وعشرين.

وإدام جانبك في سجن الإسكندرية مكرمًا مبعلاً إلى أن حسن له شيطانه الفرار منه فأوسع الحيلة في ذلك حتى فر من سجنه في سنة سبع وعشرين وثمانمئة.

فعند ذلك حل به وبالناس بلاغ الله المنزل المتداول سنين عديدة ذهب فيها أرزاق جماعة وحبس فيها جماعة كثيرة من أعيان الملوك وضرب فيها جماعة من أعيان الناس وأماثلهم بالمقارع وجماعة كثيرة من الخاصكية أيضًا ضربوا بالمقارع والكسارات.

وأما ما قاساه الناس من كيس البيوت ونهب أقمشتهم وما دخل عليهم من الخوف والرجيف فكثير إلى الغاية ودام ذلك نحو العشر سنين فهذا ما حل بالناس لأجل هروبه.

وأما ما وقع له فأضعاف ذلك فإنه صار ينتقل من بيت إلى بيت والفحص مستمر عليه في كل يوم وساعة حتى ضاقت عليه الدنيا بأسرها وأراد أن يسلم نفسه غير مرة وقاسى أهوالاً كثيرة إلى أن خرج من مصر إلى البلاد الشامية وتوصل إلى بلاد الروم حسبما حكيناه.

وانضم عليه جماعة من التركمان الأمراء وغيرهم وقاموا بأمره أحسن قيام حتى استفحل أمره فغلب خموله وقلة سعادته تديبرهم واجتهادهم إلى أن مات.

وكان شجاعاً فارساً مفنئاً مليح الشكل رشيق القد كريماً رئيساً إلا أنه كان قليل السعد مخمول الحركات مخذولاً في حروبه.

حبس غير مرة ونفذ عمره على أقبح وجه ما بين حبس

وتوفي

▲ الأمير سيف الدين تمرار المؤيدي

نائب صفد ثم نائب غزة مخنوقاً بسجن الإسكندرية في ثالث عشرين جمادى الآخرة.

وكان أصله من مماليك الملك المؤيد شيخ وخاصيته وكان مقرراً عنده ثم تغير عليه لأمر اقتضى ذلك وضربه أخرجه إلى الشام على إقطاع هين بطرابلس.

ثم نقل بعد موت الملك المؤيد إلى إمرة بدمشق.

فلما كانت وقعة تنبك البجاسي وافقه على العصيان فلما ظفر الملك الأشرف بالبجاسي فر تمرار هذا واختفى مدة ثم ظفر به وسجن بقلعة دمشق ثم أطلق وأنعم عليه بإقطاع بها ثم نقله الأشرف إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق ثم أقره في نيابة صفد فلم تشكر سيرته ورمي بعظائم فعزله السلطان وولاه نيابة غزة عوضاً عن يونس الركني وانتقل يونس إلى نيابة صفد.

فلما ولي غزة أساء السيرة أيضاً وظلم وعسف وأفحش في القتل وغيره فطلبه السلطان إلى الديار المصرية وأمسكه وحبسه بالإسكندرية ثم قتله خنقاً ولا أعرف من أحوال تمرار غير ما ذكرته أنه مذموم السيرة كثير الظلم.

وتوفي الأمير جانبك بن عبد الله السيفي يلغا الناصري المعروف بالثور أحد أمراء الطيلخاناه والحاجب الثاني وهو يلي شد بندر جده بمكة في حادي عشر شعبان.

وكان أميراً ضخماً متجماً في مركبه وملبسه ومماليكه وهو الذي أخرج المسطبة التي كانت ببندر جدة التي كان من طلع عليها واستجار بها لم يؤخذ منها ولو كان ذنبه ما عسى أن يكون حتى ولو قتل نفساً وطلع فوقها لا يؤخذ منها.

وكانت هذه العادة قديمة بجدة فأخرج جانبك المذكور المسطبة المذكورة ووقع بينه وبين عرب تلك البلاد وقعة عظيمة قتل فيها جماعة.

إلى أن يقوم عنه والشيخ علاء الدين يكلمه في مصالح المسلمين ويعظه بكلام غير منمق خارج عن الحد في الكثرة والسلطان سامع له مطيع.

وكذلك لما سافر السلطان إلى آمد أول ما دخل إلى دمشق ركب إليه وزاره وسلم عليه فهذا شيء لم نره وقع لعالم من علماء عصرنا جملة كافية.

وهو أحد من أدركناه من العلماء الزهاد والعباد رحمه الله تعالى ونفعا بعلمه وبركته.

وتوفي الشيخ الإمام العالم العلامة علاء الدين علي بن موسى بن إبراهيم الرومي الحنفي في قدمته الثانية إلى مصر في يوم الأحد العشرين من شهر رمضان بالقاهرة.

وكان ولي مشيخة المدرسة الأشرفية المستجدة بخط العنبريين بالقاهرة ثم تركها وسافر إلى الروم ثم قدم بعد سنين إلى مصر ثانيًا وأقام بها إلى أن مات.

وكان بارعًا في علوم كثيرة محققًا بحتًا إمامًا في المعقول والمنقول.

تخرج بالشيخين: الشريف الخرجاني والسعد التفتازاني إلى أن برع وتصدى للإقراء والتدريس مدة طويلة.

ووقع له أمور طويلة مع فقهاء الديار المصرية وتعصبوا عليه وهو ينتصف عليهم وأبادهم لأنه كان عارفاً بعلم الجدل: كان يلزم أخصامه بأجوبة مسكتة ولهذا حط عليه بعض علماء عصرنا بأن قال: كان يفحش في اللفظ ولم ينسبه إلى جهل بل ذكر عنه العلم الوافر والفضل ما شهدت به الأعداء ولا أعلم فيه ما ينقصه غير أنه كان مستخفًا بعلماء مصر لا ينظر أحدًا منهم في درجة الكمال.

وكان مما يقطع به أخصامه في المباحث أنه كان حضر عدة مباحث بين الخرجاني والتفتازاني وغيرهما من العلماء وحفظ ما وقع بينهم من الأجوبة والأسئلة وصار يسأل الناس بتلك.

الأسئلة والقوم ليس فيهم من هو في تلك الطبقة فكل من سأل سؤالاً من ذلك وقف وعجز عن الجواب المرضي وقصر فيتقدم عند ذلك الشيخ علاء الدين ويذكر الجواب فيعجب كل أحد.

وبالجملة فإنه كان عالمًا مفتحًا رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي ناصر الدين محمد بن بدر الدين حسن الفاقوسي الشافعي أحد أعيان موقعي الدست بالديار المصرية في ليلة الاثنين تاسع شوال بالطاعون عن بضع وسبعين سنة وكان حشماً وقوراً وله فضل وأفضال وحدث سنين وسمع منه خلائق وكان معدوداً من الرؤساء بالديار المصرية.

وكان مولده بالقاهرة في ليلة الجمعة خامس عشرين صفر سنة ثلاث وستين وسبعمئة.

والفاقوسي نسبة إلى قرية بالشرقية من أعمال مصر تسمى منية الفاقوس.

وتوفي الأمير سيف الدين آقبردي بن عبد الله القجماسمي نائب غزة بها.

وكان أصله من مماليك الأمير قجماس والد إينال باي ترقى بعده إلى أن صار أمير عشرة بمصر ودام على ذلك سنين كثيرة إلى أن ولي نيابة غزة بالبذل بعد أن قبض تمرار المؤيدي فلم تطل مدته ومات.

وكان تركي الجنس غير مشكور السيرة.

وتوفي دولات خجا الظاهري والي القاهرة ثم محتسبها بالطاعون في يوم السبت أول ذي القعدة.

وكان أصله تركي الجنس من أوباش مماليك الظاهر برقوق أعرفه قبل أن يلي الوظائف وهو من جملة حرافيش المماليك السلطانية.

ثم ولاه الملك الأشرف الكشف ببعض الأقاليم فأباد المفسدين وقويت حرمة فمن يومئذ صار ينقله من وظيفة إلى أخرى حتى ولي القاهرة مرتين وعدة أقاليم ثم ولاه حسبة القاهرة.

وقد تقدم من ذكره نبذة كبيرة في ترجمة الملك الأشرف.

وفي الجملة أنه كان ظالمًا فاجرًا فاسقًا غشومًا شيخًا جاهلًا ظالمًا خبيثًا عليه من الله ما يستحقه.

ولولا أنه شاع ذكره لكثرة ولاياته وأرخه جماعة من أعيان المؤرخين ما ذكرته في هذا كتاب ونزهته عن ذكر مثله.

وتوفي الأمير ثم القاضي صلاح الدين محمد ابن الصاحب بدر الدين حسن ابن نصر الله الفوي الأصل المصري كاتب السر الشريف بالديار المصرية بالطاعون في ليلة الأربعاء خامس ذي القعدة.

ومولده في شهر رمضان سنة تسعين سبعمائة ونشأ بالقاهرة تحت كنف والده الصاحب بدر الدين وتزيا بزى الجند ولي الحجوية في دولة الملك الناصر فرج ثم ولي الأستادارية في الدولة المظفرية ثم عزل ثم أعيد إليها بعد سنين ثم عزل بأبيه وصودر ولزم داره سنين طويلة هو ووالده إلى أن ولاه الملك الأشرف بعد سنة خمس وثلاثين حسبة القاهرة.

وأخذ صلاح الدين بعد ذلك يتقرب بالتحف والهدايا للسلطان ولخواصه إلى أن اختص به ونادمه وصار يبيت عنده في ليالي البطالة بالقلعة.

وحج أمير الركب الأول وعاد فولاه كتابة السر على حين غفلة بعد عزل القاضي محب الدين محمد بن الأشقر من غير سعي في يوم الخميس ثاني عشرين ذي الحجة سنة.

أربعين وثمانمائة.

وترك زى الجند وليس زى الفقهاء وصار يدعى بالقاضي بعد الأمير فباشر كتابة السر بحرمة وافرة وعظم في الدولة فلم تطل أيامه ومات في حياة والده واستقر والده عوضه في كتابة السر.

وكان صلاح الدين حشماً متواضعاً كريماً يكتب المنسوب إلا أنه كان من الكذبة الذين يضرب بكذبهم المثل.

يحكى عنه من ذلك أشياء كثيرة ورأيت أنا منه نوعاً غير أن الذي حكى لي عنه أغرب. وقد جربت أنا كذبه بأنه لا يضر ولا ينفع وهو أن غالب كذبه كان على نفسه فيما وقع له قديماً وحديثاً فهذا شيء لا يضر أحداً ولعل الله أن يسامحه في ذلك.

وتوفي الشهابي أحمد بن علي ابن الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله سبط بكتمر الساقى بالطاعون في ليلة الاثنين عاشر ذي القعدة.

ومولده في يوم الأحد ثالث عشرين شعبان سنة ست وثمانين وسبعمائة بالقاهرة.

ومات ولم يخلف بعده مثله في أبناء جنسه لفضائل جمعت فيه من حسن كتابة ونظم القريض وخلق محاضرة وجودة مذاكرة وكان سميّاً جداً لا يحمله إلا الجياد من الخيل رحمه الله تعالى.

ومن شعره: المجتث

حبي المعذر وافى ** من بعد هجر بوصل

وقال:

صف لي عذاري ** فقلت: يا حب نملي

وله أيضاً في مליح يسمى خصيب: الطويل

رعى الله أيام الربيع وروضها ** بها الورد يزهو مثل خد حبيبي

وإني وحق الحب ليس ترحلي ** سوى لمكان ممرع وخصيب

وتوفي الأمير إسكندر بن قرا يوسف صاحب تبريز مشتتاً عن بلاده بقلعة النجا ذبحه ابنه شاه قوماط في ذي القعدة خوفاً من شره وملك بعده البلاد أخوه جهان شاه بن قرا يوسف.

وكان شجاعاً مقداماً قوياً في الحروب أباد قرايلك في مدة عمره وتقاتل مع شاه رخ بن تيمورلنك غير مرة وهو ينهزم على أقبح وجه.

وكان إسكندر أيضاً على قاعدة أولاد قرا يوسف: لا يتدين إلا أنه كان أحسن حالاً من أخويه شاه محمد وأصبهان وقد مر من ذكر إسكندر هذا وإخوته جملة كبيرة تعرف منها أحوالهم.

وتوفي نور الدين علي بن مفلح وكيل بيت المال وناظر البيمارستان المنصوري في يوم الجمعة ثاني عشرين ذي القعدة بالطاعون.

وكان معدوداً من بياض الناس وله تردد إلى الرؤساء غير أنه كان عارياً من العلوم.

وتوفي الأمير الكبير سودون بن عبد الرحمن نائب الشام ثم أتابك العساكر بالديار المصرية بطالاً بثغر دمياط في يوم السبت العشرين من ذي الحجة.

لم يخلف بعده مثله حشمة ورتاسة وعقلاً وتديباً وشكالة.

وقد مر من ذكره في واقعة الأمير قاني باي نائب الشام في الدولة المؤيدية أنه كان نائب طرابلس ووافق قاني باي المذكور وانهزم بعد قتل قاني باي إلى قرا يوسف بالشرق وأنه كان ولي نيابة غزة في الدولة الناصرية فرج وتقدمة ألف بالقاهرة وأنه قدم على الأمير ططر بعد موت المؤيد.

واستقر بعد سلطنة الملك الأشرف دوادراً كبيراً عوضاً عن الأشرف المذكور.

ثم نقل إلى نيابة دمشق بعد عصيان تنبك البجاسي فدام مدة يسيرة.

ثم نقل إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية عوضاً عن جارقطلو بحكم انتقال جارقطلو إلى نيابة دمشق عوضه.

ثم مرض وطال مرضه إلى أن أخرج عنه السلطان إقطاعه وعزله عن الأتابكية.

ثم سيره بعد مدة أشهر إلى ثغر دمياط بطالاً فدام به إلى أن مات.

وكان أجل المماليك الظاهرية برقوق وهو أحد من أدركناه من ضخماء الملوك وعظمائهم مع حسن الشكالة والزي البهيج رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم خمسة أذرع وثلاثة وعشرون إصبغاً.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وخمسة عشر إصبغاً.

انتهى الجزء الرابع عشر من النجوم الزاهرة سلطنة العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف برسباي الدقماقي على مصر السلطان الملك العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبي نصر برسباي الدقماقي الظاهري الجاركسي التاسع من ملوك الجراكسة وأولادهم والثالث والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية.

تسلطن بعد موت أبيه بعهد منه إليه في آخر يوم السبت ثالث عشر في الحجة قبل غروب الشمس بنحو ساعة ولبس خلعة السلطنة من باب الستارة بقلعة الجبل وقد تكامل حضور الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة وبايعه الخليفة المعتضد بالله داؤد وفوض عليه خلعة السلطنة السواد الخليفتي وركب من باب الستارة وجميع الأمراء مشاة بين يديه حتى نزل على باب القصر السلطاني من قلعة الجبل ودخل إليه وجلس على سرير الملك وعمره يومئذ أربع عشرة سنة وسبعة أشهر.

وقبل الأمراء الأرض بين يديه على العادة ونودي بسلطنته بالقاهرة ومصر.

ثم أخذ الأمراء في تجهيز والده فجهز وغسل وكفن وصلي عليه ودفن بالصحراء حسبما ذكرناه في ترجمته.

ولقبوه بالملك العزيز وتم أمره في الملك ودقت الكوسات بالقلعة.

وكان خليفة الوقت يوم سلطنته المعتضد بالله داؤد العباسية والقضاة: قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر الشافعي وقاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي وقاضي القضاة شمس الدين محمد البساطي المالكي وقاضي القضاة محب الدين أحمد بن نصر الله البغدادي الحنبلي.

ومن الأمراء أصحاب الوظائف من المقدمين وغالبهم كان مجردًا بالبلاد الشامية.

فالذين كانوا بالديار المصرية: الأمير الكبير أتابك العساكر جقمق العلاني والأمير قراخا الحسني والأمير تنبك من بردبك الظاهري والأمير تغري بردي البكلمشي المعروف بالمؤذي.

والذين كانوا بالتجريدة بالبلاد الشامية: مقدم العساكر الأمير قرقماس الشعباني الناصري أمير سلاح وأقبا التمرآزي أمير مجلس وأركماس الظاهري الدوادر الكبير وتمراز القرمشي الظاهري رأس نوبة النوب وجانم الأشرفي الأمير آخور الكبير ويشبك السودوني حاجب الحجاب وخجا سودون السيفي بلاط الأعرج وقراجا الأشرفي لتمة ثمانية من مقدمي الألوف.

فجملة الحاضرين والمسافرين ثلاثة عشر أميرًا من المقدمين.

وأما من كان من أصحاب الوظائف من أمراء الطبلخاناه والعشرات: فشاد الشراب خاناه عظيم المماليك الأشرفية إبنال أبو بكر الأشرفي الفقيه العالم ونائب القلعة تنبك السيفي نوروز الخضري المعروف بالجقمقي كلا شيء والحاجب الثاني أسنبغا الناصري المعروف بالطياري والزرذ كاش تغري برممش السيفي يشبك بن أزدمر فهؤلاء وإن كانوا أمراء طبلخاناه وعشرات فمنازلهم منازل مقدمي الألوف لأن الأعصار الخالية كان لا يلي كل وظيفة من هذه الوظائف إلا مقدم ألف ويظهر ذلك من لبسهم الخلع في المواسم وغيرها وكان الدوادر الثاني تمرباي السيفي تمربغا المشطوب ورأس نوبة ثاني طوخ من تمرآز الناصري والأمير آخور الثاني يخشباي المؤيدي ثم الأشرفي والخازندار علي باي الساقى الأشرفي وهو أمير عشرة وأستادار الصحة مغلباي الجقمقي أمير عشرة والزمام الطواشي الحبشي جوهر الجلباني اللالا والخازندار الطواشي الحبشي جوهر القنقباي أمير عشرة أيضًا ومقدم المماليك الطواشي الرومي خشقدم اليشبيكي أمير طبلخاناه ونائبه فيروز الركني أمير عشرة.

ومباشرو الدولة: كاتب السر صاحب بدر الدين حسن بن نصر الله الفوي وناظر الجيش زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي والوزير صاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ وناظر الخاص الشريف جمال الدين يوسف ابن كاتب حكم والأستادار جانبك مملوك عبد الباسط صورة - ومعناها أستاذة عبد الباسط ولولا مخافة أن أتهم بالنسيان لوظيفة كالأستادارية ما ذكرناه هنا - ومحتسب القاهرة القاضي الإمام نور الدين علي السويقي أحد أئمة السلطان ووالي القاهرة عمر الشوبكي.

ومن عاصره من ملوك الأقطار وأمراء الحجاز ونواب البلاد الشامية وغيرها: فممالك العجم بيد القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك وهو صاحب خراسان وجرجان وخوارزم وما وراء النهر ومازندران وجميع عراق العجم وغالب ممالك الشرق إلى دلي من بلاد الهند وإلى حدود أذربيجان التي كرسبها مدينة تبريز وصاحب تبريز يومذاك إسكندر بن قرا يوسف وقد نشئت عنها منهزمًا من شاه رخ وقتل في هذه السنة أخوه أصبهان بن قرا يوسف صاحب بغداد وغالب عراق العرب وقد خربت تلك الممالك في أيامه وأيام أخيه شاه محمد وملوك ديار بكر بن وائل عدة كبيرة فصاحب ماردين وأمد وأرزن وأرقنين وغيرهم أولاد قرابك وحصن كيفا بيد الملك الكامل صلاح الدين خليل

الأيوبي وقلعة أكل بيد دولات شاه الكردي والجزيرة بيد عمر البختي وإقليم شماخي بيد السلطان خليل والروم بيد ثلاثة ملوك أعظمهم السلطان مراد بك بن محمد بن عثمان صاحب برصا وأدرنابولي وغيرها.

وبجانب آخر: إسفنديار بن أبي يزيد وباقي أطراف الروم مع السلطان إبراهيم بن قرمان مثل لارنده وقونية وغيرهما وبلاد المغرب: فصاحب تونس وبجاية وبلاد إفريقية أبو عمرو عثمان بن أبي عبد الله محمد ابن مولاي أبي فارس عبد العزيز الحفصي وبلاد تلمسان والغرب الأوسط: أبو يحيى بن أبي حمود وبممالك فاس ثلاثة ملوك: أعظمهم صاحب فاس وهو أبو محمد عبد الحق بن عثمان بن أحمد بن إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن المريني وملك أندلس أبو عبد الله محمد بن الأيسر ابن الأمير نصر ابن السلطان أبي عبد الله بن نصر المعروف بابن الأحمر صاحب غرناطة.

وصاحب مكة المشرفة زين الدين أبو زهير بركات بن حسن بن عجلان الحسيني وأمير المدينة الشريف إيمان بن مانع بن علي الحسيني وأمير الينبوع الشريف عقيل بن وبير بن نخبار.

وببلاد اليمن: الظاهر يحيى ابن الملك الأشرف إسماعيل من بني رسول وهو صاحب تعز وعدن وزبيد وما والاها وصاحب صنعاء وبلاد صعدة الإمام صلاح الدين محمد وبلاد الفرنج ست عشرة مملكة يطول الشرح في تسميتها وبلاد الحبشة: الحطي الكافر ومحاربه ملك المسلمين شهاب الدين أحمد بدلاي ابن السلطان سعد الدين أبي البركات محمد بن أحمد بن علي بن ناصر الدين محمد بن دلحوي بن منصور بن عمر بن ولسمع الجبرتي الحنفي.

ونواب البلاد الشامية: نائب دمشق الأتابك إينال الحكمي ونائب حلب حسين بن أحمد البهسني المدعو تغري برمش ونائب طرابلس جليان الأمير آخور وفي معتقده أقوال كثيرة ونائب حماة قاني باي الحمزاوي ونائب صفد إينال العلائي الناصري أعني السلطان الملك الأشرف إينال ونائب غزة أقبردي القجماسي ومات بعد أيام ونائب الكرك خليل بن شاهين ونائب القدس طوغان العثماني ونائب ملطية حسن بن أحمد أخو نائب حلب وحسن الأكبر - انتهى.

قلت: وفائدة ما ذكرناه هنا من ذكر أصحاب الوظائف من الأمراء وغيرهم يظهر بتغيير الجميع وولاية غيرهم بعد مدة يسيرة في أوائل سلطنة الملك الظاهر جقمق لتعلم تقلبات الدهر وأن الله على كل شيء قدير.

وأما ذكر ملوك الأطراف وغيرهم فهو نوع استطراد لا يخلو من فائدة وليس فيه خروج مما نحن بصدده - انتهى.

ولما تم أمر السلطان الملك العزيز ونودي بسلطنته وبالنفقة على المماليك السلطانية في يوم الاثنين خامس عشر ذي الحجة لكل مملوك مائة دينار سكن قلق الناس وسروا جميعاً بولايته ولم يقع في ذلك اليوم هرج ولا فتنة ولا حركة وأطمأنت الناس وبتوا على ذلك وأصبحوا في بيعهم وشرائهم غير أن المماليك صاروا فرقا مختلفة والقالة موجودة بينهم في الباطن.

ولما كان يوم الأحد رابع عشر ذي الحجة حضر الأمراء والخاصكية للخدمة بالقصر على العادة وأنعم السلطان الملك العزيز على الخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله بجزيرة الصابوني زيادة على ما بيده وكتب إلى البلاد الشامية وجميع المماليك بسلطنته.

ثم في يوم الاثنين ابتداءً السلطان بنفقة المماليك السلطانية بعد أن جلس بالمقعد الملاصق لقاعة الدهيشة المطل على الحوش السلطاني وبجانبه الأمير الكبير جقمق العلاني وبقيّة الأمراء.

وشرع السلطان في دفع النفقة إلى المماليك السلطانية لكل واحد مائة دينار كبيرهم وصغيرهم وجليلهم وحقيرهم بالسوية فحسن ذلك ببال الناس وكثر الدعاء للسلطان وعطفت القلوب على محبته.

ثم عين للتوجه إلى البلاد الشامية للبشارة الأمير إينال الأحمدى الظاهري الفقيه أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وعلى يده مع البشائر كتب للأمراء المجردين بالبلاد الشامية تتضمن موت الملك الأشرف وسلطنة ولده الملك العزيز هذا.

ثم قدم رسول الأمير حمزة بن قرابك صاحب ماردین وأرزن وصحبته شمس الدين القلمطاوي ومعهما هدية وكتاب يتضمن دخول حمزة المذكور في طاعة السلطان وأنه أقام الخطبة وضرب السكة إلى السلطان ببلاده وأنه صار من جملة نواب السلطان وكان الأمراء المجردون كاتبوه في دخوله في طاعة السلطان فأجاب وفي جملة الهدية دراهم ودنانير بسكة السلطان الأشرف برسباي فخلع على قاصده وأكرمه.

ثم خلع السلطان في يوم الثلاثاء سادس عشر ذي الحجة على الأمير طوخ مازي الناصري - ثاني رأس نوبة - باستقراره في نيابة غزة بعد موت أقبردى القجماسي.

كل ذلك والسلطان يطيل السكوت في المواكب السلطانية ولا يتكلم في شيء من الأمور.

وصار المتكلم في الدولة ثلاثة أنفس: الأمير الكبير جقمق العلاني والأمير إينال أبو بكرى الأشرفي شاد الشراب خاناه والزيني عبد الباسط ناظر الجيش فمشى الحال على ذلك أيامًا.

فلما كان يوم السبت العشرين من ذي الحجة وقع بين الأمير إينال أبو بكرى المذكور وبين حكم الخاصكي - خال الملك العزيز - مفاوضة ألت إلى شر وابتدأت الفتنة من يومئذ وعظم الأمر بينهما من له غرض في إثارة الفتن لغرض من الأغراض.

وكان سبب الشر إنكار حكم على إينال لتحكمه في الدولة وأمره ونهيه وكونه صار يبيت بالقلعة.

فغضب إينال أيضًا ونزل إلى داره ومال إليه جماعة كبيرة من إنياته بطبقة الأشرفية.

ثم نزل عبد الباسط إلى داره من الخدمة فتجمع عليه جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية وأحاطوا به وأوسعوه سبًا وربما أراد بعضهم ضربه والآخرق به لولا ما خلصه بعض من كان معه من أمراء المؤيدية بأن تضرع للمماليك المذكورين ووعدهم بعمل المصلحة حتى تفرقوا عنه وتوجه إلى داره على أقبح وجه.

واستمر من هذا اليوم الكلمة مختلفة وأحوال الناس متوقفة وصار كل من المماليك الأشرفية يريد أن يكون هو المتكلم في الدولة ويقدم إنياته ويجعلهم خاصكية.

كل ذلك والأمير الكبير جقمق سامع لهم ومطيع وصار يدور معهم كيف ما أرادوا وإينال المشد يزداد غضبه ويكثر من القالة لتحكم حكم في الباطن والشر ساكن في الظاهر والمملكة مضطربة ليس للناس فيها من يرجع إلى كلامه.

فلما كان يوم السبت سابع عشرين ذي الحجة أنعم السلطان الملك العزيز على الأتابك جقمق العلائي بإقطاعه الذي كان بيده في حياة والده بعد أن سأل السلطان الأتابك جقمق في ذلك غير مرة وأنعم بإقطاع الأتابك جقمق على الأمير تمرز القرمشي رأس نوبة النوب وهو أحد الأمراء المجردين إلى البلاد الشامية وأنعم بإقطاع تمرز المذكور على تمرباي التمربغاوي الدوادر الثاني والجميع تقادم الوف لكن التفاوت في كثرة الخراج وزيادة المغل في السنة.

وأنعم بإقطاع تمرباي المذكور على الأمير علي باي الأشرفي الساقى الخازندار وأنعم بإقطاع طوخ مازي الناصري - المنتقل إلى نياية غزة قبل تاريخه - على الأمير يخشباي الأشرفي الأمير أخور الثاني وأنعم بإقطاع يخشباي المذكور على الأمير يلخجا من مامش الساقى الناصري رأس نوبة والجميع أيضًا طبليخاناه.

وأنعم بإقطاع يلخجا الساقى على السيفي قاني باي الجاركسي وصار أمير عشرة بعد أن جهد الأتابك جقمق في أمره وسعى في ذلك غاية السعي وأرسل بسببه إلى عبد الباسط وإلى الأمير إينال المشد غير مرة حتى تم له ذلك.

وخلع السلطان على الأمير إينال الأبوبكري المشد باستقراره دوادارًا ثانيًا عوضًا عن تمرباي كل ذلك والقالة موجوعة بين جميع العساكر ظاهرًا وباطنًا.

ثم أصبح من الغد في يوم الأحد خلع السلطان على الأمير علي باي الخازندار باستقراره شاد الشراب خاناه عوضًا عن إينال الأبو بكرى.

ثم في يوم الاثنين استقر دمرداش الأشرفي أحد أصغر المماليك الأشرفية والي القاهرة عوضًا عن عمر الشوبكي.

وانفض الموكب ونزل الأتابك إلى جهة بيته.

فلما كان في أثناء الطريق اجتمع عليه جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية وطلبوا منه أرزاقًا فأوعدهم وخادعهم وتخلص منهم فتوجهوا إلى الزيني عبد الباسط ناظر الجيش فاختمى منهم وقد صار في أقبح حال منذ مات الملك الأشرف من الذلة والهوان ومما داخله من الخوف من المماليك الأشرفية من كثرة التهديد والوعيد وقد احتار في أمره وهم على الهروب غير مرة.

واستهلت

▲ سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة

يوم الثلاثاء وقد ورد الخبر بقدم عرب لبيد إلى البحيرة فندب السلطان تغري بردي البكلمشي المؤذي أحد مقدمي الألوف فخرج من القاهرة في يوم الجمعة رابع المحرم وصحبته عدة من المماليك السلطانية.

وفي هذا اليوم خلع السلطان على خاله حكم باستقراره خازندارًا كبيرًا عوضًا عن علي باي الأشرفي واستمر على إقطاع جنديته من غير إمرة.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر المحرم نزل الطلب إلى شيخ الشيوخ سعد الدين سعد الديري وخلع عليه باستقراره قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني بعد تمنع كبير وشروط منها: أنه لا يقبل رسالة أحد منهم - أعني أكابر الدولة - وأنه لا يتوجه عليه في شيء وأشياء غير ذلك ونزل إلى داره بالجامع المؤيدي وقد سر الناس بولايته غاية السرور.

وفيه أنعم السلطان على سبعة من الخاصكية لكل منهم بإمرة عشرة وهم: قائم من صفر خجا المؤيدي المعروف بالتاجر أحد الدوادارية وحكم النوروزي المجنون وقائبك الأبوكري الأشرفي الساقى وجانبك الساقى الأشرفي المعروف بقلق سيز وجانم الأشرفي أحد الدوادارية المعروف برأس نوبة سيدي وجرباش الأشرفي رأس نوبة الجمدارية المعروف بمشد سيدي والسابع ما أدري: أهو حكيم خال الملك العزيز أو هو أقبردي المظفري الظاهري برقوق رأس نوبة الجمدارية.

وفيه أيضًا خلع السلطان على مراد قاصد الأمير حمزة بك بن قرايلك ورسم بسفره وصحته شمس الدين القلمطاوي أحد موقعي حلب وجهز السلطان صحتهما مبارك شاه البريدي وعلى يده جواب كتاب الأمير حمزة بشكره والثناء عليه وتشريف له بنبابة السلطنة بممالكه وفرس بقماش ذهب وهدية هائلة ما بين قماش سكيندي وسلاح وغيره ونسخة يمين.

وأجيب الأمراء المجردون أيضًا عن كتبهم ورسم لهم أن يسرعوا في الحضور إلى الديار المصرية.

وفي هذه الأيام كثر الكلام بين الأمراء والخاصكية بسبب التوجه إلى البلاد الشامية وحمل تقاليد النواب بالاستمرار إلى أن كان يوم السبت تاسع عشر المحرم خلع السلطان على الأمير أزيك السيفي قاني باي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة معروف بجحا - وعين لتقليد الأمير إينال الحكمي نائب الشام باستمراره على عادته وكان تقدم أن السلطان خلع على الأمير إينال الفقيه بتوجهه إلى نائب حلب وخلع السلطان على إينال الخاصكي بتوجهه إلى الأمير جليان نائب طرابلس وعلى دولات باي الخاصكي بالتوجه إلى قاني باي الحمزاوي نائب حماة وعلى يشبك الخاصكي بالتوجه إلى إينال العلاني الناصري نائب صغد كل والنواب في التجريدة صحبة الأمراء المصريين.

وفي هذا اليوم حل بالزيني عبد الباسط أمور غير مرضية من بعض المماليك الأشرفية في وقت الخدمة السلطانية هذا بعدما نزل به قبل تاريخه في هذه الأيام أنواع من المكاره ما بين تهديد ولكم وإساءة احتاج من أجلها إلى بذل الأموال ولمن يحميه منهم ليخلص من شرهم فلم يتم له ذلك.

ثم في ثالث عشرين المحرم قدم ركب الحاج إلى القاهرة وأمير حاج حمل آقبا من مامش الناصري المعروف بالتركماني أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بعد أن حل بالحاج من البلاء ما لا مزيد عليه من أخذهم وأخذ أموالهم ونهبهم وقد فعلت الأعراب بهم ما فعله التمرية في أهل البلاد الشامية ومعظم المصيبة كانت بالركب الغزاوي فلم يلتفت أحد من أهل الدولة لذلك لشغل كل واحد بما يرومه من الوظائف والإقطاعات وغيرها ودع الدنيا تخرب ويحصل له ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشرين المحرم قدم إلى القاهرة مماليك نواب البلاد الشامية وعلى أيديهم مطالعات تتضمن أنهم ملكوا مدينة أرزنكان وأنه خطب بها باسم السلطان الملك الأشرف برسباي ولم يعلموا إذ ذاك بموته.

ثم في يوم الخميس أول صفر عملت الخدمة السلطانية ونزل كل واحد إلى داره.

فلما كان عبد الباسط بالقرب من باب الوزير تجمع عليه عدة من المماليك الأشرفية وتحاولوه وأوسعوه سبًا ووعيدًا وهموا به وأراد بعضهم ضربه حتى منعه عنه من كان معه من الأمراء وتخلص منهم وولى هاربًا يريد القلعة حتى دخلها وهم في أثره فامتنع بها.

وأقام بالقلعة يومه كله وبات بها وهو يطلب الإعفاء من وظيفتي نظر الجيش والأستادارية.

وأصبح السلطان من الغد جلس بالحوش السلطاني على الدكة وطلع الأمير الكبير جقمق نظام الملك واستدعى عبد الباسط إلى حضرة السلطان والسلطان على عادته من السكات لا يتكلم في شيء من أمور المملكة وليس ذلك لصغر سنه وإنما هو لأمر يريده الله تعالى.

فلما حضر عبد الباسط كلمه الأمير الكبير في استمراره على وظيفته فشكا له ما يحط به فلم يلتفت إلى شكواه وخلع عليه باستمراره وعلى ملوك جانبك باستمراره على وظيفته الأستادارية ونزلا إلى دورهما ومعهما جماعة كبيرة.

ثم في يوم الأحد رابع صفر ورد في السلطان كتاب الأمير إينال الحكمي نائب الشام بوصوله بالعساكر المصرية والشامية من البلاد الشمالية إلى حلب وأن الأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش نائب حلب تأخر عنهم لما بلغه موت الملك الأشرف وأنه أراد أن يكبس على الأمراء المصريين فبلغهم ذلك فاحترزوا على نفوسهم منه إلى أن دخلوا إلى حلب.

ثم في يوم السبت عاشر صفر رسم السلطان بأن تقتصر الخدمة السلطانية على أربعة أيام في الجمعة وأن تكون الخدمة بالقصر فقط عندما يحضر الأتابك جقمق وأن تبطل خدمة الحوش لغيبة الأتابك منه.

وهذا ابتداء أمر الأتابك جقمق وظهوره في الدولة لكثرة من انضم عليه من الطوائف من الأمراء وأعيان المماليك السلطانية.

ثم قدم كتاب نائب حلب يتضمن رحيل العساكر من حلب إلى دمشق في سادس عشرين المحرم وأنه قدم إلى حلب بعدهم في ثامن عشرينه وأنه كان تخوف من الأمراء المصريين أن يقبضوا عليه فلهذا تخلف عنهم وأنه في طاعة السلطان وتحت أوامره فلم يجب بشيء لشغل أهل الدولة بما هم فيه من تنافر قلوب بعضهم من بعض.

وقد وقع أيضًا بين المماليك الأشرفية وبين خجداشهم وأعظمهم الأمير إينال أبو بكرى الدوادر الثاني.

فلما كان يوم الاثنين ثاني عشره تجمع المماليك الأشرفية بالقلعة يريدون قتل الأمير إينال أبو بكرى المقدم ذكره ففر منهم بحماية بعضهم له ونزل إلى داره.

فوقفوا خارج القصر وسألوا الأمير جقمق بأن يكون هو المستبد في الأمر والنهي والتحكم في الدولة وأن ترفع يد إينال وغيره من الحكم في المملكة فأجاب إلى ذلك ووعدهم بكل خير ونزل.

وقد اتسع للأتابك جقمق - بهذا الكلام - الميدان ووجد لدخوله في المملكة بابًا كبيرًا فإنه كان عظم جمعه قبل ذلك لكنه كان تخشى كثرة المماليك الأشرفية فلما وقع الآن بينهم المباينة خف عنه أمرهم قليلًا وقوي أمره كل ذلك ولم يظهر منه الميل للوثوب على

الملك العزيز بالكلية غير أنه يوافق القوم في الإنكار على فعل المماليك الأشرفية وكثرة شرورهم لا غير.

ولما كان صباح النهار المذكور وهو يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وقف جماعة من الأشرفية تحت القلعة بغير سلاح ووقع بينهم وبين خداسيتهم الذين هم من طبقة الأشرفية من إنيات إينال وإخوته وقعة هائلة بالدبابيس ثم انفضوا وعادوا من الغد في يوم الأربعاء إلى مكانهم بسوق الخيل.

فلما وقع ذلك تحقق المماليك القرانيص وقوع الخلف بين المماليك الأشرفية فقاموا عند ذلك وتجمعوا عند الأمير الكبير ومعهم الأمير إينال المذكور بإنياته وخداسيته من المماليك الأشرفية وهم جمع كبير أيضًا وتكلموا مع الأمير الكبير بالقيام في نصره إينال المذكور - وليس ذلك مرادهم وإنما قصدهم غير ذلك لكنهم لم يجدوا مندوحة لغرضهم أحسن من هذه الحركة - وأظهروا الميل الكلي إلى نصره إينال وصاروا له أصدقاء وهم في الحقيقة أعدى العدى.

فمال الأتابك جقمق إلى نصره إينال لكوا من كانت عنده من القوم وقد صار بهذه القضية في عسكر هائل وجمع كبير من المماليك الظاهرية برقوق وهم خداسيته والمماليك الناصرية فرج والمماليك المؤيدية شيخ والسيفية وعالم كبير من المماليك الأشرفية أصحاب إينال.

وبقي العسكر قسمين: قسم مع الأمير الكبير جقمق وهم من ذكرنا ومعظم الأمراء من مقدمي الألوف وغالب أمراء الطبلخانات والعشرات ما خلا جماعة من أمراء الأشرفية وقسم آخر بالقلعة عند السلطان الملك العزيز وهم أكثر المماليك الأشرفية وعندهم الخليفة والخزائن والزردخانه إلا أنهم جهال بمكائد الأخصام ووقائع الحروب لم تمر بهم التجارب ولا مارسوا الوقائع وأعظم من هذا أنهم لم يقربوا أحدًا من الأكابر وأرباب المعرفة فضلوا وأصلوا وذهبوا وأذهبوا وأضعفوا بسوء تديبرهم قواهم وتركوا الملك باختلاف آرائهم لمن عداهم على ما سيأتي بيان ذلك كله في محله.

هذا وكل من الطائفتين يدعي طاعة الملك العزيز غير أن الخصم هو إينال وقد التجأ إلى الأمير الكبير جقمق نظام الملك فقبله الأمير الكبير بمن معه وقام في الظاهر بنصرة إينال أتم قيام وفي الحقيقة إنما هو قام بنصرة نفسه وقد ظهر ذلك لكل أحد حتى لإينال غير أنه صار يستبعد وما من حبه أحنو عليه ولكن بغض قوم آخرين ولما وقع ذلك استفحل أمر الأتابك وتكاثف جمعه ومعظم من قام في هذه القضية معه المماليك المؤيدية وقد أظهروا ما كان في ضمائرهم من الأحقاد القديمة في الدولة الأشرفية وأخذوا في الكلام مع الأتابك وتقوية جانبه على الوثوب بالمماليك الأشرفية الذين بقلعة الجبل وهو يتناقل عن ذلك حتى يتحقق من أمرهم ما يثق به وصار يعتذر لهم بأعداء كثيرة: منها قلة المال والسلاح وأن الذين بقلعة الجبل أقوباء بالقلعة والمال والسلطان والسلاح.

فقالوا: هو ما قلت غير أن هؤلاء جهلة لا يدرون الوقائع ولا مقاومة الحروب ولا أمر العواقب ونحن أعرف بذلك منهم وجمعنا يقاتل معك من غير أن تبذل لهم الأموال.

ولا زالوا به حتى أذعن لهم بعد أن بلغه عن بعضهم أنه يقول عنه: " الأمير الكبير دقن المرأة " وأشياء غير ذلك كونه لا يوافقهم على الركوب وأنهم يقولون: " إن كان الأمير الكبير ما يوافقنا أقمنا لنا أستاذًا غيره " .

ولما وافقهم الأمير الكبير على الركوب أشاروا عليه بعدم الطلوع إلى الخدمة السلطانية من الغد في موكب يوم الخميس خامس عشر صفر فقبل منهم ذلك.

وأصبح يوم الخميس المذكور وقد كثر جمعه وتحول من داره التي تجاه الكيش على بركة الفيل إلى بيت نورو الحافظي تجاه مصلاة المؤمني وقد اجتمع عليه خلائق من المماليك من سائر الطوائف وعليهم السلاح الكامل وآلة الحرب.

وقبل أن يركب الأمير الكبير جقمق عند وضع رجله في الركاب قال: " هذا دقن المرأة يركب حتى ينصر إيش تفعل الرجال الفحوله " فصاحوا بأجمعهم: لا نقاتل بين يديك إلى أن نفنى أو ينصرك الله على من يعاديك ".

ثم سار بجموعه حتى وافى البيت المذكور فوقف على باب الدار وقد اجتمع عليه جمع من المماليك والزعر والعامه فوعدهم الأمير الكبير بالنفقة والإحسان إليهم.

كل ذلك ولم يقع إلى الآن قتال.

فلما تحقق المماليك الأشرفية ركوب الأمير الكبير ورأوهم من أعلى قلعة الجبل أخرجوا السلطان من الدور إلى القصر المطل على الرميلة واجتمعوا عليه بالقصر وغيره وقد لبسوا السلاح أيضًا.

وكان كبراء الأشرفية الذين بالقلعة عند الملك العزيز من أمراء الأشرفية وغيرهم جماعة: منهم الأمير يخشباي الأشرفي الأمير آخور الثاني وعلي باي شاد الشراب خاناه وتنبك النوروزي المعروف بالجقمقي نائب قلعة الجبل وخشكلي من سيدي بك الناصري رأس نوبة وكزل السودوني المعلم رأس نوبة وحكم الخازندار خال الملك العزيز وجماعة آخر ممن تأخر في أمسه من المماليك الأشرفية ومعظم الخاصكية الأشرفية أصحاب الوظائف وغيرهم ما خلا من نزل منهم مع الأمير إينال أبو بكر.

واستعدوا لقتال الأمير الكبير ومن معه وباتوا تلك الليلة بعد أن تناوشوا في بعض الأحيان بالرمي بالنشاب ولم يقع قتال في مقابلة.

وأصبحوا يوم الجمعة سادس عشر صفر على ما باتوا عليه.

واستمر كل طائفة من الفريقين على تعبيتهم إلى بعد صلاة العصر فزحف أصحاب الأمير الكبير إلى باب القرافة وهدموا جانبًا من سور ميدان القلعة وغيره ودخلوا إلى الميدان فنزل إليهم طائفة من السلطانية ركبًا ومشاة وقتلوهم مواجهة حتى هزموهم وأخرجوهم من الميدان.

وتراموا بالنشاب ساعة فحال بينهم الليل وبات كل طائفة منهم على حذر.

وتوجهت الأشرفية الذين بالقلعة وفتحوا باب الزردخانة السلطانية وأخذوا من السلاح الذي بها ما أرادوا ونصبوا مكاحل النفط على سور القلعة وأخذوا في أهبة القتال.

حتى أصبحوا يوم السبت سابع عشر صفر وقد استفحل أمر السلطانية من عصر أمسه فتجمعت الجقمقية وابتدؤوا بقتال السلطانية فوقع بين الطائفتين قتال بالنشاب والنفوط فهلك من العامة خلائق ممن كان من حزب الأمير جقمق كل ذلك وأمر السلطانية يقوى إلى بعيد الظهر فلاح عليهم الخذلان من غير أمر يوجب ذلك ومشتت القضاة بين السلطان والأمير الكبير جقمق غير مرة في الصلح والكف عن القتال وحقن دماء المسلمين وإخماد الفتنة.

هذا وقد ترجح جهة الأمير الكبير جقمق وطمعت عساكره في السلطانية فقال الأمير الكبير: " أصطلح بشرط أن يرسل السلطان إلي بأربعة نفر وهم: جكم خال الملك العزيز الخازندار وتنم الساقى وأزيك البواب وبشيك الفقيه الأشرفي الدوادار " فأذعن السلطان ومن عنده لذلك بعد كلام كثير فنزل الأربعة من القلعة بعد صلاة العصر من يوم السبت المذكور مع من كان تردد في الصلح وساروا حتى دخلوا بيت الأمير الكبير فحال وقع بصره عليهم قبض عليهم واحتفظوا بهم.

وركب الأمير الكبير فرسه وساروا معه أعيان أصحابه إلى أن صار في وسط الرميعة تجاه باب السلسلة فنزل عن فرسه بعد أن فرش له ثوب سرج جوخ وقبل الأرض بين يدي السلطان الملك العزيز لكونه أرسل إليه أخصامه ثم ركب في أصحابه وعاد إلى بيته بالكبش ومعه المقبوض عليهم إلى أن نزل بداره في موكب جليل إلى الغاية.

وأخذ أمر الأمير الكبير جقمق من هذا اليوم في زيادة وقوة وأمر الملك العزيز ومماليك أبيه الأشرفية في نقص ووهن وإدبار.

وأصبح بكرة يوم الأحد ثامن عشر صفر أرسل الأمير الكبير إلى السلطان في طلب جماعة آخر من المماليك الأشرفية فنزل إليه الأمير يخشباي الأمير آخور الثاني والأمير علي باي شاد الشراب خاناه وهما من عظماء القوم والمشار إليهما من القلعة الأشرفية وقبل يد الأمير الكبير جقمق فأكرمهما الأمير الكبير ووعدهما كل خير.

ثم أمر في الحال بطلب الأمير الطواشي خشقدم البشبيكي مقدم المماليك السلطانية فحضر إليه وقبل يده فأمره الأمير الكبير أن يتقدم بنزول جميع من في الأطباق من المماليك الأشرفية وهدده إن لم يفعل ذلك فاستبعد الناس وقوع ذلك لكثرة المماليك الأشرفية وشدة بأسهم.

فحالما طلع خشقدم وأمرهم بالنزول أجابه الجميع بالسمع والطاعة.

ونزل صبيان طبقة بعد طبقة إلى بيت الأمير الكبير وقد حضر عنده قضاة القضاة الأربعة وأهل الدولة وأعيانها وحلفوا الأمير الكبير على طاعة السلطان ثم حلفوا المماليك الأشرفية على طاعة الأمير الكبير وحكم قاضي القضاة سعد الدين بن الديري الحنفي بسفك دم من خالف هذا اليمين.

وعند انقضاء الحلف أمر الأمير الكبير بنزول جميع المماليك الأشرفية من أطباقيهم بالقلعة إلى إسطنبولاتهم ما خلا المماليك الصغار فاعتذروا عن قلة مساكنهم بالقاهرة فلم يقبل الأمير الكبير أعدارهم وشدد عليهم والناس تظن غير ذلك فخرجوا.

وفي الحال أخذوا في تحويل متاعهم ونزلوا من الأطباق بعد أن ظن كل أحد منهم أنه لا بد له من إثارة فتنة وشر كبير تسفك فيه دماء كثيرة قبل نزولهم فلم يقع شيء من ذلك ونزلوا من غير قتال ولا إكراه وخلت الطباق منهم في أسرع وقت خذلاً من الله تعالى وتركوا السلطان والخزائن والسلاح والقلعة ونزلوا من غير أمر يوجب النزول وهم نحو الألف وخمسمائة نفر هذا خلاف من كان انضم عليهم من الناصرية والمؤيدية والسيفية.

ولله در القائل: السريع ما يفعل الأعداء في جاهل ما يفعل الجاهل في نفسه وتعجب الناس من نزولهم حتى الأمير الكبير جقمق.

وصار يتحدث بذلك أحيانًا في سلطنته فإنه كان أولًا تخوف منهم أن يقبضوا عليه عند طلوعه إلى القلعة غير مرة ولهج الناس بذلك كثيرًا وبلغ الأتابك أنهم يريدون أن يقبضوا عليه وعلى عبد الباسط وعلى صاحب جمال الدين ناظر الخاص فقال: وإيش يمنعهم من ذلك.

وانقطع عن الخدمة السلطانية أيامًا حتى كلمه أصحابه في الطلوع وشجعوه وقالوا له: نحن نطلع في خدمتك ولا يصيبك مكروه حتى تذهب أرواحنا.

كل ذلك قبل أن يقع الشر بين الأمير إينال وخدامشيتيه فهذا كله ذكرناه لتعرف به شدة بأس المماليك الأشرفية وكثرة عددهم.

فلما تكامل نزول المماليك الأشرفية من الأطباق إلى حال سبيلهم كان هذا أول مبدأ زوال ملك السلطان الملك العزيز يوسف.

ومن يومئذ أخذ الأمير إينال أبو بكر الأشرفي في الندم بما وقع منه من الانفراد عن وخدامشيتيه والانضمام على الأتابك جقمق حتى إنه صار يبكي في خلواته ويقول: " ليتني كنت حبست بثغر الإسكندرية ودام تحكم ابن أستاذي وخدامشيتي.

وما عسى وخدامشيتي كانوا يفعلون بي "

وندم حيث لا ينفع الندم.

وربما بلغ الأمير الكبير عنه ذلك فأخذ يحلف له أنه لا يريد الوثوب على السلطنة ولا خلع الملك العزيز وأنه لا يريد إلا يكون نظام ملكه ومدبر ممالكه وأشياء غير ذلك.

قلت: وأنا أظن أن الأمير إينال ما طال حبسه إلا بهذا المقتضى والله أعلم.

ثم في يوم الأحد هذا قدم الأمير تغري بردي البكلمشي المؤذي أحد مقدمي الألوف من البحيرة بمن كان صحبته من المماليك السلطانية - وكان الأتابك أرسل يستحثه في القدوم عليه ليكون من حزبه على قتال الأشرفية فتقاعد عنه إلى أن انتهى أمر الواقعة وحضر - فأخذ الأتابك جقمق يوبخه لعدم حضوره وهو يعتذر بعدم وصول الخبر إليه ويقبل يده.

ثم ورد الخبر على السلطان بأن العسكر المجرد من الأمراء وصل إلى دمشق في خامس صفر.

ثم في يوم الثلاثاء العشرين من صفر شفع الملك العزيز في خاله جكم ورفقته فأفرج عنهم الأتابك جقمق وخلع على كل منهم كاملية مخمل بفر وسمور وبمقلب سمور.

ثم في يوم الخميس ثاني عشرين صفر طلع الأمير الكبير جقمق إلى الخدمة السلطانية ومعه سائر الأمراء وأرباب الدولة ومنع المماليك الأشرفية من الدخول إلى قصر في وقت الخدمة إلا من له وحضر الأمير الكبير الخدمة وخلع عليه السلطان تشريفًا عظيمًا باستمراره على حاله.

ونزل من وقته إلى باب السلسلة وسكن الحراقة من الإسطبل السلطاني بعد نقل إليها قماشه وورخته في أمسه وبعد أن أمر الأمير يخشباي الأمير أخور الثاني بالنزول من الإسطبل إلى بيته قبل تاريخه.

فنزل يخشباي إلى داره وكانت دار قطلوبغا الكركي التي تجاه دار منجك اليوسفي بالقرب من الجامع الحسيني وجلس وأغلق عليه باب الدار ومنع الناس من التردد إليه وصار كالمرسم عليه وهذا أيضًا من أعجب العجب كون الشخص يكون على إقطاعه ووظيفته ويصير على هذه المثابة.

وسكن الأمير الكبير بالسلسلة وتصرف في أمور المملكة من غير مشارك واستبد بتدبير أحوال السلطنة من ولاية الوظائف والإنعام بالإقطاعات والإمريات على من يريد ويختار فصار الملك العزيز ليس له من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط.

فعظم ذلك على المماليك الأشرفية وأنكروا سكنى الأمير الكبير بباب السلسلة واتفقوا ووقفوا في جمع كبير بالرميلة وأكثروا من الكلام في ذلك ثم انفضوا من غير طائل وفي أملهم أن الأمراء إذا قدموا من سفرهم أنكروا على الأمير الكبير ما فعله وقاموا بنصرة الملك العزيز وانتظروا ذلك.

وأخذ الأتابك جقمق في تحصين باب السلسلة والقلعة وأشحنهما بالسلاح والرجال وصارت الأعيان من كل طائفة تبيت عنده بباب السلسلة في كل ليلة والأمراء والأعيان تتردد إلى خدمته.

وتركت الخدمة السلطانية واحتج الأمير الكبير بتركها أنه بلغه أن المماليك الأشرفية اتفقوا على قتله إذا طلع إلى الخدمة السلطانية وجعل ذلك عذرًا له عن عدم حضور الخدمة.

وصار هو المخدوم والمشار إليه وتردد مباشرة الدولة إلى بابه وسائر الناس وتلاشى أمر السلطان الملك العزيز إلى الغاية.

ولهج الناس بسلطنة الأتابك جقمق وشاع ذلك بين الناس.

وصار الأتابك كلما بلغه فلك أنكروه وأسكت القائل بذلك ولسان حاله ينشد: الكامل لا تنطقن بحادث فلربما نطق اللسان بحادث فيكون هذا والأتابك جقمق متخوف في الباطن من الأمراء المجردين لكونهم جمعًا كبيرًا وفيهم جماعة من حواشي الملك الأشرف ومماليكه مثل أركماس الظاهري الدوادار الكبير وتمراز القرمشي رأس نوبة النوب وجانم الأشرفي الأمير أخور الكبير وقراجا الأشرفي وخجا سودون السيفي بلاط الأعرج وفيهم أيضًا من تحدثه نفسه بالوثوب على الأمر وهو الأمير قرقماس الشعباني الناصري أمير سلاح المعروف بأهرام ضاغ فلهذا صار الأتابك جقمق يقدم رجلا ويؤخر أخرى.

ثم قدم الخبر بخروج الأمراء من مدينة غزة إلى جهة الديار المصرية وأن خجا سودون البلاطي أحد مقدمي الألوف تأخر عنهم على عادته في كل سفرة فندب الأتابك السيفي دمرداش الحسيني الظاهري برقوق الخاصكي بالتوجه إلى غزة وعلى يده مرسوم شريف بتوجه خجا سودون إلى القدس بطالًا فمضى دمرداش المذكور وفعل ما ندب إليه.

فلما كان يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الأول وصل الأمراء إلى الديار المصرية وطلعوا الجميع إلى الأتابك جقمق ما خلا الأمير يشبك السودوني حاجب الحجاب فإنه قدم القاهرة في الليل مريضًا في محفة إلى داره.

ولم ينزل الأتابك إلي تلقي الأمراء المذكورين وكان أرسل إليهم يخوفهم من المماليك الأشرفية وذكر لهم أنهم يريدون الركوب عليهم يوم دخولهم فدخلوا الجميع بأطلاهم.

ولما طلّعوا إلى جقمق قام لهم واعتنقهم وأكرمهم غاية الإكرام.

وأرسل إلى الملك العزيز أنه يخرج ويجلس بشباك القصر حتى يقبلوا له الأمراء الأرض من الإسطيل السلطاني ولا يطلع إليه أحد ففعل الملك العزيز ذلك وجلس بشباك القصر حتى أخذ الأتابك جقمق الأمراء وسار بهم من الحراقة يريد الإسطيل السلطاني والجميع مشاة وقد جلس السلطان الملك العزيز بشباك القصر فوقف الأمراء تحت شباك القصر وأومؤوا برؤوسهم كأنهم قبلوا له الأرض.

وأحضر إليهم التشاريف السلطانية في الحال فلبسوها وقبلوا الأرض ثانيًا كالمرة الأولى وعادوا راجعين في خدمة الأمير الكبير حتى طلّعوا معه إلى الحراقة ثم سلموا عليه وكنت لما لاقيت الأمير أقبغا التمراري أمير مجلس سألني عن أحوال الأتابك جقمق فقلت له كلاما متحصله أنه ليس بينه وبين السلطنة إلا أن تضرب له السكة ويخطب باسمه فاستبعد ذلك لقوة بأس المماليك الأشرفية وعظم شوكتهم فلما نزل من القلعة وعليه الخلعة قلت له قبل أن يصل إلى داره: كيف رأيت جقمق قال: سلطان على رغم الأنف.

ومعنى قوله: على رغم الأنف " لأنه كان بينهما حضور أنفس قديمة.

ثم أصبحوا يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول حضروا الجميع إلى عند الأتابك جقمق بباب السلسلة وجلس الأتابك في الصدر وكل من الأمراء على يمينه وشماله إلا قرقماس أمير سلاح فإنه زاحم الأتابك جقمق في مجلسه وجلس معه على فراشه والأمير جقمق يجذبه إلى عنده ويخدعه بأنه لا يفعل شيئًا إلا بمشورته وأنه قوي أمره بقدمه وأنه شيخ كبير عاجز عن الحركة واقتحام الأهوال إلا إن كان بقوة قرقماس المذكور.

كل ذلك وهما جلوس على المرتبة فانخدع قرقماس وطابت نفسه بما سمعه من الأتابك جقمق أنه ربما إن تحرك بعد ذلك بحركة تمت له لضعف جقمق عن مقاومته.

هذا وقد برز الطلب لجماعة من الأشرفية وغيرهم وجميع من هو بالقلعة من الأعيان فلما حضروا أشار قرقماس لجماعة من الرؤوس نوب وأمراء جندار ممن حضر المجلس أن اقتبضوا وأول ما بدأ برفيقه الأمير جانم الأشرفي الأمير آخور الكبير ثم أشار لواحد بعد واحد إلى أن قبضوا على جماعة كبيرة من الأمراء والخاصكية وهم: الأمير جانم المقدم ذكره ويخشباي الأمير آخور الثاني وعلي باي شاد الشراب خاناه وتنبك السيفي نوروز الخضري المعروف بالجقمقي نائب قلعة الجبل وخشقدم الطواشي الرومي اليشبكي مقدم المماليك ونائبه الطواشي فيروز الركني الرومي أيضًا وخشكليدي من سيدي بك الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وجكم خال الملك العزيز وجرباش الأشرفي أحد أمراء العشرات المعروف بمشدد سيدي وجانبك قلق سيز الساقى أحد أمراء العشرات ومن الخاصكية: تتم الساقى وأزبك البواب وبشبك الفقيه - وكل من هؤلاء الثلاثة أحد الأربعة المقدم ذكرهم - وتنبك الفيسي المؤيدي رأس نوبة الجمدارية وأرغون شاه الساقى ويبرم خجا أمير مشوي ودمرداش الأشرفي والي القاهرة وبايزير خال الملك العزيز وقيدوا الجميع.

وفي الحال خلع على الأمير تمر باي التمرغاوي أحد مقدمي الألوف باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضًا عن الزيني عبد الرحمن بن الكويز بحكم عزله وأمر بالسفر إلى الإسكندرية من يومه وخلع على قراجا العمري الخاصكي الناصري باستقراره في ولاية القاهرة عوضًا عن دمرداش الأشرفي بحكم القبض عليه.

ثم ندب الأمير الكبير الأمير تنبك البرديكي أحد مقدمي الألوف والأمير أقطوه الموساوي أحد أمراء العشرات البرقوقيين في عدة من المماليك السلطانية أن يطلعوا إلى القلعة وبقيموا بها لحفظها.

وكان تنبك المذكور ولي نياية القلعة قبل تاريخه سنين كثيرة في الدولة الأشرفية فطلع إلى القلعة وسكن بمكانه أولاً على العادة.

ثم انفض الموكب وقد تزايدت عظمة الأمير الكبير جقمق وهابته النفوس بما فعله قرقماس بين يديه من القبض على الأمراء المذكورين.

وفهم الناس أنه فعل ذلك خدمة للأمير الكبير وكان غرض قرقماس غير ذلك فإنه رام نفع نفسه فنفع غيره فكان حاله كقول من قال: " مع الخواطيء سهم صائب " وكقولهم: " رب رمية من غير رام " .

ونزل الأمراء إلى دورهم وقد استخف الناس عقل قرقماس وخفته وطيشه في سرعة ما فعله كل ذلك لاقتحامه على حب الرئاسة.

ونزل قرقماس إلى دار وفي زعمه أن جميع من هو بخدمة الأمير الكبير ينقلبون عن الأمير الكبير إليه ويترددون إلى بابه لأنه هو كان الحاكم في هذا اليوم ولم يدر أن القلوب نفر منه لتحققهم ما يظنوه من كبره وجبروته وبطشه وقد اعتادوا بلين الأمير الكبير وبأخذه لخواطريهم في هذه المدة وتمسكه عن قبض من كان لهم غرض قبضه وقد صاروا له كالمماليك والخدم لطول ترددهم إليه في باب السلسلة وغيرها وقد انتهى أمره وحصل لهم ما كان في أملهم وأيضاً أنهم لما رأوا قرقماس فعل ما فعل لم يشكوا في أمره أنه من جملة من يقوم بنصرة الأتابك وأنه كواحد منهم فلم يطرق أحد منهم بابه ولم يدخل إليه في ذلك اليوم إلا من يلوذ به من حواشه ومماليكه.

وسافر تمرباي نائب الإسكندرية من الغد في يوم الجمعة.

وأصبح في يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول انزل من باب السلسلة من تقدم ذكره من الأمر الخاصكية الممسوكين على البغال بالقيود إلى سجن الإسكندرية وقد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا تحصى وهم قسمان: قسم باق عليهم وقسم شامت لتقاعدهم عن القتال في خدمة ابن أستاذهم الملك العزيز يوسف وأيضاً لما كان يقع منهم في أيام أستاذهم من التكبر والجبروت.

ثم أرسل الأمير الكبير في اليوم المذكور إلى الأمراء القادمين من التجريدة بمال كبير له صورة لا سيما ما حمله إلى قرقماس فإنه كان جملة مستكثرة.

ثم في يوم الأحد تاسع شهر ربيع الأول خلع على الزيني عبد اللطيف الطواشي الرومي المنجكي المعروف بالعثماني أحد الجمدارية باستقراره مقدم المماليك السلطانية وأنعم عليه بإمرة عشرة لا غير وهو إقطاع النياية الذي كان بيد فيروز الركني نائب مقدم المماليك وكانت الخلعة عليه بين يدي العزيز بعثه الأمير الكبير إليه وأمره أن يخلع عليه واستقر في نياية المقدم جوهر المنجكي ثم في يوم الاثنين عاشره ركب السلطان الملك العزيز من القلعة ونزل إلى الميدان ومعه الزيني عبد الباسط ناظر الجيش وجماعة أخرى من خواصه الأصغر وركب الأمير الكبير من الحراقة وفي خدمته جميع الأمراء مشاة ما عدا أركماس الظاهري الدوادر الكبير وأقبغا التمراري أمير مجلس وساروا الثلاثة على خيولهم من الإسطبل السلطاني حتى نزلوا إلى الميدان وبه السلطان يسير.

فعندما رأوا الأمراء الملك العزيز ترحلوا عن خيولهم وقبلوا الأرض وتقدم الأمير الكبير جقمق وقبل رجل السلطان في الركاب ثم بعده جميع الأمراء فعلوا مثل فعله.

ثم تقدم الأمير يشبك السوداني حاجب الحجاب قبل الأرض وخلع عليه خلعة السفر لأنه كان انقطع عن رفقته لتوعك كان به وطلع في هذا اليوم انصرف الجميع عائدين في خدمة الأمير الكبير إلى أن أوصلوه إلى سلم الحراقة ووقفوا له هناك حتى سلم عليهم وعادوا إلى دورهم.

وكان سبب تأخر قرقماس عن الطلوع في هذا اليوم والذي قبله أمور: منها أنه كان في نفسه الوثوب على الأمر وفعل ما فعل من مسك الأمراء وغيرهم ليرج أمره بذلك فلم ينتج أمره وتقهقر وزادت عظمة الأتابك جقمق فعز عليه ذلك في الباطن وكان في ظنه أنه لا بد أن يملك الديار المصرية من يوم توجه إلى مكة وحكمها.

فلما عرف منه ذلك تقرب إليه جماعة من الذين يوهمون الناس أنهم صلحاء ولهم إطلاع على المغيبات وصاروا يبشرونه بسلطنة مصر وتخبره جماعة آخر بمنامات تدل على قصده فينعم عليهم بأشياء كثيرة.

ثم كلما نظر من يدعي معرفة علم النجوم يسأله عما في خاطره - وقد أشيع عنه حب الرئاسة - فيبشره الرمال أو المنجم أيضًا بما يسره من قبله وحسب اجتهاده لأخذ دراهمه.

فكان قرقماس ينتظر موت الملك الأشرف يومًا بيوم فاتفق موت الملك الأشرف باي وهو مسافر وإلى أن يحضر انتظم أمر الأتابك جقمق وتم فلم يلتفت إلى ما رأى من أمر جقمق بما سبق عنده أنه لا بد له من السلطنة وأخذ يسلك طريقًا تصادف ما هو قصده.

فدخل القاهرة مطلبًا فلم يلتفت إليه أحد.

وطلع إلى الأتابك جقمق وامتنع من طلوع القلعة إلى الملك العزيز حتى قبل الأرض من الإسطبل خوفًا من أن يقبض عليه يريد بذلك أن ينتبه إليه الناس فلم ينظر إليه أحد.

ثم أخذ في مسك الأمراء حتى يعظم في النفوس فلم يقع ذلك.

فانقطع بداره عن الطلوع إلى الأتابك مدة أيام وتعلل بأنه بلغه عن الأمير الكبير وحواشيه ما غير خاطره يظهر ذلك لتتسامع بغضبه الناس ويأتوه ليثور بهم فلم ينضم إليه أحد فاستدرك فارطه واستمر بداره إلى هذا اليوم.

فلما عاد الأتابك من عند الملك العزيز إلى سكنه بالحراقة من باب السلسلة أرسل إلى الأمير قرقماس المذكور الأمير تراز القرمشي رأس نوبة النواب وقراجا الأشرفي أحد مقدمي الألوف والزيبي عبد الباسط ناظر الجيش يسأله عن سبب انقطاعه عن الطلوع إلى الأمير الكبير في هذه الأيام فذكر لهم أنه بلغه عن حواشي الأمير الكبير من المؤيدة أنهم يتهموه بالركوب وإثارة الفتن وأنه يريد يتسلطن ولم يكن له علم بشيء من ذلك.

فما زالوا به حتى ركب معهم وطلع إلى الأمير الكبير بالحراقة من الإسطبل السلطاني فقام الأمير الكبير واعتنقه وأخذ بيده ودخلا مع أعيان الحاضرين إلى مبيت الحراقة وجلسا في خلوة وتعاتبا قليلا.

وأخذ الأمير الكبير يقول له إن قرقماس عنده في مقام روحه وإنه لم يتصل إلى هذا الموصلي إلا بقوته وكونه معه وأخذ قي مخادعته والأخذ بخاطره إلى أن تحقق قرقماس أنه لا يأتيه ما يكره من قبل الأتابك إلى أن يدبر لنفسه ما يوصله إلى غرضه.

ثم حلف له الأتابك على هذا المعنى جميعه وبكى واعتنقه وخرجا من المبيت وقد صفا ما بينهما ظاهرًا والباطن فلا يعلم ما فيه إلا الله تعالى.

وهو أن قرقماس لم يطلع في هذا اليوم إلى الأتابك إلا بعد أن عجز عما في خاطره فاحتاج إلى المداهنة حتى يطول أمره إلى أن يحصل له مراده.

ولم يخف ذلك عن الأتابك جقمق غير أنه رأى أنه لا يتم أمره فيما يروم إلا بموافقة قرقماس له أولاً ثم بعد ذلك يفعل ما بدا له.

وعندما قام قرقماس من مجلس الأتابك ليتوجه إلى داره قدم له الأتابك فرسًا بقماش ذهب من مراكيبه فركبه قرقماس ونزل إلى داره ومعه أيضًا الأمير تمرارز رأس نوبة النواب وقراجا وهما في خدمته إلى داره فأركب قرقماس كلا منهما فرسًا بقماش ذهب.

ثم أخذه القلق وأخذ يدبر في تأليف المماليك الأشرفية عليه فرأى أنه لا يتم له ذلك بالعطاء ولا بالملق لكثرتهم وإنما يتم له ذلك بسلطنة الأتابك جقمق لينفر عنه من كان من حزبه من المماليك الأشرفية وينضموا عليه وكان هذا حدثًا صائبًا ووقع له ما أراد غير أنه استعجل الأمر يريد الله.

فأخذ قرقماس من يومذاك يحسن للأتابك جقمق توليته السلطنة وخلع الملك العزيز.

ولا زال يلح عليه في ذلك وهو يلين تارة ويتوقف تارة وكان هذا الأمر في خاطر الأتابك وأصحابه غير أنه كان يستعظم الأمر ويخاف من نفور قرقماس عنه إذا فعل ذلك.

وأخذ ينتظر فرصة للوثوب بعد حين فحرك الله تعالى قرقماس حتى سأله في ذلك وألح عليه لما في غرضه في أيسر مدة لتعلم أن الله على كل شيء قدير.

ومن يومئذ هان الأمر على الأتابك وأخذ في أسباب السلطنة وكتب يطلب صهره القاضي كمال الدين محمد بن البارزي من دمشق.

ثم أصبح يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأول عملت الخدمة السلطانية وحضرها الأمير وكانت الخدمة السلطانية قد تركت من مدة أيام فأجراهم السلطان الملك لعزير على عادته من السكات وعدم الكلام وانفض الموكب.

ثم طلع الأمير قرقماس من الغد في يوم الجمعة وحضر الصلاة مع السلطان بالمقصورة من جامع القلعة ولم يطلع الأتابك جقمق.

ونزل قرقماس ولم يتكلم مع السلطان كلمة واحدة.

ثم في يوم السبت عملت الخدمة أيضًا بالقصر على العادة وحضر الأمير الكبير.

ثم في يوم الاثنين عملت الخدمة أيضًا.

كل ذلك بتدبير قرقماس وهو أنه لما علم أن الأمير الكبير جقمق تم أمره ولم يبق له منازع يعيقه عن السلطنة أخذ في عمل الخدمة حتى يجد نفسًا من الملك العزيز أو من

أحد من حواشيه حتى تصير له مندوحة لمطاوله الأتابك على السلطنة لأنه ندم على ما تفوه به ولم يجد لنفسه قوة حتى يرجع عن قوله لقوة شوكة الأتابك وكثرة أعوانه ممن اجتمع عليه من الطوائف لا سيما الطائفة المؤيدية فإنهم صاروا عصبًا له وغيرية على قرقماس لما كان بين قرقماس وبين الأمير دولات المحمودي المؤيدي من العداوة قديمًا لسبب السكات عنه أليق ودولات هو يومذاك عين المؤيدية ورئيسهم غير أن جميع طائفة الناصرية كانت مع قرقماس في الباطن لكونه خدائهم ولكن هم أيضًا ممن كان انضم على الأتابك وصار لهم به إمام كبير فلم يظهروا الميل لقرقماس في الظاهر مخافة أن لا يتم أمره وينحط قدرهم عند الأتابك فصاروا يلاحظونه بالقلب والخاطر لا بالفعل والقيام معه والأتابك جقمق يعرف جميع ذلك غير أنه يتجاهل عليهم تجاهل العارف لقضاء حاجته - انتهى.

ولما عملت الخدمة في هذه الأيام ولم يحصل لقرقماس غرضه عاد إلى رأيه الأول من الكلام في سلطنة الأتابك جقمق.

وألح عليه حتى أجابه صريحًا.

وكان في هذه الأيام كلها كلما طلع الأمراء إلى الخدمة السلطانية ينزل الجميع من القصر بعد انقضاء الخدمة إلى الأمير جقمق ويأكلون السمات عنده.

فلما كان آخر خدمة عملت عند الملك العزيز يوسف في يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الأول نزل قرقماس من عند السلطان مع جملة الأمراء واجتمع بالأمير الكبير وألح عليه بأنه يتسلطن في اليوم المذكور فلم يوافق جقمق على ذلك وواعده على يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول.

ووافق جميع الأمراء على خلع الملك العزيز وسلطنته إلا آقبا التمراري فإنه أشار عليه أن يؤخر ذلك ويتجرد إلى البلاد الشامية ويمهدا كما فعل الملك الظاهر ططر ثم يتسلطن مخافة من عصيان النواب بالبلاد الشامية عليه عقيب سلطنته قبل أن يرسخ قدمه فرد قوله قرقماس وأشار بسلطنته في يوم الأربعاء ووافق على ذلك جماعة المؤيدية فتم الأمر على ما قاله قرقماس.

وكان الحزم ما قاله آقبا التمراري وبيانه أنه لولا أن سعد الملك الظاهر جقمق حرك قرقماس للركوب في غير وقته لكان قرقماس انتصر عليه لكثرة من كان انضم عليه من المماليك الأشرفية وغيرهم وأيضًا لولا استعجال إينال الجكمي في صدمته العساكر المصرية لكان تم أمره لعظم ميل الناس إليه.

وأما تغري برميش نائب حلب فكان مسكه على غير القياس فإنه كان تركمانيًا ووافق جماعة كبيرة من التركمان مع قوته وكثرة ماله فكان يمكنه أن يتعب الملك الظاهر جقمق بتلك البلاد طول عمره فلهذا أشار آقبا التمراري بسفره قبل سلطنته.

وقد حسب البعيد ونظر في العواقب فلم يسمع الملك الظاهر له وتسلطن وقاسى بعد ذلك شدائد وأهوالاً أشرف منها غير مرة على زوال ملكه لولا مساعدة المقادير وخدمة السعد لما سبق له في القدم.

ولما كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة خلع الملك العزيز يوسف من الملك وتسلطن الأمير الكبير جقمق العلاني وتلقب بالملك الظاهر حسبا يأتي ذكره في أوائل سلطنته.

وكانت مدة

▲ سلطنة الملك العزيز على مصر

أربعة وتسعين يومًا.

ولم يكن للملك العزيز في السلطنة إلا مجرد الاسم فقط ولم تطل أيامه ولا تحكم في الأمور لتشكر أفعاله أو تذم وإنما كان آلة في الملك والمتصرف غيره لصغر سنه وعدم أهلية ممالك أبيه.

ولما خلع الملك العزيز أدخل إلى الدور السلطانية واحتفظ به وسكن بقاعة البربرية أشهرًا حتى تسحب منها ونزل إلى القاهرة واختفى أيامًا كثيرة حتى ظفر به وحبس بالقلعة أيامًا قليلة ثم نقل إلى سجن الإسكندرية حسبما يأتي ذكر ذلك كله مفصلاً في ترجمة الملك الظاهر جقمق إن شاء الله تعالى.

واستمر الملك العزيز بسجن الإسكندرية على أجمل حال وأحسن طريقة من طلب العلم وفعل الخير إلى يومنا هذا أحسن الله عاقبته بمحمد وآله.

وهو ثاني سلطان لقب بالملك العزيز من ملوك مصر والأول: العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب والثاني: العزيز هذا.

وهو أيضًا ثاني من سمي يوسف من ملوك مصر فالأول السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب والثاني هذا والله تعالى أعظم.

سلطنة الظاهر أبي سعيد جقمق السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلاني الظاهري الجركسي وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والعاشر من الجراكسة وأولادهم.

تسلطن بعد خلع الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي باتفاق الأمراء وأعيان المملكة على سلطنته.

ولما تم أمره استدعي الخليفة المعتضد بالله داؤد والقضاة الأربعة والأمير قرقماس أمير سلاح وسائر الأمراء وجميع أعيان الدولة إلى الحراقة بباب السلسلة من الإسطنبول السلطاني وجلس كل واحد في مجلسه.

فافتتح الأمير قرقماس بالكلام مع الخليفة والقضاة بأن قال: " السلطان صغير والأحوال ضائعة لعدم اجتماع الكلمة في واحد بعينه.

ولابد من سلطان ينظر في مصالح المسلمين وينفرد بالكلمة ولم يكن يصلح لهذا الأمر سوى الأمير الكبير جقمق هذا "

فقال جقمق: " هذا لا يتم إلا برضا الأمراء والجماعة "

فصاح الجميع: " نحن راضون بالأمير الكبير "

فعند ذلك مد الخليفة يده وبايعه بالسلطنة ثم بايعه القضاة والأمراء على العادة.

ثم قام من فورهِ إلى مبيت الحراقة ولبس الخلعة الخليفية السوداء وتقلد بالسيف وخرج ركب فرسا أعد له بأبهة السلطنة وشعار الملك وحملت على رأسه القبة والطير حملها الأمير قرقماس أمير سلاح والأمراء مشاة بين يديه وسار إلى أن طلع إلى القصر السلطاني بقلعة الجبل وجلس على تخت الملك وقبل الأمراء الأرض بين يديه على العادة.

وكان جلوسه على تخت الملك في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة على مضي سبع عشرة درجة من النهار المذكور والطاقع برج الميزان بعشر درجات وخمس وعشرين دقيقة وكانت الشمس في السادس والعشرين من السنبله والقمر في العاشر من الجوزاء وزحل في الثاني والعشرين من الحمل والمشترى في السابع عشر من القوس والمريخ في الخامس من الميزان والزهرة في الحادي عشر من الأسد وعطارد في الرابع عشر من السنبله والرأس في الثاني من الميزان.

أصل الملك الظاهر جقمق وقدمه إلى مصر ونسبته بالعلائي ثم بالظاهري فنقول: كان جاركسي الجنس وأخذ من بلاده صغيرًا فاشتراه خواجا كذلك وكذلك بفتح الكاف وسكون الزاي وفتح اللام وكسرهما وسكون الكاف الثانية.

وجلبه خواجا كذلك المذكور إلى الديار المصرية فابتاعه منه الأتابك إينال اليوسفي وقيل ولده أمير علي بن إينال المذكور وهو الأصح ورباه عنده وأرسله مع والدته إلى الحج.

ثم عاد جقمق إلى القاهرة في خدمة والدة أمير علي المذكور وكانت والدة أمير علي متزوجة بشخص من الأجناد من أمير آخورية السلطان يسمى نغهاي.

ونغهاي بفتح النون والغين المعجمة وبعدهما تاء مفتوحة وألف وباء ساكنة.

ولما قدم جقمق إلى القاهرة أقام بها مدة يسيرة وتعارف مع أخيه جاركس القاسمي المصارع وكان جاركس يوم ذاك من أعيان خاصكية أستاذه الملك الظاهر برقوق فكلم جاركس الملك الظاهر برقوقًا في أخذ جقمق هذا من أستاذه أمير علي بن إينال فطلبه الملك الظاهر منه في سرحة سرباقوس وأخذه وأعطاه لأخيه جاركس إنيا بطبقة الزمام من قلعة الجبل.

وقد اختلفت الأقوال في أمر عتقه: فمن الناس من قال إن أمير علي كان أعتقه قبل أن يطلبه الملك الظاهر منه فلما طلبه الملك الظاهر سكت أمير علي عن عتقه لتنال جقمق السعادة بأن يكون من جملة مشتروات الملك الظاهر وكان كذلك.

وهذا القول هو الأقوى والمتواتر بين الناس ولما يأتي بيانه.

ومن الناس من قال إنه كان في الرق وقدمه أمير علي إلى الملك الظاهر لما طلبه منه ولو كان حرًا يوم ذاك لاعتذر بعتقه.

وهذا أيضًا مقبول غير أن الذي يقوي القول الأول يحتج بأن الملك الظاهر جقمق هذا لما كان أمير طبلخاناه وخازن دارًا في الدولة المؤيدية شيخ أخذ الشهابي أحمد بن أمير علي بن إينال اليوسفي وهو صغير ووقف به إلى السلطان الملك المؤيد وسأل السلطان فيه ليكون من جملة المماليك السلطانية فسأل المؤيد عن أحمد المذكور فقال جقمق: " يا خوند هذا ابن استاذي أمير علي " فقال المؤيد: " ومن أين يكون هذا ابن استاذك الملك الظاهر أعتقك بحضرتنا الجميع وأخرج لك خيلا على العادة ".

فقال جقمق: " نعم هو كما قال السلطان غير أن أمير علي كان أعتقني قبل ذلك وسكت عن عتقي لما طلبني الملك الظاهر منه ".

فغضب الملك المؤيد من ذلك ووبخه كونه أنكر عتاقه الملك الظاهر له واعترف بعنائة أمير علي ولم ينزل لذلك أحمد المذكور في جملة المماليك السلطانية فأخذه جقمق عنده وتولى تربيته.

قلت: وعندني اعتراض آخر وهو أنه يمكن أن الملك الظاهر كان هو الذي أعتقه وإنما أراد الملك الظاهر جقمق بقوله إن أمير علي أعتقه ليعظم الأمر على الملك المؤيد لينزل أحمد المذكور في جملة المماليك السلطانية لكثرة حنوه على أحمد المذكور ولم يدر أن الملك المؤيد يغضبه ذلك فإنه يقال في الأمثال: " صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها "

وكان الملك الظاهر جقمق في طبعه الرأفة والشفقة على أيتام الأجانب فكيف الأقارب ولا أستبعد ذلك - انتهى.

فنقول: واستمر جقمق هذا عند أخيه بطبقة الزمام مدة يسيرة وأعتقه الملك الظاهر برقوق وأخرج له خيلاً وقماشاً على العادة بمفرده وهو أن بعض المماليك السلطانية من طبقة الزمام المذكورة توفي فقام جاركس في مساعدة أخيه جقمق هذا حتى أخذ له جامكيته وخيله.

وأعتقه الملك الظاهر ثم جعله بعد قليل خاصكياً كل ذلك بسفارة أخيه جاركس المذكور.

واستمر جقمق خاصكياً إلى مات الظاهر برقوق وصار ساقياً في سلطنة الملك الناصر فرج ثم تأمر عشرة إلى أن خرج أخوه جاركس عن طاعة الملك الناصر فرج فأمسك السلطان جقمق هذا وحبسه بواسطة عصيان أخيه فدام في السجن إلى أن شفع فيه الوالد وجمال الدين يوسف الأستادار وأطلق من السجن.

ثم قتل جاركس فانكف جقمق هذا عن الدولة بتلطف إلى أن قتل الملك الناصر وملك شيخ المحمودي الديار المصرية فأنعم عليه بإمرة عشرة ثم نقله بعد سلطنته بمدة إلى إمرة طبلخاناه جعله خازن داراً كبيراً بعد انتقال الأمير يونس الركني إلى نيابة غزة.

ثم نقل إلى إمرة مائة وتقدمة ألف في دولة المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ.

ثم صار حاجب الحجاب بعد الأمير طرباي في أواخر الدولة الصالحية محمد أو في أوائل الدولة الأشرفية برسباي.

ثم نقل إلى الأمير آخورية الكبرى الكبرى عوضاً عن الأمير قصره من تمرار بحكم انتقال قصره إلى نيابة طرابلس في أوائل صفر من سنة ست وعشرين وثمانمائة وتولى الحجوية من بعده الأمير جرباش الكريمي المعروف بقاشق.

ثم نقل من الأمير آخورية إلى إمرة سلاح بعد إينال الحكمي واستقر عوضه في الأمير آخورية الأمير حسين بن أحمد البهسني التركماني المدعو تغري برمش.

ودام على ذلك سنين إلى أن نقل إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية.

عوضًا عن إينال الجكمي أيضًا بحكم انتقال الجكمي إلى نيابة حلب بعد عزل قرقماس الشعباني وقدمه على إقطاع إينال الجكمي مقدم ألف بالقاهرة.

فاستمر أتابكًا إلى أن مات الملك الأشرف برسباي في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة بعد أن أوصى جقمق على ولده وجعله مدير مملكته إلى أن صار من أمره ما رجاه إلى السلطنة.

وقد ذكرنا ذلك كله مفصلاً غير أننا أعدناه هنا لينتظم سياق الكلام مع سياقه - انتهى.

ولنعد الآن إلى ما كنا فيه: ولما جلس الملك الظاهر جقمق على تخت الملك وتم أمره وخلع على الخليفة وعلى الأمير قرقماس وقيد لهما فرسين بقماش ذهب ولقب بالملك الظاهر أبي سعيد جقمق.

ثم نودي في الحال بالقاهرة ومصر بسلطنته والدعاء له وأن النفقة لكل ملوك من المماليك السلطانية مائة دينار فابتهج الناس بسلطنته.

ثم أمر السلطان فقبض على الطواشي صفي الدين جوهر الجلباني الحبشي لالا الملك العزيز وهو يومئذ زمام الدار السلطاني وخلع على الزيني فيروز ثم أصبح في يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الأول المذكور خلع على الأمير قرقماس الشعباني الناصري - أمير سلاح المعروف بأهرام ضاغ - باستقراره أتاك العساكر بالديار المصرية عوضًا عن نفسه وخلع على الأمير أقبغا التمرزي أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضًا عن قرقماس المذكورة وخلع على الأمير يشبك السوداني حاجب الحجاب باستقراره أمير مجلس عوضًا عن أقبغا التمرزي.

وكان السلطان خير تمراز القرمشي رأس نوبة النوب في وظيفة أمير مجلس أو الأمير أخورية الكبرى فمال إلى الأمير أخورية الكبرى فخلع عليه بها عوضًا عن الأمير جانم الأشرفي بحكم حبسه بثر الإسكندرية.

وخلع على أركماس الظاهري الدوادر الكبير باستقراره على وظيفة الدوادية وعلى الأمير قراخا الحسن الظاهري باستقراره رأس نوبة النوب عوضًا عن تمراز القرمشي وعلى الأمير تغري بردي البكلمشي المؤذي باستقراره حاجب الحجاب عوضًا عن يشبك السوداني وعلى الأمير تنبك البرديكي أحد أمراء الألوف باستقراره في نيابة قلعة الجبل ثاني مرة عوضًا عن تنبك النوروزي الجقمقي وخلع على الأمير قراخا الأشرفي فوقانيًا وهو آخر من بقي من مقدمي الألوف.

وباقي الإقطاعات شاغرة إلى الآن عن أصحابها.

وكتب بحضور الأمير جرباش الكريمي قاشق من ثغر دمياط وكان له به سنين كثيرة بطالًا.

ثم خلع السلطان على دولات باي المحمودي الساقى المؤيدي - أحد أمراء العشرات ورأس نوبة - باستقراره أمير أخور ثانيًا عوضًا عن يخشباي المقبوض عليه قبل تاريخه وعلى الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي - أحد أمراء العشرات ورأس نوبة - باستقراره محتسب القاهرة عوضًا عن الإمام نور الدين السويفي وعلى قاني باي الجاركسي - الذي تأمر قبل تاريخه بمدة يسيرة - باستقراره شاد الشراب خاناه عوضًا عن علي باي الأشرفي بحكم القبض عليه واستمر على إمرة عشرة وعلى الأمير قاني باي الأبوكري

الأشرفي الساقى باستقراره خازندارًا عوضًا عن حكم خال العزيز بحكم القبض عليه أيضًا.

ثم أنعم السلطان على جماعة كثيرة جدًا باستقرارهم أمراء عشرات يطول الشرح في ذكرهم لأنها دولة أقيمت بعد ذهاب دولة وتغير جميع من كان من أرباب الوظائف الذين كانوا في الدولة الأشرفية من الخاصكية وغيرهم واستقر جماعة كبيرة رؤوس نوب منهم من خلع عليه قبل أن يلبس فوقاني الإمرة وهو إلى الآن بحياسة ذهب.

ونالت السعادة جميع المماليك المؤيدية الأصغر بحيث إن بعضهم كان فقيرًا يعيش بالتكدي فأخذ إقطاعًا هائلًا واستقر بوابًا دفعة واحدة وأشياء كثيرة من هذا ذكرناها في غير هذا المحل.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين شهر ربيع الأول المذكور جلس السلطان الملك الظاهر جقمق بالمقعد المطل على الحوش تجاه باب الحوش المذكور وابتدأ فيه بنفقة المماليك السلطانية لكل ثم في يوم الثلاثاء خامس عشرينه وصل الأمير جرباش قاشق من ثغر دمياط فأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالقاهرة.

ثم في يوم الخميس سابع عشرينه عمل السلطان المولد النبوي بالحوش على العادة وزاد فيه زيادات حسنة من كثرة الأسمطة والحلاوات وانفض الجميع بعد صلاة المغرب.

ثم في يوم السبت تاسع عشرينه تجمع تحت القلعة نحو ألف مملوك من مماليك الأمراء يريدون النفقة كما نفق على المماليك السلطانية فأمر لهم السلطان بنفقة فنفتت فيهم ولم يكن لذلك عادة قبل تاريخه.

ثم في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر قبض السلطان تاج الدين عبد الوهاب الأسلمي - المدعو بالخطير - ناظر الإسطبل السلطاني وعلى ولديه والثلاثة أشكال عجيبة.

وفيه كانت مبادئ وقعة قرقماس مع الملك الظاهر جقمق.

وخبره أنه لما كان يوم الثلاثاء المذكور ثار جماعة كبيرة من المماليك القرانيص ممن كان قام مع الملك الظاهر جقمق على المماليك الأشرفية وطلبوا زيادة جوامكهم ورواتب لحمهم ووقفوا تحت القلعة فأرسل إليهم السلطان يعدهم بعمل المصلحة فلم يرضوا بذلك.

وأصبحوا من الغد في يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر على مواقفهم.

وركب السلطان ولعب الكرة بالحوش السلطاني مع الأتابك قرقماس الشعباني وغيره من الأمراء إلى أن انتهى لعبهم فأسر بعض من تأمر من المماليك المؤيدية إلى السلطان بأن الأتابك قرقماس يريد الركوب على السلطان فنهره السلطان واستبعد وقوع ذلك من قرقماس لا سيما في هذا اليوم.

هذا وقد كثر جمع المماليك السلطانية من الأشرفية وغيرهم ووقفوا تحت القلعة كما كانوا في أمسه ثم وقفوا عند باب المدرج أحد أبواب القلعة وصاروا كلما نزل أمير من الخدمة السلطانية اجتمعوا به وكلموه في عمل مصالحهم.

ووقع لهم ذلك مع جماعة كبيرة من الأمراء إلى أن نزل الأتابك قرقماس فأحاطوا به وحدثوه في ذلك وأغلظوا في حق السلطان فوعدهم قرقماس بأنه يتحدث بسببهم مع

السلطان وبش لهم وألان معهم في الكلام فطمعوا فيه وأبوا أن يمكنوه من الرجوع إلى السلطان وكلموه في الركوب على السلطان وهم يوافقوه على ذلك فأخذ يمتنع تمنعًا ليس بذلك.

وظهر من كلامه في القرائن أنه يريد كثرة من يكون معه وأن ذلك لا يكون في هذا اليوم.

فلما فهموا منه ذلك تحركت كوامن المماليك الأشرفية من الملك الظاهر جقمق وانهزوا الفرصة وقصدوا الركوب ووقوع الحرب في الحال بجهل وعدم دربة بالوقائع والحروب وأخذوه ومضوا وهم في خدمته إلى بيته وكار سكنه بملكه بالقرب من المدايغ خارج باب زويلة.

وتلاحق بهم جماعة كثيرة من أعيان المماليك السلطانية وبعض الأمراء وعليهم السلاح وراودوه على الركوب فلم يعجبه ذلك وقال لهم ما معناه أن له أصحابًا وخداشية كثيرة وجماعة من أكابر الأمراء لهم معه ميل وعرض " فاصبروا إلى باكر النهار من الغد لتتشاور معهم في أمرنا هذا وفيما نفعله " فامتنعوا من ذلك وأظهروا له إن لم يركب في هذا اليوم لم يوافقوه بعد ذلك.

وكان جمعهم قد كثر إلى الغاية ولكن غالبهم المماليك الأشرفية.

وكان الذي قال له ذلك الأمير مغلباي الجقمقي أستاذار الصحة على لسان بعض أصحابه وقيل إن قرقماس أراد بهذا الكلام توقفهم حتى يتفرقوا عنه ثم يصعد هو إلى القلعة ويعلم السلطان بذلك.

وعندي أن الصحيح أنه لم يرد بقوله هذا إلا تحكيم أمره حتى يأتوه من الغد بجموعهم وبأخذوه عصبًا كما فعل القوم بالملك الظاهر جقمق ويجتمع عليه حواشيه وأصحابه - وأنا أعرف بحاله من غيري.

فأبو عليه وألحوا في ركوبه في الوقت وخوفوه تفرق من اجتمع عليه في هذا اليوم وكانوا خلائق كثيرة إلى الغاية.

فنظر عند ذلك في أمره فلم يجد بدًا من موافقتهم وركوبه معهم في هذا اليوم لما في نفسه من الوثوب على السلطنة والاستبداد بالأمر وكان فيه طيش وخفة في صفة عقل ورزانة لا يفهم منه ذلك إلا من له ذوق ومعرفة بنقد الرجال.

وخاف قرقماس إن لم يركب في هذا اليوم وأراد الركوب بعد ذلك لا يوافقه أحد من هؤلاء فينحل بذلك برمه ويطول عليه الأمر لعظم صفة مظلوم مبتلى غير مرحوم ".

وأحسن من هذا قول القائل وهو لسان حال الملك الظاهر جقمق: الطويل وكل أداريه على حسب حاله سوى حاسدي فهي التي لا أنالها وكيف يداري المرء حاسد نعمة إذا كان لا يرضيه إلا زوالها فعند ذلك قام ولبس آلة الحرب هو ومماليكه وركب من وقته قريب الظهر من يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر المذكور وخرج من بيته بعساكر عظيمة ومعه أمراء العشرات: الأمير أزيك السيفي قاني باي نائب الشام المعروف بأزيك جحا والأمير جاتم الأشرفي المعروف برأس نوبة سيدي وكلاهما أمير عشرة.

وقد وافقه غيرهما مثل الأمير قراجا الأشرفي أحد مقدمي الألوف والأمير مغلباي الجقمقي أستاذار الصحة ووعدها أنهما يوافقاه بمماليكهما بالرملة.

وخرج الأمير قرقماس من بيته بمجموعه فوافيته خارج باب زويلة من غير ميعاد وسرت معه وصحبته عساكر كثيرة من الأشرافية وغيرهم وأنا بجانبه.

فتأملت في أمره فلم يعجبني حاله لاضطراب عساكره ولعدم من يرأسهم من أعيان الأمراء ممن بهم التجارب وأيضًا لكثرة قلقه في مسيره وعدم ثباته في كلامه.

وظهر لي منه أيضًا أنه لم يعجبه ما هو فيه من اختلاف كلمة من هو معه من المماليك السلطانية وأرائهم المفلوكة وكثرة هرجهم ثم صار يقول في مسيره: " الله ينصر الحق " فيقول آخر: " الله ينصر الملك العزيز يوسف " ويقول آخر: " الله ينصر الأمير قرقماس " ومنهم من قال: " الله ينصر السلطان " ولم أدر أي سلطان قصد كل ذلك في تلك المسافة القريبة من بيته إلى الرملة.

ثم كشف قرقماس رأسه وصاح: " الله ينصر الحق " غير مرة فتعجبت أنا من دعائه لأي حق يريد فلما أن كشف رأسه تفاعل الناس بخذلانه وظهر لي منه أيضًا أنه كان يتخوف من المماليك الأشرافية لما بلغني بعد ذلك أنه بلغه في اليوم المذكور أنهم إذا انتصروا على الملك الظاهر جقمق وملكوا القلعة ضربوا رقبة قرقماس فنفر خاطره من ذلك.

وكأنه بلغه ذلك بعد ركوبه وشروعه فيما هو فيه فبقي لا يمكنه إلا الإتمام لأن الشروع ملزم والمقصود أنه سار إلى أن وصل قريبًا من جامع السلطان حسن فوافاه الأمير قراجا بطلبه ومماليكه وعليهم السلاح والأمير مغلباي الجقمقي وسارا معه من تحت مدرسة السلطان حسن إلى بيت قوصون تجاه باب السلسلة وكان يسكنه يوم ذاك الأمير أركماس الظاهري الدوادر الكبير وقد أغلقه مماليك أركماس المذكور فقصد قرقماس المذكور عبور البيت المذكور فوجده مغلقًا.

ثم دخله بعد أمور فإذا بأركماس الظاهري قد خرج من باب سر البيت المذكور ومضى إلى حال سبيله محمولًا لعجزه عن الحركة لوجع كان يعتريه برجليه وأيضًا لم يكن من هذا القبيل.

وملك قرقماس البيت ودخله وأخذ فيما يفعله مع عساكر السلطان من القتال وغيره فلم ينتظم له أمر ولا رتب له طلب من كثرة الغوغاء والهرج حتى إن باب السلسلة كان مفتوحًا منذ قدم قرقماس إلى الرملة وأخذ بيت أركماس الظاهري والأمير تمرار القرمشي الأمير أخور الكبير لم يلتفت إلى غلقه ولا تحرك من مجلسه ولا ألبس أحدًا من مماليكه السلاح ومن عظم تراخيه في ذلك نسبه للممالة مع قرقماس - ولا يبعد ذلك.

ومع هذا كله لم يلتفت أحد من أصحاب قرقماس إلى أخذ باب السلسلة ولا سار أحد إلى جهته جملة كافية لعظم اضطرابهم وقلة سعدهم.

كل ذلك والسلطان الملك الظاهر إلى الآن بالقلعة في أناس قليلة من خواصه وهو لا يصدق ما قيل له في حق قرقماس إلى أن حضر قرقماس إلى الرملة وملك بيت قوصون فعند ذلك ركب السلطان من الحوش السلطاني ونزل في أمرائه الصغار وخاصيته إلى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرملة وقد صحب معه فرسًا عليه قماش ذهب بوهم به أنه لأجل قرقماس إذا طلع إليه طائغًا وأن قرقماس أرسل يقول له إنه يريد أن يفر من المماليك الأشرافية ويطلع إلى القلعة مسك بهذه الحركة جماعة كبيرة عن التوجه إلى قرقماس من خدائشيته وأصحابه.

كان هذا الذي فعله الملك الظاهر من أكبر المصالح فإن كان على حقيقته فقد نفع وإن كان حيلة من الملك الظاهر جقمق فكانت في غاية الحسن ومن أجود الحيل.

ولما جلس الملك الظاهر بالمقعد من الإسطبل السلطاني المطل على الرميّة نزلت جماعة من خاصكته مشاة وعليهم السلاح وناوشوا القرقماسية بالقتال قليلاً.

ثم مر السلطان فنودي: " من كان من حزب السلطان فليتوجه إلى بيت الأمير آقبغا لتمراري أمير سلاح " وكان سكن آقبغا المذكور بقصر بكتمر الساقى بالقرب من الكبش تجاه مدرسة سنجر الجاولي ".

فلما سمع الأمراء والمماليك المناداة ذهبوا إلى بيت الأمير آقبغا التمراري فاجتمع عنده خلائق وجماعة كبيرة من الأمراء.

فممن اجتمع عنده من مقدمي الألوف: الأمير قراخا الحسني رأس نوبة النوب وحاجب الحجاب تغري بردي البكلمشي المؤذي ومن الطبلخانا وغيرهم: الأمير أسنبغا الطياري وعدة كبيرة.

ثم أرسل آقبغا التمراري رأس نوبته لكشف خبر قرقماس ومن وافقه من الأمراء فتوجه المذكور وعاد إليه بالخبر أنه ليس معه من الأمراء إلا قراجا وأزبك جحا ومغلباي الجقمقي وجانم الأشرفي.

فقال آقبغا: " إذن فلا شيء ".

وركب فرسه وركب الأمراء معه بمن انضم عليهم من المماليك السلطانية وساروا إلى أن وصلوا إلى صليبة أحمد بن طولون عند الخانقاه الشيخونية ووقفوا هناك وتشاوروا في مرورهم إلى باب السلسلة وقد ملأت عساكر قرقماس الرميّة فمن الناس من قال: " نتوجه من على المشهد النفيسي إلى باب القرافة ثم نطلع إلى القلعة " ومنهم من قال غير ذلك.

وبينا هم في ذلك ورد عليهم الخبر أن الأمير قراجا ومغلباي الجقمقي خرجا من عسكر قرقماس ولحقا بالسلطان فعند ذلك قوي عزم الأمراء على الطلوع إلى القلعة من سويقة منعم فساروا بمن معهم إلى أن صاروا بأخر سويقة منعم فحركوا خيولهم يداً واحدة إلى أن وصلوا إلى القلعة بعد أن كبا بأقبغا التمراري فرسه ثم قام به ولم يفارق السرج.

وظلّوا الجميع إلى القلعة وقبلوا الأرض بين يدي السلطان فأكرمهم السلطان غاية الإكرام وندبهم لقتال قرقماس.

فنزلوا من وقتهم بأطلابهم ومماليكهم وقد انضم معهم جميع أمراء الألوف ومخيرها.

وصف آقبغا عساكره والأطلاب الذين معه وقبل أن يعي عساكر السلطان صدمته القرقماسية من غير تعب ولا مصاففة لأن قرقماس لما وقف تجاه باب السلسلة لم يقدر على تعب عساكره لكثرة المماليك وقلّة من معه من الأمراء ووقف هو بينهم في الوسط ولم يكن لمعسكره قلب ولا ميمنة ولا ميسرة وذلك لقلّة معرفّة أصحابه بممارسة الحروب وتعبية العساكر.

وكان ذلك من أكبر الأسباب في هزيمة قرقماس فإنه تعب في موقفه ذلك اليوم غاية التعب فصار تارة يكر في الميمنة وتارة في الميسرة وتارة يقاتل بنفسه حتى أثن جراحه وتارة يعود إلى سنجقه.

ولم يقع ذلك لعساكر السلطان فإن غالبهم كانوا أمراء ألوف وطبلخانات وعشرات فأما مقدمو الألوف فوقفوا أطلابهم تحت القلعة تجاه قرقماس كل طلب على حدته فصاروا كالتعبية.

وبرزت الأمراء والخاصكية لقتال قرقماس طائفة بعد أخرى هذا مع معرفتهم بمكائد الحروب وأحوال الوقائع وأقبغا التمرازي في اجتهاد يعبي العساكر السلطانية ميمنة وميسرة وقلبًا وجناحين.

وكان قصده تعبية المجنح فلم يمهل القرقماسية وبادروه بالقتال والنزال من غير إذن قرقماس فتصادم الفريقان غير مرة والهزيمة فيها على السلطانية وتداول ذلك بينهم مرارًا كثيرة واشتد القتال وفشت الجراحات في الطائفتين وقتل الأمير حكم النوروزي أحد أمراء العشرات بوسط الرملة وهو من حزب السلطان.

كل ذلك ومناذي قرقماس ينادي في الناس: " من يأتي قرقماس من المماليك السلطانية فله مائتا دينار ومن يأتيه من الزعر فله عشرون دينار " فكثر جمعه من الزعر والعامه.

فأخذ الملك الظاهر جقمق ينثر الذهب على الزعر فمالوا إليه بأجمعهم وقال لسان حالهم: " درة معجلة ولا درة مؤجلة ".

ثم أمر السلطان بمناد فنادى من أعلى سور القلعة: " من كان في طاعة السلطان فليحضر وله الأمان كائن من كان وله كذا وكذا " وأوعد بأشياء كثيرة.

كل ذلك والقتال في أشد ما يكون.

ولم يكن غير ساعة جيدة إلا وأخذ عسكر قرقماس في تقهقر وتوجهت الناس إلى السلطان شيئًا بعد شيء.

وكان جماعة من أصحابنا من الناصرية وقفوا عند الصوة من تحت الطبلخاناه السلطانية حتى يروا ما يكون من أمر خشداشهم الأتابك قرقماس وهواهم وميلهم إليه فإنه قيل في الأعصار الخالية: " لا أفلح من هجيت قبيلته " فلما رأوا أمر قرقماس في إدبار وأخذ أصحابه في التفرق عنه انحازوا بأجمعهم إلى جهة باب السلسلة وأظهر كل واحد منهم أنه كان ممن قاتل قرقماس.

ولم يخف ذلك على الملك الظاهر لكنه لم يسعه يوم ذاك إلا السكات وبالله لقد رأيت الأمير آقبغا التركماني الناصري وهو يحق بزخمته على طلبه ويندب الناس لأخذ قرقماس بعد أن أشرف على الهزيمة وعبرته قد خنقته حتى إنه لا يستطيع الكلام من ذلك.

ولما كان بين الظهر والعصر أخذ قرقماس في إدبار واضمحل عساكره وذهبت أصحابه وجرح هو في وجهه ويده وكل وتعب وانفلت عنه جموعه وصار الرجل من أصحابه يغير لبسه ثم يطلع في الحال إلى القلعة حتى ينظره السلطان هذا والرمي عليه من أعلى القلعة مترادف بالسهم والنفوط.

وكان أصحاب قرقماس في أول حضوره إلى الرملة اقتحموا باب مدرسة السلطان حسن فلم يقدروا على فتحه فأحرقوه ودخلوا المدرسة وصعدوا على سطحها وأرموا على السلطان بالنشاب والكفيات إلى أن أبادوا القلعين ومع هذا كله وأمر قرقماس في إدبار.

وقبل أن تقع الهزيمة على عساكر قرقماس من الذين ثبتوا معه فر العاجل فانهزم عند ذلك عسكره بعد أن ثبتوا بعد ذهابه ساعة ثم انقلبوا الأدبار.

فما أذن العصر إلا وقد تمت الهزيمة بعد أن جرح خلائق من الطائفتين.

فكان ممن جرح من أعيان السلطانية: الأمير آقبا التمراري أمير سلاح والأمير بردي المؤذي حاجب الحجاب برمح أخرج شدقه لزم منه الفراش مدة وأشرف على الموت والأمير أسنبغا الطياري أيضًا من طعنة رمح أصابه في ضلعه وجماعة كثيرة من الخاصكية والمماليك يطول الشرح في تسميتهم.

وعندما انهزمت عساكر قرقماس أخذوا سنجقه وطلعوا به إلى السلطان قرقماس فلم يعرف أين ذهب فتوهم السلطان أنه توجه إلى جهة الشام فندب آقبا التمراري في جماعة إلى جهة الخانقاه فسار إلى أن قارب المرح والزيات فلم يجد في طريقه أثر أحد من العساكر فعلم أن قرقماس اختفى بالقاهرة فعاد.

وأما الزعر فإنهم لما رأوا الهزيمة على القرقماسية أخذوا في نهبهم توجهوا إلى داره فنهبوا وأخذوا جميع ما فيها.

وفي الحال سكنت الفتنة وفتحت الدكاكين ونودي بالأمان والبيع والشراء.

وأخذ أهل الحرس في تتبع قرقماس وحواشيه وندب السلطان أيضًا جماعة من خواصه في الفحص عن أمره.

وما أمسى الليل حتى ذهب أثر الفتنة كأنها لم تكن وبات الناس في أمن وسلام.

وأما السلطان فإنه لما تحقق هزيمة قرقماس قام من مجلسه بمقعد الإسطبل وطلع إلى القلعة مؤيدًا منصورًا كأول يوم تسلطن فإنه كان في بحران كبير من قرقماس وشدة بأسه وعظم شوكته وجلالته في النفوس.

وقد كان الملك الظاهر يتحقق أن قرقماس لا بد له من الركوب عليه لحيه للرئاسة وتنشعب رأسه بالسلطنة ولا يمكنه القبض عليه لاضطراب أمره كما هي أوائل الدول فكان السلطان يريد مطاولته من يوم إلى يوم إلى أن يتمكن منه بأمر من الأمور فعجل الله له أمره بعد شدة هالته عقبها فرج وأمن.

ولما أصبح يوم الخميس خامس شهر ربيع الآخر عملت الخدمة السلطانية بالقصر السلطاني وطلع القضاة والأعيان وهنؤوه بالنصر والظفر وقد وقف على باب القصر جماعة من أمراء المؤيدية الرؤوس نوب مثل جانبك المحمودي وعلي باي العجمي وأمثالهما ومنعوا المماليك الأشرفية من الدخول إلى الخدمة السلطانية وصار كل واحد منهم يضرب المملوك من الأشرفية على رأسه وأكتافه بالعصي حتى يمنعه من الدخول هذا بعد أن يوسعه سبًا وتوبيخًا وقطع رواتب جماعة كثيرة منهم.

ثم أمر السلطان القضاة فجلسوا بجامع القلعة بسبب قطع سلالم مآذن مدرسة السلطان حسن فحكم قاضي القضاة شمس الدين محمد بن البساطي المالكي بقطعها وألزم الناظر على المدرسة بقطعها السلالم المذكورة فقطعت في الحال.

ثم أمر السلطان بالفحص عن قرقماس ونودي عليه بشوارع القاهرة وهدد من أخفاه فظفر به من الغد في يوم الجمعة سادس شهر ربيع الآخر.

وكان من خبره أنه لما انهزم سار وحده إلى جهة الرصد وقيل معه واحد من حواشيه فأقام به نهاره ثم عاد من ليلته - وهي ليلة الخميس - إلى جهة الجزيرة ثم مضى منها إلى بستانه بالقرب من موردة الجبس وقد ضاقت عليه الدنيا بأسرها وكاد يهلك من الجوع والعطش.

فلما رأى ما حل به بعث إلى الزيني عبد الباسط يعرفه بمكانه ويأخذ له أمانًا من السلطان.

فركب عبد الباسط في الحال وطلع إلى السلطان في بكرة يوم الجمعة المذكور وعرفه بأمر قرقماس فندب السلطان ولده المقام الناصري محمدًا للنزول إليه فركب وسار في خدمته عبد الباسط حتى أتوا إلى موضع كان فيه قرقماس.

حدثني المقام الناصري محمد المذكور قال: لما دخلت على قرقماس قام إلي وانحط يقبل قدمي فمنعته من ذلك فغلبنني وقبل قدمي ثم يدي ثم شرع يتخضع إلي ويتضرع وقد علاه الذل والصغار ولم أر في عمري رجلًا ذل كذلته ولا جزع جزعه.

وأخذت أسكن روعه وجعلت في عنقه منديل الأمان الذي أرسله والدي إليه.

فقبل يدي ثانيًا ثم أراد الدخول تحت ذيلي فلم أمكنه من ذلك إجلالًا له.

ثم خرجنا من ذلك المجلس وركبنا وأركبناه فرسًا من جنائبي ومضينا به إلى القلعة وهو في طول طريقه يبكي ويتضرع إلي بحيث إنه رق عليه قلبي.

وكلما مررنا به على أحد من العامة شتمه ووبخه وأسمعه من المكروه ما لا مزيد عليه حتى لو مكنتهم رجمه لرجموه.

هذا ما حكاه المقام الناصري.

ولما أن وصل قرقماس إلى القلعة وبلغ السلطان وصوله جلس على عادته.

فحال ما مثل بين يديه خر على وجهه يقبل الأرض.

ثم قام ومشى قليلًا ثم خر وقبل الأرض ثانيًا.

هذا ووجهه كلون الزعفران من الصغار وشدة الخوف.

فلما قرب من السلطان أراد أن يقبل رجله فمنعوه أرباب الوظائف من ذلك.

ثم أخذ يتضرع فلم يطل السلطان وقوفه ووعد به بخير على هيئته.

ثم أمر به فأخذ وأدخل إلى مكان بالحوش فقيد في الحال وهو يشكو الجوع وذكر أنه من يوم الواقعة ما استطعتم بطعام فأتي له بطعام فأكله وقد زال عنه تلك الأبهة والحشمة من عظم ما داخله من الخوف والذل ولهجت العامة تقول في الطرقات: " الفقر والإفلاس ولا ذلتك يا قرقماس "

قلت: وما أبلغ قول القائل في معناه: الوافر أرى الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار توبخي وفتكي ولا يغرركم مني ابتسام فقولني مضحك والفعل مبكي وأبلغ من هذا قول أبي نواس: الطويل إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق ولما

أمسك قرقماس المذكور تم سرور السلطان وهذا سره وأخذ في مسك جماعة من أعيان الأشرفية فأمسك في يوم واحد أزيد من ستين خاصكياً من أعيان المماليك الأشرفية وحبس الجميع بالبرج من قلعة الجبل.

ثم في يوم السبت سابع ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير آقبا التمراري أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر عوضاً عن قرقماس المقدم ذكره.

وخلع على يشبك السودوني أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضاً عن آقبا التمراري وعلى الأمير جرباش قاشق باستقراره أمير مجلس عوضاً عن يشبك المذكور.

وفي هذا اليوم أيضاً انزل بالأمير قرقماس الشعباني المقدم ذكره مقيداً من القلعة على بغل على العادة إلى الإسكندرية بعد أن سمع من العامة مكروهاً كثيراً إلى الغاية كل ذلك لأنه كان لما ولي الحجوية بالديار المصرية شدد على الناس وعاقب على المسكرات العقوبات الخارجة عن الحد فإنه كان في ظلم وجبروت فلما أن وقع له ما وقع صار من كان في نفسه شيء انتقم منه في هذا اليوم ويوم طلوعه فنعود بالله من زوال النعم.

ثم في يوم الاثنين تاسعه قرىء عهد السلطان الملك الظاهر جقمق بالقصر السلطاني من قلعة الجبل وقد حضر الخليفة أمير المؤمنين أبو الفتح داؤد والقضاة الأربعة وتولى قراءته كاتب السر صاحب بدر الدين حسن بن نصر الله وكان من إنشاء القاضي شرف الدين الأشقر نائب كاتب السر.

ولما انتهى كاتب السر من قراءة العهد خلع السلطان على الخليفة والقضاة وعلى كاتب السر ونائبه شرف الدين المذكور وانفض الموكب.

ثم في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على الأمير الأشرفي أحد مقدمي الألوف بإقطاع الأتابك آقبا التمراري بحكم انتقال على إقطاع الأتابك قرقماس الذي هو برسم من يكون أتابك العساكر وكان السلطان زاد قرقماس تقديماً أخرى زيادة على إقطاع الأتابكية يترضاها بذلك فلم السلطان بالزيادة على آقبا بل أنعم بها على بعض الأمراء.

وأنعم السلطان بتقدمة قراجا على الأمير الطنبا المرقبي المؤيدي الذي كان ولي حجوية الحجاب الدولة المؤيدية وكان له مدة طويلة بطالاً ثم صار أمير عشرة.

وأنعم السلطان مائة وتقدمة ألف على الأمير إينال أبو بكر الأشرفي عوضاً عن قرقماس التقدمة التي كانت مع قرقماس زيادة على إقطاع الأتابكية المقدم ذكرها.

بإقطاع إينال ووظيفته الدوادية الثانية على الأمير أسنبا الطياري الحاجب الثاني.

وفيه حضر المقر الكمالي محمد بن البارزي من دمشق بطلب بعد أن تلقاه جميع أعيان الديار المصرية.

وأصبح من الغد في يوم الثلاثاء سابع عشر ربيع المذكور خلع السلطان عليه باستقراره في كتابة السر الشريف بالديار المصرية عوضاً عن صاحب بدر الدين بن نصر الله بحكم عزله وهذه ولاية كمال الدين المذكور لوظيفة كتابة السر ثالث مرة وهي أعظم ولاياته لأنه صار صهر السلطان وكاتب سره.

وفي يوم الثلاثاء هذا خلع السلطان علي الأمير أسنبغا الطياري بالدوادارية الثانية وخلع على الأمير يلغا البهائي الظاهري أحد أمراء العشرات باستقراره حاجبًا ثانيًا عوضًا عن أسنبغا الطياري.

ثم في يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على الأمير إينال الأوبكري الأشرفي باستقراره أمير حاج المحمل وأنعم عليه بعشرة آلاف دينار.

هذا والقبض على المماليك الأشرفية مستمر في كل يوم وكل من قبض عليه منهم أخرج إقطاعه ووظيفته وحبس بالبرج من القلعة وقد عين السلطان جماعة منهم للنفي إلى الواحات.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشره أخرج السلطان جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية من برج القلعة وأمر بنفيهم إلى الواحات فخرجوا من القاهرة من يومهم وكانوا عدة كبيرة.

ثم في يوم السبت خامس جمادى الأولى رسم السلطان بالإفراج عن الأمير خشقدم الطواشي الشبكي مقدم المماليك كان ونائبه فيروز الركني من سجن الإسكندرية ورسم لها بالتوجه إلى دمياط على حمل خمسة عشر ألف دينار.

وفيه ورد كتاب الأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش نائب حلب على السلطان يتضمن أنه مقيم على طاعة السلطان وأنه لبس التشريف المجهز له وقبل الأرض فلم يكثر الملك الظاهر بذلك وكتب ملطفات إلى أمراء حلب بالقبض عليه إن أمكنهم ذلك.

ثم في ثامن جمادى الأولى استقر الشريف صخرة بن مقبل بن نخبار في إمرة الينبع عوضًا عن الشريف عقيل بن زبير بن نخبار.

ثم في يوم الخميس عاشره استقر زين الدين يحيى ابن كاتب حلوان الأشقر المعروف بقريب ابن أبي الفرج ناظر الإسطبل السلطاني على مال بذله في ذلك بعد سعي كبير وخلع السلطان أيضًا على محمد الصغير معلم النشاب أحد ندماء السلطان باستقراره في نيابة دمياط بعد عزل الأمير أسنباي الزردكاش الظاهري.

ثم في يوم الثلاثاء خامس عشر جمادى الأولى المذكور طلب السلطان الشيخ حسن العجمي أحد ندماء الملك الأشرف برسباي فلما مثل بين يديه تقدم الشيخ حسن ليقبل يد السلطان فضربه السلطان بيده على خده لطشة كاد أن يسقط منها إلى الأرض ثم أمر به فعري وضرب بالمقارع ضربًا مبرحًا وشهر بالقاهرة ثم سجن ببعض الحبوس وذلك لسوء سيرة حسن المذكور وقلة أدبه مع الأمراء في أيام الملك الأشرف برسباي.

وكان أصل هذا حسن من أوباش الأعاجم المولدة من الجغتاي واتصل بالملك الأشرف بعد سلطنته بسنين ونادمه واختص به فنالته السعادة وعمر له الملك الأشرف زاوية بالصحراء بالقرب من تربة الملك الظاهر برقوق وأوقف عليها وقفًا جيدًا.

وكان حسن المذكور في أيام أستاذه الملك الأشرف يدخل إلى أكابر الأمراء ويكلفهم وبأخذ منهم ما أراد من غير تحشم وعدم اكتراث بهم فكانه طرق الملك الظاهر جقمق وفعل معه ذلك فأسرها الملك الظاهر له إلى وقتها مع ذنوب آخر حتى فعل معه ما فعل ثم نفاه إلى قوص فدام به إلى أن مات فيما أظن.

ثم جهز السلطان الأمير سودون المحمدي وخلع عليه بنظر مكة المشرفة وندبه أيضًا لقتال عرب بلي وصحبته جماعة من المماليك السلطانية وعرب بلي هؤلاء هم الذين فعلوا بالحجاج ما فعلوه في موسم السنة الخالية.

ونذب بعده أيضًا الشهابي أحمد بن إينال اليوسفي أحد أمراء العشرات لإصلاح مناهل الحجاز وتقوية لسودون المحمدي.

ثم خلع السلطان على الأمير أقبغا من مامش التركماني الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة باستقراره في نيابة الكرك بعد عزل صاحب خليل بن شاهين الشيخي وانتقاله إلى أتابكية صفد.

ثم في يوم الخميس أول شهر رجب أنفق السلطان في المماليك السلطانية نفقة الكسوة وكانت عادتهم أن يدفع لكل واحد منهم خمسمائة درهم من الفلوس فلما قرب أوان تفرقة الكسوة وقفوا في يوم الاثنين ثامن عشر من جمادى الآخرة وطلبوا أن ينفق فيهم عن ثمن الكسوة عشرة دنانير لكل واحد فما زالوا به حتى أنفق فيهم ألف درهم الواحد ولكل خاصكي ألفًا وخمسمائة.

وفيه رسم السلطان بأن يكون نواب القاضي الشافعي خمسة عشر ونواب الحنفي عشرة ونواب المالكي والحنبلي أربعة أربعة ووقع ذلك أيامًا ثم عادوا إلى ما كانوا عليه.

قتل قرقماس الشعباني الناصري المقدم ذكره ولما كان يوم الخميس ثامن شهر رجب جمع السلطان القضاة بالقصر بعد الخدمة السلطانية وادعى القاضي علاء الدين علي بن أقيرس أحد نواب الحكم لشفافية عند القاضي المالكي شمس الدين البساطي على الأمير قرقماس المذكور بأنه خرج عن الطاعة وحارب الله ورسوله وأن بقاءه بالسجن مفسدة وإثارة فتنة وأن في قتله مصلحة وشهد بخروجه عن الطاعة ومحاربه جماعة من أكابر الأمراء فحكم البساطي بموجب ذلك فقبل له: " ما موجب " فقال: " القتل " انفض المجلس.

فندب السلطان طوغان السيفي آقبردي المنقار أحد الخاصكية لقتله فسافر طوغان إلى الإسكندرية ودفع لنائبها ما على يده من المحضر المكتتب على قرقماس وحكم القاضي المالكي بقتله فأخرجه النائب من السجن فقرأ عليه حكم حدثني طوغان المذكور بعد عوده من الإسكندرية قال: لما وصلت إلى إسكندرية ودفعت إلى الأمير تمرباي التمرباغوي نائب الإسكندرية ما كان على يدي من المراسيم السلطانية وغيرها بقتل قرقماس فأمر به تمرباي فأخرج من سجنه بقيده يده إلى بين يدي النائب.

فقام النائب وأجلسه مكانه وسأله في الأعذار فأعذر وقد امتلأ المجلس بالناس وصار النائب يستحي أن يأمره بالقيام حتى تكلم بعض من حضر بانفضاض المجلس وقد حضر المشاعلي والوالي وأقيم قرقماس وأخذ لتضرب رقبتة فجزع جزعًا عظيمًا وشرع يقول لي: " يا أخي يا طوغان تضرب رقبتني في هذا الملاً " وكرر ذلك غير مرة.

فقلت له: " يا خوند أنا عبد مأمور والشرع حكم بذلك ".

فقدم واجلس على ركبتيه وأخرج المشاعلي سيفًا من غير قراب بل كان ملفوفًا بحاشية من حواشي الجوخ التي لا ينتفع بها فلما رأيت ذلك قلت للمشاعلي: " إيش هذا السيف الوحش ".

قال: " لا بل هو سيف جيد ".

ثم أخذ المشاعلي السيف المذكور وضرب به رقبة قرقماس فقطعت من رقبته مقدار نصف قيراط لا غير وعند وقوع الضربة في رقبة قرقماس صاح صيحة واحدة مات فيها من عظم الوهم.

ثم ضربه المشاعلي أخرى ثم ثالثة وفي الثالثة حزها حزًا حتى تخلصت.

كل ذلك وقرقماس لا يتكلم ولا يتحرك سوى الصيحة الأولى فعلمت بذلك أنه مات في الضربة الأولى من عظم ما داخله من الوهم وكان ذلك في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

ومات قرقماس وسنه نيف على الخمسين سنة تخمينًا ويأتي بقية أحواله عند ذكر الوفيات من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

تم في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب خلع السلطان على الأمير يلغا البهائي الظاهري برقوق أحد أمراء الطبلخانات وثاني حاجب باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضًا عن الأمير تمرباي التمرغاوي بحكم عزله.

ثم ندب السلطان الأمير يشبك السوداني الأمير سلاح لسفر الصعيد وعين معه عدة كبيرة من المماليك الأشرفية نجدة لمن تقدم قبله لقتال عرب الصعيد وخرج في يوم الاثنين ثاني شهر رمضان بمن معه من المماليك الأشرفية.

ثم في يوم الاثنين تاسع شهر رمضان قدم الأمير الطواشي خشقدم البشبيكي ونائبه فيروز الركني الرومي من ثغر دمياط وأمرهما السلطان بالتوجه إلى المدينة النبوية صحبة ركب الحاج ليقميا بها.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشر شهر رمضان المذكور ورد على السلطان كتاب الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حماة يتضمن ورود الأمير بردبك العجمي الحكمي حاجب الحجاب بحلب عليه وصحبته من أمراء حلب أميران بعد هزيمتهم من الأمير تغري برمش نائب حلب بعد خروجه عن طاعة السلطان وعصيانه.

وكان أشيع خبر عصيانه إشاعات فلما ورد هذا الخبر تحقق كل أحد صحة ما أشيع.

وكان من خبر عصيانه أن تغري برمش المذكور كان له من يوم مات الملك الأشرف برسباي أخذ في أسباب الخروج واحترز على نفسه في عوده صحبة العساكر إلى حلب غاية الاحتراز حتى إنه لم يدخل حلب إلا بعد خروج العساكر المصرية منها بعد أيام.

ولما دخل حلب شرع في تدبير أمره والنظر في ما يفعله لنفسه.

ولم يكن له غرض في طلب الملك لمعرفته أن القوم لا يرضونه لذلك غير أنه يعلم أنهم لا يدعونه في نيابة حلب إن أمكنهم ذلك لكونه تركمانيًا غير الجنس.

وتحقق هذا فأخذ في عمل مصلحة نفسه واستدعى أمراء التركمان للقيام معه فأجابه جماعة كبيرة وانضم عليه خلائق.

وكان تغري برمش من رجال الدهر عارقًا بتدبير أموره جيد التصرف وعنده عقل ومكر وحدث صائب وتدبير جيد وهمة عالية على أنه كان لا يعرف المسألة الواحدة في دين

الله مع جمودة في مجالسته وخشونة ألفاظ تظهر منه كما هي عادة أوباش التركمان وجميع جهده ومعرفته كانت في أمور دنياه لا غير مع جبن وبخل إلا في مستحقه.

فلما استفحل أمره بمن وافقه من أمراء التركمان في الباطن وبكثرة مماليكه وخدمه مع ما كان حصله من الأموال وبلغه مع ذلك أن الملطفات السلطانية وردت على أمراء حلب في القبض عليه رأى أنه يظهر ما استكتمه من الخروج عن الطاعة ويملك حلب وأعمالها طول عمره لما دبره أنه إذا غلب عليها وكثرت عساكره بها يحصنها ويقم بها فإن جاءه عسكر هو قبيله قاتله وإن كانت الأخرى انهزم أمامه بعد تحصين قلعتها وتوجه إلى جهة بلاد التركمان إلى أن يعود عنها من أتاها من العساكر ولم يبق بها إلا من استتيب بها وقدمها تغري برمش وملكها منه كما كان يفعله شيخ ونوروز مع الملك الناصر فرج بن برقوق مع أن تغري برمش هذا كان أرسخ منهما قدمًا بتلك البلاد لكونه كان تركمانيًا وله أموال جمّة وأكثر دهاء ومكرًا وإن كان شيخ ونوروز أعظم في النفوس وأشجع فليس هذا محل شجاعة وعظمة وإنما هو محل تشويش وتنكيد.

وتأييد ما قلته أن الملك الظاهر جقمق قلق لعصيان تغري برمش هذا أكثر من عصيان الأمير إينال الجكمي نائب الشام الآتي ذكره.

وأرسل الملك الظاهر خلفي وكلمني في المحضر المكتتب في حق تغري برمش هذا قديمًا من قتله لبعض مماليك الوالد لما كان تغري برمش المذكور بخدمة الوالد على ما سيأتي بيانه في ذكر وفيات هذا الكتاب إن شاء الله تعالى وكلمني الملك الظاهر في أمر تغري برمش بسبب المحضر وغيره فلحظت منه ما ذكرته من تخوفه من طول أمر تغري برمش المذكور معه - انتهى.

وكان أول ما بدأ به تغري برمش أنه أخذ يستميل الأمير حطط نائب قلعة حلب فلم يتم له ذلك.

فأخذ يدبر على أخذ القلعة بالجيل فأحس حطط وكلم أمراء حلب بسببه واتفقوا على قتاله وبادروه وركبوا عليه بعد أمور وقعت يطول شرحها.

ورمى عليه حطط من أعلى قلعة حلب وركب الأمير بردبك العجمي الجكمي حاجب حلب والأمير قطج من تمرّاز أتاك حلب وجماعة أمراء حلب وعساكرها وواقعه فصدّمهم بمماليكه صدمة بدد شملهم فيها وانهمزوا وتشتتوا.

فتوجه قطج إلى جهة البيرة فيما أظن وتوجه بردبك العجمي ومعه أيضًا جماعة إلى حماة وكانت الوقعة في ليلة الجمعة ثامن عشرين شعبان ودخل بردبك حماة في آخر يوم السبت سلخ شعبان.

هذا ما كان من أمر تغري برمش ويأتي بيان أمر هذه الوقعة في كتاب تغري برمش المذكور إلى السلطان فيما بعد.

وأما ما كان من أمر السلطان فإنه لما بلغه خبر عصيانه طلب الأمراء وعمل معهم مشورة بسببه فوقع الاتفاق بعزله عن نيابة حلب وتولية غيره ثم ينتظر السلطان بعد ذلك ما يرد عليه من الأخبار من البلاد الشامية لما كان أشيع بالقاهرة أن الأمير إينال الجكمي هو الذي أشار لتغري برمش المذكور بالخروج عن الطاعة وأنه موافقه في الباطن فلذلك لم يعين السلطان أحدًا من العساكر المصرية ولا نواب البلاد الشامية لقتال تغري برمش.

فلما كان يوم الخميس ثاني عشر شهر رمضان المذكور كتب السلطان بنقل الأمير جليان أمير آخور نائب طرابلس إلى نيابة حلب عوضًا عن تغري برمش المذكور وأن يستقر الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حماة المقدم ذكره في نيابة طرابلس عوضًا عن جليان وأن يستقر بردك العجمي الحكمي حاجب حجاب حلب المقدم ذكره في نيابة حماة عوضًا عن قاني باي الحمزاوي.

وتوجه الأمير علي باي العجمي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بتقليد جليان وتشريفه بنيابة حلب وتقليد بردك العجمي بنيابة حماة وبردك المذكور هو خال علي باي المتوجه وجالبه وبه يعرف بالعجمي على شهرة خاله المذكور.

وتوجه الأمير جانبك المحمودي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بتقليد الأمير قاني باي الحمزاوي وتشريفه بنيابة طرابلس وعلي باي وجانبك هما يوم ذاك عقد المملكة وحلها.

وبقي السلطان في قلق بسبب إينال الحكمي نائب الشام لكونه أشيع أن سودون أخا إينال الحكمي منذ قدم من عند إينال إلى القاهرة يستميل الناس إليه.

وكان السلطان لما تسلطن أرسل سودون المذكور إلى جميع نواب البلاد الشامية - وكانت العادة جرت أنه يتوجه لكل نائب أمير يبشره بجلوس السلطان على تخت الملك - كل ذلك مراعاة لخاطر أخيه إينال الحكمي.

وكان السلطان أيضًا أرسل إلى إينال المذكور بخلة ثانية مع الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك باستمراره على نيابة دمشق.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشر شهر رمضان ورد الخبر على السلطان من الأمير طوخ مازي الناصري نائب غزة بأن الأمير ناصر الدين محمد بن منجك المقدم ذكره لما وصل من عند السلطان بما على يده من الخلة إلى جسر يعقوب بعث إليه إينال الحكمي ساعيًا يستحثه على سرعة القدوم إلى دمشق ثم أردفه بأخر حتى قدم ابن منجك إلى دمشق في يوم السبت سابع شهر رمضان المذكور وخرج إينال إلى لقاءه ولبس التشريف السلطاني المجهز إليه على يد ابن منجك وقبل الأرض وركب الفرس المحضر معه أيضًا ودخل إلى دمشق في موكب جليل ونزل بدار السعادة فاطمان أهل دمشق بذلك فإنه كان قد أشيع أيضًا بدمشق بعصيان نائبها المذكور.

فلما كان يوم الاثنين تاسعه ركب الأمير إينال الحكمي الموكب على العادة ودخل إلى دار السعادة وجميع أمراء دمشق وسائر المباشرين بين يديه وقد اطمأن كل أحد بأن ملك الأمراء مستمر على الطاعة.

فما هو إلا أن استقر في مجلسه أشار بالقبض على أعيان أمراء دمشق فأغلق الباب وقبض على جميع الأمراء والمباشرين وكان القائم في قبض الأمراء الأمير قاني باي الأبوبكري الناصري أتاك دمشق وقانصوه النوروزي أحد مقدمي دمشق.

والمقبوض عليهم أجلهم: الأمير برسباي الحاجب وعدة كبيرة أخر يأتي ذكرهم.

قال: وإن علي باي العجمي وجانبك المحمودي المتوجهين بتقليد نائب حلب وطرابلس وصلا إلى غزة وأقاما بها.

فلما سمع السلطان هذا الخبر اضطرب وتشوش غاية التشويش لأنه كان عليه أدهى وأمر.

وجمع الأمراء واستشارهم في أمر إينال وتغري برمش فأشاروا الجميع بسفره.

وتذكر السلطان قول آقبا التمرازي لما أشار عليه قبل سلطنته أن يتوجه إلى البلاد الشامية ثم يتسلطن فلم تفده التذكرة الآن.

وانفض الموكب على أن السلطان يسافر لقتال المذكورين.

ثم في يوم الأربعاء ورد الخبر على السلطان أن الأمير قطج أتاك حلب وصل أيضًا إلى حماة وأن تغري برمش أخذ مدينة عين تاب وقلعتها وأن عدة من قبض عليه الأمير إينال الجكمي من أمراء دمشق تسعة عشر أميرًا وأنه قبض أيضًا على جمال الدين يوسف بن الصفي الكركي ناظر جيش دمشق وعلى القاضي بهاء الدين محمد بن حجي كاتب سر دمشق وأن علي باي وجانبك المحمودي توجهوا من غزة إلى الأمير إينال الناصري العلاني نائب صفد.

ثم في يوم الخميس عشرينه ورد على السلطان كتاب الأمير تغري برمش نائب حلب مؤرخًا بثاني شهر رمضان يتضمن أنه في يوم الثالث والعشرين من شعبان لبس الأمير حطط نائب القلعة ومن معه بالقلعة السلاح وقاموا على سور القلعة ونصبوا المكاحل وغيرها وأمروا من تحت القلعة من أرباب المعایش وسكان الحوانيت بالنقلة من هناك وأنه لما رأى ذلك بعث يسأل حطط عن سبب هذا فلم يجبه.

إلى أن كان ليلة التاسع والعشرين منه ركب الأمير قطج أتاك العساكر والأمير بردبك الحاجب في عدة أمراء لابسين السلاح ووقفوا تحت القلعة فبعث إليهم جماعة من عسكره فكانت بين الفريقين وقعة هائلة انهزم فيها قطج وأنه باق على طاعة السلطان وأنه بعث يسأل حطط ثانيًا عن سبب هذه الحركة فأجاب بأن الأمير بردبك الحاجب ورد عليه مرسوم السلطان بالركوب عليك وأخذك.

وجهز تغري برمش أيضًا محضرًا ثانيًا على قضاة حلب بمعنى ما ذكره وأنه باق على طاعة السلطان وأنه لم يتعرض إلى القلعة فلم يعول السلطان على كتابه ولا على ما ذكره لما سبق عنده من خروجه عن الطاعة - انتهى ما تضمنه كتاب تغري برمش.

ثم ورد على السلطان كتاب الأمير فارس نائب قلعة دمشق بأن الأمير إينال الجكمي أمر فنودي بدمشق بالأمان والاطمئنان والدعاء للسلطان الملك العزيز يوسف وأن القاضي تقي الدين بن قاضي شهبه قاضي قضاة دمشق دعا للملك العزيز على منبر جامع بني أمية في يوم الجمعة وأن الخطبة بقلعة دمشق باقية باسم السلطان الملك الظاهر جقمق كل ذلك والسلطان قد اتفق ثم في يوم السبت حادي عشرين شهر رمضان استقر القاضي بدر الدين محمد ابن قاضي القضاة ناصر الدين أحمد التنسي أحد خلفاء الحكم المالكية قاضي قضاة الديار المصرية بعد موت العلامة شمس الدين محمد بن أحمد البساطي.

ثم أصبح السلطان من الغد في يوم الأحد ابتداء بعرض المماليك السلطانية وعين من الخاصكية ثلاثمائة وعشرين خاصكيًا لسفر الشام مع من يأتي ذكره من أمراء الألوف وغيرهم.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرينه خلع السلطان على الأمير الكبير آقبا التمراري باستقراره في نيابة دمشق عوضًا عن إينال الجكمي بحكم عصيانه على كره منه وتمنع كبير.

ثم في يوم الثلاثاء أيضًا عرض السلطان الخاصكية وعين منهم للسفر ثلاثمائة وثلاثين خاصكيًا لتتمة ستمائة وستين خاصكيًا ثم نقص منهم خمسة بعد أيام.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشرينه عين السلطان للسفر من أمراء الألوف: قراخا الحسيني رأس نوبة النوب وتمرياي السيفي تفرغا المشطوب ومن أمراء الطبلخانات: الأمير طوخ من تراز الناصري رأس نوبة ثاني وهو مسفر الأتابك آقبا التمراري ومن أمراء العشرات عشرة وهم: أقطوه الموساوي وقد صار أمير طبلخاناه وتنم من عبد الرازق المؤيدي محتسب القاهرة ورأس نوبة ثم أعفي بعد ذلك وبشيك من أزوباي الناصري رأس نوبة وبايزير من صفر خجا الأشرفي رأس نوبة وأقبردي الأشرفي أمير آخور ثالث وقيز طوغان العلائي وسودون الإينالي المؤيدي المعروف بقراقاس رأس نوبة وسودون العجمي النوروزي رأس نوبة وسودون النوروزي السلاح دار رأس نوبة وجانبك النوروزي رأس نوبة وخشكلي الناصري البهلوان.

ثم ورد الخبر على السلطان من الأمير طوغان العثماني نائب القدس بأن إينال الجكمي أطلق الأمراء الذين قبض عليهم قبل تاريخه وحلفهم للملك العزيز يوسف وذلك بشفاعة قاني باي الناصري البهلوان أتابك دمشق.

فحزر أهل المعرفة أن أمر إينال الجكمي لا يتم لتضييعه الحزم فيما فعل من الإفراج عن الأمراء بعد أن تأكدت الوحشة بينهم ومع ما كان بينه وبين الأمير برسباي الحاجب من حضوض الأنفس قديمًا.

ونفرت القلوب بذلك عن إينال الجكمي وأول من نفر عنه تغري برميش نائب حلب وقال في نفسه عن إينال المذكور: " هذا في الحقيقة ليس بخارج عن الطاعة وإنما قصد بالإشاعة عنه أنه عاص حتى أقدم عليه ويقبض علي تقريبًا لخاطر السلطان ".

وهو معذور في ذلك فإن مثل هؤلاء ما كان يفرج عنهم بشفاعة ولا لشفقة عليهم وقد قصد ما قصد ولله در المتنبي في قوله: الكامل لا يخدعك من عدوك دمه وارجم شبابك من عدو ترحم لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم ومن يومئذ أخذ أمر إينال الجكمي في الاضمحلال قليلاً واستخف كل أحد عقله وتعجب من سوء تدبيره وكاد أخوه سودون العجمي أن يموت قهراً لما بلغه عن أخيه إينال ذلك وهو يوم ذاك من جملة أمراء العشرات بالديار المصرية.

ثم ورد الخبر على السلطان بأن الأمير إينال العلائي الناصري نائب صفد خرج منها وسار حتى نزل بالرملة في سابع عشر شهر رمضان بعدما أرسل إليه إينال الجكمي بدعوه لموافقته وأعلمه أيضًا أنه ما قام في هذا الأمر إلا وقد وافقه نواب المماليك وأركان الدولة وعظماء أمراء مصر فلم يلتفت إينال العلائي لكلامه ثم خشي أن يكبس بصفد فخرج منها بعد أن جعل حريمه بقلعة صفد وسار حتى نزل الرملة فسر السلطان بذلك وكتب إليه بالثناء والشكر ثم في يوم الخميس سابع عشرين شهر رمضان المذكور أنفق السلطان في العسكر المجرد إلى الشام - وعدتهم ما بين خاصكي ومملوك: ستمائة واثنان وخمسون نفرًا - كل واحد ثمانين دينارًا.

ثم قدم الخبر بأن الأمير جليان المستقر في نيابة حلب وصل إلى الرملة في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر رمضان فآرا من تغري برميش نائب حلب.

وكان من خير تغري برممش نائب حلب أنه لما قوي أمره وبلغه عصيان إينال الحكمي أيضًا عظم أمره واستدعى التركمان إلى حلب فقدم عليه منهم جماعة كبيرة إلى الغاية ثم عمل مكحلة عظيمة من نحاس ليرمي بها على قلعة حلب.

وأخذ مع هذا كله يستميل جماعة من أهل قلعة حلب فمالوا له في الباطن وواعدوه على تسليم القلعة له وهو مع ذلك مستمر في حصار القلعة المذكورة والنقب في جدر القلعة عمال والقتال بينه وبينهم في كل يوم يزداد إلى أن بلغ الأمير حطط نائب قلعة حلب عمن وافق تغري برممش المذكور من أهل القلعة فقبض على الجميع وأخذ بعضهم وجعله في المنجنيق ورمى به على تغري برممش ثم قتل جماعة منهم وجعل رؤوسهم على سور قلعة حلب.

فلم يكثر تغري برممش بذلك واستمر على ما هو عليه من حصار القلعة حتى أشرف على أخذها فخوفه بعض أصحابه من وثوب أهل مدينة حلب عليه وأشاروا عليه بأن ينادي لهم بالأمان فأمر بذلك.

وكان

▲ **بلغ أهل حلب أن تغري برممش يريد أن يأمر التركمان بنهب حلب**

فلما نودي بالأمان تحققوا ما كان قيل من نهب حلب وألقى الله في نفوسهم أن يركبوا عليه ويقاتلوه قبل أن يأمر بنهبهم.

فثارت العامة وأهل حلب بأجمعهم بقسيهم وسلاحهم على حين غفلة وساروا يدًا واحدة واحتاطوا بدار السعادة وبه النائب تغري برممش وقد تقدم أن تغري برممش المذكور كان جبانًا غير ثابت في الحروب ضعيف القلب عند ملاقات العدو وليس فيه سوى جودة التدبير وحسن السياسة بحسب الحال.

وبالنسبة لأمثاله من الجهلة فعندما بلغه وثوب أهل حلب عليه لم يثبت وذهب فارتأى الخروج من المدينة وسار حتى وقف خارج السور في نحو الأربعين فارسًا تخميًا وقد نهبت العامة جميع ما كان له بدار السعادة من الخيول والأموال والسلاح وامتدت أيديهم إلى مماليك تغري برممش وأتباعه يقتلونهم وينهبونهم.

وكان له المماليك الكثيرة المتجملة في لبسهم وسلاحهم غير أنهم كانوا على مذهب أستاذهم في الجبن والخور وعدم الثبات في القتال ولم يظهر لأحد منهم نتيجة في هذا اليوم ولا في يوم مصاففته للعسكر المصري بل هرب غالبهم وجاء إلى العساكر المصرية قبل وقوع القتال وتركوا أستاذهم في مثل ذلك اليوم مع عظم إحسانه لهم وتخولهم في النعم.

وكانت هذه الواقعة في يوم الثلاثاء عاشر شهر رمضان بعدما كان تغري برممش حاصر القلعة ثلاثة عشر يومًا.

وتلاحق عدة من أصحاب تغري برممش ومماليكه به ولم يجد له قوة للعود إلى حلب لقتال أهلها فسار بمن معه يريد طرابلس وانضم إليه الأمير طرعلي بن صقل سيز التركماني بأصحابه.

فلما قارب طرابلس لم يثبت الأمير جليان وانهمزم من طرابلس في العاجل إلى نحو الرملة حتى قدمها وانضم على من كان بالرملة من النواب وغيرهم.

وكان جليان أيضًا من مقولة تغري برمش في القتال غير أن أمره كان في ستر لأمر لا تخفى على أحد.

فدقت البشائر لذلك وسر السلطان بهذا الخبر وتعجب الناس من نكبة تغري برمش المذكور مع قوة أمره وكثرة جموعه.

ولما وصل جليان إلى الرملة واجتمع بالأمير إينال العلاني نائب صفد والأمير طوخ مازي نائب غزة والأمير طوغان العثماني نائب القدس اتفقوا على مكاتبة السلطان فكتبوا له يستدعونه للسير بنفسه بعد تجهيز العساكر بين يديه سرعًا.

وكان قدم بهذا الخبر صرغتمش السيفي تغري بردي أحد مماليك الوالد وهو يوم ذاك دودار الأمير جليان فخلع عليه السلطان في يوم الأحد تاسع عشرينه باستقراره دودار السلطان بحلب عوضًا عن سودون النوروزي بحكم انتقاله إلى حجوية حلب بعد بردك العجمي المنتقل إلى نيابة حماة.

ثم في هذا اليوم قدم الأمير جانبك المحمودي المتوجه بتقليد قاني باي الحمزاوي بنيابة طرابلس بعد أن وصل إلى الرملة ولم يتمكن من التوجه إلى حماة خوفًا من إينال الجكمي فأثار عند قدومه إلى القاهرة شرورًا كبيرة فإنه زعم أنه ظفر بكتب جماعة من الأمراء وغيرهم إلى العصاة ببلاد الشام أوقف عليها السلطان فتعجب السلطان من ذلك غاية العجب فإنه كان من يوم جلس على تخت الملك ويده ممدودة بالإحسان لكل أحد حتى إنه ترقى في أيامه إلى الوظائف السنوية والإقطاعات الهائلة جماعة من الأوباش لم يكن لهم ذكر بين الناس قبل ذلك وفيهم من لم أره قبل تاريخه ولا أعرف شكله جملة كافية وصار منهم السقاة ورؤوس نوب الجمدارية وجمقدارية وسلاح دارية وغير ذلك وأثرى منهم جماعة ممن كان غالب معيشتهم بالشحاذة والتكدي لكثرة ما أعدق عليهم الملك الظاهر جقمق بالعطاء وصار ينعم عليهم بالأقمشة الفاخرة حتى إنه رهب لبعضهم الكوامل المخمل المنقوشة بأطواق السمور وبالطرز الزركش العريضة وهو مستمر على ما هو عليه ليوم تاريخه فلما وقف على الكتب قال: هذه مفتعلة ولم ينتقم على أحد وأخذ فيما هو فيه من تجهيز العساكر.

فرار الملك العزيز ثم أصبح من الغد في يوم الاثنين سلخه عملت الخدمة بالقصر على العادة وبينما هو في ذلك بلغه من الأمير قراخا الحسني رأس نوبة النوب فرار الملك العزيز يوسف من محبسه بدور قلعة الجبل - أعني سكنه فإنه كان سكن بقاعة البربرية من الحريم السلطاني - فاستبعد السلطان ذلك وندب بعض خواصه أن يتوجه إلى الأمير فيروز الزمام ويسأله عن صحة هذا الخبر.

فمضى المذكور لفيروز وسأله عن لسان السلطان فأنكر فيروز ذلك ودخل من وقته فلم يجد العزيز في مكانه ووجد نقبًا بقاعة البربرية يتوصل منه إلى المطبخ السلطاني فعاد القاصد بصحة الخبر على السلطان.

فلما تحقق السلطان ذهاب الملك العزيز كادت روحه أن تزهب وعظم عليه الخبر ونسي ما كان فيه من أمر إينال الجكمي وتغري برمش.

وعرف السلطان الأمراء وأكابر الدولة بذلك فما منهم إلا من ظهر عليه الخوف والفرع.

وماجت المملكة وكثر الكلام واختلفت الأقاويل في أمر الملك العزيز وفراره وفي أين توجه.

وكان من خبر العزيز - على اختلاف النقول - أن الملك العزيز لما حبس بقاعة البربرية من الدور السلطانية أقر الملك الظاهر عنده دأته سر النديم الحبشية ومعها عدة جوار آخر سراري الملك العزيز ومرصعته أيضًا ورسم لمرصعته أنها تخرج إلى حيث شاءت وجعل القائم في خدمة الملك العزيز لقضاء حوائجه طواشيًا هنديًا من عتقاء أمه خوند جلبان يسمى صندلًا وسنه دون العشرين سنة.

فصار صندل المذكور يتقاضى حوائج العزيز ويقبض له ما رتب له من النفقة من أوقاف أبيه فاحتوى صندل على جميع أمور الملك العزيز وعرف جميع أحواله.

وكان عند الطواشي يقظة ومعرفة وبقي كلما بلغه عن الملك العزيز شيء يبلغه له.

فأشيع بالقاهرة أن السلطان يريد يرسل الملك العزيز إلى سجن الإسكندرية ثم أشيع أنه يريد أن يكحله فبلغه صندل المذكور جميع ذلك فخاف العزيز خوفًا عظيمًا.

ثم بلغه أن بعض علماء العصر أفتى بقتل العزيز صيانة دماء المسلمين من كونه مخلوعًا عن الملك وله شوكة والملك الظاهر متول ولم يكن له شوكة فإن أبقى على العزيز ربما تتور شوكته وبقاتل السلطان فيقع بذلك الفساد وتسفك دماء كثيرة من المسلمين.

فلما بلغ العزيز ذلك - على ما قيل - حار في أمره فحسن له صندل المذكور الفرار فاستبعد العزيز وقوع ذلك ثم وافقه.

وكان للملك العزيز طباح يسمى إبراهيم من أيام والده فداخله صندل في الكلام بفرار العزيز فأجابه إبراهيم المذكور أنه ينهض بذلك ويقدر على خروجه من القلعة بحيلة يدبرها.

ثم أمر إبراهيم الطباح صندلًا أن ينقب من داخل القلعة نقبًا يصل إلى المطبخ المذكور وأن إبراهيم ينقب من خارج المطبخ مقابله.

فأمر العزيز جواريه بالنقب من داخل القلعة مساعدة للطباح حتى تهيأ ذلك.

وتم هذا وصندل يتحدث مع جماعة من المماليك الأشرفية في مساعدة الملك العزيز إذا خرج ونزل من القلعة فمال إلى ذلك جماعة: منهم طوغان الزردكاش وأزدمر مشد الملك العزيز أيام أبيه في آخرين من المماليك الأشرفية وبذلوا لصندل الطاعة في ذلك ورغبوه في نزول الملك العزيز إليهم واستحثوه على ذلك.

وتكلم طوغان الزردكاش مع جماعة آخر من الأشرفية فمال الجميع إلى نزوله إليهم مع عدم الاتفاق مع أكابر الأشرفية ولا تشاوروا في ذلك بل صاروا يحرضون صندلًا على نزوله ولم يعينوا له مكاتًا يجلس فيه إلى أن يفعلوا له ما هو قصدهم فلم يعرف صندل العزيز ذلك بل صار يمليه بخلاف الواقع إلى أن انتهى النقب المذكور.

فلما كان الإفطار من ليلة الاثنين سلخ شهر رمضان من سنة اثنتين وأربعين والناس في شغل بالصلاة والفطر أخرج الطباح الملك العزيز من النقب عريًا مكشوف الرأس فألبسه الطباح من ثيابه ثوبًا مملوءًا بسواد القدور والأوساخ وحمله قدرًا فيه طعام وقيل صحنًا فيه منقوع الطباخين من الطعام يوهم الطباح بذلك أنه صبيه ثم جعل على يده خافقية فيها طعام وغير وجه الملك العزيز ويديه بالزفر وسواد القدور.

وخرجاً جميعاً من غير هرج ولا اضطراب ولا خوف حتى وصلا إلى باب القلعة فوافاهم الأمراء والخاصكية وقد خرجوا بعد إفطارهم من عند السلطان.

فلما رأى إبراهيم الطباخ الأمراء والخاصكية خاف أن يفتن به أحد لجمال وجهه وحسن سمته ولما عليه من الرونق فضربه ضربة بيده وسبه يريد بذلك أنه صبيه ويستحته على سرعة الحركة والمشى ليرد الوهم عنه بذلك.

فأسرع الملك العزيز في المشى وسارا حتى نزلا من قلعة الجبل فإذا صندل وطوغان الزردكاش وأزدمر مشد العزيز في آخرين واقفين في انتظاره.

فحال ما رأوه قبلوا بيده وأخذوه إلى دار بعضهم فأنكر العزيز ذلك منهم ونهر صندلاً الطواشي وقال: " ما على هذا أنزلت " وكان في ظن العزيز أنه ساعة ما ينزل إليهم يأخذوه ويركبون به إلى جهة قبة النصر أو غيرها بمجموعهم ويقاتلون السلطان الملك الظاهر حتى يملكو منه القلعة على ما كان صندل يقول له مثل ذلك.

وأراد العزيز العود إلى مكانه بالقلعة فلم يمكنه ذلك.

وقام طوغان في منعه ووعدته بقيام جميع خداشيته من الأشرفية بنصرته وأنهم اتفقوا على ذلك وأنهم إلى الآن لم يصدقوا بنزول الملك العزيز فإذا علموا ذلك اجتمع الكل في القيام بنصرة الملك العزيز فإن لم يفعلوا ذلك أخذه هو وسار به إلى بلاد الصعيد عند الأمير يشبك السودوني أمير سلاح المجرد قبل تاريخه لقتال عرب الصعيد وكان صحبة يشبك جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية نحو سبعمائة مملوك مع ميل يشبك إلى الأشرفية في الباطن لكونه كان ممن أنشأه الملك الأشرف برساي ثم افترقوا واختفى الملك العزيز ومعه صندل وأزدمر وإبراهيم الطباخ في مكان ليلته ثم تنقل في عدة أماكن آخر.

وأخذ طوغان في الكلام مع خداشيته الأشرفية في القيام بنصرة ابن أستاذهم الملك العزيز فاعتلوا بان غالبهم قد توجه إلى بلاد الصعيد ولم يجيبوا له دعوة.

فلما علم منهم ذلك ركب هجئاً وسار إلى بلاد الصعيد لإعلام الأمير يشبك والمماليك الأشرفية بنزول الملك العزيز إليه.

ودخل جماعة كبيرة منهم إلى الأمير إينال الأوبكري الأشرفي وكلموه في القيام بنصرة ابن أستاذه فخاف العواقب ولم يوافقهم وتسحب من داره على بغل ثم نزل ماشياً واختفى.

هذا ما بلغنا من أفواه الناس فإني لم أجمع مع إينال المذكور بعد ذلك هذا والسلطان وحاشيته قد عظم قلقهم وصار السلطان لا يعلم أين ذهب الملك العزيز ولم يشك هو وغيره أن الأمير إينال الأوبكري أخذ العزيز على هجته المجهزة لسفر الحجاز فإنه كان ولي إمرة الحاج وسار إلى الأمير إينال الجكمي.

قلت: ولو فعل إينال ذلك لكان تم له ما قصد لكثرة هجته ورواحله وعظم حواشيه من خداشية وغيرهم وكان ذلك هو الرأي فحسن الله له غير ذلك حتى يصل كل موعود إلى ما وعد.

كل ذلك في يوم سلخ رمضان.

فلما كان الليل وهي ليلة عيد الفطر التي تسحب فيها إينال المذكور تفرقت المماليك المؤيدية وغيرهم إلى طرقات القاهرة ودار منهم طائفة كبيرة حول القلعة وبالقرب من بيت إينال المذكور مخافة أن يخرج إينال في الليل بالملك العزيز.

وكثر هرج الناس في تلك الليلة وتخوفوا من وقوع فتنة من الغد.

ومضت تلك الليلة على أبشع وجه من اضطراب الناس.

وتخوفهم وأصبح السلطان صلى صلاة العيد بجامع القلعة وهو على تخوف وقد وقف جماعة بالسلاح مصلين رأسه حتى قضى صلاته.

وخطب قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر وأوجز في خطبته كما أسرع في صلاته.

وعندما فرغ من الخطبة وصل الخبر للسلطان إن الأمير إينال تسحب في الليل فعظم الخطب.

فلما علم السلطان بتسحب إينال أمر فنودي بالقاهرة أن لا يتخلف أحد من المماليك عن الخدمة وهدد من تخلف بالقتل.

فلما طلوعوا قبض على جماعة من المماليك الأشرفية.

ثم نودي أيضًا في الناس بإصلاح الدروب وغلقهم أبواب دورهم وأن لا يخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة وصارت أبواب القاهرة تغلق قبل عادة إغلاقها من الليل فكانت ليلة هذا العيد ويومه وثانيه من الأيام النكدة البشعة.

ثم في يوم الخميس ثالث شوال خلع السلطان على الأمير تنبك البرديكي أحد مقدمي الألوف باستقراره أمير حاج المحل عوضًا عن إينال المذكور بحكم تسحبه وخلع على قراجا الناصري الخاصكي البواب باستقراره والي القاهرة بعد عزل علاء الدين علي بن الطبلاوي وخلع على الأمير ممجق النوروزي أحد أمراء العشرات باستقراره في نيابة قلعة الجبل عوضًا عن تنبك المستقر في إمرة حاج المحمل.

وفيه أيضًا أمسك السلطان جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية.

ثم في يوم الجمعة رابع شوال سار عسكر من الخاصكية إلى جهة الغربية تزيد عدتهم على سبعين فارسًا لمسك الأمير قراجا الأشرفي أحد مقدمي الألوف وكان ولي كشف الجسور الغربية.

فسار العسكر المذكور إلى جهة المحلة وبلغ قراجا ذلك فخرج إليهم وسلم نفسه فأخذ وقيد وحمل إلى الإسكندرية فسجن بها.

وأما السلطان فإنه أصبح في يوم السبت خامس شوال عزل الأمير أركماس الظاهري عن الدوادية الكبرى وأخذت خيوله وخيول الأمير قراجا المقدم ذكره.

ثم في يوم الاثنين سابع شوال نودي بأن من وجد أحدًا من غرماء السلطان وطلع به فله خمسمائة دينار وإقطاع ومن غمز عليه أنه أخفى أحدًا منهم حل ماله ودمه هذا والمؤيدية قد تجردت للفحص عن الملك العزيز وعن المماليك الأشرفية في جميع الأماكن وقبضوا على جماعة من غلمانهم حتى دلوهم على أماكن بعضهم وصاروا يكبسون الدور والترب

وديارات النصارى والبساتين وضواحي القاهرة ومصر ويمرون في الليل في الأزقة متنكرين فإنهم صاروا هم أكثر تخوفًا من السلطان على نفوسهم.

وسبب ذلك أن طائفة المماليك المؤيدية كانوا قاموا مع السلطان الملك الظاهر في أمر سلطنته أتم قيام مع من ساعدهم من جميع الطوائف غير أنهم كانوا هم أشد بأسًا في ذلك فلما تسلطن الملك الظاهر عرف لهم ذلك ورقاهم وقربهم حتى صاروا هم عقد المملكة وحلها وتحكموا في الدولة وأخرجوا المماليك الأشرفية من الديار المصرية إلى السجون وإلى الثغور وإلى البلاد وأهانوهم بعد عزهم واتضع جانبهم بعد رفعتهم. فلما وقع لهم ذلك جدوا في الإغراء بالملك العزيز وقتله خوف العواقب فلم يسمع لهم السلطان.

فحسنوا له أن يكحله فلم يوافق أيضًا على ذلك.

فلما ثار الأمير إينال الجكمي نائب الشام ودعا للملك العزيز وكان تغري برميش نائب حلب أيضًا أعظم ميلًا للملك العزيز لكونه نشء والده الملك الأشرف برسباي تحققت المؤيدية أنهم مقتولون أشد قتلة إن ملك العزيز ثانيًا وصار لشوكته دولة.

فحرضوا عند ذلك السلطان على قتله واستفتوا العلماء في ذلك فكتب بعضهم على قدر ما أنهى له في الفتوى وامتنع البعض.

ثم اشتهر بالقاهرة أنه إذا فرغ شهر رمضان يفعل بالعزيز ما هو القصد وتكلم الناس بذلك.

واتفق فرار العزيز إما لما بلغه هذا الخبر أو لمعنى آخر وأكثر قول الناس إنه لم يفر إلا لما خامر قلبه من الخوف والله أعلم.

ثم لما بلغ إينال الأشرفي خبر العزيز وتسحبه واستدعته خجداشيته بالقيام في نصره ابن أستاذه فلم يوافق وخاف إن طلع القلعة من الغد يمسك اختفى.

فلما أصبح النهار وبلغ السلطان والناس فرار العزيز وتسحب إينال لم يشك الناس في أن إينال أخذ العزيز ومضى إلى إينال الجكمي.

ثم اختلفت الأقوال فعند ذلك علموا المؤيدية أنهم أشرفوا على الهلاك وأنهم ركبوا الأخطار فيما فعلوه في أمر الملك العزيز فحينئذ جدوا في الفحص عن أمره لبقاء مهجتهم لا لنصرة الملك الظاهر جقمق.

وصار الملك الظاهر يأخذ النار بيد غيره وهو فيما هو فيه من تجهيز العساكر لقتال الجكمي وتغري برميش.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن شوال أنعم السلطان بإقطاع الأمير قراجا الأشرفي على ولده المقام الناصري محمد وصار محمد المذكور من جملة أمراء الألواف واجلس تحت الأمير جرباش الكريمي أمير مجلس وهذا بخلاف العادة فإن العادة جرت من دولة الملك الظاهر برقوق إلى يومنا هذا أن ابن السلطان لا يجلس إلا رأس الميسرة فوق أمير سلاح فكلمه الأمراء في ذلك فلم يرض.

وما فعل الملاً الظاهر هذا الأمر وأمثاله إلا لعدم ثبات ملكه ولاضطراب دولته بسبب خروج النواب عن الطاعة وأيضًا تسحب العزيز - انتهى.

ثم أنعم السلطان بإقطاع إبنال الأشرفي الأبوكري على الأمير جرباش الكريمي قاشق وأنعم بإقطاع جرباش على الأمير شادبك الحكمي المعزول عن نيابة الرها وهو يوم ذاك أحد أمراء الطبلخانة وإقطاع جرباش والذي أخذه كلاهما مقدمة ألف غير أن الخراج يتفاوت بينهما.

وأنعم السلطان بإقطاع أركماس الظاهري على الأمير أسنبغا الطياري الدوادار الثاني وأنعم بإقطاع شادبك على الأمير جرباش المحمدي الناظري المعروف بكرد وأنعم بإقطاع الأمير أسنبغا الطياري على الأمير دولات باي المؤيدي الأمير آخور الثاني وكلاهما طبلخانة.

كل ذلك والقبض على الأشرفية مستمر مع الكتابة إلى الأعمال بأخذ الطرقات عليهم برًا وبحرًا والسلطان يستحث أقبغا التمراري نائب الشام على السفر في كل قليل.

فلما كان يوم الخميس عاشر شوال برز أقبغا التمراري بمن معه من القاهرة إلى الريدانية بعد أن خلع عليه السلطان خلة السفر.

فلما لبسها وجاء إلى السلطان ليقبل يده قام له السلطان واعتنقه فمسك أقبغا يده وقال له: " يا خوند لا تغير نيتك " فقال السلطان: " لا والله ".

ثم تأخر بخلعته ووقف على ميمنة السلطان لأن السلطان كان شرط له أن لا يخرج عنه إقطاع الأتابكية ووظيفتها إلى أن ينظر في أمر الحكمي ما سيكون فلهذا المقتضى وقف أقبغا في منزلة الأتابكية على ميمنة السلطان وكان حقه الوقوف على الميسرة كما هي عادة منازل نواب دمشق مع أن الأمير يشبك السوداني أمير سلاح ترشح للأتابكية وهو مجرد ببلاد الصعيد وأخرجت وظيفة إمرة سلاح عنه في هذا اليوم ولكن بغياب يشبك فالأتابكية شاغرة.

ثم خلع السلطان بحضرة أقبغا المذكور على الأمير تمرار القرمشي الأمير آخور الكبير باستقراره أمير سلاح عوضًا عن يشبك السوداني وقد رشح يشبك للأتابكية عوضًا عن أقبغا التمراري المذكور.

وخلع على الأمير قراخا الحسني رأس نوبة النوب باستقراره أمير آخور كبيرًا عوضًا عن تمرار القرمشي وهو يوم ذاك مقدم العساكر وأمر السلطان ولده المقام الناصري محمدًا بسكنى الحراقة من باب السلسلة إلى أن يعود الأمير قراخا الحسني من سفره بالبلاد الشامية ونزل تمرار القرمشي من باب السلسلة في يومه.

وخلع السلطان على الأمير تغري بردي البكلمشي المعروف بالمؤذي حاجب الحجاب باستقراره دوادارًا كبيرًا عوضًا عن أركماس الظاهري.

واستقر الأمير تنبك البرديكي أمير حاج المحمل حاجب الحجاب غير أنه لم يلبس خلة الحجوية في هذا اليوم.

ثم خلع السلطان على الأمير تمرباي التمرغاوي المعزول عن نيابة الإسكندرية باستقراره رأس نوبة النوب عوضًا عن قراخا الحسني بحكم انتقاله أمير آخور وتمرباي هذا أيضًا ممن عين لسفر التجربة.

ثم خلع السلطان على دولات باي المحمودي الساقبي المؤيدي الأمير آخوّر الثاني باستقراره دوادارًا ثانيًا عوضًا عن أسنبغا الطياري وخلع السلطان على الأمير جرباش المحمدي كرد باستقراره أمير آخوّر ثانيًا بعد دولات باي المؤيدي فامتنع جرباش المذكور من قبول ذلك لكونه يدي الأمير آخورية الثانية عن دولات باي وهو أقل منة رتبة حتى استعطفه السلطان وقرره على رتبته.

ونزل آقبغا وقراخجا وتمرباي - الجميع بخلعهم - إلى مخيمهم بالريدانية حسبما تقدم ذكره ثم تبعتهم العساكر المجردة من المماليك السلطانية وأمراء الطبلخانات والعشرات وغيرهم.

وفي هذا اليوم قدم الأمير يونس الركني الأعور أحد مقدمي الألوف بدمشق فأرًا من إينال الحكمي فأكرمه السلطان وأنعم عليه بزيادة جيدة على إقطاعه وتقدمته بدمشق.

وأقام آقبغا التمراري بالريدانية إلى يوم السبت ثاني عشر شوال فرحل منها واستقل بالمسير إلى الشام.

وفي يوم السبت هذا نفى السلطان إمام الملك الأشرف نور الدين عليًا السويفي إلى دمياط.

ثم في يوم الاثنين رابع عشر شوال رحل الأمير قراخجا الحسيني الأمير آخوّر الكبير والأمير تمرباي التمرغاوي رأس نوبة النوب بمن معهما من الأمراء والمماليك السلطانية من الريدانية إلى جهة الشام.

وفيه ورد الخبر على السلطان بأن إينال الحكمي برز بمخيمه من مدينة دمشق إلى ظاهرها.

فلما كان يوم الخميس ثالث شوال المذكور عزم هو على الخروج من المدينة بنفسه إلى مخيمه ليسيير بمن معه إلى نحو الديار المصرية.

فبينما هو في ذلك ركب عليه الأمير قاني باي الأبوكري الناصري البهلوان أتابك دمشق وكان ممن وافق الحكمي على العصيان وحسن له ذلك ثم تركه ومال إلى جهة السلطان وركب معه الأمير برسباي الناصري حاجب الحجاب بدمشق وجميع أمراء دمشق وعساكرها ولم يبق مع إينال من أعيان أمراء دمشق إلا جماعة يسيرة مثل الأمير قنصوه النوروزي أحد مقدمي الألوف بدمشق والأمير تنم العلائي المؤيدي الدوادار أحد أمراء الطبلخانات بدمشق والأمير بيرم صوفي أحد الطبلخانة بدمشق أيضًا والأمير مسروق أخو الملك الظاهر ططر وجماعة أخر يسيرة جدًا أعيانهم من ذكرناه.

فلما بلغ إينال الحكمي ركوب هؤلاء عليه مال عليهم وقاتلهم فلم يثبتوا له وانهمزوا أقبح هزيمة.

ثم تراجعوا فحمل عليهم فانكسروا وتمزقوا شذر مذر.

وطلع قاني باي البهلوان إلى قلعة دمشق في جماعة كبيرة من الأمراء وتوجه غيرهم إلى عدة أماكن.

وكان

▲ سبب مخالفة قاني باي وغيره

لإينال الحكمي بعد موافقتهم له أن السلطان أرسل ملطفات إلى قاني باي المذكور وغيره من أمراء دمشق يستميلهم إليه ووعدهم بأشياء كثيرة فلما سمعوا ذلك مالوا إليه وتركوا ما كان بينهم وبين إينال الحكمي من العهود والمواثيق ولم يستعبوا ذلك لكون أن هذا الغدر صار عادة لمن تقدمهم.

ولما كتب السلطان الملطفات المذكورة أرسلها إلى الأمير خشكلدي السيفي يشبك بن أزدمر وهو يوم ذاك نائب قلعة صغد فبعث بها خشكلدي المذكور علي يد نصراني إلى بهاء الدين محمد بن حجي كاتب سر دمشق ففرقها بهاء الدين على أربابها.

فحال ما وقفوا عليها مالوا بأجمعهم إلا من ذكرناه ممن ثبت مع إينال وقالوا: نحن وافقناه فلا نبرح عنه إلى الممات أو يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وكان أكثر من وعد من أمراء دمشق الأمير سودون أخو مامش المؤيدي والأمير تتم العلاني المؤيدي من خجداشيها المؤيدية فلم يلتفتوا إلى كتبهم واستقبحو الغدر والخيانة فله درهما.

وأنا أقول: أما طاعة السلطان فهي واجبة على كل أحد والعصيان ومخالفة السلطان لا يجوز ولا يستحسن.

لكن أيضًا يقبح بالرجل أن يدخل إلى ملك ويحسن له العصيان والثوران ولا يزال به حتى يقع في ذلك بعد أن يعطيه العهود والمواثيق على موافقته والقيام بنصرته ثم يتركه بعد تورطه ودخوله في ذلك لأجل النزر اليسير من حطام أو لتناوله ولاية من الولايات وعندى أن هذا لا يقع إلا من نذل ساقط الهمة والمروءة لا نخوة له والأنفس الكريمة تأبى ذلك ولو مسهم الضر والرجل الفحل هو الثابت على قوله والمقر على طاعة سلطانه حفظًا لدينه ودينه فإن لم يكن ذلك وأطاع شيطانه وركب هواه فليتم على ما قصده من ركوب الأهوال واقتحام الخطوب وهجوم الحروب فإما وإما وما أحسن قول عنتره في ذلك حيث يقول: الوافر أروم من المعالي منتهاها ولا أرضى بمنزلة دنيه فإما أن أشال على العوالي وإما أن توسدني المنية فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان سر بذلك ودقت البشائر بالديار المصرية.

ثم ورد الخبر على السلطان من بلاد الصعيد أن الأمير يشبك أمير سلاح انتهى بمن معه من العساكر السلطانية في طلب عرب هواره إلى مدينة إسنا فلم يقع بهم وأنه رجع بالعساكر إلى مدينة هو فقدم عليه بها من المشايخ الصلحاء جماعة ومعهم طائفة من مشايخ هواره راغبين في دخول الطاعة للسلطان وحلفوا على ذلك وأنه قدم عليهم بعد ذلك في يوم الأحد سادس شوال طوغان الأشرفي الزردكاش أحد الدوادارية الصغار ودعا العسكر إلى طاعة الملك العزيز والقيام بنصرته وذكر لهم أنه خرج من محبسه بقلعة الجبل ونزل إلى القاهرة واجتمع عليه جماعة من مماليك أبيه وأنه رآه بعينه ووعدته بالوثوب معه هو وخجداشيته الأشرفية وأنه أمره أن يختفي فاختفى حتى ينتظم أمره يعود مماليك أبيه من بلاد الصعيد.

ثم حرضهم طوغان على ذلك فمال منهم طائفة وتخوفت طائفة.

واضطرب العسكر قليلاً إلى أن اجتمع الجميع على طاعة السلطان بعد أمور صدرت وحلفوا أنهم مقيمون على الطاعة.

فدقت البشائر لذلك وخلع على الواصل بهذا الخبر وأجيب الأمير يشبك بالشكر وبحمل طوغان المذكور في الحديد.

وكان علم السلطان قبل ذلك بتوجه طوغان المذكور إلى بلاد الصعيد وكتب إلى الأمير يشبك وإلى حكام الصعيد بحمله في الحديد.

ثم ورد الخبر بعد ذلك من الأمير يشبك بأنه نازل على مدينة سيوط وأن يونس الخاصكي ورد عليه بمرسوم شريف يتضمن القبض على طوغان المذكور وأن المماليك الأشرفية لم يمكنوه من ذلك فكثير قلق السلطان والدولة لورود هذا الخبر وخشوا وقوع فتنة طناً من المماليك الأشرفية أنهم من هذا القبيل ورسم السلطان في هذا اليوم بخروج الأمير أركماس - المعزول عن الدوادية قبل تاريخه - إلى ثغر دمياط بطالاً.

ثم أخذ السلطان وحواشيه في الفحص عن الملك العزيز وكبست عدة أماكن وقبض على جماعة من المماليك الأشرفية.

وتزايد تحريض السلطان في طلب العزيز وقاسى الناس بسبب ذلك شدائد.

وكرت الأراجيف بخروج الأمير يشبك أمير سلاح ومن معه من المماليك الأشرفية عن طاعة السلطان وأنهم عادوا يريدون القاهرة فمنعت المراكب من التعدية في النيل بكثير من الناس المتهمه بالخروج على السلطان هذا مع عظم التفتيش على العزيز والكبس على البيوت والبساتين والتراب.

وغلقت بعض أبواب القاهرة نهائاً وأخذ أهل الدولة في الاستعداد للحرب.

هذا مع ما بالبلاد الشامية من الفتنة العظيمة من خروج نائب الشام ونائب حلب.

وصار السلطان في هذه الأيام في أشد ما يكون من القلق والتخوف وتكلم الناس بزوال ملكه.

فلما كان يوم السبت تاسع عشره برز أمير حاج المحمل الأمير تنبك بالمحمل وبعد خروجه من القاهرة قدم الخبر بالقبض على طوغان الزردكاش وحمله في الحديد ووصل طوغان المذكور في آخر النهار المذكور وكان أشيع الخبر بمسكه قبل ذلك فلم يصدقه أحد استبعاداً من تسليم خداشيته له مع كثرتهم وشدة بأسهم.

وكان من خبر طوغان أنه لما نزل الملك العزيز من قلعة الجبل واجتمع به ووعدته بالقيام معه توجه إلى الأمير إينال الأوبكري الأشرفي فلم يحصل منه على طائل.

فمضى هو وجماعة إلى خداشيتهم الأشرفية ووعدهم بالوثوب على الملك الظاهر والقيام بنصرة ابن أستاذهم فأجاب منهم طائفة كبيرة غير أنهم اعتذروا بغياب أعيانهم ببلاد الصعيد في التجريدة صحة الأمير يشبك وأنهم في قلة لأن معظمهم بالصعيد وطلبوا منه أن يرسل يعلم خداشيتهم بذلك فلم يجد لأحد منهم قوة للتوجه فقام هو بذلك بعد أن تحقق منهم الوثوب وخرج من القاهرة على الهجن.

وبلغ السلطان خبره فكتب بالقبض عليه في الطريق فلم يدركه أحد.

وسار حتى وصل إلى خجداشيته واجتمع بهم حسبما تقدم ذكره.

غير أنه أراد قضاء حاجته فأملى لخجداشيته أخبارًا في حق العزيز غير صحيحة يريد بذلك تمييز أمره فمالوا إلى كلامه.

فورد عليهم بعد ذلك الأخبار من المسافرين وغيرهم بهروب إينال واختفاء الملك العزيز على غير ما قاله له طوغان وأن الفحص على الملك العزيز في كل يوم مستمر فعند ذلك اختلفت كلمتهم على القيام بأمر العزيز وعلموا أن غالب كلام طوغان غير صحيح.

هذا والأمير يشبك يستميلهم إلى طاعة السلطان ويخوفهم عاقبة مخالف السلطان حتى أفضى به وبهم أن جمع عليه الكاشف بالوجه القبلي وعدة كبيرة مم عربان الطاعة وهم بمحاربتهم فلم يكن لهم طاقة بمحاربتهم مع ما تبين لهم من فساد أمرهم واختلاف كلام طوغان فأسلموه بعد أن كانوا انقلبوا جميعهم للخروج معه وهو أن طوغان لما جد في مسيره حتى وصل إليهم أعلمهم بأن الملك العزيز خرج من سجنه ونزل من القلعة واجتمع عليه خلائق من الأشرفية وغيرهم وأنه محاصر للملك الظاهر جقمق بقلعة الجبل فهيج هذا الكلام خواطرهم وتحركت كوامنهم وأجمعوا على القيام بنصرة ابن أستاذهم ومال إليهم كل أحد حتى الأمير يشبك في الباطن.

وكادت الفتنة تقوم ويظهر كل أحد الميل للملك العزيز فترادفت كف السلطان والقصاد بغير ما قاله طوغان فتوقفوا عما كانوا عزموا عليه.

ولا زال أمر الملك العزيز يتضح لهم حتى أسفرت القضية على أنه مختف وأن إينال تسحب فعند ذلك رجع كل أحد عما كان في ضميره وأظهر طاعة السلطان وأسلموا طوغان فقيد وحمل إلى القاهرة.

ولما طلع طوغان إلى القلعة حبس بها وأجري عليه أنواع العقوبة والعذاب المتلف وكسروا غالب أعضائه بالمعاصير وعوقب معه ثلاثة نفر من الخاصكية فلم يقر أحد منهم على غير ما قاله طوغان أن العزيز لما نزل من القلعة وإبراهيم الطباخ وقف بمكان بالمصنع بالقرب من قلعة الجبل واجتمع عدة من المماليك الأشرفية - وسماهم فكان غالبيهم ممن لا يعرف - فأجمع رأيهم بأن يسيروا إلى الشام بالعزيز ثم انصرفوا عن هذا الرأي عجزًا وتوجه طوغان ليأتي بالمماليك الأشرفية من بلاد الصعيد.

فلما تحقق السلطان ذلك كف عن عقوبة طوغان بعد أن تلف وأخرجه في يوم الثلاثاء ثاني عشرين شوال محمولًا لعجزه عن الحركة من شدة العقوبة ومعه خير بك الأشرفي وقد عوقب أيضًا وحملًا إلى الرميطة عند باب الميدان من تحت القلعة ووسط وكان أمر طوغان هذا من أعجب العجب فإنه كان في دولة أستاذه الأشرف زردكاشًا فلما مات الأشرف خالف خجداشيته وانتمى إلى الملك الظاهر جقمق قبل سلطنته مع الأمير إينال الأشرفي وصار خصيصًا عند الملك الظاهر وولاه دوادارًا وصار مقرَّبًا عنده.

ثم استحال عن السلطان ودبر عليه وأخرج الملك العزيز وقام في أمره من غير موافقة أحد من أعيان خجداشيته ولا مشاورة أحد من أرباب العقول.

ولم يكن هو من هذا القبيل من سائر الوجوه فكان من فعله وتدبيره ما ساقه إلى حتفه وتدبيره.

وكان طوغان المذكور طووالًا غير لائق في طولته وعنده طيش وخفة مع جهل وعدم تثبت في أموره.

ولم يكن من أعيان الأشرافية ولا ممن يلتفت إليه في الدولة - انتهى.

ثم في يوم الأربعاء ثالث عشرين شوال قبض على سر النديم الحيشية دادة الملك العزيز بعدما كبس عليها بعدة أماكن وعوقب بسببها خلائق فلم يعترضها السلطان بسوء بل قررها على الملك العزيز فأعلمته أنه مختف بالقاهرة.

ثم قبض على صندل الطواشي وقرره السلطان أيضًا فقال كما قالت الدادة فتحقق السلطان منهما أن الملك العزيز وإينال لم يخرجوا من القاهرة وأن الذي أشيع من خروجهما غير صحيح وأن الملك العزيز لم يجتمع مع إينال البتة وأنه كان هو وصندل هذا وطباخة إبراهيم ومشده أزدمر من غير زيادة على ذلك والملك العزيز ينتقل بهم من مكان إلى مكان وأن صندلًا فارقه من منذ أربعة أيام وقد طرده أزدمر المذكور لأمر وقع بينهما.

فلما قصد صندل مفارقتهم دفع له العزيز خمسين دينارًا ففارقهم صندل وصار يتردد إلى بيوت أصحابه في زي امرأة حتى دخل على بعض أصحابه من النسوة في الليل فأوته حتى أصبح فدل عليه زوجها حتى أمسك وعوقب حتى أقر على جميع ما ذكرناه وأنه الآن لا يعرف مكان العزيز.

فسجنه السلطان وهم بعقوبة الدادة فشغعت فيها خوند مغل بنت البارزي زوجة السلطان وتسلمتها من السلطان من غير عقوبة وتمت عندها.

فخف عن السلطان ما كان به قليلًا من أمر الملك العزيز فإنه كان ظن كل الظن أن إينال أخذه وتوجه إلى إينال الحكمي بدمشق ثم قبض على مرضعة الملك العزيز وزوجها وعلى جماعة آخر من الرجال والنساء ممن كان من جوارى الأشراف ومعارفهن وممن اتهم بأنه معرفة أزدمر وإبراهيم الطباخ.

ثم في يوم الخميس رابع عشرين شوال

▲ عزل السلطان الطواشي فيروز الجاركسي

عن الزمامية لكونه تهاون في أمر الملك العزيز حتى تسحب من الدور السلطانية وعين السلطان عوضه زمامًا الطواشي جوهرًا القنقبائي الخازندار مضافًا إلى الخازندارية.

وفي ليلة الجمعة ويوم الجمعة كبست المؤيدية على مواضع كثيرة بالقاهرة وطواهرها ومضوا إلى دور الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم وكبسوا عليه وعلى جيرانه في طلب الأمير إينال الأشرفي والملك العزيز فلم يجدوا أحدًا.

وهرب الصاحب أمين الدين ثم ظهر وخلع عليه بعد ذلك.

واشتد طلب السلطان على الملك العزيز وهدد من أخفاه بأنواع العذاب والنكال فشمّل الخوف غالب الناس.

ثم في يوم السبت سادس عشرين شوال خلع السلطان على جوهر الخازندار باستقراره زمامًا عوضًا عن فيروز الجاركسي بحكم عزله مضافًا للخازندارية والفحص على الملك العزيز مستمر في كل يوم وليلة وقد دخل الناس من الرعب والخوف ما لا مزيد عليه بسببه إلى أن كشف الله هذا البلاء عن الناس وقبض على الملك العزيز يوسف في ليلة

الأحد سابع عشرين شوال واطمأن كل أحد على نفسه وماله بظهور الملك العزيز والقبض عليه.

خبر للملك عبد العزيز في فراره وكان من خبر الملك العزيز أنه لما اشتد الطلب عليه ضاقت عليه الأرض وكان له من يوم فر من القلعة وهو ينتقل من مكان إلى مكان لا سيما لما كثر الفحص عنه تخوف غاية الخوف حتى ألجأه ذلك إلى الانفراد مع أزدمر لا غير ليخف بذلك أمرهما على من أخفاهما ومع هذا تغلبا أين يذهبان.

واحتاج الملك العزيز أن أرسل إلى خاله الأمير بيبرس الأشرفي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بأنه يريد المجيء إليه في اللياق ويختفي عنده على ما قيل فواعده بيبرس على أن يأتيه ليلاً.

ثم خاف بيبرس عاقبة أمره فإنه كان الملك الظاهر جقمق اختص به وأمره دون إخوته وأكرمه غاية الإكرام.

ورأى بيبرس أنه لا يحسن به أن يقبض عليه ويطلع به إلى السلطان فأعلم جاره يلبي الإينالي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بمجيء الملك العزيز إليه في الليلة المذكورة وأعلمه أيضاً أنه يمر من موضع كذا وكذا.

فخرج يلبي في الليل متنكراً ومعه اثنان من خداشيته المؤيدية وترصد للعزيز بخط زقاق حلب بعد عشاء الآخرة وبينما هم في ذلك إذ مر بهم العزيز ومعه أزدمر مشده وهما في هيئة مغربيين فوثب يلبي بأزدمر ليقبض عليه فامتنع منه ودفع عن نفسه فضربه يلبي أدمى وجهه وأغانه عليه رفقته حتى قبض عليه وعلى الملك العزيز وكان على الملك العزيز جبة صوف من لبس المغاربة.

وظلعوا بهما في الحال إلى باب السلسلة ثم إلى السلطان والملك العزيز حاف بغير نعل في رجليه وقد أخذه بعض المؤيدية بأطواقه يسحبه على ما قيل فإني لم أحضر المجلس تلك الساعة.

فلما مثل العزيز بين يدي السلطان أوقف ساعة ثم أمر به السلطان فأخذ إلى مكان في القلعة وسجن به إلى أن أصبح.

وظلع الأمراء وأرباب الدولة إلى الخدمة على العادة ودقت البشائر لقبض الملك العزيز وسر السلطان بذلك سروراً عظيماً وخف عنه الأمر كثيراً بالنسبة إلى ما كان فيه.

ثم أخذ السلطان الملك العزيز إلى زوجته خوند البارزية بقاعة العواميد وأسلمها العزيز وأمرها أن تجعله في المخدع المعد لمبيت السلطان بالقاعة المذكورة وأن تتولى أمر أكله وشربه وحاجاته بنفسها.

فأقام العزيز على ذلك مدة إلى أن نقله السلطان في ليلة الأربعاء ثامن ذي القعدة إلى مكان بالحوش وضيق عليه ومنع من جميع خدمه ثم سيره إلى سجن الإسكندرية حسبما يأتي ذكره.

وأمر السلطان بأزدمر فسجن بالبرج من قلعة الجبل مع جماعة من خداشيته الأشرفية ووجد مع الملك العزيز من الذهب ثمانمائة دينار أعطى السلطان منها إلى يلبي خمسمائة دينار وإلى رفيقه مائة دينار ثم فرق الباقي من ذلك على من حضر.

ثم أنعم السلطان على يلباي المذكور بقرية سرباقوس زيادة على ما بيده وصار من جملة أمراء الطبلخانات.

وهذا سر السلطان من جهة الملك العزيز والتفت إلى أخبار إينال الجكمي وتغري برمش.

ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشرينه ظهر الأمير إينال أبو بكري الأشرفي من اختفائه.

وكان من خبره أنه من يوم تسحب الملك العزيز خاف القبض عليه فاختفي إلى أن ظهر الملك العزيز فخف عنه ما داخله من الوهم بسبب الملك العزيز وقد علم أن السلطان ظهر له أنه لم يجتمع مع الملك العزيز ولا قام بنصرته وأن اختفائه كان نوعًا من مهابة السلطان.

فلما كان ليلة الثلاثاء المذكورة توجه إلى الأمير جرباش الكريمي المعروف بقاشق أمير مجلس وترامى عليه واستجار به وهو يظن أن في السويداء رجالًا فأجاره وهو يظن أن السلطان يقبل شفاعته.

وكان معظم ظهور إينال المذكور لما بلغه من اختفائه عن السلطان من الثناء عليه وبسط عذره في اختفائه وأنه باختفائه سكنت الفتنة فغره هذا الكلام وأيضًا أنه استند للأمير جرباش أمير مجلس وخجداش السلطان فأخذه الأمير جرباش من الغد في يوم الثلاثاء المذكور وطلع إلى القلعة.

وقد بلغ السلطان خبر إينال وظهوره ثم طلوعه مع جرباش فحال ما وقع بصر السلطان على إينال أمر به فقبض عليه وقيد وسجن بمكان بالقلعة حتى يحمل إلى الإسكندرية هذا والأمير جرباش يكرر تقبيل يد السلطان ورجله في أن يشفعه فيه ويدعه بطالًا ببعض الثغور فلم يلتفت السلطان إلى شفاعته ونزل جرباش إلى داره خجلًا مفضوحًا من حاشيته وأصحابه ومن يومئذ انحط قدره إلى أن مات.

على أنه صاهر السلطان بعد ذلك وصار حماه ومع هذا كله لم يكن له صولة في الدولة.

وأخرج السلطان إينال من يومه إلى سجن الإسكندرية وبها أعداؤه من خجداشيته فكان شماتتهم به أعظم عليه من حبسه.

وأخذ السلطان بعد ذلك يتشوف إلى أخبار عسكره المجرد إلى قتال إينال الجكمي وغيره.

فلما كان يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة ورد على السلطان كتاب الأمير آلبغا حاجب غزة يتضمن قتال عسكر السلطان مع إينال الجكمي نائب الشام في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة وانهزام إينال الجكمي فأخذت الناس في هذا الخبر وأعطوا غير أنه دقت البشائر وسر السلطان بذلك.

ثم أصبح من الغد في يوم الخميس ورد الخبر بمسك إينال الجكمي فدقت البشائر أيضًا.

غير أن السلطان في انتظار كتاب آقبا التمراري فورد عليه كتابه في يوم الجمعة عاشر ذي القعدة وذكر واقعة العسكر مع إينال الجكمي وملخصها أن العساكر السلطانية المتوجهة من الديار المصرية والمتجمعة بالرملة من النواب والعساكر ساروا جميعًا من الرملة أمام الأمير قراخا الحسني ومن معه من الأمراء والمماليك السلطانية كالجاليش لكن بالقرب منهم حتى نزلوا بمنزلة الخربة في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة وقد

قدموا بين أيديهم كشافة على عادة العساكر فعادت الكشافة وأخبروا بقرب إينال الجكمي منهم.

فركبوا في الحال بعد أن عبوا أطلابهم وهم ستة نواب: آقبا التمراري نائب الشام وجلبان الذي استقر نائب حلب وإينال العلاني نائب صفد - أعني الملك الأشرف - وطوخ مازي نائب غزة وطوغان العثماني نائب القدس وخليل بن شاهين وقد استقر نائب ملطية.

وساروا بمن اجتمع عليهم من العشير والعربان جاليسًا حتى وصلوا إلى مضيق قرب الحرة وإذا بجاليس إينال الجكمي فيه الأمير قانصوه النوروزي أحد مقدمي الألوف بدمشق ونائب بعلبك وكاشف حوران ومحمد الأسود بن القاق شيخ العشير ويرعلي الذكري أمير التركمان وطرعلي بن سقل سيز التركماني وكثير من العربان والعشير والجميع دون الألف فارس.

وصدموا النواب المذكورة فكانت بينهم وقعة كبيرة انهزم فيها الأطلاب الستة بعد أن أردفهم إينال الجكمي بنفسه وركب أافية القوم وكان من الشجعان المشهورة إلى أن أوصلهم إلى السنجق السلطاني وتحتة الأمير قراخا الحسنی الأمير آخور والأمير تمرباي رأس نوبة النوب بمن معهما من الأمراء والعساكر المصرية والسنجق بيد الأمير سودون العجمي النوروزي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وقد تخلت عن إينال أصحابه ومدوا أيديهم إلى النهب في أطلاب النواب لما انهزموا أمام العسكر الشامي.

وبقي إينال في أناس قليلة فحط بهم على العسكر المصري فثبتوا له وقتلوه ساعة وقد تفرقت عنه أصحابه بسبب النهب فلم يجد مساعدًا فانهزم بعد أن قتل من الفريقين جماعة كبيرة جدًا ولم يقتل من الأعيان غير الأمير صرغتمش أحد مماليك الوالد الذي كان دوادار الأمير جلبان ثم استقر دوادار السلطان بحلب وخرج خلق كثير.

وقبض في الوقعة على الأمير تنم العلاني المؤيدي وعلى الأمير بيرم صوفي التركماني وعلى الأمير خير بك القوامي ومحمد بن قانصوه النوروزي وجماعة آخر.

وحال بينهم الليل.

فلما أصبح العسكر يوم الخميس ثاني في القعدة ورد الخبر عليهم من دمشق بالقبض على إينال الجكمي من قرية حرستا من عمل دمشق فدقت البشائر لذلك وتفرقت أخصاء السلطان للأعيان بالبشارة وزال ثلثا ما كان بالسلطان من أمر الملك العزيز وإينال وبقي تغري برمش.

وكان من خبر مسك إينال الجكمي أنه لما انكسر من العسكر المصري ساق في نفر يسير إلى أن وصل حرستا وقد تلفت خيوله لبعده المسافة ونزل بها وقد جهده التعب والجوع واختفى بها في مزرعة.

وأرسل بعض خدمه ليأتيه بطعام ففطن به رجل وعرف شيخ البلد فأرسل شيخ البلد إلى نائب قلعة دمشق بالخبر.

فخرج من دمشق في طلبه جانبك دوارار برسباي حاجب حجاب دمشق ومعه جماعة آخر وطرقوه بالقرية على حين غفلة فقام ودفع عن نفسه بكل ما تصل قدرته إليه فتكاثروا عليه وطمعنه بعضهم في جنبه ورماه آخر أصاب وجهه ثم مسكوه وجيء به إلى دمشق

على فرسه وقد وقف الفرس من العي فلم يصل إلى قلعة دمشق إلا بعد العصر والناس في جموع كثيرة لرؤيته ما بين باك وحزين وسجن بقلعة دمشق مقيدًا.

وأصبح دخل آقبا التمرزي إلى دمشق في باكر نهار الجمعة ثالث ذي القعدة ومعه العساكر بسلاحهم ونزل بدار السعادة ولم يتجهج أهل دمشق بقدمه لعظم ميلهم لإينال الحكمي وإن كان آقبا المذكور صهري فالواقع ما ذكرناه.

ومع هذا وقع يوم دخوله إلى دمشق حادثة غريبة وهي أن بلبان شيخ كرك نوح واسمه محمد وولده محمد أيضًا قدما إلى دمشق بجموعهما من العشير نصره لعساكر السلطان - ولبلان المذكور فلاح الأمير برسباي الحاجب - كأكابر المدركين فلم يصل بلبان المذكور حتى انقضت الوقعة فتأسف على ذلك لما كان بينه وبين إينال الحكمي من المباينة مراعاة لأستاذه برسباي المذكور فعاد إلى دمشق في خدمة آقبا التمرزي إلى أن دخل التمرزي إلى دار السعادة وذهب كل أمير إلى حال سبيله.

فعاد بلبان المذكور فيمن عاد حتى كان عند المصلى والعامه قد ملأت الطرقات وهم في كآبة لفقد إينال الحكمي ولما وقع له فصاح شخص من العامه بواحد من العشير من أعوان بلبان يقول: " أبا بكر! أبا بكر! " وتبعه غيره يكررون ذلك مرارًا عديدة يريدون نكايه بلبان فإنهم يرمون بالرفض.

فلما كثر ذلك من العامه ضرب بعض العشير واحدًا من العامه فعند ذلك تجمعوا عليه وأرموه عن فرسه ليقتلوه فاجتمع أصحابه ليخلصوه من العامه وقبل أن يخلصوه بادره العامه وذبحوه وتناولوا الحجارة يرمون بها بلبان وأعوانه وكانوا في كثرة نحو الخمسمائة نفر وأكثر فتوغل بلبان بين أصحابه ولم يقدر أن يفوز بنفسه فتكاثروا عليه وألقوه إلى الأرض عن فرسه وذبحوه ثم أخذوا ابنه محمدًا أيضًا وذبحوه ووضعوا أيديهم في أصحاب بلبان إلى أن أسرفوا في القتل.

ولم يكن لذلك سبب ولا دسياسة من أحد ولا أمر من السلطان فوقع هذا الأمر ولم يقدر أحد على القيام بأخذ ثاره لاضطراب المملكة وراحت على من راحت إلى يومنا هذا.

قلت: لا جرم إنما وقع له ببركة الشيخين فقوصص بذلك في الدنيا وله في الأخرى أعظم قصاص نكالًا من الله على رفضه وقبح سريرته.

ثم في يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة كتب بقتل إينال الحكمي بسجنه بقلعة دمشق بعد تقريره على أمواله وذخائره وبقتل جماعة من أصحابه ممن قبض عليه في الوقعة.

وفي هذه الأيام رسم السلطان بعقوبة حكم خال الملك العزيز بسجنه بالإسكندرية حتى يعترف بمتحصل الملك العزيز في أيام أبيه من إقطاعه وحماياته ومستأجراته فأجابهم عن ذلك كله وكان السلطان استولى على جميع ما للعزيز عند جذته لأمه من المال والقماش والفصوص وكان شيئًا كثيرًا.

وأمر السلطان أيضًا بعقوبة يخشباي الأمير آخور الثاني بسجن الإسكندرية أيضًا بعد أن أراد السلطان قتله بحكم الشرع من كونه سب شريفًا ببلاد الصعيد في أيام أستاذه الملك الأشرف فيادر يخشباي حتى حكم قاض شافعي بحقن دمه ووقع بسبب ذلك أمور وعقد مجلس بالقضاة والفقهاء ذكر ذلك كله في الحوادث.

ولما وقع اليأس من قتله رسم بعقوبته حتى يعترف بما له من الأموال فعوقب أشد عقوبة بحيث إنه لم يبق إلا موته.

ثم قدم الخبر على السلطان بأن العساكر توجهت من دمشق في حادي عشر ذي القعدة إلى حلب بعد أن عاد طوغان نائب القدس إلى القدس وتأخر آقبا التمراري نائب الشام به.

وكان الذي توجه من النواب إلى حلب صحة العساكر المصرية: جليان نائب حلب وقاني باي الحمزاوي نائب طرابلس وهو إلى الآن بحماة غير أنه تهباً للاجتماع بالعساكر المصرية وعنده أيضاً الأمير برديك العجمي الذي استقر في نيابة حماة وقد قدمه إلى حلب وسار من النواب أيضاً الأمير إينال العلاني الناصري نائب صفد والأمير طوخ مازي نائب غزة.

وقدم الخبر أيضاً أنه قبض بدمشق على يرعلي الدكوي وشنق وأن تغري برممش نائب حلب كان نزل على حلب وصحبته الأمير طرعلي بن سقل سيز والأمير علي باي بار بن إينال بجمائعهما من التركمان والأمير غادر بن نغير بعريه من آل مهنا والأمير فرج وإبراهيم ولدا صوجي والأمير محمود ابن الدكري أيضاً بجمائعهما من التركمان وعدة الجميع نحو ثلاثة آلاف فارس وأن تغري برممش خيم بالجوهري وبعث بعدة كبيرة إلى خارج باب المقام فخرج إليه الأمير برديك العجمي الذي ولي نيابة حماة وقد قدم حلب من أيام ومعه جماعة من أمراء حلب ومن تركمان الطاعة ومن العامة فكانت بينهم وقعة هائلة قتل فيها وجرح جماعة كثيرة من الفريقين وعاد كل منهما إلى مكانه.

ثم التقى الجمعان ثانيًا في يوم الجمعة خامس عشرين شوال على باب النيرب واقتتلوا يومًا وليلة قتالًا شديدًا قتل فيه عدة كبيرة من الناس وجرح نائب حماة وطائفة من أمراء حلب ثم رجع كل فريق إلى موضعه.

ورحل تغري برممش من موضعه في يوم الأحد سابع عشرينه ونزل بالميدان والحرب مستمر والعامة تبذل جهدها في قتاله إلى أن كان يوم الخميس ثاني ذي القعدة أحضر تغري برممش آلات الحصار من مكاحل النفط والسلاطم والجنويات إلى باب الفرج ونصب صيوانه تجاه سور حلب وجد في قتال الحلبيين.

هذا وأهل حلب يد واحدة على قتاله طول النهار مع ليلة الجمعة بطولها وأهل حلب يتضرعون ويدعون الله تعالى.

فلما أصبح نهار الجمعة رحل تغري برممش عن مكانه وعاد إلى الميدان بعد أن كانت القضاة وشيوخ العلم والصلاح وقفوا بالمصاحف والربعات على رؤوسهم وهم ينادون من فوق الأسوار: " الغزاة معاشر الناس في العدو فإنه من قتل منكم كان في الجنة ومن قتل من العدو صار إلى النار " في كلام كثير يحرضون بذلك العامة على القتال ويقوون عزائمهم على الثبات إلى أن رحل تغري برممش بمن معه من الميدان إلى الجهة الشمالية في يوم الأحد خامس ذي القعدة بعد ما رعت مواشيهم زروع الناس وبساتينهم وكرومهم وقطعوها ونهبوا القرى التي حول المدينة وأخربوا غالب العمارات التي كانت خارج سور حلب وقطعوا القناة التي تدخل إلى مدينة حلب من ثلاثة أماكن.

وكان أشد الناس في قتال تغري برممش أهل بانقوسا.

هذا بعد أن ظفر تغري برممش بجماعة من الحلبيين في بعض قتاله فقطع أيدي الجميع وبالغ في الإضرار بالناس.

وأنا أقول: لو كان لتغري برممش على أهل حلب دولة لفعل فيهم أعظم من فعل تيمورلنك لقله دينه وجبروته ولحنقه من أهل حلب وأنا أعرف بحاله من غيري لكونه

طالت أيامه في خدمة الوالد سنين ثم قتل أغاته من ممالك الوالد وفر كما سنحكيه في وفاته من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ولما بلغ هذا الخبر الملك الظاهر قلق قلقًا عظيمًا لما وقع لرعيته من أهل حلب.

فلم يكن إلا أيامًا قليلة وقدم الخبر في يوم السبت خامس عشرين ذي القعدة بكسرة تغري برمش المذكور فدقت البشائر لذلك وعظم سرور السلطان غير أنه تشوش لعدم مسكه وخاف عاقبة أمره.

وكان من خبره أن العسكر المصري بمن معه من العسكر الشامي لما ساروا من دمشق إلى جهة حلب وافاهم الأمير قاني باي محمزاوي وغيره وصاروا جمعًا واحدًا فلقبهم تغري برمش المذكور بجموعه التي كانت معه قريبًا من حماة في يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة وقد صف عساكره من التركمان وغيرهم حتى ملؤوا الفضاء.

فحال ما وقع بصر عسكره على العساكر السلطانية أخذوا في الانهزام من غير مصاففة بل بعض تناوش من صغائر الطائفتين وولوا الأدبار ومدت العساكر السلطانية أيديها إلى عساكر تغري برمش فغنموا منهم غنائم لا تحصى كثرة منها نحو المائتي ألف رأس من الغنم سوى ما تمزق ونهب جميع وطاق تغري برمش وماله وانهزم هو في جماعة يسيرة من خواصه إلى جهة التركمان الصوجية على ما نذكره من قصته في ذي الحجة من هذه السنة.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين ذي القعدة قدم النجاب برأس الأمير إينال الجكمي وكان قتله بقلعة دمشق في ليلة الاثنين عشرين ذي القعدة فشهرت الرأس على رمح ونودي عليه: " هذا جزاء من حارب الله ورسوله " ثم علقت على باب زويلة.

وقتل معه الأمير تنم العلاني المؤيدي وكان تنم المذكور أدوبًا حشمتًا وقورًا وأما إينال الجكمي فيأتي التعريف بحاله في الوفيات على العادة.

وفي هذه الأيام حكم بقتل الأمير يخشباي الأشرفي الأمير آخور الثاني وقد تقدم أنه ادعي عليه أنه سب شريفًا ولعن والديه وأن بعض نواب الشافعي حكم بحقن دمه وسكن الحال مدة أشهر ثم طلب السلطان من القاضي المالكي قتله فاحتج بحكم الشافعي بحقن دمه فعورض بأن المطلوب الآن من الدعوى عليه غير المحكوم فيه بحقن الدم فصمم المالكي بأنهما قضية واحدة ووافق غير واحد من المالكية ووقع أمور حكاها غير واحد من المؤرخين إلى أن قتل يخشباي المذكور حسبما يأتي ذكره.

ثم ورد على السلطان في يوم الأحد ثالث ذي الحجة مطالعة الأمير جليان نائب حلب وقرينها مطالعات بقية الأمراء والنواب تتضمن أن تغري برمش لما انهزم على حماة مضى نحو الجبل الأقرع وقد فارقه الغادر بن نعيم فقبض عليه أحمد وقاسم ولدا صوجي وقبض معه على دواداره كمشيغا وخازنداره يونس وعلى الأمير طرعلي بن سقل سيز والأمير صارم الدين إبراهيم بن الهذباني نائب قلعة صهيون وكتبوا بذلك إلى نائب حلب فورد الخبر بذلك على العسكر وهم على خان طومان في يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة.

فجهز الأمير جليان عند ذلك الأمير برد بك العجمي نائب حماة والأمير إينال العلاني نائب صفد والأمير طوخ مازي نائب غزة والأمير قطج أتابك حلب والأمير سودون النوروزي حاجب حجاب حلب لإحضار المذكورين.

ورحل جليان بمن بقي معه يريد حلب فدخلها في يوم الثلاثاء حادي عشرين ذي القعدة المذكورة.

وسار بردبك العجمي نائب حماة بمن معه إلى أن تسلم تغري برممش ومن ذكرنا ممن قبض عليه من أصحابه وأتوا بهم.

فسمر طرعلي بن سقل سيز تسمير سلامة وسمر لهذباني ورفقته تسمير عطب.

وساروا بهم وتغري برممش راكب على فرس بقيد حديد حتى دخلوا به مدينة حلب وهو ينادي عليهم في يوم الخميس ثالث عشرينه وقد اجتمع من أعدائه الحلبيين خلائق لا يعلم عدتها إلا الله وهم من التخليق بالزعفران والتهانىء في أمر كبير.

وصاروا يسمعون تغري برممش المذكور من المكروه والسب والتوبيخ وإظهار الشماتة به أمورًا كثيرة حتى أوقفوهم تحت قلعة حلب ووسط الهذباني ورفيقه وتسلم تغري برممش وطرعلي الأمير حطط نائب قلعة حلب.

فانظر إلى هذا القصاص وهو أن تغري برممش لم يكن له في الدنيا عدو أعظم من بردبك العجمي وحطط ثم عامة حلب وقد تمكن الثلاثة منه فأما بردبك فإنه تسلمه وتحكم فيه من وقت أخذه من أولاد صوجي إلى أن أوصله إلى قلعة حلب وأما حطط فإنه تحكم فيه من وقت تسلمه من بردبك العجمي إلى أن قتل بين يديه وأما عامة أهل حلب فإنهم بلغوا منه مرادهم من إسماعه المكروه والشماتة به والتفرج عليه يوم قتله فنعود بالله من زوال النعم وشماتة الأعداء.

وأما السلطان الملك الظاهر فإنه لما بلغه القبض على تغري برممش كاد أن يطير فرحًا وعلم أنه الآن بقي في السلطنة بغير نكد ولا تشويش.

ودقت البشائر لذلك ثلاثة أيام.

وكتب بقتل تغري برممش بعد عقوبته ليقر على أمواله فعوقب فأقر على شيء من ماله نحو الخمسين ألف دينار ثم انزل ونودي عليه إلى تحت قلعة حلب وضربت عنقه.

وقتل معه أيضًا طرعلي بن سقل سيز.

وصفا الوقت للملك الظاهر وخلا له الجو من غير منازع والتفت الآن إلى من له عنده رأس قديمة يكافئه عليها من خير وشر.

فأول ما بدأ به في يوم الخميس ثامن عشرين ذي الحجة أن قبض على زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيش وعلى مملوكه جانبك الأستادار وعلى عدة كبيرة من حواشيه وأحيط بدور الجميع وكتب بإيقاع الحوطة على جميع ماله بالشام والحجاز والإسكندرية فزال بمسكه غمة كبيرة عن الناس فإنه كان غير محبب للناس حتى ولا إلى أصحابه لبادرة كانت فيه وسوء خلق وبطش مع سفه وبذاءة لسان.

ثم في يوم السبت سلخ ذي الحجة من سنة اثنتين وأربعين خلع السلطان على القاضي محب الدين بن الأشقر باستقراره في وظيفه نظر الجيش عوضًا عن عبد الباسط وخلع على الناصري محمد بن عبد الرزاق بن أبى الفرج نقيب الجيش باستقراره أستاذًا عوضًا عن جانبك الزيني عبد الباسط.

وابن الأشقر المذكور وابن أبي الفرج كل منهما كان من أصحاب عبد الباسط.

قلت: عود وانعطاف على ما ذكرناه أنه كان يكرهه حتى أعز أصحابه ولولا ذلك ما وليا عنه هؤلاء وظائفه في حياته وإن كانا تمنعا عند الولاية فهذا باب تجمل ليس على حقيقته ولا يخفى ذلك على من له ذوق سليم فإننا لا نعرف أحدًا ولي وظيفة غصبًا كائنًا من كان.

وفي يوم السبت المذكور قدم رأس تغري برميش فطيف بها ثم علقت على باب زويلة أيامًا.

وفرغت هذه السنة أعني سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة بعد أن كان فيها حوادث كثيرة وعدة وقائع حسبما ذكرناه.

واستهلت سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة والسلطان مصمم على أنه لا يقنع منه بأقل من ألف دينار ويهدده بالعقوبة ويعدد له ذنوبه حتى قال في بعض مجالسه بحضرتي: " والله أشنكله بشنكال مثلما كانت تعمل الجفئية.

هذا أخرج مملكة مصر.

كان إذا كلمه أحد من أعيان الأمراء صفر له بغمه في وجهه " وأشياء كثيرة من ذلك.

ثم في يوم الاثنين ثاني محرم سنة ثلاث وأربعين خلع السلطان على القاضي ولي الدين محمد السفطي مفتي دار العدل وأحد ندماء السلطان وخواصه باستقراره في نظر الكسوة مضافًا لما بيده من وكالة بيت المال - فإن شرط الواقف أن يكون وكيل بيت المال ناظر الكسوة - عوضًا ثم خلع السلطان على فتح الدين محمد بن المحرق باستقراره ناظر الجوالي عوضًا عن عبد الباسط وكان فتح الدين المذكور من حواشي الملك الظاهر أيضًا.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشر المحرم أفرج عن جانبك الزيني عبد الباسط بعد أن حوسب في بيت تغري بردي المؤذي الدوادر الكبير وقد شطب عليه بمبلغ ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم وجبت عليه للديوان وذلك سوى العشرة آلاف دينار التي ألزم بها.

ثم في سلخ المحرم قدم الأمير يشبك السوداني أمير سلاح من بلاد الصعيد بمن معه من المماليك الأشرفية وغيرهم فخلع السلطان عليه باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضًا عن أقبغا التمراري بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق.

وكان يشبك أنعم عليه بالإقطاع والوظيفة من يوم ذاك غير أنه كان غائبًا ببلاد الصعيد هذه المدة الطويلة فلما حضر خلع عليه بالأتابكية.

ثم في يوم الاثنين أول صفر قدم الأمير قاني باي أبو بكري الناصري المعروف بالبهلوان أتابك دمشق إلى القاهرة وخلع السلطان عليه باستقراره في تيابة صغد عوضًا عن الأمير إينال العلائي الناصري بحكم عزل إينال المذكور واستقراره من جملة مقدمي الألوف بديار مصر ورسم باستقرار الأمير إينال الششمانني الناصري أحد مقدمي الألوف بدمشق في الأتابكية عوضًا عن قاني باي البهلوان.

ثم في يوم السبت سادس صفر قدم إلى القاهرة الأمراء المجردون إلى الشام بمن معهم من المماليك السلطانية فخلع السلطان على الأمير قراخا الحسني الأمير آخور

وعلى الأمير تمرباي التمرغاوي رأس نوبة النوب وعلى جميع من بقي من رفقتها من أمراء الطبلخانات والعشرات وسكن قراخجا بباب السلسلة.

وفي هذه الأيام غضب السلطان على عبد الباسط ونقله في يوم الخميس حادي عشر صفر من المقعد الذي على باب الهجرة المطل على الحوش من قلعة الجبل إلى البرج عند باب القلعة.

وكان سبب ذلك أنه من يوم حبسه السلطان لم يهنه بضرب ولا بعقوبة والناس تتردد إليه وهو مطالبه بألف ألف دينار.

وقد تكلم بينه وبين السلطان المقر الكمالي محمد بن البارزي صهر السلطان وكاتب سره وراجع السلطان في أمره مرارًا عديدة وعبد الباسط يورد للسلطان من أثمان ما يباع له حتى وقف طلب السلطان بعد عناية ابن البارزي به على أربعمائة ألف دينار وأبى السلطان أن يضع عنه منها شيئًا وعبد الباسط يريد أن يحط عنه من ذلك شيئًا آخر.

وترامى على ابن البارزي المذكور واعترف بالتقصير في حقه في الدولة الأشرفية فلم يحوجه ابن البارزي لذلك بل شمر ساعدًا طويلًا لمساعدته حتى صار أمره إلى هنا بغير عقوبة ولا إهانة.

فلما كان يوم الخميس المذكور تكلم مع السلطان ابن البارزي وجماعة كبيرة من أعيان الدولة في أمر عبد الباسط وسأله الحطيطة من الأربعمائة ألف دينار فغضب السلطان من ذلك وأمر به فأخرج إلى البرج على حالة غير مرضية ومضى من المقعد ماشيًا إلى البرج المذكور وسجنوه به.

ورسم السلطان له أن يدفع للمرسمين عليه لما كان بالمقعد وهم ثمانية من الخاضكية مبلغ ألفي دينار ومائتي دينار ودفعها لهم.

وبينما هو في ذلك دخل عليه الوالي وأمره أن يقلع جميع ما عليه من الثياب فإنه نقل للسلطان أن معه الاسم الأعظم أو أنه يسحر السلطان فإنه كان كلما أراد عقوبته صرفه الله عنه فخلع جميع ما كان عليه من الثياب والعمامة ومضى بها الوالي وبما في أصابع يديه من الخواتم فوجد في عمامته قطعة أديم ذكر أنها من نعل النبي صلى الله عليه وسلم ثم وجدت في عمامته أوراق فيها أدعية ونحوها وأخذ المقر الكمالي في القيام معه حتى كان من أمره ما سنذكره.

ثم في يوم السبت ثالث عشر صفر قدم الأمير إينال العلاني الناصري المعزول عن نيابة صفد وقد استقر من جملة مقدمي الألوف بالديار المصرية وقدم معه الأمير طوغان العثماني نائب القدس والأمير طوخ أبو بكري المؤيدي أتاك غزة - وقد صار من جملة مقدمي الألوف بدمشق على إقطاع مغلباي الجقمقي بعد القبض عليه - وخلع السلطان على الجميع واركبوا ثم في رابع عشر صفر رسم السلطان بإحضار الأمراء المسجونين وغيرهم بثغر الإسكندرية إلى مدينة بليس ليحملوا إلى الحبوس بالبلاد الشامية وندب الأمير أسنغا الطياري أحد أمراء الألوف بالديار المصرية لإحضارهم وهم: الأمير جانم أخو الأشرف الأمير أخور وإينال أبو بكري الأشرفي وعلى باي شاد الشراب خاناه الأشرفي وأزبك السيفي قاني باي رأس نوبة المعروف بجحا وحكم الخازندار خال العزيز وجرباش وجانبك قلق سيز.

ومن الخاصكية: تنم الساقى وبيبرس الساقى ويشبك الدوادر وأزبك البواب وبايزير خال العزيز وجميع هؤلاء أشرفية وتنبك الإينالي المؤيدي الفيسي وبيرم خجا الناصري أمير

مشوي وجماعة آخر لم يحضرني الآن أسماؤهم ولم يبق بسجن الإسكندرية سوى الأمير قراجا الأشرفي أحد مقدمي الألوف كان وخرج الأمير أسنبغا من يومه.

وفي هذا اليوم سافر الأمير قاني باي البهلوان نائب صفد إلى محل كفالته بها بعدما أنعم السلطان عليه بمال جزيل.

وسافر الطياري إلى الإسكندرية وأخذ المذكورين وعاد بهم إلى بليس في ثاني عشرين صفر والجميع بالحديد.

غير أن الأمير أسنبغا تلتف بهم وأحسن في خطابهم ومسيرهم إلى الغاية بخلاف من تولى تسفيرهم من بليس إلى محل سجنهم فأفرج السلطان منهم عن بيرم خجا أمير مشوي ونفي إلى طرابلس وأخرج السلطان من البرج بقلعة الجبل اثنين أضافهما إلى هؤلاء ورسم أن يتوجه منهم سبعة نفر إلى قلعة صفد ليسجنوا بها وهم إينال الأشرفي أحد مقدمي الألوف وعلي باي المشد الأشرفي وأزبك خجا وجرباش مشد سيدي وتنيك الفيسي وحزمان وقاني باي اليوسفي ومسفر هؤلاء الأمير سمام الحسيني الناصري أحد أمراء العشرات وأن يتوجه ثلاثة منهم إلى قلعة الصبية ليسجنوا بها وهم: الأمير جانم أمير آخور وبايزير خال العزيز وبشيك بشق ومسفرهم هم ومن يمضي إلى حبس المرقب الآتي ذكرهم: إينال أخو قشتم المؤيدي أحد أمراء العشرات.

والمتوجهون إلى حبس المرقب خمسة وهم: جانبك قلق سيز وتنم الساقى وحكم خال العزيز وبشيك الفقيه وأزبك البواب والجميع أشرفية وساروا بهم في حالة غير مرضية.

ثم في سابع عشرين صفر قدم الأمير طوخ مازي نائب غزة فخلع السلطان عليه باستمراره وأكرمه.

وفي تاسع عشرينه نقل زين الدين عبد الباسط من محبسه بالبرج إلى موضع يشرف على باب القلعة بسفارة ابن البارزي وأخته خوند زوجة السلطان ووعدده السلطان بخير بعدما كان وعده بالعقوبة.

ثم في يوم الاثنين سادس شهر ربيع الأول

▲ خلع السلطان على الأمير طوخ مازي

نائب غزة خلعة ثم في ليلة السبت حادي عشرة أخرج الملك العزيز يوسف من محبسه بالقلعة وأركب فرسًا ومعه جماعة كبيرة ومضوا به حتى أنزل في الحراقة وساروا به حتى حبس بئغر الإسكندرية إلى يومنا هذا.

ومسفره جانبك القرماني أحد أمراء العشرات.

ورسم أن يصرف له من مال أوقاف العزيز ألف دينار.

وحمل مع الملك العزيز ثلاث جوار لخدمته ورتب له في كل يوم ألف درهم من أوقاف أبيه.

وكان لخروجه يوم مهول من بكاء جوارى أبيه وأمه وتجمعن بعد خروجه بالصحراء في تربة أمه خوند جلبان وعملن عزاء كيوم مات الأشرف وبكين وأبكين.

ثم في حادي عشر شهر ربيع الأول المذكور استقر شمس الدين أبو النصر نصر الله المعروف بالوزة ناظر الإسطل السلطاني بعد عزل زين الدين يحيى الأشقر قريب ابن أبي الفرج.

قلت: وأي فخر أو سابق رئاسة لمن يعزل بهذا الوزه عن وظيفته!.

ثم في يوم الأحد تاسع عشر شهر ربيع الأول سارت تجريدة في النيل ثغر رشيد.

وقد ورد الخبر بأن أربعة شوان للفرنج قاربت رشيد وأخذت أبقارًا وغيرها فأخرج السلطان لذلك الأمير أسنغا الطياري والأمير شاديك الجكمي وهما من أمراء الألوفا بالديار المصرية وحمل السلطان لكل منهما خمسمائة دينار.

وعندما نزلًا إلى المركب في بحر النيل احترقت مركب الطيارة مدفع نبط رموا به فعاد عليهم ناره وأحرق شيئًا مما كان معهم وأصاب بعضهم وفي أواخر شهر ربيع الأول هذا رسم السلطان بتوجه زين الدين عبد الباسط إلى الحجاز بأهله وعياله وسافر في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر ربيع الآخر بعد خلع السلطان عليه في يوم سفره وعلى معتقه جانبك الأستاذار ونزل من القلعة مخيمه بالريديانية بعد أن حمل إلى الخزانة السلطانية مائتي ألف دينار وخمسين دينار ذهبًا عيّنًا سوى ما أخذ له من الخيول والجمال وسور تحف جليلة قدمها للسلطان وغيره ثم رحل عبد الباسط من الريديانية يريد الحجاز في خامس عشره ونزل ببركة الحاج وأقام بها أيضًا إلى ليلة ثامن عشره.

ثم في خامس عشرين شهر ربيع الآخر قدم الأمير تمرار المؤيدي أحد حجاب دمشق بسيف الأمير أقبغا التمراري وقد مات فجاءة في يوم السبت سادس عشره.

فرسم السلطان للأمير جليان نائب حلب باستقراره في نيابة دمشق وأن ينتقل الأمير قاني باي الحمزاوي نائب طرابلس إلى نيابة حلب وأن ينتقل الأمير برسباي الناصري حاجب حجاب دمشق إلى نيابة طرابلس ويستقر عوضه في حجوبية دمشق سودون النوروزي حاجب حجاب حلب وينتقل حاجب حماة الأمير سودون المؤيدي إلى حجوبية حجاب حلب وأن يستقر الأمير جمال الدين يوسف بن قلدر نائب خرت برت في نيابة ملطية بعد عزل الأمير خليل بن شاهين الشخي عنها ويستقر خليل أحد أمراء الألوفا بدمشق عوضًا عن الأمير الطنبغا الشريفي ويستقر الشريفي أتابك حلب عوضًا عن قطج من تمرار وأن يحضر قطج المذكور إلى القاهرة إلى أن ينحل له إقطاع وجهزت تقاليد الجميع ومناشيرهم في سابع عشرينه ورسم للأمير دولاب باي المحمودي الساقى المؤيدي الدوادار الثاني أن يكون مسفر جليان نائب الشام وأن يكون الأمير أرنبا اليونسي الناصري مسفر قاني باي الحمزاوي نائب حلب وأن يكون سودون المحمودي المؤيدي المعروف بآتمكجي مسفر برسباي نائب طرابلس وخلع على الجميع في يوم تاسع عشرين شهر ربيع الآخر.

ثم في يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى استقر الأمير مازي الظاهري برقوق أحد أمراء دمشق في نيابة الكرك عوضًا عن أقبغا التركماني الناصري بحكم مسك أقبغا المذكور وحبسه بسجن الكرك.

وفي عشرينه خلع السلطان على الأمير أسنغا الطياري أحد مقدمي الألوفا باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضًا عن يلغا البهائي الظاهري برقوق بحكم وفاته زيادة على ما بيده من مقدمة ألف بمصر.

وطلب السلطان الأمير قراجا الأشرفي من سجن الإسكندرية فحضر في يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة فخلع عليه السلطان باستقراره أتابك حلب وبطل أمر الشريفي واستمر على إقطاعه بدمشق.

ثم في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة عمل السلطان الموكب بالقصر وأحضر رسول القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك فحضر الرسول وناول الكتاب الذي على يده وإذا فيه أنه بلغه موت الملك الأشرف وجلوس السلطان على تخت الملك فأراد أن يتحقق علم ذلك فأرسل هذا الكتاب فخلع السلطان عليه وأكرمه وأنزله بمكانه الذي كان أنزل فيه فإنه كان وصل في أول يوم من جمادى الأولى ورسم السلطان بكتابة جوابه.

ثم في يوم الاثنين رابع شهر رجب أدير المحمل على العادة وزاد السلطان في عدة الصبيان الذين يلعبون بالرمح الصغار عدة كبيرة ولم يقع في آياه المحمل بحمد الله ما ينكر من الشناعات التي كانت تقع من المماليك الأشرفية.

وفي هذا اليوم أيضًا خلع السلطان على الأمير طوخ أبو بكري المؤيدي أحد أمراء الألوف بدمشق وكان قبل أتابك غزة باستقراره في نيابة غزة بعد موت الأمير طوخ مازي الناصري فولي طوخ عوضًا عن طوخ وأنعم بتقدمة طوخ بدمشق على الأمير تمرار المؤيدي الحاجب الثاني بدمشق.

ثم في يوم السبت حادي عشر شعبان استقر القاضي بهاء الدين محمد بن حجي في نظر جيش دمشق عوضًا عن سراج الدين عمر بن السفاح ورسم لابن السفاح بنظر جيش حلب.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشر شوال خرج أمير حاج المحمل الأمير شادبك الجكمي أحد مقدمي ثم في يوم الثلاثاء خامس عشرين شوال قدم الأمير ناصر الدين بك واسمه محمد بن دلغادر نائب أبلستين إلى الديار المصرية بعدما تلقاه المطبخ السلطاني وجهزت له الإقامات في طول طريقه ثم سارت عدة من أعيان الدولة إلى لقائه ومعهم الخيول والخلع وله ولأعيان من معه من أولاده وأصحابه.

فلما دخل إلى القاهرة وطلع إلى القلعة ومثل بين يدي السلطان وقبل الأرض خلع عليه السلطان خلعة باستمراره على نيابة أبلستين على عادته وانزل في بيت بالقرب من القلعة وبالغ السلطان في الاحتفال بأمره والاعتناء به وشمله بالإنعامات الكثيرة.

وكان ناصر الدين بك المذكور له سنين كثيرة لم يدخل تحت طاعة سلطان وإن دخل فلم يطا بساطه فلما سمع بسلطنة الملك الظاهر هذا وبحسن سيرته قدم وأقدم معه ابنته التي كانت تحت جانبك الصوفي وعدة من نسائه فعقد السلطان عقده على ابنته المذكورة التي كانت تحت جانبك الصوفي ولها من جانبك المذكور بنت لها من العمر نحو ثلاث سنين بعد أن حمل إليها المهر ألف دينار وعدة كثيرة من الشقق الحرير وغيرها.

وفي هذا الشهر أراد السلطان أن تكون تصرفاته في أمر جدة على مقتضى فتاوى أهل العلم لعلمه أن شاه رخ بن تيمور كان يعيب على الملك الأشرف برسباي لأخذه بجدة من التجار عشور أموالهم وأن ذلك من المكس المحرم فكتب بعض الفقهاء سؤالًا على غرض السلطان يتضمن أن التجار المذكورين كانوا يردون إلى بندر عدن من بلاد اليمن فيظلمون بأخذ أكثر أموالهم وأنهم رغبوا في القدوم إلى بندر جدة ليحتموا بالسلطان وسألوا أن يدفعوا عشر أموالهم فهل يجوز أخذ ذلك منهم فإن السلطان يحتاج إلى صرف مال كثير في عسكر يبعثه إلى مكة في كل سنة.

فكتب قضاة القضاة الأربعة بجواز أخذه وصرفه في المصالح.

فأنكر الشيخ تقي الدين على القضاة في كتابتهم على الفتاوى المذكورة وإنطلق لسانه بما شاء الله أن يقوله في حقهم - انتهى.

ثم في يوم الخميس ثامن عشر ذي القعدة قدم الأمير إبنال الششمانى الناصري أتاك دمشق والأمير الطنبا الشريفي الناصري أحد مقدمي الألوف بدمشق وطلعا إلى القلعة وخلق السلطان عليهما وأكرمهما.

وفيها أيضًا خلق السلطان على الأمير ناصر الدين بك بن دلغادر خلعة السفر وسافر يوم الاثنين تاسع عشرين ذي القعدة بعد أن بلغت النفقة عليه من الإنعامات ثلاثين ألف دينار.

ثم في يوم الأربعاء سابع ذي الحجة نودي بمنع المعاملة بالدرهم الأشرفية من الفضة وأن تكون المعاملة بالدرهم الظاهرية الجقمقية وهدد من خالف ذلك فاضطرب الناس لتوقف أحوالهم.

فنودي في آخر النهار بأن الفضة الأشرفية تدفع للصارف بسعرها وهو كل درهم بعشرين درهماً من الفلوس وأن تكون الدراهم الظاهرية كل درهم بأربعة وعشرين درهماً وجعلت عددًا لا وزنًا.

فمنها ما هو نصف درهم عنه اثنا عشر درهماً ومنها ما هو ربع درهم فيصرف بستة دراهم على أن كل دينار من الأشرفية بمائتين وخمسة وثمانين درهماً من الفلوس.

ثم في يوم الثلاثاء خلق السلطان على غرس الدين خليل بن أحمد بن علي السخاوي أحد حواشي السلطان أيام إمرته باستقراره في نظر القدس والخليل والسخاوي هذا أصله من عوام القدس السوقة وقدم القاهرة وخدم بعض التجار وترقى وركب الحمار ثم ركب بعد مدة طويلة بغلة بنصف رجل على عادة العوام ورأيته أنا على تلك الهيئة ثم انتهى إلى خدمة السلطان وهو يوم ذاك أحد مقدمي الألوف واختص به حتى تحدث في إقطاعه ودام في خدمته إلى أن تسلطن وعظم أمره عند من هو دونه إلى أن ولي في هذا اليوم نظر القدس والخليل.

ثم في يوم الخميس ثامن المحرم من سنة أربع وأربعين خلق السلطان على الأمير قيز طوغان العلاني أحد أمراء العشرات وأمير آخور ثاني باستقراره أستاذًا عوضًا عن محمد بن أبي الفرج بحكم عزله والقبض عليه وحبسه بالقلعة إلى يوم الأحد حادي عشره فتسلمه الوزير كريم الدين ابن كاتب المناخ.

ثم في يوم السبت رابع عشرين المحرم خلق السلطان على زين الدين يحيى الأشقر قريب ابن أبي الفرج باستقراره في نظر ديوان المفرد عوضًا عن عبد العظيم بن صدقة بحكم مسكه ونقل ابن أبي الفرج من تسليم الوزير وسلم هو وعبد العظيم للأمير قيز طوغان الأستاذ فأعزى زين الدين قيز طوغان بابن أبي الفرج وعبد العظيم حتى أخذ ابن أبي الفرج وعاقبه وأفحش في عقوبته في الملا من الناس من غير احتشام ولا تجمل بل طرحه على الأرض وضربه ضربًا مبرحًا ووقع له معه أمور إلى أن أطلق وأعيد إلى نقابة الجيش بعد أن نفي ثم أعيد ومن يومئذ ظهر اسم زين الدين وعرف في الدولة وكان هذا مبدأ ترقيه حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه الأيام وقع الاهتمام بتجهيز تجريدة في البحر لغزو الفرنج وكتب السلطان عدة من المماليك السلطانية وعليهم الأمير تغري برمش الزردكاش والسيفي يونس الأمير آخور وسافروا من ساحل بولاق في يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول.

وكان جملة ما انحدر من ساحل بولاق خمسة عشر غرابًا فيها المماليك السلطانية والمطوعة.

وسبب هذه التجريدة كثرة عيث الفرنج في البحر وأخذها مراكب التجار وهذه أول بعثة بعثها الملك الظاهر من الغزاة.

ثم في يوم السبت سادس عشرين شهر ربيع الآخر قدم إلى القاهرة رسل القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك ملك الشرق وقد زينت القاهرة لقدمهم وخرج المقام الناصري محمد ابن السلطان إلى لقائهم واجتمع الناس لرؤيتهم فكان لدخولهم يوم مشهود لم يعهد بمثله لقدم رسل في الدول المتقدمة وأنزلوا بدار أعدت لهم إلى يوم الاثنين ثامن عشرينه فتوجهوا من الدار المذكورة إلى القلعة بعد أن شقوا القاهرة وهي مزينة بأحسن زينة والشموع وغيرها تشعل وقد اجتمع عالم عظيم لرؤيتهم وأوقفت العساكر من تحت القلعة إلى باب القصر في وقت الخدمة من باكر النهار المذكور.

فلما مثل الرسل بين يدي السلطان قرىء كتاب شاه رخ فكان يتضمن السلام والتهنئة بجلوس السلطان على تخت الملك ثم قدمت هديته وهي: مائة فص فيروز وإحدى وثمانون قطعة من حرير وعدة ثياب وفرو ومسك وثلاثون بختيًا من الجمال وغير ذلك مما يبلغ قيمته خمسة آلاف دينار.

وأعيد الرسل إلى منازلهم وأجري عليهم الرواتب الهائلة في كل يوم.

ثم قلعت الزينة في يوم الثلاثاء سلخه.

وكان الناس تفننوا في زينة القاهرة ونصبوا بها القلاع وفي ظنهم أنها تتماذى أيامًا فانقضى أمرها بسرعة.

ثم في يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى ورد الخبر على السلطان بنصرة الغزاة المجردين إلى قتال الفرنج.

ثم في يوم الاثنين عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على القاضي بدر الدين أبي المحاسن محمد بن ناصر الدين محمد ابن الشيخ شرف الدين عبد المنعم البغدادي أحد نواب الحكم الحنابلة باستقراره قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية بعد موت شيخ الإسلام محب الدين أحمد بن نصر الله البغدادي.

ثم في يوم الثلاثاء حادي عشرين جمادى الأولى المذكور قدم الغزاة.

وكان من خبرهم أنهم انحدروا في النيل إلى دمياط ثم ركبوا منه البحر وساروا إلى جزيرة قبرس فقام لهم متملكها بالإقامات وساروا إلى العلايا فأمدهم صاحبها بغرابين فيهما المقاتلة ومضوا إلى رودس وقد استعد أهلها لقتالهم فكانت بينهم محاربة طول يومهم لم ينتصف المسلمون فيها وقتل منهم اثنا عشر من المماليك وجرح كثير وقتل من الفرنج أيضًا جماعة كثيرة.

فلما خلا المسلمون من قتالهم بعد جهد مروا بقريّة من قرى رودس فقتلوا وأسروا ونهبوا ما فيها وعادوا إلى دمياط وأعلموا السلطان بأنه لم يكن لهم طاقة بأهل رودس.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى الأولى المذكور خلع على خواجا كلال رسول شاه رخ خلعة السفر وقد اعتني بها عناية لم يتقدم بمثلها لرسول في زماننا هذا وهي حرير مخمل بوجهين: أحمد وأخضر وطرز زركش فيه خمسمائة مثقال من ذهب وأركب فرسًا بسرج ذهب وكنبوش زركش في كل منهما خمسمائة دينار وجهزت صحبته هدية ما بين ثياب حرير سيكندري وسرج وكنبوش ذهب وسيوف مسقطة بذهب وغير ذلك مما تبلغ قيمته سبعة آلاف دينار هذا بعد أن بلغت النفقة من السلطان على الرسول المذكور ورفقته نحو خمسة عشر ألف دينار سوى الهدية المذكورة.

ثم في يوم السبت ثاني جمادى الآخرة وقع بين القاضي حميد الدين الحنفي وبين شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني الشافعي مخاصمة وأل أمرهما إلى الوقوف بين يدي السلطان فغضب السلطان لحميد الدين وضرب الشهاب الكوراني وأهانته ورسم بنفيه إلى دمشق ثم إلى البلاد المشرقية فخرج على أقيح وجه.

وكان هذا الكوراني قدم القاهرة قبيل سنة أربعين وثمانمائة في فاقة عظيمة من الفقر والإفلاس واتصل باب المقر الكمالي ابن البارزي فوالاه بالإحسان على عادة ترفقه بأهل العلم ونوه بذكره حتى عرفه الناس وتردد إلى الأكابر وصار له وظائف ومراتب فلم يحفظ لسانه لطيش كان فيه حتى وقع له ما حكيناه.

ثم في يوم الخميس رابع عشر جمادى الآخرة قدم الأمير جليان نائب الشام إلى القاهرة ونزل السلطان إلى لقائه بمطعم الطير خارج القاهرة وهو أول ركبة ركبها بعد سلطنته بالموكب وخلع السلطان على جليان المذكور خلعة الاستمرار وعاد السلطان إلى القلعة وهو في خدمته.

ثم في يوم الاثنين عاشر شهر رجب أنعم السلطان بإقطاع الأمير أطنبغا المرقبي المؤيدي.

وتقدمته على الأمير طوخ من تمراز الناصري الرأس نوبة الثاني بعد موته وأنعم بإقطاع طوخ وهو إمرة أربعين على قاني باي الجاركسي شاد الشراب خاناه.

ثم في يوم الاثنين أول شعبان أضيف نظر دار الضرب للمقر الجمالي ناظر الخواص الشريف كما كانت العادة القديمة وذلك بعد موت جوهر القنقبائي الزمام والخازندار.

ثم في يوم السبت سادسه خلع السلطان علي الطواشي هلال الرومي الظاهري برقوق شاد الحوش السلطاني باستقراره زمانًا عوضًا عن جوهر المقدم ذكره على مال كثير بذله في ذلك.

ثم في يوم الأحد سابعه خلع علي الزيني عبد الرحمن بن علم الدين داؤد بن الكويز باستقراره أستاذ الذخيرة وخلع علي الطواشي الحبشي جوهر التمرزي الجمدار باستقراره خازندارًا كلاهما عوضًا عن جوهر المذكور.

ثم في يوم السبت عشرين شعبان ركب السلطان من قلعة الجبل بغير قماش الموكب لكن بجميع أمرائه وخاصكيته ونزل في أبهة عظيمة وسار على خليج الزعفران خارج القاهرة ونزل هناك بمخيمه ومدت له أسمطة جليلة وأنواع كثيرة من الحلوى والفواكه.

ثم ركب بعد صلاة الظهر وعاد إلى القلعة بعد أن دخل من باب النصر وشق القاهرة
وابتهج الناس به كثيرًا.

وهذه أول مرة شق فيها القاهرة بعد سلطنته.

وكان هذا الموكب جميعه بغير قماش الموكب ولم يكن ذلك في سالف الأعصار وأول من
فعل ذلك وترخص في النزول من القلعة بغير كلفته ولا قماش الملك الناصر فرج ثم
اقتدى به الملك المؤيد شيخ ثم من جاء بعدهما.

وفي هذا الشهر تكلم زين الدين يحيى الأشقر ناظر الديوان المفرد مع الأمير قيزطوغان
العلائي الأستاذار بأنه يكلم السلطان في إخراج جميع الرزق الأحباسية والجيشية التي
بالجيزة وضواحي القاهرة وحسن له ذلك حتى تكلم قيزطوغان المذكور في ذلك مع
السلطان وألح عليه.

ومال السلطان لإخراج جميع الرزق المذكورة إلى أن كلمه في ذلك جماعة من الأعيان
ورجعوه عن هذه الفعلة القبيحة فاستقر الحال على أنه يجبي من الرزق المذكورة في
كل سنة عن كل فدان مائة درهم من الفلوس فجببت.

واستمرت إلى يومنا هذا في صحيفة زين الدين المذكور لأنه هو الدال عليها والدال على
الخير كفاعله وكذلك الشر.

ثم في يوم الثلاثاء أول شهر رمضان ورد الخبر على السلطان بالقبض على الأمير قنصوه
النوروزي وكان له من يوم وقعة الجكمي في اختفاء فرسم بسجنه بقلعة دمشق.

وقانصوه هذا من أعيان الأمراء المشهورين بالشجاعة وحسن الرمي بالنشاب غير أنه من
كبار المخاميل الفلاسة المديونين.

ثم في يوم السبت ثاني عشر شهر رمضان خلع السلطان على القاضي معين الدين عبد
اللطيف ابن القاضي شرف الدين أبي بكر سبط العجمي باستقراره في نيابة كتابة السر
بعد وفاة أبيه.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشر شوال برز أمير حاج المحمل الأمير تمرباي رأس نوبة
النوب بالمحمل وأمير الركب الأول سودون الإينالي المؤيدي المعروف بقراقاس أمير
عشرة.

وحج في هذه السنة ثلاثة من أمراء الألوف: تمرباي المقدم ذكره والأمير تماراز القرمشي
أمير سلاح والأمير طوخ من تماراز الناصري وسبعة أمراء آخر ما بين عشرات
وطبلخانات.

وتوجه تماراز أمير سلاح بالجميع ركبًا وحده قبل الركب الأول كما سافر في السنة
الماضية الأمير جرباش الكريمي قاشق أمير مجلس وصحبته ابنته زوجة السلطان الملك
الظاهر.

ثم في يوم السبت سابع ذي القعدة قدم إلى القاهرة الأمير قاني باي الحمزاوي نائب
حلب باستدعاء فركب السلطان إلى ملاقاته بمطعم الطير وخلع عليه باستمراره على
كفالتة.

وفي أواخر هذا الشهر طرد السلطان أيتمش الخصري الظاهري أحد الأمراء البطالة من مجلسه ومنعه من الاجتماع به وهذه ثاني مرة أهانه السلطان وطرده.

وأما ما وقع لأيتمش المذكور قبل ذلك في دولة الأشرف برسباي من البهدة والنفي فكثير وهو مع ذلك لا ينقطع عن الترداد للأمراء وأرباب الدولة بوجه أقوى من الحجر.

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وأربعين وثمانمائة جدد بالقاهرة وظواهرها عدة جوامع منها جامع الصالح طلائع بن رزيق خارج باب زويلة قام بتجديده رجل من الباعة يقال له عبد الوهاب العيني ومنها مشهد السيدة رقية قريبًا من المشهد النفيسي جدده الشريف بدر الدين حسين بن أبي بكر الحسيني نقيب الأشراف وجدد أيضًا جامع الفاكهيين بالقاهرة وجامع الفخر بخط سيويقة الموفق بالقرب من بولاق وجدد أيضًا جامع الصارم أيضًا بالقرب من بولاق وأنشأ أيضًا جوهر المنجكي نائب مقدم المماليك جامعًا بالرميلة تجاه مصلاة المؤمني وعمارته بالفقيري بحسب الحال وأنشأ تغري بردي المؤذي بالكلمشي الدوادر جامعًا بخط الصليبية على الشارع الأعظم.

قلت: الناس على دين مليكهم وهو أنه لما كانت الملوك السالفة تهوى النزه والطرب عمرت في أيامهم بولاق وبركة الرطلي وغيرهما من الأماكن وقدم إلى القاهرة كل أستاذ صاحب آلة من المطربين وأمثالهم من المغاني والملاهي إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق وسار في سلطنته على قدم هائل من العبادة والعفة عن المنكرات والفروج وأخذ في مقت من يتعاطى المسكرات من أمرائه وأرباب دولته فعند ذلك تاب أكثرهم وتصول وتزهّد وصار كل أحد منهم يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف فمنهم من صار يكثر من الحج ومنهم من تاب وأقلع عما كان فيه ومنهم من بنى المساجد والجوامع ولم يبق في دولته ممن استمر على ما كان عليه إلا جماعة يسيرة ومع هذا كان أحدهم إذا فعل شيئًا من ذلك فعله سرًا مع خوف ورعب زائد يرجفه في تلك الحالة صفيّر الصافر وخفق الرياح فله دره من ملك في عفته وعبادته وكرمه.

ثم في يوم السبت ثالث شهر ربيع الأول من سنة خمس وأربعين وثمانمائة خلع السلطان على يار علي بن نصر الله الخراساني العجمي الطويل باستقراره في حسبة القاهرة مضاقًا لما بيديه من حسبة مصر القديمة عوضًا عن قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي بحكم عزله.

ثم في يوم الخميس ثامن شهر ربيع الأول المذكور كانت مبايعة الخليفة أمير المؤمنين سليمان ابن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بالخلافة بعد وفاة أخيه المعتضد داؤد بعهد منه إليه ولقب بالمستكفي بالله أبي الربيع سليمان.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى خلع السلطان على الشريف علي بن حسن بن عجلان باستقراره في إمرة مكة عوضًا عن أخيه بركات بن.

حسن بحكم عزله لعدم حضوره إلى الديار المصرية وعين السلطان مع الشريف علي المذكور خمسين مملوكًا من المماليك السلطانية وعليهم الأمير يشبك الصوفي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة لمساعدة علي المذكور على قتال أخيه الشريف بركات وسافر الشريف علي من القاهرة في يوم ثم في يوم الاثنين سادس شهر رجب قدم إلى القاهرة الأمير برسباي نائب طرابلس ونزل السلطان إلى مطعم الطيور خارج القاهرة وتلقاه وخلع عليه على العادة.

ثم يوم الثلاثاء سابع شهر رجب أمسك السلطان الأمير قيز طوغان العلاني الأستادار وقبض معه على زين الدين يحيى ناظر ديوان المفرد وسلمهما للأمير دولات باي المحمودي المؤيدي الدوادار الثاني.

ثم خلع السلطان في يوم الخميس سادس عشره على الزيني عبد الرحمن بن الكويز باستقراره أستاذًا عوضًا عن قيز طوغان وخلع على زين الدين المذكور باستقراره على وظيفة نظر المفرد على عادته.

وأنعم السلطان على الأمير قيز طوغان بإمرة مائة وتقدمة ألف بحلب وخرج في يوم السبت خامس عشرينه.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرينه خلع السلطان على الشهابي أحمد بن علي بن إينال اليوسفي أحد أمراء العشرات باستقراره في نيابة الإسكندرية بعد عزل الأمير أسنبغا الناصري الطياري عنها وقدمه إلى القاهرة على عادته أمير مائة ومقدم ألف.

ثم في يوم السبت أول شهر رمضان قدم الشيخ شمس الدين محمد الخافي الحنفي من مدينة سمرقند قاصدًا الحج - وهو أحد أعيان فقهاء القان شاه رخ بن تيمور وولده ألوغ بك ثم في يوم الخميس ثامن عشر شوال برز أمير حاج المحمل تغري برميش السيفي يشبك بن أزدمر الزردكاش بالمحمل إلى بركة الحاج دفعة واحدة - وكانت العادة أن أمير حاج المحمل يبرز من القاهرة إلى الريديانية ثم يتوجه في ثانيه إلى بركة الحاج - وأمير حاج الركب الأول الأمير يونس السيفي أقباي أحد أمراء العشرات المعروف بالبواب.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوال أمسك السلطان الأمير جانبك المحمودي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وحبسه بالبرج من قلعة الجبل.

وكان السلطان قصد مسكه قبل ذلك فخشي عاقبة خجداشيته فلما زاد جانبك المذكور عن الحد في التكلم في الدولة ومداخلة السلطان في جميع أموره بعدم درية وقلة لباقة مع حدة وطيش وخفة وسوء خلق أمسكه في هذا اليوم وقصد بذلك حركة ظهر من خجداشيته المؤيدية فلم يتحرك ساكن بل خاف أكثرهم وحسن حاله مع السلطان وانكف أكثرهم عن مداخلة السلطان وأنعم السلطان بإمرته على خجداشه خير بك الأشقر المؤيدي أحد الدوادارية الصغار ولم يكن خيربك المذكور ممن ترشح للإمرة.

ومن يومئذ عظم أمر السلطان في ملكه وهابته الناس وانقطع عن مداخلته جماعة كبيرة ثم حمل جانبك المذكور إلى سجن الإسكندرية فسجن به.

هذا والسلطان في اهتمام تجريدة لغزو رودس وعين عدة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء ومقدم الجميع اثنان من مقدمي الألوف: الأمير إينال العلاني الناصري المعزول عن نيابة صفد والأمير تمرباي رأس نوبة النوب.

وسافروا الجميع من ساحل بولاق في محرم سنة ست وأربعين ومعهم عدة كبيرة من المطوعة بأبهج زي من العلا والسلاح وكان لسفرهم بساحل بولاق يوم مشهود إلا أنهم عادوا في أثناء السفر ولم ينالوا من رودس غرضًا بعد أن أخرجوا قشتيل حسبما يأتي ذكره في الغزوة الثالثة الكبرى.

وبعد سفرهم وقع حادثة شنة وهي أنه لما كان يوم الاثنين سادس عشر صفر وثب جماعة كبيرة من مماليك السلطان الأجلاب من مشترواته الذين بالأطباق من القلعة وطلعوا إلى أسطحة أطباقهم ومنعوا الأمراء وغيرهم من الأعيان من طلوع الخدمة

وأفحشوا في ذلك إلى أن خرجوا عن الحد ونزلوا إلى الرحبة عند باب النحاس وكسروا باب الزردخانا السلطانية وضربوا جماعة من أهل الزردخانا وأخذوا منها سلاحًا كثيرًا ووقع منهم أمور قبيحة في حق أستاذهم الملك الظاهر ولهجوا بخلعه من الفلك.

وهم السلطان لقتالهم ثم فتر عزمه عن ذلك شفقة عليهم لا خوفًا منهم.

ثم سكنت الفتنة بعد أمور وقعت بين السلطان وبينهم.

ثم في يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول قدم الأمير مازي الظاهري برقوق نائب الكرك وطلع إلى القلعة وخلع عليه باستمراره.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول المذكور خلع السلطان علي مملوكه قراجا الظاهري الخازندار باستقراره خازندارًا كبيرًا عوضًا عن الأمير قانبك أبو بكري الأشرفي الساقى بحكم مرضه بداء الأسد نسأل الله العفو والعافية.

وفيه أيضًا استقر ابن الحاضري قاضي قضاة الحنفية بحلب بعد عزل محب الدين محمد بن الشحنة لسوء سيرته.

ثم في يوم الأحد ثاني عشر شهر ربيع الآخر قدم الأمير سودون المحمدي من مكة المشرفة إلى القاهرة وهو مجرح في مواضع من بدنه من قتال كان بين الشريف علي صاحب مكة وبين أخيه بركات انتصر فيه الشريف علي وانهزم بركات إلى القبر.

ثم في يوم الأحد سادس عشرين شهر ربيع الآخر المذكور أمسك السلطان الزيني عبد الرحمن بن الكويز وعزله عن الأستادارية.

ثم أصبح من الغد خلع على زين الدين يحيى ناظر الديوان المفرد باستقراره أستاذًا عوضًا عن ابن الكويز المذكور.

وكان من خبر زين الدين هذا أنه كان كثيرًا ما يلي الوظائف بالبذل ثم يعزل عنها بسرعة وقد تجمد عليه جمل من الديون وكان خصمه في وظيفة ناظر الديوان المفرد عبد العظيم بن صدقة الأسلمي وغريمه في نظر الإسطلب شمس الدين الوزة.

ولا زال زين الدين المذكور في بحبوحة من الفقر والذل والإفلاس إلى أن ولي الأمير قيز طوغات الأستادارية فاختار زين الدين هذا لنظر الديوان المفرد وضرب عبد العظيم وأهانته كونه كان من جملة أصحاب محمد بن أبي الفرج وركن إلى زين الدين هذا وصار المعول عليه بديوان المفردة فاستفحل أمره وقضى ديونه.

فحدثته نفسه بالأستادارية لمصداق المثل السائر: " لا تموت النفس الخبيثة حتى تسيء لمن أحسن إليها " .

فأخذ زين الدين يدبر على الأمير طوغان في الباطن ويملي له المفسود بأن يحسن له الإقالة من الوظيفة حتى يعظم أمره من سؤال السلطان له باستقراره في الوظيفة ويظهر له بذلك النصح إلى أن انفعل له طوغان وسأل الإحالة فأقاله السلطان وخلع على الزيني عبد الرحمن بن الكويز بالأستادارية.

واستمر زين الدين على وظيفة ناظر ديوان المفرد وقد تفتحت له أبواب أخذ الأستادارية لسهولة ابن الكويز وخروج قيز طوغان من مصر فإنه كان لا يحسن به المرافعة في

طوغان ولا السعي عليه بوجه من الوجوه فسلك في ذلك ما هو أقرب لبلوغ قصده بعزل طوغان وولاية ابن الكويز حتى تم له ذلك ولبس الأستادارية ونعت بالأمير لكنه لم يتزيا بزي الجند بل استمر على لبسه أولًا: العمامة والفرجية فصار في الوظيفة غير لائق كونه أستاذًا وهو بزي الكتبة وأميرًا ولا يعرف باللغة التركية ورئيسًا وليس فيه شيم الرئاسة وكانت ولايته وسعاده غلطة خلت الرقاع من الرخاخ ففرزنت فيها البيادق وتساهلت عرج الحمير فقلت: من عدم السوابق وفيه خلع السلطان على الأمير أقيردى المظفري الظاهري برقوق أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وندبه للتوجه إلى مكة المشرفة وصحبته من المماليك السلطانية خمسون مملوكًا ليستعين بهم الشريف علي صاحب مكة على من خالفه وسافر بعد أيام رجبية.

ثم في يوم الخميس أول جمادى الأولى أمسك السلطان الصفوي جوهرًا التمرزي الخازندار ورسم عليه عند تغري برممش الجلاي المؤيدي الفقيه نائب قلعة الجبل وطلبه السلطان بمال كبير.

وخلع السلطان على الطواشي فيروز الرومي النوروزي رأس نوبة الجمدارية باستقراره خازندارًا عوضًا عن جوهر المذكور وتأسف الناس كثيرًا على عزل جوهر التمرزي فإنه كان سار في الوظيفة أحسن سيرة وترقب الناس بولاية فيروز هذا أمورًا كثيرة.

ثم في يوم الاثنين سادس عشرينه استقر فيروز النوروزي المذكور زمانًا مضافًا للخازندارية بعد عزل هلال الطواشي عنها.

ثم في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة

▲ خلع السلطان على الأمير إينال العلاني الناصري

باستقراره دوادارًا كبيرًا بعد موت الأمير تغري بردي المؤذي البكلمشي وأنعم بتقدمة تغري بردي المذكور على الأمير قاني باي الجركسي واستمر على وظيفة شد الشراب خاناه مع تقدمه ألف وأنعم بطبلخاناه قاني باي على جانبك القرماني الظاهري برقوق رأس نوبة وأنعم بإقطاع جانبك على أيتمش بن عبد الله من أزوباي أستاذار الصحة وهي إمرة عشرة وأنعم بإقطاع أيتمش على سنجبا وكلاهما إمرة عشرة والتفاوت في زيادة المغل.

ثم في يوم السبت خامس شعبان رسم السلطان بنفي الأمير سودون السوداني الظاهري الحاجب إلى قوص فيشفع فيه فرسم بتوجهه إلى طرابلس ثم شفع فيه ثانيًا فرسم له بالإقامة بالقاهرة بطالًا.

ثم في الاثنين ثالث شوال خلع السلطان على الشريف أبي القاسم بن حسن بن عجلان باستقراره أمير مكة عوضًا عن أخيه علي بحكم القبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بمكة المشرفة.

ثم في سابع عشره برز أمير حاج المحمل الأمير تنبك البرديكي حاجب الحجاب بالمحمل إلى بركة الحاج وهذه سفرته الثانية وأمير الركب الأول الأمير الطواشي عبد اللطيف المنجكي العثماني الرومي مقدم المماليك السلطانية.

ثم في يوم السبت تاسع عشرين شوال خلع السلطان على قاضي القضاة بدر الدين محمود ثم في يوم الاثنين أول ذي القعدة قدم الأمير أركماس الظاهري الدوادر الكبير -

كان - من ثغر دمياط بطلب من السلطان وطلع إلى القلعة وخلق عليه السلطان كاملية مخمل بمقلب سمور ورسم له أن يقيم بالقاهرة بطالاً وأذن له بالركوب حيث شاء.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشرين ذي القعدة المذكور خلع السلطان على القاضي بهاء الدين محمد ابن القاضي نجم الدين عمر بن حجي ناظر جيش دمشق باستقراره ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية مضاقاً لما بيده من نظر جيش دمشق عوضاً عن القاضي محب الدين بن الأشقر بحكم عزله وغيابه في الحج وذلك بسفارة حميه القاضي كمال الدين بن البارزي كاتب السر الشريف.

ثم في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من سنة سبع وأربعين وثمانمائة أعيد يارعلي الخراساني إلى حسبة القاهرة وصرف العيني عن الحسبة.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشر شهر ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي على العادة.

ثم في يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة قدم الزيني عبد الباسط بن خليل وكان توجه من سنة أربع وأربعين من الحجاز إلى دمشق بشفاعة الناصري محمد بن منجك له.

ولما وصل إلى القاهرة طلع إلى القلعة وقبل الأرض ومعه أولاده ثم تقدم وباس رجل السلطان فقال له السلطان: " أهلا " بصوت خفي ولم يزد على ذلك.

ثم ألبسه كاملية سابوري أبيض بفرو سمور وألبس أولاده كل واحد كاملية سمور بطوق عجمي ثم نزل إلى داره.

وقدم تقدمته في يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة المذكورة وكانت تشتمل على شيء كثير من ذلك أربعة وأربعون قفصاً من أقفاص الحمامين مشحونة بالأقمشة من أنواع الفراء والصوف والمخمل والشقق الحرير والسلاح وطبول بأزات مذهبة وخيول نحو مائتي فرس وأربعين فرساً منها أكاديش خاصة بسروج مذهبة وبدلات مينة عبي حرير عدة كبيرة ومنها عشرة خيول عليها بركستوانات ملونة وسروج مغرقة ومنها ثمانية سروج سدج برسم الكرة وبغال ثلاثة أقطار وجمال بخاتي قطار واحد فقبل السلطان ذلك كله.

وبعد هذا كله لم يتحرك حظ عبد الباسط عند السلطان ولا تجمل معه بوظيفة من الوظائف بل أمره بالسفر بعد أيام قليلة.

قلت: ليس للطمع فائدة وأخذ ما يأخذ زمانه وزمان غيره وما أحسن قول من قال: المتدارك وتري الدهر لعباً لمعتبر والناس به دول دول كرة وضعت لصوالجة فتلقفها رجل رجل ثم في يوم الاثنين عشرينه قدم الأمير خليل بن شاهين الشيخي نائب ملطية وخلق عليه السلطان خلعة الاستمرار وقدم هديته.

وأقام بالقاهرة إلى يوم الاثنين رابع شهر رجب فخلع السلطان عليه باستقراره أتابك حلب عوضاً عن الأمير قيز طوغان العلاني المعزول عن الأستادارية بحكم استقرار قيز طوغان في نيابة ملطية عوضاً عن خليل المذكور.

ثم في يوم السبت ثامن عشر شوال برز أمير حاج المحمل الأمير شادبك الحكمي أحد مقدمي الألوف بالمحمل إلى بركة الحاج وأمير الركب الأول الأمير سونجبغا اليونسي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة.

ثم في يوم الأربعاء ثاني عشرين شوال أعيد القاضي محب الدين بن الأشقر إلى وظيفة
نظر الجيش وصرف عنها القاضي بهاء الدين بن حجي واستمر على وظيفته نظر جيش
دمشق على عادته أولًا وكانت بيده لم تخرج عنه.

ثم في يوم الخميس سلخ شوال قدم ابن حجي المذكور إلى السلطان مقدمة هائلة
تشتمل على خمسة وأربعين قفصًا من أقفاص الحمالين ما بين ثياب بعلبكي وقسي
وصوف وأنواع الفرو وغير ذلك.

ثم في يوم الاثنين رابع ذي القعدة خلع السلطان على بهاء الدين المذكور خلة السفر
وأضيف إليه نظر قلعة دمشق.

ثم في يوم الأحد رابع عشرينه ركب السلطان من قلعة الجبل ونزل بخواصه إلى أن
وصل إلى ساحل بولاق ثم عاد حتى علم الناس بعافيته لأنه كان توعكًا توعكًا هينًا فأرجف
الناس ثم في يوم الاثنين ثاني ذي الحجة وصل الأمير جليان نائب الشام إلى القاهرة
ونزل السلطان إلى ملاقاته بمطعم الطيور بالريدانية خارج القاهرة وخلع عليه خلة
الاستمرار على نيابة دمشق وهذه قدمته الثانية في الدولة الظاهرية.

ثم قدم جليان المذكور تقدمته إلى السلطان من الغد في يوم الثلاثاء وكانت تشتمل على
عدة حمالين كثيرة منها سمور خمسة أبدان ووشق بدنان وواقم خمسة أبدان وسنجاب
خمسون بدنًا وقرصيات خمسون قرصية ومخمل ملون خاص أربعون ثوبًا ومخمل أحمر
وأخضر وأزرق حليبي خمسون ثوبًا وصوف ملون مائة ثوب وثياب بعلبكي خمسمائة ثوب
وثياب بطائن خمسمائة أيضًا وقسي حلقة ثلاثمائة قوس منها خمسون خاصًا وطبول
بازات مذهبة عشرة وسيوف خمسون سيفًا وخيول مائتا رأس منها واحد بسرج ذهب
وكنبوش زركش وبغال ثلاثة أقطار وجمال أربعة أقطار وعشرون ألف دينار على ما قيل.

وفي أواخر هذه السنة ظهر الطاعون بمصر وفشا في أول المحرم سنة ثمان وأربعين
وثمانمائة وقد أخذ السلطان في تجهيز تجريدة عظيمة لغزو رودس وأخذ الطاعون يتزايد
في كل يوم حتى عظم في صفر وزاد عدة من يموت فيه على خمسمائة إنسان.

ثم في يوم الثلاثاء حادي عشرين صفر نفى السلطان كسباي الششماني المؤيدي أحد
الدوادرية الصغار وعد ذلك من الأشياء التي وضعها الملك الظاهر في محلها وقد
استوعبنا أمر كسباي هذا والتعريف بأحواله في غير هذا المحل.

ثم في شهر ربيع الأول أخذ الطاعون يتناقص من القاهرة ويتزايد بضواحيها.

ثم في يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الأول المذكور نفى السلطان سودون
السودوني الحاجب إلى قوص وأنعم بإقطاعه على الأمير الطنبغا المعلم الطاهري برقوق
زيادة على ما بيده.

ثم في يوم السبت المذكور خرجت الغزاة من القاهرة فنزلت في المراكب من ساحل
بولاق وقصدوا الإسكندرية ودمياط ليركبوا من هناك البحر المالح والجميع قصدهم غزو
رودس.

وكانوا جمعًا موفورًا ما بين أمراء وخاصكية ومماليك سلطانية ومطوعة.

وكان مقدم الجميع في هذه السنة أيضًا الأمير إينال العلائي الدوادر الكبير كما كان في
السنة الخالية.

وكان معه من الأمراء الطيلخانات الأمير يلخجا من مامش الساقى الناصري الرأس نوبة الثاني ومن العشرات جماعة كبيرة منهم: تغري برممش الزردكاش وتغري برممش الفقيه نائب القلعة.

وهو مستمر على وظيفته - ورسم السلطان للأمير يونس العلائي الناصري أحد أمراء العشرات أن يسكن بباب المدرج إلى أن يعود تغري برممش المذكور من الجهاد - وسودون الإينالي المؤيدي قراقاس رأس نوبة وتمريغا الظاهري جقمق ونوكار الناصري وتمراز النوروزي رأس نوبة المعروف بتعريض ويشبك الفقيه المؤيدي وفيها تأمر بعد عوده - بعد موت تمراز النوروزي من جرح أصابه - وجماعة آخر من أعيان الخاصكية كل منهم مقدم على غراب أو زورق ومعه علة من المماليك السلطانية وغيرهم.

وكانت المماليك السلطانية في هذه الغزوة تزيد عدتهم على ألف مملوك هذا خارج عن سافر من المطوعة.

وأضاف إليهم السلطان أيضًا جماعة كبيرة من أمراء البلاد الشامية كما فعل الملك الأشرف في غزوة قبرس المقدم ذكرها.

ورسم لهم السلطان أن يتوجه الجميع إلى طرابلس ليضاف إليهم العسكر الشامي ويسير الجميع عسكرًا واحدًا ففعلوا ذلك وسافر الجميع من ثغر دمياط و ثغر الإسكندرية في يوم الخميس حادي عشر شهر ربيع الآخر وكان لخروجهم من ساحل بولاق يوم عظيم لم ير مثله إلا نادرًا.

وساروا من ثغر الإسكندرية ودمياط إلى طرابلس ثم من طرابلس إلى رودس حتى نزلوا على برها بالقرب من مدينتها في الخيم وقد استعد أهلها للقتال فأخذوا في حصار المدينة ونصبوا عليها المناجيق والمكاحل وأرموا على أبراجها بالمكاحل والمدافع واستمروا على قتال أهل رودس في كل يوم.

هذا ومنهم فرقة كبيرة قد تفرقت في قرى رودس وبساتينها ينهبون ويسبون.

واستمروا على ذلك أيامًا ومدينة رودس لا تزداد إلا قوة لشدة مقاتليها ولعظم عمارتها وقد تاهبوا للقتال وحصنوا رودس بالآلات والسلاح والمقاتلة وصار القتال مستمرًا بينهم في كل يوم وقتل من الطائفتين خلائق كثيرة.

هذا وقد استقر الأمير يلخجا الناصري في المراكب ومعه جماعة كبيرة من المماليك السلطانية وغيرهم لحفظ المراكب من طارق يطرقهم من الفرنج في البحر وكان في ذلك غاية المصلحة.

وصار يلخجا مقدم العساكر في البحر كما كان إينال مقدم العساكر في البر.

وبينما يلخجا ورفقته ذات يوم إذ هجم عليهم الفرنج في عدة كبيرة من المراكب فبرز إليهم يلخجا ومن معه وقتلوهم قتالًا عظيمًا حتى نصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وغنم المسلمون منهم.

كل ذلك و قتال رودس مستمر في كل يوم والعساكر في غاية ما يكون من الاجتهاد في قتال رودس غير أن رودس لا يزداد أمرها إلا قوة لعظم استعداد أهلها للقتال.

ولما كان في بعض الأيام وقع للمسلمين محنة عظيمة قتل فيها جماعة كبيرة من أعيان الغزاة من الخاصكية وغيرهم وهو أن جماعة من المسلمين الأعيان نزلوا في كنيسة تجاه رودس وبينهم وبين العسكر الإسلامي رفقتهم مخاضة من البحر المالح وبينهم أيضًا وبين مدينة رودس طريق سالكة.

فاتفق أهل رودس على تبييت هؤلاء المسلمين الذين بالكنيسة المذكورة إلى أن أمكنهم ذلك فخرجوا إليهم على حين غفلة وطرقوهم بالسيوف والسلاح وكان المسلمون في أمن من جهتهم وغالبهم جالس بغير سلاح وهم أيضًا في قلة والفرنج في كثرة.

فلما هجموا على المسلمين ووقعت العين في العين قام المسلمون إلى سلاحهم فمنهم من وصل إلى أخذ سلاحه وقاتلهم حتى قتل ومنهم من قتل دون أخذ سلاحه ومنهم من ألقى بنفسه إلى الماء ونجا وهم القليل.

على أنه قتل من الفرنج جماعة كبيرة قتلتهم فرسان المسلمين قبل أن يقتلوا لما عاينوا الهلاك أثابهم الله الجنة.

ولما وقعت الهجة قام كل واحد من المسلمين إلى نجدة هؤلاء المذكورين فلم يصل إليهم أحد حتى فرغ القتال إلا أن بعض أعيان الخاصكية مع رفقته لحق جماعة من الفرنج قبل دخولهم إلى رودس ووضعوا فيهم السيف.

وقد استوعبنا واقعتهم بأطول من هذا في غير هذا الكتاب.

وكان عدة من قتل في هذه الكائنة نيفًا على عشرين نفسًا.

ودام القتال بعد ذلك في كل يوم بين عساكر الإسلام وبين فرنج رودس أيامًا كثيرة ومدينة رودس لا تزداد إلا قوة.

فعند ذلك أجمع المسلمون على العود وركبوا مراكبهم وعادوا إلى أن وصلوا إلى ثغر الإسكندرية ودمياط ثم قدموا إلى القاهرة.

فكانت غزوة العام الماضي أعني غزوة قشتيل التي أخرجوها وسبوا أهلها أبهج من هذه الغزوة فله الأمر من قبل ومن بعد.

وكان وصول الغزاة المذكورين إلى القاهرة في ثم في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير سودون المحمدي أحد أمراء العشرات باستقراره في نيابة قلعة دمشق بعد نقل الأمير جانبك الناصري دوادار برسباي الحاجب منها إلى حجوية الحجاب بدمشق بعد موت الأمير سودون النوروزي.

وفيه استقر الأمير فنصوه النوروزي - الخارج على السلطان في نوبة الجكمي - في نيابة ملطية بعد عزل الأمير قيز طوغان العلاني وقدمه إلى حلب أتابكًا بها عوضًا عن صاحب خليل بن شاهين بحكم عزله ونفيه.

ثم في يوم السبت رابع شهر رجب وصل إلى القاهرة الأمير بردبك العجمي الجكمي نائب حماة وطلع إلى القلعة وقبل الأرض فنهره السلطان وأمر بالقبض عليه فأمسك وحبس بالقلعة ثم سفر إلى ثغر الإسكندرية فسجن بها وسبب ذلك واقعة كانت بينه وبين أهل حماة قتل فيها جماعة كبيرة من الحمويين استوعبناها في " الحوادث " من غير هذا الكتاب.

ورسم السلطان للأمير قاني باي أبو بكرى البهلوان نائب صفد نيابة حماة ونقل الأمير بيغوت المؤيدى الأعرج نائب حمص إلى نيابة صفد.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر رجب المذكور خلع السلطان على الأمير تتم من عبد الرزاق المؤيدى الذي كان ولي حسبة القاهرة باستقراره في نيابة الإسكندرية بعد عزل الأمير الطنبغا المعلم للفاف الظاهري برقوق وقدمه إلى القاهرة على إقطاعه وقد زاده السلطان عدة زيادات.

ثم في يوم الخميس خامس عشر شعبان قدم إلى القاهرة قاصد القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك وفي خدمته نحو المائة نفر وأتباع كثيرة.

وكان معه أيضًا امرأة عجوز من نساء تيمورلنك قدمت برسم الحج إلى بيت الله الحرام أقامت بدمشق لتتوجه في الموسم صحبة الركب الشامي ومع القاصد المذكور كسوة الكعبة التي أرسلها شاه رخ.

وكان القاصد الذي قدم في العام الماضي استأذن السلطان في ذلك واعتذر أن شاه رخ نذر أن يكسو الكعبة - كما كان ذكر ذلك للملك الأشرف برسباي وكان ذلك سببًا لضرب الأشرف لقصاده والإخراق بهم.

فلما استأذن القاصد الملك الظاهر جقمق أذن له وعاد القاصد بالجواب إلى شاه رخ فأرسلها في هذه السنة صحبة هذا القاصد المذكور.

واعتذر الملك الظاهر بقوله: " إن هذه قرية ويجوز أن يكسو الكعبة كائن من كان " وعظم ذلك على أمراء الدولة والمصريين إلى الغاية.

ونزل القاصد المذكور في بيت جمال الدين الأستاذار بين القصرين.

فلما كان يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان طلع قاصد شاه رخ المذكور ورفقته إلى القلعة وكان السلطان قد احتفل إلى طلوعهم ونادى أن أحدًا من أجناد الحلقة والمماليك السلطانية لا يتأخر عن طلوع القلعة في هذا اليوم.

وعمل السلطان الخدمة بالحوش من القلعة ولم تكن العادة بعمل الخدمة إلا في إيوان القلعة فأبطل السلطان ذلك وعملها في الحوش.

وظلعوا القصاد ومعهم التقدمة والكسوة فأمر السلطان بإدخال ما معهم إلى البحرة لئلا يظن أحد بالكسوة المذكورة.

وترحب السلطان بالقصاد وأكرمهم وقرىء ما على يدهم من المكاتبه وعادوا إلى جهة منزلهم إلى أن وصلوا إلى بيت جمال الدين حيث سكنهم وقد أطلقت الألسن في حقهم بالوقية من العوام والرجم المتتابع إلى البيت المذكور.

وحال دخولهم إلى البيت نزل خلفهم في الوقت من المماليك السلطانية الذين بأطبق القلعة مقدار ثلاثمائة مملوك وانضاف إليهم جماعة كبيرة من المماليك البطالين والعوام وكبسوا على القصاد المذكورين ونهبوا جميع ما كان لهم وكان شيئًا كثيرًا إلى الغاية وأفحشوا في النهب حتى أخذوا خيولهم وكان قيمة ما نهب هم من الفصوص الفيروزج الكرمانى والشقق الحرير والمخمل والمسك وأنواع الفرو وغير ذلك يربو على عشرين ألف دينار وأكثر.

ولولا أن الأمير يلخجا الرأس نوبة الثاني كان سكنه بالقرب منهم فركب في الحال بمماليكه ونجدهم ومنع الناس من نهبهم ثم وصل إليهم الأمير إينال العلاني الدوادر الكبير ثم الأمير تنك حاجب الحجاب ولما بلغ السلطان الخبر غضب غضبًا شديدًا وأمسك جماعة من العامة ضربهم بالمقارع وأبدع فيهم وقطع أرزاق بعض المماليك السلطانية من الخدمة وأولاد الناس.

ثم أعطى السلطان القصاد شيئًا كثيرًا وطيب خواطرهم - انتهى.

ثم في أواخر شهر رمضان المذكور نفى السلطان الأمير أقطوه الموساوي ظاهري برفوق أحد أمراء الطبلخاناه إلى طرسوس ثم شفع فيه فتوجه إلى دمشق بطلاً.

ثم في شوال ورد الخبر على السلطان بنصرة مراد بك بن عثمان متملك بلاد الروم على بني الأصفر.

وفي هذه السنة أبطل السلطان الرماحة الذين يلعبون بالرمح يوم دوران المحمل في شهر رجب.

ثم يوم الاثنين استقر محب الدين محمد بن الشحنة الحنفي قاضي قضاة حلب وكاتب سرها وناظر الجيش بها بسفارة الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الخاص الشريف.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين ذي القعدة قدم الزيني عبد الباسط من دمشق إلى القاهرة وهذه قدمته الثانية من يوم عزل وصودر وطلع إلى السلطان في يوم السبت سابع عشرينه وخلع عليه كاملة بفرو سمور.

ثم قدم هديته إلى السلطان في يوم الاثنين تاسع عشرينه وكانت تشتمل على شيء كثير مع مبلغ كبير من الذهب.

ثم في يوم الخميس سادس عشر ذي الحجة خرجت تجريدة إلى البحيرة ومقدم العسكر الأمير قراخا الحسنی الأمير آخو الكبير ومعه ستة من الأمراء.

ثم في يوم الخميس رابع عشر محرم سنة تسع وأربعين وثمانمائة استقر الشيخ شمس الدين محمد القاياتي قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية وصرف الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر ونزل القاياتي بغير خلعة تورعًا وعليه طيلسانه وبين يديه أعيان الدولة.

ولما نزل إلى الصالحية لم يسمع الدعوى التي يدعيها بعض الرسل وقال: هذه حيلة ثم قام وتوجه إلى داره وفي ظن كل أحد أنه سيسير في القضاء على قاعدة السلف لما عهدوا من تقشفه وتعففه فوقع بخلاف ما كان في الظن ومال إلى المنصب وراعى الأكابر وأكثر من النواب وظهر منه الميل الكلي إلى الوظيفة حتى لعله لو عزل منها لمات أسفًا عليها.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشر المحرم المذكور خلع السلطان على الأمير يلخجا من مامش الساقى الناصري الرأس نوبة الثاني باستقراره في نيابة غزة بعد موت الأمير طوخ الأبو بكرى المؤيدي قتيلاً بيد العشير.

ثم في يوم الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير شادبك الحكمي أحد مقدمي الألوف باستقراره في نيابة حماة عوضًا عن قاني باي البهلوان بحكم انتقاله إلى نيابة ثم في يوم الخميس خامس عشر جماد الأول من سنة تسع

وأربعين المذكورة رسم السلطان بنفي الأمير علي باي العجمي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة إلى صغد ثم حول إلى دمشق بطالاً وأنعم بإمرته على الأمير جانبك الشبكي الساقى والى القاهرة وأنعم بإقطاع جانبك المذكور على جماعة من الخاصكية الأشرفية ممن كان نفي في أول الدولة بدمشق وغيرها.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين جماد الآخر وصل الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حلب إلى القاهرة وقبل الأرض واستقر من جملة مقدمي الألوف بها وكان الكلام قد كثر في أمره وأشيع بعصيانه.

وفي هذا الشهر

▲ ندب السلطان مملوكه جانبك الظاهري الخاصكي إلى التكلم

على بندر جدة وهذه أول سفرة سافر بها جانبك المذكور ومبدأ أمره في التكلم على بندر جدة إلى يومنا هذا.

وكان من خبر استمراره على التكلم في البندر المذكور أن السلطان كان في كل سنة يندب للتكلم على البندر أحدًا من الأمراء أو أعيان الخاصكية فيتوجه المذكور ثم يعود إلى القاهرة وقد تغير خاطر السلطان عليه لأمر شتى فيعزله السلطان على أقبح وجه ومنهم من يصادره ويأخذ منه الأموال الكثيرة ومنهم من ينفى ومنهم من يرسم عليه ويبهدل وقل من يسلم من فلما ولي جانبك هذا باشر البندر المذكور بمعرفة وحنق مع المهابة ووفور العقل والحرمة ونفوذ الكلمة ونهض بما لم ينهض به غيره ممن تقدمه.

وأنا أقول: ولا ممن تأخر عنه إلى يوم القيامة على ما سيأتي بيان ذلك في مواطن كثيرة من هذه الترجمة وغيرها وقد استوعبنا حاله في تاريخنا " المنهل الصافي " بأوسع من هذا وأيضا ذكرنا أموره مفضلاً في تاريخنا " الحوادث " عند ذهابه إلى جدة وإبابه وما يقع له بها في الغالب - انتهى.

ثم في يوم الخميس ثالث شعبان خلع السلطان على الأمير إينال العلاني الدوادر الكبير باستقراره أتاك العساكر بالديار المصرية بعد موت الأمير الكبير يشبك السوداني المشد.

قلت: وفي تولية إينال هذا للأبكية في يوم ثالث الشهر رد على من يتشاءم بالحركة في يوم ثالث الشهر فإنه نقل من هذه الوظيفة إلى السلطنة فأى شؤم وقع له في ولايته - انتهى.

ثم خلع السلطان على الأمير قاني باي الجاركسي شاد الشراب خاناه باستقراره دوادارًا كبيرًا عوضًا عن إينال المذكور وأنعم بإقطاع الأمير إينال المذكور على الشهابي أحمد بن علي بن إينال اليوسفي وصار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية.

وخلع السلطان على الأمير يونس السيفي آقباي باستقراره شاد الشراب خاناه عوضًا عن قاني باي الجاركسي واستمر على إقطاعه إمرة عشرة.

ووقع بسبب تولية الأمير إينال المذكور للأبكية كلام كثير في الباطن لكون السلطان قدمه على الأمير تمرز القرمشي أمير سلاح وجرباش الكريمي أمير مجلس وقراخجا الحسيني الأمير آخور الكبير وهؤلاء الثلاثة من أكابر المماليك البرقوقية ووظائفهم أيضًا تقتضي الانتقال منها إلى الأبكية بخلاف وظيفة الدوادارية.

وبلغ السلطان ذلك أو فطن به فلما كان يوم السبت خامسه نزل من قلعة الجبل إلى خليج الزعفران وصحبته جميع الأمراء إلى مخيم ضرب له به وجلس فيه وأكل السماط ودام هناك إلى قريب الظهر ثم ركب وعاد إلى القلعة.

وكان قصد الملك الظاهر بالنزول إلى خليج الزعفران في هذا اليوم استخفافًا بالقوم لأنهم أشاعوا أن جماعة تريد الركوب فكأنه قال لهم بلسان حاله: " ها قد نزلت من القلعة بخليج الزعفران من كان له غرض في شيء فليفعله " فلم يتحرك ساكن وانقمع كل أحد فكانت هذه الفعلة من أحسن أفعاله وأعظمها.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شهر شعبان المذكور خلع السلطان على الأمير الكبير إينال المذكور خلعة نظر البيمارستان المنصوري وخلع على قاني باي الجاركسي خلعة الإنظار المتعلقة بالدوادرية.

ثم في يوم السبت سابع عشر شوال برز أمير حلج المحمل الأمير دلاوت باي المحمودي المؤيدي ثم في يوم الخميس ثالث المحرم سنة خمسين وثمانمئة خلع السلطان على صاحب خليل بن شاهين المعزول عن نيابة ملطية قبل تاريخه باستقراره في نيابة القدس عوضًا عن طوغان العثماني بحكم توجهه حاجب حجاب حلب بعد موت قاني باي الحكمي.

وفيه استقر القاضي برهان الدين إبراهيم بن الديري في نظر الجوالي مضافًا لما بيده من نظر الإسطبلات السلطانية عوضًا عن ابن المحرقي بعد عزله.

ثم في يوم الاثنين خامس صفر أعيد قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر للقضاء بعد موت قاضي القضاة شمس الدين القاياتي.

ثم في يوم الثلاثاء سادس صفر أيضًا استقر القاضي ولي الدين السفطي في تدريس المدرسة الصلاحية بقبة الشافعي عوضًا عن القاياتي.

ثم في يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول من سنة خمسين المذكورة قدم إلى القاهرة الشريف محمد بن الشريف بركات بن حسن بن عجلان ومعه مقدمة من عند أبيه ما بين خيول وغيرها وأقام بالقاهرة إلى سلخ الشهر المذكور وعاد إلى مكة وقد أعطاه السلطان أمانيًا لأبيه بركات ووعلى بكل خير من ولاية مكة وغير ذلك.

ثم في يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر خلع السلطان على ولي الدين السفطي باستقراره في نظر البيمارستان المنصوري عوضًا عن القاضي محب الدين بن الأشقر ناظر الجيش بحكم عزله عنها.

وسار السفطي في النظر المذكور سيرة سيئة وهو أنه صار يأخذ ما لا يستحقه ويدفعه لمن لا يستحقه وحسابه على الله.

وفيه استقر أسنبغا مملوك ابن كليك شاد الشؤون السلطانية في نيابة بعلبك ولم يقع ذلك فيما تقدم.

والعادة أن نائب دمشق هو الذي يستقر بمن يختاره من مماليكه في نيابة بعلبك.

هذا في هذا الزمان وأما الوالد فإنه ولى في نيابته على دمشق نيابة القدس والرملة.

ثم في أواخر جمادى الأولى توغر خاطر السلطان على الأمير شاد بك الجكمي نائب حماة وعزله عن نيابة حماة وولى عوضه الأمير يشبك من جانبك المؤيدي الصوفي أحد أمراء الألو ف بحلب - وكان السلطان نفى يشبك المذكور من مصر ثم أنعم عليه بإمرة بحلب وأنعم بإقطاع يشبك المذكور على خدائشه الأمير علي باي العجمي المنفي أيضًا قبل تاريخه إلى دمشق - ورسم لشاد بك المذكور أن يتوجه إلى القدس بطالًا وحمل تقليد يشبك المذكور نيابة حماة وتشريفه الأمير تمرغا الظاهري أحد أمراء العشرات.

وفي هذا الشهر رسم السلطان بإطلاق جماعة من المماليك الأشرفية ممن كان حبسهم في أول دولته بالبلاد الشامية ورسم بقدمهم إلى القاهرة.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شوال برز أمير حاج المحمل الأمير سونجبا اليونسي الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بالمحمل إلى بركة الحاج وأمير الركب الأول الأمير سمam الحسني الظاهري برقوق أحد أمراء العشرات.

وسافرت في هذه السنة إلى الحجاز زوجة السلطان الملك الظاهر جقمق خوند مغل بنت البارزي ومعها أيضًا زوجة السلطان بنت ابن دلغادر.

ووج في هذه السنة أيضًا القاضي كمال الدين بن البارزي كاتب السر الشريف صحبة أخته خوند المذكورة في الركب الأول.

وسافر كمال الدين المذكور بتجمل كبير وفعل في سفرته من الخيرات والإحسان لأهل مكة ما سيذكر إلى الأبد.

ثم في يوم السبت أول محرم سنة إحدى وخمسين وثمانمائة خلع السلطان على قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني باستقراره قاضي القضاة الشافعية بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة شهاب الدين ابن حجر.

وفيه استقر السيفي آقبردي الساقى جقمق في نيابة قلعة حلب عوضًا عن تغري بردي الجاركسي بحكم عزله وتوجهه إلى دمشق.

وكان آقبردي المذكور توجه إلى حلب في أمر متعلق بالسلطان.

وفيه أنعم السلطان على خليل بن شاهين الشخي بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق عوضًا عن قير طوغان بحكم القبض عليه وحبسه بقلعة دمشق بسبب ما وقع منه لما توجه أمير حاج الركب الشامي من إحراقه باب المدينة الشريفة لسبب من الأسباب.

وفيه أيضًا استقر الأمير يشبك الحمزاوي دوادار السلطان بحلب في نيابة غزة عوضًا عن حطط بحكم عزله وتوجهه إلى دمشق بطالًا وأنعم بإقطاع يشبك الحمزاوي وهو تقدمة ألف بحلب على الأمير سودون من سيدي بك الناصري المعروف بالقرماني.

وأنعم بإقطاع سودون القرماني وهو إمرة عشرة على الأمير علي باي الأشرفي شاد الشراب خانة كان.

ثم في يوم الخميس رابع صفر من سنة إحدى وخمسين خلع السلطان علي مملوكه سنقر الظاهري باستقراره أستاذار الصحبة بعد موت أيتمش من أزوباى المؤيدي.

ثم في يوم الخميس حادي عشر صفر المذكور رسم السلطان بنفي تغري برمش الجلاي الفقيه نائب قلعة الجبل إلى القدس بطالاً واستقر الأمير يونس العلاني الناصري أحد أمراء العشرات عوضه في نيابة قلعة الجبل وأنعم بإقطاع تغري برمش المذكور على شريكه الأمير جانبك النوروزي المعروف بنائب بعلبك زيادة على ما بيده وليس المقدم ذكره خلعة نيابة القلعة في يوم الاثنين خامس عشر صفر.

ثم في يوم الخميس ثالث شهر ربيع الأول خلع السلطان على الأمير برسباي الساقى السيفي تنيك البجاسي باستقراره في نيابة الإسكندرية بعد عزل الأمير تتم من عبد الرازق المؤيدي عنها وذلك بسفارة عظيم الدولة الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الخاص الشريف.

وفيه خلع السلطان على الأمير جانبك النوروزي المقدم ذكره المعروف بنائب بعلبك باستقراره أمير المماليك السلطانية المجاورين بمكة المشرفة.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول المذكور رسم بنقل الأمير لرسباي الناصري من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب بعد موت الأمير قاني باي الأبوكرى الناصري البهلوان.

ورسم بنقل الأمير يشبك المؤيدي الصوفي من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس عوضاً عن برسباي المذكور.

وخلع السلطان على الأمير تتم بن عبد الرازق المؤيدي المعزول عن نيابة الإسكندرية باستقراره في نيابة حماة عوضاً عن يشبك الصوفي رشحه إلى ذلك المقر الجمالي ناظر الخواص.

وحمل إلى برسباي نائب حلب التقليد والتشريف الأمير جرباش المحمدي الناصري الأمير آخور الثاني المعروف بكرت.

وتوجه بتقليد يشبك بنيابة طرابلس الأمير قراجا الظاهري الخازندار الكبير.

واستقر مسفر تتم بنيابة حماة الأمير لاجين الظاهري الساقى فصالحه الأمير تتم على عدم سفره صحبته على ثلاثة آلاف دينار.

ثم في يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر استقر الأمير سودون السودوني الظاهري برقوق من جملة الحجاب وكان سودون المذكور قد ولي الحجوية الثانية قبل ذلك قلت: درجة إلى أسفل.

ثم في يوم الخميس خامس عشره خلع السلطان على القاضي ولي الدين السفطي باستقراره قاضي قضاة الديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني مضاعفاً لما بيده من تدريس قبة الشافعي ونظر البيمارستان ونظر الكسوة ووكالة بيت المال ومشيخة الجمالية ونظرها وغير ذلك من الوظائف ومع هذا كله والبص عمال والشحادة في كل يوم من الأمير الكبير إلى مقدم الجبلية.

وسار في القضاء أقبح سيرة وسلك مع الناس طريقاً غير محمودة من الحط على الفقهاء والترسيم عليهم والإفحاش في أمرهم لاسيما ما فعله مع مباشري الأوقاف.

وفي هذا الشهر خلع السلطان على شخص من الباعة يعرف بأبي الخير النحاس شهرة ومكسبًا باستقراره في وكالة بيت المال عوضًا عن السفطي.

وهذا أول خمول السفطي ومبدأ أمر أبي الخير النحاس وما سيأتي من أمرهما فأعجب.

ولا بد من التعريف بأصل أبي الخير المذكور وسبب ترقيه وإن كان في ذلك نوع إطالة فيحتمل ذلك لنوع من الأنواع فنقول: اسمه محمد وكنيته أبو الخير وبكنيته أشهر ابن محمد بن أحمد بن محمد المصري الأصل والمولد الشافعي النحاس.

نشأ تحت كنف والده وحفظ القرآن وتعلم من والده وجده صناعة عمل النحاس ومهر فيه واتخذ له حانوتًا بسوق النحاس بخط الشوائين بالقرب من دكان أبيه.

وأخذ في حانوته وأعطى حتى صار بينه وبين الناس معاملات ومشاركات ألجأه ذلك لتحمل الديون إلى أن عامله الشيخ أبو العباس الوفاي وصار له عليه جمل مستكثرة من الديون.

وكان الستر مسبولًا بينهما أولًا ثم وقع بينهما وحشة وكان ذلك هو السبب بوصول النحاس هذا بالملك الظاهر جقمق وهو أن أبا العباس لما ماطله أبو الخير المذكور أخذ في الإلحاح عليه في طلب حقه والدعوى عليه بمجالس الحكام والتجريء عليه والمبالغة في إنكائه بحيث إنه ادعى عليه مرة عند الأمير سودون السوداني الحاجب بعد أن أخرجه من السجن محتفظًا به فضربه سودون المذكور علقتين في يوم واحد ودام هذا الأمر بينهما أشهرًا بل وسنين.

وصار أبو العباس لا يرق لفقر أبي الخير وإفلاسه وعدم موجوده بل يلح في طلب حقه فعند ذلك أخذ أبو الخير النحاس في مرافعة أبي العباس المذكور بأن الذي بيده من المال إنما هو من جملة ذخائر الصفوي جوهر القنقبائي الخازندار وقد بقيت عند أبي العباس بعد موت جوهر.

ولا زال أبو الخير يجتهد في ذلك إلى أن توصل إلى السلطان وأنهى في حق أبي العباس ما تقدم ذكره وعليه محاكمة ذلك وإظهار الحق في جهته فلما سمع السلطان كلامه مال إليه وقال له: قد فنزل أبو الخير في الحال من بين يدي السلطان وقد صار مطالبًا بعدما كان مطلوبًا وادعى على أبي العباس المذكور بدعاو كثيرة يطول الشرح في ذكرها وخدمه السعد في إظهار بعض موجود جوهر من عند أبي العباس المذكور فحسن ذلك ببال السلطان ونيل أبو الخير في عين السلطان ووكله بعد مدة في جميع أموره كل ذلك في سنة ست وأربعين وثمانمائة.

وتردد أبو الخير النحاس إلى السلطان وحسن حاله من لبس القماش النظيف وركوب الحمار واكتسى كسوة جيدة.

كل ذلك وأبو الخير يلح في طلب المال من أبي العباس.

ثم التفت إلى غير ذلك مما يعود نفعه على السلطان وبقي بسبب ذلك يكثر الطلوع إلى القلعة وصار يتقرب إلى السلطان بهذه الأنواع فمشى أمره وظهر عند العامة اسمه واستمر على ذلك إلى سنة ثمان وأربعين فركب فرسًا من غير لبس خف ولا مهماز وصار يطلع إلى القلعة في كل يوم مرة بعد نزول أرباب الدولة من الخدمة ويتقاضى أشغال السلطنة.

كل ذلك وأعيان الدولة لا تلتفت إليه ولا يعاكسه أحد فيما يرومه لعدم اكتراثهم به وإهمالهم أمره لوضاعته لا لجلالته فاستفحل أمره بهذه الفعلة وطالت يده في الدولة.

فأول ما بدأ به أخذ في معارضة السفطي وساعده في ذلك سوء سيرة السفطي وملل السلطان منه فولي عنه وكالة بيت المال.

ثم أخذ أمره يتزايد بعد ذلك على ما سيأتي ذكره مفصلاً.

وقد استوعبنا حاله في تاريخنا " المنهل الصافي " بأطول من هذا إذ هو كتاب تراجم لا غير وأما أمره في تاريخنا " حوادث الدهور " فهو مفضل باليوم والساعة من أول أمره إلى آخره - انتهى.

ثم في يوم السبت أول جمادى الأولى برز المرسوم الشريف باستقرار خير بك الأجرود المؤيدي أحد مقدمي الألوف بدمشق في أتاكية دمشق بعد موت الأمير إينال الششمانى الناصري وأنعم السلطان بإقطاع خير بك المذكور على الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بالقاهرة.

ثم في يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة خلع السلطان على صاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم ناظر الدولة باستقراره في الوزارة عوضاً عن صاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ بحكم طول مرضه وهذه ولاية صاحب أمين الدين الثانية للوزر.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين شهر رجب برز المرسوم الشريف على يد الأمير إينال أخي قشتم المؤيدي باستقرار الأمير تنم من عبد الرازق المؤيدي نائب حماة في نيابة حلب عوضاً عن الأمير برساي الناصري بحكم استعفائه عن نيابة حلب لطول لزومه الفراش ورسم أيضاً بنقل الأمير بيغوت من صفر خجا المؤيدي الأعرج نائب صفد إلى نيابة حماة عوضاً عن تنم المذكور وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير يلبغا الجاركسي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة.

ورسم باستقرار الأمير يشبك الحمزاوي نائب غزة في نيابة صفد.

ورسم باستقرار طوغان العثماني حاجب الحجاب بحلب في نيابة غزة عوضاً عن يشبك الحمزاوي واستقر في حجوبية حلب الأمير جانبك المؤيدي المعروف بشيخ أحد أمراء طرابلس.

ثم في يوم الخميس أول شعبان قدم الشريف بركات بن حسن بن عجلان ونزل الملك الظاهر جقمق إلى لقائه بمطعم الطيور الريدانية خارج القاهرة.

وبالغ السلطان في إكرام بركات المذكور وقام إليه ومشى له خطوات وأجلسه بجانبه ثم خلع عليه وقيده له فرساً بسرج ذهب وكنبوش زركش وركب مع السلطان وسار إلى قريب قلعة الجبل فرسم له السلطان بالعود إلى محل أنزله به وهو مكان أخلاه له المقر الجمالي ناظر الخواص ورتب له الرواتب الهائلة.

وقام الجمالي المذكور بجميع ما يحتاج إليه بركات من الكلف والخدم السلطانية وغيرها وكان أيضاً هو القائم بأمره إلى أن أعاده إلى إمرة مكة والسفير بينهما الخواجا شرف الدين موسى التتائي الأنصاري التاجر.

ثم في يوم الخميس سابع شهر رمضان خلع السلطان على الأمير بيسق اليشبيكي أحد أمراء العشرات باستقراره في نيابة دمياط بعد عزل الأمير بدخاص العثماني الظاهري برقوق.

ثم في يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على أبي الخير النحاس المقدم ذكره باستقراره في ثم في يوم الخميس خامس شوال خلع السلطان على الأمير تمرار من بكتمر المؤيدي المصارع أحد أمراء العشرات باستقراره في بابة القدس بعد عزل خشقدم السيفي سودون من عبد الرحمن.

ثم في يوم الاثنين أول ذي القعدة أنعم السلطان على أسنباي الجمالي الظاهري جقمق الساقى بأمرة عشرة بعد موت إينال أخي قشتم وأنعم بوظيفة أسنباي - السقاية - على جانم الظاهري جقمق.

ثم في يوم الأربعاء ثلثه برز الأمر الشريف بحبس الأبرين المقيمين بالقدس الشريف وهما: شاد بك الجكمي المعزول عن نيابة حماة وإينال أبو بكرى الأشرفي فحبسا بقلعة صغد.

ثم في يوم الاثنين ثامن ذي القعدة استقر شاهين الظاهري ساقياً عوضاً عن جكم قلق سيز بحكم تغير خاطر السلطان عليه.

ثم في محرم سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة رسم السلطان للأمير يشبك طاز المؤيدي أحد أمراء دمشق بحجوية طرابلس عوضاً عن يشك النوروزي.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشرين المحرم وصل الركب الأول من الحاج صحبة الأمير الطواشي عبد اللطيف المنجكي ثم العثماني مقدم المماليك السلطانية.

وأصبح قدم من الغد أمير حاج ثم في يوم الجمعة ثالث عشرين المحرم المذكور رسم السلطان بنفى الأمير قراجا العمري الناصري أحد المقدمين بدمشق إلى سيس وأنعم بتقدمته على الأمير مازي الظاهري برقوق نائب الكرك كان.

ثم في يوم الخميس ثامن عشرين صفر رسم بإطلاق قيز طوغان من محبسه بقلعة دمشق بشفاعه الأمير جليان نائب دمشق.

وفيه أيضاً رسم بمجيء كسباي الدوادر المؤيدي المجنون من طرابلس إلى القاهرة بشفاعه جرياش قاشق.

ثم في يوم الأحد أول شهر ربيع الأول رسم السلطان بتيقية الأمير قيز طوغان في الحبس وردت المراسيم التي كانت كتبت بإطلاقه بواسطة زين الدين يحيى الأشقر الأستادار.

ثم في يوم الاثنين ثاني ربيع الأول عاد الأمير جليان إلى محل كفاله بدمشق.

ثم في يوم الثلاثاء ثالثه عزل السلطان الأمير عبد اللطيف زين الدين الطواشي العثماني عن مقدمة المماليك السلطانية وخلص على الطواشي جوهر النوروزي نائب مقدم المماليك باستقراره في مقدمة المماليك عوضاً عن عبد اللطيف المذكور.

ثم في يوم الخميس خامسه استقر عوضه نائب مقدم المماليك مرجان العادلي المحمودي.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه استقر أبو الخير النحاس في نظر الكسوة عوضًا عن السفطي ثم في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر عزل السلطان السفطي عن قضاء الديار المصرية.

ثم في يوم الخميس رابعه استقر برهان الدين إبراهيم بن ظهير في نظر الإسطل السلطاني عوضًا عن برهان الدين إبراهيم بن الديري.

وفيه ولي الشيخ أشرف الدين يحيى المناوي تدريس قبة الشافعي عوضًا عن السفطي.

وفي يوم السبت سيادسه نكب شمس الدين محمد الكاتب وعزر وامتنحن حسبما ذكرناه في الحوادث مفصلاً.

ثم في يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر أعيد قاضي القضاة شهاب الدين ابن حجر إلى القضاء بعد عزل السفطي واستقر أيضًا في مشيخة الخانقاه البيبرسية على عادته ولبس خلعتهما من الغد في يوم الاثنين.

ثم في يوم الخميس حادي عشره استقر أبو الخير النحاس ناظر البيمارستان المنصوري عوضًا عن السفطي.

ثم في يوم الاثنين لبس السفطي كاملية خضراء بسمور بعد أن حمل مبلغ خمسة آلاف دينار وخمسائة دينار بسبب أنه ادعى عليه أنه تناولها من وقف الكسوة.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشرين ربيع الآخر المذكور عزل الأمير تمرار البيكتمري المؤيدي المصارع وفي هذا الشهر طلق السلطان زوجته خوند الكبرى مغل بنت البارزي.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على الأمير قاني باي الحمزاوي أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية باستقراره في نيابة حلب ثانيًا بعد عزل الأمير تم المؤيدي عنها وقدمه إلى القاهرة على إقطاع قاني باي الحمزاوي المذكورة واستقر يونس العلاني الناصري نائب قلعة الجبل مسفر قاني باي فصالحه السلطان عنه بمبلغ كبير من الذهب لقلعة موجود قاني باي المذكور.

وفيه استقر الأمير بيسق اليشبيكي أحد أمراء العشرات بالقاهرة في نيابة قلعة دمشق بعد موت شاهين الطوغانى وفرق السلطان إقطاع بيسق على كسباي المجنون المؤيدي وغيره بواسطة المقر الجمالي ناظر الخواص الشريفة.

ثم في يوم الاثنين حادي عشره برز الأمير قاني باي الحمزاوي إلى محل كفالتة بحلب.

ثم في يوم الأحد رابع عشرين جمادى الآخرة أمر السلطان بنفي الأمير تمرار المصارع المعزول عن نيابة القدس إلى دمشق ثم شفع فيه وأعيد بعد أيام بعد أن أخرج السلطان إقطاعه إلى أربك من ططخ الساقى الظاهري والإقطاع إمرة عشرة واستقر خشقدم السيفي سودون من عبد الرحمن في نيابة القدس عوضًا عن تمرار المذكور واستقر إينال الظاهري الخاصكي ثم في يوم الاثنين خامس عشرين جمادى الآخرة المذكور عزل الحافظ شهاب الدين بن حجر نفسه عن قضاء الشافعية ولم يلها بعد ذلك إلى أن مات.

وخلع السلطان في يوم الثلاثاء سادس عشرينه على قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني وأعيد إلى قضاء الديار المصرية عوضًا عن ابن حجر المذكور.

ثم في يوم الإثنين ثالث شهر رجب رسم السلطان بإطلاق إينال أبو بكرى من حبس صدد وتوجهه إلى القدس بطالاً.

ثم في يوم الأربعاء خامس شهر رجب منع ولي الدين السفطي من طلوع القلعة والاجتماع بالسلطان ثم رسم بتوجهه إلى بيت قاضي القضاة الحنفي للدعوة عليه فتوجه وادعى عليه جماعة بحقوق كثيرة فحلف عن بعضها ثلاثة أيمان واعترف بالبعض ثم نقل إلى القاضي المالكي وادعى عليه أيضًا بدين فصالح المدعي على ثلاثمائة دينار.

ثم رسم السلطان بمنع اليهود والنصارى من طب أبدان المسلمين.

ثم عزل السفطي عن مشيخة المدرسة الجمالية ودرس التفسير بها.

ثم في يوم ثالث عشرينه رسم بمجيء السفطي إلى بيت قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني الشافعي ليدعى عليه الزيني قاسم المؤذي الكاشف بسبب حمامه التي باب الخرق وكان السفطي اشتراها منه في أيام عزه.

فحضر السفطي إلى مجلس القاضي وادعى عليه قاسم بأنه كان أوقفها قبل بيعها وأن الشراء لم يصادف محلاً وأنه أكرهه على تعاطي البيع.

وخرج قاسم لإثبات ذلك.

ولما خرج السفطي من بيت القاضي عارضه شخص آخر وأمسكه من طوقه وعاد به إلى مجلس القاضي وادعى عليه أنه غصب منه خشبًا وغيره فأنكر السفطي فطلب تحليفه والتغليظ عليه فصالحه على شيء ومضى إلى داره وأخذ في السعي إلى أن أعاده السلطان إلى مشيخة الجمالية على عادته.

ثم في يوم الخميس سابع عشرين شهر رجب أمر السلطان ناصر الدين محمد بن أبي الفرج نقيب الجيش أن يأخذ السفطي وبمضي به إلى بيت قاضي القضاة الشافعي ثانيًا لسماع بينة الإكراه منه لقاسم الكاشف.

فتوجه السفطي وسمع ذلك وذكر أن له دافعًا وخرج ليبيده فبلغ بعض أعداء السفطي السلطان أنه يمتنع من التوجه إلى الشرع ووغر خاطر السلطان عليه فأمر السلطان قاني بك السيفي.

يشبك بن أزدمر أحد الدوادارية في يوم الأحد سلخ شهر رجب أن يتوجه إلى السفطي وبأخذه وبمضي به إلى حبس المقشرة ويحبسه به مع أرباب الجرائم.

فتوجه إليه قاني بك المذكور وحبسه بالمقشرة وقد انطلقت الألسن بالوقية في حقه ولولا رفق قاني بك به لقتلته العامة في الطريق.

ومن لطيف ما وقع للسفطي أنه لما حبس بسجن المقشرة دخل إليه بعض الناس وكلمه بسبب شيء من تعلقاته وخاطبه الرجل المذكور بيا مولانا قاضي القضاة فصاح السفطي بأعلى صوته: " تقول لي قاضي القضاة! أما تقول: يا لص يا حرامي يا مقشراوي! " فقال له لرجل: " يا لص يا حرامي يا مقشراوي! "

ثم في يوم الاثنين أول شعبان وصل الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي المعزول عن نيابة حلب وطلع إلى السلطان وقبل الأرض فأكرمه السلطان وخلع عليه وأجلسه تحت أمير مجلس جرباش الكريمي وأنعم عليه بإقطاع قاني باي حمزاوي وأركبه فرسًا بسرج ذهب وكنبوش زركش كل ذلك بعناية عظيم الدولة صاحب جمال الدين ناظر الخاص لصحبة كانت بينهما.

وفي هذا اليوم أخرج ولي الدين السفطي من سجن المقشرة وذهب ماشيًا من السجن إلى بيت قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني ثم توجه منه راكبًا إلى المدرسة الصالحية وحضر قاضي القضاة أيضًا بالصالحية فلم يفصل له أمر طلق من الغد من الترسيم.

ثم في يوم الاثنين ثامن شعبان رسم السلطان لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي الحنبلي بطلب السفطي وسماع الدعوى عليه والترسيم عليه بسبب الحمامين والفرن والدكاكين بحارة زويلة فإنه ظهر أنهم كانوا في جملة وقف الطيرسية فتجمل القاضي الحنبلي في حق السفطي فلم يعجب ذلك أعداءه وعرفوا السلطان بذلك فرسم في يوم السبت ثالث عشر شعبان بتوجهه إلى حبس المقشرة ثانيًا بسبب الدكاكين والحمامين التي بحارة زويلة ثم شفع فيه.

ثم في يوم السبت سابع عشرين شعبان ادعى على القاضي ولي الدين السفطي بمجلس القضاة ناصر الدين بن المخلطة المالكي بحضور قاضي القضاة بدر الدين الحنبلي بسبب الحمامين وما معهما وخرج على الأعداء.

ثم في يوم الأربعاء أول شهر رمضان حضر السفطي وغرماؤه والقاضي ناصر الدين بن المخلطة عند قاضي القضاة بدر الدين الحنبلي وانفصل المجلس أيضًا على غير طائل. وادعى السفطي أن السلطان رسم بأن لا يدعى عليه عند ابن المخلطة وكان ذلك غير صحيح فلم يسمع له ذلك.

ولا زال الحنبلي يعتني به حتى صالح جهة وقف طيبرس بألف دينار.

ثم في يوم السبت خلع السلطان على السفطي كاملية بفرو سمور بعد أن حمل أربعة آلاف دينار.

ثم في يوم الجمعة ثالث شهر رمضان أنعم السلطان على مملوكه سنقر الخاصكي المعروف بالجعيدي بإمرة عشرة بعد موت الأمير صرغتمش القلمطاوي زيادة على ما بيده من حصة بشبين القصر.

ثم في يوم السبت سابع عشر شوال برز أمير حاج المحمل الأمير سونجيغا اليونسي بالمحمل وأمير الركب الأول الأمير قائم المؤيدي التاجر.

ثم في يوم الاثنين عشرين شهر رمضان خرج الأمير جانبك الظاهري المتكلم على بندر جدة إليها بمماليكه وحواشيه على عادته في كل سنة.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة استقر الأمير خيربك النوروزي حاجب صفد في نيابة غزة بعد عزل طوغان العثماني عنها وذلك بمال كبير بذله له في ذلك لوضاعة خيربك المذكور في الدولة.

وأستهل ذو الحجة أوله الأحد فيه ظهر الطاعون في الديار المصرية وأخذ في التزايد.

وفي يوم الخميس خامس ذي الحجة استقر علاء الدين علي بن إسكندر ابن أخي زوجة كمشبغا الفيسي معلم السلطان على العمائر عوضًا عن الناصر محمد بن حسين بن الطولوني بحكم وفاته.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه استقر الحكيم ابن العفيف الشهير بقوالج أحد مضحكي المقر الجمالي ناظر الخواص بسفارته في رئاسة الطب والكحل بمفرده.

ثم في يوم الأحد ثاني عشرين ذي الحجة المذكور استقر علاء الدين علي بن محمد بن آقبرس في حسبة القاهرة عوضًا عن يرعلي الخراساني بمال بذله في ذلك.

وكان أصل ابن آقبرس هذا عنبريًا يسوق العنبر في حانوت ثم اشتغل بالعلم وتردد للأكابر واتصل بالملك الظاهر جقمق في أيام إمرته وناب في الحكم عن القضاة الشافعية إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فصار ابن آقبرس هذا من ندمائه وولي نظر الأوقاف وعدة وظائف آخر.

وكان أيضًا من جملة مبغضي السفطي وممن يعيب عليه أفعاله القبيحة من البص والطلب من الناس وسماه " الهلب " على أن ابن آقبرس أيضًا كان من مقولة السفطي وزيادة.

ثم في يوم الخميس حادي عشر محرّم سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة ضربت رقبة أسد الدين الكيماوي بمقتضى الشرع بعد أمور وقعت له ذكرناها مفصلاً في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " .

وفي هذا الشهر تشاكى الأمير تمرّاز المؤيدي نائب القدس كان وناظر القدس عبد الرحمن بن الديري فمال السلطان على ابن الديري وبهدله وأمر به فجعل في عنقه جنزير إلى أن شفّع فيه عظيم الدولة الجمالي ناظر الخواص الشريفة.

ثم في يوم السبت ثالث عشره توجه تمرّاز المذكور وعبد الرحمن بن الديري وأبو الخير النحاس إلى بيت ناظر الخاص المذكور وجلسوا بين يديه إلى أن أصلح بينهما وأنعم على كل منهما بفرس مسروج وأنعم على أبي الخير بشيء فقبل الثلاثة يده وخرجوا من عنده.

وأبو الخير يوم ذاك في تنبوك عزه وعظم تعاظمه على جميع أرباب الدولة إلا الصاحب جمال الدين هذا فإنه معه على هذا وقد فشا أمر الطاعون بالقاهرة وتزايد.

ثم أهل صفر من سنة ثلاث وخمسين يوم الأربعاء فيه عظم الطاعون ومات في هذا الشهر جماعة كبيرة ه الأمراء وأعيان الدولة على ما سيأتي ذكره في الوفيات من هذا الكتاب.

ثم في يوم الأحد ثاني عشر صفر أعيد القاضي برهان الدين إبراهيم بن الديري إلى نظر الإسطبل السلطاني بعد موت برهان الدين بن ظهير.

وفي يوم الاثنين ثالث عشره استقر الأمير جرباش الكرّيمي الظاهري أمير مجلس أمير سلاح بعد موت الأمير تمرّاز القرمشي الظاهري وفيه أيضًا استقر الأمير تنم المعزول عن نيابة حلب أمير مجلس عوضًا عن جرباش المذكور وفيه أنعم السلطان على الأمير دولات

باي المحمودي المؤيدي الدوادار الثاني بإمرة مائة وتقدمة ألف بعد موت تمراز القرمشي وصار من جملة أمراء الألوف وأنعم بإقطاعه على الأمير يونس الأقبائي شاد الشراب خاناه والإقطاع إمرة طبلخاناه.

وأنعم بإقطاع يونس على السيفي جانبك رأس نوبة الجمدارية الظاهري جقمق وعلى مغلباي طاز الساقى الظاهري أيضًا لكل واحد منهما إمرة عشرة.

ثم في يوم الخميس سادس عشر صفر استقر الأمير تمرغا الظاهري جقمق دوادارًا ثانيًا عوضًا عن دولات باي المقدم ذكره على إمرة عشرة.

وفيه أيضًا أنعم السلطان على قاني باي المؤيدي ثم في يوم الاثنين عشرين صفر ووافق أول خمسين النصارى تناقص الطاعون.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرينه أنعم السلطان على الأمير يشبك الفقيه المؤيدي بإقطاع الأمير بختك الناصري بعد موته وأنعم بإقطاع يشبك المذكور على الشهابي أحمد من الأمير الكبير إينال العلاني وكلاهما إمرة عشرة.

وفيه أيضًا أنعم السلطان على مغلباي الشهابي رأس نوبة الجمدارية بإمرة عشرة عوضًا عن مغلباي الساقى بعد موته وكان مغلباي أخذ الإمرة قبل موته بأيام يسيرة حسبما تقدم ذكره.

وفي يوم الخميس هذا أنعم السلطان بإقطاع الأمير قراخا الحسنى الأمير آخور بعد موته على الأمير تتم أمير مجلس وأنعم بإقطاع تتم على الأمير جرباش المحمدي الناصري الأمير آخور الثاني المعروف بكرت وصار من جملة المقدمين وأنعم بإقطاع جرباش المذكور ووظيفته الأمير آخورية الثانية على الأمير سودون المحمدي المؤيدي المعروف بسودون أتمكجي وأنعم بإقطاع سودون أتمكجي المذكور على الأمير جانبك الشيبكي والى القاهرة بسفارة المقر الجمالي ناظر الخواص.

وفيه أيضًا استقر الأمير قاني باي الجاركسي الدوادار الكبير أمير آخور كبيرًا بعد موت الأمير قراخا الحسنى وكان السلطان رشح الأمير أسنبغا الطياري للأمير آخورية فالح قاني باي في سؤال السلطان على أن يليها اقتحامًا على الرئاسة ولا زال به حتى ولاه واستقر أيضًا دولات باي المحمودي المؤيدي دوادارًا كبيرًا عوضًا عن قاني باي الجاركسي بمال كبير بذله في ذلك.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر خلع السلطان على القاضي ولي الدين محمد السنباطي باستقراره قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية عوضًا عن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن التنسي بحكم وفاته وكان السنباطي هذا يلي قضاء الإسكندرية فلما مات ابن التنسي طلب وولي القضاء وجميع من ذكرنا وفاته هنا ماتوا بالطاعون.

ثم في يوم الخميس أول شهر ربيع الأول خلع السلطان على الطواشي فيروز النوروزي الزمام والخازندار باستقراره أمير حاج المحمل.

ثم في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأول خلع السلطان على الأمير أسنبغا الطياري باستقراره رأس نوبة النوب بعد موت الأمير تمرباي التمرغاوي بالطاعون.

وفي أواخر هذا الشهر قل الطاعون بالقاهرة بعد أن مات بها خلائق كثيرة فكان من جملة من مات للسلطان فقط أربعة أولاد من صلبه حتى لم يبق له ولد ذكر غير المقام الفخري عثمان.

ثم في يوم الثلاثاء سابع عشرين شهر ربيع الأول أخذ السلطان من السفطي ستة عشر ألف دينار وسبب ذلك أن قاضي القضاة بدر الدين الحنبلي كان وصيًا على تركة قاضي القضاة بدر الدين بن التنسي المالكي فلما عرض موجوده وجد في جملة أوراقه ورقة فيها ما يدل على أنه كان للسفطي عنده ستة عشر ألف دينار وديعة ثم وجد ورقة أخرى فيها ما يدل على أن السفطي أخذ وديعته وبلغ السلطان ذلك فرسم بأخذ المبلغ منه - قلت: لا شلت يدها! " والذي خبت لا يخرج إلا نكدًا " - فحملت بتمامها إلى السلطان.

ولم يرض السلطان بذلك وهو في طلب شيء آخر فتح الله عليه وهو أن السلطان صار يطلب السفطي بما وقع منه من الأيمان أنه ما بقي يملك شيئًا من الذهب ثم وجد له هذا المبلغ فصار للسلطان مندوحة بذلك في أخذ ماله.

فلما استهل شهر ربيع الآخر يوم الجمعة وطلع القضاة للتهنئة بالشهر تكلم السلطان معهم في أمر السفطي وما وقع منه من الأيمان الحائثة واستفتاهم في أمره وحرص القضاة على مجازاته فنزلوا من عند السلطان على أن يفعلوا معه الشرع.

وبلغ السفطي ذلك فخاف وأخذ في السعي في رضى السلطان وخدم بجملة مستكثرة ورضى السلطان عنه.

ثم تغير عليه وأخذ منه في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر ربيع الآخر عشرة آلاف دينار كانت له وديعة عند بعض القضاة فأخذها السلطان وهو مطالب بغيرها.

ثم في يوم الخميس رابع عشره أفحش السلطان في الحط على السفطي وبالغ في ذلك بحيث إنه قال: " هذا ليس له دين وهذا استحق القتل بما وقع منه في الأيمان الفاجرة بأن ليس له مال ثم ظهر له هذه الجمل الكثيرة وقد بلغني أن له عند شخص آخر وديعة مبلغ سبعة وعشرين ألف دينار " وظهر من كلام السلطان أنه يريد أخذها بل وأخذ روحه أيضًا كل ذلك مما يوغر أبو الخير النحاس خاطر السلطان عليه.

وبلغ السفطي جميع ما قاله السلطان فداخله لذلك من الرعب والخوف أمر عظيم ومع ذلك بلغني أن السفطي في تلك الليلة تزوج بكرًا ودخل بها واستبكرها فهذا دليل على عدم مروءته زيادة على ما كان عليه من البخل والطمع فإني لم أعلم أنه وقع لقاض من قضاة مصر ما وقع للسفطي من البهذلة والإخراق وأخذ ماله مع علمي بما وقع للهروي وغيره ومع هذا لم يحصل على أحد ما حصل على هذا المسكين فما هذا الزواج في هذا الوقت!.

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشرين شهر ربيع الآخر المذكور رسم بنفي يرعلي العجمي الخراساني المعزول عن الحسبة ثم شفع فيه المقر الجمالي ناظر الخواص فرسم له السلطان بلزوم داره بخانقاه سرياقوس وبرعلي هذا أيضًا من أعداء النحاس.

ثم في يوم السبت سلخه أنعم السلطان على أسندمر الجقمقي السلاح دار بإمرة عشرة بعد موت الأمير أركماس الأشقر المؤيدي.

ثم في يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى خلع السلطان على مملوكه الأمير أربك من ططخ الساقى باستقراره من جملة رؤوس النوب عوضًا عن أركماس الأشقر المقدم ذكره.

وفيه استقر الزيني عبد الرحمن بن الكويز أستاذار السلطان بدمشق عوضًا عن محمد بن أرغون شاه النوروزي بحكم وفاته.

ثم في يوم الأربعاء رابع جمادى الأولى المذكور استقر علي بن إسكندر أحد أصحاب النحاس في حسبة القاهرة وعزل ابن أقبرس عنها لتزايد الأسعار في جميع المأكولات.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الأولى المذكور خرجت تجريدة من القاهرة إلى البحيرة فيها نحو الأربعمئة مملوك وعدة أمراء ومقدم الجميع الأمير الكبير إينال العلاني الناصري وصحبه من الأمراء المقدمين تتم أمير مجلس وقاني باي الجاركسي أمير آخور وعدة آخر من الطبلخانات والعشرات.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشرينه عزل قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني الشافعي عن القضاء لسبب حكيناه في تاريخنا " حوادث الدهور " إذ هو كتاب ضبط حوادث ووفيات لا غير.

ثم أعيد قاضي القضاة علم الدين في يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة.

ثم في يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة سافر الأمير قانم من صفر خجا المؤيدي المعروف بالتاجر رسولاً إلى ابن عثمان متملك بلاد الروم صحبة قاصد ابن عثمان الواصل قبل تاريخه.

ثم في يوم السبت تاسع عشره رسم السلطان بنفي الأمير سودون السوداني الحاجب فشفع فيه فأمر السلطان بإقامته بالصحراء بطالاً.

وكان

▲ سبب نفي السوداني

أنه كان له مغل فكلمه علي بن إسكندر المحتسب في بيع نصفه وتخلية نصفه لقله وجود الغلال بالساحل فامتنع سودون السوداني من ذلك فشكاه أبو الخير النحاس للسلطان فأمر بنفيه.

وقد تقدم أن سودون السوداني هذا ضرب أبا الخير بالنحاس في يوم واحد علقتين ليخلص منه مال أبي العباس الوفاي.

ومن ظريف ما وقع لسودون السوداني هذا مع أبي الخير النحاس من قبل هذه الحادثة أو بعدها أنه لما صار من أمر أبي الخير ما صار خشيه سودون السوداني مما كان وقع منه في حقه قديمًا فأراد أن يزول ما عنده ليأمن شره فدخل إليه في بعض الأيام وقد جلس أبو الخير النحاس في دست رئاسته وبين به أصحابه وغالبهم لا يعرف ما وقع له مع سودون السوداني المذكور فلما استقر بسودون الجلوس أخذ في الاعتذار لأبي الخير فيما كان وقع منه بسلامة باطن على عادة مغفلي الأتراك وساق الحكاية في ذلك الملام من الناس من أولها إلى آخرها وأبو الخير ينقله من ذلك الكلام إلى كلام غيره ويقصد كفه عن الكلام بكل ما تصل قدرته إليه وهو لا يرجع عما هو فيه إلى أن استتم الحكاية وكان من جملة اعتذاره إليه أن قال له ما معناه: " والله يا سيدي القاضي أنا رأيتك شاب فقير من جملة الباعة وحرصوني عليك بأنك تأكل أموال الناس فما كنت أعرف أنك تصل إلى هذا الموصل في هذه المدة اليسيرة والله لو كنت أعرف أنك تبقى رئيس لكنت وزنت عنك المال ".

وشرع في اعتذار آخر وقد ملأ النحاس مما سمع من التوبيخ فاستدرك فارطه بأن قام على قدميه واعتنق السوداني وأظهر له أنه زال ما عنده وأوهم أنه يريد الدخول إلى حريمه حتى مضى عنه إلى حال سبيله وتحاكى الناس ذلك المجلس أيامًا كثيرة.

هذا ما بلغنا من بعض أصحاب النحاس وقد حكى غير واحد هذه الحكاية على عدة وجوه وليس هذا الأمر من أخبار تحرر وما ذكرناه إلا على سبيل الاستطراد - انتهى.

وفي هذه الأيام توقف ماء النيل عن الزيادة بل تناقص نقصًا فاحشًا ثم أخذ في زيادة ما نقصه فاضطرب الناس لذلك وتزايدت الأسعار إلى أن أبيع الإردب القمح بأربعمائة درهم.

ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشرينه وصل الأمير جانبك الظاهري نائب جدة وخلع السلطان عليه خلعة هائلة ونزل إلى داره وبين يديه وجوه الناس على كره من أبي الخير النحاس.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب خلع السلطان على الشيخ يحيى مناوي باستقراره قاضي قضاة الشافعية بعد عزل قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني.

ثم في يوم الخميس خامس عشره استقر الأمير برسباي الإينالي المؤيدي الأمير آخور الثالث أمير آخور ثانيًا بعد موت سودون أتمكجي وأنعم عليه بطيلخانته واستقر الأمير سنقر الظاهري الجعيدي أمير آخور ثالثًا وهو في التجريدة بالبحيرة.

ثم في يوم الثلاثاء عشرينه رسم السلطان بأن يكتب مرسوم شريف إلى دمشق بضرب الزيني عبد الرحمن بن الكويز وجبسه بقلعة دمشق وله سبب ذكرناه في " الحوادث " .

ثم في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رجب استقر علاء الدين بن آقبرس ناظر الأحباس بعد عزل قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني عنها لكبر سنه فلم يشكر ابن آقبرس على ما فعله لسعيه في ذلك سعيًا زائدًا وكان الأليق عدم ما فعله لأن مقام كل منهما معروف في العلم والقدر والرئاسة.

ثم في يوم الخميس تاسع عشرين شهر رجب المذكور جرت حادثة غريبة وهو أنه لما كان وقت الخدمة السلطانية أعني بعد طلوع الشمس بقدر عشرة درج وقفت العامة بشوارع القاهرة من داخل باب زويلة إلى تحت القلعة وهم يستغيثون ويصرخون بالسب واللعن ويهددون بالقتل ولا يدري أحد ما الخبر لعظم الغوغاء إلى أن اجتاز علي بن إسكندر محتسب القاهرة فلما رآوه أخذوا في زيادة ما هم فيه وحطوا أيديهم في الرجم فرحموه من باب زويلة إلى أن وصل باب القلعة أو غيرها بعد أن شبعوه سبًا وتوبيخًا بألفاظ يستحى من ذكرها.

فلما نجا علي منهم وطلع إلى القلعة استمروا على ما هم عليه بالشوارع وقد انضم عليهم جماعة كثيرة من المماليك السلطانية وهم على ما هم عليه غير أنهم صاروا يعرضون بذكر أبي الخير النحاس ووقفوا في انتظاره إلى أن يطلع إلى القلعة وكان عاداته لا يطلع إليها إلا بعد نزول أعيان الدولة.

وكان أبو الخير قد ركب من داره على عادته فعرفه بعض أصحابه بالحكاية فخرج من داره وسار من ظاهر القاهرة ليطلع إلى القلعة إلى أن وصل بالقرب من باب الوزير بلغ المماليك الذين هم في انتظاره أنه قد فاتهم فأطلقوا رؤوس خيولهم غارة والعامه خلفهم حتى وافوه في أثناء طريقه فأكل ما قسم له من الضرب بالدبابيس وانهزم أمامهم وهم في أثره والضرب يتناوله وحواشيه وهو عائد إلى جهة القاهرة.

وترك طلوع القلعة لينجو بنفسه واستمر على ذلك إلى أن وصل إلى جامع أصلم بخط سوق الغنم فضربه شخص من العامة على رأسه فصرعه عن فرسه ثم قام من صرخته ورمى بنفسه إلى بيت أصلم الذي بالقرب من جامع أصلم وهو يوم ذاك سكن يشبك الخاصكي الظاهري جقمق من طبقة الزمام.

ومن غريب يشبك هذا صاحب الدار إلى السلطان وشوش عليه غاية التشويش حتى أخذه أغاته الأمير فيروز الزمام وبعثه إلى أبي الخير النحاس على هيئة غير مرضية فصيح عنه أبو الخير خوفًا من خدائشيته لا تكررًا عليه والمقصود أن أبا الخير لما ضرب وطاح عن فرسه وكان الضارب له عبد أسود وأخذ عمامته من على رأسه فلما رأى أبو الخير نفسه في بيت يشبك المذكور هجمت العامة عليه ومعهم المماليك إلى بيت يشبك وكان غائبًا عن بيته وقبضوا عليه وأخذوا في ضربه والإخراق به وعروه جميع ما كان عليه حتى أخذوا أخفاه من رجليه.

واختلفت الأقوال في الإخراق به فمن الناس من قال: أركبوه حمارًا عريانًا وأشهره في البيت المذكور ومنهم من قال أعظم من ذلك ثم نجا منهم بعض من ساعده منهم وألقى بنفسه من حائط إلى موضع آخر فتبعوه أيضًا وأوقعوا به وهو معهم عريان وانتهبوا جميع ما كان في بيت يشبك المذكور.

ووصل يشبك إلى داره فما أبقى ممكنًا في مساعدة النحاس وما عسى يفعله مع السواد الأعظم وكان بلغ السلطان أمره فشق عليه ذلك إلى الغاية فأرسل إليه جانبك والي القاهرة نجدة فساق إليه حتى لحقه وقد أشرف على الهلاك وخلصه منهم وأراد أن يركبه فرسًا فما استطاع أبو الخير الركوب لعظم ما به من الضرب في رأسه ووجهه وسائر بدنه فأركبه عريانًا وعليه ما يستره على بغلة وأردفه بواحد من خلفه على البغلة المذكورة وتوجه به على تلك الهيئة إلى الأمير تمرغا الدوادار الثاني بالقرب من جامع سودون من زادة والعامة خلفه ينادونه بأنواع السب ويذكرون له فقره وإفلاسه وما قاساه من الذل والهوان أن وصل إلى بيت تمرغا المذكور بغير عمامة على رأسه فأجلسه تمرغا بمكان تحت مقعده واستمر به إلى الليل فقام وتوجه إلى داره مختفيًا خائفًا مرعوبًا.

وأنا أقول: لو مات أحد من شدة الضرب لمات أبو الخير المذكور في هذا.

كل ذلك بغير رضی السلطان لأن المماليك والعامة اتفقوا على أبي الخير شر وعلى الفتك به وقل أن يتفقوا على أمر.

فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة بالقاهرة لأنني ما رأيت ولا سمعت بمثل هذه الواقعة.

وقد سبق كثير من إخراق المماليك لرؤساء الدولة ونهب بيوتهم وأخذ أموالهم ومع هذا كله لم يقع منهم بعض ما وقع لأبي الخير هذا فإن جميع الناس قاطبة كانت عليه وكل منهم لا يريد إلا قتله وإتلافه.

وأنا أقول إنهم معذورون فيما يفعلونه لأنه كان بالأمس في البهموت من والذل والإفلاس وصار اليوم في الأوج من الرئاسة والمال والتقرب من السلطان.

ومع هذا الانتقال العظيم صار عنده شمم وتكبر حتى على من كان لا يرضي أقل غلمانه أن يستخدمه في أقل حوائجه.

وأما على من كان من أمثاله وأرباب صنعته فإنه لم يتكبر عليهم بل أخذ في أذاهم والإخراق بهم حتى أبادهم شرًا.

وأنا أتعجب غاية العجب من وضع يترأس ثم يأخذ في التكبر على أرباب البيوت وأصحاب الرئاسة الضخمة فما عساه يقول في نفسه! والله العظيم إنني كنت إذا دخل علي الفقيه الذي أقرأني القرآن في صغري على أن بضاعته من العلوم كان مزجاة أستحي أن أتكلم بين يديه بفضيلة أو علم من العلوم لكونه كان يعرفني صغيرًا لا فقيرًا فكيف حال هؤلاء مع الناس كانوا يرتجون خدمة أصاغر خدمهم فليس هذا إلا عظم الوقاحة وغلبة الجنون لا غير - انتهى.

ثم في يوم السبت ثاني شعبان عزل السلطان علي بن إسكندر عن حسبة القاهرة ورسم لزين الدين يحيى الأستاذار بالتكلم فيها فباشر زين الدين الحسبة من غير أن يلبس لها خلعة وكانت سيرة علي بن إسكندر ساءت في الحسبة إلى الغاية.

وأما أبو الخير النحاس فإنه استمر في داره إلى يوم الاثنين ثالث شعبان طلع إلى القلعة وخلع السلطان عليه كاملية مخمل أحمر بمقلب سمور.

ونزل إلى داره وهو في وجل من شدة رعبه من المماليك والعامية لكنه شق القاهرة في نزوله ولم يسلم من الكلام وصار بعض العامة يقول: " أيش هذه البرودة! " فيقول الآخر: " إذا اشتهيت أن تضحك على الأسمر لبسه أحمر! "

هذا وأبو الخير يسلم في طريقه على الناس من العامة وغيرها فمنهم من يرد سلامه ومنهم من لا يرد سلامه ومنهم من يقول بعد أو يولي بأقوى صوته: " خيرتك وإلا ينحسوها " أعني رقبته.

ولم ينزل معه أحد من أرباب الدولة إلا المقر الجمالي ناظر الخواص الشريفة قصد بنزوله معه أمورًا لا تخفى على أرباب الذوق السليم لأنه لم يؤهله قبل ذلك لأمر من الأمور فما نزوله الآن معه وقد وقع في حقه ما وقع.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر شعبان قدم الأمراء من تجريدة البحيرة صحبة الأمير الكبير إينال العلاني وخلع السلطان علي أعيانهم الثلاثة الأمير الكبير إينال وتنم المؤيدي أمير مجلس وقاني باي الجاركسي الأمير أخور.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشر شعبان برز الأمير جرباش الكريمي الظاهري برفوق أمير سلاح إلى بركة الحاج على هيئة الرجبية وصحبته قاضي القضاة بدر الدين بن عبد المنعم الحنبلي والزيني عبد الباسط بن خليل الدمشقي وجماعة كثيرة من الناس.

ثم في يوم السبت سابع شهر رمضان اختفى السفطي فلم يعرف له مكان بعد أمور وقعت له مع قاسم الكاشف فعمل السلطان في يوم الاثنين سادس عشره عقد مجلس بين يديه بالقضاة والعلماء بسبب حمام السفطي وظهر السفطي من اختفائه وحضر المجلس وانفصل عقد ثم في يوم الخميس سابع عشر شوال برز أمير حاج المحمل فيروز النوروزي الزمام الخازندار بالمحمل وأمير الركب الأول الأمير تمرغا الظاهري الدوادار الثاني.

وحج في هذه السنة من الأعيان الأمير طوخ من تمراز المعروف بيني بازق أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية ويني بازق باللغة التركية: أي غليظ الرقبة.

وخرج تمراز البيكتمري المؤيدي المصارع صحية الحاج واستقر في مشدية بندر جدة عوضًا عن الأمير جانبك الظاهري حسبما ذكره من أمره فيما يأتي مفصلاً إن شاء الله تعالى.

ثم في يوم السبت تاسع عشره استقر القاضي ولي الدين الأسيوطي في مشيخة المدرسة الجمالية بعد تسحب ولي الدين السفطي واختفائه.

ثم في يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة استقر الأمير جانبك البشبيكي والي القاهرة في حسبة القاهرة مضافاً لما معه من الولاية وشهد الدواوين والحجوية وجانبك هذا أحد من رقاہ المقر الصاحبى ناظر الخاص المقدم ذكره.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرين في القعدة أيضاً نودي بالقاهرة علي ولي الدين السفطي بأن من أحضره إلى السلطان يكون له مائة دينار وهدد كل أخفاه بعد ذلك بالعقوبة والنكال.

ثم في يوم الخميس ثامن ذي الحجة وصل الأمير يشبك الصوفي المؤيدي نائب طرابلس إلى القاهرة وطلع إلى القلعة وقبل الأرض فحال وقوفه رسم السلطان بتوجهه إلى ثغر دمياط بطالاً وذلك لسوء سيرته في أهل طرابلس.

وفي عزل السلطان الأمير علان جلق المؤيدي عن حجوية حلب لشكوى الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حلب عليه ثم انتقض ذلك واستمر علان على وظيفته.

ووقع في هذه السنة - أعني ثلاث وخمسين - غريبة وهي أنه مات فيها من ذوات الأرع مثل الأغنام والأبقار وغيرها شيء كثير من عدم العلوقة لغلو الأسعار والفناء فأيقن كل أحد بتزايد أثمان الأضحية فلما كان العشر الأول من ذي الحجة وصل إلى القاهرة من البقر والغنم شيء كثير حتى أبيعت بأبخسر الأثمان.

ثم في يوم تاسع عشر ذي الحجة المذكور سمر نجم الدين أيوب بن بشارة وطيف به ثم وسط من يومه ووسط معه شخص آخر من أصحابه.

وقد ذكرنا سبب القبض عليه وما وقع له من تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " إذ هو محله.

ثم في يوم السبت رابع عشرينه عزل السلطان الأمير علان المؤيدي عن حجوية حجاب حلب لأمر وقع بينه وبين نائب حلب الأمير قاني باي الحمزاوي ورسم بتوجه علان المذكور إلى مدينة طرابلس بطالاً واستقر عوضه في حجوية حلب قاسم بن جمعة القساسي وأنعم بإقطاع قاسم على الأمير جانبك المؤيدي المعروف بشيخ المعزول أيضاً عن حجوية حلب قبل تاريخه والإقطاع إمرة خاناه بدمشق.

وفيه رسم السلطان لماماي السيفي ببيغا المظفري أحد الدودارية الصغار بالتوجه إلى ثغر دمياط وأخذ الأمير يشبك الصوفي منه وتحبسه بثر الإسكندرية مقيداً ووقع ذلك.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين ذي الحجة رسم باستقرار الأمير يشبك النوروزي حاجب حجاب دمشق في نيابة طرابلس عوضاً عن يشبك الصوفي المقبوض عليه قبل تاريخه وولاية يشبك المذكور طرابلس على مال كبير بذله له وحمل إليه التقليد والتشريف بنيابة طرابلس الأمير أسنباي الجمالي الساقى الظاهري جقمق ورسم السلطان بإعادة الأمير جانبك الناصري إلى حجوية دمشق عوضاً يشبك النوروزي.

وفرغت هذه السنة والديار المصرية في غاية ما يكون من غلو الأسعار.
وفي هذه السنة أيضًا ورد الخبر بوقوع خسف بين أرض سيس وطرسوس ولم أتتحقق.
مقدار الأرض التي خسفت.

وفيها أيضًا كان فراغ مدرسة زين الدين الأستاذار بخط بولاق على النيل ولم أدر
المصروف على بنائه من أي وجه ومن كان له شيء فله أجره.
واستهلت سنة أربع وخمسين وثمانمائة الموافقة لحادي عشرين مسرى والناس في جهد
وبلاء من غلو الأسعار وسعر القمح ثمانمائة درهم الإردب وقد ذكر سعر جميع المأكولات
في " حوادث الدهور " .

ولما كان يوم السبت أول محرم سنة أربع وخمسين المذكورة وصل الأمير بردبك
العجمي الحكمي المعزول عن نيابة حماة من ثغر دمياط وطلع إلى القلعة وأنعم
السلطان عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق.

وفي هذه الأيام وصلت إلى القاهرة

▲ رمة قاسم المؤذي الكاشف غريم السفطي

ليدفن بالقاهرة.

ثم في يوم الخميس ثالث عشر المحرم وصل الأمير جرباش الكريمي أمير سلاح من
الحجاز وتخلف قاضي القضاة بدر الدين الحنبلي عنه مع الركب الأول من الحاج.

وكان الزيني عبد الباسط بن خليل سبق الأمير جرباش من العقبة ودخل القاهرة قبل
تاريخه وخلع السلطان على جرباش المذكور كاملية بمقلب سمور وخرج من عند
السلطان ودخل إلى ابنته زوجة السلطان وهي يوم ذلك صاحبة القاعة الكبرى بالدور
السلطانية وسلم عليها ثم نزل إلى داره المعروفة بالبيت الكبير تجاه القلعة.

ثم في يوم الجمعة ثامن عشرينه عقد السلطان عقد مملوكه الأمير أزيك من ططخ على
ابنته من مطلقته خوند مغل بنت البارزي وكان العقد يقلعه الدهيشة بحضرة السلطان
بعد نزول ثم في يوم الخميس رابع شهر صفر استقر أبو الفتح الطيبي أحد أصحاب أبي
الخير النحاس في نظر جوالي دمشق ووكالة بيت المال بها على أنه يقوم في السنة
للخزانة الشريفة بخمسين ألف دينار على ما قيل وما سيأتي من خبر أبي الفتح فأعجب.

وفي هذه الأيام ظهر رجل من عبيد قاسم الكاشف وشهر بالصلاح وتردد الناس لزيارته
حتى جاوز أمره الحد وخشي على الناس من إتلاف عقائدهم فأمر السلطان الأمير تنبك
حاجب الحجاب أن يتوجه إليه ويضربه ويحبسه وصحبته جانبك الساقى والى القاهرة.

فلما دخلا عليه تهاون الأمير تنبك في ضربه خشية من صلاحه.

وبلغ السلطان ذلك فرسم بنفيه إلى ثغر دمياط بطالاً ومسفره جانبك الوالي وتولى
خشقدم الطواشي الظاهري الرومي ووالي القاهرة ضرب العبد المذكور وحبسه.

وقد أوضحت أمر هذا العبد وما وقع له في تاريخنا " الحوادث " فليُنظر هناك.

ثم رسم السلطان بعد مدة بقدم الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أحد المقدمين بدمشق إلى القاهرة واستقراره في حجوية الحجاب عوضًا عن تنبك المذكور ورسم للأمير علان المؤيدي المعزول عن حجوية حلب بإقطاع خشقدم المذكور بدمشق.

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشر صفر رسم السلطان بنقل الأمير جانم الأمير آخور قريب الملك الأشرف برسباي من القدس الشريف وحبسه بسجن الكرك.

وكان جانم المذكور حبس عدة سنسن ثم أطلق وجاور بمكة سنيات ثم سأل في القدوم إلى القدس فأجيب وقدمه فتكلم فيه بعض أعدائه إلى أن حبس بالكرك ثانيًا.

ثم في يوم الخميس ثامن عشر صفر قدم الأمير قانم التاجر المؤيدي من بلاد الروم إلى القاهرة.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشرين صفر المذكور نودي بالقاهرة بأن لا يلبس النصارى واليهود على رؤوسهم أكثر من سبعة أذرع من العمائم لكونهم تعدوا في ذلك وزادوا عن الحد وفي هذه الأيام تزايد أمر النحاس وطغى وتجبر ونسي ما وقع له من البهذلة والإخراق.

وفي يوم الاثنين رسم السلطان بالإفراج عن عبد قاسم الكاشف من حبس المقشرة وتوجهه إلى حيث شاء ولا يسكن القاهرة.

ثم في يوم السبت ثاني عشر شهر ربيع الأول ورد الخبر بموت الأمير شاد بك الحكمي المعزول عن نيابة حماة بالقدس بعد مرض طويل.

ثم في يوم الخميس سادس عشره وصل إلى القاهرة الأمير خشقدم المؤيدي من دمشق وقيل الأرض وأنعم عليه السلطان بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضًا عن تنبك البرديكي الحاجب بحكم نفيه إلى دمياط.

وفي هذا اليوم كان مهم الأمير أزيك وعرسه على بنت السلطان بالقاهرة في بيت خالها القاضي كمال الدين بن البارزي ولم يعمل بالقلعة.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول المذكور استقر خشقدم عوضًا عن تنبك المقدم ذكره في حجوية الحجاب.

ثم في يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على تمراز الأشرفي الزردكاش كان بإقطاع علي باي الساقى الأشرفي بحكم وفاته.

قلت: بنس البديل وإن كان كل منهما أشرفيًا فالفرق بينهما ظاهر.

وفي هذه الأيام عظم أمر النحاس حتى إنه ضاهى المقر الصاحبى ناظر الخواص في نفوذ الكلمة في الدولة لأمر صدرت بينهما يطول الشرح في ذكرها وليس لذلك فائدة ولا نتيجة وملخص ذلك أن أبا الخير عظم في الدولة حتى هابه كل أحد من عظماء الدولة إلا المقر الجمالي فأخذ أبو الخير يدبر في الباطن ويوغر خاطر السلطان عليه بأمر شتى ولم ينهض أن يحول السلطان عنه بسرعة لثبات قدمه في المملكة ولعظمه في النفوس.

كل ذلك والمقر الجمالي لا يتكلم في حقه عند السلطان بكلمة واحدة ولا يلتفت إلى ما هو فيه وأبو الخير في عمل جد مع السلطان في أمر الجمالي المذكور بكلتا يديه.

وبينما هو في ذلك أخذ الله من حيث لا يحتسب حسبما يأتي ذكره مفصلاً إن شاء تعالى.

ومن غريب الاتفاق أنه دخل عليه قيل محنة أبي الخير النحاس بمدة يسيرة رجل من أصحابه وأخذ في تعظيم المذكور وبالغ في أمره حتى قال إنه قد تم له كل شيء طلبه فأنشدته من باب المماجنة: المتقارب إذا تم أمر بدا نقصه توف زوالاً إذا قيل تم وافترقنا فلم تمض أيام حتى وقع من أمره ما وقع.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشر شهر ربيع الآخر المقدم ذكره نفى الأمير سودون الإينالي المؤيدي المعروف بقراقاش أحد أمراء العشرات ورأس نوبة لأمر مطول ذكرناه في " الحوادث " .

وفي هذه الأيام برز المرسوم الشريف بعزل الأمير بيغوت من صفر خجا المؤيدي الأعرج عن نيابة حماة لأمر مطولة ذكرناها في " الحوادث " من أولها إلى آخرها وإلى حضوره إلى القاهرة وما وقع له ببلاد الشرق وغيره.

ورسم للأمير سودون الأبوبكري المؤيدي أتاك حلب باستقراره عوضه في نيابة حماة وأنعم بأتابكية حلب على الأمير علي باي العجمي المؤيدي وأنعم بتقدمة علي باي المذكور على إينال الظاهري جقمق وقد نفى قبل تاريخه من الديار المصرية.

مبدأ نكبة أبي الخير النحاس على سبيل الاختصار ولما كان يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى من سنة أربع وخمسين المذكورة أحضر السلطان إلى بين يديه مماليك الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي أمير مجلس وعين منهم نحو العشرة ورسم بحبسهم بسجن المقشرة بسبب تجرئهم على أستاذهم المذكور وشكواهم عليهم.

فلما أصبح من الغد في يوم الاثنين ثاني عشره انفض الموكب السلطاني ونزل الأمير تنم المذكور صحبة الأتابك إينال العلاني وغيره من الأمراء فلما صاروا تجاه سوقة منعم احتاطت بهم المماليك السلطانية الجلبان وخشوا لتتم في القول بسبب شكواهم على مماليكه فأخذ الأتابك إينال في تسكينهم وضمن لهم خلاص المماليك المذكورة من حبس المقشرة فخلوا عنهم ورجعوا غارة إلى زين الدين يحيى الأستاذار فوافوه بعد نزوله من الخدمة بالقرب من جامع المارداني وتناولوه بالدبابيس فمن شدة الضرب ألقى بنفسه عن فرسه وهرب إلى أن أنجده الأمير أزيك الساقى والأمير جانبك اليشبكي الوالي وأركباه على فرسه وتوجه بها إلى داره.

فلما فات المماليك زين الدين رجعوا غارة إلى جهة القلعة ووقفوا تحت الطبلخاناه السلطانية بالصوة في انتظار أبي الخير النحاس.

وبلغ النحاس الخبر فمكث نهاره عند السلطان بالقلعة لا ينزل إلى داره.

فشق ذلك المماليك واتفقوا على نهب دار أبي الخير النحاس فساروا من وقتهم إلى على هيئة مزعجة فوجدوا باب داره قد غلقه مماليكه وأعوانه وقد وقفت مماليكه بأعلى بابه لمنع المماليك من الدخول فوقع بينهم بعض قتال ثم هجمت المماليك السلطانية على بابه الذي كان من بين السوريين وأطلقوا فيه النار واحترق الباب وما كان عليه من المباني.

ودخلوا إلى البيت وامتدت الأيدي النهب فما عفوا ولا كفوا وأخذوا من الأقمشة والأمتعة والصيني والتحف ما يطول الشرح في ذكره.

واستمرت النار تعمل في باب أبي الخير إلى أن اتصلت إلى عدة بيوت بجواره ولم تصل النار إلى داره لأنها كانت فوق الريح وأيضا كانت بالبعد عن الباب وهي الدار التي عمرها قديماً صلاح الدين بن نصر الله وانتقلت بعده إلى أقوام كثيرة حتى ملكها النحاس هذا وجددها وتناهى فيها.

ثم حضر والي القاهرة وغيره لطفي النار فطفت بعد جهدة ولما انتهى المماليك من النهب وعلموا أنه لم يبق بالدار ما يؤخذ توجهوا إلى حال سبيلهم وقد تركوا بيت النحاس خاليًا من جميع ما كان فيه بعد أن سلبوا حريمه جميع ما كان عليهن من الأقمشة وأفحشوا في أمرهن من الهتكة والجرجرة والهجم عليهن.

وعادوا من دار النحاس وشقوا باب زويلة وقد غلقت عدة حوانيت بالقاهرة لعظم ما هالهم من النهب في بيت النحاس فمضوا ولم يتعرضوا لأحد بسوء.

وباتوا تلك الليلة وأصبحوا يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى المذكور ووقفوا بالرملة محدقين بالقلعة مصممين على الفتك بأبي الخير النحاس وقد بات النحاس بالقلعة وطلبوا تسليمه من السلطان وعزل جو النوروزي عن مقدمة المماليك وعزل زين الدين الأستاذار عن الأستاذارية وانفض الموكب ونزل كل من الأعيان إلى داره في خفية ونزل الأمير تمرغا الظاهري الدوادار الثاني والأمير أربك الساقى وبردبك البجمقدار إلى نحو بيوتهم فلما صاروا بالرملة ضربوا عليهم المماليك الجلبان حلقة وكلموهم في عودهم إلى السلطان والتكلم معه في مصالحهم فقال لهم تمرغا: " ما هو غرضكم " قالوا: " عزل جوهر مقدم المماليك وتسليم غريمنا " يعنون النحاس.

فعاد تمرغا إلى القلعة من وقته وعرف السلطان بمقصودهم.

وكان الأمير الكبير إينال قد طلع باكر النهار إلى القلعة وصحبه الأمير أسنبغا الطياري رأس نوبة النوب وأما الأمير تتم فإنه كان طلع إلى القلعة من أمسه وبات بها في طبقة الزمام وأجمع رأيه أنه لا ينزل من القلعة إلى أن يفرج عن مماليكه المحبوسين خشية من المماليك الجلبان.

فلما طلع الأمير الكبير باكر النهار شفع في مماليك الأمير تتم فرسم بإطلاقهم.

ثم تكلم الأمير الكبير مع السلطان في الرضى عن المماليك الجلبان والسلطان مصمم على مقالته التي قالها بالأمس أنه يرسل ولده المقام الفخري عثمان وحريمه إلى الشام ويتوجه هو إلى حال سبيله فنهاه الأمير الكبير عن ذلك.

وقام السلطان ودخل إلى الدهيشة فكلمه بعض أمرائه أيضًا في أمرهم فشق ثوبه غيظًا منه ونزل الأمير الكبير ثم كان نزول تمرغا والمقصود أن تمرغا لما عاد إلى السلطان وعرفه قصد المماليك وقبل أن يتكلم سبقه بعض أمرائه وأظنه الأمير قراجا الخازندار وقال: " يجبر مولانا السلطان خاطر مماليكه بعزل المقدم وإخراج النحاس من القاهرة فانقاد السلطان إلى كلامه ورسم بعزل جوهر مقدم المماليك وتوجهه إلى المدينة الشريفة وإخراج النحاس إلى مكة المشرفة وعاد تمرغا إلى المماليك بهذا الخبر فرضوا وتوجه كل واحد إلى حال سبيله وتم ذلك إلى بعد الظهر من اليوم المذكور.

فلما كان بعد الظهر توجه جماعة من المماليك إلى الأمير أسنبغا الطياري رأس نوبة النوب وكلموه أن يطلع إلى السلطان ويطلب منه إنجاز ما وعدهم به من إخراج النحاس وعزل المقدم فركب أسنبغا من وقته وطلع إلى السلطان وكلمه في ذلك فلما سمع السلطان مقالة أسنبغا اشتد غضبه وطلب في الحال جوهرًا مقدم المماليك ونائبه مرجان

العادلي المحمودي وخلع عليهما باستقرارهما ورسم أن يكون النحاس على حاله أوّلاً
بالقاهرة ورسم للأمير تغري برمش اليشبيكي الزردكاش أن يستعد لقتال المماليك
الجلبان فخرج الزردكاش من وقته ونصب عدة مدافع على أبراج القلعة وصمم السلطان
على قتال مماليكه المذكورين.

وبلغ الأمراء ذلك فطلع منهم جماعة كبيرة إلى السلطان وأقاموا ساعة بالدهيشة إلى أن
أمرهم السلطان بالنزول إلى دورهم ونزلوا.

واستمر الحال إلى باكر يوم الأربعاء رابع عشره فجلس السلطان بالحوش على الدكة ثم
التفت إلى شخص من خاصكته وقال له: " ابن الذين قلت عنهم " فقال: " الآن يحضروا
" فقال السلطان: " انزل إليهم وأحضرهم " فنزل الرجل من وقته وقام السلطان إلى
الدهيشة ونزل المذكور إلى المماليك وأخذ منهم جماعة كبيرة وطلع بهم إلى السلطان
فلما مثلوا بين يديه قال لهم: " عفوت عنكم امضوا إلى أطباقكم " فلم يتكلم أحد منهم
بكلمة.

واستمر أبو الخير بالقلعة خائفاً من النزول إلى داره وقد أشيع سفره إلى الحجاز إلى أن
كان يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى نزل أبو الخير إلى داره على حين غفلة
قبل العصر بنحو خمس درج وانحاز بداره وقفل الباب عليه إلى يوم الأربعاء حادي
عشرينه فوصل البلاطنسي من دمشق وطلع إلى السلطان وشكا على أبي الفتح الطيبي
الذي ولي وكالة بيت مال دمشق بسفارة النحاس وذكر عنه عظام فعزله السلطان
ورسم بحضوره إلى القاهرة في جنزير ورسم لأبي الخير النحاس بالسفر إلى المدينة
الشريفة ونزل البلاطنسي من القلعة بعد أن أكرمه السلطان وحصل على مقصوده من
عزل أبي الفتح الطيبي.

ورسم السلطان لأبي الخير المذكور أن يكتب جميع موجوده ويرسله إلى السلطان من
الغد ورسم أيضاً بعمل حسابه.

وتردد إليه الصفوي جوهر الساقى كل قبل السلطان غير مرة وكثر الكلام بسببه فقلق
النحاس من ذلك غاية القلق وعلم بزوال أمره.

فأصبح من الغد في يوم الخميس ثاني عشرينه طلع إلى القلعة في الغلس من غير إذن
السلطان واختفى بالقلعة في مكان إلى أن انفض الموكب فتحيل حتى دخل على
السلطان واجتمع به.

ثم نزل من وقته وقد أصلح ما كان فسد من أمره وأنعم له السلطان بموجوده وترك له
جميع ما كان عزم على أخذه.

واستمر بداره وقد هابته الناس وكثر ترددهم إليه.

ورسم بإبطال ما كان رسم به من عزل أبي الفتح الطيبي وإحضاره وأمر البلاطنسي
بالسفر إلى دمشق بعد أن لهج الناس بحبسه في سجن المقشرة فتحقق الناس بهذا
الأمر ميل السلطان لأبي الخير وكف جميع أعداء النحاس عن الكلام في أمره مع
السلطان.

واستمر بداره والناس تتردد إليه إلى يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى المذكور
رسم السلطان لجوهر الساقى بنزوله إلى أبي الخير النحاس ومعه نقيب الجيش ويمضيا
به إلى بيت قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي الشافعي ليدعي عليه التاجر شرف

الدين موسى التتائي الأنصاري بمجلس الشرع بدعاو كثيرة ورسم السلطان لجوهر أن يحتاط بعد ذلك على جميع موجوده.

فنزل جوهر المذكور من وقته إلى أبي الخير النحاس وأخرجه من داره ماشيًا ممسوكًا مع نقيب الجيش وقد ازدحم الناس على بابهِ للتفرج عليه والفتك به فحماه جوهر ومن معه من المماليك منهم وأخذه ومضى.

وانطلقت الألسن إليه بالسب واللعن والتوبيخ وجوهر يكفهم عنه ساعة بعد ساعة وهم خلفه وأمامه وهو مار في طريقه ماشيًا إلى أن وصل بيت القاضي المذكور بسويقة صاحب من القاهرة وأدخلوه إلى المدرسة صاحبية محتفظًا به مع رسل الشرع.

وعاد جوهر الساقى وشرف الدين التتائي إلى الحوطة على موجود أبي الخير النحاس بداره وحواصله.

ووجدت العامة بغياب جوهر فرصة إلى الدخول على أبي الخير المذكور فهجموا عليه وأخذوه من أيدي الرسل وضربوه ضربًا مبرحًا فصاحت رسل الشرع عليهم وأخذوه من أيديهم وهربوه إلى مكان بالمدرسة المذكورة.

وأعلموا القاضي بذلك فأرسل القاضي خلف الأمير جانبك والي القاهرة حتى حضر وقدر على إخراجهم من المدرسة المذكورة إلى بيت القاضي وادعى شرف الدين التتائي عليه بدعاو يطول الشرح في ذكرها.

والسبب الموجب لهذه القضية أن أبا الخير النحاس لما وقع له ما وقع وأقام بالقلعة من يوم الاثنين إلى يوم الخميس ثم نزل قبيل العصر إلى داره بقي الناس في أمره على قسمين: فمن الناس من لا سلم عليه ولا راعاه ومنهم من صار يترحمه ويتردد إليه.

ودام على ذلك إلى أن طلع أبو الخير إلى السلطان من غير إذن وأصلح ما كان فسد من أمره ونزل إلى داره وقد وقع بينه وبين وسبب ذلك أن شرف الدين كان في هذه المدة هو رسول النحاس إلى السلطان ومهما كان للنحاس من الحوائج يقضيها له عند السلطان فظهر لأبي الخير المذكور بطلوعه إلى القلعة في ذلك اليوم أن شرف الدين ليس هو له بصاحب وأنه ينقل عنه إلى السلطان ما ليس هو مقصوده بل ينهي عنه ما فيه دماره فنزل إلى شرف الدين وأظهر له المباينة وتوعده بأمور إن طالت يده فانتدب عند ذلك شرف الدين له ودبر عليه وساعده المقادير مع بغض الناس قاطبة له حتى وقع ما حكيناه وادعى عليه بدعاو كثيرة.

واستمر أبو الخير في بيت القاضي شرف الدين في الترسيم وهو يسمع من العامة والناس من أنواع البهدة والسبب ما لا مزيد عليه مواجهة بل يزدحمون على باب القاضي لرؤيته وصارت تلك الحارة كبعض المفترجات لعظم سرور الناس لما وقع لأبي الخير المذكور حتى النساء وأهل الذمة.

وأصبح من الغد نهار الجمعة طلب السلطان خيوله ومماليكه فطلعوا بهم في الحال بعد أن شقوا بهم القاهرة وازدحم الناس لرؤيتهم فكانت عدة الخيول نيقًا على أربعين فرسًا منها بغال أزيد من عشرة والباقي خيول خاص هائلة والمماليك نحو من عشرين نفرًا.

واستمر شرف الدين يتتبع آثاره وحواصله هذا بعد أن أشهد على أبي الخير المذكور أن جميع ما يملكه من الأملاك والذخائر والأمتعة والقماش وغير ذلك هو ملك السلطان الملك الظاهر دون ملكه ثم في يوم السبت أول جمادى الآخرة رسم بفتح حواصل أبي

الخير ففتحت فوجد فيها من الذهب العين نحو سبعة عشر ألف دينار ووجد له من الأقمشة والتحف والقرقلاط التي يرسم الحرب والصيني الهائل والكتب النفيسة أشياء كثيرة ووجد له حجج مكتوبة على جماعة بنحو ثلاثين ألف دينار.

فحمل الذهب العين إلى السلطان وبعض الأشياء المستظرفة وختم على الباقي حتى تباع.

ودام شرف الدين في الفحص على موجوده.

وأخرج السلطان جميع تعلقات النحاس من الإقطاعات والحمايات والمستأجرات وغير ذلك.

ثم في يوم الأحد ثاني جمادى الآخرة خلع السلطان على المقر الجمالي ناظر الخواص وعلى زين الدين الأستاذار خلعتي الاستمرار.

وخلع على شرف الدين موسى التتائي باستقراره في جميع وظائف أبي الخير النحاس وهم عدة وظائف ما بين نظر البيمارستان المنصوري ونظر الجوالي ونظر الكسوة ووكالة بيت المال ونظر خانقاه سعيد السعداء ووكيل السلطان ووظائف آخر دينية ومباشرات ولبس شرف الدين خفًا ومهمازًا وتولى جميع هذه الوظائف عوضًا عن أبي الخير دفعة واحدة.

قلت: وما أحسن قول المتنبي في المعنى: " الطويل "

بدا قضت الأيام ما بين أهلها ** مصائب قوم عند قوم فوائد

هذا والفقهاء والمتعممون قد ألزموهم المماليك الجلبان بعدم ركوب الخيل بحيث إنه لم يستجر أحد منهم أن يعلو على ظهر فرس إلا أعيان مباشري الدولة وجميع من عداهم قد ابتاعوا البغال وركبوها حتى تزايد لذلك سعر البغال إلى أمثال ما كان أولًا.

ثم أمر السلطان في اليوم المذكور بنقل أبي الخير النحاس من بيت القاضي الشافعي يحيى المناوي من سويقة الصاحب إلى بيت المالكي ولي الدين السنباطي بالحرب الأصفر ليدعى عليه عند القاضي المذكور بدعاو.

فأخذه والي القاهرة ومضى به من بيت القاضي الشافعي إلى بيت المالكي وقد أركبه حمائرًا وشق به القاهرة والناس صفوف وجلس بالشوارع والدكاكين وهم ما بين شامت وضاحك ثم باك فاما الشامت فهو من آذاه وظلمه والضاحك من كان يعرفه قديمًا ثم ترفع عليه والباكي معتبر بما وقع له من ارتفاعه ثم هبوطه قلت: وقد قيل في الأمثال: " على قدر الصعود يكون الهبوط "

وسار به الوالي على تلك الهيئة إلى أن أدخله إلى بيت القاضي المالكي.

وإدعى عليه السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن المصباح دلال العقارات بدعوى شنعة أوجبت وضع الجنزير في رقبة أبي الخير النحاس بعد أن كتب محضرًا بكفره.

وأقام الشريف البينة عند القاضي المالكي بذلك فلم يقبل القاضي بعض البينة.

واستمر أبو الخير في بيت القاضي في الترسيم على صفة نسأل الله السلامة من زوال النعم إلى عصر يومه فنقل إلى حبس الديلم على حمار وفي رقبتة الجنزير ومر بتلك الحالة من الشارع الأعظم وعليه من الذل والصغار ما أحوج أعداءه الرحمة عليه وحاله كقول القائل: " السريع " لم يبق إلا نفس خافت ومقلة إنسانها باهت يرثي له الشامت مما به يا ويح من يرثي له الشامت قلت: وأحسن من هذا قول من قال: مجزوء الكامل يا من علا وعلوه أعجوبة بين البشر غلط الزمان برفع قد - - رك ثم حطك واعتذر ويعجيني أيضًا في هذا المعنى قول القائل: البسيط لو أنصفوا أنصفوا لكن بغوا فبغى عليهم فكان العز لم يكن جاد الزمان بصفو ثم كدره هذا بذاك ولا عتب على الزمن وقد سقنا أحوال أبي الخير هذا في ترجمته في تاريخنا " المنهل الصافي المستوفى بعد الوافي " بأوسع من هذا إذ سياق الكلام منتظم مع سياقه في محل واحد وأيضًا قد حررنا أموره بأضبط من هذا في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " إذ هو موضوع لتحرير الوقائع وما ذكرناه هنا على سبيل الاستطراد من شيء إلى شيء.

واستمر أبو الخير بسجن الديلم إلى ما يأتي ذكره من خروجه من السجن ونفيه ثم حبسه وجميع ما وقع له إلى يومنا هذا إن شاء الله تعالى.

وفي يوم حبس النحاس بحبس الديلم ظهر القاضي ولي الدين السفطي من اختفائه نحو ثمانية أشهر وسبعة أيام وطلع من الغد في يوم الخميس سادس جمادى الآخرة إلى السلطان فأكرمه السلطان ونزل إلى داره.

ثم في يوم السبت ثامن نذب السلطان إينال الأشرفي المتفقه ليتوجه إلى دمشق لكشف أخبار أبي الفتح الطيبي والفحص عن أمره.

وفي هذه الأيام ترادفت الأخبار من حلب وغيرها بمسير جهان شاه بن يوسف صاحب تبريز على معز الدين جهان كير بن علي بك بن قرايلك صاحب آمد وأن جهان كير ليس له ملجأ إلا القدوم إلى البلاد الحلبية مستجيرًا سلطان وأن جهان شاه يتبعه حيثما توجه فتخوف أهل حلب من هذا الخبر ونزح منها جماعة كثيرة وغلا بها ثمن ذوات الأربع لأجل السفر منها.

ومدلول هذه الحكايات طلب عسكر يخرج من الديار المصرية إلى البلاد الشاميه فأوهم السلطان بخروج تجريدة ثم فتر عزمه عن ذلك.

وفي هذه الأيام

▲ أشيع بالقاهرة أن أبا الخير النحاس قد تجنن في سجنه

وأنه صار يخلط في كلامه.

قلت: وحق له أن يتجنن فإنه كان في شيء ثم صار في شيء ثم عاد إلى أسفل ما كان وهو أنه كان أولًا فقيرًا مملقًا متحيلًا على الرزق دائرًا على قدميه في النزاه والأوقات ثم وافته السعادة على حين غفلة حتى نال منها حظًا كبيرًا ثم حطه الدهر يدًا واحدة فصار في الحبس وفي رقبتة الجنزير يترقب ضرب الرقبة بعدما وقع له من الإخراق والبهذلة وشماتة الأعداء وأخذ أمواله ما وقع فهو معذور: دعوه يتجنن ويتفنن في جنونه.

ثم في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة استعاث الشريف غريم النحاس على رؤوس الأشهاد وقال: " قد ثبت الكفر على غريمي النحاس وأقيمت البينة والقاضي لا يحكم بموجب كفره وضرب رقبتة " وكان الشريف هذا قد وقف إلى السلطان قبل

تاريخه وذكر نوعًا من هذا الكلام فرسم السلطان للقاضي المالكي أنه إن ثبت على أبي الخير المذكور كفر فليضرب رقبتة بالشرع ولا يلتفت لما بقي عنه من مال السلطان فإن حق النبي صلى الله عليه وسلم أبداً من حق السلطان.

فلما سمع الشريف ذلك اجتهد غاية الاجتهاد والقاضي يتثبت في أمره ثم بلغ القاضي المالكي مقالة الشريف هذه فركب وطلع إلى السلطان واجتمع به وكلمه في أمر النحاس فأعاد السلطان عليه الكلام كمقالته أولاً وقال له كلامًا معناه أن هذا " أمره راجع إليك ومهما كان الشرع افعله معه ولا تتعوق لمعنى من المعاني " فقال القاضي المالكي: " يا مولانا السلطان قد فوضت هذه الدعوى لنائبى القاضي كمال الدين بن عبد الغفار فهو ينظر فيها بحكم الله تعالى " وانفض المجلس.

وكان السلطان قد أرسل في أول هذا النهار جوهرًا التركماني الطواشي إلى أبي الخير النحاس يسأله عن الأموال ويهدده بالضرب وبالنكال فلم يلتفت أبو الخير إلى ما جاء فيه جوهر وقال: " قد أخذ السلطان جميع مالي وما بقي فهو يباع في كل يوم ".

ثم أخذ أمر الشريف المدعي على أبي الخير النحاس في انحلال من كون القاضي الشافعي أثبت فسق القاضي عز الدين البساطي أحد نواب الحكم المالكي وهو أحد من شهد على أبي الخير المذكور لأمر من الأمور ولا نعرف على الرجل إلا خيرًا.

ووقع بسبب ذلك أمور وعقد مجالس بالقضاة بحضرة السلطان وآل الأمر على أن السلطان حبس الشريف والشهود في الحبس بالمقشرة وتراجع أمر أبي الخير النحاس بعدما أرجف بضرب رقبتة غير مرة.

ثم رسم السلطان في اليوم الذي حبس فيه الجماعة المذكورة بإخراج أبي الخير النحاس من حبس الديلم وتوجهه إلى بيت قاضي القضاة الشافعي فأخرجه الوالي من سجن الديلم مجنزراً بين يديه وشق به الشارع وهو راكب خلفه ماش على قدر مشية النحاس إلى أن أوصله إلى بيت القاضي الشافعي بخط سويقة صاحب وقد ازدحمت الناس لرؤيته وكان الوقت قبيل العصر بنحو العشر درج ومر أبو الخير على مواضع كان يمر بها في موكبها أيام عزه والناس بين يديه وبالجملة فخروجه الآن من حبس الديلم خير من توجهه إليه من بيت القاضي المالكي والمراد به الآن خير مما كان يراد به يوم ذاك.

ولما وصل أبو الخير إلى بيت القاضي الشافعي أسلمه والي القاهرة إليه فأمر القاضي في الوقت برفع الجنزير من عنقه.

ثم قام بعد ساعة شخص وادعى على أبي الخير بدعاو كثيرة شنعة اعترف أبو الخير ببعضها وسكت عن البعض فحكم القاضي عند ذلك بإسلامه وحقق دمه وفعل ما وجب عليه من التعزير بمقتضى مذهبه.

وسلمت مهجته بعد أن أيقن كل أحد بسفك دمه وذهاب روحه وذلك لعدم أهلية أخصامه وضعف شوكتهم وعدم مساعدة المقر الجمالي لهم على قتله فإنه لم يتكلم في أمره من يوم أمسك إلا فيما يتعلق به من شأنه ولم يداخلهم فيما هم فيه البتة مع أنه كان لا يكره ذلك لو وقع غير أنه لم يتصد لهذا الأمر في الظاهر بالكلية احتفاظاً لرئاسته ودينه.

وأنا أقول: لو كان أمر النحاس هذا مع ذلك الجزار جمال الدين الأستاذار أو غيره من أمثاله لألحقوه بمن تقدمه من الأمم السالفة ولكن " لكل أجل كتاب ".

وبعد أن عزره القاضي أمر بالترسيم عليه حتى يتخلص من تعلقات السلطنة.

ثم في يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الآخرة رسم السلطان بالإفراج الشريف غريم النحاس وعن الشهود من حبس المقشرة ورسم بنفي النحاس إلى مدينة طرسوس محتفظًا به وأنه يقيد ويجنزر من خانقاه سرياقوس فمض جانبك الوالي إليه وأخرجه من بيت القاضي الشافعي راكبًا على فرس في الثلث الأول من ليلة السبت تاسع عشرينه وذلك بعد أن حلف أبو الخير المذكور أمسه يمينًا مغلطًا بمجلس قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي أنه لم يبق معه شيء من المال غير مبلغ يسير جدًا برسم النفقة وأنه صار فقيرًا لا يملك قل ولا جل فسبحان المطلع على السرائر.

وفرغ هذا الشهر والناس في جهد وبلاء من غلو الأسعار في جميع المأكولات وتزايد أثمان البغال لكثرة طلابها من الفقهاء والمتعممين لشدة المماليك الجلبان في منعهم من ركوب الخيل.

ثم في يوم الخميس رابع شهر رجب برز الأمير سونجغا اليونسي الناصر من القاهرة إلى بركة الحاج أمير الرجبية وسافر في الركب المذكور الأمير جرباش المحمدي الناصري المعروف بكرد أحد مقدمي الألوف وصحبته زوجته خوند شقراء بنت الملك الناصر فرج و عيالهما وسافر معه أيضًا الأمير تغري برممش السيفي يشبك بن أزدمر الزردكاش أحد أمراء الطبلخانات وعدة كبيرة من أعيان الناس وغيرهم وسافر الجميع في يوم الاثنين ثامن.

ثم في يوم الأحد رابع شهر رجب الموافق لسلخ مسرى أحد شهور القبط أمر السلطان الشيخ عليًا المحتسب أن يطوف في شوارع القاهرة وبين يديه المدراء يعلمون الناس بأن في غد يكون الاستسقاء بالصحراء لتوقف النيل عن الزيادة.

وأصبح من الغد في يوم الاثنين خامس عشره وهو أول يوم من أيام النسب خرج قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي إلى الصحراء ماشيًا من داره بين الخلائق من الفقهاء والفقراء والصوفية إلى أن وقف بين تربة الملك الظاهر برقوق وبين قبة النصر قريبًا من الجبل ونصب له هناك منبر.

وحضر الخليفة وبقية القضاة وصاروا في جمع موفور من العالم من سائر الطوائف وخرجت اليهود والنصارى بكتبهم.

وصلى قاضي القضاة المذكور بجماعة من الناس ركعتين خفيفتين ودعا الله سبحانه وتعالى بإجراء النيل وأمن الناس على دعائه وعظم ضجيج الخلائق من البكاء والنحيب والتضرع إلى الله تعالى ودام ذلك من بعد طلوع الشمس إلى آخر الساعة الثانية من النهار المذكور ثم انصرفوا على ما هم عليه من الدعاء والابتهاال إلى الله تعالى فكان هذا اليوم من الأيام التي لم نعهد بمثلها.

وفي هذا اليوم ورد كتاب خير بك النوروزي نائب غزة يتضمن أن أبا الخير النحاس توعك وأنه يسأل أن يقيم بغزة إلى أن ينصل من مرضه ثم يسافر إلى طرسوس فكتب الجواب إليه ثم في يوم الخميس ثامن عشره خرج الخليفة والقضاة الأربعة إلى الاستسقاء ثانيًا بالمكان المذكور وخرجت الخلائق وصلى القاضي الشافعي وخطب خطبة طويلة وقد امتلأ الفضاء بالعالم وطال وقوف الناس في الدعاء في هذا اليوم بخلاف يوم الاثنين.

وبينما الناس بدعائهم ورد منادي البحر ونادي بزيادة أصعب واحد من النقص فسر الناس بذلك سرورًا عظيمًا ثم انفض الجمع.

وعادوا إلى الاستسقاء أيضًا من الغد في يوم الجمعة ثالث مرة وخطب القاضي على عاتقه فتنشأه الناس بوقوع خطبتين في يوم واحد فلم يقع إلا الخيم والسلامة من جهة الملك.

واستمر البحر في زيادة ونقص إلى يوم الخميس عاش شعبان الموافق لعشرين توت فأجمع رأي السلطان على فتح خليج السد من غير تخليق المقياس وقد بقي على الوفاء ثمانية أصابع لتكملة ستة عشر ذراعًا.

فنزل والي القاهرة ومعه بعض أعوانه وفتح سد الخليج ومشى الماء في الخلجان مشيًا هينًا فكان هذا اليوم من الأيام العجيبة من كثرة بكاء الناس ونحيبهم ومما هالهم من أمر هذا النيل.

وقد استوعبنا أمر زيادته من أوله إلى آخره في تاريخنا " حوادث الدهور " وما وقع بسببه من التوجه إلى المقياس بالقراء والفقهاء مرارًا وكذلك إلى الآثار النبوي وتكالب الناس على الغلال ونهب الأرغفة من على الحوانيت وأشياء كثيرة من هذا النموذج يطول الشرح في وفي هذه الأيام ورد الخبر على السلطان بفرار تمراز البكتمري المؤيدي المصارع شاد بندر جدة من جدة إلى جهة الهند وكان من خبره أن تمراز لما سار واستولى على ما تحصل من البندر من العشر من الذي خص السلطان بد له أن يأخذ جميع ما تحصل عنه ويتوجه إله الهند عاصيًا على السلطان فاشترى مركبًا مرويًا بألف دينار من شخص يسمى يوسف البرصاوي وأشحنها بالسلاح والرجال يوهم أنه ينزل فيها ويعود بما تحصل معه إلى مصر.

فلما تهيأ أمره أخذ جميع ما تحصل من المال وهو نحو الثلاثين ألف دينار وسافر إلى جهة اليمن.

وبلغ السلطان ذلك من كتاب الشريف بركات صاحب مكة فعظم ذلك على الناس وعد ولاية تمراز هذا من جملة ذنوب النحاس ثم طلب السلطان مملوكه الأمير جانبك الظاهري وخلع عليه باستقراره على التكلم على بندر جدة على عادته ليقوم بهذا الأمر المهم الذي ليس في المملكة من ينهض به غيره وأعني من تمراز والفحص عليه والاجتهاد في تحصيله وتجهز الأمير جانبك وخرج إلى البندر على عادته بأجمل زي وأعظم حرمة وأما تمراز فإنه لما سافر من بندر جدة إلى جهة بلاد الهند صار كلما أتى إلى بلد ليقوم به تستغيث تجار تلك البلد بحاكمها ويقولون: " أموالنا بجدة ومتى ما علم صاحب جدة أنه عندنا أخذ جميع مالنا بسبب دخول تمراز هذا عندنا فإنه قد أخذ مال السلطان وفر من جدة " فيطرده حاكم تلك البلد.

ووقع له ذلك بعدة بلاد وتحير في أمره وبلغ مسيره على ظهر البحر ستة أشهر.

فعندما عاين الهلاك أرمي بنفسه بجميع ما معه " في مركبه إلى مدينة كالكويت - وحاكم كالكويت سامري وجميع أهل البلد سمرة وبها تجار غير سمرة وأكثرهم من المسلمين - فنار التجار واستغاثوا بالسامري وقالوا له مثل مقالة غيرهم كل ذلك مراعاة لجهة جانبك نائب جدة.

وكنت أستبعد أنا ذلك إلى أن أوقفني مرة الأمير جانبك المذكور على عدة مطالعات وردت عليه من السامري المذكور وكل كتاب منهم يشتمل على نظم ونثر وكلام فحل فائق لا أدري ذلك لفضيلة السامري أو من كتبه وفي ضمن بعض الكتب الواردة صفة قائمة مكتوب فيها عدة الهدية التي أرسلها صحبة الكتاب المذكور والقائمة خوصة لعلها

من ورق شجر جوز الهند طول شبر ونصف في عرض إبهام مكتوب عليها بالقلم الهندي خط باصطلاحهم لا يعرف يقر أبناء جنسهم في غاية الحسن والظرف - انتهى.

ولما تكلم التجار المسلمون وغيرهم مع السامري في أمر تمرز السامري مسك تمرز فأحس تمرز بذلك فأرسل إلى السامري هدية هائلة فأعاد عليه السامري الجواب: " إن التجار يقولون إن معك مال السلطان " فقال تمرز: " نعم أخذت المال لأشتري به للسلطان فلفلاً " فقال له السامري: اشتر به في هذا الوقت واشحنه في مراكب التجار " فاشترى به تمرز الفلفل وأشحنه في مركبين للتجار والباقي أشحنه في المركب المرؤس الذي تحته.

وسار وقصد بندر جدة إلى أن وصل باب المنذب من عمل اليمن عند مدينة عدن فأخذ المركبين المشحونين بالفلفل وتوجه بهما إلى جزيرة مقابلة الحديدية تسمى كمران فحضر أكابر الحديدية إلى عند تمرز المذكور وحسنوا له أخذ كل اليمن جميعها فمال تمرز إلى ذلك وخرج إلى بلدهم وأخذ معه جميع ما له بالمركب.

ثم قال له أهل الحديدية: " لنا عدو وما نقدر نملك اليمن حتى نتنصر عليه وبلد العدو تسمى سحبة " فأجمع تمرز على قتال المذكورين وركب معهم وقصد عدوهم والتقى الجمعان فكان بينهم وقعة قتل فيها تمرز المذكور معه جماعة من أصحابه وسلم ممن كان معه شخص من المماليك السلطانية يسمى أيضًا تمرز وهو حي إلى يومنا هذا.

فلما بلغ الأمير جانبك موت تمرز أرسل شخصًا من الخاصكية الظاهرية ممن كان معه بجدة يسمى تتم رصاص ومعه كتب جانبك المذكور إلى الحديدية يطلب ما كان مع تمرز جميعه.

فتوجه تتم إلى الحديدية فتلقيه أهلها بالرحب والقبول وسلموه جميع ما كان مع تمرز والمركب المرؤس وغير ذلك.

فعاد تتم بالجميع إلى جدة بعد أن استبعد كل أحد رجوع المال.

فأرسل الأمير جانبك يخبر السلطان بذلك كله فلما ورد عليه هذا الخبر سر به وشكر جانبك المذكور على ذلك - انتهى.

ثم في يوم الأربعاء سابع شهر رمضان وصل الأمير تنبك البرديكي المعزول عن حجوية لحجاب قبل تاريخه من ثغر دمياط بطلب من السلطان وطلع إلى القلعة وقبل الأرض بين يل! السلطان ووعد بخير.

ورسم له بالمشي في الخدمة السلطانية على عادته أولًا لكنه لم ينعم عليه بإقطاع ولا إمرة.

وفي هذه الأيام رسم السلطان لنائب طرسوس بالقبض على أبي الخير النحاس وضربه على سائر جسمه خمسمائة عصاة وأن يأخذ جميع ما كان معه من المماليك والجواري وخرج المرسوم بذلك على يد نحاس ووقع ما رسم له السلطان.

ثم في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان ورد الخبر من الشام بضرب رقبة أبي الفتح الطيبي أحد أصحاب أبي الخير النحاس بحكم القاضي المالكي بدمشق في ليلة

الأربعاء رابع عشر شهر رمضان المذكور بعد أن ألقى حكم القاضي برهان الدين إبراهيم السوييني الشافعي بعد عزله بعد أمور وقعت حكيها في الحوادث.

ثم في يوم الاثنين سابع عشر شوال برز الأمير تمرغا الظاهري الدوادر الثاني أمير حاج المحمل بالمحمل إلى بركة الحاج وأمير الركب الأول خيربك الأشقر المؤيدي أحد أمراء العشرات.

وكان الحج قليلاً جدًا في هذه السنة لعظم الغلاء بالديار المصرية وغيرها.

ثم في يوم الخميس خامس ذي القعدة برز المرسوم الشريف باستقرار الأمير جانبك التاجي المؤيدي نائب بيروت في نيابة غزة بعد عزل خيربك النوروزي عنها وتوجهه إلى دمشق بطالا.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة ورد الخبر على السلطان بموت الأمير تغري برميش الزردكاش بمكة المشرفة - وكان المخبر بموته جانبك الظاهري الخاصكي البواب - فأنعم السلطان في يوم الخميس تاسع عشره على السيفي دقماق اليشكي الخاصكي بإمرة عشرة من إقطاع تغري برميش الزردكاش وأنعم بباقيه على الأمير قراجا الظاهري الخازندار زيادة على ما بيده ليكمل ما بيده إمرة طبلخانة وأنعم بإقطاع دقماق ربع تفهنة على جانبك الأشرفي الخازندار الخاصكي وهو يوم ذاك من جملة الدوادارية.

ثم خلع السلطان في يوم الاثنين ثالث عشرينه على دقماق المذكور باستقراره زردكاشًا كبيرًا عوضًا عن تغري برميش المذكور فأقام دقماق في الزردكاشية خمسة أيام وعزل عن الوظيفة واسترجع السلطان منه الإمرة المنعم عليه بها من إقطاع تغري برميش وأعيد إليه إقطاعه القديم.

وقد ذكرنا سبب عزله في حوادث الدهر مفصلاً.

واستقر الأمير لاجين الظاهري زردكاشًا.

ولما أعيد إلى دقماق إقطاعه القديم صار جانبك الأشرفي الخازندار بلا إقطاع لأن السلطان كان أنعم بإقطاعه على جانبك الظاهري البواب القادم من مكة.

وساعد جانبك الأشرفي جماعة الأعيان في رد إقطاعه الأول عليه أو ينعم عليه السلطان بالإمرة المسترجعة من دقماق فلم يحسن ببال السلطان أخذ الإقطاع من جانبك الظاهري فحينئذ لزمه أن يعطي جانبك الخازندار هذه الإمرة المذكورة فأنعم عليه بها فجاءت جانب السعادة بغته من غير أن يترشح لذلك قبل تاريخه.

وخلع السلطان على السيفي قايتباي الظاهري الخاصكي باستقراره دوادارًا عوضًا عن جانبك الخازندار المذكور فإنه كان بقي من جملة الدوادارية غير أنه كان لا يعرف إلا بالخازندار والظريف إلى يومنا هذا.

ثم في يوم الخميس ثالث ذي الحجة خلع السلطان على القاضي ولي الدين الأسيوطي باستقراره مشيخة المدرسة الجمالية بعد موت ولي الدين السفطي.

ثم في يوم الأحد ثالث عشر ذي الحجة رسم السلطان بالإفراج عن الأمير يشبك الصوفي المؤيدي المعزول عن نيابة طرابلس من سجن الإسكندرية وتوجهه إلى ثغر دمياط بطالا.

وفي يوم الاثنين رابع عشره وصل كتاب الناصري محمد بن مبارك نائب البيرة يخبر أنه ورد عليه كتاب الأمير رستم مقدم عساكر جهان شاه بن قرا يوسف يتضمن أنه قبض على الأمير بيغوت من صفر خجا المؤيدي الأعرج المتسحب من نيابة حماة إلى جهان كير بن قرايلك وأنه أخذ جميع ما كان معه وجعله في الترسيم.

فكتب له الجواب بالشكر والثناء عليه وطلب بيغوت المذكور منه وقد أوضحت أمر بيغوت هذا في كتابنا " حوادث الدهور " من أول أمره إلى آخره.

ثم في يوم الخميس أول خرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة خلع السلطان على الأمير مرجان العادلي المحمودي الحبشي نائب مقدم المماليك السلطانية باستقراره مقدم المماليك عوضًا عن جوهر النوروزي بحكم إخراجة إلى القدس الشريف بطالًا واستقر الطواشي عنبر خادم التاجر نور الدين علي الطنبيذ في نيابة المقدم عوضًا عن مرجان المذكور.

ثم في يوم الاثنين خامس المحرم كانت مبايعة الخليفة القائم بالله جمزة بالخلافة عوضًا عن أخيه أمير المؤمنين المستكفي بالله سليمان بعد وفاته حسبما يأتي ذكر وفاته في الوفيات من هذا الكتاب.

ثم في يوم السبت تاسع صفر وصل إلى القاهرة قصاد جهان شاه بن قرا يوسف صاحب تبريز وغيرها وطلعوا إلى القلعة في يوم الاثنين حادي عشره بعد أن عمل السلطان لهم موكبا جليلاً بالحوش من قلعة الجبل وقدموا ما على أيديهم من الهدية وغيرها.

ثم في يوم الأحد سابع عشر صفر ورد الخبر بقدم الأمير بيغوت نائب حماة الخارج عن الطاعة إلى حلب وصحبة القاصد الوارد بهذا الخبر عما مطالعات من نواب البلاد الشامية في الشفاعة في بيغوت المذكور كونه كان تخلص من أسر رستم وقدم هو بنفسه إلى طاعة السلطان فكتب السلطان بإحضار بيغوت المذكور على أحسن وجه وقبل السلطان شفاعة الأمراء فيه.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشره عمل السلطان مدة هائلة لقصاد جهان شاه بالقلعة ثم أنعم عليهم بمبلغ ألفي دينار في يوم الأربعاء العشرين منه وأنعم أيضًا على الأمير قائم التاجر المؤيدي أحد أمراء العشرات بألفي دينار وكان ندبه للتوجه في الرسلية إلى جهان شاه صحبة قصاده فخرج قائم في يوم الجمعة ثاني عشرين صفر.

ثم في يوم الأحد ثاني شهر ربيع الأول من سنة خمس وخمسين المذكورة نزل السلطان إلى عيادة زين الدين يحيى الأستادار لانقطاعه عن الخدمة.

وكان سبب انقطاعه عن الخدمة السلطانية أن المماليك السلطانية أوقعوا به بباب القلعة من قلعة الجبل وضربوه وجرح في رأسه من شجة ونزل محمولًا إلى داره على أقبح حال.

ولم يطل السلطان الجلوس عنده وركب من عنده وتوجه إلى بيت عظيم الدولة المقر الجمالي ناظر الخواص ونزل عنده وأقام قليلاً ثم ركب وعاد إلى القلعة.

وأصبح من الغد كل واحد من الجمالي ناظر الخواص وزين الدين الأستادار جهز للسلطان مقدمة هائلة ذكرنا تفصيلها في الحوادث.

ثم في يوم السبت ثالث عشر شهر ربيع الآخر وصل الأمير بيغوت الأعرج المؤيدي نائب حماة كان إلى القاهرة وطلع إلى السلطان وقبل الأرض بين يديه وخلع السلطان عليه سلازيًا أحمر بفرو سمور ووعدده بخير.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر شهر ربيع الآخر المذكور سافر الأمير أسنباي الجمالي الظاهري أحد أمراء العشرات إلى بلاد الروم لتولية خوندكار محمد السلطنة بعد وفاة أبيه مراد بك.

وفي هذا الشهر أشيع بالقاهرة أن السلطان ذكر أبا الخير النحاس بخير وأنه في عزمه الإفراج عنه والرضا عليه.

فبلغ السلطان ذلك فبرز مرسومه إلى نائب طرسوس بضرب النحاس مائة عصاة افتقده بها.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى سافر الأمير بيغوت إلى دمشق ليقوم بها بطالًا بعد أن رتب له في كل شهر مائة دينار برسم النفقة إلى أن ينحل له إقطاع.

ثم في يوم الخميس رابع عشر شهر رجب وصل الأمير قائم المؤيدي المتوجه إلى جهان شاه في الرسالة إلى القاهرة مريضًا في محفة.

ثم في يوم الاثنين تاسع شعبان وصل الأمير جانبك نائب جدة إلى القاهرة وخلع السلطان عليه ونزل إلى داره في موكب جليل إلى الغاية.

ثم في يوم الخميس تاسع عشر شعبان ورد الخير على السلطان بموت الأمير بردك العجمي الحكمي أحد مقدمي الألوف بدمشق فأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير بمغوت الأعرج المؤيدي.

ثم في يوم الأحد ثاني عشرين نزل السلطان من القلعة وشق القاهرة وسار حتى نظر المدرسة التي جدد بناءها الجمالي ناظر الخواص بسوقية الصاحب عاد من المدرسة ونزل إلى بيت ابنته زوجة الأمير أزيك من ططخ الساقى الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بدرب الطنبذي بسوقية الصاحب وأقام عندها ساعة جيدة ثم ركب وطلع إلى القلعة.

وبعد طلوعه أرسل إلى الأمير أزيك بعثة خيول خاص ومماليك وأصحن حلوى كثيرة فقبل الحلوى ورد سواها.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرين شعبان من سنة خمس وخمسين المذكور رسم السلطان بتفرقة دراهم الكسوة على المماليك السلطانية على العادة في كل سنة لكل مملوك ألف درهم فامتنعوا من الأخذ وطلبوا الزيادة وبلغ السلطان الخبر فغضب من ذلك وخرج من وقته ماشيًا حتى وصل إلى الإيوان وجلس على السلمة السفلى بالقرب من الأرض واستدعى كاتب المماليك أسماء جماعة فلم يخرج واحد وصمموا على طلب الزيادة وصاروا عصبة واحدة فلم يسع السلطان إلا أن دعا عليهم وقام غضبًا وسار حتى وصل إلى الدهيشة واستمروا المماليك على ما هم عليه وحصل أمور إلى أن وقع الاتفاق على أن يكون لكل مملوك من المماليك السلطانية ألفا درهم ورضوا بذلك وأخذوا النفقة المذكورة وقد تضاعف أمرها على ناظر الخاص.

ثم استهل شهر رمضان أوله الاثني والناس في أمر مريح من الغلاء المفرط في سائر
المأكولات لا سيما اللحوم هذا مع اتساع الأراضي بالري واحتاج الفلاحون إلى التقاوي
والأبقار وقد عز وجود البقر حتى أبيع الزوج البقر الهائل بمائة وعشرين دينارًا وما دونها
وأغرب من ذلك ما حدثني السيفي إياس خازن دار الأتابك أقبغا التمراري بحضرة الأمير
أزبك الساقبي أنه رأى ثورًا هائلًا ينادي عليه بأربعين ألف درهم فاستبعدت أنا ذلك حتى
قال الأمير أزبك: " نعم وأنا سمعته أيضًا يقول هذا الخبر للمقر الجمالي ناظر الخواص "

ثم استشهد إياس المذكور جماعة كثيرة على صدق مقالته وهذا شيء لم نعهد بمثله.

هذا مع كثرة الفقراء والمساكين ممن افتقر في هذه السنين المتداولة بالغلاء والقحط مع
أنه تمفقر خلائق كثيرة ممن ليس له مروءة.

وأمسك في هذه الأيام جماعة كثيرة من البيعة ومعهم لحوم الدواب الميتة ولحم الكلاب
بيعونها على الناس وشهروا بالقاهرة وقد استوعبنا أمر هذا الغلاء وما وقع فيه من
الغرائب من ابتداء أمره إلى آخره وقد مكث نحو الأربع سنين في تاريخنا " حوادث
الدهور في مدى الأيام والشهور " محررًا باليوم والساعة.

ثم في يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان استقر الناصري ناصر الدين محمد ابن
مبارك نائب البيرة في حجوبة دمشق بعد عزل الأمير جانبك الناصري وتوجهه إلى
القدس بطالًا.

ووقع في هذا الشهر أعني عن شهر رمضان غريبة وهي أن جماعة أرباب التقويم
والحساب أجمعوا على أنه يكون في أوائل العشر الأخير من هذا الشهر قران نحس يكون
فيه قطع عظيم.

على السلطان الملك الظاهر جقمق ثم في أواخر العشر المذكور يكون قران آخر
ويستمر القطع على السلطان من أول العشر إلى آخره وأجمعوا على زوال السلطان
بسبب هذه القطوع.

فمضى هذا الشهر والسلطان في خير وسلامة في بدنه وحواسه ولازمته أنا في العشر
المذكورة ملازمة غير العادة لأرى ما يقع له من التوعك أو الإنكاد أو شيء يقارب مقالة
هؤلاء ليكون لهم مندوحة في قولهم فلم يقع له في هذه المدة ما كدر عليه ولا تشوش
في بدنه ولا ورد عليه من الأخبار ما يسوء ولا تنكد بسبب من الأسباب وقد كان شاع هذا
القول حتى لعله بلغ السلطان أيضًا.

وفرغ الشهر ولم يقع شيء مما قالوه بالكلية.

وبأبى الله إلا ما أراد.

وبعجيني في هذا المعنى القائل ولم أدر لمن هو: البسيط تفرد الله بالعلم القديم فلا
الإنسان يشركه فيه ولا الملك ومثل هذا أيضًا وأظنه قد تقدم ذكره: البسيط دع النجوم
لطرقي يعيش بها وبالعزيزمة فانهض أيها الملك إن النبي وأصحاب النبي نهوا عن النجوم
وقد أبصرت ما ملكوا ثم في يوم الجمعة ثالث شوال ورد الخبر بموت يشبك الحمزاوي
نائب صفد بها في ليلة السبت سابع عشرين شهر رمضان فرسم السلطان نبياة للأمير
بيغوت الأعرج ثانيًا وحمل إليه التقليد والتشريف على يد الأمير يشب الفقيه المؤيدي
نبياة صفد وبشبك المذكور من محاسن الدنيا نادرة في أبناء جنسه.

وأنعم السلطان بتقدمة بيغوت بدمشق على الناصري محمد بن مبارك حاجب حجاب دمشق وأنعم بإقطاع ابن المبارك على آقباي السيفي جارقطلو المعزول عن نيابة سيس.

وفيه أيضًا استقر خير بك النوروزي المعزول عن نيابة غزة قبل تاريخه أتابك صفد كلاهما: أعني خير بك واقباي بالبذل لأنهما من أطراف الناس لم تسبق لهما رئاسة بالديار المصرية.

ثم في يوم السبت رابعه استقر السوييني في قضاء طرابلس واستقر الشمس ابن عامر في قضاء المالكية بصفد.

ثم في يوم الاثنين سادسه استقر الزيني الطواشي سرور الطربائي الحبشي في مشيخة الخدام بالحرم النبوي بعد عزل الطواشي فارس الرومي الأشرفي.

ثم في يوم الخميس سادس عشر شوال أعيد القاضي حميد الدين النعماني إلى قضاء الحنفية بدمشق بعد عزل القاضي قوام الدين.

وفيه خلع السلطان على المقر الجمالي ناظر الخواص خلعة هائلة لفراغ الكسوة المجهزة لداخل البيت العتيق.

ثم في يوم السبت ثامن عشره برز أمير حاج المحمل الأمير سونجبا اليونسي بالمحمل إلى بركة الحاج.

ثم في يوم الثلاثاء سابع عشرين ذي القعدة أنعم السلطان على الأمير تنك البرديكي المعزول عن حجووية الحجاب قبل تاريخه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية بعد موت الشهابي أحمد بن علي بن إينال اليوسفي.

ثم في يوم الخميس سادس ذي الحجة من سنة خمس وخمسين المذكورة قدم الأمير أسنباي الجمالي الظاهري أحد أمراء العشرات من بلاد الروم.

ثم في يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة استقر عمر الكردي أحد أجناد الحلقة في أستاذارية السلطان بدمشق واستقر شخص يسمى يونس الدمشقي يعرف بابن دكدوك في أستاذارية السلطان الكبرى بدمشق وعمر المذكور ويونس هذا هما من الأوباش الأطراف وكلاهما ولي بالبذل.

ثم في يوم الخميس سابع عشرين ذي الحجة وصل الأمير يشبك الفقيه من صفد بعد ما قلد نائبها الأمير بيغوت.

ثم في يوم الاثنين أول محرم سنة ست وخمسين وثمانمائة أعيد القاضي جمال الدين يوسف الباعوني إلى قضاء دمشق بعد عزل السراج الحمصي بسفارة عظيم الدولة ناظر الخواص.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشرينه وصل أمير حاج المحمل بالمحمل.

وفيه مسافر الأمير جانبك الظاهري نائب جدة إلى البندر المذكور.

ثم في يوم الاثنين سادس صفر استعفى الأمير الطنبغا الظاهري برقوق اللفاف أحد مقدمي الألوف من الإمرة فأعفي لطول مرضه وعجزه عن الحركة وأنعم السلطان

بإقطاعه على ولده المقام الفخري عثمان زيادة على ما بيده من تقدمه أخيه الناصري محمد قبل تاريخه فصار بيده تقدمه أخيه وهذه التقدمة.

ثم في يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الأول حضر المقام الفخري عثمان صلاة الجمعة عند أبيه بجامع القلعة ورسم له والده السلطان أن يمشي الخدمة على عادة أولاد الملوك.

ثم في يوم الخميس ثامن شهر ربيع الأول المذكور خلع السلطان على القاضي محب الدين محمد بن الأشقر ناظر الجيش باستقراره كاتب السر الشريف عوضًا عن القاضي كمال الدين بن البارزي بعد موته.

وخلع السلطان أيضًا على المقر الجمالي ناظر الخواص باستقراره ناظر الجيوش المنصورة زيادة على ما بيده من نظر الخاص وغيره.

ثم في يوم السبت سابع عشره نودي بالقاهرة على الذهب الظاهري الأشرفي كل دينار بمائتي درهم وخمسة وثمانين درهمًا وهدد من زاد في صرفه على ذلك.

ثم في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر استقر الشريف معز في إمرة الينبوع عوضًا عن عمه سنقر بن وبيد.

وفيه نقل يشبك الصوفي المؤيدي المعزول عن نيابة طرابلس من ثغر دمياط إلى القدس بطالاً.

ثم في يوم السبت ثامن عشرين جمادى الأولى أنعم السلطان على مملوكه جانم الساقى الظاهري بإمرة عشرة بعد موت الأمير برسباي الساقى المؤيدي.

ثم في يوم السبت حادي عشر شهر رجب وصل إلى القاهرة الأمير حاج إينال اليشبيكي نائب الكرك وخلع السلطان عليه باستمراره.

ثم في يوم السبت ثامن عشر رجب المذكور أنعم السلطان على حاج إينال المذكور بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق عوضًا عن الأمير مازي الظاهري برقوق بحكم لزومه بيته واستقر في نيابة الكرك عوضًا عن حاج إينال طوغان مملوك أفبردي المنقار نقل إليها من دوايرية السلطان بدمشق واستقر في دوايرية السلطان بدمشق خشكلي الزيني عبد الرحمن بن الكويز الدوادر واستقر عوضًا عن خشكلي في الدوايرية الثالثة شخص من أولاد الناس ممن كان في خدمة الملك الظاهر قديمًا يعرف بابن جانبك لا يعرف له نسب ولا حسب.

وفي هذه الأيام أشيع بالقاهرة بمجيء النحاس إلى الديار المصرية وأنه وصل على النجب وأنه نزل بتربة الأمير طيغا الطويل بالصحراء خارج القاهرة ثم انتقل منها إلى القاهرة.

وتحدث الناس برؤيته وتعجب الناس من ذلك واستغربت أنا وغيري مجيئه من أن السلطان من يوم نكبه وصادره وحبسه ثم نفاه إلى طرسوس ثم حبسه بقلعة طرسوس على أقيح وجه وصار في الحبس المذكور في غاية الضيق ونال أعداؤه منه فوق الغرض وصار السلطان يتفقده في كل قليل بعصيات حتى إنه ضرب في مدة حبسه بطرسوس على نفذات متفرقة نحو الألف عصاة تخميًا ولم يزل في محبسه في أسوأ حال حتى أشيع مجيئه ولم يدر بذلك أحد من أعيان الدولة ولا يعرف أحد كيفية الإفراج عنه وأخذ أعيان الدولة من الأكابر في تكذيب هذا الخبر وصار الناس في أمره على قسمين: ما بين مصدق ومكذب.

ثم قدم الأمير جانبك الظاهري نائب جدة وصحبه قصاد الحبشة من المسلمين من صاحب جبرت في يوم الخميس ثامن شعبان وعمل السلطان الموكب بالحوش السلطاني وكان السلطان قد انقطع عن حضور الخدمة بالقصر نحو الشهر لضعف حركته.

فلما كان يوم الجمعة تاسعه طلع أبو الخير النحاس في بكرته إلى القلعة ودخل إلى الدهيشة صحبة المعزي عبد العزيز ابن أخي الخليفة القائم بأمر الله حمزة وقد أمره عمه القائم بأمر الله حمزة ليشفع في أبي الخير المذكور على لسان الخليفة ولم يكن عند السلطان في ذلك الوقت من أعيان الدولة سوى الأمير تمرغا الظاهري الدوادر الثاني والأمير أسنباي الجمالي الظاهري فقام السلطان لابن أخي الخليفة المذكور وأجلسه ثم دخل أبو الخير النحاس وقبل رجل السلطان فسبه السلطان ولعنه وأخذ في توبيخه وذكر أفعاله القبيحة ثم أمر بحبسه بالبرج من قلعة الجبل ثم اعتذر لابن أخي الخليفة وقال: " أنا كنت أريد توسيطه ولأجل الخليفة قد عفوت عنه " .

ثم أنعم على عبد العزيز المذكور بمائة دينار وانفض المجلس.

وأصبح السلطان من الغد في يوم السبت جلس على الدكة بالحوش السلطاني وأحضر أبا الخير المذكور في الملاء من الناس ثم أمر به فضرب بين يديه نحو الألف عصاة أو ما دونها تخميًا على رجليه وسائر بدنه ثم أمر بحبسه ثانيًا بالبرج من القلعة فتحير الناس من هذه الأفعال المتناقضة وهو كونه أفرج عنه سرًا وأحضره إلى القاهرة فظن كل أحد بعود المذكور إلى أعظم ما كان عليه ثم وقع له ما ذكرناه من الإخراق والضرب والحبس.

وقد كثر كلام الناس في ذلك فمنهم من يقول: أمر السلطان بإطلاقه لا مجيئه إلى القاهرة فلما قدم بغير دستور غضب السلطان عليه فرد على قائل هذا الكلام بأنه: من أين لأبي الخير النجب التي قدم عليها مع ما كان عليه لولا توصية السلطان لمن يعينه على ذلك.

وأيضًا: كيف تمكن من المجيء لولا ما معه من المراسيم ما يدفع به نواب البلاد الشامية من منعه من الحضور.

ومنهم من يقول: كان أمره قد انبرم مع السلطان ورسم بحضوره وإنما أعداؤه اجتهدوا في إبعاده ثانيًا ووعدوا بأوعاد كثيرة أضعاف ما وعده أبو الخير المذكور وأقوال كثيرة آخر.

ثم في هذا اليوم أخذ أبو عبد الله التريكي المغربي المالكي المعزول عن قضاء دمشق قبل تاريخه من بيته إلى بيت الوالي ورسم عليه ثم ادعى عليه بمجلس القاضي المالكي أنه التزم للسلطان عن أبي الخير النحاس بمائة ألف دينار أو أكثر فقال: " أنا قلت: إن ولاه ما عينته من الوظائف ولم يقع ذلك " وعرف كيف أجاب فإنه كان من الفضلاء العلماء فاستمر في الترسيم إلى يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان فطلب إلى القلعة فطلع وفي رقبته جنزير ثم أعيد إلى الترسيم من غير جنزير وقد أشيع أنه وقع في حق قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي بأمور شنة ودام في الترسيم إلى ما يأتي ذكره.

ثم في يوم الأربعاء رابع عشر شعبان المذكور أخرج أبو الخير النحاس المذكور من البرج منفياً إلى البلاد الشامية ورسم بحبسه بقلعة الصبية فنزل على حالة غير مرضية وهو أنه أركب على حمار وفي رقبته باشة وجنزير وموكل به جماعة من الجبلية شقوا به شارع

القاهرة إلى أن أخرج من باب النصر والمشاعلي ينادي عليه: " هذا جزاء من يكذب على الملوك ويأكل مال الأوقاف " ونحو ذلك ورسم السلطان أن يفعل به ذلك في كل بلد يمر بها إلى أن يصل إلى محبسه.

ثم في يوم الخميس خامس عشره استقر الأمير حاج إينال الشبكي أحد مقدمي الألوف بدمشق في نيابة حماة عوضًا عن سودون الأبوكرى المؤيدي بحكم عزله وتوجهه على إقطاع حاج إينال المذكور بدمشق.

ثم في يوم الثلاثاء العشرين من شعبان المذكور جلس السلطان بالحوش وأحضر القضاة ثم أحضر والي القاهرة أبا عبد الله التريكي المغربي - وكان التريكي قد أقام قبل ذلك بيت القاضي الشافعي أيامًا - فلما مثل التريكي بين يدي السلطان سأل السلطان قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي الشافعي عن أمر التريكي وما وجب عليه فقال: " ثبت عليه عند نائبي نجم الدين بن نبيه لمولانا السلطان عشرة آلاف دينار " وقام ابن النبيه في الحال وأخبر السلطان بذلك فنهر السلطان القاضي الشافعي عند مقالته عشرة آلاف دينار وقال: " ما أسأل إلا عن ما وجب عليه من التعزير.

إيش العشرة آلاف دينار " .

ولم تحسن مقالة القاضي الشافعي بهذا القول ببال أحد ثم أجاب ابن النبيه بأن قال: " أما المال فقد ثبت عندي وأما التعزير فهو إلى القاضي شمس الدين بن خيرة أحد نواب الحكم " .

فقال ابن خيرة: " حكمت عليه بتعزيره سنتين وأما التعزير فلمولانا السلطان على ما وقع منه من الأيمان الحائثة " .

فلما سمع السلطان كلام ابن خيرة أمر بالتريكي فطرح على الأرض وضرب ضربًا مبرحًا يزيد على مائتي عصاة وأقيم فتكلم فيه ابن النبيه أيضًا وأحضر محضرًا مكتتبًا عليه بدمشق بواقعة وقعت له في أيام حكمه بدمشق فأمر به السلطان ثانيًا فضرب نحوًا مما ضرب أولًا.

واختلفت الأقوال في عدة ما ضرب فأكثر ما قيل ستمائة عصاة وأقل ما قيل أربعمائة.

ثم أنزلوه إلى بيت والي القاهرة فأقام في حبس الرحبة إلى يوم الأربعاء خامس شهر رمضان فأخرج من الحبس وفي رقبته الجنزير ماشيًا إلى بيت الوالي بين القصرين ثم ركب من هناك وأخرج منفيًا في الترسيم إلى المغرب إلى يومنا هذا.

ثم في يوم السبت ثامن شهر رمضان سافر محب الدين بن الشحنة قاضي قضاة حلب من القاهرة بعدما أقام بها شهرًا وقاسى من الذل والبهدة أنواعًا ورسم عليه غير مرة وأخرجت عنه وظيفتا كتابة سر حلب ونظر جيشها.

وقد استوعبنا أحوال ابن الشحنة هذا في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " مستوفاة من مبدأ أمره إلى يوم تاريخه مما وقع له بحلب ومصر وغيرهما من الأمور الشنعة وسوء السيرة وما وقع له من التراسيم عليه وغير ذلك.

ثم في أواخر هذا الشهر رسم السلطان بإخراج نصف إقطاع جانبك النوروزي المعروف بنائب بعلبك للسيفي بردبك التاجي وكلاهما مقيم بمكة وكان هذا الإقطاع أصله بين

جانبك المذكور وبين تغري برمش نائب القلعة فلما نفي تغري برمش أنعم السلطان عليه بنصيبه إلى يوم تاريخه فأخرجه عنه.

ثم في يوم الخميس رابع شوال استقر الأمير تغري بردي الظاهري المعروف بالقلوي وزيرًا بالديار المصرية مضافًا لما بيده من كشف الأشمونين والبلاد الجيزة عوضًا عن صاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم بحكم استعفائه عن الوزارة.

وأنعم السلطان على تغري بردي المذكور بأمره مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية وهو الإقطاع الذي كان أنعم به السلطان على ولده المقام الفخري عثمان بعد الطنبغا اللغاف ليستعين تغري بردي المذكور بالإقطاع على كلف الدولة وكانت خلعة تغري بردي المذكور بالوزارة أطلسين متمرًا ثم فوقانيًا بطرز زركش عريض مثال خلعة الأتابكية بالديار المصرية.

وخلع السلطان على زين الدين فرج ابن ماجد ابن النحال كاتب المماليك السلطانية بوظيفة نظر الدولة مضافًا لكتابة المماليك.

وفي يوم الاثنين تاسعه عملت الخدمة السلطانية بالدهيشة من الحوش ورسم السلطان بأن تكون الخدمة دائمًا في يومي الاثنين والخميس بها كل ذلك لضعف حركة السلطان وهو يكتف ما به من الألم.

وفي يوم الثلاثاء عاشره استقر قاني باي طاز السيفي بكتمر جلق في نيابة قلعة صفد بعد شغورها أشهرًا من يوم مات الجمالي يوسف بن يغمور.

وفي هذا اليوم أيضًا وصل المقام الغرسي خليل ابن الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق من ثغر الإسكندرية وقد رسم له بالتوجه إلى الحجاز لقضاء الفرض وطلع إلى السلطان فأكرمه السلطان إلى الغاية وهذا شيء لم يسمع بمثله من أن ابن السلطان وله شوكة يمكن من سفر الحجاز فله دره من ملك.

وقد حكينا طلوعه إلى القلعة واجتماعه بالسلطان في ذهابه وإيابه في " الحوادث " بأطول من هذا.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشره ورد الخبر بقتل طوغان السيفي آقبردي المنقار نائب الكرك على ثم في يوم تاسع عشره برز الأمير دولات باي المحمودي الدوادر الكبير أمير حاج المحمل بالمحمل وكان الحاج في هذه السنة ركبًا واحدًا وهذه حجة دولات باي المذكور الثانية أمير الحاج.

فلما خرج دولات باي إلى بركة الحاج رسم له بأن يجعل دواداره فارس أمير الركب الأول ووقع ذلك.

وسافر ابن الملك الناصر صحبة المحمل.

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشرين شوال رسم السلطان لطقتمر البارزي رأس نوبة الجمدارية أن يتوجه إلى القدس الشريف لإحضار الأمير يشبك الصوفي المؤيدي منه إلى القاهرة ليتجهز ثم يعود إلى دمشق أتابكًا بها عوضًا عن خير بك المؤيدي الأجرود.

ورسم السلطان أيضًا لطقتمر المذكور أن يتوجه إلى دمشق ويقبض على أتابكها خيربك المذكور ويحمله إلى سجن الصبية.

وفيه أيضًا رسم بنقل الأمير يشبك طاز المؤيدي من حجوية طرابلس إلى نيابة الكرك عوضًا عن طوغان المقتول قبل تاريخه.

واستقر عوضه في حجوية طرابلس مغلبي البجاسي أحد أمراء طرابلس كان ثم نائب قلعة الروم.

واستقر في نيابة قلعة الروم ناصر الدين محمد والي الحجر بقلعة حلب.

ثم في يوم الأحد سادس ذي القعدة من سنة ست وخمسين المقدم ذكرها حبس السلطان تقي الدين عبد الرحمن بن حجي بن عز الدين قاضي قضاة الشافعية بطرابلس بحبس المقشرة فحبس بها بعد أن نودي عليه وهو على حمار بشوارع القاهرة: " هذا جزاء من يزور المحاضر! "

ثم أمر السلطان من وقته بحبس مامي السيفي بيغا المظفري أحد الدوادية بالبرج من قلعة الجبل لاتهامه بالعرض مع التقي المذكور وكان مامي المذكور هو المتوجه إلى طرابلس للكشف عن أحوال ابن عز الدين المقدم ذكره.

واستمر مامي بالبرج إلى يوم الاثنين سابع ذي القعدة فأطلق ورسم بنفيه إلى مدينة حماه واستقر في وظيفة مامي الدوادية قانصوه الظاهري جقمق.

ثم في يوم الخميس عاشره وصل الأمير يشبك الصوفي من القدس إلى القاهرة وطلع إلى القلعة وقبل الأرض.

وفيه رسم بالإفراج عن جانبك المحمودي من حبس المرقب وأن يتوجه إلى طرابلس بطالاً.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشرينه خلع السلطان على الأمير يشبك الصوفي باستقراره أتاك عساكر دمشق وسافر في يوم الخميس ثاني ذي الحجة.

ثم في يوم الخميس سادس عشر ذي الحجة استقر القاضي حسام الدين محمد بن تقي الدين عبد الرحمن بن بريطع قاضي قضاة الحنفية بحلب عوضًا عن محب الدين ابن الشحنة بعد أن وقع لابن الشحنة المذكور أمور مذكورة في " الحوادث " بتمامها وكمالها.

وفي يوم الاثنين عشرينه استقر أسنبغا مملوك ابن كلبك نائب القدس وناظره بعد موت أمين وفي يوم الثلاثاء حادي عشرينه تكلم الأمير الوزير تغري بردي القلاوي مع السلطان في عزل فرج ابن النحال عن نظر الدولة فعزله وأبقى معه كتابة المماليك على عادته.

ابتداء مرض موت السلطان ولما كان يوم الجمعة رابع عشرينه حضر السلطان الملك الظاهر جقمق الصلاة بجامع القلعة على العادة وهو متوعك.

فلما انقضت الصلاة وخرج من الجامع غشي عليه فأرجف في القاهرة بموته وتكلم الناس بذلك.

فأصبح من الغد في يوم السبت خامس عشرينه وحضر الخدمة في الدهيشة من القلعة وحضر جميع أكابر الأمراء والخاصكية بغير كلفتاة وعلم السلطان على قصص كثيرة.

ومن غريب الاتفاق ما وقع له أنه لما خرج إلى الدهيشة ورأى الناس وقوفًا قال: " سبحان الحي الذي لا يموت! " فحسن ذلك ببال الناس كثيرًا عفا الله عنه.

ثم أصبح في يوم الأحد سادس عشرين ذي الحجة فركب من القلعة ونزل إلى بيت بنته زوجة الأمير أزيك من ططخ الساقى أحد أمراء العشرات ورأس نوبة غير أنه لم يطل الجلوس عندها وعاد إلى القلعة من وقته وكان سكن أزيك المذكور يومئذ في الدار الذي خلف حمام بشتك وهي الآن ملك شخص من أصاغر المماليك الأشرفية لا أعرفه إلا في هذه الدولة.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين ذي الحجة عمل السلطان الموكب بالحوش لقصاد جهان شاه بن قرا يوسف متملك تبريز وغيرها.

وكان قدوم القصاد المذكورين لإعلام السلطان بأن جهان شاه المذكور كسر عساكر بابور بن باي سنقر بن شاه رخ بن تيمورلنك وأنه استولى على عدة بلاد من ممالكه وأن عساكر جغتاي ضعف أمرهم لوقوع الوباء في خيولهم ومواشيهم.

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشرينه ضرب السلطان بعض نواب الحكم الشافعية بيده عشرة عصي لأمر لا يستحق ذلك.

وفرغت سنة ست وخمسين بعد أن وقع بها فتن كثيرة ببلاد الشرق قتل فيها خلائق لا تدخل تحت حصر استوعبنا غالبها في " حوادث الدهور " كونه موضوعًا لتحرير الوقائع كما أن هذا الكتاب وظيفته الإطناب في تراجم ملوك مصر.

ومهما ذكرناه بعد ذلك من الوقائع يكون على سبيل الاستطراد وتكثير الفوائد لا غير.

واستهلت سنة سبع وخمسين وثمانمائة بيوم الجمعة والسلطان الملك الظاهر جقمق صاحب الترجمة متوعك غير أنه يتجلد ولا ينام على الفراش وأيضًا لم يكن على وجهه علامات مرض الموت إلا أنه غير صحيح البدن وكان له على ذلك أشهر كثيرة من أواخر سنة خمس وخمسين وثمانمائة - انتهى.

قلت: ويحسن بيالي أن أذكر في أول.

هذه السنة جميع أسماء أرباب الوظائف بالديار المصرية وغيرها ليعلم بذلك فيما يأتي كيف تقلبات الدهر وتغيير الدول.

فأقول: استهلت سنة سبع وخمسين وخليفة الوقت القائم بأمر الله حمزة والقاضي الشافعي شرف الدين يحيى المناوي والقاضي الحنفي سعد الدين سعد الديري والقاضي المالكي ولي الدين محمد السنباطي والقاضي الحنبلي بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي وأتابك العساكر إينال العلاني الناصري وأمير سلاح جرباش الكريمي الظاهري برقوق المعروف بقاشق وأمير مجلس تتم من عبد الرزاق المؤيدي والأمير أخور الكبير قاني باي الجاركسي ورأس نوبة النوب أسنيغا الناصري الطياري والدوادار الكبير دولات باي المحمودي المؤيدي وحاجب الحجاب خشقدم من ناصر الدين المؤيدي وباقي مقدمي الألوف أربعة: أعظمهم المقام الفخري عثمان ابن السلطان ثم الأمير تنبك البرديكي الظاهري برقوق المعزل عن الحجوية والأمير طوخ من تمران الناصري والأمير جرباش المحمدي الناصري المعروف بكرد والجميع أحد عشر مقدمًا بأقل من النصف عما كان قديمًا.

وأرباب الوظائف من الطبلخانات والعشرات: شاد الشراب خاناه يونس الأقبائي البواب أمير طبلخاناه والخازندار قراجا الظاهري جقمق أمير طبلخاناه والزرديكاش لاجين الظاهري جقمق أمير عشرة ونائب القلعة يونس العلاني الناصري أمير عشرة والحاج الثاني نوكار الناصري أمير عشرة ووظيفة أمير جاندار بطالة يليها بعض الأجناد السكات عن ذكره أجمل وأستادار الصحبة سنقر الظاهري أمير عشرة.

وهذه الوظائف كان قديمًا يليها مقدمو الألوفا ويستدل على ذلك من خلعهم في الأعياد وغيرها - انتهى.

والأمير آخور الثاني يرشباي الإينالي المؤيدي أمير طبلخاناه ورأس نوبة ثاني جانبيك القرماني الظاهري برقوق أمير طبلخاناه والدوادار الثاني تمرغا الظاهري جقمق أمير عشرة غير أن معه زيادات كثيرة والمهمندار بعض الأجناد ووالي القاهرة جانبيك اليشبكي أمير عشرة والزمادار فيروز الطواشي الرومي النوروزي أمير طبلخاناه ومقدم المماليك مرجان العادلي المحمودي الحبشي أمير عشرة ونائبه عنبر خادم نور الدين الطنبيدي.

ومباشرو الدولة: كاتب السر القاضي محب الدين محمد بن الأشقر وناظر الجيش والخاص عظيم الدولة ومديرها الجمالي يوسف ابن كاتب حكم والوزير الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم والأستادار زين الدين يحيى الأشقر المعروف بابن كاتب حلوان ويقرب ابن أبي الفرج وهو على زي الكتاب ولهذا لم تذكره في الأمراء ومحتسب القاهرة يرعلي الخراساني العجمي الطويل.

ونواب البلاد الشامية: نائب الشام جليان الأمير آخور ونائب حلب قاني باي الحمزاوي ونائب طرابلس يشبك النوروزي ونائب حماة حاج إينال اليشبكي ونائب صغد بيغوت الأعرج المؤيدي ونائب غزة جانبيك التاجي المؤيدي ونائب الكرك يشبك طاز المؤيدي ونائب الإسكندرية برسباي السيفي تنيك البجاسي أمير عشرة وهؤلاء هم أعيان النواب ومن يطلق في حق كل منهم ملك الأمراء.

ولا عبرة بولاية الوجه القبلي الآن وباقي نواب القلاع والبلاد الشامية فكثير - انتهى.

ثم في يوم الخميس سابع محرم سنة سبع وخمسين المذكورة أرفج في القاهرة بموت السلطان.

فلما كان يوم السبت تاسع المحرم خرج السلطان من قاعة الدهيشة ماشيًا على قدميه حتى جلس على مرتبة من غير أن يستعين بأحد في مشيه ولا استند في مجلسه بل جلس على مرتبته وعلم على عدة مناشير.

وأطلت أنا النظر في وجهه فلم أر عليه علامات تدل على موته بسرعة.

ثم قام وعاد إلى القاعة ولم يخرج بعدها إلى الدهيشة.

واستمر متمرصًا بالقاعة المذكورة والناس تخلط في الكلام بسبب مرضه والأقوال تختلف في أحوال المملكة.

على أن السلطان في جميع مرضه غير منحجب عن الناس وأرباب الدولة تتردد إليه بالقاعة المذكورة وهو يعلم في كل يوم في الغالب على المناشير والقصص وينفذ بعض الأمور إلا أن مرضه في تزايد وهو يتجلد.

إلى أن كان يوم الأربعاء العشرون من المحرم فوصل الأمير جانبك النوروزي من مكة المشرفة ودخل إلى السلطان وقيل له الأرض ثم قبل يده وخرج وخرجنا جميعًا من عنده وقد اشتد به المرض وظهر عليه أمارات رديئة تدل على موته بعد أيام غير أنه صحيح العقل والفهم والحركة.

ثم بعد خروجنا من عنده تكلم السلطان في هذا اليوم مع بعض خواصه في خلع نفسه من السلطنة وسلطنة ولده المقام الفخري عثمان في حياته فروجع في ذلك فلم يقبل ورسم بإحضار الخليفة والقضاة والأمراء من الغد بالدهيشة.

فلما كان الغد وهو يوم

▲ الخميس حادي عشرون محرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة

حضر الخليفة والقضاة وجميع الأمراء وفي ظن الناس أنه يعهد لولده عثمان بالملك من بعده كما هي عادة الملوك.

فلما حضر الخليفة والقضاة عنده بعد صلاة الصبح خلع نفسه من السلطنة وقال للخليفة والقضاة: الأمر لكم انظروا فيمن تسلطنوه أو معنى ذلك لعلمه أنهم لا يعدلون عن ولده عثمان فإنه كان أهلاً للسلطنة بلا مدافعة.

وأراد أيضًا بهذا القول أنه قد خلع نفسه وأنه يموت غير سلطان وأنه أيضًا لا يتحمل بوزر ولاية ولده المذكور فكان مقصده جميلًا في القولين رحمه الله تعالى.

فلما سمع الخليفة كلام السلطان لم يعدل عن المقام الفخري عثمان لما كان اشتمل عليه عثمان المذكور من العلم والفضل وإدراكه سن الشيبية وبايعه بالسلطنة وتسلطن في يوم الخميس المذكور حسبما نذكره إن شاء الله تعالى في أول ترجمته من هذا الكتاب.

واستمر الملك الظاهر مريضًا ملازمًا للفراش وابنه الملك المنصور يأخذ ويعطي في مملكته ويعزل ويولي والملك الظاهر في شغل بمرضه وما به من الألم في زيادة إلى أن مات في قاعة الدهيشة الجوانية بين المغرب والعشاء من ليلة الثلاثاء ثالث صفر من سنة سبع وخمسين وثمانمائة المقدم ذكرها.

وقرىء حوله القرآن العزيز إلى أن أصبح وجهه وغسل وكفن من غير عجلة ولا اضطراب حتى انتهى أمره وحمل على نعشه وأخرج به وأمام نعشه ولده السلطان الملك المنصور عثمان ماشيًا وجميع أعيان المملكة.

وساروا أمام نعشه بسكون ووقار إلي أن صلي عليه بمصلاة باب القلعة من قلعة الجبل وصلى عليه الخليفة القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة وخلفه السلطان والقضاة وجميع الأمراء والعساكر.

ثم حمل بعد انقضاء الصلاة عليه وانزل من القلعة حتى دفن بتربة أخيه الأمير جاركس القاسمي المصارع التي جدها مملوكه قاني باي الجاركسي بالقرب من دار الضيافة تجاه سور القلعة.

ولم يشهد ولده الملك المنصور دفنه وعاد إلى القلعة من المصلاة.

وشهد دفنه خلائق وقعد الناس في الطرقات لمشاهدة مشهده وكان مشهده عظيمًا إلى الغاية بخلاف جناز الملوك السالفة ولعل هذا لم يقع لملك قبله كل ذلك لكونه سلطان ولده في حياته ثم مات بعد ذلك بأيام فلهذا كانت جنازته على هذه الصورة.

ومات الملك الظاهر وسنه نيف على ثمانين سنة تخمينا ولم يخلف بالحوصل ولا الخزائن إلا نزرًا يسيرًا يستحي من ذكره بالنسبة لما تخلفه الملوك وكذلك في جميع تعلقات السلطنة من الخيول والجمال والسلاح والقماش كل ذلك من كثرة بذله وعطائه.

وكانت مدة ملكه من يوم تسلطن بعد خلع الملك العزيز يوسف في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة إلى أن خلع نفسه بولده الملك المنصور عثمان في الثانية من نهار الخميس الحادي والعشرين من محرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة أربع عشرة سنة وعشرة شهور ويومين وتوفي بعد خلعه من السلطنة باثني عشر يومًا.

ووقع له في سلطنته غرائب لم تقع لأحد قبله إلا نادرًا جدًا منها ركوبه وهو أتابك على الملك العزيز يوسف وقتاله له وانتصاره عليه ولا نعرف أحدًا قبله من الأمراء ركب على السلطان ووقف بالرملة والسلطان بقلعة الجبل وانتصر عليه غيره فإن قيل: واقعة الناصري ومنطاش مع الملك الظاهر برقوق فليس ذاك مما نحن فيه من وجوه عديدة لا يحتاج إلى ذكرها.

وإن قيل: نصره منطاش وملكه لباب السلسلة فنقول: كان ركوب منطاش على رفيقه يلبغا الناصري ومنها أنه سلم عليه بالسلطنة ثلاثة خلفاء من بني العباس ولم يقع ذلك لملك قبله من ملوك مصر.

ومنها أنه اجتمع له قضاة أربعة في عصر واحد لم يجتمع مثلهم لغيره من ملوك مصر وهم قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر الشافعي حافظ المشرق والمغرب: كان فردًا في معناه لا يقاربه في علم الحديث أحد في عصره وقاضي القضاة شيخ الإسلام سعد الدين سعد الديري الحنفي: كان فقيه عصره شرقًا وغربًا لا يقاربه أحد في حفظ مذهبه واستحضاره مع مشاركته في علوم كثيرة والعلامة قاضي القضاة شمس الدين البساطي المالكي: كلان إمام عصره في علمي المعقول والمنقول قد انتهت إليه الرئاسة في علوم كثيرة ومات ولم يخلف بعده مثله وقاضي القضاة شيخ الإسلام محب الدين أحمد الحنبلي البغدادي: كان أيضًا إمام عصره وعالم زمانه انتهت إليه رئاسة مذهبه بلا مدافعة.

ومنها أنه أقام في ملك مصر هذه المدة الطويلة لم يتجرد فيها تجريدة واحدة إلى البلاد الشامية غير مرة واحدة في نوبة الحكمي في أوائل سلطنته وهذا أيضًا لم يقع لملك قبله.

ومنها أنه أذن للغرسي خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج بالحج فقدم القاهرة وحج وعاد مع عظم شوكته من مماليك أبيه وجده الملك الظاهر برقوق وهذا شيء لم يقع مثله في دولة من الدول.

ومنها ابنه المقام الناصري محمد رحمه الله تعالى: من غزير علمه وكثرة فضائله فإننا لا نعلم أحدًا من ملوك الترك رزق ولدًا مثله بل ولا يقاربه ولا يشابهه مما كان اشتمل عليه من العلم والفضل والمعرفة التامة وحسن السمات وجودة التدبير ولا نعرف أحدًا من أولاد السلاطين من هو في هذا المقام قديمًا وحديثًا حتى ولو قلت: ولا من بني أيوب ممن ملكوا مصر لكان يصدق قولي ومن كان من بني أيوب له فضيلة تامة غير الملك

المعظم عيس ابن الملك الكامل والملك المؤيد إسماعيل صاحب حماه وهما كانا بالبلاد الشامية - انتهى.

وقد استوعبنا أحوال الملك الظاهر هذا من مبدأ أمره إلى آخره محررًا بالشهر واليوم في جميع ما وقع له من ولاية وعزل وغريبة وعجيبه في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " فليُنظر هناك.

وما ذكرناه هنا جميعه نوع من تكثير الفائدة لا القصة على جليتها بل نشير بذكرها إعلامًا لوقت واقعها لا غير.

وكان الملك الظاهر سلطانًا دينًا خيرًا عفيفًا صالحًا فقيهاً شجاعاً مقداماً عارفاً بأنواع الفروسية عفيفاً عن المنكرات والفروج لا نعلم أحداً من ملوك مصر في الدولة الأيوبية ولا التركية على طريقته في ذلك.

لم يشهر عنه في صغره ولا في كبره أنه تعاطى مسكراً ولا منكرًا حتى قيل إنه لم يكتشف حراماً قط.

وأما حب الشباب فلعله كان لا يصدق أن أحداً يقع في ذلك لبعده عن معرفة هذا الشأن. وكان جلوسه في غالب أوقاته على طهارة كاملة.

وكان متقشفًا في ملبسه ومركبه إلى الغاية لم يلبس الأحمر من الألوان في عمره منذ علم بكراهيته.

ولم أره منذ تسلطن لبس كاملية بفرو وسمور وبمقلب سمور غير مرة واحدة وأما الركوب بالسرجه الذهب والكنبوش الزركش فلم يفعله إلا يوم ركوبه بأبهة السلطنة لا غير.

وكان ما يلبسه أيام الصيف وما على فرسه من آلة السرج وغيره لا يساوي عشرة دنانير مصرية.

وكان معظمًا للشريعة محبًا للفقهاء وطلبة العلم وما وقع منه من الإخراق ببعضهم وحبسهم بحبس المقشرة فلا نقول: كان ذلك بحق بل نقول: الحاكم يجتهد ثم يقع منه الصواب والخطأ فإن كان ما فعله بحق فقد أصاب وإن كانت الأخرى فقد أخطأ وأعيب عليه ذلك.

الطويل ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء فخراً أن تعد معايبه وكان معظمًا للسلطنة الأشرف وكان يقوم لمن دخل عليه من الفقهاء والفقراء كائنًا من كان.

وإذا قرأ عنده أحد فاتحة الكتاب نزل عن مدورته وجلس على الأرض إجلالاً لكلام الله تعالى.

وكان كريمًا جدًا يجود بالمال حتى نسب إلى السرف.

وكان ينعم بالعشرة آلاف دينار إلى ما دونها.

وكان ممن أنعم عليه بعشره آلاف دينار الأتابك قرقماس الشعباني وأما دون ذلك من الألف إلى المائة فدوامًا طول دهره لا يمل من ذلك حتى إنه أتلف في أيام سلطنته من

الأموال ما لا يدخل تحت حصر كثرة وبكفيك أنه بلغت نفقاته على المماليك وصلات الأمراء والتراكمين وغيرهم وفي أثمان ممالكك اشتراهم وتجاريد جردها في مدة أولها موت الملك الأشرف برسباي وأخرها سلخ سنة أربع وأربعين وثمانمائة وذلك مدة ثلاث سنين مبلغ ثلاثة آلاف ألف دينار ذهبًا مصريًا وذلك خلاف الخلع والخيول والقماش والسلاح والغلال وخلاف جوامك المماليك ورواتبهم المعتادة.

وكان لا يلبس إلا القصير من الثياب ونهى الأمراء وأكابر الدولة وأصاغرها عن لبس الثوب الطويل وأمعن في ذلك حتى إنه يهدل بسبب ذلك جماعة من أعيان الدولة وعاقب جماعة من الأصاغر وقص أثواب آخرين في الملأ من الناس.

وكان أيضًا يوبخ من لا يحف شاربه من الأتراك وغيرهم.

وفي الجملة أنه كان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر مع سرعة استحالة وحدة مزاج وبطش.

وكان غالب ما يقع منه من الإخراق بالناس يكون بحسب الواسطة من حواشيه فإنه كان مهما ذكره له قبله منهم وأخذه على طريق الصدق والنصيحة لسلامة باطنه وأيضًا على قاعدة الأتراك من كون الحق عندهم لمن سبق.

وبالجملة فكانت محاسنه أكثر من مساوئه وهو أصلح من ولي ملك مصر من طائفته في أمر الدين والتقوى فإنه كان قمع المفسدين والجبارين من كل طائفة وكسدت في أيامه أحوال أرباب الملاهي والمغاني وتصلح غالب أمرائه وجنده وبقي أكثرهم يصوم الأيام في الشهر ويعف عن المنكرات كل ذلك مراعاة لخاطره وخوفًا من بطشه.

وهذا كله بخلاف ما كان عليه كثير من الملوك السالفة فإنه كان غالبهم يقع فيما ينهى عنه فكيف يصير للنهي عنه بعد ذلك محل ومن عظم ذلك قال بعض الفضلاء الطرفاء: نابت هذه الدولة عن الموت في هدم اللذات والأيام الطيبة".

ولم يبق في دولته ممن يتعاطى المسكرات إلا القليل وصار الذي يفعل ذلك يتعاطاه في خفية ويرجفه في تلك الحالة صفيير الصافر.

وكانت صفته قصيرًا للسمن أقرب أبيض اللون مشربًا بجمرة صبيح الوجه منور الشبية فصيحًا باللغة التركية وباللغة العربية لا بأس به بالنسبة لأبناء جنسه وكان له اشتغال في العلم ويستحضر مسائل جيدة ويبحث مع العلماء والفقهاء ويلزم مشايخ القراءات ويقرأ عليهم دومًا.

وكان يقتني الكتب النفيسة ويعطي فيها الأثمان الزائدة عن ثمن المثل.

وكان يحب مجالسة الفقهاء ويكره اللهو والطرب ينفر منهما بطبعه.

وكان يتجنب المزاح وأهله ولا يميل للتجمل في الملبس ويكره من يفعله في الباطن.

وكانت أيامه آمنة من عدم الفتن والتجاريد ولشدة حرمة.

وخلف من الأولاد الذكور واحدًا وهو ولده الملك المنصور عثمان وأمه أم ولد رومية وابنتين: الكبرى أمها خوند مغل بنت القاضي ناصر الدين بن البارزي وزوجها السلطان لمملوكه أزيك من ططخ الساقى والصغرى بكر وأمه أم ولد جاركسية ماتت قديمًا.

ذكر من عاصره من الخلفاء: أولهم أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو الفتح داؤد إلى أن توفي يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين حسبما يأتي ذكره في الوفيات هو وغيره والمستكفي بالله سليمان إلى أن مات في يوم الجمعة ثاني محرم سنة خمس وخمسين والقائم بأمر الله حمزة والثلاثة إخوة.

قضاته بالديار المصرية

الشافعية: الحافظ شهاب الدين ابن حجر غير مرة إلى أن توفي وهو معزول في سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وقاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني غير مرة ثم قاضي القضاة شمس الدين محمد القاياتي إلى أن مات في أوائل سنة خمسين ثم قاضي القضاة ولي الدين محمد السفطي وعزل وامتنح ثم قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي.

والحنفية: شيخ الإسلام سعد الدين سعد الديري ولي في الدولة العزيزية ومات الملك الظاهر وهو قاض.

والمالكية: العلامة قاضي القضاة شمس الدين محمد البساطي إلى أن مات في ليلة ثالث عشر شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين ثم قاضي القضاة بدر الدين محمد بن التنسي إلى أن مات بالطاعون في أواخر يوم الأحد ثاني عشر صفر ثلاث وخمسين ثم قاضي القضاة ولي الدين محمد السنباطي ومات وهو قاضي الحنابلة: شيخ الإسلام محدث الدين أحمد البغدادي إلى أن مات في الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى سنة أربع وأربعين ثم قاضي القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي ومات وهو قاض رحمه الله.

ذكر من ولي في أيامه الوظائف السنوية من الأمراء: وظيفه الأتابكية بالديار المصرية: وليها من بعده الأتابك قرقماس الشعب الناصري أياما يسيرة دون نصف شهر ثم من بعده الأتابك آقبا التمرزي أشهرًا ونقل إلى نيابة دمشق ومات في سنة ثلاث وأربعين بدمشق ثم الأتابك يشبك السوداني المعروف بالمشد إلى أن مات في سنة تسع وأربعين ثم الأتابك إينال العلاني الناصري.

وظيفة إمرة سلاح: وليها آقبا التمرزي أيامًا يسيرة ثم من بعده يشبك السوداني المقدم ذكره أشهرًا ثم تمرز القرمشي أمير سلاح إلى أن توفي بالطاعون في صفر سنة ثلاث وخمسين ثم جرباش الكريمي المعروف بقاشق.

وظيفة إمرة مجلس: وليها يشبك السوداني أيامًا ثم جرباش الكريمي قاشق سنين ثم تتم من عبد الرزاق المؤيدي.

وظيفة الأمير آخورية الكبرى: وليها تمرز القرمشي أشهرًا ثم الأمير قراخا الحسني سنين إلى أن مات بطاعون سنة ثلاث وخمسين ثم قاني باي الجاركسي.

وظيفة رأس نوبة النوب: وليها تمرز القرمشي ثم من بعده قراخا الحسني ثم تمرباي التمربغاوي إلى أن مات بطاعون سنة ثلاث وخمسين ثم أسنبغا الناصري الطياري.

وظيفة حجووية الحجاب: باشرها يشبك السوداني أيامًا ثم من بعده تغري بردي البلكمشي المؤيدي أشهرًا ثم تنبك البرديكي الظاهري برقوق سنين إلى أن نفي في سنة أربع وخمسين إلى دمياط ثم خشقدم من ناصر الدين المؤيدي.

وظيفة الدوادارية الكبرى: باشرها في أوائل دولته أركماس الظاهري أشهرًا إلى أن نفي إلى ثغر دمياط ثم من بعده تغري بردي المؤيدي البكلمشي إلى أن مات في سنة ست وأربعين ثم إنال العلائي الناصري إلى أن نقل منها إلى الأتابكية ثم قاني باي الجاركسي إلى أن نقل إلى أمير أخورية ثم دولات باي المحمودي المؤيدي إلى أن قبض عليه في دولة المنصور عثمان.

كتابة السر: باشرها صاحب بدر الدين بن نصر الله أشهرًا ثم المقر الكمالي ابن البارزي إلى أن مات في يوم الأحد سادس عشرين صفر سنة ست وخمسين ثم القاضي محب الدين بن الأشقر.

وظيفة نظر الجيش: الزيني عبد الباسط بن خليل الدمشقي إلى أن مسك وصور ثم القاضي محب الدين بن الأشقر ثم القاضي بهاء الدين محمد بن حجي ثم ابن الأشقر ثانيًا إلى أن نقل إلى كتابة السر ثم عظيم الدولة الجمالي يوسف مضافًا إلى نظر الخاص وتدبير المملكة.

الوزارة: باشرها صاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخات سنين ثم صاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم أيضًا سنين ثم الأمير تغري بردي القلاوي الظاهري جقمق.

وظيفة نظر الخاص: باشرها المقر الجمالي من الدولة الأشرفية برسباي إلى يوم تاريخه.

وظيفة الأستادارية: باشرها جانبك الزيني عبد الباسط أشهرًا ثم الناصري محمد بن أبي الفرج نقيب الجيش ثم الأمير قيز طوغان العلائي ثم الزيني عبد الرحمن بن الكويز ثم زين الدين يحيى بن الأشقر المعروف بقريب ابن أبي الفرج.

أمراء بمكة والمدينة أمراء مكة المشرفة: الشريف بركات بن حسن بن عجلان إلى أن عزل ثم وليها أخوه الشريف علي بن حسن بن عجلان إلى أن قبض عليه وحمل القاهرة ثم وليها أخوه الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان إلى أن عزل وأعيد الشريف بركات بن حسن بن عجلان.

▲ أمراء المدينة

: الشريف أميان إلى أن عزل ثم الشريف سليمان بن غرير إلى قتل ثم الشريف ضيغم إلى أن قتل أيضًا ثم أعيد الشريف أميان ثانيًا إلى أن توفي سنة خمسين وثمانمائة وولي بعده الشريف زبيري بن قيس.

ذكر نوابه بالبلاد الشامية: فبدمشق: الأمير إنال الحكمي إلى أن عصى وقتل ثم الأتابك أقبغا التمراري إلى أن توفي سنة ثلاث وأربعين ثم الأمير جليان الأمير آخور.

وبحلب: الأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش البهسني التركماني أن عصى وقتل ثم جليان الأمير آخور المقدم ذكره ثم قاني باي الحمزاوي أن عزل ثم برسباي الناصري الحاجب ثم قاني باي البهلوان إلى أن مات ثم من عبد الرزاق المؤيدي إلى أن عزل وأعيد قاني باي الحمزاوي ثانيًا.

وبطرابلس: الأمير جليان الأمير آخور أشهرًا ونقل إلى نيابة حلب قاني باي الحمزاوي ثم برسباي الناصري الحاجب ثم يشبك الصوفي المؤيدي إلى أن عزل ونفى إلى دمياط ثم يشبك النوروزي.

وبحماة: قاني باي الحمزاوي أشهرًا ثم برديك العجمي الحكمي إلى أن عزل وحبس بالإسكندرية ثم الأمير قاني باي الناصري البهلوان ثم شاد بك الحكمي.

إلى أن عزل وتوجه إلى القدس بطالًا ثم الأمير يشبك الصوفي المؤيدي ثم الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي ثم بيغوت الأعرج المؤيدي سودون أبو بكرى المؤيدي حلب إلى أن عزل ثم حاج إينال الحكمي.

وبصفد: الأمير إينال العلاني الناصري الذي تسلطن إلى أن عزل وقدم القاهرة أمير مائة ومقدم ألف بها ثم قاني باي الناصري البهلوان أتابك دمشق ثم بيغوت من صفر خجا الأعرج المؤيدي ثم يشبك الحمزاوي نائب غزة إلى أن توفي ثم أعيد بيغوت ثانيًا بعد أمور وقعت له.

وبغزة: طوخ مازي الناصري إلى أن مات ثم طوخ الأبوبكري المؤيدي إلى أن قتل ثم يلخجا الساقى الناصري إلى أن مات ثم حطط الناصري فرج إلى أن عزل ثم يشبك الحمزاوي دوادار السلطان بحلب ثم طوغان العثماني إلى أن توفي ثم خيربك النوروزي إلى أن عزل ثم جانبك التاجي المؤيدي.

وبالكرك: الصاحب غرس الدين خليل بن شاهين الشخي إلى أن عزل ثم آقبا من مامش الناصري التركماني إلى أن عزل وحبس ثم مازي الظاهري برقوق إلى أن عزل ثم حاج إينال الحكمي ثم طوغان السيفي أقبردي المنقار.

ذكر زوجاته أيام سلطنته: أما قبل سلطنته فكثير جدًا وأولهم في أيام سلطنته خوند مغل بنت البارزي تزوجها قبل سنة ثلاثين وطلقها في سنة اثنتين وخمسين ثم زينب بنت جرباش الكريمي قاشق ومات عنها ثم شاه زادة بنت ابن عثمان ملك الروم وطلقها في سنة أربع وخمسين ثم نفيسة بنت ناصر الدين بك ابن دلغادر ماتت في سنة ثلاث وخمسين بالطاعون ثم بنت حمزة بك بن ناصر الدين ابن دلغادر ثم بنت كرتباي الجاركسية قدم بها أبوها من بلاد الجاركس وأسلم على ما قيل ثم عاد إلى بلاده ثم بنت زين الدين عبد الباسط ولم يزل بكارتها تزوجها بعد موت أبيها في سنة خمس وخمسين وثمانمائة.

السنة الأولى من سلطنة الظاهر جقمق وهي سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

على أن الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباي حكم منها تاسع عشر أشهر ربيع الآخر ثم حكم الملك الظاهر في باقيها وهي سلطنته على مصر على كل حال.

وفيها أعني سنة اثنتين وأربعين توفي حافظ الشام ومحدثه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن علي القيسي الدمشقي الشافعي المعروف بابن ناصر الدين بدمشق في ثامن عشر شهر الآخر ومولده في محرم سنة سبع وسبعين وسبعمائة.

وسمع الكثير وطلب الحديث ودأب وحصل وكتب وصنف وصار حافظ دمشق ومحدثه إلى أن مات.

وتوفي الأمير صفى الدين جوهر بن عبد الله الجلباني الحبشي الزمام المعروف باللالا في يوم الأربعاء ثالث عشرين جمادى الأولى عن نحو ستين سنة تخمينا.

وكان أصله من خدام الأمير عمر بن بهادر المشرف وأنعم على أخته زوجة الأمير جليان الحاجب فأعتقه جليان ودام بخدمته حتى مات.

وماتت سته زوجة الأمير جليان الحاجب فاتصل بعدهما بخدمة الملك الأشرف برسباي قبل سلطنته ودام عنده إلى أن تسلطن فرقاؤه وجعله لالة ابنه المقام الناصري محمد ثم من بعده لالا ابنه الملك العزيز يوسف ثم ولاه زمامًا موت الطواشي خشدقم الرومي الظاهري في جمادى الأولى سنة تسع ثلاثين وثمانمائة فاستمر في وظيفته زمامًا إلى أن توفي الملك الأشرف وملك الملك العزيز يوسف.

ثم خلع العزيز وتسلطن الملك الظاهر جقمق فأمسكه وهو مريض وصادره وعزله وولى عوضه زمامًا الطواشي الرومي فيروز الساقى الجاركسي.

فلم تطل أيام جوهر المذكور بعد ذلك ومات.

وكان من رؤساء الخدام حشمة وعقلًا ودينًا وكرمًا وهو صاحب المدرسة والدار بالمصنع بالقرب من قلعة الجبل وتوفي قاضي القضاة علامة عصره شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان البساطي المالكي قاضي قضاة الديار المصرية وعالمها في ليلة الجمعة ثالث عشر شهر رمضان.

ومولده في محرم سنة ستين وسبعمائة ومات وقد انتهت إليه الرئاسة في المعقول والمنقول.

وكان منشأه بالقاهرة وبها تفقه وطلب العلم واشتغل على علماء عصره حتى برع في علوم كثيرة وأفتى ودرس وتصدى للاشتغال سنين كثيرة وبه تخرج غالب علماء عصره من سائر المذاهب.

وأول ما وليه من الوظائف: تدريس المالكية بمدرسة جمال الدين الأستاذار وناب في الحكم عن ابن عمه قاضي القضاة جمال الدين البساطي سنين ثم استقل بالقضاء في الدولة المؤيدية شيخ بعد جمال الدين البساطي المذكور فباشر القضاء نحو عشرين سنة إلى أن مات قاضيًا.

وفيه قتل الأمير سيف الدين قرقماس بن عبد الله الشعباني الناصري المعروف بأهرام ضاغ بثغر الإسكندرية حسبما يأتي ذكره.

كان أصله من كتابية الملك الظاهر برقوق فيما أظن ثم أخذه الملك الناصر فرج وأعتقه وجعله خاصكيًا.

ثم صار دوادارًا في الدولة المؤيدية شيخ من جملة الأجناد إلى أن أمره الأمير ططر عشرة ثم صار أمير طبليخاناه ودوادارًا ثانيًا في أوائل الدولة الأشرفية وأجلس النقباء على بابه وحكم بين الناس - ولم يكن ذلك بعادة: أن يحكم الدوادار الثاني بين الناس - ثم أنعم عليه الملك الأشرف برسباي بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في سنة ست وعشرين وتولى الدوادارية الثانية بعده جانبك الخازندار الأشرفي.

ثم وجهه الأشرف برسباي إلى مكة المشرفة شريكًا لأميرها الشريف عنان بن مغامس بن رمينة الحسنى فأقام بمكة مدة ثم عاد إلى القاهرة بعد أن أعيد الشريف حسن بن عجلان إلى إمرة مكة ومات حسن وتولى ابنه الشريف بركات.

وقدم قرقماس المذكور إلى مصر على إمرته أمير مائة ومقدم ألف.

ودام على ذلك سنين إلى أن استقر حاجب الحجاب بالديار المصرية بعد الأمير جرباش الكريمي قاشق بحكم انتقال جرباش إلى إمرة مجلس فباش الحجوية بحرمة زائدة وعظمة وبطش في الناس بحيث هابه كل أحد وصار يخلط في حكوماته ما بين ظلم وعدل ولين وجبروت إلى أن استقر في نيابة حلب بعد الأمير قصره من تراز الظاهري برقوق بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق بعد موت الأمير جارقطلو في حدود سنة سبع وثلاثين وثمانمائة فباش نيابة حلب مدة تزيد على السنة وعزل عنها بعد أن أبدع في المفسدين بها وأشيع الخبر عنه بالخروج عن الطاعة.

وقدم إلى القاهرة على النجب بطلب من السلطان وخلع عليه باستقراره أمير سلاح بعد الأمير جقمق العلاني صاحب الترجمة بحكم انتقال جقمق للأتابكية عوضًا عن إينال الجكمي بحكم استقرار الجكمي في نيابة حلب عوضًا عن قرقماس المذكور فاستمر أمير سلاح مدة.

وتجرد إلى البلاد الشامية مقدم العساكر ومعه سبعة أمراء من مقدمي الألوف في سنة إحدى وأربعين وقد تقدم ذكر ذلك كله في ترجمة الملك الأشرف وغيره من هذا الكتاب وإنما نذكره هنا ثانيًا لينتظم سياق الكلام مع سياقه.

ومات الملك الأشرف في غيبته ثم قدم القاهرة مع رفقته وقد ترشح الأتابك جقمق للسلطنة وسكن باب السلسلة من الإسطبل السلطاني وكان حريصًا على حب الرئاسة.

فلما رأى أمر جقمق قد استفحل كاد يهلك في الباطن وما أمكنه إلا الموافقة وقام معه حتى تسلطن ثم وثب عليه حسبما تقدم ذكره بعد أربعة عشر يومًا من سلطنة الملك الظاهر جقمق وقاتله وانكسر بعد أمور حكيناها في أصل هذه الترجمة وهرب ثم ظهر وأمسك وحبس بسجن الإسكندرية إلى أن ضربت رقبتة بالشرع في ثغر الإسكندرية في يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة.

وكان قرقماس أميرًا ضخمًا شجاعًا مقدمًا عارقًا بفنون الفروسية وعنده مشاركة بحسب الحال إلا أنه كان فيه ظلم وعسف وجبروت.

وكان مع شجاعته وإقدامه لا ينتج أمره في الحروب لعدم موافقة رجليه ليديه فإنه كان إذا دخل الحرب يبطل عمل رجليه في تمشية الفرس لشغله بيديه وهو عيب كبير في الفارس وشهر ذلك عن جماعة من الأقدمين من فرسان الملوك مثل الأتابك إينال اليوسفي ويونس بلطا نائب طرابلس وغيرهما - انتهى.

ومعنى "أهرام ضاغ" أي جبل الأهرام سمي بذلك قديمًا لتكبره وتعظيمه.

وتوفي القاضي علم الدين أحمد بن تاج الدين محمد بن علم الدين محمد بن كمال الدين محمد بن قاضي القضاة علم الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدر الإخنائي المالكي أحد فقهاء المالكية ونواب الحكم بالقاهرة في يوم الأربعاء خامس عشرين شهر رمضان وكان مشكور السيرة عفيفًا عما يرمي به قضاة السوء.

وتوفي قاضي قضاة دمشق المالكية محيي الدين يحيى بن حسن بن محمد الحيجاني المغربي في يوم الأربعاء حادي عشر ذي القعدة وكان دنيًا عفيفًا حسن السيرة في أحكامه.

وتوفي السيد الشريف أحمد بن حسن بن عجلان المكي الحسني بعدما فارق أخاه الشريف بركات بن حسن وسار إلى اليمن فمات بزيب.

وتوفي الأتابك إينال بن عبد الله الحكمي نائب الشام قتيلاً بقلعة دمشق في ليلة الاثنين ثاني عشرين ذي القعدة وقد قدمنا من ذكره في أول ترجمة الملك الظاهر هذا وغيره نبذة كبيرة تعرف منها أحواله غير أننا نذكر الآن سبب ترقيه لا غير: فأصله من مماليك الأمير جكم من عوض الظاهري المتغلب على حلب وخدم من بعد أستاذه المذكور عند الأمير سودون الظاهري برقوق ويعرف بسودون بقجة وصار خازن داره.

ثم اتصل بخدمة الملك المؤيد شيخ فلما تسلطن شيخ جعله ساقياً ثم أمسكه وعاقبه عقوبة شديدة لأمر أوجب ذلك ثم نفاه إلى البلاد الشامية ثم أعاده بعد وقعة قاني باي نائب الشام وأنعم عليه بإمرة عشرة ثم جعله أمير طبلخاناه وشاد الشراب خاناه.

ثم أنعم عليه الأمير ططر بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية وولاه رأس نوبة النوب ثم نائب حلب ثم عزله بعد شهر وأيام وجعله أمير سلاح.

ثم قبض عليه مع من قبض عليه من الأمراء المؤيدية وغيرهم كل ذلك في مدة يسيرة وحبس مدة سنين إلى أن أطلقه الملك الأشرف برسباي بشفاعة الناصري محمد بن منجك ووجهه إلى الحجاز.

ثم عاد وأقام بالقدس بطالاً إلى أن طلبه الملك الأشرف إلى مصر وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضاً عن الأتابك بيغا المظفري بحكم القبض عليه وذلك في سنة سبع وعشرين ثم جعله أمير مجلس سنين ثم نقله إلى إمرة سلاح بعد موت إينال النوروزي ثم جعله أتابكاً بعد سودون من عبد الرحمن وهو على إقطاعه ولم ينعم السلطان عليه بإقطاع الأتابكية.

فدام على ذلك مدة طويلة إلى أن خلع السلطان عليه باستقراره في نيابة حلب بعد عزل قرقماس الشعباني واستقر عوضه في الأتابكية الأمير جقمق العلاني فلم تطل مدته في نيابة حلب ونقل منها بعد أشهر إلى نيابة الشام بعد موت قصروه من تمرار فدام في نيابة دمشق إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فباع له أولاً وليس خلعتة وباس الأرض ثم عصى بعد ذلك ووقع ما حكيناه من أمره في ترجمة الملك الظاهر جقمق من قتاله لعسكر السلطان وهزيمته والقبض عليه وقتله.

وكان إينال أميراً جليلاً شجاعاً مقداماً عاقلاً سيوساً حشماً وقوراً كريماً رئيساً كامل الأدوات كثير الأدب مليح الشكل معتدل القد للسمن أقرب نادرة في أبناء جنسه قل أن ترى العيون مثله عفا الله عنه.

ومات وسنه نحو الخمسين سنة تخميناً.

وتوفي الأمير سيف الدين يخشباي بن عبد الله المؤيدي شيخ ثم الأشرفي برسباي الأمير أخور الثاني قتيلاً بسيف الشرع.

ضربت رقبتة بثغر الإسكندرية.

وقد تقدم ذكر سبب قتله في أوائل ترجمة الملك الظاهر هذا.

وقتل يخشباي وسنه نحو الثلاثين سنة تخميناً.

وكان شابًا طويلًا جميلًا مليح الشكل عاقلًا عارفًا بأنواع الفروسية وعنده فهم وذوق ومعرفة ومحاضرة حسنة وتذاكر بالفقه وغيره حسب الحال عوض الله شبابه الجنة بمنه وكرمه.

وتوفي الأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برميش نائب حلب مضروب الرقبة بحلب في يوم الأحد سابع عشر ذي الحجة وأصل تغري برميش هذا من مدينة بهسنا.

وجفل هو وأخوه حسن - وكان حسن الأكبر - من بهسنا في كائنة تيمورلنك وقدما بعد ذلك بسنين إلى الديار المصرية فخدم أخوه حسن تبعًا عند الأمير قرا سنقر الظاهري وجلس حسين هذا عند بعض الخياطين بالمصنع من تحت القلعة.

ثم انتقل أيضًا إلى خدمة قرا سنقر لجمال صورته ثم انتقل من عند قرا سنقر إلى الأمير إينال حطب العلائي وصار عنده من جملة ممالكة الكتابية إلى أن مات إينال حطب فأخذه دوادره الأمير فارس وأتى له إلى الوالد.

وكان الوالد من جملة أوصياء إينال حطب فأخذه الوالد وجعله إنيا لمملوكه شاهين أمير آخور فجعله شاهين في الطبقة وسفاه تغري برميش ثم أخرج له الوالد خيلًا وقماشًا مع جملة مماليك آخر وجعله جمدارًا فدام على ذلك إلى أن تولى الوالد نيابة دمشق التي مات فيها فأفسد تغري برميش هذا من مماليك الوالد مملوكين وأخذهما وهرب إلي طرابلس: أحدهما في قيد الحياة إلى يومنا هذا جملة المماليك السلطانية واسمه أيضًا تغري برميش الصغير.

وبلغ الوالد خبرهما فأمر أن يكتب إلى الأمير جانم نائب طرابلس بالقبض عليهم الثلاثة وإرسالهم إليه في الحديد فخشي أغاثهم شاهين الأمير آخور عليهم من الضرب والإخراق فسأل الوالد أنه يسافر إليهم وتوجه شاهين إليهم فوجدهم بقاعة في طرابلس فنزل عن فرسه ودخل عليهم استخفافًا بهم فحال ما وقع بصرهم عليه هرب تغري برميش الصغير ويوسف ووثب تغري برميش ليهرب فلحقه شاهين فجذب سيفه وضرب شاهين به فقتله ثم هرب.

فكتب الأمير جانم نائب طرابلس محضرًا بواقعة الحال وأرسله إلى الوالد ومع المحضر يوسف وتغري برميش الصغير وهرب تغري برميش هذا فرس الوالد بتحصيل تغري برميش المذكور وشنقه.

وكان الوالد مشغولًا بمرض موته وماش بعد مدة يسيرة.

وخدم تغري برميش هذا عند الأمير طوخ الظاهري برقوق ويقال له طوخ بطيخ نائب حلب وترقى عنده وصار رأس نوبته.

ثم خدم بعده عند جقمق الأرغون شاوي الدوادار وصار أيضًا رأس نوبته ثم دوادره في آخر أيامه وكار لجقمق دوادار آخر يسمى إينال الحمار فكان جقمق يقول " دواداري: الواحد حمار والآخر ثور ".

ثم مشى حال تغري برميش بعد عند أبناء جنسه وسببه أنه لما انكسر أستاذه جقمق في دمشق وتوجه إلى بعض قلاع الشام وتحصن بها إلى أن أنزل منها وقتل بدسياسة من تغري برميش هذا فأنعم عليه ططر بأمرة عشرة بالقاهرة ثم جعله الملك الأشرف أمير طبلخاناه ونائب قلعة الجبل ثم أنعم عليه بتقدمة ألف في سنة سبع وعشرين ثم جعله نائب غيبته بديار مصر لما سافر لآمد ثم جعله أمير آخور كبيرًا بعد الأمير جقمق العلائي

بحكم انتقال جقمق إلى إمرة سلاح ثم ولاءه نيابة حلب بعد عزل قرقماس الشعباني عنها فدام بحلب إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فبايعه ولبس خلعتة ثم عصى بعد ذلك - وليت الخمول عصى أولًا قبل مبايعته فكان يصير له عذر في الجملة! - ثم وقع له بعد عصيانه ما حكيناه في ترجمة الملك الظاهر جقمق إلى أن انكسر وأمسك ثم ضربت رقبته تحت قلعة حلب وسنه نحو الخمسين.

وكان تغري برمش رجلًا طوألًا مليح الشكل عاقلًا مدبرًا كثير الدهاء والمكر وكان يجيد رمي النشاب ولعب الكرة وكان عارفًا بأمور دنياه وأمر معيشتته متجملًا في مركبه ومليسه ومماليكه إلا أنه كان بخيلًا شحيحًا حريصًا على جمع المال قليل الدين لا يحفظ مسألة تامة في دينه مع قلة فهم وذوق وغلاظة طبع على قاعدة أوباش التراكمين وكان عارفًا من سائر العلوم والفنون غير ما ذكرنا لم أره منذ عمري مسك كتابًا بيده ليقراه هذا مع الجبن وعم الثبات في الحروب وقلة الرأي في تنفيذ العساكر وما وقع له مع ناصر الدين بك بن دلغادر في نيابته على حلب من الحروب والانتصار عليه كل ذلك كان بكثرة الشوكة وسعد الملك الأشرف برسباي.

وأما لما صار الأمر له لم يفلح في واقعة من الوقائع بل صار كلما دبر أمرًا انعكس عليه فإنه كان ظنيئًا برأي نفسه وليس له إطلاع في أحوال السلف بالكلية ولم يستشر أحدًا في أمره فحينئذ حمل وأحمل وتمزقت جميع عساكره وخانه حتى مماليكه مشترواته ومع هذا كله هو عند القوم في رتبة عليا من العقل والمعرفة والتدبير وعذرهم أنه لو لم يكن كذلك ما صار أميرًا - انتهى.

ومات تغري برمش والمحضر المكتتب عليه بسبب قتله لشاهين عندنا.

وقد طلبه مني غير مرة وأنا أسوف به من وقت إلى وقت وابدئ له أعذارًا غير مقبولة وأوري له في كلامي فيمشي ذلك ويطيب خاطره إلى أن عصى فطلبني الملك الظاهر جقمق وسألني عن المحضر فقلت: " عندي " فكاد يطير فرحًا.

ثم أفحش أمر تغري برمش في الحلبيين حتى أوجب ذلك قتله بغير محضر ولا حكم حاكم.

وتوفي الملك الظاهر هزبر الدين عبد الله بن الملك الأشرف إسماعيل علي بن داؤد بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول التركماني الأصل اليميني صاحب بلاد اليمن في يوم الخميس سلخ شهر رجب وكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة وفي أيامه ضعفت مملكة اليمن لاستيلاء العربان على بلادها وأموالها وأقيم بعده في ملك اليمن الملك الأشرف إسماعيل وله من العمر نحو العشرين سنة فأساء السيرة وسفك الدماء وقتل الأمير برقوقًا التركي القائم بدولتهم في عدة آخر من الأتراك ووقع له أمور كثيرة ليس لذكرها هنا فائدة.

الماء القديم خمسة أذرع وثلاثة وعشرون إصبغًا.

مبلغ الزيادة: ثمانية عشر ذراعًا وعشرون إصبغًا.

السنة الثانية من سلطنة الظاهر جقمق وهي سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة.

وفيها توفي الأمير علاء الدين آقبا بن عبد الله من مامش الناصري فرج التركماني نائب الكرك بعد أن عزل عنها وحبس بقلعتها في أواخر هذه السنة نحو ستين سنة من العمر ولم يشتهر في عمره بدين ولا شجاعة ولا كرم.

وتوفي الأتابك أقبغا التمرائي نائب الشام بها فجاءة وهو على ظهر فرسه صبيحة يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الآخر وسنه سبعون سنة تخمينا.

خبر موته أنه ركب من دار السعادة بعد أذان الفجر من اليوم المذكور وسار الميدان ولعب به الرمح وغير فيه عدة خيول ثم ساق البرجاس وغير فيه أيضا أفراسا كثيرة ثم ضرب الكرة مع الأمراء على عدة خيول يغيرها من تحته إلى أن انتهى وليس عليه ما يرد البرد عنه وسار إلى باب الميدان ليخرج منه ومماليكه مشاة بين يديه فقال لرأس نوبته: " فر المماليك ليأكلوا السماط " ثم مال عن فرسه فاعتنقه رأس نوبته المذكور وحمله وأنزله إلى قاعة عند باب الميدان فمات من وقته ولم يتكلم كلمة واحدة غير ما ذكرناه.

وكان أصله من مماليك الأمير تمتاز الناصري نائب السلطنة في دولة الناصر فرج ونسبه تمتاز أستاذه بالناصرى لأستاذه خواجه ناصر الدين وقد تقدم ذكره في الدولة الناصرية.

وخدم أقبغا هذا بعد موت أستاذه عند الأتابك دمرداش المحمدي ثم اتصل بخدمة الملك المؤيد شيخ فرقاہ المؤيد لسيادة كانت له في لعب الرمح وأنعم عليه بإمرة عشرة ثم طبلخاناه وجعله أمير آخور ثانياً ثم أنعم عليه الأمير ططر بإمرة مائة وتقدمة ألف وجعله من الأمراء المقيمين بالقاهرة لما سافر بالملك المظفر أحمد إلى دمشق ثم صار أمير مجلس في أوائل الدولة الأشرفية برسباي ثم ولي نيابة الإسكندرية بعد أسندمر النوري الظاهري برقوق مضاقاً علي تقدمته ثم عزل بعد سنين وأعيد إلى إمرة مجلس إلى أن جعله الملك الظاهر جقمق أمير سلاح ثم أتابك العساكر بالديار المصرية كلاهما بعد قرقماس الشعباني فباشر الأتابكية أشهراً وتولى نيابة دمشق لما عصى الأتابك إينال الجكمي وقد تقدم ذكر ذلك كله في أول ترجمة الملك الظاهر جقمق.

هذا ولم تطل مدة نيابته على دمشق سوى أشهر ومات.

وكان عارقاً بأنواع الفروسية كلعب الرمح وضرب الكوة وسوق المحمل والبرجاس رأساً في ذلك جميعه إمام عصره في ركوب الخيل ومعرفة تقلبيها في أنواع الملاعب المذكورة انتهت إليه الرئاسة في ذلك بلا مدافعة - لا أقول ذلك كونه صهري بل أقوله على الإنصاف - مع دين وعفة عن المنكرات والفروج وقيام ليل وزبارة الصالحين دواماً غير أنه كان مسيكا وعنده حدة مزاج ولم تكن شجاعته في الحروب بقدر معرفته لأنواع الملاعب والفروسية رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين طوخ بن عبد الله الناصري المعروف بطوخ مازي نائب غزة في ليلة السبت حادي شهر رجب.

وأصله من مماليك الملك الناصر فرج وتأمّر - بعد موت الملك المؤيد شيخ - عشرة وصار في الدولة الأشرفية برسباي من جملة رؤوس النوب ثم ترقى بعد سنين إلى إمرة طبلخاناه وصار رأس نوبة ثانياً ثم ولي نيابة غزة بعد موت أقبردي القجماسي في الدولة العزيزية يوسف إلى أن مات.

وكان متوسط السيرة منهمكاً في اللذات عارياً من كل علم وفن عفا الله عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد الله البهائي الظاهري نائب الإسكندرية بها في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى وهو في عشر السبعين.

وكان أصلاً من مماليك الملك الظاهر برقوق وكان يعرف بيلبغا قراجا لأنه كان أسمر اللون تركي الجنس.

وكان تأمر قديمًا إمرة عشرة ودام على ذلك سنين إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة طبلخاناه والحجوية الثانية عوضاً عن أسنغا الطياري ثم ولاه نيابة الإسكندرية إلى أن مات بها.

وكان من خيار الناس عقلاً ودينًا وسكوتًا وعفة مع مشاركته في الفقه وغيره ويكتب الخط المنسوب وكان فصيحًا بالغة العربية حلو الكلام جيد المحاضرة يذاكر بالأيام السالفة مذاكرة حسنة لذيدة وهو أحد من أدركناه من النوادر في معناه رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين قطج بن عبد الله من تمراز الظاهري بطالًا بالقاهرة في يوم الاثنين ثامن عشر من شهر رمضان.

وكان أصله من أصاغر ممالك الظاهر برقوق وتأمر أيضًا - بعد موت الملك المؤيد شيخ - عشرة ثم ترقى إلى أن صار في الدولة الأشرفية أمير مائة ومقدم ألف ودام على ذلك سنين إلى أن أمسكه الأشرف وسجنه بثغر الإسكندرية مدة ثم أفرج عنه وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بحلب ثم نقله إلى أتابكية حلب بعد نقل قاني باي البهلوان إلى أتابكية دمشق بحكم وفاة تغري بردي المحمودي بآمد فدام على ذلك سنين إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فقم القاهرة واستعفى من أتابكية حلب فأعفى يريد بذلك أن يكون من جملة أمراء مصر فلم يكثر الملك الظاهر بأمره ودام بطالًا إلى أن مات.

وكان يتممقر في حياته ويطلب من الأمراء فلما مات ظهر له مال كبير فأخذه من يستحقه.

ولله در أبي الطيب المتنبي فيما قال في هذا المعنى: الطويل وتوفي الأمير سيف الدين سودون الظاهري المغربي أحد أمراء العشرات والحجاب ثم نائب ثغر دمياط بطالًا بالقدس وكان أيضًا من ممالك الملك الظاهر برقوق وتأمر عشرة وصار من جملة الحجاب في الدولة الأشرفية برسباي ثم ولي نظر القدس في بعض الأحيان ثم ولي نيابة دمياط إلى أن أمسكه الملك الظاهر وحبسه مدة ثم أخرجه إلى القدس بطالًا إلى أن مات.

وكان دينًا خيرًا عفيقًا عن القاذورات عارقًا بأنواع الفروسية باجتهاده فكان خطاه فيه أكثر من صوابه.

وكان يتفقه ويكثر من الاشتغال دائمًا لا سيما لما اشتغل في النحو فضيع فيه زمانه ولم يحصل على طائل لقصر فهمه وعدم تصوره.

وكان يلج في المسائل الفقهية ويبحث فيها أشهرًا ولا يرضى إلا بجواب سمعه قديمًا من كائن من كان وكان هذا سبب نفيه فإنه بحث مرة مع الأمير بكتمر السعدي بحثًا فأجابه بكتمر بالصواب فلم يرض بذلك سودون هذا وألح في السؤال على عادته فنهره الملك الظاهر جقمق وهو يوم ذاك أمير آخور.

وقال له: " أنت حمار! " واحتد عليه فقال سودون: العلم ليس هو بالإمرة وإنما هو بالأعلم "

فحنق الملك الظاهر منه أكثر وأكثر وانفض المجلس.

وكان فيه أنواع ظريفة في حكمه بين الناس منها أنه يتحقق في عقله أن الحق لا يزال مع الضعيف من الناس وأن القوي لا يزال يجبر الضعيف فصار كلما دخل إليه خصمان

فينظر إليهما فيكون أحد الأخصام جنديًا والآخر فلاحًا والحق مع الجندي فلا يزال سودون يميل مع الفلاح ويقوي كلامه وحجته ويوهي كلام الجندي ودعواه حتى يسأل الجندي في المصالحة أو يأخذ فلاحه ويذهب إن كان له شوكة هذا بعد أن يوبخ الجندي ويعظه ويحذره عقوبة الله عز وجل ويذكر لا أفعال أبناء جنسه من المماليك.

وكان عنده كثرة كلام مع نشوفة ولهذا سمي بالمغربي.

فلما تكرر منه ذلك وعرف الناس طبعه ترامى الضعفاء عليه من الأماكن البعيدة فانتفع به أناس وتضرر به آخرون على أنه كان غالب اجتهاده في خلاص الحق على قدر ما تصل قدرته إليه رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي قضاة حلب علاء الدين علي بن محمد بن سعد بن محمد بن علي بن عثمان الحلبي الشافعي قاضي حلب وعالمها ومؤرخها المعروف بابن خطيب الناصرية في ليلة الثلاثاء تاسع ذي القعدة بحلب.

ومولده في سنة أربع وسبعين وسبعمئة وكان إمامًا عالمًا بارعًا في الفقه والأصول والعربية والحديث والتفسير وأفتى وعرس بحلب سنين وتولى قضاءها وقدم القاهرة غير مرة.

وله مصنفات منها: كتابه المسمى بالمنتخب في تاريخ حلب ذيله على تاريخ ابن العديم لكنه لم يسلك فيه ما شرطه في الاقتداء بابن العديم وسكت عن خلائق من أعيان العصر ممن ورد إلى حلب حتى قال بعض الفضلاء: " هذا ذيل قصير إلى الركبة ".

وكان سامحه الله مع فضله وعلمه يتساهل في تناول معالمه في الأوقاف بشرط الواقف وبغير شرط الواقف وكان له وظائف ومباشرة في جامع الوالد بحلب فكان يأخذ استحقاقه واستحقاق غيره وكان له طولة روح واحتمال زائد لسماع المكروه بسبب ذلك وهو على ما هو عليه ولسان حاله يقول: " لا بأس بالذل في تحصيل المال.

وكان يتولى القضاء بالبدل ويخدم أرباب الدولة بأموال كثيرة.

وملخص الكلام أنه كان عالمًا غير مشكور السيرة وكان به صمم خفيف.

وتوفي قاضي المدينة النبوية جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمود بن إبراهيم بن أحمد الكازروني الأصل المدني المولد والمنشأ والوفاة الشافعي في يوم الأربعاء عاشر ذي القعدة ودفن بالبقيع ومولده سنة سبع وخمسين وسبعمئة.

وكان بارعًا في الفقه وله مشاركة في غيره وتولى قضاء المدينة في بعض الأحيان ثم ترك ذلك ولزم العلم إلى أن مات.

وتوفي مجد الدين ماجد بن النخال الأسلمي القبطي كاتب المماليك السلطانية في ليلة السبت سادس ذي الحجة.

وكان أصله من نصارى مصر القديمة وخدم في عدة جهات وهو على دين النصرانية ودام على ذلك إلى أن أكرهه الأمير نوروز الحافظي على الإسلام فأظهر الإسلام وأبقى جميع ما عنده من النسوة والخدم على دين النصرانية.

وهو والد فرج بن النخال وزير زماننا هذا وأستاداره ثم قدم ماجد عند الأمير جقمق الدوادار ثم ترقى إلى أن ولي كتابة المماليك السلطانية سنين إلى أن مات.

وكان فيه مروءة وخدمة لأصحابه وأما غير ذلك فالسكات أجمل.

وما أظرف ما قال الشيخ تقي الدين المقريزي رحمه الله لما ذكر وفاته بعد كلام طويل إلى أن قال: " وكان لا دين ولا دنيا " .

▲ أمر النيل في هذه السنة

: الماء القديم أربعة أذرع وعشرة أصابع مبلغ الزيادة: عشرون ذراعًا وأحد عشر إصبغًا.

السنة الثالثة من سلطنة الظاهر جقمق وهي سنة أربع وأربعين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير صارم الدين إبراهيم ابن الأمير الوزير منجك اليوسفي بدمشق في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول وهو في عشر السبعين.

وكان مولده بدمشق وأعطي بها إمرة في دولة الملك المؤيد شيخ وحظي عنده إلى الغاية ثم صار على منزلته في الرفعة وأعظم عند الملك الأشرف برسباي حتى إنه كان يجلس فوق أمير سلاح.

وكان إذا حضر مجلس السلطان لا يتكلم السلطان مع غيره إلا لحاجة إجلالاً له.

وكان يقدم القاهرة في كل سنة مرة في مبادئ فصل الشتاء ثم يعود إلى دمشق في مبادئ فصل الصيف وفي الجملة أنه كان محظوظًا من الملوك إلى الغاية من غير أمر يوجب ذلك.

وقد حضرته كثيرًا في مبادئ عمري فلم أجد له معرفة بعلم من العلوم ولا فن من الفنون غير لعب الكرة وأنواع الصيد بالجوارح فقط والمال الكثير مع بخل وشح زائد يضرب به المثل وكنت أراه يكثر السكوت فأقول: " هذا لغزير عقله " وإذا له من قلة رأس ماله.

وقد حكى لي عنه بعض أكابر أعيان المملكة قال: لما خرج قاني باي نائب الشام عن طاعة المؤيد وعلم بذلك أعيان أهل دمشق اجتمعوا بمكان يشتهرون فيما يفعلون لئلا يقبض عليهم قاني باي المذكور وهم مثل: القاضي نجم الدين بن حجي والقاضي شهاب الدين بن الكشك والشريف شهاب الدين وخواجه شمس الدين بن المزلق وابن مبارك شاه وابن منجك وجماعة آخر من الأمراء وغيرهم فأخذ ابن منجك يتكلم فقال له القاضي شهاب الدين بن الكشك متهكمًا عليه في الباطن: " يا أمير محمد أنت رجل غزير العقل والرأي ونحن ضعفاء العقول.

لا تكلمنا على قدر عقلك وإنما تحدث معنا بقدر عقولنا " فقال ابن منجك المذكور: " إدا لا أحدثكم إلا على قدر عقولكم " .

فقالوا: " الآن تعمل المصلحة " .

وتكلموا فيما هم بصدده.

قلت: هذا هو الغاية في الجهل والتفنن في الجنون فإن كل واحد ممن كان اجتمع في ذلك المجلس يمكن أن يدبر مملكة سلطان وينفذ أموره على أحسن وجه - انتهى.

وتوفي قاضي القضاة شيخ الإسلام محب الدين أبو الفضل أحمد ابن الشيخ الإمام العلامة جلال الدين نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر التستري الأصل البغدادي الحنبلي قاضي قضاة الديار المصرية وعالم السادة الحنابلة في زمانه قي يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى بالقاهرة وهو قاض وتولى بعده قاضي القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي.

وكان مولد القاضي محب الدين ببغداد في شهر رجب سنة خمس وخمسين وسبعمائة. واشتغل بها وتفقه.

وقدم القاهرة في أول القرن واشتغل بها حتى برع في الفقه وأصوله والحديث والعربية والتفسير وتصدى للإفتاء والتدريس سنين وناب في الحكم بالقاهرة عن القاضي علاء الدين بن مغلي وبرع حتى صار المعول على فتواه.

ثم ولي قضاء الحنابلة بعد موت قاضي القضاة علاء الدين بن مغلي في يوم الاثنين سابع عشرين صفر سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ودام في الوظيفة إلى أن عزل بالقاضي عز الدين عبد العزيز بن علي بن العز البغدادي في ثالث عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين فلم تطل ولاية عز الدين وعزل وأعيد القاضي محب الدين هذا في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة ثلاثين واستمر قاضيًا إلى أن مات.

وقد ذكرنا أحواله ومشايخه في تاريخنا " المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي " بأوسع من هذا فليُنظر هناك.

وتوفي سعد الدين إبراهيم القبطي المصري المعروف بابن المرة في يوم الخميس عاشر شهر ربيع الآخر بالقاهرة وهو في عشر السبعين بعد أن افتقر واحتاج إلى السؤال.

وكان ولي نظر ديوان المفرد في الأيام الأشرفية برسباي ونظر بندر جدة سنين كثيرة وحصل له ثروة وعز وجاه ثم زال عنه ذلك كله ومات فقيرًا صدق عليه بالكفن.

وتوفي الأمير ناصر الدين محمد المرادوي المعروف بابن بوالي وهو اسم كردي غير كنية.

مات بدمشق بعد أن ولي أستاذية السلطان بالديار المصرية ثم عزل وولي أستاذية السلطان بدمشق إلى أن مات.

وقد تقدم ذكره في ترجمة الملك الأشرف برسباي عندما ولي الأستادية عوضًا عن أرغون شاه النوروزي وكان من الظلمة يقضي عمره في مظالم العباد.

وتوفي الأمير علاء الدين أطنبغا بن عبد الله المرقبي المؤيدي أحد أمراء الألوفا بالديار المصرية في يوم الاثنين عاشر شهر رجب.

وكان من كبار مماليك الملك المؤيد شيخ من أيام جنديته ورقاه بعد سلطنته وعمله نائب قلعة حلب ثم أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية ثم ولاة حجوية الحجاب إلى أن أمسكه الأمير ططر مع من أمسك من أمراء المؤيدية وحبس مدة ثم أطلق.

ودام بطالاً دهرًا طويلًا إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة مائة وتقدمة ألف بمصر في أوائل دولته فدام على ذلك إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي زين الدين قاسم البشتكي في يوم السبت ثاني شهر رجب.

وكان يتفقه ويترأس.

وتزوج بنت الأشرف شعبان.

وكان مقرَّبًا من الملوك.

وهو من مقولة ابن منجك في نوع من الأنواع غير أنه كانت لديه فضيلة بالنسبة إلى ابن منجك.

وتوفي الأمير سيف الدين ممجق بن عبد الله النوروزي أحد أمراء العشرات ونائب قلعة الجبل في يوم مستهل شهر رجب.

وكان أصله من مماليك الأمير نوروز الحافظي واتصل بخدمة السلطان فدام على ذلك دهرًا طويلًا لا يلتفت إليه إلى أن أمره الملك الظاهر جقمق عشرة وجعله نائب قلعة الجبل فاستمر على وظيفته إلى أن مات.

وكان لا ذات ولا أدوات.

وتولى تغري برميش الجلاي المؤيدي الفقيه نيابة قلعة الجبل بعده وأنعم عليه أيضًا بإمرته.

وتوفي القاضي شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن رسلان البلقيني الشافعي المعروف بالعجمي قاضي المحلة في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى.

وكان من فضلاء الشافعية وتولى قضاء المحلة سنين.

وتوفي الأمير الطواشي صفى الدين جوهر بن عبد الله القنقباي الخازندار والزماد في ليلة الاثنين أول شعبان وله نحو سبعين سنة ودفن بمدرسته التي أنشأها بجوار جامع الأزهر قبل أن تتم.

وكان أصله من خدام الأمير قنقباي الإلجائي اللالا.

ثم خدم بعد موت أستاذه عند خوند قنقباي أم الملك المنصور عبد العزيز ثم من بعدها عند جماعة آخر ثم اتصل بخدمة علم الدين داؤد بن الكويز ودام عنده إلى أن مات.

وبخدمته حسنت حاله ثم صار بعد ذلك بطالاً إلى أن نوه بذكره صاحبه جوهر اللالا ولا زال يعظم أمره عند الملك الأشرف برسباي إلى أن طلبه وولاه خازندارًا دفعة واحدة بعد خشقده الظاهري الرومي ولم تسبق لجوهر المذكور قبل ولايته الخازندارية رئاسة في

بيت السلطان فباشر الخازندارية بعقل وتديبر ورأي في الوظيفة وناله من العز والجاه ونفوذ الكلمة ما لم ينله طواشي قبله فيما رأينا.

ومات الملك الأشرف وهو على وظيفته لحسن سياسته.

ثم أضاف إليه الملك الظاهر جقمق وظيفه الزمامية بعد عزل فيروز الجاركسي لما تسحب الملك العزيز يوسف من الدور السلطانية حسبما تقدم ذكره.

واستمر على وظيفه الزمامية والخازندارية إلى أن مات من غير نكبة.

ولم يخفف مالا له جرم بالنسبة لمقامه فعظم ذلك على الملك الظاهر فإنه كان في عزمه أخذ ماله بوجه من الوجوه ونظر جوهر بذلك وأدرسته منيته ومات من غير أن يعلم أحداً بماله.

وكان جوهر عفيقا دينا عاقلا مدبرا سيوسا فاضلا يقرأ القرآن الكريم بالسبع وله صدقات ومعروف في أنه دخل في الدنيا واقتحم منها جانبًا كبيرًا وصار من المخلطين.

وهو أحد من أدركناه من عقلاء الخدام.

وتوفي القاضي شرف الدين أبو بكر بن سليمان الأشقر المعروف بابن العجمي الحلبي الأصل والمولد والمنشأ المصري الدار والوفاة نائب كاتب السر الشريف بالديار المصرية في يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان وهو في عشر الثمانين بعد أن رشح لوظيفة كتابة سر مصر غير مرة فلم يقبل ثم ولاه الملك الأشرف كتابة سر حلب على كره منه عوضًا عن زين الدين عمر بن السفاح فباشر ذلك مدة ثم عزل بعد أن استعفى وأعيدت إليه وظيفته نيابة كتابة السر وولي كتابة سر حلب عوضه ولده القاضي فعين الدين عبد اللطيف.

وكان شرف الدين المذكور رجلًا عاقلاً سيوسًا عارقًا بصناعة الإنشاء قام بأعباء ديوان الإنشاء عدة سنين وخدم عدة ملوك وكان مقرًا من خواطرهم محببًا إليهم رحمه الله تعالى.

وتوفي شمس الدين محمد بن شعبان في حادي عشرين شوال عن نيف وستين سنة بعد أن ولي حسبة القاهرة بالسعي مرارًا كثيرة وكان عاميًا يتزيا بزي الفقهاء.

حدثني من لفظه قال: " وليت حسبة القاهرة نيقًا وعشرين مرة " فقلت له: " هذا هجو في حقك لا تتكلم به بعد ذلك لأنك تسعى وتلي ثم تعزل بعد أيام فلائل وتكرر لك ذلك غير مرة فهذا مما يدل على عدم اكتراث أهل الدولة بشأنك وإهمالهم أمرك " فلم يعد إلى ذكرها بعد ذلك.

وتوفي الشيخ الإمام العالم نور الدين علي بن عمر بن حسن بن حسين بن علي بن صالح الجرواني الأصل ثم التلواني الشافعي الفقيه العالم المشهور في يوم الاثنين ثالث عشرين ذي القعدة.

وكان أصله من بلاد الغرب وسكن والده جروان وهي قرية بالمنوفية من أعمال القاهرة بالوجه البحري فولد له بها ابنه نور الدين هذا بعد سنة ستين وسبعمئة فنشأ بجروان ثم انتقل إلى تلوانة من قرى المنوفية فعرف بالتلواني.

ثم قدم القاهرة وطلب العلم ولازم شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني حتى أجازه بالفتوى والتدريس.

فتصدى الشيخ نور الدين من تلك الأيام للإقراء والتدريس وانتفع به جماعة من الطلبة وتولى عدة وظائف دينية وتداريس عديدة منها مشيخة الركنية ثم تدريس قبة الشافعي بالقرافة.

وكان دينًا خيرًا جهوري الصوت صحيح البنية وله قوة وفيه كرم وإفضال وهمة عالية رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن عمار بن محمد بن أحمد أحد علماء المالكية في يوم السبت رابع عشر ذي الحجة وقد أناف على السبعين بعد أن أفتى ودرس عدة سنين رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أفرع وأربعة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا واحد وعشرون إصبغًا.

السنة الرابعة من سلطنة الظاهر جقمق وفيها توفي الخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو الفتح داؤد ابن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد ابن الخليفة المعتضد بالله أبي بكر ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ابن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن حسين بن أبي بكر بن علي بن الحسين ابن الخليفة الراشد بالله منصور ابن الخليفة المقتدي بالله عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الأمير الموفق ولي العهد طلحة ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدي بالله محمد ابن الخليفة أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي العباسي المصري في يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول بعد مرض تمادى به أيامًا وحضر السلطان الملك الظاهر جقمق الصلاة عليه بمصلاة المؤمني ودفن بالمشهد النفيسي.

وكانت خلافته تسعة وعشرين سنة وأيامًا وتولى الخلافة من بعده أخوه شقيقه المستكفي بالله سليمان بعهد منه إليه.

وكان المعتضد خليفًا للخلافة سيد بني العباس في زمانه أهلًا للخلافة بلا مدافعة.

وكان كريمًا عاقلًا حليمًا متواضعًا دينًا خيرًا حلو المحاضرة كثير الصدقات والبر.

وكان يحب مجالسة العلماء والفضلاء وله مشاركة مع فهم وذكاء وفطنة.

وقد أوضحنا وتوفي الشيخ محب الدين بن الأوجاقي الحنفي في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر رجب بعد مرض طويل وكانت لديه فضيلة وفيه تدين وخير وللناس فيه اعتقاد.

وتوفي الشيخ الأديب المعروف بابن الزين بالوجه البحري في مستهل شهر ربيع الأول بعد أن مدح النبي صلى الله عليه وسلم بما ينيف على عشرة آلاف قصيدة قاله غير واحد.

وتوفي الشيخ الإمام العالم المحدث المفرن عمدة المؤرخين ورأس المحدثين تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد

البيعلبي الأصل المصري المولد والوفاء المقريري الحنفي ثم الشافعي هذا ما نقلناه من خطه وأملى علي نسبة الناصري محمد ابن أخيه بعد وفاته إلى أن رفعه إلى علي بن أبي طالب من طريق الخلفاء الفاطميين وذكرناه في غير هذا المصنف - انتهى.

وكانت وفاته في يوم الخميس سادس عشر شهر رمضان ودفن من الغد بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

ووهم قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني في تاريخ وفاته فقال: في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شعبان - انتهى.

سألت الشيخ تقي الدين رحمه الله عن مولده فقال: " بعد الستين وسبعمائة بسنيات "

وكان مولده بالقاهرة وبها نشأ وتفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة وهو مذهب جده لأمه الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفي ثم تحول شافعيًا بعد مدة لأمر اقتضى ذلك واشتغل على مذهب الشافعي وسمع الكثير على عدة مشايخ ذكرنا أسماء غالبهم في ترجمته في " المنهل الصافي " مع مصنفاته باستيعاب يضيق هذا المحل عن ذلك.

وكان الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى إمامًا بارعًا مفتحًا متقنًا ضابطًا دينًا خيرًا محبًا لأهل السنة يميل إلى الحديث والعمل به حتى نسب إليه مذهب الظاهر.

وكان فيه تعصب على السادة الحنفية بغير لباقة يعرف ذلك من مصنفاته.

وفي الجملة هو أعظم من رأيناه وأدركناه في علم التاريخ وضروبه مع معرفتي لمن عاصره من علماء المؤرخين والفرق بينهم ظاهر وليس في التعصب فائدة.

وتوفي قاضي الإسكندرية جمال الدين عبد الله بن الدماميني المالكي الإسكندري بها في يوم الأحد رابع ذي القعدة.

وكان مشهورًا بالسماحة إلا أن بضاعته من العلوم كانت مزجاة.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم عشرة أفرع ونصف.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا وخمسة عشر إصبعًا.

وكان الوفاء سادس عشرين أبيب.

وهي سنة ست وأربعين وثمانمئة.

وفيها توفي الشيخ الإمام العالم العامل العلامة نور الدين عبادة بن علي بن صالح بن عبد المنعم بن سراج بن نجم بن فضل الزرزاوي الفقيه المالكي المعروف بالشيخ عبادة شيخ السادة المالكية وعالمها بالديار المصرية في يوم الجمعة سابع شوال وصلى عليه صاحبه الشيخ مدين بجامع الأزهر.

ومات ولم يخلف بعده مثله علمًا ودينًا.

وكان مولده في جمادى الأولى سنة ثمانين وسبعين وسبعمئة ببلده زرزا.

وطلب العلم وسمع الحديث واشتغل على علماء عصره حتى برع في الفقه والأصليين
والعربية وأفتى ودرس واشتغل سنين كثيرة وانتفع به الطلبة.

وسئل بالقضاء بعد موت العلامة شمس الدين البساطي المالكي فامتنع فألح عليه
السلطان بالولاية وألزمه بها غصبًا فلما رأى تصمم السلطان على ولايته وأنه لا يستطيع
دفعه قال: " حتى أستخير الله "

وفر من يومه من القاهرة واختفى ببعض الأماكن إلى أن ولى السلطان القاضي بدر
الدين محمد بن التنسي فلما بلغه ذلك حضر إلى القاهرة بعد أيام كثيرة.

وهذا شيء لم يقع لغيره في عصرنا هذا فإننا لا نعلم من سئل بالقضاء وامتنع غيره.

وأما سواه فهم على أقسام: قسم يتنزه عن الولاية ويظهر ذلك حيلة حتى يشاع عنه ذلك
فإذا طلب بعد ذلك للقضاء يأخذ في التمتع وفي ضمن تمنعه يشرط على السلطان
شروطًا يعلم هو وكل أحد أنها لا تتم له وإنما يقصد بذكرها إلا نوعًا من الإجابة لكونه كان
امتنع أولًا فلا يمكنه القبول إلا بهذه الدورة فلم يكن بمجرد ذكره للشروط إلا وقد صار
في الحال قاضيًا ووقع ذلك لجماعة كثيرة في عصرنا.

وقسم آخر: هم الذين يسعون في الولاية سعيًا زائدًا ويبدلون الأموال ويتضرعون لأرباب
الدولة ويخضعون لهم وهيئات! هل يسمح لهم بذلك أم لا! فله در الشيخ عبادة فيما فعل
لأننا شاهدنا منه ما سمعناه عن السلف ورأينا من زهده وعفته ما ورثه عنه الخلف
واستمر بعد ذلك سنين على حاله من ملازمة العلم والعمل إلى أن مات رحمه الله
تعالى.

وتوفي قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن العز البغدادي الحنبلي قاضي قضاة
الحنابلة بالديار المصرية ثم بدمشق وبها مات في أواخر هذه السنة وتولى عوضه قضاة
دمشق ابن مفلح على عادته أولًا.

وكان القاضي عز الدين فقيهاً دينًا متقشفًا عديم التكلف في ملبسه ومركبه مع دهاء
ومكر ومعرفة تامة.

وقد مر من ذكره أنه لما ولى القضاء بالديار المصرية صار يمشي في الأسواق لحاجته
ويردف عبده على بغلته وأشياء من هذا النسق.

وكانت جميع ولاياته من غير سعي.

وكان يصحب الوالد واستمرت الصحبة بيننا إلى أن مات رحمه الله.

وتوفي جمال الدين عبد الله ابن الحسن بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الدمشقي
الأصل الأذرعى أخو الإمام شهاب الدين بالقاهرة في يوم الاثنين سابع عشر شوال وكان
عاريًا من كل علم وفن.

وتوفي الشيخ الواعظ جمال الدين السنباطي الشافعي أحد نواب الحكم بالقاهرة في يوم
الخميس تاسع عشرين شهر رمضان بعد مرض طويل عن ثمانين سنة وكان يعمل
المواعيد بالمساجد والجوامع وعلى وعظه أنس ورونق.

وكان يقرأ أيضًا على الكرسي بين يدي صهري شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن البلقيني في صبيحة كل يوم جمعة فيقرأ ساعة ثم إذا سكت ابتداءً شيخ الإسلام في عمل الميعاد وكان هذا دأبه إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي صاحب بدر الدين حسن بن نصر الله بن حسن بن محمد الأدكوي الأصل ثم الفوي كاتب سر الديار المصرية وناظر جيشها وخاصها والوزير بها ثم الاستادار ثم محتسب القاهرة في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأول ودفن بترتته بالصحراء بعدما كبر سنه واختلط عقله.

وكان مولده بغوة من المزاحمتين في ليلة الثلاثاء ثالث عشر ربيع الأول سنة ست وستين وسبعمائة وبها نشأ.

وتعلق على الخدم الديوانية فباشر في عدة جهات ثم انتقل إلى القاهرة ولا زال يترقى حتى ولي نظر جيش مصر ثم وزر بها ثم ولي الخاص كل ذلك في الدولة الناصرية فرج.

ثم ولي الوزارة والخاص أيضًا في دولة الملك المؤيد شيخ.

ثم صودر ونكب غير مرة.

ثم ولي الأستادارية في دولة الملك الصالح محمد.

ثم عزل وولي الخاص ثانيًا عوضًا عن مرجان الخازندار.

ثم ولي الأستادارية ثانيًا في دولة الأشرف برسباي عوضًا عن ولده صلاح الدين محمد.

وعزل عن نظر الخاص بالقاضي كريم عبد الكريم ابن كاتب حكيم في أوائل جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة.

وعزل بعد مدة وصودر هو وولده صلاح الدين.

ثم ولي الأستادارية بعد سنين ثالث مرة فلم تطل مدته فيها وعزل ولزم داره سنين إلى أن ولي كتابة السر بعد موت ولده صلاح الدين فباشر وظيفة كتابة السر مدة يسيرة وعزله الملك الظاهر جقمق بصهره المقر الكمالي بن البارزي فلزم صاحب بدر الدين بيته إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره.

وكان شيخًا طويلاً ضخماً حسن الشكالة مدور اللحية كريماً واسع النفس على الطعام تأصل في الرئاسة وطالت أيامه في السعادة فصار هو وولده صلاح الدين من أعيان رؤساء الديار المصرية على أنه كان لا يسلم في كل قليل من مصادرة ومع هذا كان له أنعام وأفضال على جماعة كبيرة إلا أنه كانت فيه بادرة وخلق سييء مع حدة مزاج وصياح في كلامه.

وكان لا يتحدث إلا بأعلى صوته ولهذا مله الملك الأشرف برسباي وأبعده.

وكان أكولاً أقصى وتوفي الأمير سيف الدين تغري بردي بن عبد الله البكلمشي المعروف بالمؤذي الدوادار الكبير في يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة بعد مرض طويل وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني ودفن بترتة طيغا الطويل الناصري حسن وطيغا الطويل هو أستاذ بكلمش وبكلمش أستاذ تغري بردي هذا.

ثم ترقى تغري بردي هذا بعد موت أستاذه حتى صار من جملة أمراء العشرات في الدولة الناصرية فرج ثم أمسك ولزم داره مدة إلى أن أنعم عليه بإمرة عشرة ضعيفة.

ودام على ذلك دهرًا طويلًا لا يلتفت إليه في الدول حتى إنني أقمت سنين أحسبه من جملة الأجناد.

ثم تحرك له سعد بعد سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وغير السلطان الملك الأشرف أقطاعه بعد موت الأمير جوبان المعلم وخلع عليه باستقراره من جملة رؤوس النوب ثم لا زال يرقيه حتى صار أمير طبلخاناه ورأس نوبة ثانيًا فعند ذلك أظهر ما كان خفيًا من لقبه بالمؤذي فله در القائل: " الظلم كمين في النفس العجز يخفيه والقوة تظهره " .

وصار إذا مسك العصاة في يده لا يزال يضرب هذا وينهر هذا والملوك تحب من يفعل ذلك بين يديهم فأنعم عليه بعد سنين بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم نقله الملك الظاهر جقمق إلى حجوية الحجاب بعد يشبك السوداني.

ثم صار دوادارًا كبيرًا بعد عزل أركماس الظاهري كل ذلك ومن يوم ولي الدوادارية عظم وضخم ونالته السعادة وعمر مدرسة بالشارع الأعظم بالقرب من جامع ابن طولون وسار في الدوادارية على طريق السلف من الحرمة وإقامة الناموس لا في كثرة المماليك وجودة السماط.

وكان يتفقه ويكتب الخط بحسب الحال ويعف عن المنكرات والفروج وعنده شجاعة وإقدام مع بخل وفحش في لفظه وجبروت وسوء خلق وحدة مزاج إلا أنه كان مشكور السيرة في أحكامه وينصف المظلوم من الظالم ولا يسمع رسالة مرسل كائن من كان فعد ذلك من محاسنه وكان رومي الجنس ويدعي أنه تركي الجنس رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أيتمش بن عبد الله الخصري الظاهري برقوق أحد أمراء العشرات وأستادار وهو بطال في آخر ليلة السبت العشرين من شهر رجب ودفن بتربة الأمير قطلوبك بالصحراء بعدما تعطل ولزم داره سنين من بياض أصابه في جسده.

وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ثم صار من جملة الدوادارية في الدولة الناصرية فرج ثم صار أمير عشرة في دولة الملك المؤيد شيخ ثم أنعم عليه الملك الظاهر ططر بإمرة طبلخاناه فلم تطل مدته.

ونفاه الملك الأشرف برسباي ثم شفع فيه بعد أشهر وأعيد من القدس إلى القاهرة وأنعم عليه بإمرة عشرة.

ثم ولي الأستادارية فلم ينتج أمره وعزل عنها بعد أن باشر الأستادارية نحو الشهرين.

واستمر أمير عشرة على عادته إلى سنة نيف وثلاثين فابتلي في جسده بالبياض بحيث كان يستتره بالحمرة فأخرج الملك الأشرف أقطاعه ورسم له بلزوم داره فصار يتردد إلى الجامع الأزهر وكان يسكن بدار بشير الجمدار بالأبارين بالقرب من الجامع المذكور ويحضر الدروس ويشوش على الطلبة ويسأل الأسئلة التي لا محل لها من الدرس الذي هم بصدد.

وكان قليل الفهم وتصوره غير صحيح مع جهل مفرط وعدم اشتغال قديمًا وحديثًا فإن أجابه أحد من الطلبة بجواب لا يفهمه سفه عليه وإن سكت القوم ازدرأهم ووبخهم.

وكان فصيحًا باللغة العربية على قاعدة العامة.

وكان قبل تاريخه ناب في نظر الجامع الأزهر عن جرباش الكريمي قاشقٍ ووقع له مع أهل الجامع أمور أيام توليته فلما زاد ذلك منه على الطلبة وبلغ الأشرف أمره رسم بنقلته من داره المذكورة ويسكنته بقرافة مصر فشجع فيه بعد أيام على أنه يسكن بداره ولا يدخل الجامع إلا في أوقات الصلوات.

ولما سافر الملك الأشرف إلى آمد أخرجه إلى القدس بطالاً.

ثم أعيد إلى القاهرة بعد عود السلطان من آمد ودام بها إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فداخله في الأمور من غير أن يلي إمرة ولا وظيفة.

وزاد وأمعن وصار يتكلم فيما لا يعنيه فغضب عليه الملك الظاهر جقمق ونفاه إلى القدس.

ثم شفع فيه عدله الأمير إينال العلاني الناصري أعني الملك الأشرف فأعيد إلى القاهرة ولزم داره إلى أن سقط عليه جدار فغطاه فأخرج من تحته مغشياً عليه فعاش بعده قليلاً ومات وهو في عشر السبعين.

وكان من مساوئ الدهر طيشًا وخفة مع كثرة كلام في ما لا يعنيه ويخاطب الرجل بما يكره ويوبخ الشخص بما فيه من المعاييب من غير أن يكون بينه وبين ذلك الرجل عداوة ولا صحبة وفيه بادرة وجرأة وإفحاش في اللفظ مع إسراف على نفسه.

وفي الجملة إن بقاءه كان عارًا على بني آدم.

وتوفي الأمير ناصر الدين محمد بك بن دلغار صاحب أبلستين وحمو الملك الظاهر جقمق بأبلستين في أوائل جمادى الآخرة وقيل إنه قتل على فراشه والأول أصح وكان كثير الشرور والعصيان على الملوك وقد مر من ذكره في ترجمة الملك الأشرف من عصيانه وموافقته مع الأتابك جانبك الصوفي ثم في ترجمة الملك الظاهر جقمق من دخوله في طاعته وقدمه إلى القاهرة ما يعنى عن إعادته ثانيًا هنا.

▲ أمر النيل في هذه السنة

: الماء القديم ثمانية أذرع وخمسة أصابع.

مبلغ الزيادة عشرون ذراعًا وأحد وعشرون إصبعًا.

السنة السادسة من سلطنة الظاهر جقمق فيها توفي الشيخ الإمام العالم الفقيه الرباني الصوفي شمس الدين محمد بن حسن المعروف بالشيخ الحنفي بزاووته خارج قنطرة طقزدمر من ظاهر القاهرة في أوائل شهر ربيع الأول وهو في حدود الثمانين ودفن بزاووته المذكورة.

وكان دينًا خيرًا فقيهاً عالمًا مسلماً كان يعظ الناس ويعلمهم وكان على وعظه رونق ولكلامه وقع في القلوب.

وأفنى عمره في العبادة وطلب العلم وإطعام الطعام وبر الفقراء والقادمين عليه.

وكان محظوظًا من الملوك ولهم فيه اعتقاد ومحبة زائدة.

وصحب الوالد سنين كثيرة ثم الملك الظاهر ططر ونالته منه السعادة في أيام سلطنته.
واجتمعت به غير مرة وانتفعت بمجالسته.

وكان الناس فيه على قسمين: ما بين متغال إلى الغاية وما بين منكر إلى النهاية.
قلت: وهذا شأن الناس في معاصريهم رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الإمام العالم العلامة زين الدين أبو بكر إسحاق بن خالد الكختاوي الحنفي المعروف بالشيخ باكير شيخ الشيوخ بخانقاه شيخون في ليلة الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى وحضر السلطان الملك الظاهر جقمق الصلاة عليه بمصلاة المؤمني من تحت القلعة ثم أعيد إلى الشيخونية فدفن بها.

واستقر عوضه في مشيخة الشيخونية العلامة كمال الدين محمد بن الهمام.

وكان الشيخ باكير المذكور إمامًا عالمًا بارعًا مفتنًا في علوم كثيرة.

وولي قضاء حلب مدة طويلة وحمدت سيرته وأفتى ودرس وأشغل سنين كثيرة بحلب ثم بمصر لما طلبه السلطان من قضاء حلب وولاه مشيخة الشيخونية غير أنه كان في لسانه شبه لكنة مع سكون وعقل زائد يؤدي ذلك إلى عدم الانتصاف في أبحاثه.

ومع هذا كان تقريره للطلبة في غاية الحسن والفصاحة.

ومحصول أمره أنه كان عالمًا مفيدًا للطلبة غير بحث مع أقرانه من العلماء.

وكان مليح الشكل منور الشيبة طاهر اللون وقورًا معظمًا عند الخاص والعام وكان مولده بمدينة كختا في حدود السبعين وسبعمئة رحمه الله تعالى.

وتوفي فتح الدين صدقة المحرقي ناظر الجوالي في ليلة الخميس سلخ شوال ودفن خارج باب الجديد من القاهرة.

وكان عاميًا في زي فقيه لم أعرفه إلا في دولة الملك الظاهر جقمق لأنه كان بخدمته ورقاه في سلطنته.

وتوفي غرس الدين خليل ابن أحمد السخاوي ناظر الحرمين: القدس والخليل عليه السلام في ليلة العشر من جمادى الأولى.

وكان أيضًا من أطراف الناس وهو أحد من رقاہ الملك جقمق.

وكان في مبدأ أمره يبيع الحلوى ثم صار جايًا للأملاك يجبي وعلي كنفه خرج ثم خدم جماعة كبيرة إلى أن حسنت حاله وصار يركب بغلة برجل رأيته أنا على تلك الهيئة.

ثم خدم الملك الظاهر جقمق أيام إمرته ولازم خدمته إلى أن تسلطن فقربه وولاه نظر الحرمين وعده الناس من الأعيان فلم تطل مدته ومات.

وكان يتدين من صلاة وعبادة إلا أنه كان عاريًا سالية وتوفي المقام الناصري محمد بن السلطان الملك الظاهر جقمق في ليلة السبت ثاني عشرين ذي الحجة بقلعة الجبل بعد مرض طويل وصلي عليه من الغد بباب القلة من قلعة الجبل وحضر والده السلطان

الملك الظاهر جقمق الصلاة عليه ودفن بترية عمه جاركس القاسمي المصارع التي جدها مملوكه قاني باي الجاركسي عند دار الضيافة تجاه سور القلعة.

ومات وهو في حدود الثلاثين تخمينًا.

وأمه الست قراجا بنت الأمير أرغون شاه أمير مجلس الملك الظاهر برقوق.

وكان مولده بالقاهرة وبها نشأ تحت كف والده.

وحج وسافر مع والده إلى آمد في سنة ست وثلاثين.

واشتغل اشتغالًا يسيرًا حتى برع في المعقول وشارك في المنقول.

وساد في فنون كثيرة من العلوم يساعده في ذلك جودة ذهنه وحسن تصويره وعظيم حفظه حتى صار معدودًا من العلماء ولا نعلم أحدًا من أبناء جنسه من ابن أمير ولا سلطان وصل إلى هذه الرتبة غيره قديمًا ولا حديثًا بل ولا في الدولة التركية قاطبة من المشاهير أولاد الملوك هذا مع المحاضرة الحسنة والمذاكرة اللطيفة والنوادر الطريفة والإطلاع الزائد في أخبار السلف وأيام الناس.

وكان يسألني عن مسائل دقيقة مشكلة في التاريخ على الدوام لم يسألني عنها أحد من بعده إلى يومنا هذا.

وأما حفظه للشعر باللغتين التركية والعربية فغاية لا تدرك.

وكان مجلسه لا يبرح مشحونًا بالعلماء مشايخ الإسلام يتداولونه بالنوبة فكان لقاضي القضاة شهاب الدين بن حجر وقت يحضر فيه في كل جمعة مرتين ولقاضي القضاة سعد الدين بن الديري الحنفي وقت غير ذلك يحضر فيه أيضًا في الجمعة مرتين وأما العلامة محيي الدين الكافيجي الحنفي والعلامة قاسم الحنفي فكانا يلازمانه في غالب الأوقات ليلاً ونهارًا.

وأما غير هؤلاء من الطلبة الأعيان فكثير يطول الشرح في ذكرهم.

وكان مع هذه الفضيلة التامة والرئاسة الضخمة والتوشيح للسلطنة متواضعًا بشوشًا هينًا ليئًا مع حسن الشكالة وخفة الروح والميل إلى الطرب على قاعدة الصوفية والعقلاء من الرؤساء وكان لا يمل من المحاضرة والمذاكرة بالعلوم والفنون وكان رميته بالنشاب في غاية الجودة ويشارك في ملاعب كثيرة لولا سمن كان اعتراه وكره هو ذلك وأخذ يتداوى في منع السمن بأشياء كثيرة ربما كان بعضها سببًا لهلاكه مثل شرب الخل على الريق ومنع أكل الخبز سنين وكثرة دخول الحمام حتى إنه كان غالب جلوسنا معه في الخلوة في مسلخ الحمام الذي ابتناه بطبقة الغور من القلعة وبداخله في الحرارة وأشياء غير ذلك وكان بيني وبينه صحبة قديمة وحديثة ومحبة زائدة ثم صار بيننا أيام سلطنة والده صهارة فإنه تزوج بنت الأتابك أقبغا التمراري وهي بنت كريمتي ولم يفرق بيننا إلا الموت رحمه الله تعالى.

ولقد كان حسنة من حسنات الدهر خليفًا للملك والسلطنة ولو طال عمره إلى أن آل إليه الأمر لما اختلف عليه اثنان غصبًا ومروءة فإنه كان هينًا مع الهين فتاكا على العسر وأنا أعرف بحاله من غيري ولقد سمعت منه كلمات من أفعال يفعلها إن تم أمره في الملك

تدل على معقول وتدبير عظيم وحدث صائب وإقناع المفسدين لم أسمعها من أحد غيره كائنًا من كان.

وأنا أقول: لو ملك الديار المصرية وتم أمره نفقت في أيامه بضائع أرباب الكمالات الكاسدة من كل علم وفن وظهرت من الزوايا خبايا وتجدد ما بعد عهده من الطرائف وأبدى كل استاذ من فنه أعاجيب ولطائف ومن أجله صنفت هذا الكتاب من غير أن يأمرني بتصنيفه غير أنني قصدت بترتيب هذا الكتاب من ذكر ملك بعد ملك أنه إذا تسلطن أختم هذا الكتاب بذكره بعد أن استوعب أحواله وأموره على طريق السيرة ولوحت له بذلك فكاد يطير فرحًا وبيننا نحن في ذلك انتقل إلى رحمة الله تعالى فكان حالي معه كقول مسعود بن محمد الشاعر: الكامل بأبي حبيب زارني متنكرًا فبدا الوشاة له فولى معرضًا فكأنني وكأنه وكأنها أمل ونيل حال بينهما القضا وأحسن من هذا قول من قال وهو في معنى فقده: الطويل غدا يتنأى صاحب كان لي إنسًا فلا مصبحًا لي بالسرور ولا ممسا أمر النيل.

في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وعشرون إصبغًا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا وثلاثة وعشرون إصبغًا.

السنة السابعة من سلطنة الظاهر جقمق وهي سنة ثمان وأربعين وثمانمائة.

فيها لهج المنجمون بأن في هذه السنة يكون انقضاء مدة الملك الظاهر جقمق من ملك مصر فإنهم كانوا أجمعوا على أنه لا يقيم في الملك أكثر من سبع سنين.

وكان هذا القول بعد أقوال كثيرة في مدة ملكه فلم يصدقوا في واحد منها ومضت هذه السنة والسلطان في خير وعافية.

وفيها كان الطاعون بالديار المصرية وكان مبدأه في ذي الحجة من السنة الخالية وعظم في المحرم من هذه السنة وأوائل صفر ومات فيه عالم كبير جدًا حسبما تقدم ذكره.

وفيها أعني سنة ثمان وأربعين المذكورة توفي الخطيب الواعظ شمس الدين محمد الحموي خطيب الجامع الأشرفي بالعبريين في يوم الأربعاء ثالث ذي القعدة عن نيف وسبعين سنة تخمينًا.

وكان يعظ الناس في الأماكن ويعمل المواعيد وكان له قبول من العامة والنسوة وكان وتوفي الأمير الطواشي فيروز بن عبد الله الجاركسي الرومي الساقى الزمام بطالًا بالقاهرة في يوم الأربعاء رابع عشر شعبان ودفن بمدرسته التي أنشأها بالقرب من داره عند سوق القرب بالقرب من الحارة الوزيرية بالقاهرة.

وكان أصله من خدام الأمير جاركس القاسمي المصارع المقدم ذكره في دولة الملك الناصر فرج وترقى بعد موته إلى أن صار ساقياً للسلطان وحظي عند الملك المؤيد شيخ ثم عند الأشرف برسباي ثم انحط قدره وعزله الأشرف وأخرجه إلى المدينة ثم أعاده بعد مدة واستقر به ساقياً على عادته ودام على ذلك حتى غضب عليه في مرض موته بعد أن وسط الحكيمين وعزله عن وظيفة السقاية بعد أن هده بالتوسيط.

فلزم فيروز هذا بيته إلى أن مات الملك الأشرف وصار الأمر إلى الملك الظاهر جقمق فطلبه وولاه زمناً عوضاً عن جوهر الجلباني اللالا بحكم عزله ومصادرته وذلك في أحد الربيعين من سنة اثنتين وأربعين فظن كل أحد بطول مدة فيروز هذا في وظيفة الزمامية

لكونه من خدام أخي السلطان الأمير جاركس فلم يقيم في الوظيفة إلا نحو ستة أشهر وعزل لكونه فرط في أمر الملك العزيز حين فر من الدور السلطانية وتقدم ذكر ذلك كله في أصل هذه الترجمة.

وولى السلطان عوضه زمانًا جوهر الخازندار القنقبائي ولزم فيروز هذا بيته خاملًا إلى أن مات.

وكان لا بأس به في أبناء جنسه لتجمل كان فيه ومحاضرة حسنة.

وهو أحسن الثلاثة حالًا ممن اسم كل واحد منهم فيروز وهم في عصر واحد أولهم فيروز هذا وثانيهم فيروز النوروزي وثالثهم فيروز الركني نائب مقدم المماليك كان.

وتوفي الأمير حمزة بن قرابلك - واسم قرابلك عثمان بن طرعلي - صاحب ماردین وغيرها من ديار بكر في أوائل شهر رجب ووصل الخبر بموته إلى القاهرة في العشرين من شعبان وكان غير مشكور السيرة على قاعدة أوباش التركمان الفسقة.

وتوفي الأمير سيف الدين طوخ بن عبد الله الأبوبكري المؤيدي نائب غزة خارج غزة قتيلاً بيد العربان الخارجة عن الطاعة في أواخر ذي الحجة وتولى نيابة غزة بعد الأمير يلخجا من مامش الساقى الناصري.

وكان أصل طوخ هذا من مماليك الملك المؤيد شيخ وخاصكيته وتأمر بعد موته بالبلاد الشامية ثم صار أتاك غزة سنين طويلة إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق.

ثم ولاه بعد مدة يسيرة نيابة غزة بعد موت الأمير طوخ مازي الناصري فدام على نيابتها إلى أن خرج من غزة وواقع العربان وكسرهم وبعد كسرتهم تهاون في أمرهم ونزل بمكان فعادوا نحوه وهجموا عليه فركب بمن معه وقتلهم حتى قتل هو وجماعة من مماليكه وغيرهم.

وكان شجاعًا مقدامًا إلا أنه كثير الطمع.

الماء القديم ستة أذرع وخمسة عشر إصبغًا.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعًا وأربعة عشر إصبغًا.

السنة الثامنة من سلطنة الظاهر جقمق وهي سنة تسع وأربعين وثمانمائة.

فيها توفي قاضي القضاة شمس الدين محمد بن إسماعيل بن محمد الونائي الشافعي الفقيه العالم معزولاً عن قضاء دمشق بالقاهرة في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر ودفن من الغد بالقرافة وصلى عليه رفيقه في الاشتغال قاضي القضاة شمس الدين محمد القاياتي الشافعي.

ومولده في شعبان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ببلده ثم انتقل إلى القاهرة وطلب العلم وحفظ " التنبيه " في الفقه وعدة مختصرات وأقبل على الاشتغال ولازم علماء عصره.

وأول اشتغاله كان في سنة سبع وثمانمائة.

وتكسب بتحمل الشهادة مدة إلى أن برع في الفقه والعربية والأصول وتولى مشيخة التنكزية بالقرافة ثم تدريس الفقه بالشيخونية.

ثم طلبه الملك الظاهر جقمق وولاه قضاء الشافعية بدمشق من غير سعي في سنة وأربعين فباشق قضاء دمشق بعفة وعرف بالصيانة والديانة إلى أن عزل وعاد القاهرة ثم وليها ثانيًا فباشرها أيضًا مدة ثم عزل وقدم القاهرة وتولى تدريس قبة الإمام الشافعي إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وكان معدودًا من العلماء أحد من جمع بين معرفة المنقول والمعقول رحمه الله.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين يشبك بن عبد الله السوداني المعروف بالمشد أتابك العساكر بالديار المصرية في يوم الخميس ثالث شعبان وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني.

وتولى الأتابكية من بعده الأمير إينال العلاني الناصري الدوادار الكبير.

وكان أصل يشبك هذا من مماليك سودون الجلب نائب حلب ومات عنه فباعه الأمير يشبك الساقى الأعرج وهو يوم ذاك نائب قلعة حلب للأمير ططر فأعتقه ططر وجعله من جملة مماليكه فنازعه بعد مدة أيتمش الخصري وهو يوم ذاك متحدث على أيتام الملك الناصر فرج وطلبه منه فادعى ططر أنه اشتراه من يشبك الساقى الأعرج وهو وصي سودون الجلب فقال أيتمش: بيع يشبك له غير صحيح لأن سودون الجلب انحصر إرثه في أولاده الملك الناصر وأنا المتحدث على أولاد الملك الناصر فاشتراه ططر ثانيًا منه بمائة دينار.

ثم جعله ططر شاد شراب خاناته حتى تسلطن فأنعم عليه بإمرة طبلخاناه وجعله شاد الشراب خاناه السلطانية فدام على ذلك سنين إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباي بإمرة مائة وتقدمة ألف بديار مصر ثم جعله حاجب الحجاب بعد قرقماس الشعباني بعد توجهه إلى نيابة حلب ثم نقله الملك الظاهر جقمق في أوائل سلطنته إلى إمرة مجلس بعد أقبغا ثم إلى إمرة صلاح عوضًا عن أقبغا التمرازي أيضًا ثم بعد أشهر خلع عليه باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية بعد قدومه من بلاد الصعيد عوضًا عن أقبغا التمرازي أيضًا بحكم انتقال أقبغا إلى نيابة دمشق بعد خروج إينال الجكمي عن الطاعة كل ذلك في أشهر قليلة من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

فدام يشبك في الأتابكية سنين ونالته السعادة وعظم وضخم في الدولة إلى أن إعتراه مرض تمادى به سنين ويقال إنه سم وحصل له ارتخاء في أعضائه ثم عوفي قليلا وركب إلى الخدمة ثم نقص عليه ألمه فمات منه بعد أيام يسيرة.

وكان عاقلًا ساكنًا حشمتًا إلا أنه كان عاريًا من كل علم وفن غير أنه كان يحسن رمي النشاب على عيوب كانت في رمية.

وكنت أظنه أولًا ديتًا إلى أن أخذ إقطاع الأتابك أقبغا التمرازي وصار بيننا وبينه مستحق أيتام أقبغا في الإقطاع المذكور فإذا به لا يحلل ولا يحرم وعنده من الطمع وقلة الدين ما يقبح ذكره عن كائن من كان هذا مع حدة زائدة وشراسة خلق وظلم زائد على حواشيه وخدمه حتى إنه كان يضرب الواحد منهم نحو ألف عصاة على الذنب اليسير.

ولم يكن له مهابة في النفوس لكونه كان من مماليك سودون الجلب وأيضًا من قرب عهده بالفقر وخدم الأمراء مع من كان عاصره من أكابر الأمراء الظاهرية البرقوقية ممن

وتوفي الأمير سيف الدين قاني باي الحكمي حاجب حجاب حلب على هيئة نسأل الله تعالى حسن الخاتمة في أواخر هذه السنة.

وكان من خبر موته أنه سكر ونام في أيام الشتاء وقد أوقد النار بين يديه على عادة الحليين وغيرهم فعظم الدخان عليه وعلى مملوكه في البيت وصارا من غلبة السكر لا يهتدي كل منهما إلى الخروج من باب الدار من عظم الدخان وشدة السكر فماتا على تلك الحالة وكتب بذلك محضر وأرسل إلى السلطان لئلا يتوهم خلافه.

وكان أصل قاني باي هذا من مماليك الأمير جكم من عوض نائب حلب ثم صار بعد موت الملك المؤيد شيخ خاصكيًا.

ودام على ذلك دهرًا طويلًا لا يلتفت إليه إلى أن خلع عليه الملك الظاهر جقمق باستقراره في حجوبية حجاب حلب دفعة واحدة من الجندية وعيب ذلك على الملك الظاهر لكون قاني باي المذكور لم يكن من أعيان الخاصكية ولا من المشاهير بالشجاعة والإقدام ولا من العقلاء العارفين بفنون الفروسية بل كان مهملاً مسرفًا على نفسه عارياً من كل علم وفن ولم يدر أحد لاي معنى كان قدمه الملك الظاهر جقمق فرحمه الله تعالى وسامحه على هذه الفعلة فإنها عدت من غلطاته الفاحشة التي ليس لها وجه من الوجوه.

قلت: وكما جاءت السعادة فجاءه الموت أيضًا فجاءه عفا الله عنه.

أمر النيل في هذه السنة: السنة التاسعة من سلطنة الظاهر جقمق وهي سنة خمسين وثمانمائة.

فيها توفي قاضي القضاة شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن يعقوب القاياتي الشافعي قاضي قضاة الديار المصرية في العشر الأخير من المحرم وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني من تحت القلعة ودفن بتربة الصوفية خارج باب النصر.

وكان مولده بقايات في سنة خمس وثمانين وسبعمائة تخمينًا ثم نقل إلى القاهرة مع والده وحفظ عدة مختصرات وحضر دروس السراج البلقيني في آخر عمره ثم تفقه بعمه الشيخ ناصر الدين القاياتي وبجماعة آخر حتى برع الفقه والعربية والأصليين وعلمي المعاني والبيان وشارك في عدة فنون وسمع الحديث في مبدأ أمره وحدث ببعض مسموعاته وتكسب مدة سنين بتحمل الشهادة بجامع الصالح خارج باب زويلة إلى أن قرر طالبًا بالمجامع المؤيدي داخل باب زويلة.

ثم ولي تدريس الحديث بالمدرسة البرقوقية عوضًا عن الشيخ زين الدين القمني ثم استقر في تدريس الفقه بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريين ثم ولي مشيخة خانقاه سعيد السعداء بعد موت القاضي شهاب الدين بن المحمرة وتصدى للإفتاء والتدريس والإقراء سنين وانتفع به الطلبة.

وكان مع براعته في العلوم متفشيًا في ملبسه ومركبه بل كان يمشي على أقدامه في غالب حاجاته إلى أن طلبه الملك جقمق ليوليه قضاء الشافعية فطلع بحضرتي على حمار إلى باب القلعة ثم نزل ودخل إلى السلطان وكان السلطان يعرفه من دروس العلامة

علاء الدين البخاري فكلمه السلطان في الولاية وأنا أظن أنه لا يقبلها أبدًا فامتنع امتناعًا ليس بذاك ثم أجاب.

وأصبح تولى القضاء ونزل وبين يديه وجوه الدولة وهو بغير خلعة بل بطيلسانه وامتنع من لبس الخلعة كونها تعمل من وجه غير مقبول عنده وكان ذلك في يوم رابع عشر محرم سنة تسع وأربعين.

ونزل إلى المدرسة الصالحة بين القصرين وقام بعض الرسل ليدعي على شخص فلم يسمع دعواه وقال: " هذه حيلة واصطلاح ".

ففرح الناس بولايته ووطنوا أنه يحملهم على الحق المحض من طريق السلف ويحيي سنة قضاة العدل فوقه خلاف ذلك كله وسار على طريق القوم وأكثر من النواب وراعى أرباب الدولة وتعاطم حتى في سلامه وحب المنصب حبًا حتى لعله لو عزل منه لمات أسفًا عليه هذا مع ما كان علمه من العلم والعبادة والصيانة.

ولما أن خطب بالسلطان في يوم الجمعة على عادة قضاة الشافعية وركي المنبر لم يخشع أحد لخطبته لمسكة كانت في لسانه وعدم طلاقة وكانت هذه عادته حتى في تقرير دروسه.

وكان يقرىء العلم على قاعدة الأعاجم من كتاب في يده.

وكان فيه بعض توسوس لا سيما في تكرير النية عند دخوله إلى الصلاة فلما ولي القضاء وخطب ونزل وصلى بالسلطان زال عنه ذلك ببركة المنصب.

وأنا أقول كانت حالته الأولى تعجبنى وتعجب كل أحد من الناس ولم تعجبنى أحواله بعد ولايته رحمه الله وسامحه.

وتوفي القاضي بهاء الدين محمد ابن قاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجي الدمشقي المولد والمنشأ الشافعي ناظر جيش دمشق بمنظرة البرابجية بخط بولاقي على النيل في يوم ثالث عشرين صفره وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني من تحت قلعة الجبل ودفن بالقرافة الصغرى تجاه شباك الإمام الشافعي وهو في حدود الأربعين من العمر تخمينًا.

وكان ولي قضاء دمشق بعد موت والده ثم نقل إلى نظر جيشها ثم قدم القاهرة وتولى نظر جيش مصر بعد عزل القاضي محب الدين بن الأشقر مضاقًا لوظيفة نظر جيش دمشق فلم ينتج أمره وعزل بعد أشهر وخلع عليه باستقراره على وظيفة نظر جيش دمشق.

ثم قدم القاهرة بعد ذلك ودام بها عند حميه المقر الكمالي ابن البارزي كاتب السر إلى أن مرض وطال مرضه إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وكان شابًا طويلاً جميلاً جسيمًا طويل اللحية جدًا كريمًا مفرط الكرم ومات وعليه جمل من الديون فوفى موجوده بقضائها رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ عز الدين عبد العزيز شيخ الصلاحية بالقدس الشريف في أوائل شهر رمضان وتولى عوضه مشيخة الصلاحية جمال الدين عبد الله بن جماعة بمال بذله في

ذلك وكان عز الدين فقيهاً عالمًا مفتيًا وتولى نيابة الحكم بالقاهرة سنين كثيرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن رجب ابن الأمير طيغا المجدي الشافعي في ليلة العاشر من ذي القعدة وصلي عليه بجامع الأزهر.

وكان مولده بالقاهرة في سنة سبع وستين وسعمائة وبها نشأ واشتغل حتى برع في الفقه والعربية والحساب والفرائض والهيئة والهندسة وصنف وأقرأ وأشغل وانتفع به الناس.

وكان أجل علومه الفرائض والحساب ويشارك في غير ذلك.

وتوفي الشيخ الصالح المعتقد يوسف ابن محمد بن جامع البحري نزيل جامع الأزهر في ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة وصلي عليه من الغد في جامع الأزهر وحضرت غسله والصلاة عليه ودفنه لصحة كانت بيننا قديمًا.

وكان شيخًا جميل الطريقة قائمًا بقضاء حوائج الناس ولأرباب الدولة والأكابر فيه اعتقاد كبير ومحبة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله السيفي سودون المحمدي الظاهري - وكانت شهرته أيضًا على شهرة أستاذه سودون المحمدي - وهو على نيابة قلعة دمشق في أوائل صفر.

كان خاصكيًا في دولة الأشرف برسباي ورأس نوبة الجمدارية وولي نظر الحرم بمكة المشرفة غير مرة وهو الذي هدم سقف البيت الحرام وجدده وعظم ذلك على أرباب الصلاح وأهل العلم بل ربما خرج بعضهم من مكة خشية من سخط ينزل بها لكون البيت صار بلا سقف عدة أيام وكان هدمه لسقف البيت من غير أمر يوجب ذلك أراد بذلك التقرب إلى الله تعالى بهذه الفعلة فوق في أمر كبير وهو لا يدري - كعادة صلحاء الجهال - فكان حاله في هذا كقول القائل: الخفيف رام نفعًا فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقا ومن يوم هدم سودون سقف الكعبة صار الطير يجلس على البيت الشريف وكان لا يجلس فوقه أبدًا قبل ذلك وقد أتعب ذلك خدمة الكعبة.

فلو لم يكن من فعله إلا هذا لكفاه إثمًا.

كل ذلك لظن سودون المذكور بنفسه فإنه لم يشاور في ذلك أحدًا من أعيان أهل مكة ولا تكلم مع من له خبرة بأحوال مكة وقد قيل: " ما خاب من استشار ".

وكان يتدين ويتمعقل ويعف عن الفواحش غير أنه كان يقع في أمور محذورة منها: أنه كان إذا سلم عليه الشخص لا يرد سلامه تكبرًا وتعاطفًا وإذا رد فيرد ردًا هيئًا خلاف السنة ومنها أنه كان فيه ظلم عظيم على خدمه وحواشيه.

هذا مع انخفاض قدره فإنه لم يتأمر إلا عشرة في دولة الملك الظاهر جقمق ثم عمل نيابة قلعة دمشق لا غير على أن أستاذه سودون المحمدي لم يعد من الملوك فكيف هو!

وتوفي الأمير سيف الدين يلخجا بن عبد الله من مامش الساقي الناصري الرأس نوبة الثاني ثم نائب غزة بعد مرض طويل في أوائل جمادى الآخرة نيف على خمسين سنة.

وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق أخذه مع أبيه وأمه ثم أنعم به على ولده الملك المنصور عبد العزيز ثم ملكه الملك الناصر فرج أخيه عبد العزيز المذكور ورقاه وجعله ساقياً واختص به إلى الغاية ورأس على جميع الناصرية.

واستمر على رئاسته وتحشمه إلى أن عزله الملك المؤيد من السقاية ولم يبعده بل صار عظيمًا أيضًا في الدولة المؤيدية بل في كل دولة لكرم نفسه ولعظمه في النفوس.

وسافر أمير الركب الأول إلى الحجاز في الدولة المؤيدية واستمر على ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباي بإمرة عشرة.

وحج أيضًا أمير الركب الأول ثانيًا ثم توجه إلى شد بندر جدة وصحبته صاحب كريم الدين بن كاتب المناخ بعد عزله عن الوزر والأستادارية ثم ترقى بعد ذلك إلى أن صار أمير طبلخانة ورأس نوبة ثانيًا في دولة الملك الظاهر جقمق ثم نقل إلى نيابة غزة بعد موت الأمير طوخ الأبوكرى المؤيدي فلم تطل مدته في نيابة غزة ومرض وطال مرضه واستعفى وتوجه إلى القدس عليلاً فمات بعد أيام قليلة ودفن بجامع ابن عثمان ظاهر غزة.

وكان أميرًا جليلاً رئيسًا وجيهاً معظمًا في الدول عريقًا في الرئاسة متجملًا في مركبه وملبسه ومماليكه وكان تركي الجنس مليح الشكل إلى الغاية عنده سلامة باطن مع خفة روح وبشاشة وتواضع مع شجاعة وإقدام وحرمة وافرة وكلمة نافذة ولم يكن فيه ما يعاب غير انهماكه في اللذات وبعض سطوة على غلمانه عفا الله عنه.

وتوفي الأمير الطواشي صفي الدين جوهر بن عبد الله التمرزي الخازندار ثم شيخ الخدام بالحرم النبوي في أواخر هذه السنة.

وكان أصله من خدام الأمير تمتاز الظاهري النائب وصار جمداً في أواخر دولة الملك المؤيد شيخ ودام على ذلك سنين إلى أن استقر به الملك الظاهر خازنداراً بعد موت جوهر القنباثي فلم تطل مدته في الخازندارية وعزله السلطان بالطواشي فيروز النوروزي الرومي رأس نوبة الجمدارية وصادره ثم ولاه مشيخة الخدام بالحرم النبوي إلى أن مات واستقر بعده في مشيخة الحرم الطواشي فارس كبير الطواشية هناك.

وكان حبشي الجنس مليح الشكل كريبًا حشيمًا متواضعًا لطيفًا وعنده فهم وذوق وله محاضرة مع تجمل في أحواله وكان بخلاف أبناء جنسه في تحصيل المال بل كان يصرفه في معاشه ويقصد الترف والعيش الرغد ويظهر النعمة ويبر أصحابه بحسب طاقته رحمه الله أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وستة وعشرون إصبغًا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا واثنتان وعشرون إصبغًا.

السنة العاشرة من سلطنة الظاهر جقمق

وهي سنة إحدى وخمسين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير أيتمش بن عبد الله من أزوباي الناصري فرج ثم المؤيدي أستاذار الصحة وأحد أمراء العشرات في يوم الأربعاء ثالث صفر وتولى أستاذارية الصحة بعده الأمير سنقر الظاهري.

وكان أَيْتمش المذكور من جملة من تأمر بعد موت الملك الأشرف برسباي ثم ولاه الملك الظاهر جقمق أستاذارية الصحبة مغلبي الجقمقي بحكم خروجه إلى دمشق أميرًا فدام أَيْتمش المذكور على وظيفته إلى أن مات.

وكان مسيغًا مسرفًا على نفسه لم يشهر بشجاعة ولا كرم ولا تدين.

وتوفي الأمير سيف الدين قاني باي بن عبد الله أبو بكر الناصري المعروف بالبهلوان نائب حلب بها في شهر ربيع الأول وتولى عوضه نيابة حلب الأمير برسباي الناصري نائب طرابلس.

وكان أصل قاني باي المذكور من ممالك الملك الناصر فرج ثم حطه الدهر بعد موت أستاذه وخدم عند جماعة من الأمراء مثل الوزير أرغون شاه النوروزي ومثل بردبك الجكمي العجمي ثم اتصل بخدمة ططر فلما تسلطن أنعم عليه بإمرة عشرة ثم صار أمير طبلخاناه في أوائل دولة الملك الأشرف برسباي وثاني رأس نوبة بعد قطج من تمرار بحكم انتقال قطج إلى مقدمة ألف فدام على ذلك سنين إلى أن نقله الملك الأشرف إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية ثم ولاه نيابة ملطية مضافًا على تقدمته فباشر ذلك مدة ثم أخرج السلطان تقدمته عنه واستمر في نيابة ملطية فقط ثم عزله وولاه أتابكية حلب فدام على ذلك سنين إلى أن نقله الملك الأشرف إلى أتابك دمشق بعد موت تغري بردي بآمد في سنة ست وثلاثين وثمانمائة.

والعجب أنه لما صار أتابك حلب كان يوم ذاك حاجب حجابها أستاذه بردبك العجمي ثم لما صار أتابك دمشق كان يوم ذاك أستاذار السلطان بدمشق أستاذه أرغون شاه النوروزي الأعور فانظر إلى حركات هذا الدهر وتقلباته!.

واستمر قاني باي في أتابكية دمشق إلى أن خرج الأتابك إينال الجكمي نائب الشام عن طاعة الملك الظاهر جقمق فوافق قاني باي هذا بل وجرسه على الخروج عن الطاعة ليصل بذلك لأغراضه فلم تكن موافقته إلا مدة يسيرة وأرسل إليه الملك الظاهر جقمق من مصر يعده بأشياء إن ترك موافقة الجكمي وعاد إلى طاعته ففي الحال عاد إلى طاعة السلطان وخذل إينال الجكمي بعد أن كان هو أكبر الأسباب في خروجه فنقله السلطان إلى نيابة صغد بعد عزل إينال العلاني الناصري عنها وقدمه إلى مصر أمر مائة ومقدم ألف بها ثم نقله إلى نيابة حماة بعد عزل أستاذه بردبك العجمي عنها ثم نقل إلى نيابة حلب بعد عزل الأمير قاني باي الحمزاوي عنها وقدمه إلى القاهرة أمير مائة ومقدم ألف بها على إقطاع شاد بك الجكمي حكم استقرار شاد بك في نيابة حماة عوضًا عن قاني باي المذكور.

واستقر قاني باي في نيابة حلب إلى أن مات وهو في عشر الستين.

وكان مليح الشكل متوسط السيرة مسرفًا على نفسه لم يشهر بشجاعة ولا معرفة بفن من الفنون وكان يلقب بالبهلوان على سبيل المجاز لا على الحقيقة رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله الششمانى الناصري فرج أتابك دمشق بها في جمادى الأولى وهو في عشر الستين.

وكان أيضًا من ممالك الملك الناصر فرج وتأمر عشرة في أيام أستاذه ثم نكب وتعطل مدة سنين إلى أن أنعم عليه الأتابك ططر بإمرة عشرة وصار من جملة رؤوس النوب ثم ولاه الملك الأشرف حسبة القاهرة سنين ثم عزله ثم نقله بعد مدة إلى إمرة طبلخاناه ثم صار ثاني رأس نوبة وسافر أمير حاج المحمل وكان سافر أمير الركب الأول قبل ذلك

سنتين ثم ولاة الأشرف نيابة صفد بعد موت الأمير مقبل الحسامي الدوادار فلم ينتج أمره في صفد لرخو كان فيه وعدم شجاعة وعزله السلطان عن نيابة صفد.

ثم أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق فدام على ذلك سنتين إلى أن أقره الملك الظاهر جقمق أتابكًا بدمشق بعد توجه قاني باي البهلوان إلى نيابة صفد فدام على ذلك إلى أن مات.

وكان دينًا عفيًا عن الفواحش إلا أنه لم يشهر بشجاعة ولا كرم.

وتوفي الأمير سيف الدين برسباي بن عبد الله من حمزة الناصري نائب حلب بها أو بظاهرها بعد أن استعفى عن نيابة حلب لطول مرضه.

وكان أيضًا من مماليك الملك الناصر فرج ومن خاصكته ثم صار من جملة أمراء دمشق ثم أمسكه الملك المؤيد شيخ وحبسه سنتين ثم أطلقه فدام بطالًا إلى أن أنعم عليه الأتابك ططر بإمرة بدمشق ثم ولاة الملك الأشرف حجووية الحجاب بدمشق فدام على الحجووية سنتين طويلة ونالته السعادة إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق نيابة طرابلس بعد قاني باي الحمزاوي بحكم انتقال الحمزاوي إلى نيابة حلب بعد تولية جليان على نيابة دمشق بحكم موت أقبغا التمراري فدام برسباي في طرابلس سنتين إلى أن نقل إلى نيابة حلب بعد موت قاني باي البهلوان فدام على نيابة حلب مدة ومرض وطال مرضه إلى أن استعفى فأعفي وخرج من حلب إلى جهة دمشق فمات في أثناء طريقه.

وكان جليلاً حشماً دينًا عفيًا عن المنكرات والفروج وكان شديدًا على المسرفين فإنه كان يدخل إليه بالسارق أو قاطع الطريق فيقول: " خذوه إلى الشرع " ويدخل إليه بالسكران فيضربه حدودًا كبيرة.

الجملة إنه كان دينًا خيرًا رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي قضاة دمشق وعالمها ومفتيها وفتيها تقي الدين أبو بكر الدمشقي الشافعي المعروف بابن قاضي شعبة في ذي القعدة بدمشق فجاءة بطالًا بعد أن انتهت إليه الرئاسة في فقه مذهبه وفروعه.

وكان ولي قضاء دمشق وخطب في واقعة الجكمي للملك العزيز يوسف فحقد عليه الملك الظاهر جقمق ذلك وعزله إلى أن مات بعد أن تصدى للإفتاء والتدريس سنتين كثيرة وانتفع غالب طلبة دمشق وصنف التصانيف المفيدة رحمه الله.

وتوفي الأمير الطواشي صفى الدين جوهر المنجكي نائب مقدم المماليك السلطانية معزولاً في أول ذي الحجة.

وكان أولاً من جماعة طواشية الأطباق أعني أنه كان مقدم طبقة المقدم حتى ولاة الملك الظاهر جقمق نائب مقدم المماليك بعد عزل فيروز الركني الرومي عنها فدام على ذلك سنتين ثم عزل بجوهر السيفي نوروز إلى أن مات.

وهو صاحب المدرسة التي أنشأها برأس سويقة منعم تجاه مصلاة المؤمني وأوقف عليها وقفًا بحسب حاله.

وتوفي الشيخ المسند المعمر القاضي عز الدين عبد الرحيم ابن محمد بن عبد الرحيم ابن الفرات الحنفي أحد نواب الحكم في يوم السبت سادس عشرين ذي الحجة.

وكان له رواية وسند عال في أشياء كثيرة سماعًا وإجازة وحدث سنين كثيرة وصار رحلة زمانه ولنا منه إجازة بجميع سماعه ومروياته وقد استوعبنا ترجمته في غير هذا الكتاب رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم أحد عشر ذراعًا واثنًا عشر إصبغًا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا وأربعة عشر إصبغًا.

السنة الحادية عشرة من سلطنة الظاهر جقمق وهي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخ برهان الدين إبراهيم بن خضر العثماني الشافعي أحد فقهاء الشافعية في ليلة خامس عشر المحرم.

وكان فاضلاً فقيهاً.

تفقه بالقاضي شهاب الدين بن حجر وبغيره ودرس وأقرأ وعد من الفضلاء إلا أنه كان دنس الثياب غير ضوئء الهيئة رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن عثمان الريشي الشافعي في يوم الأربعاء حادي عشرين المحرم.

وكان له اشتغال قديم مع توقف في ذهنه وفهمه ثم ترك الاشتغال وتردد إلى أرباب الدولة لطلب الرزق.

على أنه كان دينًا خيرًا وعنده سلامة باطن رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين آقطوه بن عبد الله الموساوي الظاهري بطالاً في ليلة الثلاثاء ثاني عشر صفر ودفن من الغد.

وكان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق وصار من جملة الدوادارية الدولة المؤيدية شيخ ثم تأمر عشرة بعد موته ودام على ذلك دهرًا طويلًا مهمندارًا في الدولة الأشرفية ثم توجه في الرسالية إلى القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك ثم عاد ودام على ما هو عليه إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة طبلخاناه ثم نفاه بعد سنين ثم أعاده وأنعم عليه بإمرة عشرة ثم نفاه ثانيًا وشفع فيه بعد مدة فعاد إلى القاهرة بطالاً ودام بها إلى أن مات.

كان تركي الجنس ويتفقه ويشارك في ظواهر مسائل على قاعدة غالب فقهاء الأتراك.

سألني مرة سؤالًا وابتدأ في سؤاله بقوله: " باب " فقبل أن يتم السؤال قلت له: " باب مرفوع على أي وجه " فسكت ثم قال: " هذا شيء لم أسمع منه منذ عمري " فضحك جميع من حضر ولم يسألني بعدها إلى أن مات.

وكان عفيقًا عن الفواحش إلا أنه كان فيه البخل وسوء الخلق وتعبيس الشكالة رحمه الله.

وتوفي الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن يحيى السنديسي الشافعي أحد فقهاء الشافعية في ليلة الأحد سابع عشر صفر ودفن الغد وكان معدودًا من فقهاء الشافعية رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين أسنباي بن عبد الله الظاهري الزردكاش كان أحد أمراء العشرات في العشر الأخير من صفر عن سن عال.

وكان من أعيان ممالك الملك الظاهر برقوق وممن صار في أيام أستاذه زردكاشًا.

وأسر في كائنة تيمور وحظي عنده وجعله تيمورلنك زردكاشه ودام عنده إلى أن مات فقدم القاهرة ودام بها إلى أن استقر في دولة الملك المؤيد أمير عشرة وزردكاشًا كبيرًا وصار مقرَّبًا عند الملك المؤيد إلى الغاية.

ثم عزل عن الزردكاشية بعد موت الملك المؤيد ودام على إمرة عشرة.

وتولى نيابة دمياط غير مرة إلى أن مات بالقاهرة على إمرته.

وكان رجلًا عاقلًا عارفًا بمداخلة الملوك وبصناعة الزردخاناه وكان حلو المحاضرة إخباريًا حافظًا لما رأى من الوقائع والحروب وأحوال السلف وكان حسن السميت عليه أنس وخفر ولكلامه رونق ولذة في السمع نقلت عنه كثيرًا في " المنهل الصافي " وغيره من أخبار خجداشيته الظاهرية وغيرهم وكان بيني وبينه صحبة أكيدة.

ولقد بلغني بعد موته أنه كان سيّدًا شريفًا من أشرف بغداد الأتراك ونهب منها في سبي في بعض السنين ولم أسأله أنا عن وتوفي الوزير صاحب كريم الدين عبد الكريم ابن الوزير صاحب تاج الدين عبد الرزاق بن شمس الدين عبد الله المعروف بابن كاتب المناخات بالقاهرة بطالًا بعد مرض طويل في يوم الأحد لعشر بقين من جمادى الآخرة وسنه نيف على الخمسين.

وكان لا بأس به بالنسبة لأبناء جنسه الكتبة وقد تقدم أنه ولي نظر ديوان المفرد ثم الوزر غير مرة ثم الأستادارية مرتين ثم كتابة السر ثم الوزر ونكب وصورر وضرب بالمقارع في بعض تعطله وتولى الكشف بالوجه القبلي ثم توجه إلى جدة ثم أعيد إلى الوزر سنين ثم استعفى وتولى عوضه الوزر صاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين شاهين بن عبد الله السيفي طوغان الحسني الدوادار وهو على نيابة قلعة دمشق في جمادى الأولى.

وكان أصله من ممالك طوغان الحسني الدوادار واتصل بعده بخدمة الملك الظاهر جقمق في أيام إمرته وصار دواداره ولما تسلطن جعله بعد مدة دوادارًا ثالثًا ثم ولاه نيابة قلعة حلب فوقع له بحلب أمور وعزل منها ونقل إلى نيابة قلعة دمشق إلى أن مات.

وكان يصبغ لحيته بالحناء مع بخل وشح حتى على نفسه عفا الله عنه.

وتوفي الناصري محمد بن علي بن شعبان ابن السلطان حسن بن محمد بن قلاوون أحد الأجناد وندماء الملك الظاهر جقمق في حياة أبيه وأمه في يوه الخميس سابع جمادى الآخرة.

وكان لا بأس به إلا أنه كان في مبدأ أمره فقيرًا وجاءته السعادة لصحبته الملك الظاهر جقمق فجاءة فكان حاله كقول القائل: الطويل وبا ويل من ذاق الغنا بعد حاجة يموت وقلبه من الفقر واجس فكان كذلك إلا أنه كان بشوشًا ويحسن رمي الشباب على قدر حاله ويجيد الغناء والموسيقى وفي الجملة كان له محاسن مع أصل وعراقة رحمه الله.

وتوفي الشيخ زين الدين رضوان بن محمد بن يوسف العقبي الشافعي مستملي الحديث في يوم الاثنين ثالث شهر رجب.

وكان دينًا فاضلاً حسن السمات منور الشيبة رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الإمام العالم المعتقد فتح الدين أبو الفتح محمد بن أحمد ابن الشيخ وفاء الإسكندري الأصل المصري المولد والمنشأ والوفاة المالكي الواعظ المعروف بابن أبي الوفا في يوم الاثنين أول شعبان.

وكانت جنازته مشهودة ودفن عند آبائه بتربتهم بالقرافة بعد أن صلي عليه بجامع عمرو بمصر القديمة.

وكان أعلم بني الوفاء قاطبة وأشعرهم في زمانه ومات وسنه نيف على ستين سنة تخمينًا.

وكان له فضل غزير وشعر رائق كثير ذكرنا منه قطعة جيدة في " الحوادث " ونذكر منه هنا قصيدة وهي التي أولها: الكامل الروح مني في المحبة ذاهبه فاسمح بوصل لا عدمتك ذاهبه قد خصك الرحمن منه خصائصًا فحللت من أوج الكمال مراتبه وبنورك الوضاح في غسق الدجى أطلعت في فلك الوفاء كواكبه ما زلت بالمعروف تعرف دائمًا وتنيل من أوى إليك فطالبه لم يبق في قلبي سواك من الورى كلاً ولا فيه لغيرك شائبه بك يمنح الله الوجود بجوده وبيث فيه عطاءه ومواهبه وتطيب منك أصوله وفروعه وتعيش أرواح لبعذك ذائبه رجع الوفاء بنور وجهك غامراً أغذيت للوراد منه مشاربه وجميل سترك بالوفا عم الورى فمن احتمى فيه سترت معايبه وشعره كله في هذا النسق رحمه الله.

وتوفي الشهابي أحمد ابن الأمير نوروز بن عبد الله الخصري الظاهري المعروف بشاد الأغنام في يوم الأحد رابع عشر شعبان.

وكان أبوه نوروز من مماليك الظاهر برقوق وتولى حجووية حلب في نيابة الوالد على حلب ثم نقل بعد مدة طويلة إلى حجووية دمشق أو إلى إمرة بها فلم تطل مدته بها وقبض عليه الأمير تم الحسن بن نائب الشام لما خرج عن الطاعة في سنة اثنتين وثمانمائة ووسطه.

ونشأ ولده هذا يتيمًا على حالة رديئة من الفقر والإفلاس إلى أن خدم الملك الظاهر جقمق في أيام إمرته وطالت أيامه في خدمته فلما تسلطن قربه وأنعم عليه بإمرة بالبلاد الشامية فلم يسكن الشام ودام بمصر حتى أنعم عليه الملك الظاهر جقمق أيضًا بإمرة عشرة زيادة على ما بيده بالشام ثم جعله شاد الأغنام بالبلاد الشامية فنالته السعادة من ذلك وصار له كلمه في الدولة وترأس واقنتى المماليك والخيول وبقي له حاشية واسم في المملكة.

فعند ذلك انتهز أحمد المذكور الفرصة وانهمك في اللذات فما عفا ولا كف.

وبينما هو في ذلك طرقه هادم اللذات ومات بعد مرض طويل وقد استقر أمير الركب الأول من الحاج فاستقر الأمير قائم التاجر المؤيدي عوضه في إمرة الركب.

وكان أحمد المذكور مهملاً عارياً من كل علم وفن أجنيًا عن كل فضيلة.

وكان يتلفظ في كلامه بألفاظ العامة السوقية مثل: " أقاتل على حسبي " و " أخذت رحلي " وأشياء من هذا النسق.

وكان مع ذلك يلثغ بالسين ويرمى بعظائم من ترك الصلاة وأخذ الأموال وغير ذلك.

وتوفي الأمير سيف الدين تغري برمش بن عبد الله الجلاي الناصري ثم المؤيدي الفقيه نائب قلعة الجبل بطالاً بالقدس الشريف في يوم الجمعة ثالث شهر رمضان وقد أناف على الخمسين سنة هكذا ذكر لي من لفظه وقال لي إن أباه كان مسلماً في بلاده واشتراه بعض التجار ممن سرقه وابتاعه منه خواجه جلال الدين وقدم به إلى حلب فاشتراه الملك الظاهر جقمق منه وقد توجه جقمق وهو يوم ذاك خاصكياً إلى الأمير جكمق نائب حلب بكاملية الشتاء من السلطان على العادة في كل سنة.

وقدم به جقمق إلى القاهرة وقدمه إلي أخيه جاركس القاسمي المصارع فلما عصى جاركس أخذه الملك الناصر فرج فيما أخذ لجاركس.

وإدام تغري برمش بالطبقة بقلعة الجبل حتى ملك الملك المؤيد شيخ الديار المصرية فأخذه من جملة مماليك الملك الناصر فرج وأعتقه فادعاه الظاهر جقمق وهو يوم ذاك أمير طبلخاناه وخازن دار فدفع له الملك المؤيد دراهم ومملوكاً يسمى قمارى وأبقى تغري برمش على ملكه.

ثم صار تغري برمش بعد موت الملك المؤيد خاصكياً إلى أن أخرجه الملك الأشرف من الخاصكية مدة سنين ثم أعاده بعد مدة ودام.

على ذلك إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فنفاه إلى قوص لكونه خاشنه في الكلام بسبب الإمرة ثم شفع فيه بعد مدة وأنعم عليه بإمرة عشرة واستقر به في نيابة قلعة الجبل بعد موت ممجق النوروزي.

وقربه الملك الظاهر وأدناه واختص به إلى الغاية وصار له كلمة في الدولة فلم يحسن العشرة مع من هو أقرب منه إلى الملك وأطلق لسانه في سائر أمور المملكة حتى ألجأه ذلك إلى سفر الروم في أمر من الأمور ثم عاد فدام على ما هو عليه ثم تكلم في أمر المجاهدين وأنهم تراخوا في أخذ رودس فعينه السلطان إلى غزوة رودس فسافر وعاد وهو على ما هو عليه فنفاه السلطان إلى القدس بطالاً وكان تغري برمش المذكور فاضلاً عالماً بالحديث ورجاله مفتحاً في أنواعه كثير الإطلاع جيد المذاكرة بالتاريخ والأدب وأيام الناس وله نظم باللغة العربية والتركية ويكتب المنسوب ويشارك في فنون كثيرة وله محاضرة حسنة ومذاكرة حلوة هذا مع معرفته بفنون الفروسية المعرفة التامة كأحد أعيان أمراء الدولة بل وأمثلة منهم ولا أعلم في عصرنا من يشابهه في المماليك خاصة لما اشتمل عليه من الفضيلة التامة من الطرفين: من فنون الأتراك وعلوم الفقهاء ومن هو منهم في هذه الرتبة اللهم إن كان الأمير بكتمر السعدي فنعم وإن فاقه بكتمر بأنواع العلاج والقوة فيزيده تغري برمش هذا في الكتابة ونظم الشعر والإطلاع الواسع.

وفي الجملة أنه كان من الأفراد في عصره في أبناء جنسه لولا زهو كان فيه وإعجاب بنفسه والتعاضم بفنونه والازدراء بغيره حتى إنه كان كثيراً ما يقول: يأتي واحد من هؤلاء الجهلة يمسك كتاب في الفقه فيحفظه في أشهر قليلة ثم يقول في نفسه: أنا بقيت فقيهاً! الفقيه من يعرف العلم الفلاني ثم العلم الفلاني.

إيش هؤلاء الذين لا يعرفون معنى بسم الله الرحمن الرحيم! "

فلهذا كان غالب من يتفقه من الأتراك يغض منه ويحط عليه وليس الأمر كذلك وأنا الحق أقوله وإن كان فيهم من هو أفقه منه فليس فيهم أحد يدانيه لكثرة فنونه ولاتساع باعه في النظر والإطلاع والفصاحة والأدب.

وسوف أذكر من شعره ما يؤيد ما قلته فمن شعره في مליح تفاح خدي شقير فيه مسكي لون زها وأزهر قد بان منه النوى فأضحى زهري لون بخد فشعر وقد ذكرنا من شعره أكثر من هذا في تاريخنا " المنهل الصافي " في ترجمته.

وأما نظمه باللغة التركية فغاية لا تدرك.

له قصيدة واحدة عارض بها " شيخي " شاعر الروم يعجز عنها فحول الشعراء.

وكان رحمه الله من عظم إعجابه بنفسه يقول إن الأمر سيصير إليه مع وجود من هو أمثل منه بأطباق.

على أنه كان غير الجنس أيضًا ومن أصغر الأمراء ومع هذا كله كان لا يرجع عما فيه.

قلت: هذه آفة معترضة للقول الصحيح سامحه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد الله القلمطاوي أحد أمراء العشرات في يوم السبت رابع شهر رمضان.

وكان أصله من مماليك الأمير قلمطاي الدوادر.

وكان صرغتمش المذكور لا للسيف ولا للضيف ولا ذات ولا أدوات.

وتوفي الأمير سيف الدين طوغان بن عبد الله العثماني نائب القدس حاجب حلب ثم نائب غزة بها في ذي القعدة.

وأصله من مماليك الأتابك ألتنبغا العثماني نائب الشام وكان شجاعًا مقدامًا كريمًا للسيف وللضيف رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة شيخ الإسلام حافظ المشرق والمغرب أمير المؤمنين في الحديث شهاب الدين أبو الفضل أحمد ابن الشيخ نور الدين علي بن محمد محمد بن علي بن أحمد بن حجر المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة العسقلاني الأصل الشافعي قاضي قضاة الديار المصرية وعالمها وحافظها وشاعرها في ليلة السبت ثامن عشرين ذي الحجة وصلي عليه بمصلاة المؤمني وحضر السلطان الصلاة عليه ودفن بالقرافة.

ومشى أعيان الدولة في جنازته من داره بالقاهرة من باب القنطرة إلى الرملة وكانت جنازته مشهودة إلى الغاية حتى قال بعض الأذكىاء إنه حزر من مشى في جنازته نحو الخمسين ألف إنسان.

وكان لموته يوم عظيم على المسلمين ومات ولم يخلف بعد مثله شرقًا ولا غربًا ولا نظر هو مثل نفسه في علم الحديث.

وكان مولده بمصر القديمة في ثاني عشرين شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وقد أوضحنا أمره في ترجمته في " المنهل الصافي " من ذكر سماعاته ومشايخه وأسماء مصنفاته.

وكان رحمه الله تعالى إمامًا عالمًا حافظًا شاعرًا أديبًا مصنفًا مليح الشكل منور الشبية
حلو المحاضرة إلى الغاية والنهية عذب المذاكرة مع وقار وأبهة وعقل وسكون وحلم
وسياسة ودربة بالأحكام ومداراة الناس.

قل أن كان يخاطب الرجل بما يكره بل كان يحسن إلى من يسيء إليه ويتجاوز عن قدر
عليه هذا مع كثرة الصوم ولزوم العبادة والبر والصدقات وبالجملة فإنه أحد من أدركنا من
الأفراد.

ولم يكن فيه ما يعاب إلا تقريبه لولده لجهل كان في ولده وسوء سيرته وما وأما شعره
فكان في غاية الحسن.

ومما أنشدني من لفظه لنفسه رحمه الله: الطويل خليلي ولي العمر منا ولم نتب وننوي
فعال الصالحات ولكننا فحتى متى نبني بيوتًا مشيدة وأعمارنا منا تهد وما تبني وله:
المنسرح سألت من لحظه وحاجبه كالقوس والسهم موعدًا حسنًا ففوق السهم من
لواحظه وانقوس الحاجبان واقتربنا وله: الطويل أتى من أحبائي رسول فقال لي: ترفق
وهن واخضع تفز برضانا فكم عاشق قاسى الهوان بحينا فصار عزيزًا حين ذاق هوانا أمر
النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وثمانية عشر إصبعًا.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعًا وثلاثة وعشرون فيها فشا الطاعون بالديار المصرية
وظواهرها وكان ابتداء من أواخر سنة اثنتين وخمسين في ذي الحجة وعظم إلى أن ارتفع
في شهر ربيع الأول ومات فيه عالم كثير من الأعيان من جملتهم ثلاثة أمراء مقدمي
ألوف وهم: الأمير تمرار القرمشي أمير سلاح والأمير قرا خجا الحسيني الأمير آخور
وكلاهما كان مرشحًا للسلطنة والأمير تمرباي التمريغاوي رأس نوبة النوب ومن يأتي
ذكره من الأعيان وغيرهم رحمهم الله.

وفيها توفي الشهابي أحمد بن علي بن إبراهيم الهيتي ثم القاهري الأزهري أحد فقهاء
الشافعية في يوم الأحد رابع عشر المحرم وكان مجاورًا بجامع الأزهر.

وتوفي القاضي شهاب الدين أحمد ابن علي بن عامر المسطيهي ثم القاهري الشافعي
أحد نواب الحكم بالقاهرة في يوم الاثنين خامس عشر المحرم.

وتوفي الشيخ الإمام العالم علاء الدين أبو الحسن علي الكرمانى الشافعي شيخ خانقاه
سعيد السعداء في يوم الخميس ثاني صفر بالطاعون وكان دينًا فقيهاً صالحًا.

وتوفي القاضي برهان الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن ظهير الحنفي ناظر
الإسطنبول السلطانية في يوم الاثنين سادس صفر بالطاعون ودفن من الغد.

وكان أحد حواشي الملك الظاهر جقمق وممن نشأ في هذه الدولة.

وتوفي السيد الشريف علي بن حسن بن عجلان الحسيني المكي المعزول عن إمرة مكة
قبل تاريخه في ثغر دمياط بالطاعون في أوائل صفر.

وقد تقدم ذكر نسبه في عدة أماكن من هذا الكتاب.

وكان أحذق بني حسن بن عجلان وأفضلهم وأحسنهم محاضرة وله ذوق وفهم ومذاكرة
رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين تمراز بن عبد الله القرمشي الظاهري أمير سلاح بالطاعون في يوم الجمعة عاشر صفر ودفن من الغد وتولى وظيفة إمرة سلاح من بعده الأمير جرباش الكريمي قاشق.

وكان تمراز من مماليك الملك الظاهر برقوق ووقع له أمور إلى أن تولى نيابة قلعة الروم ثم نقل بعد مدة إلى نيابة غزة في الدولة الأشرفية برساي فدام على نيابة غزة سنين ثم عزل وطلب إلى القاهرة على إمرة مائة وتقدمة ألف بها وتولى نيابة غزة من بعده الأمير إينال العلاني الناصري ثم استقر بعد أشهر رأس نوبة النوب بعد أركماس الظاهري بحكم انتقال أركماس إلى الدوادية الكبرى بعد خروج أربك الدوادر إلى القدس بطالاً.

ودام تمراز رأس نوبة النوب سنين كثيرة إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى الأمير أخورية الكبرى بعد مسك جانم الأشرفي ثم صار أمير سلاح بعد أشهر عوضاً عن يشبك السودوني المشد بحكم انتقال يشبك إلى الأتابكية بعد توجه أقبغا التمرازي إلى نيابة الشام عوضاً عن إينال الحكمي فدام تمراز على وكان من محاسن الدنيا لولا إسرافه على نفسه.

وقد نسبه الشيخ تقي الدين المقرئ رحمه الله في مواضع كثيرة إلى الأمير دقماق المحمدي فقال: " تمراز الدقماقي " وليس هو كذلك وإنما تمراز تزوج الست أردبای أم ولد دقماق لا غير.

وتوفي قاضي القضاة بدر الدين محمد ابن قاضي القضاة ناصر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عطاء الله بن عواض بن نجا بن أبي التناء حمود بن نهار ابن مؤنس بن حاتم بن نيلي بن جابر بن هشام بن عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بابن التنسي المالكي قاضي قضاة الديار المصرية في يوم الاثنين ثالث عشر صفر بالقاهرة وبها نشأ تحت كنف والده وحفظ عدة متون وتفقه بعلماء عصره وبرع وأفتى ودرس وناب في الحكم سنين ثم استقل بوظيفة القضاء بعد موت قاضي القضاة شمس الدين البساطي في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

ولما ولي القضاء أكب على الاشتغال والإشغال.

وكان مفرط الذكاء جيد التصور مع الفصاحة وطلاقة اللسان وحسن السيرة.

إلى الغاية والنهاية والتحري والتثبت في أحكامه والحط على شهود الزور حتى أبادهم.

وكان يحلف حواشيه بالإيمان المغلظة على الأخذ من الناس على بابه ثم بعد ذلك يأخذ في الفحص عليهم وبيذل جهده في ذلك مع ذكاء وحذق ومعرفة لا يدخل عليه مع ذلك تنميق منمق ولا خديعة خادع.

وكان يتأمل في أحكامه ومستندات الأخصام الأيام الكثيرة.

وبالجملة أنه أعظم من رأينا من القضاة في العفة وجودة سيرة حواشيه الذين هم على بابه بلا مدافعة مع علمي بأحوال من عاصره من القضاة وغزير علمهم ومع هذا كله ليس فيهم أحد يدانيه في ذلك غير قاضي القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي الحنبلي وإن كانت بضاعته مزجاة العلوم فهو أيضاً كان من هذه المقولة.

وليس حسن السيرة متعلقة بكثرة العلم وإنما ذلك متعلق بالتحري والدين والعقل والحدق والعفة.

وقد حكى لي صاحبنا محمد بن تلمي قال: غضب علي السلطان بسبب تعلقات الذخيرة من جهة ميراث ورسم أن أتوجه إلى القاضي الحنبلي وأن يدعى علي عنده ويرسم علي فادعي علي فأجبت بجواب مرض فقال القاضي: اذهب إلى حال سبيلك ليس لأحد عندك شيء.

فقلت: أخشى من سطوة السلطان لا بد أن أقيم في الترسيم فامتنع من ذلك فقلت: أقيم على باب القاضي كأنني في الترسيم خشية من السلطان فأقمت نحو الشهر على بابه أحضر سماطه في طرفي النهار ورسل السلطان تتردد إليه وهو يرد الجواب بأن لا حق لهم عندي.

فلما أعياهم أمره نقلوني من عنده إلى بيت بعض أعيان قضاة القضاة ففي اليوم المذكور غرمت لحاشيته ثلاثين دينارًا وقرر علي نحو المائة ألف درهم للسلطان بغير وجه شرعي ولم أر وجه القاضي المذكور في ذلك اليوم غير مرة واحدة وإنما صرت أيدي حواشيه كالفريسة يتناهبونني من كل جهة حتى هان علي أني أزن مهما أرادوا وأتخلص من أيديهم - انتهى.

قلت: وقد خرجنا عن المقصود بذكر هذه الحكاية عن القاضي الحنبلي ووقع مثل هذا وأشباهه لقاضي القضاة بدر الدين هذا غير مرة.

ومحصول الأمر أنه كان عفيقًا دينيًا حسن السيرة مشكور الطريقة برئًا عما يرمى به قضاة السوء.

وكان رحمه الله له سماع كثير في الحديث وإمام بالأدب وله نظم جيد.

ومما نظمته في النوم في طاعون سنة سبع وأربعين وأنشديته قاضي القضاة بدر الدين المذكور إجازة إن يكن سماعًا: الوافر إله الخلق قد عظمت ذنوبي فسامح ما لعفوك من مشارك أغث يا سيدي عبدًا فقيرًا أناخ ببابك العالي ودارك قلت: وهذا يشبه قول الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر لنفسه رحمه الله: البسيط سرت وخلفتني غريبًا في الدار أصلى هوي بنارك أدرك حشًا حرقت غرامًا في ربعك المعتلي ودارك ومن شعر القاضي بدر الدين أيضًا فيما يقرأ على قافيتين مع استقامة الوزن: السريع جفوت من أهواه لا عن قلى فظل يجفوني يروم الكفاح ومثل هذا أيضًا للحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلاني الشافعي: السريع نسيمكم ينعشني في الدجى طال فمن لي بمجيء الصباح ويا صباح الوجه فارقتكم فشببت همًا إذ فقدت الصباح ومثله للشيخ شمس الدين محمد بن الحسن بن علي النواجي: الطويل خليلي هذا ربع عزة فاسعيا إليه وإن سألت به دمعي طوفان فجفني جفا طيب المنام وجفنها جفاني فيا لله من شرك الأجفان ومثل ذلك لقاضي القضاة صدر الدين علي بن الأدمي الحنفي وهو عندي مقدم على الجميع: السريع يا متهمي بالسقم كن منجدي ولا تطل رفضي فإني عليل أنت خليلي فبحق الهوي كن لشجوني راحمًا يا خليل وتوفي الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله الشبكي أحد أمراء العشرات بالطاعون في يوم الأربعاء خامس عشر صفر.

وكان أصله من مماليك الأتابك يشبك الشعباني وكان من المهملين رحمه الله.

وتوفي القاضي ولي الدين أبو اليمن محمد بن قاسم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد القادر الشيشيني الأصل المحلي الشافعي المعروف بابن قاسم في يوم الجمعة سابع عشر صفر.

وكان فيه خفة روح ودعابة ونامد الملك الأشرف برسباي ونالته السعادة.

وكان أولًا يلي الحكم بالمحلة وغيرها فلما تسلطن الملك الأشرف قربه ونامده لصحبة كانت بينهما قديمة ثم استقر شيخ الخدام بالحرم النبوي إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق وصادره ثم نامده بعد ذلك إلى أن مات.

وكان دينًا خيرًا إلا أنه كان مسيئًا جماعًا للأموال وكان سميئًا جدًّا لا يحمله إلا الجياد من الخيل.

وتوفي الأمير سيف الدين قراخجا بن عبد الله الحسيني الظاهري الأمير آخور الكبير بالطاعون في يوم السبت ثامن عشر صفر وتوفي ولده أيضًا في اليوم المذكور فجهزا معًا من الغد وحضر السلطان الصلاة عليهما بمصلاة المؤمني ودفنا بالصحراء.

وكان أصل قراخجا المذكور من ممالك الملك الظاهر برقوق وتأمّر بعد أمور وقعت له بعد موت الملك المؤيد شيخ وصار من جملة رؤوس النوب ثم نقله الملك الأشرف بعد سنين إلى إمرة طبلخاناه ثم صار رأس نوبة ثانيًا ثم مقدم ألف بالديار المصرية إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق وجعله رأس نوبة النوب بعد الأمير تمرار القرمشي بحكم انتقاله إلى الأمير آخورية.

ثم نقل قراخجا بعد أشهر إلى الأمير آخورية بعد تمرار أيضًا فدام على ذلك حتى مات.

وكان أميرًا جليلاً شجاعًا مقدامًا معظماً في الدول عارفاً بأنواع الفروسية رأسًا في ذلك مع العقل والديانة والصيانة والحشمة والوقار وكثرة الأدب وهو أحد من أدركنا من الملوك العقلاء الرؤساء رحمه الله تعالى وهو صاحب المدرسة بالقرب من قنطرة طقزدمر خارج القاهرة.

وتوفي السيد الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان الحسيني المكي المعزول عن إمرة مكة قبل تاريخه وكان قدم صحبة الحاج ليسعى في إمرة مكة فأدرسته منيته بالقاهرة بالطاعون في ليلة الاثنين العشرين من صفر وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني من تحت القلعة.

وتوفيت زوجة السلطان الملك الظاهر جقمق خوند نفيسة بنت الأمير ناصر الدين بك بن دلغادر بالطاعون في يوم الثلاثاء حادي عشرين صفر.

وتوفي الأمير سيف الدين بختك بن عبد الله الناصري أحد أمراء العشرات بالطاعون في يوم الأربعاء ثاني عشرين صفر وكان لا بأس به.

وتوفي الأمير ملغباي طاز بن عبد الله الساقى الظاهري بعد أن تأمر بنحو العشرة أيام في يوم الأربعاء ثاني عشرين صفر وكان من ممالك الملك الظاهر جقمق الأجلاب وأحد خواصه وكان لا ذات ولا أدوات.

وتوفي الشيخ الإمام العالم المعتقد محمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن سلطان المعروف بالشيخ محمد بن سلطان الغزي الأصل المصري الدار والوفاة الشافعي في

يوم الأحد سادس عشرين صفر وكان الناس فيه على قسمين: ما بين معتقد ومنتقد والأول أكثر وكان إمامًا عالمًا بفقون وله اشتغال قديم وله قدم في العبادة والصلاح وكان لا يتردد إلى أحد والناس تتردد إليه من السلطان إلى من دونه.

وكان يتهمه بعض الناس بمعرفة الكيمياء أو طرف منها لأنه عمر طويلًا في أرغد عيش ونعمة ولم يقبل من أحد إلا نادرًا.

وكان شيخًا منور الشبهة مفوهًا فصيحًا شاعرًا عالمًا صوفيًا ومات وسنه أزيد من تسعين سنة فيما أظن وهو متمتع بحواسه رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين تمرباي بن عبد الله التمرباغي رأس نوبة النوب بالطاعون في يوم الأربعاء تاسع عشرين صفر وهو في عشر الستين.

وكان أصله من ممالك الأمير تمرباغا المشطوب نائب حلب ثم خدم عند الأمير ططر فلما تسلطن ططر جعله دوا دارًا ثالثًا فدام على ذلك مدة إلى أن نقله الملك الأشرف إلى الدوادارية الثانية بعد موت جانبك الدوادار الأشرفي فباشر الدوادارية الثانية على الجندية أيامًا ثم أنعم عليه بإمرة عشرة ثم بعد مدة طويلة بإمرة طبلخاناه ودام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملك العزيز يوسف ابن السلطان الأشرف برسباي بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية ثم صار نائب الإسكندرية مدة ثم عزل واستقر رأس نوبة النوب بعد انتقال قراخا الحسني إلى الأمير أخورية فدام على ذلك إلى أن مات.

وكان يعف عن المنكرات ويتصدق كثيرًا غير أنه كان عاريًا من كل علم وفن مع حدة خلق وبذاءة لسان رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أركماس بن عبد الله المؤيدي الأشقر المعروف بالبواب أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في يوم السبت سلخ شهر ربيع الآخر.

وكان مهملاً غير متجمل في ملبسه ومركبه إلا أنه كان مشهورًا بالشجاعة والإقدام.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله المؤيدي الأمير آخور الثاني المعروف بسودون أتمكجي أي خباز في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب وهو في عشر الخمسين أو أكثر.

واستقر بعده الأمير يرشباي الإينالي الأمير آخور الثالث أمير آخور ثانيًا.

وكان سودون المذكور شجاعًا مقدامًا عارفًا بأنواع الفروسية كريمًا حشمتًا معظمًا في الدول وعنده تواضع وأدب رحمه الله تعالى فإنه كان من محاسن أبناء جنسه.

وتوفي الأمير سيف الدين بيسق اليشبيكي نائب قلعة دمشق بها في شعبان.

وكان من ممالك الأتابك يشبك الشعباني وتأمّر في دولة الملك الظاهر جقمق خمسة ثم عشرة ثم ولاة نيابة نجر دمياط ثم نيابة قلعة صفد ثم عزله وأنعم عليه أيضًا بإمرة عشرة بمصر ثم ولاة نيابة دمياط ثم ولاة نيابة قلعة دمشق بعد موت شاهين الطوغاني إلى أن مات.

ونعم الرجل كان ذا شجاعة وكرم وعقل وتواضع لا أعرف في اليشبيكية من يقاربه في معناه رحمه الله تعالى.

وتوفي شرف الدين يحيى بن أحمد بن عمر بن يوسف بن عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الشرف التنوخي الحموي الأصل الكركي المولد الشهير بابن العطار الشاعر المشهور في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة.

ولم يكن يحيى المذكور من الأعيان ولا ممن له عراقة ورتاسة لتشكر أفعاله أو تدم وإنما كانت شهرته بصهارة أخيه الأمير ناصر الدين محمد بن العطار لبني البارزي فغرف لهذا المعنى بين الناس.

وكان له شعر ويكتب المنسوب بحسب الحال.

وكان أولاً يتزيا بزى الجند وخدم دوادراً عند الشهاب أستاذار المحلة ثم عند القاضي ناصر الدين بن البارزي فلم ينتج أمره وعزل ثم بعد مدة ترك الجندية وتزيا بزى الفقهاء وخدم موقعاً عند الزيني عبد الباسط ناظر الجيش فملأه سباً وتوبيخاً منذ مباشرته عنده إلى أن مل ذلك وترك التوقيع وانقطع إلى المقر الكمالي بن البارزي وصار يتردد إلى الأكابر ثم تردد في الدولة الظاهرية لخدمة أبي الخير النحاس ومات وهو ملازم لصحبته.

وقد استوعبنا حاله بأوسع من هذا في " المنهل الصافي " وذكرنا من شعره نبذة كبيرة ونذكر منه هنا نبذة يسيرة ليعلم بذلك طبقتة في نظم القريض فإنه كان لا يحسن غيره فمن شعره أهل بدر إن أحسنوا أو أساؤوا أهل بدر فليفعلوا ما يشاؤوا إن أفاضوا دمعي فكم قد أفادوا منة من وداهم وأفأؤوا وغيوني إن فجروها عيوناً بدموع كأنهن دماء لا تلمهم على احمرار دموعي فلهم عندي اليد البيضاء أنا راض منهم وإن هم رضوني فسواء عندي القلى والقلاء يا نزولا في مهجتي في رياض من وداد أغصانها لفاء كل غصن عليه طائر قلبي صادق تقتدي به الورقاء صدحه كله حنين ووجد واشتياق ولوعة وبكاء منع السهد طيفكم ولحظي صار حتى من عندي الرجاء وعدولي يرى سلوي فرصاً أنا من رأيه علي براء يدعي في الهوى إخائي ونصحي ليت شعري من أين هذا الإخاء عينه عن محاسن الحب عمياً - - - وأذني عن عدله صماء الرحمن الفاسي الأصل المكي المولد والمنشأ الحنبلي قاضي قضاة الحنابلة بمكة بها في أواخر هذه السنة عن سن عال وكان سيداً كريماً متواضعاً رحل إلى بلاد الشرق غير مرة وأقبل عليه القان معين الدين شاه رخ بن تيمور وابنه ألوغ بك صاحب سمرقند وعاد إلى مكة بأموال كثيرة أتلفها في مدة يسيرة لكرم كان فيه وهو أول حنبلي تولى القضاء بمكة استقلالاً رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة أمين الدين أبو اليمن محمد بن محمد بن علي أحمد بن العزيز الهاشمي العقيلي النويري الشافعي قاضي قضاة مكة وخطيبها في ذي القعدة عن نحو ستين سنة تخميناً وهو قاض.

وكان فاضلاً ديناً خيراً خطيباً فصيحاً مفوهاً كثير الصوم والعبادة مشكور السيرة في أحكامه فرداً في معناه لم أر بمكة المشرفة في مدة مجاورتي من يدانيه في الطواف وفي كثرة العبادة رحمه الله تعالى.

▲ أمر النيل في هذه السنة

: الماء القديم سبعة أذرع وخمسة عشر إصبغاً.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وثلاثة أصابع.

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الظاهر جقمق فيها كان الشراقي العظيم بمصر والغلاء المفرط المتداول إلى سنة سبع وخمسين وكان ابتداء الغلاء من السنة الخالية لكنه عظم

في هذه السنة بوقع الشراقي وتزايد وبلغ سعر القمح إلى ألف درهم الإردب والحمل التبن إلى سبعمائة درهم وقس على ذلك حسبما نذكره في وقته على طول السنين.

فيها توفي المسند المعمر شمس الدين محمد بن الخطيب عبد الله الرشيد الشافعي خطيب جامع الأمير حسين بحكر النوبي خارج القاهرة في يوم الجمعة حادي عشر شهر ربيع الأول ومولده في ليلة رابع عشر شهر رجب سنة تسع وستين وسبعمائة.

وكانت له مسموعات كثيرة وحدث سنين وتفرد بأشياء كثيرة ولنا منه إجازة.

وكان شيخًا منور الشيبة فصيحًا مفوهًا خطيبًا بليغًا رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين شاد بك بن عبد الله الحكمي أحد مقدمي الألوف بديار مصر ثم نائب الرها ثم حماة بطالًا بالقدس بعد مرض طويل في يوم الأربعاء ثاني شهر ربيع الأول وكان أصله من مماليك الأمير حكيم من عوض نائب حلب وتنقل في الخدم من بعده إلى أن صار بخدمة الأمير ططر فلما تسلطن ططر قربه وأنعم عليه ثم تأمر عشرة بعد موته وصار من جملة رؤوس النوب ثم صار أمير طبلخاناه ثم ثاني رأس نوبة ثم ولي نيابة الرها ثم عزل بعد سنين وصار بالقاهرة على طبلخاناه إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في أوائل دولته ثم نقله إلى نيابة حماة بعد سنين فلم تطل مدته على نيابة حماة وعزل وتوجه إلى القدس بطالًا ثم تكلم فيه فقبض عليه وحبس مدة ثم أطلق وأعيد إلى القدس بطالًا إلى أن مات.

وكان متوسط السيرة غير أنه كان قصيرًا جدًّا وعنده سرعة حركة وإقدام وله وجه في الدول رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين علي باي من دولات باي العلاني الساقى الأشرفي في يوم الثلاثاء تاسع عشرين شهر ربيع الأول وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني وكان أصله من مماليك الملك الأشرف برسباي اشتراه في سلطنته ورباه وأعتقه وجعله خاصكيًا ثم ساقيًا ثم أمره عشرة وجعله خازنًا كبيرًا بعد إينال أبو بكر الأشرفي بحكم انتقاله إلى المشدية بعد قراجا الأشرفي بحكم انتقاله إلى تقدمه ألف ودام علي باي على ذلك إلى أن أنعم على الملك العزيز يوسف بإمرة طبلخاناه وجعله شاد الشراب خاناه بعد إينال أبو بكر أيضًا بحكم انتقال إينال إلى الدوادية الثانية بعد تمرباي التمرباوي المنتقل إلى تقدمه ألف فلم تطل مدة علي باي بعد ذلك وقبض عليه مع من أمسك من خدائش الأشرفية وغيرهم وحبس سنين ثم أطلق وأنعم عليه بإمرة بالبلاد الشامية وقدم القاهرة ثم حج وعاد إلى دمشق ثم قدم القاهرة ثانيًا ودام بها إلى أن أنعم عليه السلطان بإمرة عشرة ودام على ذلك إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وكان شابًا مليح الشكل طوالًا عاقلًا عارفًا بأنواع الفروسية خصيصًا عند أستاذه الملك الأشرف إلى الغاية لجمال صورته ولحسن سيرته.

وأنعم السلطان بإقطاعه بعد موته على خدائشه تمراز الأشرفي الزردكاش فما شاء الله كان.

وتوفي الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم الدمشقي الحنفي المعروف بابن عرب شاه في القاهرة بخانقاه سعيد السعداء في يوم الاثنين خامس عشر شهر رجب غريبًا عن أهله وأولاده.

سألته عن مولده فقال: في ليلة الجمعة داخل دمشق في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وسبعمئة.

ونشأ بدمشق وطلب العلم ثم خرج إلى بلاد العجم في كائنة تيمور وأقام بتلك البلاد سنين كثيرة ثم رحل إلى الروم ثم قدم دمشق وتردد إلى القاهرة إلى أن مات بعد أن ولي عدة وظائف دينية وولي قضاء حماة في بعض الأحيان.

وكان إمامًا بارعًا في علوم كثيرة مفتنًا في الفقه والعربية وعلمي المعاني والبيان والأدب والتاريخ وله محاضرة حسنة ومذاكرة لطيفة مع أدب وسكون وتواضع وله النظم الرائع الفائق الكثير المليح وكان يقول الشعر الجيد باللغات الثلاث: العربية والعجمية والتركية وله مصنفات " الحمد لله الذي زين مصر الفضائل بجمال يوسفها العزيز جعل حقيقة مجاز أهل الفضل فحلى به كل مجاز ومجيز.

أحمدته حمد من طلب إجازة كرمه فاجتاز وأشكره شكرًا أوضح لمزيد نعمه علينا سبيل المجاز وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله يجيب سائله ويثيب آمله ويطيّب لراجيه نائله وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله سيد من روى عن ربه ومن روي عنه والمقتدى لكل من أخذ عن العلماء وأخذ منه صلى الله عليه ما رويت الأخبار ورثت الآثار وظهرت أذكار الأبرار في صحائف الليل والنهار وتابعيه وأحزابه وسلم وكرم وشرف وعظم.

أما بعد فقد أجزت الجناب الكريم العالي ذا القدر المنيف الغالي والصدر الذي هو بالفضائل حال وعن الرذائل خال المولوي الأميري الكبيرى العالمى العاملى الأصيلى العريقى الفاضلى المخدومى الجمالى أبا المحاسن الذى ورد فواضله وفضائله غراس يوسف ابن المرحوم المقر الأشرف الكريم العالي المولوي الأميري الكبيرى الأتابكى المالكي المخدومى السفيري تنكري بردي الملكي الظاهري أعز الله جماله وبلغه من المرام ممامته وهو ممن تغنى بلبان الفضائل وتربى في حجر قوايل الفواضل وجعل اقتناء العلوم دأبه ووجه إلى تدين الأحزاب ركابه وفتح إلى دار الكمالات بابه وصير أحرازها في خزائن صدره اكتسابه فجاز بحمد الله تعالى حسن الصورة والسيره وقرن بضياء الأسرة صفاء السريرة وحوى السماحة والحماسة والفروسية والفراسة ولطف العبارة والبراعة والعرابة واليراعة والشهامة والشجاعة فهو أمير الفقهاء وفقه الامراء وطريف الأدباء وأديب الظرفاء فمهما تصفه صف وأكثر فإنه لأعظم مما قلت فيه وأكثر فأجزت له معولاً عليه أحسن الله إليه أن يروي عني ما لي من منظوم ومثثور ومسموع ومسطور بشروطه المعتبرة وقواعده المحررة عمومًا "

ثم ذكر ما له من تصنيف وتأليف وأسماء مشايخه ببلاد الشرق وبالبلاد الشامية وقد ذكرنا ذلك برمته في ترجمته في تاريخنا " المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي " أضربنا عن ذكره هنا خوف الإطالة فكان مما قاله في أواخر هذه الإجازة من النظم أبيات مع ما في اسم يوسف: الرمل وجهك الزاهي كيدر فوق غصن طلعا واسمك الزاكي كمشكا - - - سناها لمعا في بيوت أذن الل - - - لها أن ترفعا عكسها صحفه يلقى الحسن فيه أجمعا وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله النوروزي المعروف بنائب بيروت بعد أن ابتلي وعزل عن نيابة صهيون وعاد إلى القاهرة فمات بالعريش.

وكان أصله من مماليك الأمير نوروز الجافظي وممن تأمر - في دولة الملك الظاهر جقمق - عشرة ثم خرج إلى البلاد الشامية وصار من جملة أمراء طرابلس ثم ولي نيابة صهيون فابتلي بداء الأسد واستعفى.

وأراد قدوم القاهرة فمات في طريقه.

وكان مشهورًا بالشجاعة لا بأس به.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون السوداني الظاهري الحاجب في يوم الأحد العشرين من شعبان وهو في عشر التسعين.

وأصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ثم تأمر بعد موت الملك الناصر فرج وصار في الدولة الأشرفية من جملة الحجاب ثم صار حاجبًا ثانيًا في الدولة الظاهرية جقمق ونفي غير مرة وهو يعود إلى دون رتبته أولًا ولا زال يتقهقر إلى أن صار من جملة الحجاب الأجناد.

وكان شيخًا مسرّفًا على نفسه مهملاً لم يشهر بتدين ولا شجاعة ولا كرم عفا الله عنه.

وتوفي القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي الأصل والمولد والمنشأ المصري الدار والوفاة ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية بطالًا بها في يوم الثلاثاء رابع شوال بداره في وقت المغرب بخط الكافوري ودفن من الغد بترتبه التي أنشأها بالصحراء خارج القاهرة.

ومولده بعد التسعين وسبعمئة أو في حدودها ونشأ بدمشق وخدم القاضي بدر الدين بن الشهاب محمود وبه عرف بين الناس ثم اتصل بخدمة الملك المؤيد شيخ وهو على نيابة دمشق ولازمه إلى أن قتل الملك الناصر وقدم معه إلى القاهرة وسكن بالقرب منا بالسبع قاعات وهو فقير مملق.

فلما تسلطن الملك المؤيد شيخ قربه وأداته وولاه نظر الخزانة فانتقل من داره إلى دار أخرى بالقرب منها.

ولما عظم أمره سألنا في السكنى في بعض دورنا فأجبناه إلى ذلك فسكنها عدة سنين ومن يومئذ أخذ أمر في نمو وزيادة وعظم في الدولة وعمر الأملاك الكثيرة ثم أنشأ مدرسته بخط الكافوري تجاه داره ثم ولي نظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية بعد عزل المقر الكمالي ابن البارزي في الدولة الظاهرية ططر.

ولما ولي نظر الجيش بعد ابن البارزي قال المقريري وتمثل بقول أبي العلاء المعري:
الطويل وبا نفس جدي إن دهرك هازل ودام عبد الباسط في وظيفته نظر الجيش سنين وعظم في أوائل الدولة الأشرفية ثم أخذ أمره في إديار عند الأشرف وهو يحسن سياسته لا يظهر ذلك ويبذل الأموال في رضى الأشرف بكل ما تصل قدرته إليه يعرف قولي هذا من كان له رتبة تلك الأيام وملازمة بخدمة الملك الأشرف برسباي مع أنه لم يصف له الدهر في خصوصيته عند الأشرف السنة الواحدة بل كان كلما زال عنه واحد انتشأ له آخر فالأول جانبك الدوادر الأشرفي كان عبد الباسط وغيره بين يديه كالأغنام في حضرة الراعي ثم انتشأ له البدر بن مزهر كاتب السر فحاشره فيما هو فيه وضيق خناقه إلى أن مات ثم جاءه الصفوي جوهر القنقبائي الخازندار فكان عليه أدهى وأمر ولا زال به حتى أوقعه في أمور وغرّامات.

ثم حمله الأشرف الوزير ثم الأستادارية فلا زال يحجل في الأستادارية مع ما يلزمه من الكلف مع ذلك إلى أن مات الأشرف وتسلطن ولده الملك العزيز يوسف فقاسى في الدولة العزيزية خطوبًا من بهدلة المماليك الأشرفية له بكل ما تصل قدرتهم إليه واستعفى في تلك المدة غير مرة إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق وقبض عليه بعد أشهر وسجنه وصادره وأبرز ما كان عنده من الكوامن منه في الأيام الأشرفية حسبما ذكرناه في ترجمة الملك الظاهر جقمق فكان ما لقيه أولًا كالمجاز بجنب هذه الحقيقة

ولسان حاله ينشد: " الكامل " ما إن وصلت إلى زمان آخر إلا بكيت على الزمان الأول ثم أطلق عبد الباسط بعد أن حمل جملة كبيرة من الذهب نحو الثلاثمائة ألف دينار حررناها في أصل الترجمة وتوجه إلى الحجاز ثم إلى دمشق ثم قدم إلى القاهرة مرة أولى وثانية استوطن فيها القاهرة إلى أن حج ثانيًا ومات في التاريخ المقدم ذكره.

وكان عبد الباسط مليح الشكل متجملاً في ملبسه ومركبه وحواشيه إلى الغاية وله مآثر وعمائر في أقطار كثيرة معروفة به لا تلتبس بغيره لأننا لا نعلم من سمي بهذا الاسم قبله ونالته السعادة غيره.

وكان له كرم على أناس وبخل على غيرهم وبالجملة إنه كان عد بآخرة من الرؤساء الأعيان على شراسة خلق كانت فيه وحدة مع طيش وخفة وجبروت وظلم على ممالكة وأتباعه مع بذاءة لسان وسفه زائد وشمم وجهل مفرط بكل علم وفن إلى الغاية رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أركماس بن عبد الله الظاهري الدوادر الكبير بطالاً بالقاهرة في يوم الجمعة ثامن عشرين شوال وسنه زيادة على سبعين سنة.

وأصله من أصغر ممالك الظاهر برقوق وترقى في دولة الملك الظاهر ططر وصار نائب قلعة دمشق إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف برسباي بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية ثم ولاه رأس نوبة النوب بعد القبض على الأمير تغري بردي المحمودي ثم نقله إلى الدوادرية الكبرى بعد مسك الأمير أربك المحمدي ونفيه إلى القدس بطالاً فدام في الدوادرية إلى أن عزله الملك الظاهر جقمق ثم أخرجه بعد مدة إلى دمياط ثم استقدمه بعد سنين إلى مصر فأقام بها بطالاً إلى أن مات.

وكان ساكتاً عاقلاً قليل الكلام فيما يعنيه وفيما لا يعنيه متوسط السيرة في غالب أحواله.

كان لا يميل لخير ولا لشر ولا يتكرم على أحد ولا يطمع في مال أحد ولا ينهر أحدًا ولا يكرم أحدًا وقس على هذا في غالب أموره.

وكان عارياً مهملاً منقاداً في أحكامه إلى دواداره ورأس نوبته وموقعه فمهما قالوه طاوعهم فإن قصدوا الجنة سار معهم وإن دخلوا النار دخل معهم ومهما أشاروا عليه به لا يخالفهم.

وكان إذا كلمه من لا يعرفه يظنه أنه قدم في أمسه من بلاد الجاركس لغتمة كانت في لسانه باللغة التركية فلعمري كيف يكون كلامه باللغة العربية! غير أنه كان متدينًا ويعف عن المنكرات والفروج رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة ولي الدين محمد بن أحمد بن يوسف السفطي الشافعي قاضي قضاة الديار المصرية وصاحب العظمة في أوله والأهوال في آخره في يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة ودفن من الغد بعد أن مرض يوماً واحدًا وقد تقدم من ذكره وما وقع له نبذة كبيرة في ترجمة الملك الظاهر جقمق تعرف جميع أحوال بالقرائن ونذكر الآن من أحواله شيئاً يسيراً من أوائل أمره إلى آخره على سبيل الاختصار.

كان أصله من سبط الحناء بالوجه البحري من أعمال القاهرة ونشأ بالقاهرة وحفظ عدة متون وطلب العلم واشتغل في مبدأ أمره.

وناب في الحكم عز قاضي القضاة جلال الدين البلقيني مدة سنين.

ثم تنزه عن ذلك وتردد إلي الأكاير ومال إلى طلب الدنيا وتحصيل الدرهم واجتهد في ذلك مع ما ورثه من أبيه حتى أثرى وكثر ماله وصار كلما كثر ماله عظم حرصه إلى أن جاوز الحد من زيادة المال وعظم البخل حتى على نفسه وعياله.

وكان دأبه الركوب على فرسه والتردد إلى الأكاير لشبع بطنه فكان من الناس من يأكل عنده ويتوجه إلى حال سبيله ومنهم من كان يأتي عنده ثم يأخذ بيده صحنًا من الطعام ويرسله إلى عياله من غير أن يستقيح ذلك وشوهد أخذه الطعام من بيت الصاحب بدر الدين بن نصر الله ناظر الخاص غير مرة.

فلما تسلطن الملك الظاهر جقمق ترك السفطي من دونه ولزمه حتى عظم في الدولة وصار له كلمة نافذة وعظمة زائدة وتردد الناس إلى بابه لقضاء حوائجهم فنال بذلك من الوجاهة وجمع المال ما لم ينله غيره من أبناء جنسه كل ذلك وهو على ما هو عليه من الشح والطمع وسقوط النفس كما كان أولًا وزيادة فإنه كان أولًا لا يتوصل إلى مقصوده من الآخذ إلا بالتملق والإطراء وغير ذلك وقد صار الآن لا يأخذ إلا بالسطوة والمهابة والتهديد هذا من أعيان الدولة وأكايرها وأما ما أخذه من الأصغر فكان على شبه أخذ الجالية.

ثم تولى من الوظائف عدة كبيرة مثل نظر الكسوة ووكالة بيت المال على ما كان بيده من مشيخة الجمالية وغيرها من الوظائف الدينية.

ثم ولي نظر البيمارستان المنصوري وتدريس قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه.

ولما انتهى أمره تولى قضاء الشافعية بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر في يوم الخميس رابع ذي القعدة من سنة إحدى وخمسين وثمانمائة فأساء السيرة في ولايته لا سيما على الفقهاء ومباشري الأوقاف فإنه زاد وأمعن في أذاهم وبهدلتهم بالضرب والحبس والتراسيم وقطع معالم جماعة كبيرة من الطلبة المرتبة على الأوقاف الجارية تحت نظره.

ولقي الناس منه شذائد كثيرة وصار لا يمكن المرضى من دخول البيمارستان للتمرض به إلا برسالة ثم يخرج المريض بعد أيام قليلة.

وأظهر في أيام عزه وولايته من شراسة الخلق وحدة المزاج والبطش وبذاءات اللسان أمورًا يستقيح ذكرها هذا مع التعب والاجتهاد في العبادة ليلاً ونهارًا من تلاوة القرآن وقيام الليل والتعفف عن المنكرات والفروج حتى إنه كان في شهر رمضان يختم القرآن الكريم في كل ليلة في ركعتين وأما سجوده وتضرعه فكان إليه المنتهى.

وكانت له أوراد هائلة دوامًا فكان بمجرد فراغه من ورده يعود إلى تسلطه على خلق الله وعباده ولا زال على ذلك حتى نفرت القلوب منه وكثر الدعاء عليه حتى لقد شاهدت بعض الناس يدعو عليه في الملتزم بالبيت العتيق في هدوء الليل.

فلما زاد ذلك منه سلط الله عليه أقل خلقه أبا الخير النحاس مع توغر خاطر السلطان عليه في الباطن فلا زال أبو الخير يذكر للسلطان مساوئه ويعرفه معايبه إلى أن كان من أمره ما ذكرناه في أصل هذه الترجمة من العزل والمصادرة والحبس بالمقشرة والاختفاء المدة الطويلة ثم ظهوره بعد نكبة النحاس إلى أن مات عفا الله عنه.

وقد ذكرنا أحواله في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " مفصلاً باليوم والوقت وذكرناه أيضًا في " المنهل الصافي " بأطول من هذا فلينظر هناك.

وتوفي العلامة قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء محمد ابن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن الشيخ الإمام العلامة ضياء الدين محمد بن محمد بن سعيد بن عمر بن يوسف بن إسماعيل الصاغاني الأصل المكي المولد والدار والوفاة الحنفي المذهب قاضي قضاة مكة وعالمها ومفتيها ومصنفها في تاسع عشرين ذي القعدة.

وتولى أخوه أبو حامد القضاء من بعده.

وكان مولد القاضي بهاء الدين في ليلة التاسع من محرم سنة تسع وثمانين وسبعمائة بمكة ونشأ بها وطلب العلم واشتغل حتى برع في عدة علوم وأفتى ودرس وصنف وأفنى عمره في الاشتغال والإشغال.

حكى لي الشيخ أبو الخير بن عبد القوي قال: أعرف القاضي بهاء الدين نحو الخمسين سنة وأزيد ما دخلت إليه فيها إلا وجدته إما يكتب أو يطالع رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين تغري برمش بن عبد الله الزدكاش اليشبكي أحد أمراء الطبلخانات وزردكاش السلطان بمكة في أواخر هذه السنة وسنه نيف على الثمانين سنة.

وخلف مالا كبيرا وأملاكا كثيرة معروفة بأملك الزردكاش.

وكان توجه إلى مكة المشرفة مجاورا.

وأصله من مماليك الأمير يشبك بن أزدمر وترقى من بعده حتى صار أمير عشرة ثم زردكاشا في الدولة الأشرفية برسباي ودام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق بزيادة على إقطاعه وجعله من جملة أمراء الطبلخانات إلى أن مات.

وكان مسرقا على نفسه غير أن له غزوات كثيرة من الفرنج ومات بتلك البقعة الشريفة فلعل الله يغفر له ذنوبه بمنه وكرمه.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وخمسة عشر أصبغا.

مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعا وسبعة أصابع وهي سنة الشراقي العظيم.

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الظاهر جقمق

وهي سنة خمس وخمسين وثمانمائة.

وفيها كان تزايد الغلاء حتى خرج عن الحد وبيع القمح بنحو ألف وخمسمائة درهم الإردب والفول والشعير بألف درهم الإردب ثم تزايد بعد ذلك على ما حررناه في الحوادث.

وفيها توفي الخليفة أمير المؤمنين المستكفي بالله أبو الربيع سليمان ابن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بالقاهرة في يوم الجمعة ثاني المحرم وقد تقدم ذكر نسبه إلى العباس في ترجمة أخيه المعتضد داود من هذا الكتاب وتولى الخلافة بعده أخوه حمزة بغير عهد منه ولقب بالقائم بأمر الله.

ونزل السلطان الملك الظاهر للصلاة عليه بمصلاة المؤمني ومشى في جنازته إلى أن شهد دفنه وربما أراد حمل نعشه في طريقه.

ومات المستكفي وهو في عشر السنين بعد أن أقام في الخلافة تسع سنين ونحو عشرة أشهر.

وكان ديناَ خيرًا منجمًا عن الناس بالكلية كثير الصمت قليل الكلام.

ذكر عنه أخوه أمير المؤمنين المعتضد داود - وكان شقيقه - عندما عهد له بالخلافة في مرض موته أنه لا يعرف عليه كبيرة في مدة عمره - رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي جمال الدين عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن هشام الحنبلي الفقيه أحد نواب الحكم بالقاهرة في العشر الأخير من المحرم.

وكان فقيهاً فاضلاً مشكور السيرة في أحكامه - رحمه الله تعالى.

وتوفي الرئيس مجد الدين عبد الرحمن بن عبد الغني بن الجيعان ناظر الخزانة الشريفة السلطانية وكاتبها في يوم الخميس تاسع عشرين المحرم بعد قدومه من الحجاز ممرضاً.

وخلف عدة أولاد أمهاتهم أمهات أولاد جوار بيض مسلمات.

وتوفي القاضي شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن زباله الشافعي المصري الأصل والمولد قاضي قضاة مدينة الينبع بها في هذه السنة.

وكان مولده بباب البحر خارج القاهرة ثم انتقل إلى الينبع بعد أمور وولي قضاءها إلى أن مات.

وكان له سمعة وصيت بتلك البلاد.

وتوفي السلطان خوندكار مراد بك ابن السلطان محمد بك كرشجي بن أبي يزيد بن عثمان متملك برصا وأدرنابولي وما والاهما من ممالك الروم في سابع المحرم بمملكة الروم.

وتولى الملك من بعده ولده السلطان محمد بن مراد بك واقتدى بسنة أبيه في الجهاد والغزو ونكاية العدو وأخذ البلاد والقلاع من يد الفرنج.

ومات السلطان مراد بك وهو في أوائل الكهولية وكان خير ملوك زمانه شرقاً وغرباً مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد.

وأفنى عمره في الجهاد في سبيل الله تعالى وغزا عدة غزوات وفتح عدة فتوحات وملك الحصون المنيعة والقلاع والمدن من العدو المخدول.

على أنه كان منهمكاً في اللذات التي تهواها النفوس ولعل حاله كقول بعض الأخيار - وقد سئل عن دينه - فقال: " أمزقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار ".

فهو أحق بعفو الله وكرمه فإن له المواقف المشهورة وله اليد البيضاء في الإسلام ونكاية العدو حتى قيل عنه إنه كان ساجداً للإسلام والمسلمين - عفا الله عنه وعوض وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن علي بن محمد بن حسان الفقيه الشافعي شيخ خانقاه سعيد السعداء في يوم السبت أول شهر ربيع الأول.

وكان فقيهاً ديناً مشكور السيرة وتولى مشيخة سعيد السعداء من بعده الشيخ خالد.

وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن إسماعيل بن يوسف بن عثمان بن عماد الحلبي الأصل المعروف بالحجازي ابن أخت السخاوي في يوم الخميس ثالث عشر ربيع الأول.

وكان أديباً وهو ممن عرف في هذه الدولة بخاله خليل السخاوي وعد من بياض الناس على أنه كان قليل البضاعة من العلوم والفضيلة.

وتوفي الشيخ شمس الدين محمد الحنفي الرومي الأصل والمولد المصري الدار والوفاة المعروف بالكاتب في يوم الأحد ثالث عشرين شهر ربيع الأول بعد أن نال حظاً من ملوك مصر لا سيما من الملك الظاهر جقمق فإنه عظم في دولته إلى الغاية ونالته السعادة وعد من الرؤساء ولم يكن لذلك أهلاً غير أن ملوك زماننا كالعميان يضع الواحد يده على كتف الواحد فمهما تحرك الأول بحركة تحرك الثاني بمثله.

فأول من قرب شمس الدين هذا الظاهر ططر فاقتدى جميع من جاء بعده من السلاطين به من تقرب شمس الدين هذا ولا يعرف أحدهم لم قر به واختص به غير الظاهر ططر فإنه كان له مقاصد لا يعرفها هؤلاء ثم انحط قدره ونكب وصادر وادعي عليه عند القضاة بدعاوى اقتضت تعزيره وحبسه بسجن الرحبة وقاسى أهوالاً كل ذلك بأمر السلطان الملك الظاهر جقمق لما تغير عليه نكالا من الله.

فإنه كان واسطة سوء مع دهاء ومكر وعقل تام فإنه اتصل لما اتصل.

ولم يقتن دابة يركبها بل كان كلما أراد أن يطلع القلعة ركب من الشخونية حملاً مكارياً بالكري وطلع إلى القلعة واجتمع بالسلطان ثم نزل وعاد على الحمار المذكور إلى داره بالشيخونية في كل يوم على ذلك.

وكان قليل العلم إلا أنه كان له مشاركة ومحاضرة ومعرفة بمدخله الملوك محظوظاً عندهم.

كان مرتبه في اليوم على الجوالي فقط دينارين وله أشياء في ذلك.

وكان شكلاً مهولاً طويلاً ذا لحية كبيرة وعلى رأسه عمامة هائلة وقبع جوخ كبير جداً ويلف عليه أزيد من ثوب بعلبكي رفيع وقيل ثوبان عوضاً من الشاش.

ومع تقربه من الملوك كان عنده عفة عن أموال الناس وعدم طمع بالنسبة إلى غيره - رحمه الله.

وتوفي الشيخ المعتقد محمد السفاري نزيل جامع عمرو بن العاص في يوم الجمعة حادي عشر جمادى الأولى.

وقد ذكرنا واقعه مع الملك الظاهر جقمق في " الحوادث " وملخصها أنه كان وقع من بعض فقرائه ما أوجب إحضاره فامتنع فألج السلطان على الوالي بإحضار الشيخ محمد المذكور فلما حضر إليه ثانياً أفحش في الجواب للوالي ثم تكلم في الملا بكلام يدل على موت السلطان في سابع عشر جمادى الأولى وشاع ذلك بين الناس فمات الشيخ قبل ذلك اليوم أعني يوم سابع عشر جمادى الأولى بستة أيام فتعجب الناس من ذلك.

والذي أظنه أن الشيخ ما قال إلا عن نفسه فتوهمت العامة أن الشيخ يشير بذلك عن السلطان والله أعلم وعلى كل حال واقعة غريبة - رحمه الله.

وتوفي السيد الشريف هلمان بن وبير بن نخبار أمير مدينة الينع بها في أواخر جمادى الأولى وهو في أوائل الكهولية.

وكان شابًا مليح الوجه مشكور السيرة لولا أنه على مذهب القوم - عفا الله عنه.
وتولى بعده إمرة الينع أخوه سنقر.

وكانت ولاية هلمان المذكور بعد عزل ابن أخيه معز بن هجان بن وبير بن نخبار في سنة تسع وأربعين وثمانمائة - اه.

وتوفي السيد الشريف أميان بن مانع الحسيني المدني أمير المدينة الشريفة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - في جمادى الآخرة بها وتولى إمرة المدينة من بعده زبير بن قيس بن ثابت.

وتوفي الأمير ناصر الدين محمد الحلبي الحاجب الثاني بحلب المعروف بابن ألتغا في يوم السبت سابع عشرين شهر رمضان بالقاهرة غربًا عن أهله وعياله.

وكان أصله من بعض قرى حلب وترقى في الخدم حتى لبس زي الجند وخدم أستاذًا عند بعض أعيان حلب وتمول وترقى بالبذل حتى صار حاجبًا ثانيًا بحلب وهو لا يعرف كلمة مركبة باللغة التركية ويتلفظ في كلامه بألفاظ فلاحي القرى إلى أن مات غير أنه كان مشكور السيرة كريم النفس - رحمه الله.

وتوفي القاضي تاج الدين محمد ابن قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي في يوم السبت سابع عشرين شهر رمضان ودفن من الغد عن ثمان وستين سنة.

وخلف مألًا كثيرًا وكان مسيغًا بخيلًا وإليه أشار الحافظ ابن حجر بقوله: السريع مات جلال الدين قالوا: ابنه يخلفه أو فالأخ الراجح فقلت تاج الدين لا لائق لمنصب الحكم ولا صالح أراد بتاج الدين هذا في الأول ثم بالتورية قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني.

وتوفي الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله السيفي سودون الحمزاوي نائب صفد بها في ليلة السبت تاسع عشرين شهر رمضان.

وكان يشبك المذكور ولي دوايرية السلطان بحلب سنين ثم ولي نيابة غزة ثم نقل إلى نيابة صفد إلى أن مات بها.

وكان مشكور السيرة لم تسبق له رئاسة بالديار المصرية.

وتولى الأمير بيغوت المؤيدي بعده نيابة صفد ثاني مرة - رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير شهاب الدين أحمد ابن أمير علي بن إينال اليوسفي الأتابكي أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية في ليلة الثلاثاء سابع عشرين ذي القعدة وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني ودفن بتربة جده الأتابك إينال ومات وسنه نحو خمسين سنة تخمينًا

وإلى والده أمير علي ينتسب الملك الظاهر جقمق بالعلائي وقد تقدم ذكر ذلك كله في أول ترجمة الملك الظاهر جقمق وكيف أخذه الملك الظاهر برقوق منه.

وكان أحمد المذكور أميرًا ضخمًا عاقلًا رئيسًا دينًا خيرًا متواضعًا عارفًا بأنواع الفروسية وعنده محبة للفقراء وأرباب الصلاح وكان سميًا جدًا لا يحمله إلا الجياد من الخيل وكان ممن رقه الملك الظاهر جقمق وأمره عشرة في أوائل سلطنته ثم ولاه نيابة الإسكندرية وزاده عدة زيادات على إقطاعه ثم أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضًا عن الأمير إينال العلائي بحكم انتقاله إلى الأتابكية بعد موت يشبك السوداني المشد فدام على ذلك إلى أن مات وتأسف الناس عليه لحسن السيرة إلى أخيه محمد وإلى الشهابي أحمد بن نوروز شاد الأغنام فإنهما كانا أسوأ حواشي الملك الظاهر جقمق سيرة بخلاف الشهابي أحمد فإنه لم يكن له كلمة في الدولة إلا بخير - رحمه الله تعالى.

وتوفي السيد الشريف إبراهيم بن حسن بن عجلان الحسني المقبوض عليه مع أخيه علي بن حسن قبل تاريخه بمكة وكان قد حمل إلى القاهرة وحبس بالبرج من القلعة مدة طويلة ثم أخرج مع أخيه إلى ثغر دمياط فدام به بعد موت أخيه علي إلى أن مات في هذا التاريخ.

وتوفي الأمير سيف الدين تمرار بن عبد الله من بكتمر المؤيدي المصارع شاد بندر جدة قتيلا بالحديدة من بلاد اليمن في خامس عشرين شهر رمضان بعد أن فر من جدة بمال السلطان عاصيًا عليه فلم يحصل له ما قصد وقد أوضحنا أمره وما وقع له من يوم خروجه من جدة إلى يوم موته في أصل هذه الترجمة سياتي في أواخر ترجمة الملك الظاهر هذا.

وتوفي قاضي القضاة شيخ الإسلام بدر الدين أبو الثناء وقيل أبو محمد بدر الدين محمود ابن القاضي شهاب الدين أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود العينتابي الحنفي قاضي قضاة الديار المصرية وعالمها ومؤرخها في ليلة الثلاثاء رابع ذي الحجة ودفن من الغد بمدرسته التي أنشأها تجاه داره بالقرب من جامع الأزهر.

ومولده بعينتاب في سنة اثنتين وستين وسبعمائة ونشأ بها وتفقه بوالده بعد حفظه القرآن الكريم وكان أبوه قاضي عينتاب وتوفي بها في شهر رجب سنة أربع وثمانين وسبعمائة ثم رحل ولده القاضي بدر الدين هذا بعد موته إلى حلب وتفقه بها وأخذ عن العلامة جمال الدين يوسف بن موسى الملطي الحنفي وغيره ثم قدم لزيارة بيت المقدس فلقى به العلامة علاء الدين العلاء بن أحمد بن محمد السيرامي الحنفي شيخ المدرسة الظاهرية - برقوق - وكان أيضًا توجه لزيارة بيت المقدس فاستقدمه معه إلى القاهرة في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ونزله في جملة الصوفية بالمدرسة الظاهرية - برقوق - ثم قرره خادمًا بها.

ثم بعد ذلك أمور حكيماها في ترجمته في المنهل الصافي إلى أن عرف بين الطلبة وفضل في علوم وصحب الأمير جكم من عوض والأمير قلمطاي العثماني الدوادار وتغري بردي القردمي إلى أن توفي الملك الظاهر برقوق في سنة إحدى وثمانمائة فولي حسبة القاهرة في مستهل ذي الحجة من السنة بسفارة هؤلاء الأمراء عوضًا عن الشيخ تقي الدين أحمد المقريري فمن يومئذ وقعت العداوة بينهما إلى أن ماتا.

ثم صرف بعد أشهر وتولى حسبة القاهرة غير مرة وآخر ولايته للحسبة في سنة ست وأربعين وثمانمائة عوضًا عن يرعلي الخراساني - انتهى.

فنعود إلى ما كنا بصدده: ثم ولي القاضي بدر الدين هذا نظر الأحباس في الدولة المؤبدية ولما تسلطن الملك الأشرف برسباي صحبه وعظم عنده إلى الغاية وصار ينادمه وبقراً له التواريخ من أيام السلف من الوقائع والأخبار ويعلمه كان يقرأ له التاريخ باللغة العربية ثم يفسره له باللغة التركية وكان فصيحاً اللغتين.

وكان الملك الأشرف يسأله كثيراً عن دينه وعما يحتاج إليه من العبادات وغيرها فيجيبه القاضي بدر الدين المذكور بعبارة تقرب من فهمه حتى لقد سمعت الأشرف يقول غير مرة: " لولا العينتابي لكان في إسلامنا شيء " .

وولاه قضاء الحنفية مرتين.

ومات الأشرف وهو قاض فعزل في الدولة العزيزية بالشيخ سعد الدين سعد الديري ولزم داره على نظر الأحباس مدة سنين إلى أن سعى علاء الدين علي بن أقبرس فيها ووليها فاستقبح الناس عليه ذلك من وجوه عديدة ثم مات بعد بمدة يسيرة.

وكان إماماً فقيهاً أصولياً نحوياً لغوياً بارعاً في علوم كثيرة وأفتى ودرس سنين وصنف التصانيف المفيدة النافعة وكتب التاريخ وصنف فيه مصنفات كثيرة ذكرناها مع جملة مصنفته في " المنهل الصافي " يطول الشرح في ذكرها هنا ولما انتهينا من الصلاة على قاضي القضاة بدر الدين هذا بجامع الأزهر وخرجنا إلى مشاهدة دفنه قال لي قاضي القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي الحنبلي: " خلا لك البر فبض وأصفر " فلم أرد عليه وأرسلت إليه بعد عودي إلى منزلي ورقة بخط العيني هذا يسألني فيه عن شيء سئل عنه في التاريخ من بعض الأعيان ويعتذر عن الإجابة بكبر سنه وتشتت ذهنه ثم بسط القول في الشكر والمدح والثناء إلى أن قال: " وقد صار المعول عليك الآن في هذا الشأن وأنت فارس ميدانه وأستاذ زمانه فاشكر الله على ذلك " .

وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة في سنة تسع وأربعين وثمانمائة - انتهى.

وتوفي السيد الشريف عفيف الدين أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله الأيكي العجمي الشافعي نزيل مكة المشرفة بمنى في ثاني يوم من التشريق وحمل إلى مكة ودفن بها وكانت جنازته مشهودة.

وكان الناس في أمره وصلاحه على أقسام.

رأيته بمكة واجتمعت به مجلساً خفيفاً - رحمه الله.

وتوفي الشيخ المعتقد الصالح أحمد التراي المصري فجأة في يوم الجمعة حادي عشر ذي الحجة ودفن بزوايته من الغد بالقرب من تربة الشيخ جوشن خارج باب النصر.

وكان رجلاً صالحاً ديناً خيراً معتقداً وكنت أصحابه وكان لي فيه اعتقاد ومحبة - رحمه الله تعالى أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم أربعة أذرع وخمسة عشر إصبغاً.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر وثمانية أصابع.

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الظاهر جقمق وهي سنة ست وخمسين وثمانمائة.

فيها أخذ الغلاء في انحطاط من الديار المصرية وأعمالها.

وفيهما توفي الشيخ الإمام العلامة علاء الدين علي ابن الشيخ قطب الدين أحمد القلقشندي الشافعي أحد فقهاء الشافعية في يوم الاثنين مستهل المحرم ودفن الغد في يوم الثلاثاء خارج القاهرة.

ومولده بالقاهرة في ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ونشأ بها وحفظ عدة متون في مذهبه وتفقه بعلماء عصره مثل شيخ الإسلام السراج البلقيني وولده قاضي القضاة جلال الدين والعلامة عز الدين بن جماعة أخذ عنه المعقول وعن الشيخ الإمام العلامة فريد عصره علاء الدين محمد البخاري الحنفي وقاضي القضاة شمس الدين محمد البساطي المالكي وغيرهم.

وبرع في عدة علوم وأفتى ودرس وتولى عدة تداريس وشرح لقضاء الديار المصرية غير مرة وسئل بقضاء دمشق فامتنع وتصدى للاشتغال سنين وانتفع به جماعة من الطلبة - رحمه الله تعالى.

وتوفي الإمام المقرئ ناصر الدين محمد بن كزل بغا الحنفي إمام المدرسة الأشرفية بالعنبرين في يوم الأحد تاسع عشر صفر وهو في عشر الخمسين.

ومات ولم يخلف بعده في القراءات وحسن التأدي لا سيما في قراءة المحراب فإنه كان من الأفراد في ذلك وكان أبوه من مماليك الأمير الطنبغا الجوباني نائب دمشق - رحمه الله تعالى.

وتوفي عظيم الديار المصرية وعالمها ورئيسها كمال الدين أبو المعالي محمد ابن العلامة القاضي ناصر الدين أبي المعالي محمد ابن القاضي كمال الدين محمد بن عثمان بن عثمان بن محمد بن عبد الرحيم بن هبة الله البارزي الحموي الجهني الشافعي كاتب السر الشريف بالديار المصرية وابن كاتب سرها وصهر السلطان الملك الظاهر جقمق بداره بخط الخراطين من القاهرة في يوم الأحد سادس عشرين صفر وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني ودفن عنده والده بالقرافة الصغرى تجاه شباك الإمام الشافعي - رضي الله عنه.

سألته عن مولده فقال: بحماة في ذي الحجة سنة ست وتسعين وسبعمائة.

قلت: ونشأ بها تحت كنف والده وحفظ القرآن العزيز وصفى التراويح بالناس في الديار المصرية لما قدم مع والده سنة تسع وثمانمائة ثم عاد مع والده إلى حماة وحفظ التمييز في الفقه وقرأه على الحافظ برهان الدين إبراهيم الحلبي المعروف بالقوف.

ثم قدم إلى الديار المصرية مع والده أيضًا بعد قتل الملك الناصر فرج في سنة خمس عشرة وثمانمائة وتفقه بقاضي القضاة ولي الدين أحمد العراقي وأخذ المعقول عن العلامة عز الدين بن جماعة وعن تلميذه ابن الأديب وأخذ أيضًا عن قاضي القضاة شمس الدين البساطي المالكي وعن العلامة البارع الزاهد علاء الدين محمد البخاري الحنفي ولازمه كثيرًا وانتفع بدروسه وأخذ النحو في مبادئ أمره عن الشيخ يحيى العجيسي المغربي وغيره وسمع البخاري من عائشة بنت عبد الهادي.

واجتهد في طلب العلم وساعده في ذلك الذكاء المفرط والده المستقيم والتصوير الصحيح حتى برع في المنطوق والمفهوم وصارت له اليد الطولى في المنتور والمنظوم لا سيما في الترسل والإنشاء والمكاتبات فإنه كان إمام عصره في ذلك هذا مع ما اشتمل عليه من العقل والعراقة والسكون والسؤدد والكرم والإكرام وسياسة الخلق وحسن الخلق والرئاسة الضخمة والفضل الغزير.

وباشر كتابة السر في أيام والده نيابة عنه وعمره نيف على عشرين سنة.

ثم استقل بالوظيفة نيّفًا على ثلاثين سنة على أنه صرف عنها غير مرة المدة الطويلة.

وأول ولايته لكتابة السر في يوم السبت خامس عشرين شوال سنة ثلاث وعشرين وثمانمئة في الدولة المؤيدية شيخ تلقاها عن والده القاضي ناصر الدين بعد موته واستمر في الوظيفة إلى أن صرف عنها بصهره علم الدين داود بن الكويز ناظر الجيوش بالديار المصرية واستقر القاضي كمال الدين هذا في وظيفة نظر الجيش عوضًا عن علم الدين المذكور - أعني أن كلاً منهما أخذ وظيفة الآخر - وذلك في محرم سنة أربع وعشرين فباشر وظيفة نظر الجيش إلى أن صرف عنها بعبد الباسط بن خليل الدمشقي في يوم الاثنين سابع ذي القعدة من سنة أربع وعشرين المذكورة فلزم القاضي كمال الدين هذا داره على هيئة عمله من الحشم والخدم والإحسان لمن يرد عليه من كل طائفة وأكب على الاشتغال وطلب العلوم مدة سنين إلى أن طلبه الملك الأشرف برسباني في يوم سابع شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وخلع عليه باستقراره في كتابة سر دمشق بعد موت بدر الدين حسين فتوجه إلى دمشق وباشر كتابة سرها مدة إلى أن قدم القاهرة صحة الأمير سودون من عبد الرحمن نائب دمشق وعزل سودون وتولى جارقطلو نيابة دمشق فخلع السلطان عليه بقضاء دمشق مضافًا لكتابة سرها وكان ذلك في يوم الأربعاء مستهل شعبان سنة خمس وثلاثين فباشر الوظيفتين معًا وحسنت سيرته وأحبه أهل دمشق.

ومن غريب ما اتفق في ولايته لقضاء دمشق أن العلامة علاء الدين البخاري كان إذا ولي أحد من طلبته القضاء أو الحسبة يغضب عليه ويمنعه من دروسه فلما بلغه ولاية القاضي كمال الدين هذا فرح وقال: " الآن أمن الناس على أموالهم ونفوسهم " وناهيك بقول الشيخ علاء الدين هذا في حقه.

واستمر على وظيفتيه بدمشق إلى أن طلب إلى الديار المصرية وولي كتابة سرها بعد عزل الصحاب كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المناخ في يوم السبت العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وثمانمئة فباشر الوظيفة مدة إلى أن صرف عنها بالشيخ محب الدين بن الأشقر في يوم الخميس سابع شهر رجب سنة تسع وثلاثين.

ولزم المقر الكمالي داره إلى أن أعيد إلى قضاء دمشق مسؤولًا في ذلك في يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة أربعين وثمانمئة فباشر قضاء دمشق ثانيًا وخطب بالجامع الأموي وكتب إليه الشرفي يحيى بن العطار وهو بدمشق: البسيط يا سيدًا جد بالنوى لي وطال ما جاد بالنوال من منذ سافرت زاد نقصي يا طول شوقي إلى الكمال فأجابه القاضي كمال الدين المذكور - وأنشديها من لفظه لنفسه - رحمه الله تعالى: الطويل خيالك في عيني يؤنس وحدتي على أن داء الشوق في مهجتي أعيًا فإن مات من فرط اشتياقي تصبري أعلله بالوصل من سيدي يحيى ومن شعره - رحمه الله - أيضًا ما كتبه على سيرة ابن ناهض بعد كتابة والده القاضي ناصر الدين: الرجز مرت على فهمي وولو لفظها مكرر فما عسى أن أصنعا ووالدي دام بقاءه سؤدده لم يبق فيها للكمال موضعًا وله أشياء غير ذلك ذكرناها في غير هذا المحل.

واستمر القاضي كمال الدين على قضاء دمشق إلى أن طلب من دمشق الديار المصرية في الدولة العزيزية - يوسف - فحضر بعد سلطنة صهره الملك الظاهر جقمق وطلع إلى

القلعة بعد أن احتفل وجوه الدولة إلى ملاقاته وخلع عليه باستقراره في كتابة السر على عاقبة بعد عزل الصاحب بدر الدين حسن نصر الله وذلك في يوم الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وهذه ولايته الثالثة لكتابة السر.

واستمر في الوظيفة على أمور وقعت له - ذكرناها في الحوادث - إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره بعد أن باشر الوظيفة على طريق وزراء السلف من الملوك في الإنعام والعطايا والبر والصدقات والرواتب والإحسان للفقهاء والفقراء بل وإلى غالب من ورد عليه وتردد إلى أباه كبيرًا كان أو صغيرًا غنيًا كان أو فقيرًا حتى شاع ذكره وبعد صيته وقصده الناس من الأقطار وهو مع ذلك لا يكل ولا يمل بل يوجد بما هو في حاصله وبما عساه يدخل إليه.

ولقد حدثني غير مرة أنه لم يستحق عليه منذ حياته زكاة عين قلت: فله دره لقد استحق قول الشيخ جمال الدين بن نباتة في ممدوحه الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة حيث قال: الرجز لا ظلم يلقي في حماه العالي إلا على العداة والأموال ولما حج في سنة خمسين وثمانمائة وحجت في تلك السنة أيضًا كريمته خوند زوجة السلطان الملك الظاهر جقمق وسافرا معًا في الركب الأول فظهر للناس من علو همته وغزير مروءته وعظيم إحسانه ما لعله يذكر إلى الأبد.

ولقد حدثني بعض أعيان مكة أنه كان إذا وقف على أخبار البرامكة وغيرهم ينكر ذلك بقلبه حتى رأى ما فعله القاضي كمال الدين هذا من الإحسان إلى أهل مكة وغيرهم فعند ذلك تحقق ما قيل في سالف الأعصار.

قلت: " وهو أعظم من رأينا وأدركنا ولله الحمد والمنة على إدراكنا لمثل هذا الرجل الذي مات ولم يخلف بعده مثله - رحمه الله تعالى وعفا عنه ."

وتوفي الشيخ الإمام العالم زين الدين طاهر بن محمد بن علي النوبري المالكي أحد فقهاء المالكية بالقاهرة في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأول وسنه نيف على ستين سنة تقريبًا.

وكان إمامًا عالمًا فقيهاً دينًا صالحًا - رحمه الله تعالى.

وتوفي الملك الكامل خليل بن الملك الأشرف أحمد بن الملك العادل سليمان صاحب حصن كيفا من ديار بكر قتيلاً بيد ولده في شهر ربيع الأول.

وتولى ولده المذكور الملك من بعده ولقب بالملك الناصر ودام في مملكة الحصن إلى شهر رمضان من السنة المذكورة فوثب عليه ابن عمه الملك حسن وقتله وسلطن أخاه أحمد ولقبه بلقب أبيه المقتول الملك الكامل.

وكان الملك الكامل خليل - صاحب الترجمة - ملك الحصن بعد قتل أبيه الملك الأشرف في سنة ست وثلاثين وثمانمائة وقد ذكرنا واقعة أبيه الأشرف في ترجمة الملك الأشرف برسباي لما أراد وتوفي الأمير سيف الدين الطنباغا بن عبد الله الظاهري المعلم للفاف أحد أمراء الألوف بالديار المصرية بطالاً في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الآخر.

وكان أصله من صغار مماليك الملك الظاهر برقوق وطالت أيامه في الجندية إلى أن عمر وتسطن الملك الظاهر جقمق فقربه وأنعم عليه بإقطاع هائل بعد مسك قلمطاي الإسحاقى ثم بعد مدة يسيرة أمره عشرة ثم زاده زيادات كثيرة وولاه نيابة الإسكندرية ثم عزله بعد مدة وجعله من جملة مقدمي الألوف بالديار المصرية فباشر ذلك إلى أن

عجز عن الحركة لكبر سنه واستعفى فأخرج السلطان إقطاعه لولده المقام الفخري عثمان زيادة على ما بيده فلم تطل مدة الطنبغا هذا بعد ذلك ومات.

وكان عاقلًا دينًا خبيرًا عارفًا بأنواع الفروسية رأسًا في لعب الرمح معلمًا فيه ولهذا كان شهرته بالمعلم - رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين برسباي بن عبد الله الساقى المؤيدى أحد أمر العشرات في يوم الجمعة سابع عشرين جمادى الأولى وأنعم السلطان بإمرته على الأمير جانم الظاهري الساقى.

وكان برسباي رجلًا عاقلًا ساكنًا حشمتًا وقورًا - رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير جمال الدين يوسف بن يغمور نائب قلعة صفد بها في أوائل شعبان وكان مولده بالقاهرة وتشتت بالبلاد إلى أن قدم القاهرة بعد موت الملك المؤيد شيخ وترقى إلى أن ولي نيابة قلعة صفد ثم نقل إلى أتاكية صفد ثم أعيد إلى نيابة قلعتها ثانيًا إلى أن مات.

وكان عارفًا مدبرًا سيوسًا عاقلًا - رحمه الله تعالى.

وتوفي الإمام العالم العلامة زين الدين عمر ابن الأمير سيف الدين قديد القلمطاوي بمكة المشرفة في مجاورته في ثامن عشر شهر رمضان وسنه ثمان وستون سنة.

وكان إمام عصره في النحو والعربية والتصريف وله مشاركة كبيرة في فنون كثيرة وكان يتزيا بزى الأجناد ويتقلل في ملبسه ولا يتعاطم في أحواله ويركب الحمار مع عراقته في الرياسة وتبحره في العلوم حتى إنه مات ولم يخلف بعده مثله في علم العربية والتصريف.

وتوفي الأمير الطواشي زين الدين خشقدم الرومي الشيكى مقدم المماليك السلطانية بطالا بداره التي أنشأها بالقرب من قنطرة طقز دمر خارج القاهرة في ليلة الأربعاء ثامن عشر شوال وسنه نيف على سبعين سنة.

وكان أصله من خدام الوالد وقدمه في سنة تسع وتسعين إلى الملك الظاهر برقوق في جملة خدام ومماليك فأنعم به الظاهر على فارس الحاجب ثم ملكه بعد فارس الأمير يشبك الشعباني الأتابكي وأعتقه ثم اتصل بعد موت أستاذه بخدمة السلطان وصار من جملة الجمدارية الخاص ثم نقل إلى نيابة المقدم ودام بها سنين إلى أن ولي تقدمه المماليك السلطانية بعد موت الافتخاري ياقوت الأرغون شاوي في سنة ثلاث وثلاثين فدام على ذلك إلى أن قبض عليه الأتابك جقمق العلاني وحبسه بثغر الإسكندرية مع من حبس من الأمراء الأشرفية وغيرهم.

ثم أطلق وتوجه إلى دمياط فدام بها مدة ثم نقل إلى المدينة الشريفة وبعد مدة قدم إلى القاهرة فدام بطالا إلى أن مات.

وكان طوالًا حشمتًا متعاطمًا صاحب سطوة ومهابة وحرمة زائدة مع طمع كان فيه وشمم مع عدم فضيلة - رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين طوغان السيفي آقبردي المنقار نائب الكرك قتيلاً بيد العربان في هذه السنة.

وهو من الأصغر الذين أنشأهم الملك الظاهر جقمق في أوائل دولته ولم أعرفه قبل ذلك ولا أعرف معتقه بل قيل إنه من ممالك أقبردي المنقار وقيل نوروز الحافظي والأول أقرب.

وتوفي القاضي جمال الدين يوسف بن الصفي الكركي المالكي القبطي بطالاً بدمشق في هذه السنة عن سن عال بعد أن ولي نظر جيش طرابلس وكتابة سر مصر في بعض الأحيان بعد موت علم الدين داود بن الكويز ثم عزل عنها لعدم أهليته.

وولي عدة وظائف بالبلاد الشامية إلى أن كبر سنه وعجز عن المباشرة فتعطل إلى أن مات.

وقد قدمنا من ذكره نبذة عند ولايته كتابة السر بمصر في ترجمة الملك الأشرف برسباي فليُنظر هناك.

وفرغت هذه السنة والملك الظاهر جقمق مريض مرضه الذي مات منه بعد خلعه في صفر حسبما تقدم ذكره رحمه الله تعالى وتسلطن ولده الملك المنصور عثمان في حياته.

▲ أمر النيل في هذه السنة

: الماء القديم خمسة أذرع وأربعة وعشرون إصبغاً.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً واثنًا عشر إصبغاً.

▲ سلطنة المنصور عثمان بن جقمق

السلطان الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد جقمق العلاني الظاهري وهو الخامس والثلاثون من ملوك مصر لإتراك والحادي عشر من الجراكسة.

تسلطن بعد أن خلع أبوه الملك الظاهر جقمق نفسه عن الملك وحضر الخليفة القائم بأمر الله حمزة والقضاة الأربعة وجميع الأمراء وأعيان الدولة بقاعة الدهيشة من قلعة الجبل وبايعوه بالسلطنة في الثانية من نهار الخميس الحادي والعشرين من محرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة وكانت البيعة له بالسلطنة في الثانية من نهار الخميس بعد طلوع الشمس بخمس وعشرين درجة وليس الخلعة على العادة وركب من الدهيشة وعليه السواد الخيفتي بشعار الملك وأبهة السلطنة على نحو ثلاثين درجة من طلوع الشمس.

وسار وبين يديه الأمراء وأعيان المملكة إلى أن نزل بالقصر السلطاني وحمل الأمير الكبير إينال العلاني الناصري القبة والطير على رأسه إلى أن جلس على تخت الملك وقبل الأمراء الأرض بين يديه وخلع على الخليفة القائم بأمر الله حمزة وعلى الأمير الكبير إينال المذكور على كل منهما أطلسين متمر وفرسًا بسرح ذهب وكنبوش زركش وأنعم على الخليفة بألف دينار وبإقطاع هائل زيادة على ما بيده.

وتم أمره في السلطنة ولقب بالملك المنصور وعمره يومئذ نحو الثماني عشرة سنة تخميينًا.

وكان الطالع عند بيعته بالسلطنة سبعاً وعشرين درجة من برج الحوت والغارب برج السنبلة والمتوسط برج القوس والساعة ساعة المريخ والقمر بالوجه الثالث من برج العقرب.

واستمر الملك المنصور بالقصر السلطاني ساعة ثم عاد إلى منزله بالحوش السلطاني من قلعة الجبل وهذا بخلاف عادة الملوك لأن العادة جرت أن السلطان إذا تسلطن يمكث بالقصر ثلاثة أيام بلياليها وعنده أعيان الأمراء والخاصكية فأبطل ذلك كله الملك المنصور وعاد من يومه لكون والده على خطة وهو حاضر الحس وفعل ذلك مراعاة لخاطره.

ثم في يوم السبت ثالث عشرين المحرم جلس الملك المنصور على الدكة بالحوش السلطاني وحضر الأمير دولاب باي المحمودي الدوادار الكبير أمير حاج المحمل إلى بين يديه وقبل الأرض وخلع عليه ونزل إلى داره.

ثم أصبح يوم الأحد طلع المقام الغرسي خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج إلى القلعة وقد حضر أيضًا من الحج وسلم على الملك المنصور فأقبل عليه المنصور وخلع عليه كاملية صوف بنفسجي بمقلب بفروسمور ثم خرج من عنده ودخل إلى الملك الظاهر جقمق وعاده وسلم عليه بقاعة الدهيشة وقبل أن ينزل رسم له الملك المنصور بالتوجه من يومه إلى ثغر دمياط.

وكان الملك الظاهر جقمق لما استقدمه من الإسكندرية للحج أطمعه بالسكنى في القاهرة فنزل خليل المذكور إلى تربة جده الملك الظاهر برقوق بالصحراء وسافر منها ليلته إلى دمياط.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرين المحرم أنعم السلطان الملك المنصور بإقطاعه الذي كان بيده أيام أبيه على الأمير تنم من عبد الرزاق أمير مجلس.

وأنعم بإقطاع تنم وهو أيضًا مقدمة ألف على الأمير يونس إلقبائي شاد الشراب خاناه.

وأنعم بإقطاع يونس على الأمير جانبك القرمانى الظاهري برقوق ثاني رأس نوبة وإلقطاع إمرة أربعين طبلخاناه.

وأنعم بإقطاع جانبك القرمانى على الأمير يشبك الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وهو أيضًا إمرة أربعين.

وأنعم بإقطاع يشبك الناصري وهو إمرة عشرة على الأمير كزل السودوني المعلم وكان بطالاً.

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشرينه حضر الملك المنصور خدمة القصر على العادة قديمًا لأن والده الملك الظاهر كان أبطل خدمتي السبت والثلاثاء من القصر.

وخلع على الأمير لاجين الظاهري الزردكاش وإلإة الملك المنصور باستقراره شاد الشراب خاناه عوضًا عن يونس المقدم ذكره.

وخلع على جانبك قرا الظاهري جقمق أحد أمراء العشرات ورأس نوبة باستقراره زردكاشًا عوضًا عن لاجين المذكور.

ثم توجه الملك المنصور من القصر إلى البحرة بالحوش السلطاني وطلب به مباشري الدولة وحضر الأمير قاني باي الجاركسي الأمير آخور الكبير والطواشي فيروز الرومي النوروزي الزمام والخازندار وكلمهم في أمر المماليك السلطانية ومن أين تكون النفقة عليهم لأن الملك الظاهر لم يدع في الخزائن شيئاً وطال جلوسهم عنده إلى قريب الظهر وانفض المجلس بعد كلام طويل.

واختلفت الأقوال فيما وقع فيه من الكلام ومحصول ذلك كله أن السلطان شكا للجماعة قلة وجود المال بالخزانة السلطانية وسألهم في المساعدة في أمر النفقة فدار الكلام بينهم في ذلك إلى أن التزم كل منهم بحمل شيء مساعدة له في نفقة المماليك وانفض المجلس بعد أمور حكيناها في الحوادث.

ثم في يوم الخميس ثامن عشرين المحرم خلع السلطان على الأمير جانبك الظاهري بالتكلم على بندر جدة على عادته في كل سنة وخلع على عدة من الخاصكية بالتوجه إلى البلاد الشامية بالبشارة بسلطنة الملك المنصور عثمان وهم: جشم الأشرفي الساقى البهلوان توجه إلى نائب الشام الأمير جليان.

وطوخ النوروزي رأس نوبة الجمدارية إلى نائب حلب الأمير قاني باي الحمزاوي.

وبرسباي الأشرفي الأمير آخور إلى نائب طرابلس الأمير يشبك النوروزي.

وقايتباي الأشرفي الأمير آخور إلى نائب حماة الأمير حاج إينال اليشبكي.

ودولات باي إلى نائب صفد الأمير بيغوت الأعرج المؤيدي.

وتمر الأشرفي الخاصكي إلى نائب قلعة دمشق وقضاتها وغيرهم.

وسودون يكرك إلى نائب غزة جانبك التاجي.

وخشقدم مملوك قراجا الأشرفي إلى نائب الكرك والقدس.

وإينال الظاهري جقمق إلى نائب الإسكندرية برسباي البجاسي.

ثم في يوم السبت سلخ المحرم أعاد السلطان الجمع بقاعة البحرة من قلعة الجبل بسبب نفقة المماليك السلطانية وأعاد على مباشري الدولة الكلام في أمر النفقة فكثرت الكلام بسبب ذلك.

وكان زين الدين يحيى الأستادار قد تقرب إلى الملك المنصور أيام والده وصار أستاذاره.

واختص به ومهد أموره معه فلما تسلطن ظن أنه سيكون من أمره في دولته أضعاف ما كان له في دولة والده الملك الظاهر جقمق وأخذ في هذا الجمع يمتنع من حمل ما قرر عليه من الذهب برسم نفقة المماليك وأنه في حمله بوظيفة الأستادارية وأوسع وصمم على مقالته.

وكان في المجلس الأمير جانبك الظاهري نائب جدة والناصري محمد بن أبي الفرج نقيب الجيش وهو أعدى عدو لزين الدين الأستادار مع من حواه المجلس من الأمراء وأعيان المملكة.

وكثر الكلام بسبب امتناع زين الدين من حمل المال وتغيير السلطان عليه بسبب ذلك فأمر بمسكه وعزله وتولية الأمير جانبك الظاهري نائب جدة للأستادارية وأحضر في الحال خلعة الأستادارية وألبسها للأمير جانبك المذكور ونزل إلى داره وبين يديه وجوه الدولة.

وسر الناس قاطبة بعزل زين الدين المذكور عن الأستادارية فإنه كان طال واستطال وظلم وعسف وأخذ عدة إقطاعات من أخباز المماليك السلطانية والأمراء استولى عليها بالشوكة وأضافها إلى الديوان المفرد وحجر على غالب الأشياء واستولى عليها من معاش الفقراء وأرباب التكسب وصار هو يأخذها ثم يبيعها بأضعاف ما أخذها حتى جمع من هذا المال الخبيث أموالاً كثيرة وعمر منها الجوامع والمساجد والسبل فكان حاله في ذلك كقول القائل: الطويل بنى جامعاً لله من غيرماله فكان بحمد الله غير موفق كمنطعمة إيتام من كد فرجها لك الويل لاتزني ولا تصدقي وقد حررنا أحواله من ابتداء أمره إلى يوم عزله في غير هذا المحل والمقصود هنا الآن أخبار الملك المنصور ثم رسم الملك المنصور بحبس زين الدين وإلزامه بخمسمائة ألف دينار والحوطة على جميع موجوده وحواشيه.

ثم أنعم الملك المنصور على الأمير بردبك الظاهري جقمق البجمقدار أحد أمراء الخمسات بإمرة عشرة من الديوان السلطاني وأنعم بإقطاع بردبك على سودون من سلطان الظاهري البجمقدار حساباً عن إمرة عشرة ضعيفة وأنعم على جانبك القجمادي الأشرفي المعروف بدوادر سيدي بإمرة عشرة أيضاً من الذخيرة من المتوفر.

وفي عصر هذا النهار سلم السلطان زين الدين يحيى الأستادار المنفصل إلى الأمير جانبك الظاهري الأستادار المستقر في الأستادارية وأمره بمعاقبته فنزل به من القلعة على أقيح وجه فنعوذ بالله من زوال النعم " [وما ربك بظلام للعبيد](#) ".

وازرحم الناس تحت القلعة لرؤيته فما منهم إلا شامت أو متهمك فتفضل عليه الأمير جانبك وتنزه عن عقوبته رحمة عليه لا خوفاً من عاقبته وأعادته إلى القلعة في يوم الأربعاء وقد حررنا ذلك كله في الحوادث.

ثم في يوم الاثنين ثاني صفر خلع السلطان على الأمير فيروز النوروزي الزمام الخازندار بإعادة الذخيرة إليه.

وخلع علي الأمير قشتم الناصري باستقراره في نيابة البحيرة على عادته أولاً على كره منه وهو أيضاً أحد أعداء زين الدين الأستادار.

وكان قشتم من محاسن الدهر.

وفيه أنعم الملك المنصور على السيفي قانصوه المحمدي الساقى الأشرفي بإمرة عشرة من الذخيرة أيضاً وقانصوه أيضاً من نوادر الدهر ومحاسنه.

ومات السلطان الملك الظاهر جقمق في تلك الليلة حسبما ذكرناه في خمسة مواطن من مصنفاتنا لا حاجة في ذكره هنا ثانياً.

ثم في يوم الأربعاء ثاني يوم دفن الملك الظاهر جقمق نودي بالقاهرة بالأمان والنفقة في المماليك السلطانية في آخر صفر.

وفيه نقل زين الدين الأستادار من بيت الأمير جانبك إلى طبقة الخازندار فيروز بالقلعة على أن يحمل ما قرر عليه.

وفيه خلع السلطان على جانبك الأشرفي اليشبيكي والي القاهرة وعلى يرعلي محتسب القاهرة وعلى الناصري محمد بن أبي الفرج نقيب الجيوش المنصورة باستمرارهم على وظائفهم.

وخلع على الأمير قراجا العمري الناصري باستقراره كاشف الشرقية بالوجه البحري بعد عزل عبد الله عنها فتزايد سرور الناس بعزل هذا الظالم أيضًا.

ثم في هذا اليوم عوقب زين الدين الأستادار بالعصي والمعاصير وضرب على سائر أعضائه وحضر الناصري محمد بن أبي الفرج عقوبته وكان السلطان ألزمه باستخراج الخمسمائة ألف دينار منه.

ثم في يوم الثلاثاء عاشر صفر استقر الزيني فرج بن النحال كاتب الممالك في نظر الدولة وخلع السلطان على تتم الخاصكي الظاهري المعروف برصاص باستقراره في التكلم على بندر جدة عوضًا عن الأمير جانبك الظاهري الأستادار بسفارة جانبك.

ثم في يوم الخميس ثاني عشر صفر أمسك السلطان الملك المنصور برأي ممالك أبيه جماعة من الأمراء المؤيدية وهم: الأمير دولات باي المحمودي المؤيدي الدوادار الكبير والأمير يرشباي الإينالي المؤيدي أحد أمراء الطبلخانات وأمير آخور ثان والأمير يلباي الإينالي أحد أمراء الطبلخانات ورأس نوبة وكان القبض على دولات باي بقاعة الدهيشة وعلى يرشباي بالإسطبل السلطاني وعلى يلباي من سوق الخيل وقيدوا الجميع إلى بعد أذان الظهر فانزلوا بالقيود على البغال إلى النيل وحملوا إلى الإسكندرية فسجنوا بها.

وكان مسفر دولات باي الأمير جانبك قرا الذي استقر زردكاشًا وقد تولى نيابة الإسكندرية في الباطن عوضًا عن برسباي الجاسي وحمل إليه التقليد بعد يومين فاتضع بمسك هؤلاء قدر المؤيدية وارتفع أمر الأشرفية.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر صفر أنعم السلطان على الأمير قرقماس الأشرفي الجلب أحد أمراء الطبلخانات وقريب الأشرف برسباي بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية عوضًا عن دولات باي المحمودي بحكم حبسه وأنعم بإمرة قرقماس المذكور على الأمير جانبك النوروزي المعروف بنائب بعلبك والقادم من مكة قبل تاريخه.

وفيه استقر الأمير تمرغا الظاهري الدوادار الثاني وأحد أمراء العشرات دوادارًا كبيرًا عوضًا عن دولات باي وأنعم عليه بإمرة أربعين وهو إقطاع يرشباي الإينالي وأنعم بإقطاعه على يشبك الظاهري بعد أيام.

وفيه أيضًا استقر الأمير أسنباي الجمالي الظاهري أحد أمراء العشرات دوادارًا ثانيًا عوضًا عن تمرغا على إقطاعه إمرة عشرة من غير زيادة.

واستقر الأمير سنقر العايق الأمير آخور الثالث أمير آخور ثانيًا عوضًا عن يرشباي.

واستقر الأمير بردك الجمقدار أمير آخور ثالثًا عوضًا عن سنقر المذكور.

واستقر الأمير جانبك اليشبيكي والي القاهرة زردكاشًا عوضًا عن جانبك قرا المتوجه إلى نيابة الإسكندرية مضافًا إلى ما بيده من الولاية والحجوية وشد الدواوين.

فعظم ما وقع في هذا اليوم من الولاية والتغاير على أعيان الأمراء ونفرت القلوب من الظاهرية في الباطن بسبب تولية تمرىغا الدوادارية الكبرى وكان الأمير أسنبغا الطياري رأس نوبة النوب رشح لولايتها وأن يكون الأمير جرباش المحمدي كرد رأس نوبة النوب عوضه.

وبات الناس على ذلك فأصبح وقع ما حكيناه ومن يومئذ وقع الكلام في الدولة ووجد من له غرض في إثارة الفتنة مدخلا يدخل منه وترقب الناس وقوع الفتنة غير أن الناس في سكون والبواطن مشغولة إلى ما سيأتي ذكره.

ثم في يوم الثلاثاء سابع عشره أنعم السلطان على الأمير سونجبا اليونسي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بإقطاع الأمير يلباي الإينالي بحكم حبسه بالإسكندرية وأنعم بإقطاع سونجبا المذكورة وإقطاع جانبك النوروزي نائب بعليك على قاني بك السيفي يشيك بن أزدمر أحد الدوادارية وعلى قوزي الظاهري الساقى واستقر سنطباي الظاهري ساقياً عوضاً عن قوزي وخير بك الأشرفي صاحب تمراز المصارع دواداراً عوضاً عن قاني بك.

وفيه أيضاً عوقب زين الدين أشد عقوبة بحضرة الأمير جانبك الظاهري الأستاذار وغيره وهو لا يظهر ماله من الذخائر غير ما أخذ له وهو دون المائة ألف دينار ذكرنا تفصيلها في غير هذا المحل.

وفي هذه الأيام أشيع بوقوع فتنة ووثوب المماليك السلطانية بسبب النفقة عليهم.

وفيه استعفى الأمير الوزير تغري بردي القلاوي الظاهري من الوزر فأعفي على أنه يقوم بالكلف السلطانية في يومه ومن الغد.

ثم في يوم الأربعاء ثامن عشر صفر عقد مجلس بين يدي السلطان بالقضاة الأربعة بسبب أملاك زين الدين الأستاذار الموقوفة عليه وعلى جوامعه ومساجده وقع بسبب ذلك أمور آل الأمر إلى بيعها.

ثم في يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على الصاحب أمين الدين بن الهيصم باستقراره وزيراً على عادته.

قلت: إذا أعطي القوس لراميه.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه عمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني بسبب قصاد ملك الحبشة.

وكان أشاع أهل الفتن في أمسه أن السلطان يريد يعمل الخدمة بالحوش ليقبض على جماعة كبيرة من الأعيان فانفض الموكب ولم يقع شيء من ذلك.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرين صفر المذكور رسم السلطان للأمير جرباش الكريمي الظاهري برقوق أمير سلاح بلزوم بيته بحكم كبر سنه وعجزه عن الحركة.

وكان جرباش من القبائح.

وأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير قراجا الظاهري جقمق الخازندار وصار من جملة أمراء الألوفا وقراجا المذكور من خيار أبناء جنسه ديناً وعفةً وكرماً.

وأنعم بإقطاع قراجا ووظيفته على الأمير أزيك من ططخ الظاهري جقمق الساقى أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وأنعم بإقطاع أزيك على الأمير بتخاص العثماني الظاهري برقوق وكان بطالا.

وفيه أيضًا استقر الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي أمير مجلس أمير سلاح عوضًا عن جرباش الكريمي قاشق بحكم لزومه داره.

وفيه خلع السلطان على الأمير تمرغا الظاهري الداوادر الكبير خلة الأنظار المتعلقة بالداوادية ونزل بخلعته في موكب جليل ولسان حاله ينشد: البسيط من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور ثم في يوم الثلاثاء رابع عشرينه خلع السلطان على الأمير تنبك البرديكي الظاهري المعزول عن حجوبة الحجاب قبل تاريخه باستقراره أمير مجلس عوضًا عن تنم المنتقل إلى إمرة سلاح.

ومن الغريب أنه لما ولي إمرة مجلس وطلع إلى القلعة بعد ذلك وجلس في الموكب قعد قاني باي الجاركسي الأمير أخور الكبير فوقه وهذا شيء لم يعهد من أن أمير أخور يجلس فوق أمير مجلس فعذ ذلك من جنون قاني باي وقلة أدبه إذ إن تنبك المذكور في مقام أستاذه لأنه خجداش جاركس وأيضًا أنه كان في الدولة الأشرفية أمير مائة ومقدم ألف وقاني باي جندي بحياسة فما ثم وجه من الوجوه لجلوسه فوقه.

وفيه أيضًا عزل السلطان جماعة كبيرة من الخاصكية البوابين من المؤيدية وولى عوضهم جماعة من حواشيه فزاد ما بالمؤيدية وأخذوا في عمل الركوب فلم يكن لهم طاقة لذلك لقلتهم فلم يجدوا بدًا من مصالحة الأشرفية ليكونوا معًا فسعوا في ذلك في الباطن إلى ما يأتي ذكره.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشرينه وصل إلى القاهرة مملوك الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حلب ومملوك نائب قلعتها وحاجبها وقبلوا الأرض وأخبر مملوك نائب حلب عن مخدومه أنه قبل الأرض وسر بسلطنة الملك المنصور إلى الغاية فرحب السلطان بهم وخلع عليهم.

ثم في يوم الخميس سادس عشرين صفر قرىء تقليد السلطان الملك المنصور بالسلطنة بالقصر الكبير السلطاني من قلعة الجبل فجلس السلطان على كرسي الملك وجلس الخليفة القائم بأمر الله حمزة على الأرض على يمينه فعظم ذلك على الخليفة ولم يده إلا بعد ركوب الأتابك إينال.

وحضر القضاة الأربعة وتولى قراءة التقليد القاضي محب الدين بن الأشقر كاتب السر.

وبعد فراغ القراءة خلع السلطان الملك المنصور على الخليفة وعلى كاتب السر وخلع على القضاة الأربعة.

ثم في يوم السبت ثامن عشرين صفر خلع السلطان على قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني الشافعي بإعادته إلى قضاء القضاة بعد عزل شرف الدين يحيى المناوي.

وفيه استقر السيفي يشبك القرمي الظاهري والي القاهرة بحكم عزل جانبك الإشبكي بحكم انتقاله إلى الزردكاشية حسبما تقدم ذكره.

هذا وقد أخذت المؤيدية في استمالة الأشرفية من يوم قبض الملك المنصور على خداسيتهم دولات باي ورفقته ولا زالوا بهم حتى وافقوهم لحزارة كانت في نفوس الأشرفية أيضًا من الملك الظاهر جقمق قديمًا.

وقد تجمد مع ذلك أيضًا قول بعض أمراء الظاهرية للأشرفية في أخذ ابن أستاذهم الشهابي أحمد ابن الملك الأشرف برسباي من عند عمه زوج أمه الأمير قرقماس الأشرفي وإرساله إلى ثغر الإسكندرية ليقيم بها عند أخيه الملك العزيز يوسف فعظم ذلك على أم الشهابي أحمد وعلى زوجها الأمير قرقماس فكان ذلك من أكبر الأسباب لموافقة الأشرفية للمؤيدية.

ثم ساعدهم أيضًا من له غرض في تغيير الدول لا رغبةً في أحد بعينه بل حتى يناله ما قد أمل وقد صار ذلك عادة عند موت كل سلطان من عهد الملك المؤيد شيخ إلى يومنا هذا بل إلى يوم القيامة لعدم أهلية الملوك ولغفلتهم عن هذا المعنى في أيام عزهم وأعجب من هذا أن أحدهم لا يزال في غفلة عن ذلك حتى يشرف على الموت فيعهد لولده بالسلطنة مع معرفته وتحققه بما يفعلونه مع ولده من بعده كما فعل بأمثاله.

وقد قيل في المثل: " إذا أردت أن تنظر الدنيا بعدك انظرها بعد غيرك " فلما انتظم الصلح بين الطائفتين سرًا تحالفوا واتفقوا على الركوب في يوم بعينه.

كل ذلك والمنصور وممالك أبيه وجواشيه في غفلة عن ذلك وأكبر همهم في تفرقة الإقطاعات والوظائف وفي ظنهم أن دولتهم تدوم وأن الملك قد صار بيدهم.

هذا مع عدم التفاتهم لتقريب العقلاء ومشاورة ذوي التدبير وأرباب التجارب ممن مارس تغيير الدول والحروب والوقائع وصار أحدهم إذا لوح له بعض أصحابه بشيء مما يدل على ذلك يستخف عقله ويهزأ به حتى لقد بلغني من بعض أصحابنا الثقات أنه قال للأمير تمرغيا مشافهة.

" بلغني أن الأشرفية في عزم الركوب على السلطان " فضحك تمرغيا وقال: " هم نقطوا بعقلهم " ازدرأ بأمرهم واستخفًا بشأنهم وليس هذا من شأن من قد صار أمور المملكة بيده في سائر أحوالها وإنما شأن الذي يكون في هذه الرتبة أن يفحص دائمًا عن أخبار أصدقائه وأعدائه ولا يكذب مخبرًا ولا ينهر منذرًا بل يسمع كلام كل ناصح نصحه فيأخذ ما صلح بباله ويترك ما لم يعجبه من غير أن يفهم عنه لأحد من نصحاءه عدم قبول كلامه بل يشكره على ذلك ويثني عليه ويحرضه على ما هو فيه وبصغي لكلام كل قائل حتى يفهمه ثم يفعل ما بدا له هذا مع إلاحتراز والتحري في أموره واستجلاب الخواطر وتأليف القلوب له ولسلطانه ما دامت الدولة مضطربة كما هي عادة أوائل الدول فيصير بذلك في غالب أموره على يقظة فإن كان خيرًا فيحمد الله على التوفيق وإن كان شرًا فيتأهب لذلك قبل وقوعه ثم يلقاه بعد استحكام واستعداد بقوة جنان وبذل النفوس وإلاموال وهيئات بعد ذلك إن تم الأمر أو لم يتم فإن كان النصر فهو من عند الله وإن كانت الآخرة فيكون لما سبق في إازل فيزول ملكه وهو معذور مشكور لا ندمان مقهور فأين هذا مما كان فيه هؤلاء القوم وقد صار الناس عند الأمير الكبير إينال ولبسوا السلاح وأجمعوا على قتالهم وهم إلى الآن في تكذيب الأخبار واستبعاد ما سيكون فمن أساء لا يستوحش والمفرط أولى بالخسارة وعدم التدبير هو أصل التدمير وهو كما قيل: السريع ما يفعل الإعداء في جاهل ما يفعل الجاهل في نفسه وبات الملك المنصور وأمراؤه في ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الأول على تفرقة النفقة على الممالك السلطانية في غده وقد انبرم أمر القوم وتجهزوا لما عساه يكون.

وأهل شهر ربيع الأول يوم الاثنين وفيه كان ابتداء الواقعة بين السلطان الملك المنصور عثمان وبين الأتابك إينال العلاني حسبما نذكره هنا على سبيل إختصار وقد حررنا ذلك في تاريخنا " حوادث الدهور " باستيعاب.

فلما كان وقت السحر من يوم الاثنين مستهل شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين وثمانمائة ركب جماعة كبيرة من أعيان المماليك الأشرفية ورافقهم جمع كبير من المؤيدية والسيفية وغيرهم من غير لبس سلاح ووقفوا بالرميلة من تحت القلعة لمنع الأمراء من طلوع الخدمة.

وكان بالصدف بات تلك الليلة جميع الأمراء في بيوتهم لكون السلطان كان في أمسه لم يتوجه إلى القصر وأمر بعمل الخدمة من الغد بالحوش السلطاني ليبدأ بنفقة المماليك في اليوم المذكور.

فلم يكن إلا ساعة يسيرة من وقوفهم وقدم الأمراء جميعًا إلى الرميلة يريدون طلوع القلعة فتكاثرت المماليك عليهم واحتاطوا بهم وأخذوهم غصبًا بأجمعهم وعادوا بهم إلى بيت الأمير الكبير إينال العلاني وهو من جملتهم وكان سكنه بالدار التي على بركة النيل الملاصقة لقصر بكتمر الساقى تجاه الكبش.

وأخذوا من جملة الأمراء الأمير قراجا الخازندار الظاهري وقد صار من جملة أمراء مقدمي الألوف وهو أحد أركان مملكة الملك المنصور عثمان وأخذوا معه أيضًا من الظاهرية الوزير تغري بردي القلاوي الظاهري وبرد بك الجمقدار الأمير آخور الثالث.

وفات المماليك من أعيان الأمراء الأمير تتم من عبد الرزاق أمير سلاح فإنه قد أحس بالأمر في أمسه فلم يحسن بباله إلا موافقة السلطان لأمر يريده الله عز وجل فركب سحرًا وقصد القلعة ووافاه إلامى تمرىغا الظاهري الدوادر الكبير في طريقه فطلعا معًا إلى الملك المنصور.

واجتمع المماليك ومعهم الأمراء في بيت الأمير الكبير وقد كثر جمعهم وتزايد عددهم وهم بغير سلاح وصار جميع الأمراء معهم في صفة الترسيم ولم يبق عند الملك المنصور من أعيان الأمراء غير الأمير تتم أمير سلاح والأمير قاني باي الجاركسي الأمير آخور الكبير والأمير تمرىغا الدوادر الكبير الظاهري والأمير جانبك الأستاذار وكان أيضًا من أمراء الظاهرية بالقلعة برد بك الجمقدار فهؤلاء مقدمو الألوف وإن كان تمرىغا إقطاعه طبلخاناه فمزلته وكذلك جانبك الظاهري.

وكان عند الملك المنصور من الأمراء غير ممالك أبيه جماعة منهم يونس العلاني الناصري نائب قلعة الجبل وكزل السودوني المعلم ومغلباي الشهابي أحد أمراء العشرات وقطي الدوكاري نائب البحيرة وعبد الله كاشف الشرقية ومن ممالك أبيه الأمير لاجين شاد الشراب خاناه وأسنباي الجمالي الدوادر الثاني وأزبك من ططخ الخازندار الكبير وهو صهر الملك المنصور وزوج أخته و سنقر العايق الأمير آخور الثاني وسنقر أستاذار الصلبة وجماعة أخر تأمروا في الدولة المنصورية لا يعتد بهم كونهم إلى الآن صفة الخاصكية فهؤلاء هم الأمراء.

وأما من كان عنده من ممالك أبيه الخاصكية والجمدارية وغيرهم فكثير جدًا.

على أنه كان بالقلعة جماعة كثيرة غير الظاهرية الجقمقية من الظاهرية البرقوقية والناصرية والمؤيدية والأشرفية والسيفية.

وأما من كان مع المماليك من أعيان الأمراء بيت الأمير الكبير من المقدمين الأمير الكبير إينال وتنبك أمير مجلس وأسنبغا الطياري رأس نوبة النوب وخشقدم المؤيدي حاجب الحجاب وطوخ من تمراز الناصري وجرباش المحمدي الناصري كرد ويونس إلقبائي وقرقماس الأشرفي الجلب.

وأما من أمراء الطبلخانات والعشرات فكثير ذكرناهم في غير هذا المحل يطول الشرح في ذكرهم.

ولما اجتمع القوم في بيت الأمير الكبير وعظم جمعهم أتاهم الأمراء والخاصكية والأعيان من كل فج حتى بقوا في جمع موفور فأعلنوا عند ذلك بالخروج عن طاعة الملك المنصور والدخول في طاعة الأمير الكبير إينال والأمير الكبير يمتنع من ذلك بلسانه فلم يلتفتوا لتمنعه.

وأخفوا في لبس السلاح فلبسوا في الحال عن آخرهم.

وطلبوا الخليفة القائم بأمر الله حمزة فحضر قبل تمام لبسهم السلاح واحتفظوا بالأمير قراجا الظاهري وتغري بردي القلاوي وبردبك البجمقدار كونهم ظاهرة جقمقية.

ولما حضر الخليفة أظهر الميل الكلي للأتابك إينال وأظهر كوامن كانت عنده من الملك المنصور وحواشيه منها: أن المنصور جلس يوم قرىء تقليده على الكرسي وجلس الخليفة مع القضاة أسفل وأشياء من هذا وقام مع الأمراء في خلع المنصور أتم قيام.

كل ذلك والمماليك في احتراز عظيم على جماعة من الأمراء خوفًا من فرارهم إلى الملك المنصور حتى على الأمير الكبير.

ولما تكامل لبس المماليك والأمراء السلاح طلبوا من الأمير الكبير الركوب معهم والتوجه إلى بيت قوصون تجاه باب السلسلة فامتنع تمنعًا ليس بذاك ثم أجابهم في الحال وركب هو والأمراء وحولهم العساكر محدقة بهم إلى أن أوصلوهم إلى بيت قوصون المذكور ودخلوه من باب سره الذي بالشارع الأعظم ونزل الأمير الكبير بمن معه من الأمراء بالمقعد من الحوش وجلس الخليفة بالقصر الفوقاني بالبيت المذكور ورسم على قراجا وتغري بردي القلاوي وبردبك بالقصر أيضًا كل ذلك والقوم في غير ثقة من الأمير الكبير وغيره من الأمراء حتى كلم الأمير الكبير بعض أصحابه العقلاء بكلام معناه قول القائل: البسيط إذا وتيرت إمرا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبًا إن العدو وإن أبدى فسالمه إذا رأى منك يومًا فرصة وثيا وأظن القائل له الأمير أرنبغا الناصري أحد أمراء الطبلخانات فإنه كان أمثل القوم وأقواهم بأسًا وأفرطهم شجاعة.

وأما الملك المنصور لما بلغه ما وقع من القوم في بيت الأمير الكبير تحقق من عنده من الأمراء والأعيان ركوب الأمير الكبير وخروجه عن الطاعة فأمروا في الحال يشبك القرمي والي القاهرة أن ينادي بطلوع المماليك السلطانية لأخذ النفقة وأن النفقة لكل واحد مائة دينار فنزل يشبك من القلعة والمنادي بين يديه ينادي بذلك إلى أن وصل إلى الرميلة تجاه باب السلسلة فأخذته الدبابيس من المماليك فتمزقوا وذهب القرمي إلى حال سبيله.

ثم أمر الملك المنصور لأمرائه وحواشيه بلبس السلاح فلبسوا بأجمعهم ولبس هو أيضًا كل ذلك وأراؤهم مفلوكة وكلمتهم غير منصبطة.

وصرت أنا أنظر إليهم من أسفل القلعة فلم أجد عندهم انزعاجًا ولا هرجًا مع جمودة حركاتهم ولم ينزل من القلعة أحد لحفظ المدرسة الحسنية مع معرفتهم أنها مسلطة على القلعة غاية التسليط هذا مع كثرتهم وقوة بأسهم بالقلعة والسلاح وأما الأمير الكبير فإنه حال ما استقر به الجلوس ندب دواداره وصهره بردبك ومعه الأمير سونجبغا اليونسي رأس نوبة ونوكار الناصري أحد أمراء العشرات وثاني حاجب إلى القلعة رسالة إلى الملك المنصور يطلب منه إخماد الفتنة بإرسال جماعة من أمرائه وهم: تمرغا الدوادار الكبير ولاجين شاد الشراب خاناه وأسنباي الدوادار الثاني فطلعوا إلى الملك المنصور وكلموه في ذلك وعادوا إلى الأمير الكبير بأجوبة طويلة مضمونها أنه امتنع من تسليمهم فأرسلهم الأمير الكبير ثانيًا وصحبهم بردبك دواداره وصهره فتوجهوا إلى القلعة وطلعوا إلى المنصور ثاني مرة وطلبوا منه ما ذكرناه فامتنع وعوق عنده سونجبغا ونوكار وأرسل بردبك بالجواب.

وابتدا القوم في القتال من يوم الاثنين المذكور واشتد الحرب وجرح من الطائفتين جماعة.

ثم خرج جماعة من أصحاب الأمير الكبير لأخذ مدرسة السلطان حسن فامتنع من بها من فتح أبوابها فنقبوا حائطًا من جوارها مما يلي حدرة البقر ودخلوا منه إلى المدرسة المذكورة وعمروا سلالم سطحها وطلعوا منه إلى مآذنها ورموا منها بالمدافع على قلعة الجبل.

وقوي أمر أصحاب الأمير الكبير بأخذ المدرسة المذكورة إلى الغاية غير أن الأمير الكبير إلى الآن يقدم رجلًا ويؤخر أخرى في الخلاف على المنصور وبحسب العواقب وصار يظهر أنه مكره على ذلك فلم يقبل المنصور منه ما أظهره وتحقق كل أحد ما القصد بالركوب.

ثم نزل الملك المنصور من القصر السلطاني بأمرائه وعسكره إلى الإسطبل السلطاني وجلس بالمقعد المطل على الرميطة ونزل من عساكره جماعة مشاة من باب السلسلة إلى الرميطة لقلعة وجود الخيل بالقلعة فإنه كان أيام الربيع والخيول غالبها مربوطة على القرط بالبر الغربي من الجيزة حتى إنه كان جميع ما بالقلعة من الخيول أقل من مائة فرس ومنعوا من إحضار خيولهم التي بالربيع و عز توصلهم إليها وقتلوا القوم وهم مشاة غير مرة.

وصار أمر الأمير الكبير في نمو بمن يأتيه من المماليك السلطانية وجميعهم فرسان غير مشاة فإنه صار كل واحد منهم يرسل غلامه فيأتيه بفرسه من مربطه بالربيع بخلاف القلعين فإنهم ممنودون من ذلك من حجر أصحاب الأمير الكبير عليهم لهذا السبب وغيره.

ولما رأى الملك المنصور أمر الأمير الكبير في زيادة أراد النزول إليه بعساكره في الحال من أول وهلة فمنعه قاني باي الجاركسي من ذلك بسوء تدبيره لأمر سبق وكان في نزوله غاية المصلحة من وجوه عديدة.

ومضى نهار الاثنين بعد قتال كبير وقع فيه وبات الفريقان في ليلة الثلاثاء على أهبة القتال وأصبحا يوم الثلاثاء على ما هم عليه من القتال والرمي بالمدافع والنفوط والسهام من الجهتين والجراحات فاشية في الفريقين إلا أن فيمن هو أسفل أكثر غير أنه لا يؤثر فيهم لكثرتهم.

ولم يكن وقت الزوال حتى كثر عسكر الأمير الكبير إينال بمن يأتيه إرسالًا من المماليك السلطانية واستفحل أمره لا سيما لما نزل الأمير جانبك الظاهري أستاذار العالية إليه

داخلاً في طاعته ومعه خدائشه الأمير بردك البجمقدار أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وسر الأمير الكبير بنزوله إلى الغاية.

وكان لنزول جانبك المذكور من القلعة أسباب خفية.

ثم في هذا اليوم لهج الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر الله حمزة بخلع الملك المنصور عثمان من الملك غير مرة في الملاً فقوي بذلك قلب أصحاب الأمير الكبير وجدوا في القتال وتفرقوا على جهات القلعة وجدوا في حصارها و منعوا من يطلع إليها بالميرة وغيرها.

وخف الترسيم عن جماعة من الأمراء من أصحاب الأمير الكبير ممن كانت المماليك تخاف من ذهابهم إلى الملك المنصور وكانوا قبل ذلك يحتفظون بهم بطريق التحشم: وهو أن الأمير منهم كان إذا ركب للقتال أو غيره دار حوله جماعة من المماليك الأشرفية وغيرهم وساروا معه حيث سار كأنهم في خدمته حتى يعود إلى مكانه فمن آخر يوم الثلاثاء هذا ومن صبيحة يوم الأربعاء تركوا ذلك لعلمهم أن جميع الأمراء والعساكر صاروا في طاعة الأمير الكبير.

وشرع الجميع في القتال بمماليكهم وحواشيهم وفي عمل التدبير في أخذ الملك المنصور وخلعه من السلطنة وباتوا تلك الليلة على ما هم عليه.

وأصبحوا يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الأول والقتال عمال وأصحاب الملك المنصور تنسل منه إلى الأمير الكبير واحداً بعد واحد ومن بقي منهم عند الملك المنصور لا يلتفت إلى من ذهب بل هو على ما هو عليه من القتال لكثرة عددهم وللقيام بنصرة ابن أستاذهم فكان في يوم الأربعاء هذا وقعات بين الطائفتين بالمناوشات لا بالمقابلة وباتوا على ذلك.

فلما كان يوم الخميس رابع شهر ربيع الأول أرسل الملك المنصور إلى الأمير الكبير بالأمير سونجبغا والأمير نوكار والزيني عبد الرحمن بن الكوبز وشهاب الدين الإمام لإخميمي ومعهم منديل الأمان للأمير الكبير ومن معه من الأمراء ليطلعوا إلى طاعة السلطان.

وترددوا بين الملك المنصور والأتابك إينال غير مرة في عمل الصلح وكثر الكلام بينهم إلى أن انفض المجلس على غير طائل ولم ينبرم صلح ومنع الأمير الكبير سونجبغا ونوكار من الطلوع إلى القلعة وعاد لإخميمي بالجواب إلى السلطان.

وفي الحال عاد القتال على ما كان عليه فإنه كان بطل الرمي من القلعة ومن المدرسة لعمل الصلح فلما انفض الأمر على غير صلح عاد كل أحد من الطائفتين إلى ما كان بصدده.

وأعلن الخليفة في هذا اليوم أيضاً بين الملاً بخلع الملك المنصور من السلطنة وسلطنة الأتابك إينال والأتابك إينال يمتنع من ذلك في ذلك الوقت حتى ينظر ما يكون من أمر الملك المنصور ومحاصرته.

ثم تكلم الخليفة في ذات اليوم أيضاً بين الناس بأعلى كلامه: " قد خلعت الملك المنصور من الملك " .

هذا وقد ضعف أمر الملك المنصور واستفحل أمر الأتابك إينال غير أن الرمي من القلعة بالمدافع وغيرها مستمر وهلك من ذلك جماعة كبيرة من عساكر الأمير الكبير ومن الأجناد والعامّة والمتفرجين.

وأصبح يوم الجمعة خامسه حضر المقر الجمالي ناظر الجيش والخاص وعظيم الدولة عند الأمير الكبير فقام له الأمير الكبير واعتنقه وأجلسه بإزائه فوق الأمير خشقدم حاجب الحجاب.

فعند قدومه تحقق كل أحد بزوال دولة المنصور و إقبال دولة الأتابك إينال.

وتكلم المقر الصحابي مع الأتابك كلامًا كثيرًا لا يشاركهما في ذلك أحد إلا في النادر ثم رسم الأمير الكبير بطلب القاضي محب الدين بن الأشقر كاتب السر والقضاة الأربعة فحضروا في الحال وقد نزل الخليفة من القصر أيضًا وجلس عند الأمير الكبير هو والقضاة وشاهدوا المدافع التي ترمي عليهم من القلعة وكان أهل القلعة في يومي الأربعاء والخميس قد أمعنوا في الرمي من القلعة على الأمير الكبير وأصحابه حتى كان المدفع يصل إلى باب سر بيت قوصون الذي فيه الأمير الكبير وربما عدى الباب ووقع بالشارع على المار إلى صليبة ابن طولون.

ولما حضرت القضاة عند الأمير الكبير تكلموا مع الخليفة في خلع الملك المنصور عثمان بكلام طويل ثم طلبوا بدر الدين ابن المصري الموقع فأملاه قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني الشافعي المأظا كتبها تتضمن القدح في الملك المنصور وخلعه من السلطنة وكان ذلك في أوائل الساعة الثالثة من نهار الجمعة.

وخلع الملك المنصور في اليوم المذكور من الملك وحكم القضاة بذلك.

وكانت

▲ مدة سلطنة الملك المنصور

من يوم تسلطن بعد خلع أبيه الملك الظاهر جقمق في يوم الخميس حادي عشرين المحرم من سنة سبع وخمسين هذه إلى يوم الجمعة هذا شهرًا واحدًا وثلاثة عشر يومًا ولا نعرف أن سلطانيًا أقام هذه المدة اليسيرة في ملك مصر في الدولة التركية غيره.

هذا مع كثرة عساكره ومماليك أبيه وحاشيته وما أرى هذا إلا نوعًا من المجازاة انتهى.

ولما فرغ بدر الدين المصري من كتابة الورقة أمره قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني أن يقرأ ما في الورقة على من حضر المجلس من الأمراء وغيرهم وقرئت عليهم إلى آخرها.

ثم سأل قاضي القضاة من حضر المجلس عن سلطنة الأمير الكبير إينال عليهم فصاحوا بأجمعهم: " نحن راضون بالأمير الكبير " وكرر القاضي عليهم القول غير مرة وهم يردون الجواب كمقاتلهم أولًا.

وفرحوا بذلك وسروا غاية السرور وانفض المجلس على خلع الملك المنصور وسلطنة الأتابك إينال غير أنه لم يلبس خلعة السلطنة ولا ركب بشعار الملك: ترك ذلك لوقته.

وصار الناس في خطابه من يومئذ على أقسام وألفاظ مختلفة فمن الناس من صار يقول له: " يا خوند " ومنهم من يقول: " أغاه " ومنهم من يقول: " الأمير الكبير " ومنهم من يقول: " السلطان " كل ذلك وهو على حالة جلوسه كأول يوم دخل إلى بيت قوصون المذكور أعني من أول يوم الوقعة ولم يتغير عليه شيء مما كان عليه ولم يركب من المقعد المذكور من يوم قدم بيت قوصون غير مرة واحدة في يوم الثلاثاء وعاد من وسط الحوش قبل أن يصل إلى باب البيت النافذ إلى الرميلة رده أصحابه إجلالاً لقدره وإنما كان يجلس هو بالمقعد والأمراء عن يمينه ويساره جلوساً ووقوفاً بين يديه والمماليك والعساكر تخرج من بين يديه للقتال طائفة بعد أخرى باجتهاد وعمل جد في مدة هذه الأيام من غير أن يستحثهم أحد لذلك وهذا شيء عظيم إلى الغاية: الخفيف وإذا سخر إله أناساً لسعيد فإنهم سعداء وكنت أنظر في تلك الأيام إلى وجه الأمير الكبير لأتحقق هل هو مسرور أم محزون فلا أعرف هذا منه لثباته في سائر أحواله وسكونه وعقله فإنه كان ينفذ الأمور على أحسن وجه من غير اضطراب ولا هرج بتأن وتؤدة وكلما وقع من أصحابه ما يخالف ذلك يأخذ في تسكينهم وثباتهم على القتال من غير عجلة ثم يقول لهم: " القلاع ما تؤخذ إلا بالصبر والثبات والثبات الثاني " .

ثم إن الأمير الكبير أمر في اليوم المذكور بعمل منبر ليخطب عليه قاضي القضاة بالبيت المذكور لصلاة الجمعة فصنع ذلك في الحال وتها القوم لصلاة الجمعة.

فلما دخل وقت الصلاة خطب قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني وصى بالأمر الكبير والخليفة وجميع العساكر بمقعد البيت المذكور ثم انصرف القضاة بعد الصلاة إلى منازلهم.

هذا والقتال مستمر أشد ما يكون بين الطائفتين وقد تداول نزول الخاصية والمماليك من عند الملك المنصور إلى الأتابك إينال وهم مع ذلك كل يوم في زيادة في القتال لا يلتفتون إلى من يذهب من عندهم ويقول بعضهم لبعض: " نحسبه أنه جرح ومات وما علينا ممن يتوجه من عندنا ونحن نقاتل إلى أن نموت " والملك المنصور جالس بالقصر السلطاني وعنده من أكابر الأمراء الأمير تتم أمير سلاح والأمير قاني باي الجاركسي.

هذا مع مبالغة أصحاب الأمير الكبير في القتال أيضاً لا سيما من يوم حضر المقر الجمالي ناظر الجيوش والخاص ثم حضر القضاة وخلع الملك المنصور في يوم الجمعة فمن يومئذ بذلوا نفوسهم لنصرة الأمير الكبير وخوفاً من أن يصير للملك المنصور عليهم دولة فسيكون فناؤهم على يديه وأيضاً إنهم تحققوا سلطنة الأتابك إينال فاشتاقت نفوسهم لما عساه ينالهم من الإقطاعات والوظائف وغير ذلك فافتحموا لإهوال لذلك من غير صبر ولا تأن: الوافر وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام هذا والجراحات فاشية في كل من الطائفتين ويقتل أيضاً منهم في اليوم الواحد وإلثنان وأكثر وأقل.

ولما كان يوم الجمعة المذكور توعك فيه الأمير أسنبغا الطياري رأس نوبة النوب ومات من ليلته شبه الفجاءة من غير سابق مرض وصلي عليه من الغد بالمقعد من بيت قوصون وحمل ودفن بالصحراء وكان من محاسن الدنيا.

يأتي التعريف بحاله في الوفيات كما هي عادة هذا الكتاب.

ثم أصبح يوم السبت سادس شهر ربيع الأول حضر المقر الجمالي الصاحب ناظر الجيش والخاص عند الأمير الكبير وصحبته غالب مباشري الدولة والقضاة وكتبوا محضراً يتضمن ما وقع في أمسه من خلع الملك المنصور من السلطنة ومبايعة العساكر للأمير الكبير بالسلطنة وكتب في المحضر جماعة كبيرة من أمراء الظاهرية وغيرهم وفيه قوادح في الملك المنصور ذكرناها في غير هذا المحل.

وجد في هذا اليوم كل من العسكرين في القتال ورتب الأمير الكبير جماعة من أعيان الأمراء على المواضع التي يتوصل منها إلى القلعة وحرص الوالي وغيره على مسك من يطلع إلى القلعة من الغلمان والخدم بالمأكل وغيرها ومسك بسبب ذلك جماعة وضرب آخرون.

وفي هذا اليوم والذي قبله صارت أمراء الألوف تخاطب الأمير الكبير وهم وقوف وصار لا يقوم لأحد منهم عند ذهابه وإيابه.

وكان الأمير أسنبغا الطياري رأس نوبة النوب رحمه الله في يوم الجمعة الذي مرض فيه رمل على كتابة الأمير الكبير على المراسيم وغيرها وناهيك بأسنبغا فإنه كان يوم ذلك أمثل الأمراء وأجلهم.

رأيته أنا وهو يرمل على علامته من غير أن يحتشم معه الأمير الكبير في ذلك ولا تجمل معه بل صار كلما علم العلامة ورمى بها أخذها أسنبغا ورمل عليها كما كان يفعله مع السلطان فإن العادة لا يرمل على السلطان إلا رأس نوبة النوب.

هذا وقد تحقق أهل القلعة زوال ملك الملك المنصور وهم على ما هم عليه من الشدة في القتال والقيام بنصرة ابن أستاذهم غير أنهم كما قيل في الإمثال: " سلاح حاضر وعقل غائب " لكونهم شبابًا لم تمر بهم التجارب ولا لهم ممارسة بالحروب ولا يعرفون نوعًا من أنواع الخديعة والمكر بأخصامهم وأيضًا لم يكن عندهم من الأمراء وغيرهم ممن له خبرة بهذه الأنواع غير أمير واحد وجندي وكل منهما غير مقبول الكلمة عندهم.

فالأمير كزل المعلم والجندي السيفي كمشبغا الظاهري برقوق المعلم وأما من عداهما من الأمراء فحالهم معروف لا يحتاج إلى بيان وأعظم من كان هناك من الأمراء الأمير تتم أمير سلاح وقاني باي الجاركسي الأمير آخور فأما تتم فإنه لم يأت بشيء إما تقصيرًا منه لمعنى من المعاني أو لقله دربته بالحروب والخطوب وأما قاني باي فحاله معروف لا يحتاج للتعريف به.

وأصبح الناس في يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول والقتال مستمر بين الفريقين وكل منهم في أشد ما يكون من القيام بنصرة صاحبهم إلى قريب الظهر فنزل من القلعة جماعة كبيرة مشاة إلى عند سبيل المؤمني فخرج إليهم جماعة كبيرة من عسكر الأمير الكبير وتقاتلوا بالرماح والسيوف والإطبار وافترقوا ثم التقوا غير مرة حتى أردف عسكر الأمير الكبير طوخ من تمرار الناصري من مكانه الذي كان مقيمًا عند زاوية قاني باي الجاركسي بجماعته ثم أردفهم جماعة آخر من عند الأمير الكبير والتحم القتال بينهم وقتل جماعة من عسكر الأمير الكبير منهم: طقتمر الناصري رأس نوبة الجمدارية تهييرًا لأنه كان هرب من عند الملك المنصور ونزل إلى الأمير الكبير في يومه فلما ظفروا به قتلوه لما كان في نفوسهم منه ثم ممجق اليشبيكي الخاصكي أخذ سحبًا إلى القلعة فمات من جراحه وأيتمش المؤيدي الخاصكي وقاني باي الأشرفي الخاصكي وغيرهم.

ودام القتال بينهم حتى ملك أصحاب الأمير الكبير سبيل المؤمني بعد أمور وحروب.

ثم أطلقت أصحاب الأمير الكبير النار في البيوت التي بجوار الميدان برأي تمرار الأشرفي الزردكاش فتعلقت النار فيهم حتى وصلت إلى سقف المسجد من سبيل المؤمني وأحرقته عن آخره وكان بسطحه جماعة كبيرة من السلطانية فنزلوا عنده فحينئذ وجد أصحاب الأمير الكبير طريقًا لهدم سور الميدان فهدموا جانبًا منه ودخلوا منه إلى الميدان الذي تحت قلعة الجبل.

هذا وقد انحاز السلطانية إلى باب السلسلة فكان في هذا اليوم حرب بين الطائفتين لم يقع مثله في الستة أيام الماضية.

فلما دخل القوم إلى الميدان ولت المنصورية الأديار وقام السلطان الملك المنصور عثمان من مجلسه بمقعد الإسطبل السلطاني وطلع إلى القصر الأبلق من قلعة الجبل ومعه جماعة كبيرة من مماليك أبيه وغيرهم من الأمراء والخاصكية ودخل قاني باي الجاركسي إلى مبيت الحراقة من الإسطبل ودام الأمير تنم بالمقعد مستعزًا بخجداشيته المؤيدية وغيرهم.

وتمزقت عساكر المنصور في الوقت كأنها لم تكن من غير أمر أوجب ذلك وتركوا باب السلسلة وفروا منه قبل أن يطلع إليه واحد من أصحاب الأتابك إينال ثم فعلوا ذلك أيضًا بقلعة الجبل وتركوها وأبوابها مفتحة ولم يقاتلوا بها ساعة واحدة وتمزقوا كل ممزق.

وكان هذا بعكس ما كان منهم في السبعة أيام الماضية من شدة القتال وعظم الثبات وقوة البأس إلى أن كان من أمرهم ما كان في هذا اليوم وتركوا باب السلسلة والقلعة وانصرفوا في الحال على أقبح وجه.

وكان يمكنهم أن يقاتلوا القوم بالميدان أيامًا فإن الميدان لا فرق بينه وبين الرميعة وليس بينه وبين باب السلسلة تعلق.

وأيضًا ولو ملكت أصحاب الأمير الكبير باب السلسلة والإسطل السلطاني كان يمكنهم القتال من القلعة أيامًا إذ ليس للقلعة تعلق بالإسطل: وقد ملك المؤيد شيخ أيام إمرته الإسطل من الأمير أرغون الأمير آخور نائب غيبة الملك الناصر فرج ودام به أيامًا ولم يقدر على أخذ القلعة ولا توصل إليها بوجه من الوجوه وكان مع الملك المؤيد أقوام هم هم وأيضًا لم يكن بالقلعة يوم ذاك بعض من كان بها الآن ووقع ذلك لخلائق من الملوك أنهم ملكوا باب السلسلة ولم يقدرُوا على أخذ القلعة.

والمقصود من هذا الكلام أن ليس للقلعة علاقة بباب السلسلة إلا في الأمن والرخاء لا غير كل ذلك لما تقدم ذكره أنه ليس عندهم من يدبر أمورهم وإلا فكان يمكنهم أن يطلعوا إلى القلعة ويحصنوها ويقاتلوا بها أيامًا حتى تعمل مصالحهم وإذا سلموها يعطوها بالأمان والرضا هذا إذا لم يكن لهم نهضة للهروب والخروج من الديار المصرية والإختفاء في مكان من إلامكنة من القاهرة كما فعل غيرهم من الملوك السالفة.

على أن أصحاب الأمير الكبير كان أخذ منهم التعب والجهد في هذا اليوم والذي قبله أمرًا كبيرًا وكل أكثرهم من القتال فلو امتنعت السلطانية بباب السلسلة يومًا أو يومين لطل أمرهم بعد ذلك ووقع لهم أمور ليس في ذكرها الآن فائدة.

وكان أمر المماليك الظاهرية في مبدأ الأمر عجيبًا من شدة بأسهم أولًا وفي تهاونهم آخرًا وقد قيل في إلامثال: " على قدر الصعود يكون الهبوط ".

ولما بلغ الأمير الكبير إينال طلوع الملك المنصور من الإسطل السلطاني إلى القصر الأبلق ندب في الحال الأمير جرباش المحمدي الناصري المعروف بكرد إلى الطلوع إلى باب السلسلة وتسليم الإسطل السلطاني.

ولم يتحرك الأمير الكبير من مكانه ولا ظهر عليه فرح ولا كآبة فهذا أيضًا مما تعجبت منه.

وظلع الأمير جرباش إلى باب السلسلة بعد أن استولى أصحاب الأمير الكبير عليها.

وكان من خير أخذهم لباب السلسلة أن الأمير تتم من عبد الرزاق المؤيدي أمير سلاح لما قام الملك المنصور وطلع إلى القصر وتشتت عساكره ثم دخل قاني باي الجاركسي مبيت الحراقة من الإسطبل قام تتم المذكور ومشى إلى المقعد الذي كان يجلس به الملك المنصور في أيام الوقعة وأشار إلى القوم بمنديل كان بيده كمن يطلب الأمان ثم ركب في الحال وفي زعمه أن الجماعة تتلقاه بالرحب والقبول لأياد كانت له وصحة عند الأمير الكبير قديمًا وحديثًا وأيضًا أن غالب من كان من أصحاب الأمير الكبير هو خجداشه أو صاحبه فركب فرسه ونزل حتى وقف عند باب السلسلة أسفل الحدره.

وفتحت خوخة باب السلسلة ودخل القوم فحال ما وقع بصرهم عليه تناولته الألسن وإلايدي بالسب والضرب حتى أخذ وأنزل بغير تخفيفه على حالة غير مرضية ولولا أن بعض خجداشيته المؤيدية حماه لكان أمره ربما وصل إلى التلاف.

وكذلك وقع للأمير كزل المعلم.

وأما عبد الله كاشف الشرقية فإنه أخذ ورأسه مكشوفة وشيبتة قد تضمخت بالدماء السائلة على وجهه من الضرب بالدبابيس والقوم تهجم عليه كرة بعد أخرى لهلاكه لولا قائل كفهم عنه وهو يقول: " لا تقتلوه يروح مال السلطان دعوه حتى يأخذ السلطان أمواله " ثم وقع ذلك بجماعة من الخاصكية يطول الشرح في ذكرهم من الإخذ والسلب مما عليهم والأخراق بهم.

وأما الأمير تتم فإنه لما أخذوه ودخلوا به إلى الأمير الكبير وعلى رأسه قبع أخضر من غير تخفيفه ومعه كزل المعلم وعبد الله الكاشف فأوقف بين يدي الأمير الكبير على بعد فكان أول ما تكلم به تتم أن قال: " بيني وبين الأمير الكبير عهد " أو معنى ذلك فقال الأمير الكبير: " أنت نقضت العهد " يعني بتركه وطلوعه إلى الملك المنصور.

ثم أمر به وبرفقته فحبسوا بالقصر عند الأمير قراجا وغيره ثم نقلوا بعد ساعة إلى ركبخاناه الإسطبل السلطاني وأضيف إليهم قاني باي الجاركسي وغيره ممن يأتي ذكرهم عند توجههم إلى سجن الإسكندرية.

ولما طلع الأمير جرباش إلى الإسطبل وملك باب السلسلة قام الأمير الكبير عند ذلك من مقعد بيت الأمير قوصون وركب فرسه وخرج منه في موكب عظيم إلى الغاية والخليفة عن يمينه وتنبك البردكي أمير مجلس عن يساره والعساكر بين يديه محدقة به وقد وقفت الخلائق دهليزًا لرؤيته حتى سار من بيت قوصون تجاه باب السلسلة إلى أن طلع إليها وجلس بالحراقة من باب السلسلة فحال جلوسه تفرقت العساكر في قبض أعيان الأمراء الظاهرية وغيرهم فقبضوا منهم على جماعة كثيرة يأتي ذكرهم بعد ذلك.

ثم أخذ قاني باي الجاركسي من مبيت الحراقة وانزل به عند رفقته المقبوض عليهم وقيدوا الجميع بركبخاناه الإسطبل ولم ينج أحد من أمراء الظاهرية غير اسنباي الجمالي الدوادر الثاني فإنه فر من القلعة واختفى على ما سيأتي ذكره.

ثم أمر السلطان في الوقت بإفراج عن الأمير قراجا الظاهري وعن الأمير تغري بردي القلاوي وعن الأمير بردبك الأمير أخور الثالث ورسم لهم بلبس الكلفتاه من الغد وحضور الخدمة السلطانية.

ثم رسم الأمير الكبير في الحال بقلع السلاح وقلع هو قبل الناس ما كان عليه وكان لبسه في تلك الأيام كلها قرقل مخمل أحمر بغير أكمام.

وقلعت العساكر في الحال السلاح من عليهم وسكنت الفتنة كأنها لم تكن وبات الناس في أمن وسلامة.

على أن القاهرة كانت في مدة هذه الأيام والقتال عمال في كل يوم في غاية الأمن والحوانيت مفتحة والناس في بيعهم وشرائهم وأكثرهم جالس بالدكاكين للفرجة على من يمر عليهم من العساكر المليسة بل كان يتوجه منهم أيضًا جماعة كبيرة إلى الرميلة للفرجة على القتال كما كان يتوجه بعضهم للفرجة على المحمل وغيره.

ولم تقفل أبواب القاهرة في هذه المدة ولا شوشت الزعر على أحد بل كان كل واحد يمضي إلى حال سبيله والقتال عمال بين الطائفتين لا يصيب من العامة إلا من توغل منهم بين المقاتلة فهذا أيضًا من الغرائب.

على أننا لا نعلم وقعة كانت بمصر تطول هذه المدة ولا حوصرت قلعة الجبل سبعة أيام إلا في هذه الواقعة.

وأما وقعة يشبك الشعباني ورفقته مع الملك الناصر المقدم ذكرها ليس هي كهذه الوقعة ومع هذا قفلت القاهرة في تلك الكائنة أيامًا ونهبت الزعر عدة أماكن فكانت هذه الوقعة بخلاف جميع الوقائع في هذا المعنى انتهى.

وبات الأمير الكبير إينال يميت الحرافة من الإسطبل السلطاني حتى أصبح وتسلطن منه على ما يأتي ذكره مفصلاً في ترجمته عقيب هذه الترجدة.

وزالت دولة الملك المنصور عثمان كأنها لم تكن فسبحان من لا يزول ملكه.

وكانت ممة سلطنة الملك المنصور من يوم تسلطن بعد خلع أبيه حسبما تقدم ذكره إلى يوم خله الخليفة يوم الجمعة خامس شهر ربيع الأول شهرًا واحدًا وثلاثة عشر يومًا وإلى يوم تسلطن الملك الأشرف إينال في صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول المذكور شهرًا وستة عشر يومًا.

ولا نعلم أحدًا من ملوك مصر من إلتراك كانت مدته في الملك أقصر من مدة الملك المنصور هذا مع عظم شوكته وثبات قدمه في الملك.

فما شاء الله كان وما هذا إلا نوع من القصاص.

وقد ورد في إلسرائليات: يقول الله سبحانه وتعالى: " يا داود أنا الرب الودود أعامل إلبناء بما فعلت الجدود ".

وقد رأينا هذه المكافأة في واحد بعد واحد من يوم خلع الملك المنصور حاجي بالملك الظاهر برقوق من السلطنة إلى يومنا هذا والجميع يشربون هذا الكأس جمن يد أتابكتهم ويرد عليهم هذا الشراب بتدبير ممالك أبيهم وقد تقدم ذكر هذا المعنى في مواطن كثيرة وإلضراب عن ذكر هذا أجمل.

ولما طلع الملك المنصور من الإسطبل إلى القصر ودعه ممالك أبيه وفارقوه فلا قوة إلا بالله.

وتوجه هو إلى الحریم السلطاني عند والدته وأقام عندها إلى أن طلبه منها الملك الأشرف إينال فخرجت معه إلى قاعة البحرة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل فأقام

الملك المنصور بالبحرة من يوم خلع هو ومن يخدمه مع والدته وأولاده والجميع في الترسيم إلى يوم الأحد ثامن عشرين شهر ربيع الأول فاخذ منها بجميع خدمه ووالدته وأولاده وأنزلوا الجميع في حراقة إلى ثغر الإسكندرية.

وكانت هيئة نزول الملك المنصور من القلعة أنه أركب علي فرس بوزيقيد من غير أن يركب أحد من الإوجاقية خلفه كما هي عادة الملوك من الأمراء ومضوا به من باب القرافة في وقت القائلة وقد خرجوا الناس للفرجة عليه بخارج القاهرة وساروا به وحوله الخاصكية بالسيوف والرماح وجماعة كبيرة من أعيان الأمراء وقد ازدحم الناس بالكيمان للفرجة عليه حتى اجتاز بقرافة مصر القديمة إلى أن وصل إلى نيل مصر وأنزل في الحراقة وسافر من وقته في بحر النيل إلى الإسكندرية فسجن بها.

وهذا أيضًا من الغرائب من أن ملك مصر يخلع ويتوجه مقيّدًا إلى الإسكندرية نهارًا ولم يقع ذلك لغيره في السنين الخالية.

وكان مسفره خيريك الأشقر المؤيدي الأمير آخور الثاني.

واستمر الملك المنصور مسجونًا بثر الإسكندرية وعنده والدته وجواربه وأولاده إلى ما يأتي ذكره أحسن الله عاقبته بمحمد وآله.

سلطنة الأشرف إينال العلاني السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال بن عبد الله العلاني الظاهري ثم الناصري.

ملك الديار المصرية بعد انهزام الملك المنصور عثمان في يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين وثمانمائة وطلع إلى باب السلسلة وبات بمبيت الحراقة حسبما ذكرنا إلى أن تسلطن من الغد.

وقد ذكرنا طلوعه وما وقع له في حرب الملك المنصور في ترجمته مفصلاً ويأتي ذكر سلطنته أيضًا في أول ترجمته كما هي عادة هذا الكتاب.

والملك الأشرف هذا هو السلطان السادس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والثاني عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بها.

ولما كان صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين المذكورة طلع أعيان الدولة والعساكر إلى الإسطبل السلطاني بقماش الموكب وانضموا الجميع بالحراقة من باب السلسلة وقد حضر الخليفة والقضاة الأربعة وسائر أمراء الدولة وبوع الأمير الكبير إينال بالسلطنة ولقب بالملك الأشرف ولبس خلعة السلطنة من مبيت الحراقة بالإسطبل السلطاني في أول ساعة من النهار المذكور بعد طلوع الشمس بنحو ست درجات في ساعة القمر والطاق الحمل.

وكان بوع بالسلطنة حسبما تقدم ذكره في بيت قوصون قبل أن يملك قلعة الجبل في يوم الأربعاء ثالثة ثم في يوم الجمعة حسبما ذكرنا ذلك في وقته ثم في يوم السبت سادسه ثم في عصر أمسه بعد طلوعه إلى باب السلسلة والعهدة في سلطنته من وقت لبسه الخلعة السوداء الخليفية وركوبه بشعار الملك.

ولما تم لبسه خلعة السلطنة من المبيت المذكور خرج منه ومشى حتى ركب فرس النوبة بأبهة السلطنة وشعار الملك وحمل ولده المقام الشهابي أحمد القبة والطير على رأسه حتى طلع إلى القصر السلطاني والأمراء والعساكر مشاة بين يديه ما خلا الخليفة.

وسار على تلك الهيئة إلى أن وصل إلى باب القصر فنزل عن فرسه ودخل القصر الكبير وجلس بإيوانه على تخت الملك وقبلت الأمراء الأرض بين يديه وخلع على الخليفة القائم بأمر الله فوقانيًا كمحًا حريزًا بوجهين أخضر وأبيض بطرز يلغاوي زركش وقدم له فرسًا بسرج ذهب وكنبوش زركش.

وتم جلوسه بالقصر السلطاني إلى يوم الجمعة على ما سنذكره بعد ذكر نسبه فنقول: أصله جاركسي الجنس أخذ من بلاده فاشتراه خواجه علاء الدين علي وقدم به إلى القاهرة هو وأخيه طوخ وطوخ كان الأكبر وكان اسم إينال غير إينال فاستقر إينال فاشتراهما الملك الظاهر برقوق أعني إينال وطوخ من الخواجه علاء الدين المذكور في حدود سنة تسع وتسعين وسبعمئة تخمينًا فأعتق الظاهر أخاه طوخ المذكور ودام إينال هذا كتابيًا بطبقة الزمام إلى أن ملكه الملك الناصر فرج بن برقوق وأعتقه وأخرج له خيلًا على العادة.

واستمر من جملة المماليك السلطانية إلى أن صار في آخر الدولة الناصرية خاصكيًا فدام على ذلك إلى أن أنعم عليه الأمير الكبير ططر في الدولة المظفرية بإمرة عشرة من أوائل سنة أربع وعشرين.

ثم نقل إلى إمرة طبلخاناه في أوائل دولة الأشرف برسباي في سنة خمس وعشرين وثمانمئة.

ثم صار بعد انتقال قاني باي الأيوبكري البهلوان إلى مقدمة ألف ثاني رأس نوبة النوب.

ثم نقل إلى نيابة غزة بعد عزل الأمير تمراز القرمشي وقدمه إلى الديار المصرية وذلك في يوم الثلاثاء ثامن عشرين شوال سنة إحدى وثلاثين وثمانمئة فباشر نيابة غزة إلى أن سافر صحبة الملك الأشرف برسباي إلى آمد في سنة ست وثلاثين وثمانمئة.

ولما عاد الأشرف من آمد ونزل بمدينة الرها وقد استولى عليها وهي خراب طلبه الملك الأشرف ليستقر في نيابة الرها فامتنع ورمى بسيفه وأغلظ للأشرف في الكلام فاستشاط الأشرف غضبًا ولم يسعه إلا أن طلب مملوكه قراجا شاد الشراب خاناه وخلع عليه نيابة الرها وقال: " أنا ما يمثل أوامري إلا ممالكيكي "

وإنفض الموكب وذهب إينال هذا إلى مخيمه فندم على ما وقع منه وخوف عواقب ذلك فاذعن.

وطلبه السلطان في عصر النهار المذكور وخلع عليه أطلسين متمرًا ووعد به بأن يمده بالسلاح والعليق وغير ذلك وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية زيادة على نيابة الرها عوضًا عن جانبك الحمزاوي المستقر في نيابة غزة عوضه.

وخرج إينال وهو متغير اللون رأيته لما سلمت عليه ودام في نيابة الرها إلى أن عزله الأشرف عنها بالأمير شاد بك الجكمي ثاني رأس نوبة في يوم الثلاثاء سابع عشرين شوال سنة سبع وثلاثين واستقدمه إلى القاهرة على إمرة مائة وتقدمة ألف وهو لإقطاع الذي كان بيده زيادة على نيابة الرها.

ودام بمصر إلى أن خلع عليه الأشرف في يوم الخميس عاشر رجب سنة أربعين وثمانمئة بنيابة صدف بعد عزل الأمير يونس الركني الأرغوني لإعور عنها.

فاستمر في صعد إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق في سنة ثلاث وأربعين وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في صفر السنة المذكورة وولى صعد عوضه قاني باي البهلوان أتاك دمشق.

وكان قدوم إينال هذا إلى القاهرة في يوم السبت ثالث عشر صفر فدام بالقاهرة من جملة أمراء الألو ف إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى الدوادية الكبرى بعد موت تغري بردي البكلمشي المؤذي في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين فبلشر الدوادية إلى أن نقله الظاهر إلى أتاكية العساكر بالديار المصرية دفعة واحدة بعد موت الأتابك يشبك السوداني المشد في سنة تسع وأربعين وثمانمائة فدام أتاكياً إلى أن مات الظاهر جقمق وملك بعده ابنه المنصور عثمان ووقع ما حكيناه من الفتنة بينه وبين المنصور حتى خلع المنصور وتسلطن حسبما ذكرناه في أول هذه الترجدة انتهى ذكر نسبه.

ولنعد لما كنا فيه من جلوسه بعد قلعه خلعة السلطنة بالقصر فنقول: ولما تم جلوسه بالقصر طلب خجداشه يونس العلاني الناصري نائب قلعة الجبل وخلع عليه باستقراره في نيابة الإسكندرية بعد عزل يشبك قرا وحبسه وأمر السلطان الأمير قاني باي لإعمش الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة أن يجلس مكان يونس المذكور.

ثم أصبح السلطان الملك الأشرف إينال هذا في يوم الثلاثاء تاسع ربيع الأول خلع على جماعة كبيرة بعدة وظائف: فخلع على ولده المقام الشهابي أحمد باستقراره أتاك العساكر عوضاً عن نفسه.

وعلى الأمير تنبك البرديكي الظاهري أمير مجلس بإمرة سلاح عوضاً عن الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي بحكم القبض عليه وسجنه.

وخلع على الأمير طوخ من تراز الناصري غليظ الرقبة بإمرة مجلس عوضاً عن تنبك المذكور.

وخلع على الأمير خشقدم الناصري المؤيدي حاجب الحجاب باستمراره على وظيفته.

وخلع على الأمير جرباش المحمدي الناصري المعروف بكرد باستقراره أمير آخور كبيراً عوضاً عن قاني باي الجاركسي بحكم القبض عليه.

وخلع على الأمير يونس إلقبائي دوادراً كبيراً عوضاً عن تمرغا الظاهري بحكم القبض عليه لكن يونس هذا ولي الدوادية على تقدمه وكان تمرغا وليها على إمرة طبلخاناه.

وخلع على الأمير قرقماس الأشرفي الجلب باستقراره رأس نوبة النوب عوضاً عن الأمير أسنيغا الطياري بحكم وفاته.

وخلع على الأمير جانبك الظاهري نائب جدة خلعة لإستمرار على وظيفته الأستادارية الكبرى.

ثم أمر السلطان في يوم الأربعاء عاشره بالمنادة في الممالك السلطانية بأن النفقة في يوم الاثنين.

ثم في يوم الأربعاء هذا حملت الأمراء المسجونون من القلعة على البغال إلى بحر النيل وسفروا من وقتهم إلى الإسكندرية وهم: الأمير تنم المؤيدي أمير سلاح المقدم ذكره

وقاني باي الجاركسي الأمير آخو الكبير والأمير تمرغا الدوادر والأمير لاجين شاد الشراب خاناه وأزبك الساقى الخازندار وسنقر العايق الأمير آخو الثاني وجانم الساقى الظاهري وسودون إلاقزم الظاهري وجانبك الظاهري البواب وهما ممن تأمر في الدولة المنصورية والجميع ظاهرية ما عدا تنم وقاني باي.

وفي يوم الأربعاء هذا اشيع كلام بسبب تولية السلطان ولده أحمد أتابكًا عوضه وأن ذلك بخلاف العادة فخارت طباع الأشرف من غير أمر يوجب ذلك وأصبح من الغد في يوم الخميس خلع على الأمير تنبك البرديكي الذي كان استقر في إمرة سلاح باستقراره أتابك العساكر عوضًا عن ولده الشهابي أحمد وأنعم على ولده المذكور بإمرة مائة وتقدمة ألف على عادة أولاد السلاطين وجعله يجلس رأس الميسرة.

قلت: وهذا أول وهن وقع في دولة الأشرف إينال من كونه يولي ولده أتابكًا في إلامس ثم يعزله في الغد من غير أمر يقتضي ذلك ولو صمم على بقاء ولاية ولده لتم له ذلك ولم ينتطح في ذلك عنزان.

ثم خلع على الأمير خشقدم الناصري حاجب الحجاب باستقراره أمير سلاح عوضًا عن تنبك المذكور.

وخلع على قراجا الخازندار الظاهري باستقراره حاجب حجاب عوضًا عن خشقدم المؤيدي المذكور.

ثم استقر الأمير تراز الإينالي الأشرفي دوادرًا ثانيًا عوضًا عن أسنباي الجمالي بحكم تسحبه وأنعم عليه بإمرة عشرين.

ثم استقر جانبك من قجمادى الأشرفي شاد الشراب خاناه عوضًا عن لاجين بحكم حبسه.

واستقر خيربك الأشقر المؤيدي أمير آخو ثانيًا عوضًا عن سنقر العائق بحكم سجنه.

وأنعم على خيربك المذكور بإمرة عشرين وكانت العادة إمرة طبلخاناه.

واستقر قاني باي إلامش الناصري نائب قلعة الجبل عوضًا عن يونس العلاني نائب الإسكندرية كما تقدم مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية عوضًا عن الأمير أسنبا الطياري بعد وفاته.

واستقر يشبك الناصري رأس نوبة ثانيًا عوضًا عن جانبك القرمانى المذكور.

ثم أنعم على الأمير أرنبغا اليونسي الناصري بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية عوضًا عن قاني باي الجاركسي بحكم القبض عليه وحبسه.

وأنعم على برسباي البجاسي المعزول عن نيابة الإسكندرية بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية عوضًا عن الأمير طوخ أمير مجلس بحكم انتقال طوخ إلى تقدمه أخرى أكثر خراجًا منها وهو إقطاع تنبك المنتقل إلى الأتابكية.

ثم أنعم السلطان على جماعة كثيرة بإمرة طبلخانات وعشرات باستحقاق وبغير استحقاق كما هي عوائد أوائل الدول يطول الشرح في تسميتهم.

ثم خلع السلطان على جماعة كبيرة بعدة وظائف منهم: البدرى حسن بن الطولونى باستقراره معلم المعمارية وأميرزة بن حسن الدوكارى التركمانى بكشف الوجه القبلى على عادته وعلى جماعة آخر.

ثم فى يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول المذكور استقر الأمير جانبك من أمير الأشرفى الظريف أمير طبلخاناه خازندارًا كبيرًا عوضًا عن الأمير أربك من ططخ الظاهرى بحكم سجنه بالإسكندرية.

واستقر بردبك دودار السلطان قديمًا وزوج ابنته دودارًا ثالثًا بإمرة عشرة وهذا شيء لم نعهده كون الدودار الثالث يكون أمير عشرة وما عادته إلا خاصكيًا.

وكان حق بردبك هذا الدوادارية الثانية لكونه مملوك السلطان ودوداره وزوج ابنته غير أن السلطان لما رأى أن تمراز الأشرفى غرضه فى الدوادارية الثانية لم يسعه إلا الأنعام عليه بها لعظم شوكة الأشرفية يومئذ.

ثم استقر يشبك الأشقر الخاصكى أستاذار الصحبة بعد عزل سنقر الظاهرى عنها من غير إمرة.

ثم فى يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول ابتداء السلطان بالنفقة على الممالىك السلطانية على أقسام متعددة نفقة كاملة وهى مائة دينار لكل مملوك ونصف نفقة وربع نفقة وعشرة دنانير وهذا لم يقع قبل فى الدولة التركية.

ولام السلطان بعض أعيان الأمراء على ذلك فقال: " هذا الذى كان رتبته تمرىغا للتفرقة فى الدولة المنصورية " فكلّم ثانيًا فاعتذر بقلة المتحصل فى الخزانة السلطانية.

قلت: " والعدر الثالث أن كلمة الشح مطاعة ".

قلت: " والذى فرق فى الممالىك السلطانية إنما هو الذى جمعه الملك المنصور عثمان من السلف والمصادر فى أيام سلطنته وإلا فما ترك والده الملك الظاهر جقمق فى الخزانة شيئًا يذكر لكرم نفسه وكثرة عطاياه رحمه الله تعالى ".

ثم فى يوم الثلاثاء سادس عشره خلع السلطان على جماعة من الأمراء خلع الأنظار المتعلقة بالوظائف المقدم ذكرها.

ثم فى يوم الأربعاء سابع عشره وصل الأمير دولات باي المحمودى الدودار من سجن الإسكندرية.

ووقع فى خروج دولات باي المذكور ومجيئه من ثغر الإسكندرية غريبة فيها عبرة لمن اعتبر وهو أن الأمراء الذين قبض عليهم الملك الأشرف إبنال هذا كان غالبهم هو الذى حسن للمنصور القبض على دولات باي هذا وسجنه بثغر الإسكندرية فلما أمسكهم الملك الأشرف وسيرهم إلى الثغر رسم بإطلاق دولات باي من السجن فتوافقوا خارج الإسكندرية وقد أفرج عن دولات باي ورسم بحبسهم عوضه فانظر إلى هذا الدهر وأفعاله بالمغرمين به لتعلم أن الله على كل شيء قدير.

وفى يوم الخميس ثامن عشره أنعم السلطان على الأمير يونس العلائى نائب الإسكندرية بإقطاع الأمير جانبك البشكى الوالى ثم الزردكاش بعد وفاته وأنعم بإقطاع يونس المذكور على قانى باي الإعمش الذى استقر عوضًا عن يونس فى نيابة القلعة.

وفي يوم الجمعة تاسع عشره أفرج السلطان عن الأمير زين الدين يحيى الأستادار من محبسه بالبرج من قلعة الجبل وخلع عليه كالمية بمقلب سمور ونزل إلى داره.

وفي يوم السبت العشرين من ربيع الأول المذكور استقر نوكار الناصري الحاجب الثاني زردكاشا بعد موت جانبك اليشبكي واستقر سممام الحسني الظاهري حاجبًا ثانيًا عوضًا عن نوكار.

وفي هذه الأيام

▲ خلع السلطان على جماعة كبيرة بعدة وظائف

حتى تجاوز عدد رؤوس النوب على خمسة وعشرين نفرًا والدوادارية صاروا عشرة نفر بعدما كانوا خمسة وكذلك البجمقدارية والبوابون وقس على ذلك.

ثم قبض السلطان على نيف وثلاثين مملوكًا من ممالك الظاهرية وحبسوا بالبرج من القلعة وكان نفي قبل تاريخه جماعة آخر وشيع شاهين الفقيه الظاهري وهو ممن لا يلتفت إليه وسنقر أستادار الصحبة كلاهما إلى القدس الشريف.

ثم أخرج أيضًا يشبك الظاهري وكان تأمر في الدولة المنصورية عشرة ويشبك الساقى وسنطباي رأس نوبة الجمدارية إلى طرابلس ثم أخرج بعدهم أيضًا جماعة آخر.

وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه استقر الأمير زين الدين يحيى أستادارًا على عادته أولًا بعد عزل الأمير جانبك نائب جدة عنها برغبة من جانبك المذكور.

وفيه وصل إلاميل يرشباي الإينالي المؤيدي الأمير آخور الثاني كان والأمير يلباي الإينالي المؤيدي من ثغر دمياط بطلب من السلطان.

وفي يوم الخميس خامس عشرينه وصل الأمير سودون الإينالي المؤيدي قراقاش من القدس الشريف بطلب.

ثم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول ظهر الأمير أسنباي الجمالي الظاهري الدوادار الثاني كان وكان مختفيًا من يوم ملك السلطان باب السلسلة فرسم له بالتوجه إلى القدس بطالًا.

وفي يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر وصل الأمير جانم الأمير آخور كان قريب الملك الأشرف برسباي من حبس قلعة صغد وخلع السلطان عليه كالمية مخمل أخضر بمقلب سمور ووعدته بكل جميل نذكر ذلك في تاريخنا الحوادث مفصلاً هذا وغيره لكونه محل ضبط الحوادث وما نذكره هنا ليس هو إلا على سبيل إلاستطراد والأمور المهمة لا غير وأما جميع الوقائع ففي الحوادث تطلب هناك انتهى.

وفي يوم الجمعة أول جمادى الأولى قبض السلطان على الأمير قراجا الخازندار الظاهري وهو يومئذ حاجب الحجاب وحبسه بالبحرة من قلعة الجبل من غير أمر أوجب مسكه وإنما هي مندوحة لأخذ إقطاعه.

وفي يوم السبت ثاني جمادى الأولى أنعم السلطان بإقطاع قراجا المذكور وهو إمرة مائة وتقدمة ألف على الأمير جانم الأمير آخور الأشرفي وخلع على الأمير جانبك القرمانى

باستقراره حاجب الحجاب عوضًا عن قراجا المذكور ورسم السلطان بتوجه قراجا إلى القدس بطالًا فسافر يوم الاثنين رابعه.

وفي يوم الثلاثاء خامسه قرىء تقليد السلطان الملك الأشرف إينال بالقصر الكبير من قلعة الجبل وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وجلس السلطان على الأرض من غير كرسي على مرتبة وجلس على يمينه الخليفة القائم بأمر الله حمزة ثم جلست القضاة الأربعة كل واحد في منزلته وقرأ القاضي محب الدين ابن الأشقر كاتب السر التقليد إلى أن تمت قراءته فخلع عليه السلطان وعلى الخليفة وانفض الموكب.

وفي يوم الجمعة ثامنه عقد السلطان عقد الأمير يونس لإقبائي الدوادر الكبير على ابنته بجامع القلعة بحضرة السلطان.

وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى خلع السلطان على الشيخ عز الدين أحمد الحنبلي باستقراره قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية بعد وفاة قاضي القضاة بدرالدين بن عبد المنعم.

وفيه رسم السلطان أن يحط عن البلاد بالوجه القبلي والبحري وسائر الأعمال ريع ما كان يطرح علمهم قبل ذلك في أيام الظاهر جقمق من لإطرون وسر الناس بذلك وتباشروا بزوال الظلم وإزالة المظالم.

وفي يوم الأحد سابع عشره ورد الخبر على السلطان بقتل الأمير بن سونجبا اليونسي الظاهري جقمق وتغري بردي القلاوي المعزول عن الوزر قبل تاريخه: قتل الواحد الآخر ثم قتل الآخر في الوقت ذكرنا أمرهما مفضلًا في تاريخنا الحوادث فأنعم السلطان بإقطاع تغري بردي القلاوي على الأمير يرشباي الإينالي المؤيدي وأنعم على الأمير يلباي الإينالي المؤيدي بإقطاع سونجبا وكان إقطاعه قديمًا قبل أن يمسك وأنعم بإقطاع عبد الله الكاشف على سودون الإينالي المؤيدي قراقاش وأنعم على تم الحسيني وعلى قلمطاي الإسحاقى الأشرفيين بإقطاع يلبغا الجاركسي بحكم تعطله ولزومه داره لكل واحد منهما إمرة عشرة.

وفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة أنعم السلطان على خيربك إلاجرود المؤيدي أتاكك دمشق كان بعد قدومه من السجن بإقطاع دولات باي المحمودي الموادر كان بعد موته وإلحاق إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية.

وكان دولات باي الدوادر أخذ هذا الإقطاع بعد موت أرنيغا وأرنيغا أخذه بعد قاني باي الجاركسي كل ذلك في دون ثلاثة أشهر.

وفي يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة ورد الخبر من الشام بموت قانصوه النوروزي أحد أمراء دمشق فأنعم السلطان بتقدمته على الأمير قاني بك المحمودي المؤيدي وكان قاني بك بطالًا بدمشق.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب أدير المحمل على العادة ولعبت الرماحة وكان الملك الظاهر جقمق أبطل ذلك فأعاده الملك الأشرف هذا وسر الناس بعمله غاية السرور.

وفي يوم الخميس تاسع عشر رجب المذكور ندب السلطان الأمير قائم طاز الأشرفي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بنقل الأمراء المسجونين من ثغر الإسكندرية إلى حبوس

البلاد الشامية فتوجه إليهم ونقل الجميع ما خلا الأميرين تنم المؤيدي أمير سلاح وقاني باي الجاركسي فإتھما داما في سجن الإسكندرية.

وفي يوم السبت رابع شهر رمضان استقر الزيني فرج بن ماجد بن النحال كاتب المماليك السلطانية وزيرًا بعد تسحب الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهيصم.

وفي يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان المذكور ورد الخبر على السلطان بموت الأمير بيغوت الأعرج المؤيدي نائب صفد فرسم السلطان بانتقال الأمير إياس المحمدي الناصري أتابك طرابلس إلى نيابة صفد دفعة واحدة وحمل إليه التقليد والتشريف على يد الأمير خشكلدي القوامي الناصري أحد أمراء العشرات واستقر حطط الناصري المعزول قبل تاريخه عن نيابة غزة أتابك طرابلس عوضًا عن إياس المذكور وأنعم بإقطاع حطط إمرة عشرين بطرابلس على جانبك المحمودي المؤيدي وكان بطالاً بطرابلس.

ثم استهل شوال يوم الجمعة فصلى السلطان صلاة العيد بجامع القلعة الناصري على العادة ثم صلى من يومه أيضًا الجمعة بالجامع المذكور فكان في هذا اليوم خطبتان في يوم واحد وكثر كلام الناس في هذا الأمر فلم يقع إلا كل جميل من سائر الجهات وصار كلام الناس من جملة الهذيان وأنت تعلم مقدار ما أقام الأشرف بعد ذلك في الملك.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر شوال المذكور خلع السلطان على الأمير جانبك الظاهري المعزول قبل تاريخه عن الأستادارية باستقراره في التكلم على بندر جدة بعد أن أنعم عليه بزيادة على إقطاعه وجعله من جملة أمراء الطيلخانات بالديار المصرية.

ثم رسم بنفي الأمير برديك التاجي الأشرفي الذي كان تكلم على بندر جدة في السنة الماضية إلى القدس بطالاً وأخرج السلطان إمرة برديك المذكور إلى حكم الأشرفي خال الملك العزيز يوسف وإلحاق إمرة عشرة.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر شوال المذكور تسحب الأمير زين الدين الأستادار واختفى مما حمل للديوان السلطاني من الكلف.

وبلغ السلطان ذلك فأرسل السلطان خلف علي بن الأهناسي البردرار بخدمة زين الدين المذكور وهو يومذاك أستاذار المقام الشهابي أحمد بن السلطان واستقر به أستاذارًا عوضًا عن زين الدين دفعة واحدة.

وعلم السلطان أن عليًا هذا ليس هو في هذه الرتبة ولا في أهلية لأن يكون من جملة كتاب ديوان المفرد فتكلم في الملاء بكلام معناه أن السلطان إذا أقام كائنًا من كان من أقل الناس في أي وظيفة شاء وكان للسلطان به عناية سد تلك الوظيفة على أحسن الوجوه فسكت كل أحد لعلمهم أن السلطان يعلم حاله كما يعلمونه هم واختاره لهذه الرتبة.

ثم في يوم السبت ثالث عشرين شوال ورد إلى الديار المصرية قاصد خوندكار محمد بك بن مراد بن عثمان متملك بلاد الروم لتهنئة السلطان بالملك وأيضًا يخبره بما من الله عليه من فتح مدينة إسطنبول وقد أخذها عنوة بعد قتال عظيم في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثمانمائة بعدما أقاموا على حصارها من يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأول من هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين المذكورة إلى أن أخذها في التاريخ المقدم ذكره.

قلت: ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم.

وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء إسطنبول وطلع بهما إلى السلطان وهما من أهل قسطنطينية وهي الكنيسة العظمى بإسطنبول فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم سرورًا زائدًا ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أيامًا.

ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه إلسيران المذكوران إلى القلعة في يوم الاثنين خامس عشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت وإلماكن وأمعنوا في ذلك إلى الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل.

وقد استوعبنا طلوع القاصد المذكور في غير هذا المحل من مصنفاتنا من هذا.

وبالجملة فكان لمجيء هذا القاصد بهذه البشارة الحسنة أمر كبير وعين السلطان من يومه الأمير يرشباي الإينالي المؤيدي الأمير آخور الثاني كان بالتوجه إلى ابن عثمان صحبة القاصد بالجواب السلطاني وقد كتبنا صورة الكتاب الذي جاء من ابن عثمان على يد القاصد المذكور بفتح مدينة إسطنبول والجواب الذي أرسله السلطان صحبة يرشباي هذا كلاهما مثبت في تاريخنا حوادث الدهور إذ هو حل ضبط هذه الأمور انتهى.

ثم رسم السلطان بالمناداة على زين الدين يحيى الأستاذار وتهديد من أخفاه عنده بالشنق والتنكيل ووعده من أحضره بالف دينار إن كان متعممًا وإقطاع إن كان جنديًا.

ثم في يوم الاثنين ثالث ذي القعدة استقر القاضي محب الدين ابن الشحنة الحنفي كاتب سر مصر بعد عزل القاضي محب الدين بن الأشقر على مال بذله وهو مبلغ أربعة آلاف دينار.

ثم في يوم الاثنين ثاني ذي الحجة خلع السلطان على الأمير جانبك النوروزي نائب بعليك باستقراره في نيابة الإسكندرية بعد عزل يونس العلاني وقدمه إلى القاهرة من جملة أمراء الطبلخانات.

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشرين ذي الحجة ظهر الأمير زين الدين الأستاذار من اختفائه وطلع إلى القلعة وعلى رأسه منديل الأمان صحبة عظيم الدولة صاحب جمال الدين بن كاتب حكيم وكان هو الساعي لزين الدين في رضاء السلطان عليه.

وقبل زين الدين الأرض بين يدي السلطان فرسم له السلطان أن يلزم داره ولا يجتمع بأحد ولا يكاتب أحدًا من أعيان الدولة.

وفرغت سنة سبع وخمسين وما ذكرناه فيها إنما هو على سبيل إالاختصار علم خبرلا غير. واستهلكت سنة ثمان وخمسين وثمانمائة.

وأول السنة يوم الثلاثاء فأحببت أن أذكر في أول هذه السنة أسماء أعيان أرباب الوظائف من الأعيان والأمراء والقضاة والمباشرين ليعلم الناظر في هذه الترجدة كيف تكون تقلبات الدهر وتغيير الدولة بعد أن ينظر المتأمل في ترجدة الملك المنصور عثمان في السنة الخالية ولم يمض بين من سمي في تلك السنة وبين من سمي في هذه السنة إلا بعض أشهر لأن المنصور والأشرف هذا كلا منهما ولي في هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

وما قلناه في السنة الخالية معناه في ترجدة المنصور عثمان.

على أن لا نذكر إلا جماعة الأعيان لا غير ولو ذكرنا كل من تغير من أرباب الوظائف من الخاصكية والأجناد الذين أخذوا الإقطاعات والوظائف لطال الشرح في ذلك وخرجنا عن المقصود ولنعد إلى ما هو المقصود فنقول: أما الخليفة فهو القائم بأمر الله حمزة وهو المذكور أيضًا في السنة الخالية.

وكذلك القضاة الأربعة فهم على حالهم كما ذكرناه في ترجمة المنصور أيضًا.

وكذلك نواب البلاد الشامية فالجميع على حالهم كما ذكرناه في ترجمة المنصور أيضًا.

وتغير نائب الإسكندرية فإنه كان في تلك السنة برسباي البجاسي والآن هو جانبك النوروزي.

وأما أرباب الوظائف من أمراء مائة: فالأمير الكبير تنبك البرديكي الظاهري.

وأمير سلاح خشقدم الناصري المؤيدي.

وأمير مجلس طوخ من تراز الناصري غليظ الرقية.

والأمير آخور الكبير جرباش المحمدي الناصري كرد.

والدوادار الكبير يونس السيفي آقباي نائب الشام.

ورأس نوبة النوب قرقماس الأشرفي الجلب.

وحاجب الحجاب جانبك القرمانى الظاهري.

فهؤلاء هم أرباب الوظائف من مقدمي الألوف.

وبقية مقدمي الألوف هم: المقام الشهابي أحمد ابن السلطان وهو يجلس رأس ميسرة فوق أمير سلاح.

والأمير جانم الأمير آخور كان وهو يجلس تحت أمير سلاح فوق بقية الأمراء.

ثم خيربك إلاجرود المؤيدي.

ثم برسباي البجاسي.

فهؤلاء جميع مقدمي الألوف بالديار المصرية وهم أقل من النصف من أمراء الظاهر برقوق.

وأما أرباب الوظائف من أمراء الطبلخانات وغيرهم: فشاد الشراب خاناه جانبك من قجماس الأشرفي المعروف بدوادار سيدي.

والخازندار الكبير جانبك من أمير الأشرفي الظريف.

ونائب القلعة قاني باي الناصري إلامش أمير عشرة.

والزرديكاش نوكار الناصري أمير عشرة والتجمل به هتكة.

والحاجب الثاني بتخاص العثماني الظاهري برقوق أمير عشرة.

وأستادار الصحبة يشبك الأشقر الأشرفي من جملة الأجناد.

وكانت هذه الوظائف المذكورة في سالف الإعصار لا يليها إلا أمير مائة مقدم ألف ولهذا قدمنا ذكرها على غيرها مما سنذكره فتنازل ملوك زماننا هذا حتى ولي بعضها الأجناد.

وقد أبطل الملوك أيضًا عدة وظائف جليلة كان لا يليها إلا أمير مائة مقدم ألف مثل نيابة السلطنة لأن آخر من وليها من العظماء تمراز الناصري الظاهري في دولة الناصر فرج.

ورأس نوبة الأمراء وآخر من وليها نوروز الحافظي في دولة الناصر فرج أيضًا وكانت هذه الوظيفة تضاهي الأتابكية.

ومثل أمير جاندار فإن الأمير ألجاي اليوسفي صاحب الوقعة مع الأشرف شعبان انتقل إليها من وظيفة رأس نوبة النوب.

وأما ما ذهب من الوظائف التي كان يليها امراء الطبلخانات والعشرات مثل شاد الدواوين وأمير منزل وشاد القصر السلطاني والمهمندار ومقدم البريدية وشاد العمائر وإن كان بعض هذه الوظائف مستمرة فإنه لا يليها إلا الأحداث من الناس بحيث إنها صارت كلا شيء.

وقد خرجنا عن المقصود في نوع إلاستطراد ولنعد إلى ما كنا فيه.

ورأس نوبة ثان يشبك الناصري.

وتعد سبعة من طبلخانات رؤوس النوب.

وأما العشرات من رؤوس النوب فكثير جدًا.

وكان جميع رؤوس النوب في أوائل سلطنة برقوق أربعة لا غير ثم صاروا في دولة الناصر فرج بعد تجريدة الكرك سبعة فنقول: ما تجدد من كثرة رؤوس النوب يكون عوضًا عما ذهب من تلك الوظائف فيقول القائل: لا نسلم! وابن رونق تلك الوظائف المتعددة كثرة من رونق وظيفة واحدة! وكذلك كانت الحجاب ثلاثة: حاجب الحجاب وحاجب ميسرة وهو أيضًا مقدم ألف والحاجب الثالث.

فأول من زادهم الظاهر برقوق وجعلهم خمسة حجاب أمراء عشرات لا هذه الحرافيش الذين يلونها اليوم الجهلة الفسقة.

والدوادار الثاني تمراز الإينالي الأشرفي بإمرة عشرين وهو من مساوية الدهر.

والأمير آخور الثاني خيربك الأشقر المؤيدي أمير عشرين أيضًا.

والزمام والخازندار الطواشي الرومي فيروز النوروزي أمير طبلخاناه.

ومقدم المماليك السلطانية الطواشي لؤلؤ الرومي الأشرفي أمير عشرة.

ونائبه عنبر عتيق التاجر نور الدين الطنبيذي جنديًا بغير إمرة.

ونقيب الجيش الأمير ناصر الدين محمد بن أبي فرج بعد أن ولي الأستادارية قبل تاريخه.
ووالي القاهرة علي بن إسكندر ووليها بالبذل.

أعيان مباشري الدولة من المتعممين كاتب السر محب الدين ابن الشحنة الحنفي.
وناظر الجيش والخاص معًا عظيم الدولة صاحب جمال الدين يوسف بن كاتب حكم.
والوزير سعد الدين فرج بن النحال.
والأستادار علي البرردار بن الأهناسي.

ووظيفة نظر الدولة ونظر المفرد كل منهما تلاشى أمرهما حتى صارت كلا شيء سكتنا
عن ذكر ذلك لوضاعة قدر من يليها.

قلت: ولو سكتنا عن ذكر من يلي الوزر أيضًا لكان أجمل غير أنه لا يسعنا إلا ذكرها
لمحلها الرفيع في سائر الأقطار فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما ذكر نظر الجوالي والإسطلب السلطاني والبيمارستان والكسوة وخزائن السلاح
والخزانة الشريفة وأشباههم ليس لذكرهم هنا محل لكونهم في غير هذه الرتبة.

وفي مثل هذا المحل لا يذكر إلا أعيان الوظائف المعدود أصحابها من ذوي الرياسات وقد
ذكرنا تلك الوظائف كلها في تاريخنا الحوادث إذ هو محل ضبط الولايات والعزل انتهى.

وفي يوم الأحد سادس محرم سنة ثمان وخمسين وثمانمائة ورد الخبر على السلطان من
حلب ب وفاة الأمير علي باي بن طرباي العجمي المؤيدي أتايك حلب فرسم السلطان
باستقرار الأمير أقبردي الساقى الظاهري نائب قلعة حلب أتايكًا بحلب عوضه.

واستقر في نيابة قلعة حلب الزيني قاسم بن جمعة القساسي وانعم بتقديمه قاسم
المذكور وكان أخذها قبل ذلك عن سودون القرمانى بمدة يسيرة على الأمير يشبك
البجاسي.

واستقر مكان يشبك البجاسي في دوادارية السلطان بدمشق خشكلدي الزيني عبد
الرحمن بن الكويز.

وفي يوم الاثنين حادي عشرين المحرم أيضًا وصل إلى القاهرة مقدمة الأمير قاني باي
الحمزاوي نائب حلب تشتمل على جماعة يسيرة من المماليك ومائة فرس لاغير.

قلت: وهذا كثير ممن اشيع عنه العصيان ثم أظهر الطاعة في الظاهر والله متولي
السرائر.

وقد أوضحنا أمر قاني باي هذا في غير هذا المحل مع السلطان الملك الأشرف إينال
بأوسع من هذا.

ثم في صفر رسم بسفر الأمير زين الدين الأستادار إلى القدس بطالًا فلما خرج إلى
ظاهر القاهرة قبض عليه واخذ إلى القلعة وصودر ثانيًا وعوقب ووقع له أمور آخرها أنه
ولي الأستادارية مسؤولًا في ذلك في يوم الثلاثاء رابع عشر صفر وعزل علي بن
الأهناسي.

وفي يوم الثلاثاء سادس عشرين شهر ربيع الأول من سنة ثمان وخمسين المذكورة ركب السلطان الملك الأشرف إينال من قلعة الجبل بغير قماش الخدمة ونزل إلى جهة قبة النصر خارج القاهرة ثم عاد من باب النصر وشق القاهرة وخرج من باب زويلة حتى طلع إلى القلعة وهذا أول ركوبه من يوم تسلطن.

وفي يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر تارت فتنة بسوق الخيل بين المماليك الظاهرية جقمق وبين المماليك الأشرفية برسباي بالدبابيس وأصبح كل من الطائفتين مستعدة للأخرى فلم يقع شيء ولله الحمد وقد ذكرنا كيفية الفتنة المذكورة في تاريخنا الحوادث.

وفي يوم الاثنين ثالث عشرينه عزل السلطان لؤلؤ الأشرفي عن مقدمة المماليك السلطانية وأعاد إليها الطواشي مرجًا محمودي بمال أخذه من مرجان.

وإلا فأيش هو الموجب لعزل الرئيس بالوضع إلا هذا المعنى!

ثم في يوم الأحد سادس جمادى الأولى عزل السلطان تمرّاز الأشرفي عن الدوادية الثانية لأمر اقتضى ذلك.

وقد أراح الله الناس منه لسوء خلقه وحدة مزاجه وقد ذكرنا من أحواله نبذة كبيرة في غير هذا المحل.

وفي يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى المذكورة وصل الأمير جليان الأمير آخور نائب الشام إلى القاهرة بعد أن احتفل أرباب الدولة به وطلع إلى ملاقاته كل أحد حتى المقام الشهابي أحمد.

وطلع إلى القلعة ودخل إلى السلطان بالقصر الأبلق المطل على الرميطة بالخرجة فلما رآه السلطان قام إليه واعتنقه بعد أن قبل جليان الأرض بين يديه ثم أجلسه السلطان على ميسرته ولده المقام الشهابي أحمد.

ولم يطل جلوسه حتى طلب السلطان خلعتة و عليه خلعة لإستمرار بناية دمشق على عادته في مكان جلوسه بالخرجة المذكورة ولم يقع ذلك لأحد من النواب لأن العادة أنه لا يخلع السلطان على من يخلع عليه إلا بالقصر الأبلق من داخل الخرجة.

ثم قام السلطان وخرج إلى القصر ولم يدع جليان المذكور أن يقف بل أمره أن يتوجه إلى حيث أنزله السلطان فنزل محمولًا لضعف به ولكبر سنه أيضًا ونزل غالب الأمراء الأكابر وأرباب الدولة بين يديه إلى أن أوصلوه إلى الميدان الكبير بطريق بولاق تجاه بركة الناصري ومد له مدة هائلة وترددت الناس إليه نهاره كله.

واستمر إلى يوم الأحد عشرينه فقدم إلى السلطان مقدمة وكانت مقدمة هائلة تشتمل على: عشرة مماليك ومائتي فرس منها اثنان بقماش ذهب والباقي على العادة وعدة حمالين منها ستون حملاً عليها قسي كل حمال خمسة أقواس ومنها مائة وعشرون حملاً بعلبيكياً على كل حمال خمسة أثواب النصف منها عال موصلين وستون حملاً عليها أبدان سنجاب وعشرة حمالين وشق وعدة حمالين عليها اثواب صوف ملونة وعدة حمالين عليها شقق حرير ملون واثواب مخمل تزيد على مائة حمال وطبق مغطى فيه ذهب مبلغ عشرة آلاف دينار على ما قيل.

فقبل السلطان ذلك وخلع على أرباب وظائف جليان المذكور خلعة سنية وفرق السلطان من الخيول على أمراء الألو فجميعهم على قدر مراتبهم.

وفي هذا الموم أيضًا رسم السلطان لنقيب الجيش أن يخرج الأمير تمرارز الإينالي الأشرفي الدوادر الثاني إلى القدس بطالًا فنزل وتوجه به من يومه إلى خانقاه سرباقوس.

قلت: السريع ما يفعل لإعداد في جاهل ما يفعل الجاهل في نفسه فإن تمرارز هذا كان في الدولة الظاهرية جقمق من جملة أمراء العشرات وكان ممن لا يؤبه إليه حتى مات الظاهر وثار مع الملك الأشرف إينال لما وثب على الملك المنصور عثمان مع من انضم إليه من المماليك الظاهرية والأشرفية وغيرهم.

فلما تسلطن الأشرف قرب تمرارز هذا وجعله دوادرًا ثانيًا وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه وصار له كلمة في الدولة وحرمة وافرة وهابته الناس لشراسته خلقه وحدة مزاجه وباشر الدوادارية أقبح مباشرة من الظلم والعسف والآخراق بالناس والبطش بحواشيه وأرباب وظائفه ومماليكه حتى تجاوز الحد وما كفاه ذلك حتى صار يخاطب السلطان بما يكره.

وبقي في كل قليل يغضب ويعزل نفسه ووقع ذلك غير مرة.

فلما زاد وخرج عن الحد عزله السلطان ولزم داره أيامًا ثم خرج إلى القدس بطالًا.

وفي يوم الاثنين حادي عشرين جمادى الأولى خلع السلطان على صاحب أمين الدين بن الهيصم باستقراره وزيرًا على عادته أولًا بعد عزل فرج بن النحال وكان أحق بها وأهلًا لها.

وفي يوم الاثنين هذا أيضًا خلع السلطان على مملوكه صهره الأمير بردبك الدوادر الثاني باستقراره في الدوادارية الثانية عوضًا عن تمرارز الأشرفي المقدم ذكره.

وفي يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الآخرة استقر القاضي تاج الدين عبد الله بن المقسي كاتب المماليك السلطانية عوضًا عن صاحب سعد الدين فرج بن النحال.

قلت: وتاج الدين هذا مستحق لأعظم الوظائف لما اشتمل عليه من حسن الخلق والخلق.

وفي يوم الجمعة ثاني عشرين شهر رجب سافر الأمير بردبك الدوادر الثاني إلى القدس الشريف وصحبته كسوة مقام سيدنا الخليل إبراهيم عليه السلام التي صنعها السلطان الملك الأشرف هذا.

وخرج بردبك المذكور من القاهرة بتجمل زائد ومعه جماعة من الأعيان مثل القاضي شرف الدين الأنصاري ناظر الكسوة ووكيل بيت المال والسيفي شاهين الساقى وغيرهما.

وفي يوم الخميس سادس شعبان وصل إلى القاهرة الأمير برشباي الإينالي المؤيدي أحد أمراء الطبلخانات المتوجه قبل تاريخه في الرسالة إلى ملك الروم السلطان محمد بن عثمان وعليه خلعة ابن عثمان المذكور وهو لابس لبس الأورام وخلعهم على العادة.

وفيه رسم السلطان بتعويق جوامك أولاد الناس والمرتبين من الضعفاء وإلتيام على ديوان السلطان.

وعرضهم السلطان في يوم الأحد ثالث عشرينه بالحوش السلطاني وقطع جوامك جماعة كبيرة.

وبينما هو في ذلك وصل الأمير برديك من القدس وحذر السلطان من الدعاء عليه ونهاه عن هذه الفعلة فأنفعل له وترك كل واحد على حاله ونودي بذلك بشوارع القاهرة فعد من محاسن برديك المذكور.

وفي يوم السبت حادي عشر ذي القعدة اختفى الوزير أمين الدين بن الهيصم لعجز متحصل الدولة عن القيام بالكلف السلطانية فتغير السلطان بسبب ذلك على جماعة المباشرين.

وقبض على الأمير زين الدين الأستاذار في يوم الاثنين وحبسه بالقلعة وخلع على الأمير ناصرالدين محمد بن أبي فرج نقيب الجيش باستقراره في الأستاذارية عوضًا عن زين الدين على كره منه في الوظيفة مضافًا إلى نقابة الجيش.

وخلع على سعد الدين فرج بن النحال باستقراره وزيرًا على عادته وهذه ولاية فرج الثانية للوزر وأنعم عليه بكتابة المماليك وعزل القاضي تاج الدين المقسي.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشر ذي القعدة ضرب السلطان زين الدين الأستاذار وألزمه بجملة كبيرة من المال فأخذ زين الدين في بيع قماش بدنه وأثاث بيته.

ثم أخذه صاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص وتسلمه من السلطان ونزل به إلى بيته فدام عنده أيامًا.

ثم رسم له بالتوجه إلى داره وأنه يسافر إلى القدس فتجهز زين الدين وخرج إلى القدس في يوم الجمعة ثاني ذي الحجة.

ثم في يوم الاثنين خامس ذي الحجة خلع السلطان على شخص من الإقباط يعرف بشمس الدين نصر الله بن النجار واستقر به ناظر الدولة بعد شغورها مدة طويلة وصار رفيقًا للوزير فرج.

وفي يوم الاثنين سادس عشرين ذي الحجة نزلت المماليك الجلبان الأشرفية من الأطباق وهجمت دار الأستاذار الأمير ناصر الدين محمد بن أبي الفرج ونهبوا جميع ما كان له في داره من غير أمر أوجب ذلك فلم يسع الأستاذار إلا الاستعفاء فأعفي بعد أمور.

وخلع السلطان على قاسم الكاشف بالغربية وغيرها بالأستاذارية عوضًا عن ابن أبي الفرج المذكور.

قلت: وهذا أول ظهور أمر مماليك الأشرف الجلبان وما سيأتي فأعظم.

وفي يوم الأحد ثاني محرم سنة تسع وخمسين وثمانمائة اشيع بين الناس وقوع فتنة وكثر كلام الناس في هذا المعنى حتى بلغ السلطان ذلك فلم يلتفت السلطان لقول من قال.

وفي يوم الأربعاء رابع عشرين صفر من سنة تسع وخمسين المذكورة وصل مملوك الأمير جانبك التاجي للمؤيدي نائب غزة يخبر بموت الأمير جليان نائب الشام ثم وصل بعد ذلك سيف جليان المذكور على يد يشبك المؤيدي الحاجب الثاني.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين صفر رسم السلطان للأمير قاني باي الحمزاوي نائب حلب بأن يستقر في نيابة الشام عوضًا عن جليان بحكم وفاته وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير يونس العلاني الناصري المعزول قبل تاريخه عن نيابة الإسكندرية.

وخلع السلطان في اليوم المذكور على الأمير جانم الأشرفي باستقراره في نيابة حلب عوضًا عن قاني باي الحمزاوي على كره من جانم المذكور في ذلك.

واستقر مسفر جانم الأمير بردبك الدوادر الثاني وصهر السلطان مع توجه بردبك أيضًا إلى تركة الأمير جليان بدمشق.

وأنعم السلطان بإقطاع جانم المذكور على الأمير يونس العلاني المقدم ذكره وهو إمرة مائة وتقدمة ألف.

وأنعم بإقطاع يونس المذكور على الأمير بردبك الدوادر وصار بردبك أمير طبلخاناه.

وأنعم بإقطاع بردبك المذكور على أرغون شاه وتنبك الأشرفيين كل واحد منهما أمير خمسة.

وفي يوم الاثنين تاسع عشرين صفر من سنة تسع وخمسين وثمانمائة المذكورة استقر شمس الدين نصر الله بن النجار ناظر الدولة وزيرًا عوضًا عن سعد الدين فرج بن النحال بحكم عزله فلم تر عيني فيما رأيت ممن ليس خلع الوزارة أقبح زبًا منه حتى إنه أذهب رونق الخلعة مع حسن زي خلعة الوزارة وأبهة صفتها.

ولو من الله سبحانه وتعالى بأن يبطل اسم الوزير من الديار المصرية في هذا الزمان كما أبطل أشياء كثيرة منها لكان ذلك أجود وأجمل بالدولة ويصير الذي يلي هذه الوظيفة يسمى ناظر الدولة لأن هذا الاسم عظيم وقد سمي به جماعة كبيرة من أعيان الدنيا قديمًا وحديثًا في سائر الممالك والأقطار مثل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وغيره إلى صاحب إسماعيل بن عباد وهلم جرا إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم ثم بني حناء وغيرهم من العلماء والأعيان إلى أن تنازلت ملوك مصر في أواخر القرن الثامن حتى وليها في أيامهم أوباش الناس وأسافل الكتبة لإقباط وتغير رسومها وذهب بهم أبهة هذه الوظيفة الجليلة التي لم يكن في الإسلام بعد الخلافة أجل منها ولا أعظم وصارت بهؤلاء الأصاغر في الوجود كلا شيء.

وليت مع ذلك كان يلي هذه الوظيفة من هؤلاء إلسافل من يقوم بما هو بصدده بل يباشر ذلك بعجز وضعف وظلم وعسف مع ما يمدده السلطان بالأموال من الخزانة الشريفة فليت شعري لم لا كان ذلك مع من هو أهل للوزارة وغيرها فلا قوة إلا بالله.

وباشر ابن النجار الوزر أشر مباشرة وأقبح طريقة ولم تطل أيامه وعجز وبلغ السلطان عجزه.

فلما كان يوم الخميس أول شهر ربيع الآخر طلب السلطان الوزراء الثلاثة ليختار منهم من يوليه وهم: ابن النجار الذي عجز عن القيام بالكلف السلطانية والصاحب أمين الدين بن الهيصم وسعد الدين فرج بن النحال فوقع فيه واقعة طريفة: وهي أن السلطان لما أصبح وجلس على الدكة من الحوش استدعى أولا ابن النجار فقبل له: هرب واختفى فطلب أمين الدين بن الهيصم فقبل له: مات في هذه الليلة وإلى الآن لم يدفن فطلب فرج بن النحال فحضر وهو الذي فضل من الثلاثة فكلمه السلطان أن يستقر وزيرًا على عادته فامتنع واعتذر بقله متحصل الدولة وفي ظنه أن السلطان قد احتاج إليه بموت ابن

الهيضم وتسحب ابن النجار وسرع يكرر قوله بأن غالب بلاد الوزر خرب وأن لحم المماليك السلطانية المرتب لهم في كل يوم ثمانية عشر ألف رطل خلا تفرقة الصرر التي تعطى لبعض المماليك السلطانية وغيرهم عوضًا عن مرتب اللحم.

فلما زاد تمنعه أمر به السلطان فحط إلى الأرض وتناولته رؤوس النوب بالضرب المبرح إلى أن كاد يهلك ثم أقيم ورسم عليه بالقلعة عند الطواشي فيروز الزمام والخازندار إلى أن عملت مصالحة وأعيد للوزر.

وفي يوم الخميس تاسع عشرين شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على الأمير قائم من صفر خجا المؤيدي المعروف بالتاجر بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية بعد موت خيربك إلاجرود المؤيدي وأضيف إقطاع المذكور وهو إمرة طبلخاناه إلى الدولة.

ثم في يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة كانت وقعة المماليك الظاهرية الجقمقية مع الملك الأشرف إينال.

وسبب هذه الفتنة ثورة المماليك الأجلاب أولًا وأفعالهم القبيحة بالناس ثم عقب ذلك أن السلطان كان عين تجريدة إلى البحيرة نحوًا من خمسمائة مملوك وعليهم من أمراء الألوف الأمير خشقدم المؤيدي أمير سلاح والأمير قرقماس رأس نوبة النوب وعدة من أمراء الطبلخانات والعشرات ورسم لهم السلطان بالسفر في يوم الاثنين.

هذا ولم يفرق السلطان على المماليك المكتوبة للسفر الجمال على العادة فعظم ذلك عليهم وامتنعوا إلى أن أخذوا الجمال.

وسافر الأمير خشقدم في صبيحة يوم الاثنين المذكور وتبعه الأمير قرقماس في عصر نهاره وأقاما ببر منبابة تجاه بولاق فلم يتبعهم أحد من المماليك المعينة معم بل وقف غالبهم بسوق الخيل تحت القلعة ينتظرون تفرقة الجمال عليهم إلى أن انفض الموكب السلطاني ونزلت الأمراء إلى جهة بيوتهم.

فلما صار الأمير يونس الدوادار بوسط الرميلة احتاطت به المماليك الأجلاب وعليه الكلفتة وقماش الخدمة وداروا حوله وهم في كثرة وأرادوا الكلام معه بسبب زيادة جوامكهم وأنه يكلم السلطان فتبين لمماليك يونس الغدر بأستاذهم فتحلقوا عليه ومنعوه من الوصول إليه فصار يونس في حلقة من مماليكه ومماليكه في حلقة كبيرة من المماليك الأجلاب.

وطال الأمر بينهم ويونس لا يستطيع الخروج.

وتحقق الغدر فأمر مماليكه بإشهار سيوفهم ففعلت ذلك ودافعت عنه وجرح من المماليك الأجلاب جماعة وقطع أصابع بعضهم وشق بطن آخر على ما قيل.

فعند ذلك انفرجت ليونس فرجة خرج منها غارة إلى جهة داره ونزل بها ورمى عنه قماش الموكب ولبس قماش الركوب وطلع من وقته إلى القلعة من أعلى الكبش ولم يشق الرميلة وأعلم السلطان بخبره.

فقامت لذلك قيامة المماليك الأجلاب وقالوا: " نحن ضربناهم بالدبابيس فضربونا بالسيوف " وثاروا على أستاذهم ثورة واحدة وساعدهم جماعة من المماليك القرانيص وغيرهم لما في نفوسهم من السلطان لعدم تفرقة الجمال وغيرها ووقفوا بسوق الخيل وأفحشوا في الكلام في حق السلطان وهددوه إن لم يسلم لهم الأمير يونس والسلطان

لا يتكلم إلى أن حركه بعضهم فأرسل إليهم بالأمير جانبك الناصري المرتد والطواشي مرجان مقدم المماليك السلطانية فسبلاهم عن غرضهم فقالوا بلسان واحد: " نريد غريمنا الأمير يونس " وخبثوا في القول.

فعاد جانبك بالجواب فأرسل السلطان إليهم ثانيًا بنوكار الزردكاش فأعادوا له القول الأول.

ثم ساقوا غارة إلى بيت يونس الدوادار فمنعوهم مماليكه من الدخول إلى دار يونس فجاؤوا بنار ليحرقوا الباب فمنعوهم من ذلك أيضًا فعادوا إلى سوق الخيل فوافوا المنادي ينادي من قبل السلطان بالأمان فمالوا على المنادي بالدبابيس فسكت من وقته وهرب إلى حال سبيله.

هذا وقد طلعت جميع أمراء الألوف إلى عند السلطان والسلطان على حالة السكوت غير أنه طلب بعض مماليكه الأجلاب الأعيان وكلمه بأنه يعطي من جرح من الأجلاب ما يكفيه وأنه يعطي للذي قطعت أصابعه إقطاعًا ومائة دينار فلم يقع الصلح وانفض الأمر على غير طائل لشدة حر النهار.

ولما تفرقت المماليك نزلت الأمراء إلى دورهم ما خلا الأمير يونس الدوادار فإنه بات في القلعة.

فلما أصبح يوم الثلاثاء أول شهر رجب ضرب السلطان الكرة مع الأمراء بالحوش السلطاني من القلعة.

وفرغ من ذلك وأراد كل أمير أن ينزل إلى داره فبلغهم أن المماليك الأجلاب وقوف على حالهم الأول بسوق الخيل بغير سلاح كما كانوا في أمسه فانشى عزمهم عن النزول وعادوا إلى القلعة.

فلما تضحى النهار أرسل إليهم السلطان بأربعة أمراء وهم: الأمير يونس العلاني أحد مقدمي الألوف وسودون الإينالي المؤيدي قراقاش رأس نوبة ثان ويليبي الإينالي المؤيدي أحد أمراء الطبلخانات ورأس نوبة وبرديك البجمقدار أحد الطبلخانات أيضًا ورأس نوبة فنزلوا إليهم من القلعة فما كان إلا أن وقع بصر المماليك الأجلاب على هؤلاء الأمراء احتاطوا بهم وأخذوهم بعد كلام كثير ودخلوا بهم إلى بيت الأمير خشقدم أمير سلاح تجاه باب السلسلة ورسوموا عليهم بعضهم.

كل ذلك والمماليك الظاهرية الجقمقية وقوف على بعد لا يختلفون بهم لينظروا ما يصير من أمرهم.

فلما وقع ما ذكرناه تحققوا خروجهم على أستاذهم وثار ما عندهم من الكمائن التي كانت كامنة في صدورهم من الملك الأشرف إينال لما فعل بابن أستاذهم الملك المنصور عثمان وحبس خدائشيتهم وتقريب أعدائهم الأشرفية مماليك الأشرف برسباي فانتهزوا الفرصة وانضافوا إلى المماليك الأجلاب وعرفوهم أن الأمر لا يتم إلا بحضرة الخليفة ولبس السلاح.

فساق قاني باي المشطوب أحد المماليك الظاهرية من وقته إلى بيت الخليفة القائم بأمر الله حمزة وكان في الخليفة المذكور خفة وطيش فمال إليهم ظنا أنه يكون مع هؤلاء وينتصر أحدهم ويتسلطن فيستفحل أمره ثانيًا أعظم من الأول.

وسببه أنه كان لما ولاه الظاهر جقمق الخلافة بعد أخيه المستكفي بالله سليمان صار تحت أوامر الظاهر لأنه هو الذي استخاره وولاه الخلافة.

فلما ثار إينال على المنصور عثمان وطلبه وجاء إلى عنده قوي أمر إينال بمجيء الخليفة عنده.

فلما تسلطن عرف إينال له ذلك ورفع محله أضعاف ما كان أولاً وزاده عدة إقطاعات وصارت له حرمة وافرة في الدولة إلى الغاية.

فلما كانت هذه الفتنة ظن في نفسه أنه يوافقهم فإذا تسلطن أحد منهم رفع محله زيادة على ما فعل إينال وبصير الأمر كله بيده وما يدري بأن لسان الحال يقول له: الرجز خير الأمور الوسط حب التناهي غلط ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ولما حضر الخليفة عندهم تكامل لبسهم السلاح وانضافت إليهم خلائق من المماليك السيفية وأوباش الأشرافية وغيرهم من الجياع الحرافيش.

فلما رأَت الأجلاب أمر الظاهرية حسبوا العواقب وخافوا زوال ملك أستاذهم فتخلوا عن الظاهرية قليلاً بقليل وتوجه كل واحد إلى حال سبيله فقامت الظاهرية بالأمر وحدهم وما عسى يكون قيامهم من غير مساعدة وقد تخلى عنهم جماعة من أعيانهم وخافوا عاقبة هذه الفتنة!

هذا وقد تبعأ السلطان لحربهم ونزل من القلعة إلى باب السلسلة من الإسطبل السلطاني.

وتناوش القوم بالسهام وأرادوا المصاففة فتكاثر عليهم السلطانية وصدموهم صدمة واحدة بددوا شملهم بل كانوا تشتتوا قبل الصدمة أيضاً.

وهجموا السلطانية في الحال إلى بيت الأمير خشقدم أمير سلاح وأخذوا الأمراء المرسم عليهم وأخذوا فيمن أخذوا الخليفة معهم وطلعوا بهم إلى السلطان.

فلما رأى السلطان الخليفة وبخه بالكلام الخشن وأمر بحبسه بالبحرة من قلعة الجبل وخلعه من الخلافة بأخيه يوسف في يوم الخميس ثالث شهر رجب المذكور.

ثم سفر الخليفة القائم بأمر الله المذكور في يوم الاثنين سابع رجب إلى سجن الإسكندرية فسجن بها مدة سنين ثم أطلق من السجن وسكن بالإسكندرية إلى أن مات بها في أواخر سنة اثنتين وستين وثمانمائة.

ولما بلغ الأمير خشقدم أمر هذه الفتنة عاد من برمنباية وطلع إلى القلعة ومعه رفيقه قرقماس رأس نوبة النوب في يوم الأربعاء وحضرا الموكب في باكر يوم الخميس ثم عادا إلى برمنباية بمخيمهما.

ثم فرق السلطان الجمال على المماليك السلطانية وسافروا صحبة الأميرين المذكورين إلى ما عينوا إليه.

وتفرقت من يوم ذاك أجلاب السلطان فرقتين: فرقة وهم الذين اشتراهم من كتابية الظاهر جقمق وابنه وفرقة اشتراهم هو في أيام سلطنته.

وقويت الفرقة الذين اشتراهم على الفرقة الظاهرية ومنعواهم من الطلوع إلى القلعة والسكنى بالأطباق وقالوا ما معناه: " إنكم سودتم وجوهنا عند أستاذنا ".

وأظن ذلك كله زورًا وبهتانًا مع أن الأشرف كان هو لا يقطع فيهم قربته بهذا ولا بغيره وهو مستمر على محبتهم كما كان أولًا فلعمري إذا كان هذا فعلهم به وهو راض فما عساه يرجعهم عن ظلم غيره! فهذا مستحيل.

ولما انتهت الواقعة وخلع السلطان الخليفة أمسك جماعة من المماليك الظاهرية وحبسهم بالرج من قلعة الجبل ونفى بعضهم واختفى بعضهم وأخرج قوزي الساقى الظاهري وكان تأمر عشرة ومعه عشرين مملوكًا من المماليك الظاهرية إلى البلاد الشامية مع أن قوزي المذكور لا في العير ولا في النفير.

وسافروا في يوم الجمعة تاسع شهر شعبان وسكن الأمر كأنه لم يكن لحسن سياسة السلطان في تسكين أخلاط الفتن انتهى.

وفي يوم الأربعاء حادي عشرين شعبان ورد الخبر على السلطان بمسك الأمير يشبك النوروزي نائب طرابلس بأمر السلطان لأن السلطان كان قبل تاريخه أرسل إينال الجلباني القجقي الخاصكي إلى طرابلس وعلى يده ملطفات في الباطن بمسك يشبك المذكور وحبسه بالمرقب.

وتولى عوضه نيابة طرابلس الأمير حاج إينال يشبكي نائب حماة وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير يشبك الفقيه المؤيدي واستقر في نيابة حماة عوضه الأمير إياس المحمدي الناصري نائب صفد وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير قانصوه المحمدي الأشرفي واستقر في نيابة صفد عوضًا عن إياس الأمير جانبك التاجي المؤيدي نائب غزة وحمل إليه التقليد تمرباي من حمزة المعروف بططر الناصري واستقر في نيابة غزة عوضًا عن جانبك التاجي خيربك النوروزي أحد أمراء صفد ومسفره سنقر قرق شبق الأشرفي الخاصكي.

ثم رسم السلطان أيضًا بنقل الأمير آقبردي الساقى الظاهري من أتابكية حلب إلى نيابة ملطية بعد عزل قاني باي الناصري واستقر في أتابكية حلب عوضًا عن آقبردي سودون من سيدي بك الناصري القرماني أتابك طرابلس وصار مغلباي البجاسي أحد أمراء طرابلس وحاجب حجابها أتابك طرابلس عوضًا عن سودون القرماني المذكور.

وولي حجوبية طرابلس يشبك دوادار قاني باي البهلوان وهو رجل من الأوباش لم تسبق له رئاسة بالبذل انتقل إليها من نيابة المرقب.

ثم أخرج السلطان سنطباي الظاهري رأس نوبة الجمدارية كان منفيًا إلى طرابلس في أوائل شهر رمضان.

ثم في يوم الأحد عاشر شهر رمضان المذكور ورد الخبر على السلطان من مكة بموت الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة فأقر السلطان ولده الشريف محمدًا في إمرة مكة عوضه بسفارة الأمير جانبك الظاهري نائب جدة بمكاتبته.

ثم وصل نائب جدة بعد ذلك إلى القاهرة وتم أمير ولاية محمد بقدمه بخمسين ألف دينار يحمل منها عاجلاً عشرين ألف دينار وما بقي أجلاً على نفقات متفرقة هكذا حكى لي الأمير جانبك من لفظه.

هذا غيرما يدفعه الشريف محمد المذكور لأرباب الدولة بالديار المصرية ولولد السلطان وزوجته فإن زوجة السلطان وولده صار لهما نصيب وافر مع السلطان في كل هدية ورشوة.

ثم رسم السلطان أيضًا بعزل أبي السعادات قاضي مكة وولاية الإمام محب الدين الطبري إمام مقام إبراهيم عليه السلام بغير سعي.

ورسم أيضًا باستقرار الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن ظهيرة في نظر حرم مكة بعد عزل الشيخ طوغان الأشرفي عنها وخرج إليهما الأمر صحبة الحاج في الموسم.

وكان أمير حاج المحمل في هذه السنة الأمير بردك البجمقدار الظاهري أحد أمراء الطيلخانات ورأس نوبة وأمير الركب الأول الناصري محمد ابن الأمير جرباش المحمدي الأمير آخور الكبير وصحبه والدته خوند شقراء بنت الناصر فرج بن برقوق.

وسافر أيضًا في هذه السنة إلى الحجاز الأمير بيبرس الأشرفي خال العزيز يوسف باشًا للمماليك السلطانية المجاورين بمكة المشرفة.

وفي أوائل ذي القعدة رسم السلطان بهدم تربته التي كان أنشأها أيام إمرته وأعادتها مدرسة وخلع على صاحب جمال الدين يوسف ناظر الجيش والخاص بالنظر على عمارتها.

وفي عشر ذي الحجة وهو يوم عيد الإضحى صلى السلطان صلاة العيد بالجامع الناصري بقلعة الجبل ثم خرج من الجامع بسرعة وذهب إلى الحوش السلطاني ونحر ضحاياه به.

وكان العادة أن السلطان إذا خرج من صلاة العيد جلس بإليوان ومعه الأمراء وذبح له ثم يتوجه من إليوان إلى باب الستارة وينحر به أيضًا ويفرق ما يذبحه ثم بعد ذلك يتوجه إلى الحوش ويذبح به فلم يفعل السلطان شيئًا من ذلك خوفًا من مماليكه الأجلاب فإنهم رجموه في العام الماضي وأخرقوا به وبأمرائه غاية الأخرق ورجموه وهجموا عليه حيث كان ينحر الضحايا حتى إنه قام من مقامه فزعًا بعد أن أصاب جماعة من الأعيان الرجم.

وفرغت هذه السنة وقد واستهلت سنة ستين وثمانمائة.

فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم نزلت المماليك الأجلاب من الأطباق وقصدوا بيت الوزير فرج بن النحال لينهبوا ما فيه وكأنه أحس بذلك وشال ما كان في بيته فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه ما يأخذونه فمالوا على من هو ساكن بجوار بيت فرج المذكور فنهبهم بحيث إنهم أخذوا غالب متاع الناس ولا قوة إلا بالله.

وفي يوم الأربعاء حادي عشرين المحرم ورد الخبر على السلطان بموت الأمير آقبردي الساقى نائب ملطية بها فرسم السلطان لجانبك الحكمي المعزول عن نيابة ملطية قبل ذلك بنيابة ملطية على عادته أولًا ورسم بأن يستقر في نيابة طرسوس عوضًا عن جانبك الحكمي أقباي السيفي جار قطلو وكان أقباي أيضًا ولي نيابة طرسوس قبل ذلك.

وفي يوم

▲ الأربعاء ثالث عشر صفر من سنة ستين المذكورة

أحرق المماليك الأجلاب بعظيم الدولة الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص بغير سبب أوجب ذلك وشق ذلك على كل أحد ولم تنتطح فى ذلك شاتان.

وفي يوم السبت ثامن عشر جمادى الأولى من سنة ستين أيضًا وصل قاصد السلطان محمد بن مراد بك بن عثمان متملك بلاد الروم وهو جمال الدين عبد الله القابوني وطلع إلى السلطان في يوم الثلاثاء وعلى يده كتاب مرسله يتضمن البشارة بفتح قسطنطينية والكتاب نظم ونثر وقفت عليه وعلى جوابه من السلطان من إنشاء القاضي معين الدين عبد اللطيف ابن العجمي نائب كاتب السر وأثبت الكتاب الوارد والجواب كليهما في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " إذ هو محل ضبط هذه الأشياء.

وفي يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة من السنة أمسك السلطان الأمير زين الدين الأستاذار ووضع في عنقه الجنزير وحطه إلى الأرض ليضربه ثم رفع من على الأرض بغير ضرب وحبس عند الطواشي فيروز الزمام والخازندار واستقر عوضه في الأستاذارية سعد الدين فرج بن النحال الوزير واستقر علي بن الأهناسي البرددار وزيرًا عوضًا عن فرج المذكور.

فلما سمعت المماليك الأجلاب بهذا العزل والولاية نزلوا من وقتهم غارة إلى بيت الأستاذار لينهبوه فمنعهم ممالك زين الدين وقتلوهم وأغلقوا الدروب.

فلما عجزوا عن نهب بيت زين الدين نهبوا بيوت الناس من عند بيت زين الدين إلى قنطرة أمير حسين فأخذوا ما لا يدخل تحت حصر كثرة.

واستمروا في النهب من باكر النهار إلى قريب العصر وفعلوا بالمسلمين أفعالًا لا تفعلها الكفرة ولا الخوارج مبالغة وهذا أعظم مما كان وقع منهم من نهب جوار بيت الوزير فرج فكانت هذه الحادثة من أقبح الحوادث الشنيعة التي لم نسمع بأقبح منها في سالف الإعمار.

ومن ثم دخل في قلوب الناس من المماليك الأجلاب من الرجيف والرعب أمر لا مزيد عليه لعلمهم أنه مهما فعلوا جاز لهم وأن السلطان لا يقوم بناصر من قهر منهم.

ووقعت حادثة عجيبة مضحكة وهي أنه لما عظم رجيف الناس والعامه من هذه المماليك الأجلاب اتفق أن جهاز بنت الناصري محمد بن الثلاث الأمير أخور خرج من بيت أبيها إلى بيت زوجها الأمير جانبك قرا الأشرفي وحمل ذلك على رؤوس الحمالين والبالغ كما هي عادة المصريين وسارت الحمالون بالمتاع فوقع من على رأس بعضهم قطعة نحاس فجفل من ذلك فرس بعض الأجناد فحنق الجندي من فرسه وضربه ثم ساقه فلم تشك العامة أن المماليك نزلوا إلى نهب حوانيت القاهرة فأغلقت القاهرة في الحال وماجت الناس وتعطلت المعايش وحصل على الرعية من الأنزعاج أمر كبير من غير موجب انتهى.

وفي هذه الأيام كان الفراغ من مدرسة السلطان التي هدمها وبنها بالصحراء وقرىء بها ختمة شريفة وحضرت الأعيان من الأمراء وغيرهم ما خلا السلطان.

ثم في يوم الاثنين ثالث شهر رجب من سنة ستين المذكورة أفرج السلطان عن زين الدين يحيى الأستاذار ورسم له بأن ينزل إلى بيت الصاحب جمال الدين ليحمل ما تقرر عليه إلى الخزانة الشريفة وهو مبلغ عشرة آلاف دينار ثم ينفى بعد تغليقه المال إلى حيث يأمر به السلطان.

ولما غلق ما ألزم به من المال سافر من يوم الاثنين أول شعبان إلى المدينة الشريفة من على طريق الطور.

ثم سافر قاصد ابن عثمان إلى جهة مرسله في يوم الجمعة خامس شعبان وتبعه قاصد السلطان إلى ابن عثمان المذكور وهو السيفي قاني باي اليوسفي المهمندار.

وفيه ورد الخبر على السلطان بأن السلطان إبراهيم بن قرمان صاحب لارنדה وغيرها من بلاد الروم طرق معاملة السلطان واستولى على مدينة طرسوس وأذنه وكولك فغضب السلطان من ذلك وأمر بخروج تجريدة من الديار المصرية لقتال ابن قرمان المذكور وعين جماعة من الأمراء والمماليك يأتي ذكرهم عند سفرهم من القاهرة.

وفي يوم الأربعاء ثالث عشرين شهر رمضان نودي بالقاهرة من قبل السلطان بعدم تعرض المماليك الأجلاب إلى الناس والباعة والتجار فكانت هذه المناداة كضرب رباب أو كطينين ذباب.

واستمرروا على ما هم عليه من أخذ أموال الناس والظلم والعنف حتى غلت الأسعار في سائر الأشياء من المأكول والملبوس والغلال والعلوفات وصاروا يخرجون إلى ظواهر القاهرة وبأخنون ما يجدون من الشعير والتبن والدريس بأبخس الإثمان إن أعطوا ثمناً وإن شاؤوا أخذوه بلا ثمن وكل من وقع له ذلك معهم لم يعد ثانياً إلى بيع ذلك الصنف إلا أن يكون محتاجاً لبيعه فعزت لذلك هذه الإصناف بحيث إنها صارت أقل وجوداً من أيام الغلاء فصار هذا هو الغلاء بعينه وزيادة على الغلاء عدم الشيء.

ثم شرعوا في نهب حواصل البطيخ الصيفي وغيره.

ثم تزايد أمرهم وشرعوا يفعلون ذلك مع تجار القماش وغيره فغلت جميع الأسعار مع كثرتها عند أربابها فضر ذلك بحال الناس قاطبة رئيسها وخسيسها وهذا أول أمرهم وما سيأتي فأهول.

وفي يوم الاثنين الحاج وهو الأمير قانم من صفر خجا أحد مقدمي الألوف وسار إلى البركة دفعة واحدة فكان عادة أمراء المحمل النزول بالمحمل إلى الريدانية فبطل ذلك وصاروا يتوجهون إلى البركة في مسير واحد وأمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير أحد الأجناد.

وفي هذه الأيام كانت عافية صاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص من مرض أشرف فيه على الموت وطلع إلى القلعة وخلع السلطان عليه ونزل إلى داره في يوم مشهود لم ير مثله إلا نادراً.

وفي يوم الخميس سابع عشرين ذي القعدة استقر الأمير سودون النوروزي السلاح دار أحد أمراء الطبليخانات في نيابة قلعة الجبل بعد موت قاني باي لإعمش الناصري وأنعم السلطان بإقطاع قاني باي المذكور على ولده الصغير المقام الناصري محمد وإقطاع إمرة عشرة.

واستهلت سنة إحدى وستين وثمانمائة يوم الاثنين الموافق لثالث كيهك أحد شهور القبط.

فلما كان يوم السبت سادس المحرم ضرب السلطان والي القاهرة خيربك القصري وعزله عن ولاية القاهرة وحبسه بالبرج على حمل عشرة آلاف دينار فدام في البرج إلى أن أطلق في يوم عاشره واستقر عوضه في ولاية القاهرة علي بن إسكندر واستقر في

نقابة الجيش الأمير ناصر الدين بن أبي الفرج على عادته أولاً عوضاً عن علي بن إسكندر المذكور.

وفي يوم السبت هذا نودي أيضاً على الذهب بأن يكون صرف الدينار الذي هو وزن درهم وقيراطين ثلاثمائة درهم نقرة وكان بلغ صرفه قبل ذلك إلى ثلاثمائة وسبعين نقرة وأضر ذلك بحال الناس زيادة على ما هم فيه من أمر المماليك الأجلاب.

وفي يوم الاثنين خامس عشر المحرم المذكور ورد الخبر على السلطان بموت يشبك حاجب حجاب طرابلس فرسم باستقرار شاد بك الصارمي عوضه في حجوبية الحجاب والمتوفى والمولى كلاهما ولي بالبدل.

وفي يوم الخميس ثالث صفر ثارت المماليك الأجلاب على السلطان وأفحشوا في أمره إلى الغاية.

وخبر ذلك أن السلطان لما كان في يوم الخميس المذكور وهو جالس بقاعة الدهيشة وكانت الخدمة بطالة في هذا اليوم وذلك قبل أن يصلي السلطان الصبح وإذا بصياح المماليك فأرسل السلطان يسأل عن الخبر ف قيل له إن المماليك أمسكوا نوكار الزردكاش وهددوه بالضرب وطلبوا منه القرقات التي وعدهم السلطان بها من الزردخاناه السلطانية فحلف لهم أنه يدفع لهم ذلك في أول الشهر فتركوه ومضوا فلقوا الشيخ علياً الخراساني الطويل محتسب القاهرة وهو داخل إلى السلطان فاستقبلوه بالضرب المبرح المتلف وأخذوا عمامته من على رأسه فرمى بنفسه إلى باب الحرم السلطاني حتى نجا.

وأما السلطان لما فرغ من صلاة الصبح نزل وقعد على الدكة بالحوش على العادة ثم قام بعد فراغ الخدمة وعاد إلى الدهيشة وإذا بالصياح قد قوي ثانياً فعلم أن ذلك صياح الأجلاب فأرسل إليهم الأمير يونس الدوادار فسألهم يونس المذكور عن سبب هذه الحركة فقالوا: " نريد نقبض جوامكنا كل واحد سبعة أشرفية ذهباً في كل شهر "

وكانت جامكية الواحد منهم ألفين قبل تاريخه يأخذها ذهباً وفضة بسعر الذهب تلك الأيام فلما غلا سعر الذهب تحيلوا على زيادة جوامكهم بهذه المندوحة ثم قالوا: " ونريد أن تكون تفرقة الجامكية في ثلاثة أيام أي على ثلاث نفقات كما كانت قديماً ونريد أيضاً أن يكون عليقنا السلطاني الذي تأخذه من الشونة مغربلاً ويكون مرتبنا من اللحم سميئاً " فعاد الأمير يونس إلى السلطان بهذا الجواب ولم يتفوه به إلى السلطان وتربص عن رد الجواب على السلطان حتى يفرغ السلطان من أكل السمات فأبطأ الخبر لذلك عن الأجلاب فندبوا مرجاً مقدم المماليك للدخول بتلك المقالة إلى السلطان فدخل مرجان أيضاً ولم يخبر السلطان بشيء حتى فرغ من أكل السمات فعند ذلك عرفه الأمير يونس بما طلبوه فقال السلطان: " لا سبيل إلى ذلك " وأرسل إليهم مرجاً المقدم يعرفهم مقالة السلطان فعاد مرجان ثانياً إلى السلطان بالكلام الأول.

وصار يتردد مرجان بين السلطان والمماليك الأجلاب نحو سبعة مرار وهم مصممون على مقاتلهم والسلطان ممتنع من ذلك.

وامتنع الناس من الدخول والخروج إلى السلطان خوفاً من المماليك لما فعلوه مع العجمي المحتسب.

فلما طال الأمر على السلطان خرج هو إليهم بنفسه ومعه جماعة من الأمراء والمباشرين وتوجه إلى باب القلة حيث يجلس مقدم المماليك والخدام فوجد المماليك

قد اجتمعوا عند رحبة باب طبقة المقدم فلما علموا بمجيء السلطان أخذوا في الرجم فجلس السلطان بباب القلة مقدار نصف درجة ثم استدرك أمره لما رأى شدة الرجم وقصد العود إلى الدهيشة ورسم لمن معه من الأمراء أن ينزلوا إلى دورهم فامتنعوا إلا أن يوصلوه إلى باب الحریم فعاد عليهم الأمر فنزلوا من وقتهم وبقي السلطان في خواصه وجماعة المباشرين وولده الكبير المقام الشهابي أحمد.

فلما سار السلطان إلى نحو باب الستارة ووصل إلى باب الجامع أخذ الرجم المفرط من كل جهة فأسرع في مشيته والرجم يأتيه من كل جانب وسقط الخاصكي الذي كان حامل ترس السلطان من الرجم فأخذ الترس خاصكي آخر فضرب الآخر فوق وقع وقام وشج دوادار ابن السلطان في وجهه وجماعة كثيرة وسقطت فرده نعل السلطان من رجليه فلم يلتفت إليها لأنه محمول من تحت إبطيه مع سرعة مشيهم إلى أن وصل إلى باب الستارة وجلس على الباب قليلاً فقصدوه أيضاً بالرجم فقام ودخل من باب الحریم وتوجه إلى الدهيشة.

واستمر وقوف المماليك على ما هم عليه إلى أذان المغرب.

فبعد صلاة المغرب نزل صاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص من باب الحریم إلى القصر وتوصل منه إلى الإسطبل السلطاني وخرج من باب السلسلة وتوجه إلى داره ونزل الأمير برديك الدوادار الثاني وصهر السلطان من الميدان ماشياً فوجد فرسه تحت القلعة فركبه وتوجه إلى داره وكذلك فعل جانبك المشد وجانبك الخازندار وغيرهم.

وبات القوم وهم على وجل والمماليك يكثر من الوعيد في يوم السبت فإنهم زعموا أن لا يتحركوا بحركة في يوم الجمعة مراعاة لصلاة الجمعة.

وأصبح السلطان وصلى الجمعة مع الأمراء على العادة فتكلم بعض الأمراء مع السلطان في أمرهم بما معناه أنه لا بد لهم من شيء يطيب خواطرهم به ووقع إتفاق بينهم وبين السلطان على زيادة كسوتهم التي يأخذونها في السنة مرة واحدة وكانت قبل ذلك ألفين فجعلوها يوم ذاك ثلاثة آلاف درهم وزادوهم أيضاً في إلاضحية فجعلوا لكل واحد ثلاثة من الغنم الضان فزيدوا رأساً واحداً على ما كانوا يأخذونه قبل ذلك.

ثم رسم لهم أن تكون تفرقة الجامكية على ثلاث نفقات في ثلاثة أيام من أيام المواكب فرضوا بذلك وخمدت الفتنة.

وقد انتفعت جميع المماليك السلطانية بهذه الزيادات فإنها لست بمختصة بالأجلاب فقط وإنما هي لجميع مماليك السلطان كائناً من كان فحمدت المماليك والناس جميعاً فعلهم لما جر إليهم من المنفعة.

قلت: هذا هو الاحتمال الذي يؤدي إلى قلة المروءة فإنه لو أراد لفعل بهم ما شاء غير أنه كما ورد: " حبك للمرء يعمي ويصم " انتهى.

وفي هذه الأيام ترادفت الأخبار من الأمير جانم الأشرفي نائب حلب بحركة ابن قرمان فلهج السلطان بخروج تجريدة لقتاله بعد انفصال فصل الشتاء.

ثم في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأول أبطل السلطان الخدمة من القصر وجلس بالحوش السلطاني وجمع القضاة والأعيان وناظر دار الضرب وسبكت الفضة المضروبة في كل دولة وقد حررنا وزن ضرب كل دولة وما نقص منها في تاريخنا " حوادث الدهور " انتهى.

وانفض الجمع وقد نودي في يومه بشوارع القاهرة بأن أحدًا لا يتعامل بالفضة المضروبة بدمشق في هذه الدولة فشق ذلك على الناس قاطبة لكثرة معاملاتهم بهذه الفضة التي دخلها الغش ولهجت العامة في الحال فيما بينهم: " السلطان من عكسه أبطل نصفه " و " إذا كان نصفك إينالي لا تقف على دكاني " وأشياء من هذه المهملات التي لا وزن لها ولا قافية وانطلقت الألسن بالوقية في السلطان.

هذا و

▲ صاحب جمال الدين عظيم الدولة

بلغ السلطان من الغد أن الممالك تريد إثارة فتنة أخرى بسبب ذلك فخشي السلطان من مساعدة العوام لهم فأبطل ما كان نودي به.

قلت: والمصلحة ما كان فعله السلطان غير أنك تعلم أن السواد الأعظم من العامة ليس لهم فوق ولا خبرة بعواقب الأمور فإنهم احتاجوا بعد ذلك إلى أن سألوا في إبطال ذلك فلم يسمح لهم السلطان به إلا بعد أمور وأشهر حسبما يأتي ذكره وهو معدوز في ذلك.

وفي يوم الخميس خامس عشر شهر ربيع الأول المذكور من سنة إحدى وستين عمل السلطان المولد النبوي بالحوش من قلعة الجبل على العادة في كل سنة غير أنه فرق الشقق الحرير على القراء والمداح كل شقة طولها خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع ونصف ولم يفرق على أحد شقة كاملة إلا نادرًا.

قلت: كل ذلك من سوء تدبير أرباب وظائفه وحواشيه وإلا فما هو هذا النزر اليسير حتى يشح به مثل هذا الملك الجليل! ونفرض أنه عزم على ذلك فكان يمكنهم الكلام معه في ذلك فإن عجزوا عن مدافعته كان أحد من أولاده وخواصه يقوم بهذا الأمر عنه من ماله وليس في ذلك كبير أمر.

وفي يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأول المذكور وصل إلى القاهرة سنقر الأشرفي الدوادار المعروف بقرق شيق وكان توجه قبل تاريخه إلى البلاد الحلبية لكشف أخبار ابن قرمان وتجهيز العساكر الشامية والحلبية فوقع له هناك أمور وحوادث ذكرناها في غير هذا المحل من قتل جماعة من تركمان ابن قرمان وغير ذلك.

وكان سنقر المذكور من مساويء الدهر وعنده طيش وخفة مع ظلم وجبروت وما سيأتي من أخباره عند عمارته لمراكب الغزاة فأعظم.

ثم في يوم الأحد هذا نودي بالقاهرة من قبل السلطان بأن يكون سعر الدرهم من الفضة الشامية المقدم ذكرها التي دخلها الغش ثمانية عشر درهمًا نقرة وما عداها من الفضة المؤيدية والأشرفية والظاهرية تكون على حالها بأربعة وعشرين درهمًا فقامت قيامة العامة من ذلك خوفًا من الخساره وأكثروا من الوقية بالسلطان وأرباب دولته ولا سيما في صاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص فإنهم نسبوا هذا كله إليه رحمه الله.

وكان السلطان خلع على ولده المقام الشهابي أحمد باستقراره أمير حاج المحمل فلما نزل ابن السلطان وعليه الخلعة من القلعة إلى داره وهي قصر بكتمر الساقى تجاه الكباش وبين يديه جميع أعيان الدولة استغاثت إليه العامة بلسان واحد وقالوا: " نخسر بهذه المنادة ثلث أموالنا " وسألوه في إبطال ذلك فوعدهم بإبطاله وأرسل إلى والده يسأله في إبطال ما نودي به فأجابه السلطان ونودي في الحال مناداة ثانية بإبطال ما نودي به.

قلت: وهذه فعلة العامة الثانية من طلبهم عدم المناداة بإبطال هذه الفضة المغشوشة خوفاً من الخسارة فاحتاجوا بعد ذلك إلى المناداة وخسروا أكثر مما كانوا يخسرونه عندما غلت الأسعار بسبب هذه الفضة ووصل صرف الدينار إلى إربعمائة درهم كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي يوم السبت أول شهر ربيع الآخر نودي في المماليك السلطانية المعينين إلى تجريدة البلاد الشامية لقتال ابن قرمان قبل تاريخه بأن النفقة فيهم في يوم الخميس إلاتي.

فلما كان يوم الخميس سادس ربيع الآخر المذكور جلس السلطان بالحوش السلطاني وشرع في تفرقة النفقة على المماليك المذكورين لكل واحد منهم مائة دينار وسعر الذهب يوم ذاك أربعمائة درهم الدينار فوصل لكل واحد منهم أعني المماليك المعينين أربعمائة دينار وهذا شيء لم نسمع بمثله وأكثر ما فرق الملوك السالفة في معنى النفقة مائة دينار وسعر الدينار في ذلك الوقت ما بين مائتين وعشرين درهماً الدينار إلى مائتين وثمانين الدينار لا بهذا السعر الزائد فشكر كل أحد السلطان على هذه الفعلة.

وكان عدة من أخذ النفقة من المماليك المذكورين أربعمائة مملوك وثلاثة مماليك.

ثم أرسل السلطان بالنفقة إلى الأمراء المجردين فحمل إلى الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أمير سلاح وهو مقدم العسكر يوم ذاك بأربعة آلاف دينار ثم أرسل لكل من أمراء الألوف لكل واحد بثلاثة آلاف دينار وهم: قرقماس الأشرفي رأس نوبة النوب وجانبك القرمانى الظاهري حاجب الحجاب ويونس العلاني الناصري ثم حمل لكل من أمراء الطبلخانات بخمسمائة دينار ولكل أمير عشرة مائتي دينار.

يأتي ذكر أسماء الجميع عند خروجهم من الديار المصرية إلى جهة ابن قرمان.

ثم في يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الآخر المذكور عزل السلطان علي بن إسكندر عن ولاية القاهرة وأعاد خيربك القصري لولاية القاهرة كما كان أولاً.

ثم في يوم الخميس خامس جمادى الأولى برز الأمير خشقدم أمير سلاح ومقدم العسكر بمن معه من الأمراء والعساكر من القاهرة إلى الريدانية خارج القاهرة والأمراء هم: الأربعة من مقدمي الألوف المقدم ذكرهم.

والطبلخانات: جانبك الناصري المرتد وخيربك الأشقر المؤيدي الأمير آخور الثاني وبربك البجمقدار الظاهري رأس نوبة.

ومن أمراء العشرات ستة أمراء وهم: تمرباي من حمزة الناصري المعروف بططر وقانصوه المحمدي الأشرفي وقلمطاي الإسحافي الأشرفي رأس نوبة وقانم طاز الأشرفي رأس نوبة وجكم النوري المؤيدي رأس نوبة وجانم المؤيدي المعروف بحرامي شكل.

وقد تقدم ذكر عدة المماليك السلطانية فيما تقدم.

وأقاموا بالريدانية إلى ليلة الاثنين تاسعه فاستقلوا فيه بالمسير من الريدانية إلى جهة البلاد الشامية.

ثم في يوم الخميس سادس عشرين جمادى الأولى المذكورة سافر الأمير نوكار الزردكاش ومعه عدة من الرماة والنفطية وإلات الحصار وهو مريض ورسم له أن يأخذ

من قلعة دمشق ما يحتاج إليه أيضًا من أنواع إلالات وغيرها للحصار ويلحق العساكر المتوجهة لقتال ابن قرمان.

ثم في يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة استقر الأمير أسندمر الجقمقي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة أمير المماليك السلطانية المجاورين بمكة المشرفة عوضًا عن الأمير بيبرس الأشرفي خال الملك العزيز يوسف ورسم بمجيء بيبرس المذكور عند توجه أسندمر الجقمقي في موسم الحج.

ثم في يوم الجمعة ثالث شهر رجب من سنة إحدى وستين المذكورة ورد الخبر على السلطان بموت الأمير نوكار الزردكاش بمدينة غزة فأنعم السلطان بإقطاعه وهو إمرة عشرة ووظيفة الزردكاشية على سنقر الأشرفي الدوادر المعروف بقرق شبق.

وفي يوم الخميس تاسع رجب المذكور وقعت حادثة غريبة: وهي أن جماعة من العربان قطاع الطريق وكانوا نحو خمسة عشر رجلًا أو أمثل جاؤوا من جهة الشرقية حتى وصلوا إلى قرب باب الوزير ثم عادوا من حيث جاؤوا وصاروا في عودهم يسلبون من وقعوا به من الناس فعروا جماعة كبيرة من بين فقهاء وأعيان وغيرهم وكان الوقت بعد أذان العصر بدرجات وقت حضور الخوانق.

وفي يوم الأحد ثاني عشره خلع السلطان على السيد الشريف حسام الدين محمد بن حريز باستقراره قاضي قضاة المالكية بعد موت القاضي ولي الدين السنباطي.

وفي يوم الثلاثاء رابع عشر رجب المذكور ورد الخبر على السلطان بوصول العساكر المتوجهة لقتال ابن قرمان إلى حلب وأنهم اجتمعوا في حلب بالأمير قاني باي الحمزاوي نائب الشام هناك لأن قاني باي المذكور كان خرج من دمشق قبل وصول العسكر إليها بثلاثة أيام فتكلم الناس بأنه ظن أن سفر العساكر ما هو إلا بسبب القبض عليه في الباطن والتوجه لابن قرمان في الظاهر.

قلت: وللقائل بهذا القول عذر بين وهو أن قاني باي المذكور من يوم تسلطن الملك الأشرف إينال هذا وهو نائب حلب لم يحضر إلى الديار المصرية ولا داس بساط السلطان غير أنه يمثل أوامر السلطان ومراسيمه حيث كان أولاً بحلب ثم بعد انتقاله إلى نيابة دمشق فعلم بذلك كل أحد أن قاني باي المذكور يتخوف من السلطان ولا يحضر إلى الديار المصرية ومتى طلبه السلطان أظهر العصيان.

وفطن الملك الأشرف إينال لذلك فلم يطلبه البتة وصار كل واحد منهما يعلم ما في ضمير الآخر في الباطن ويظهر خلاف ذلك: السلطان يخفي ذلك لتسكين الفتنة وقاني باي لما هو فيه من النعمة بولاية نيابة دمشق وكل منهما يتربص موت الآخر فمات قاني باي قبل حسبا يأتي ذكره في الوفيات بعد فراغ الترجمة.

وقد خرجنا عن المقصود ولنعد إلى ما نحن بصدده فنقول: وأخبر المخبر أن العساكر اجتمعوا بالأمير قاني باي الحمزاوي بحلب وأنه اجتمع رأي الجميع على السير من حلب إلى جهة ابن قرمان في يوم السبت سادس عشرين جمادى الآخرة فسر السلطان بذلك كون الذي أشيع عن قاني باي الحمزاوي من العصيان ليس بصحيح بل هو قائم بالمهم السلطاني أحسن قيام.

وفي يوم الجمعة سابع عشره سافر الأمير جانبك الظاهري نائب جدة إلى جهة جدة على عادته في كل سنة وسافر معه خلائق من الناس صفة الرجبية.

وفي يوم السبت ثامن عشر رجب المذكور ورد الخبر على السلطان بأنه كان بين حسن الطويل بن علي بك بن قرايلك صاحب آمد وبين عساكر جهان شاه بن قرا يوسف صاحب العراقيين عراق العرب وعراق العجم وقعة هائلة انكسر فيها عسكر جهان شاه وانتصر حسن المذكور وأن حسن قتل من أعيان عساكر جهان شاه جماعة مثل الأمير رستم وابن طرخان وعربشاه وغيرهم فسر السلطان بذلك غاية السرور كون أن حسناً المذكور ينتمي إليه ويظهر له الصداقة.

ثم في يوم الاثنين رابع شعبان وصل الخبر من الأمير خشقدم أمير سلاح ومن رفقة النواب بالبلاد الشامية بأنهم وصلوا إلى بلاد ابن قرمان وملكوا قلعة دوالي ونهبوها وأخربوها وأنهم جهزوا الأمير بردبك البجمقدار رأس نوبة ومعه عدة من المماليك السلطانية والأمراء بالبلاد الشامية إلى جهة من جهات بلاد ابن قرمان فصدفوا في مسيرهم عسكرًا من أصحاب ابن قرمان فواقعوهم وهزموهم وأنه قتل من المماليك السلطانية أربعة في غير المصاف بل من الذين صدفوهم في أثناء الطريق.

وفي يوم السبت أول شهر رمضان سافرت الأمراء المعينون إلى الجرون ببر التركية لأجل قطع إلاخشاب وسافروا من بولاق ومقدم العسكر الأمير يشبك الفقيه المؤيدي أحد أمراء الطبلخانات ورأس نوبة ومعه الأمير أزيك المؤيدي أحد أمراء العشرات والأمير نوروز لإعمش الأشرفي وجماعة آخر من الخاصكية.

ثم في يوم الأحد تاسع شهر رمضان وصل نجاب من خيربك نائب غزة يخبر بمجيء سودون القصري الدوادر بكتاب مقدمي العساكر الأمير خشقدم المؤيدي أمير سلاح وغيره من الأمراء.

وحضر سودون القصري المذكور من الغد وأخبر السلطان بأن العساكر المتوجهة إلى بلاد ابن قرمان قصدت العود إلى جهة حلب بعد أن أخذوا أربع قلاع من بلاد ابن قرمان وأخربوا غالب قرى ممالكه وأحرقوا بلاط وسبوا ونهبوا وأمعنوا في ذلك حتى إنهم أحرقوا عدة مدارس وجوامع وذلك من أفعال أوباش العسكر وأنهم لم يتعرضوا إلى مدينة قونية ولا مدينة قيصرية لنفود زادهم ولضجر العسكر من طول مدتهم بتلك البلاد مع غلو لإسعار في المأكول وغيره من سائر الأشياء ولولا هذا لاستولوا على غالب بلاد ابن قرمان وأن ابن قرمان لم يقاتل العسكر السلطاني بل إنه انحاز إلى جهة منيعة من جهاته وتحصن بها هو وأعيان دولته وترك ما سوى ذلك من المتاع والمواشي وغيرها مأكلة لمن يأكله فحصل له بما اخذ له وهن عظيم في مملكته فدقت البشائر لهذا الجبر بالقاهرة أيامًا ورسم السلطان من وقته بعود العسكر المذكور إلى الديار المصرية وخرخ النجاب بهذا الأمر.

ثم في يوم الأحد سادس عشر شهر رمضان المذكور ركب المقام الشهابي أحمد ابن السلطان من داره فصر بكتمر تجاه الكبش النجب كما هي عادة أمراء الحج في الركوب إلى المسايرة وخرج من الصليبية وشق الرميلى وبين يديه هجانة السلطان أمراء العرب بإلكوار الذهب والكنابيش الزركش المغشاة بإلاطلس إلاصفر وركب معه جماعة من الأمراء غير من يسافر معه مثل: الأمير بردبك الدوادر الثاني وسودون الإينالي المؤيدي قراقاش ثاني رأس نوبة وجماعة آخر ولم يركب معه أحد من أمراء الألوف ولا أعيان مباشري الدولة حتى ولا كاتب السر القاضي محمب الدين بن الأشقر وهو ممن يسافر في هذه السنة إلى الحج.

وسار ابن السلطان في موكيه المذكور من تحت القلعة إلى جهة خليج الزعفران خارج القاهرة ووصل هناك قبيل المغرب وأفطر هناك ثم عاد بعد صلاة العشاء وشق الرميلى ثانيًا في عوده في زي بهيج إلى الغاية.

ثم في يوم الجمعة ثاني عشر شوال وصلت إلى القاهرة رمة الأمير جانبك القرماني الظاهري حاجب الحجاب وقد مات بالقرب من منزلة الصالحية في عوده من تجريدة ابن قرمان.

ثم عقب الخبر بموت جماعة كبيرة أيضًا من العسكر المذكور من مرض فشا فيهم من مدينة الرملة كالوباء مات منه خلائق بمرض واحد ولم يعلم أحد ما سبب هذا العارض.

ثم في يوم السبت ثالث عشره ورد الخبر بموت الأمير حكيم النوري المؤيدي المعروف بقلقسيز أحد أمراء العشرات ورأس نوبة.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر شوال المذكور وصلت العساكر المجردة لبلاد ابن قرمان على أسوأ حال من الضعف الذي حصل لهم في أثناء الطريق.

وطلع مقدم العسكر الأمير خشقدم المؤيدي أمير سلاح ورفقته من الأمراء المقدم ذكرهم عند توجههم والمماليك السلطانية إلى القلعة وقبل الأرض فأكرمه السلطان وخلع عليه وعلى رفقته فنزل الأمير خشقدم إلى داره وبين يديه أعيان الدولة وقد نقص من رفقته اثنان من المقدمين: جاني بك القرماني المتوفى ويونس العلاني لضعف بدنه وقد دخل إلى القاهرة في محفة.

ثم في يوم الاثنين هذا أنعم السلطان على الأمير بايزيد التمرغاوي أحد أمراء الطبلخانات بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضًا عن جانبك القرماني المقدم ذكره وأنعم بطبلخاناه بايزيد على الأمير برسباي الإينالي المؤيدي.

ثم في يوم الخميس ثامن عشر شوال المذكور خرج المقام الشهابي أحمد ابن السلطان وهو يومئذ أمير حاج المحمل بالمحمل من القاهرة إلى بركة الحاج دفعة واحدة وقد صار ذلك عادة وترك النزول بالمحل في الريدانية خارج القاهرة وسافرت معه أمه خوند الكبرى زينب بنت البدري حسين بن خاص بك وإخوته الجميع الذكور والإناث والإخوة الجميع الثلاثة: ذكر واحد وهو أصغر منه يسمى محمدًا مراهق واخته الكبرى زوجة الأمير بردبك الدوادار الثاني والصغرى وهي زوجة الأمير يونس الدوادار الكبير.

ورحل من البركة في ليلة الاثنين ثاني عشرين شوال بعد أن رحل قبله أسندمر الجقمقي رأس المجاورين وأمير الركب الأول يشبك الأشقر الأشرفي وقد استقر أمير عشرة قبل تاريخه.

ووصل من الغد في يوم الثلاثاء الأمير جانبك الظاهري نائب جدة من جدة وقبل الأرض وحضر معه من الحجاز الأمير زين الدين الأستاذار وكان مقيمًا بمكة.

وفي يوم الخميس خامس عشرين شوال المذكور أنعم السلطان بإقطاع حكيم النوري المؤيدي على الأمير جانبك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكوهية وعلى الأمير يشبك الظاهري نصلين بالسوية لكل واحد منهما إمرة عشرة.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشرينه استقر الأمير برسباي الجاسي أحد مقدمي الألوف حاجب الحجاب بالديار المصرية بعد وفاة الأمير جانبك القرماني.

ثم في يوم السبت خامس عشرين ذي القعدة ثارت المماليك الأجلاب بالأطباق من قلعة الجبل ومنعوا الأمراء ومباشري الدولة من النزول من قلعة الجبل فكلموهم بسبب ذلك

فقالوا: " نريد أن تكون تفرقة لإلضحية لكل واحد منا ثلاثة من الغنم " أعني زيادة على ما كانوا يأخذونه قبل ذلك برأس واحد.

وكان وقع في تلك المدة هذا القول وسكت عنه فتوقف السلطان في الزيادة ثم أذعن بعد أمور واستمر ذلك إلى يومنا هذا.

وفي يوم الاثنين سابع عشرين ذي القعدة استقر القاضي صلاح الدين أمير حاج بن بركوت المكي في حسبة القاهرة بعد عزل يارعلي الخراساني العجمي الطويل بمال كثير بذله صلاح الدين في ذلك.

وفي أوائل ذي الحجة ورد الخبر على السلطان من جهة مكة أنه وقع في الحاج عطشة فيما بين منزلة أكرة والوجه ومات بالعطش خلائق كثيرة.

وفي يوم الجمعة سادس عشر ذي الحجة الموافق لثامن هاتور لبس السلطان القماش الصوف الملون المعتد لأيام الشتاء وألبس الأمراء على العادة.

وفي يوم الاثنين تاسع عشر ذي الحجة المذكور وصلت الأمراء المتوجهون إلى بلاد الجرون ببر التركية ومقدمهم الأمير يشبك الفقيه ورفقته المقدم ذكرهم عند سفرهم وخلق السلطان عليهم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه وصل مبشر الحاج دمرداش الطويل الخاصكي بعد ما قاسى شدايد من العرب قطاع الطريق فضايقوه وأخذوا منه عدة رواحل وغيرها ثم أخبر دمرداش المذكور بسلامة ابن السلطان ووالدته وإخوته فدقت البشائر لذلك ثلاثة أيام بالديار المصرية.

وفي يوم الاثنين سادس عشرين ذي الحجة المذكور أخرج السلطان إقطاع الأمير طوخ من تراز الناصري المعروف ببني بازق أمير مجلس لمرض تمادى به مدة طويلة وأنعم بإقطاع المذكور على الأمير برسباي البجاسي حاجب الحجاب وأنعم بإقطاع برسباي البجاسي المذكور على الأمير بيبرس الأشرفي خال الملك العزيز يوسف بالحجاز وكلاهما تقدمت ألف غير أن الواحد يزيد عن الآخر في الخراج لا غير وأنعم بإقطاع بيبرس على ولده الصغير محمد وهو في الحجاز أيضًا وهذا أيضًا تقدمت ألف مضافًا لما كان بيده قبل من الإقطاعات.

ثم في يوم الخميس تاسع عشرينه استقر الأمير جرباش المحمدي الأمير آخور الكبير أمير مجلس عوضًا عن طوخ المقدم ذكره بحكم مرضه واستقر عوضه في الأمير أخورية يونس العلاني أحد مقدمي الألف.

وفي هذه السنة كان فراغ الربيع والحمامين اللذين بناهما السلطان الملك الأشرف إينال هذا بخط بين القصرين.

وفرغت هذه السنة وقد انحل أمر حكام الديار المصرية أرباب الشرع الشريف والسياسة أيضًا لعظم شوكة المماليك الأجلاب وصار من له حق عند كائن من كان من الناس قصد مملوكًا من المماليك الأجلاب في تخلص حقه فما هو إلا أن أعلم ذلك المملوك بقصده خلص من غريمه في الحال فإن هؤلاء المماليك صاروا في أبواب أعيانهم شكل رأس نوبة ونقباء ولبعضهم دوادار فيرسل خلف ذلك الرجل المطلوب ويأمره بإعطاء حق ذلك المدعي حقًا كان أو باطلاً بعد أن يهدده بالضرب والنكال فإن أجاب وإلا ضرب في الحال ونكل به.

وعلم بذلك كل أحد فصار كل أحد يستعين بهم في قضاء حوائجهم وترك الناس الحكام فقوي أمر الأجلاب وضعفت شوكة الحكام وتلاشى أمرهم إلى الغاية والنهاية.

وفي هذه السنة كانت زلزلة عظيمة بمدينة أرنكان هدمت معظمها.

وفي هذه السنة أيضًا كان بالشرق فتن كبيرة بين جهان شاه بن قرا يوسف وبين أولاد باي سنقر بن شاه رخ بن تيمورلنك أصحاب ممالك العجم.

ثم استهلكت سنة اثنتين وستين وثمانمائة.

ففي يوم الاثنين ثالث محرم من السنة المذكورة أنعم السلطان على قايتباي المحمودي الظاهري الدوادار بإمرة عشرة وعين السلطان الأمير جانبك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكوهية أن يتوجه إلى حلب وعلى يده تشريف تغري بردي بن يونس حاجب حلب بنبابة ملطية وتشريف جانبك الحكمي نائب ملطية إلى حجوية حلب كل منهما عن الآخر وذلك لكلام وقع بين تغري بردي هذا وبين الأمير جانم الأشرفي نائب حلب.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين المحرم وصل أمير حاج المحمل بالمحمل إلى القاهرة وهو المقام الشهابي أحمد ابن السلطان وصحبتة والدته وإخوته وطلع إلى القلعة ومعه أخوه محمد وبين يديهما وجوه الدولة وخلع السلطان عليه وعلى أخيه محمد المذكور وكانت خلعة المقام الشهابي أطلسين متمرًا وعلى الإطلسين فوقاني حرير برجهين بطرز زركش.

ثم خلع السلطان على من له عادة بلبس الخلع في عود الحاج إلى الديار المصرية.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر صفر وصل الأمير أربك من ططخ الظاهري الخازندار كان من القدس الشريف بطلب من السلطان وطلع إلى القلعة وخلع السلطان عليه سلاريًا من ملايبسه بفرو سنجاب ووعده بكل خير ثم رسم له بالمشي في الخدمة السلطانية بعد أيام.

وفي أول شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين المذكورة نودي من قبل السلطان على الذهب بأن يكون سعر الدينار الذهب بثلاثمائة درهم نقرة بعدما كان وصل سعر الدينار لأربعمائة وستين درهمًا الدينار وأن يكون سعر الفضة المغشوشة كل درهم بسنة عشر درهمًا وأن يكون سعر الدرهم من الفضة الطيبة التي رسم السلطان بضرها بدار الضرب بأربعة وعشرين درهم نقرة وحكم السلطان بذلك ونفذ حكمه القضاة وسر الناس بهذا الأمر غاية السرور فإنه كان حصل بتلك الفضة المغشوشة غاية الضرر في المعاملات وغيرها.

غير أنه ذهب للناس بهذا النقص في سعر الفضة المغشوشة مال كثير وصار كل أحد يخسر ثلث ما كان معه من المال من هذه الفضة المذكورة فانحصر كل من كان عنده من هذه الفضة لوقوع النقص في ماله فرسم السلطان في اليوم المذكور بالمناداة ننقص ثلث ثمن جميع البضائع في المأكول والملبوس كما نقص سعر الدرهم الثلث وكذلك في نقص الذهب فهان عند ذلك على الناس ما وقع من خسارة الذهب والفضة بهذه المناداة الثانية التي هي بنقص ثلث ثمن جميع الأشياء وقال كل واحد في نفسه: " كما نقص من مالي الثلث نقص من ثمن ما كنت أبتاعه الثلث " فكأنه لم ينقص له شيء.

ثم في يوم الخميس سابع عشره عمل السلطان المولد النبوي بالحوش من القلعة على العادة في كل سنة.

ثم في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر أنعم السلطان على الأمير أزيك من ططخ الظاهري المقدم ذكره بإمرة عشرة عوضًا عن الأمير جانم الأشرفي البهلوان بحكم وفاته كما سيأتي ذكر وفاته ووفاة غيره في ذكر الوفيات بعد فراغ الترجمة على عادة هذا الكتاب.

وفي يوم الاثنين ثالث عشر شهر ربيع الآخر المذكور وجد السلطان نشاطًا في نفسه من مرض كان حصل له أيامًا وخرج إلى قاعة الدهيشة ودقت البشائر لذلك بقلعة الجبل وغيرها ثلاثة أيام.

ثم في يوم الأحد سادس عشرين ربيع الآخر مات الأمير سودون السلحدار نائب قلعة الجبل فأنعم السلطان من إقطاعه بنصف قرية كوم أشفين على شريكه الأمير يشبك الفقيه المؤيدي ليكون من جملة أمراء الطبلخانات وأنعم بباقي إقطاع سودون المذكور على الأمير أرغون شاه الأشرفي ليكون من جملة أمراء العشرات وأنعم بإقطاع أرغون شاه المذكور على شريكه الأمير تنبك الأشرفي ليكون تنبك أيضًا أمير عشرة واستقر كسباي المؤيدي السمين نائب قلعة الجبل عوضًا عن سودون المذكور على إمرة عشرة ضعيفة واستقر الأمير جانبك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكوهية هن جملة رؤوس النوب عوضًا عن كسباي المقدم ذكره ولبسا الخلع بعد ذلك بأيام.

ثم في سلخ شهر ربيع الآخر المذكور خلع السلطان على الأمير برسباي البجاسي حاجب الحجاب باستقراره أمير حاج المحمل.

وفيه خلع السلطان على الحكماء لعافيته من مرضه وحضر السلطان موكب القصر مع الأمراء والخاصكية على العادة.

ثم في يوم الاثنين رابع جمادى الأولى استقر الطواشي مرجان الحصكفي مقدم المماليك السلطانية أمير حاج الركب الأول فحصل بتولية مرجان هذا إمرة الحاج الأول على أهل مكة ما لا خير فيه لأنه كان في نفسه وضيغًا لم تشمله تربية مرب لأنه نشأ ببلاد الحصن وخرج منها على هيئه المكدين من فقراء العجم ودار البلاد على تلك الهيئة سنين كثيرة إلى أن اتصل بخدمة جماعة كثيرة من الأمراء ثم آل أمره إلى بيت السلطان وغلط الدهر بولايته النيابة ثم التقدم ثم بولايته إمرة الركب الأول في هذه السنة فلما سافر أخذ معه جماعة كبيرة من إنياته المماليك الأجلاب ففعلوا في أهل مكة أفعالًا ما تفعلها الخوارج من الظلم وأخذ أموال الناس له ولأنفسهم كما سيأتي ذكر ذلك عند عوده من الحج إن شاء الله تعالى.

وفي يوم الخميس سابع جمادى الأولى استقر شمس الدين منصور بن الصلي ناظر ديوان المفرد.

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشره ركب السلطان الملك الأشرف إينال من قلعة الجبل باكر النهار في أمرائه وأرباب دولته وشق خط الصليبية بغير قماش الموكب وتوجه إلى ساحل بولاق ودام سيره بساحل بولاق إلى أن وصل إلى مدرسة السعدي إبراهيم بن الجيعان التي أنشأها على النيل ورأى ما أنشئ بالجزيرة وساحل بولاق من العمائر والبيوت ثم عاد إلى جهة القاهرة وممر من الشارع الأعظم إلى أن خرج من باب زويلة وطلع إلى القلعة وقد غضب مما رأى من العمائر بساحل بولاق في طريق المسلمين.

وأصبح من الغد في يوم الأربعاء أمر بالمناداة بأن أحدًا من الناس لا يعمر عمارة بجزيرة أروى المعروفة بالوسطى ولا بساحل بولاق لما رأى من ضيق الطريق من كثرة العمائر وإلخصاص وأمر أيضًا بهدم أماكن كثيرة فهدمت في اليوم المذكور.

واستمر والي القاهرة بعد ذلك في الهدم أيامًا كثيرة.

وأما الإلخصاص والدكاكين التي بالطريق فهدمت عن آخرها.

وكلم السلطان في الكف عن ذلك جماعة كثيرة فلم يسمع لأحد واستمر على ما رسم به من هدم إلاماكن المذكورة.

قلت: لا بأس بهذه الفعلة لأن كل أحد له في الساحل حق كحق غيره فلا يجوز استقلال أحد به دون غيره.

وفي يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى المذكور خاشنت المماليك الأجلاب صاحب جمال الدين ناصر الجيش والخاص في اللفظ بسبب غلو سعر أثواب البعلبكي فأجابهم " بأن هذا ليس هو داخل في حكمي ولا من تعلقاتي بل ذلك راجع إلى محتسب القاهرة "

وبلغ السلطان ذلك فأصبح السلطان أمر بعزل صلاح الدين أمير حاج بن بركوت المكي عن حسبة القاهرة واستقر عوضه بالحاج خليل المدعو قاني باي اليوسفي المهمندار مضافًا إلى المهمندارية.

ثم في يوم الخميس ثامن عشرينه وصل إلى القاهرة قصاد الصارمي إبراهيم بن قرمان صاحب قونية وغيرها وعلى يدهم كتب ابن قرمان المذكور تتضمن الترقق والإستعطاف وأنه داخل تحت طاعة السلطان وأنه إن كان وقع منه ما أوغر خواطر السلطنة فقد جرى عليه وعلى بلاده من العساكر السلطانية ما فيه كفاية من النهب والسبي والإحراق وغير ذلك وأنه يسأل الرضى عنه وأشياء غير ذلك مما ذكرناه بالمعنى فعفا السلطان عنه بعد توقف كبير.

وفي يوم الجمعة تاسع عشرين جمادى الأولى المذكور سافر الأمير بردك الدوادر الثاني صهر السلطان زوج ابنته إلى دمشق لينظر جامع الذي أنشأه بها.

ثم في يوم الاثنين عاشر جمادى الآخرة خلع السلطان على أيدي الأشرفي الخاصكي ليسافر إلى ابن قرمان صحبة قصاده لتقرير الصلح بين السلطان وبينه.

وفي يوم الجمعة رابع عشره الموافق لثالث بشنس أحد شهور القبط لبس السلطان القماش الأبيض البعلبكي المعد لأيام الصيف على العادة في كل سنة.

ثم في يوم الخميس خامس شهر رجب من سنة اثنتين وستين المذكورة شفع صاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص عند السلطان في الأمير تمرغا أن يفرج عنه من حبس الصبية فسمح السلطان له بذلك ورسم له أن يتوجه من الصبية إلى دمشق ويقوم بها لعمل مصالحه لأيام الحج ويسافر إلى مكة ويقوم بها بطالًا فوق ذلك.

ثم في يوم الجمعة سادس شهر رجب المذكور كان

▲ الحريق العظيم بساحل بولاق

الذي لم نسمع بمثله في سالف الإلخصاص إلا قليلاً بحيث إنه أتى على غالب أملاك بولاق من ساحل النيل إلى خط البوصة التي هي محل دفن أموات أهل بولاق وعجزت الأمراء والحكام عن إخماده.

وكان أمر هذا الحريق أنه لما كان صبيحة يوم الجمعة سادس رجب من سنة اثنتين وستين المذكورة هبت ريح عظيمة مريسي وعظمت حتى اقتلعت الأشجار وألقت بعض مبان واستمرت في زيادة ونمو إلى وقت صلاة الجمعة فلما كان وقت الزوال أو بعده بقليل احترق ريع الحاج عبيد البرددار بساحل البحر وذهب الريع في الحريق عن آخره ومات فيه جماعة من الناس كل ذلك في أقل من ساعة رمل.

ثم انتقلت النار إلى ريع القاضي زين الدين أبي بكر بن مزهر وغيره.

وهبت الرياح وانتشرت النيران على إلاماكن يمينًا وشمالًا.

هذا وحاجب الحجاب وغيره من الأمراء والأعيان وكل أحد من الناس في غاية الإجهاد في تخميد النار بالطفي والهدم وهي لا تزداد إلا قوة وانتشارًا على إلاماكن إلى أن وصلت النار إلى ريع الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص وإلى الحواصل التي تحته وأحرقت أعلاه وأسفله وذهب فيه من بضائع الناس المخزونة فيه ما لا ينحصر كثيرة وسارت النار إلى الدور وإلاماكن من كل جهة.

هذا وقد حضر الحريق جميع أمراء الدولة بمماليكهم وحواشيهم شيئًا بعد شيء والأمر لا يزداد إلا شدة إلى أن صار الذي حضر من الناس لأجل طفي النار كالمتفرج من عظم النار والعجز عن إخمادها وصارت الناس إذا وقعت بمكان لاتزال به حتى يذهب جميعه ويضمحل عن آخره.

فعند ذلك فطن كل أحد أن النار تسير من دار إلى دار إلى أن تصل إلى القاهرة لعظم ما شاهدوا من هولها والريح المريسي يتداول هبوبها من أول النهار إلى نصف الليل ولشدة هبوب الريح صارت رياحًا لأنها بقيت تارة تهب مريسيًا وهو الأكثر وتارة شمالًا وتارة غير ذلك من سائر الجهات.

فيئس كل من كان له دار تحت الريح وتحقق زوالها وشرع في نقل متاعه وأثاثه وهو معذور في ذلك لأننا لم نشاهد في عمرنا مثل هذا الحريق لما اشتمل عليه من الأمور الغربية منها سرعة الإحراق حتى إن الموضع القديم من إلاماكن الهائلة يذهب بالحريق في أسرع وقت ومنها أن المكان العظيم كان يحترق ويجانبه مكان آخر لم تلحقه شرارة واحدة وربما احترق الذي كان بالبعد عن تلك الدار المحروقة من شرارها والتي بالقرب سالمة.

ووقع ذلك بعدة أماكن أعجيبها وأغربها مسجد كان بالقرب من ساحل البحر وبه منارة من غرد قصيرة وكان هذا المسجد في وسط الحريق والشرار يتطاير من أعلاه من الجهات لإلاربع من أول الحريق إلى آخره لم تتعلق به شرارة واحدة وفي المسجد المذكور قبر رجل صالح مدفون فيه قديمًا يعرف بالشيخ محمد المغربي.

واستمر الأمراء والأعيان يشاهدون الحريق ويطفئون ما قدروا عليه من أطراف المواضع المنفردة وأما الحريق العظيم فلا يستجريء أحد أن يقربه لعظمه بل يشاهدونه من بعد.

واستمروا على ذلك إلى بعد أذان عشاء الآخرة ثم ذهب كل واحد إلى داره والنار عمالة إلى نصف الليل فأخذ أمر الريح في انحطاط.

فلما كان باكر نهار السبت سابع شهر رجب المذكور نزل المقام الشهابي أحمد ابن السلطان من قلعة الجبل وتوجه إلى بولاق لأجل الحريق فوجد جميع أمراء الدولة هناك كما كانوا في أمسه فلم يؤثر حضور الجميع في النار شيئًا غير أن الريح كان سكن

وأخذت النار حدها في إلاحراق من كل مكان كانت به فعند ذلك اجتهد كل أحد في إخمادها وهم ما تعلق به النار من الإماكن وأقاموا على ذلك أيامًا كثيرة والنار موجودة في الإماكن والجدر والحيطان والناس تأتي لبولاق أفواجًا للفرجة على هذا الحريق العظيم حتى صارت تلك الإماكن كبعض المفترجات وعملت الشعراء والأدباء في هذا الحريق عدة قصائد وقطع.

وقد أنشدني الشيخ علم الدين إلسعردى الحصنى قصيدة من لفظه لنفسه فى هذا المعنى أولها: مخلع البسيط أتتهم الذاريات ذروا وتلتها العاصفات عصفا أثبت هذه القصيدة فى تاريخنا " الحوادث " كونه محل ذكر هذه الأشياء.

والقصيدة المذكورة نظم عالم لا شاعر.

وقد حررنا أيضًا فى تاريخنا " الحوادث " ما ذهب فى هذا الحريق من إماكن تخمينًا فكان عدة ما احترق فيه من إلارباع زيادة على ثلاثين ربعًا كل ربع يشتمل على مائة سكن وأكثر أعني أعاليه وأسفله وما به من الحوانيت والمخازن ذكرناها فى " الحوادث " بأسمائها ما خلا الدور وإلماكن وإلإفران والحوانيت وغير ذلك.

وقد اختلف فى سبب هذا الحريق على أقوال كثيرة.

منهم من قال: إنها صاعقة نزلت من السماء والخطيب على المنبر.

ومنهم من قال: إنه نزلت من جهة السماء نوع شرارة فاحترق المكان الأول منها.

ومنهم من قال: إن الأرض كأن النار تنبع منها.

وإلأقوال كلها على أن سبب هذه النار آفة سماوية.

ثم بعد ذلك بأيام أشيع أن الذى كان يفعل ذلك أعني يلقي النار فى إلماكن هم جماعة من القرمانية ممن أحرق العسكر المصرى امكنتهم لما توجهوا إلى تجريدة ابن قرمان وشاع القول فى أفواه الناس.

ثم ظهر للناس بعد ذلك أن الذى صار يحرق من إلامكنة بالقاهرة وغيرها بعد حريق بولاق إنما هو من فعل المماليك الجلبان لينهبوا ما فى بيوت الناس عندما تحرق فإنه تداول إحراق البيوت أشهرًا والله أعلم.

وإلأغالب إلماكن التى احترقت كانت عمرت بساحل بولاق فى دولة الظاهر جقمق.

وقد افتقر من هذا الحريق خلائق كثيرة وعلى الله العوض.

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر رجب المذكور وصل الأمير بردبك الدوادر الثانى من الشام.

وفيه أيضًا نودى بزينة القاهرة لدوران المحمل ونهى السلطان المماليك الأجلاب عن أن يعمل أحد منهم عفاريت المحمل.

وسببه أنهم فعلوا ذلك فى السنة الخالية وأفحشوا فى الطلب من الناس وصاروا يدخلون إلى دور الأمراء والأعيان ويكلفونهم الكلفة الزائدة وما كفاهم ذلك حتى صار العفريت منهم إذا مر بالشارع على فرسه بتلك الهيئة المزعجة يجبى الدكاكين وإذا صدف رئيسًا

من بياض الناس أمسكه وأخذ منه ما شاء غصبا وإن لم يعطه أخرج به ورماه عن فرسه حتى صار الرجل إذا رأى واحداً من هؤلاء أسرع في مشيه بالدخول في زقاق من الإزقة أو بيت من البيوت فصر ذلك بحال الناس كثيراً وتركوا فرجة المحمل بل صاروا يترقبون فراغ المحمل ليستريحوا من هذه الأنواع القبيحة.

فلما جاء أوان المحمل في هذه السنة دخل على قلوب الناس الرجيف بسبب ما وقع من المماليك في العام الماضي فكلم أعيان الدولة السلطان في إبطال المحمل أو نهى الجلبان عن تلك الفعلة القبيحة فلهدا رسم السلطان في هذه السنة بإبطال عفاريت المحمل بالكلية.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر شهر رجب هذا أدير المحمل على العادة في كل سنة ولم يقع من الأجلاب شيء مما وقع منهم في السنة الماضية.

ثم تداول الحريق بعد ذلك بخط بولاق والقاهرة وقوي عند الناس أن الذي يفعل ذلك إنما هو من تركمان ابن قرمان.

ثم وقع الحريق أيضاً في شعبان بأماكن كثيرة وداخل الناس جميعاً الرعب من هذا الأمر.

فلما كان يوم السبت ثاني عشر شعبان نودي بشوارع القاهرة ومصر بتوجه كل غريب إلى أهله وكذلك في يوم الأحد فلم يخرج أحد لعدم التفات السلطان لإخراجهم.

ثم وقع حريق آخر وآخر فنودي في آخر شعبان بخروج الغرباء بسبب الحريق من الديار المصرية فلم يخرج أحد.

وتداول وقوع الحريق بالقاهرة في غير موضع.

ثم في أول شهر رمضان مرض السلطان مرضاً لزم منه الفراش وأرجف بموته وطلع إليه أكابر الأمراء فتكلم معهم في العهد لولده أحمد بالسلطنة من غير تصريح بل في نوع النكر من ولده ويقول ما معناه أن ولده ليس كمن مضى من أولاد الملوك الصغار وأن هذا رجل كامل يعرف ما يراد منه وما أشبه هذا المعنى فصار هو يتكلم وجميع الأمراء سكوت لم يشاركه أحد فيما هو فيه إلى أن سكت وانفض المجلس.

ثم عوفي بعد ذلك ودقت البشائر بقلعة الجبل وغيرها أياماً.

ثم في يوم الاثنين سادس شهر رمضان أخرجت المماليك الأجلاب بالأمير قائم التاجر المؤيدي أحد مقدمي الألوف وهو نازل من الخدمة بغير قماش الموكب وضربه بعضهم على رأسه وظهره وجاؤوا بجموعهم إلى داره من الغد ليهجموا عليه فمنعهم مماليكه من الدخول عليه فوقع القتال بينهم وجرح من الفريقين جماعة.

فأخذ قائم المذكور يتلافى أمرهم بكل ما تصل القدرة إليه فلم يفد ذلك إلا أنه صار يركب وحده من غير مماليك ويطلع الخدمة وينزل على تلك الهيئة واستمر على ذلك نحو السنتين.

ثم في هذه الأيام أيضاً تداول الحريق بالقاهرة وظواهرها وضر ذلك كثيراً بحال الناس وقد قوي عندهم أن ذلك من فعل القرمانية والمماليك الأجلاب: يعنون بالقرمانية والأجلاب أن القرمانية إذا فعلوا ذلك مرة ويقع الحريق فتنهب المماليك لإقمشة وغيرها لما يطلدون الدور المحروقة للطفي فلما حسن ببال المماليك ذلك صاروا يفعلون ذلك.

قلت: ولا أستبعد أنا ذلك لقلّة دينهم وعظم جبروتهم عليهم من الله ما يستحقونه من العذاب والنكال انتهى.

ثم استهل شوال أوله الجمعة فوقع فيه خطبتان وتشاءم الناس بذلك على الملك فلم يقع إلا الخير والسلامة وكذبت العادة.

ثم في يوم الجمعة خامس عشره ورد الخبر على السلطان بموت جاك الفرنجي صاحب قبرس وأنهم ملكوا عليهم ابنته مع وجود ولد ذكر لأمر أجاز تقديم البنت على الصبي على مقتضى شريعتهم ووقع بسبب ذلك أمور وغزوات يأتي ذكرها في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى وقد حررنا ذلك كله في " الحوادث " .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من القاهرة وهو الأمير برسباي البجاسي حاجب الحجاب وأمير الركب الأول الطواشي مرجان الحصكفي مقدم المماليك السلطانية.

ثم في العشر إخير من هذا الشهر ورد الخبر من الإسكندرية بموت الخليفة القائم بأمر الله حمزة بها كما سيأتي ذكره في الوفيات إن شاء الله.

ثم في يوم الخميس سابع عشرين ذي القعدة خلع السلطان على ولده المقام الشهابي أحمد باستقراره أتاك العساكر بالديار المصرية عوضًا عن الأمير الكبير تنك البرديكي بحكم وفاته وأنعم السلطان بإقطاع ولده أحمد على ولده الصغير المقام الناصري محمد وصار محمد أمير مائة ومقدم ألف وأنعم بإقطاع محمد المذكور وهو إمرة طبلخاناه على الأمير جانبك الصوفي الناصري المرتد أحد أمراء الطبلخانات زيادة على ما بيده ليكون جانبك أيضًا أمير مائة ومقدم ألف.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشرين ذي الحجة خلع السلطان على القاضي شرف الدين التتائي الأنصاري باستقراره ناظر الجيوش المنصورة عوضًا عن صاحب جمال الدين يوسف بن كاتب حكّم بحكم وفاته في يوم الخميس ثامن عشر ذي الحجة.

وخلع السلطان أيضًا على الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكويز باستقراره ناظر الخاص الشريف عوضًا أيضًا عن صاحب جمال الدين يوسف المقدم ذكره.

ثم في يوم السبت سابع عشرين ذي الحجة أيضًا استقر القاضي زين الدين أبو بكر بن مزهر ناظر جوالي دمشق وأنه يتوجه إلى دمشق لضبط تعلقات الجمالي ناظر الخاص ثم بطل ذلك قبل أن يلبس الخلعة.

ودخلت سنة ثلاث وستين وثمانمائة: في أولها كانت الزلزلة المهولة بمدينة الكرك أخرجت أماكن من قلعها ودورها وأبراجها.

فكان أول المحرم الأربعاء.

وفي يوم الخميس ثانيه استقر القاضي علاء الدين علي بن مفلح قاضي الحنابلة بدمشق وكاتب سرها بعد عزل القاضي قطب الدين محمد الخيضي بمال كثير بذله في الوظيفتين.

ثم في يوم الثلاثاء استقر القاضي تاج الدين عبد الله بن المقسي ناظر الدولة كاتب المماليك السلطانية بعد عزل سعد الدين بن عبد القادر.

وفي رابع صفر استقر علي بن إسكندر محتسب القاهرة بعد عزل بور الدين بن البوشي.

وفيه استقر إياس الجاسي نائب القدس بعد عزل البدري حسن بن أيوب ثم عزل إياس المذكور في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الأول بشاه منصور بن شهري.

ثم في يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الأول المذكور ورد الخبر بموت الأمير يشبك من جانبك المؤيدي الصوفي أتاك دمشق بها فاستقر في أتاكية دمشق عوضه الأمير علان شلق المؤيدي أحد أمراء دمشق بمال بذله في ذلك نحو العشرة إلاف دينار وأنعم بتقدمة علان المذكور على شادبك السيفي جلبان مضاقًا إلى دوايرية السلطان بدمشق وذلك أيضًا بالبذل.

ورسم بإقطاع شادبك المذكور للأمير قراجا الظاهري وهو بالقدس بطالًا ليكون بيده وهو طرخان ثم بطل ذلك.

ثم في يوم الخميس حادي عشر شهر ربيع الآخر رسم السلطان بنقل الأمير جانم الأشرفي نائب حلب من نيابة حلب إلى نيابة دمشق بعد موت الأمير قاني باي الحمزاوي بحكم وفاته وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير جانبك من أمير الظريف الأشرفي أحد أمراء الطبلخانات وخازندار.

ورسم بانتقال الأمير حاج إينال الإشبيكي من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب عوضًا عن جانم الأشرفي المذكور وصار مسفره الأمير سودون الإينالي المؤيدي قراقاس ثاني رأس نوبة.

ورسم باستقرار الأمير إياس المحمدي الناصري الطويل نائب حماة في نيابة طرابلس عوضًا عن حاج إينال ومسفره الأمير جاني بك الإينالي الأشرفي المعروف بقلقسيز أحد أمراء العشرات ورأس نوبة.

ورسم باستقرار الأمير جانبك التاجي المؤيدي نائب صفد في نيابة حماة عوضًا عن إياس المحمدي ومسفره جانم المؤيدي المعروف بحرامي شكل أحد العشرات ورأس نوبة.

ورسم باستقرار خيربك النوروزي نائب غزة في نيابة صفد عوضًا عن جانبك التاجي ومسفره قانم طاز الأشرفي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة.

ثم استقر بعد مدة الأمير بردبك العبد الرحماني أحد أمراء الألوف بدمشق في نيابة غزة عوضًا عن خيربك النوروزي المقدم ذكره وصار مسفره السيفي خيربك من حديد إلاجرود أحد الدوايرية الخاصكية.

قلت: وجميع ولاية هؤلاء النواب المذكورين بالبذل ما خلا الأمير جانم نائب الشام.

ثم أنعم السلطان بتقدمة بردبك العبد الرحماني الذي بدمشق على الأمير قراجا الظاهري المقدم ذكره.

ثم في يوم الخميس عاشر جمادى الأولى استقر الأمير بردبك الأشرفي الدوادار الثاني وصهر السلطان أمير حاج المحمل واستقر الأمير كسباي الششماني المؤيدي أحد أمراء العشرات أمير الركب الأول.

واستقر الأمير يرشباي الإينالي المؤيدي الأمير آخور الثاني كان وأحد أمراء الطبلخانات الآن أمير المماليك المجاورين بمكة ورسم لأسندمر الجقمقي بالمجيء من مكة إلى مصر.

ثم في يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى المذكور استقر القاضي محمب الدين بن الشحنة الحلبي الحنفي كاتب السر الشريف بالديار المصرية بعد عزل القاضي محب الدين بن الأشقر.

ثم في يوم الثلاثاء خامس شهر رجب أمسك السلطان القاضي شرف الدين موسى الأنصاري ناظر الجيش وسلمه إلى الطواشي فيروز النوروزي الزمام والخازندار فدام عنده إلى أن صودر وأخذ منه جمل من إلاموال بغير استحقاق بعد أن عزل عن وظيفة نظر الجيش كما سيأتي ذكره.

ثم ورد الخبر على السلطان من حلب أن الطادون فشا بها وكثر.

ثم في يوم الخميس رابع عشر شهر رجب استقر القاضي برهان الدين إبراهيم بن الديري ناظر الجيوش المنصورة عوضًا عن الأنصاري المقدم ذكره بمال كثير بذله في ذلك.

ثم في يوم السبت سادس عشر رجب تعرض جماعة من المماليك الأجلاب للأمير زين الدين الأستاذار فهرب منهم فضربوا الوزير وبهدلوه إلى الغاية ولم ينتطح في ذلك عنزان لقوة شوكة الأجلاب في هذه الأيام حتى تجاوزت الحد وبطل أمر حكام الديار المصرية قاطبة وصار من كان له حق أو شبه حق لا يشتكى غريمه إلا عند الأجلاب ففي الحال يخلص حقه من غريمه إما على وجه الحق أو غيره فخافهم كل أحد لا سيما التجار والبيعة من كل صنف.

وترك غالب الناس معايشهم خوفًا على رأس مالهم فعز بسبب ذلك وجود أشياء كثيرة ووقع الغلاء في جميع الأشياء لاسيما في إلامصناف المتعلقة بالأجناد مثل الشعير والتبن والدريس ومما أشبه ذلك من أنواع أقمشة الخيل والبغال والمتعلقة بذلك حتى صار لا يوجد بالكلية إلا بعد عسر كبير وصار من له ضيافة من تبن أو دريس أو شعير من الأجناد يسافر من القاهرة ويلاقيه ويمشي معه حتى يصل إلى بيته إن قدر على ذلك وإن كان أميرًا أرسل إلى ملاقاته بعض ممالিকে وربما أخذوا ممن استضعفوه من الأجناد أو مماليك الأمراء وزاد الأمر حتى أضر بجميع الناس قاطبة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي يوم الأحد سابع عشر شهر رجب تعرض بعض المماليك الأجلاب للقاضي محب الدين ابن الشحنة كاتب السر وهو طالع إلى الخدمة السلطانية وضره من غير أمر يوجب ضره أو الكلام معه.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره استقر الأمير ناصرالدين بن محمد القساسي المعروف بمخلع دوادار السلطان بحلب.

وفي يوم الخميس حادي عشرين رجب أيضًا استقر البدري حسن بن أيوب في نيابة القدس بعد عزل منصور بن شهري.

وفيه رسم السلطان بطلب أبي الخير النحاس من البلاد الشامية على يد ساع.

وفي يوم السبت أول شعبان وقع حريق عظيم ببندر جدة بالحجاز.

وفيه توفي خيربك المؤيدي الأشقر الأمير آخور الثاني وأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير بردبك المحمدي الظاهري المعروف بالهجين الأمير آخور الثالث وأنعم بإقطاع بردبك المذكور على تغري بردي الأشرفي وأنعم بإقطاع تغري بردي على قراجا الأشرفي الأعرج وتغري بردي وقراجا كلاهما من مماليك السلطان القديمة أيام إمرته.

ثم في يوم الاثنين ثالث شعبان المذكور استقر الأمير يلبي الإينالي المؤيدي أحد أمراء الطبلخانات أمير آخور ثانيا عوضًا عن خيربك الأشقر المقدم ذكره.

وفيه استقر دولات باي الظاهري نائب رأس نوبة الجمدارية رأس نوبة الجمدارية عوضًا عن قراجا الطويل الأعرج الذي تآمر.

واستقر في نيابة رأس نوبة الجمدارية شخص يسمى قايتباي الأشرفي فوثب شخص من الخاصكية الأجلاب يسمى برسباي وجذب سيفه بالقصر السلطاني بسبب ولاية هذين لهاتين الوظيفتين ولكونه لم لا ولي هو إحداهما ثم وقع منه أموراً ضربنا عن ذكرها خوفًا على ناموس ملك مصر.

ثم في يوم السبت ثامن شعبان رسم بإطلاق القاضي شرف الدين الأنصاري من مكانه بقلعة الجبل بعد أن أخذ منه جملة مستكثرة من الذهب العين وغيره.

ثم في يوم الأحد تاسعه ضرب السلطان مملوكين من مماليكه الأجلاب وحبسهما لأجل قتلها نانق الظاهري ولم يقتلها به كما أمر الله تعالى.

ثم في يوم ثاني شهر رمضان وصل أبو الخير النحاس من البلاد الشامية إلى لقاهرة وخلع السلطان عليه كاملية بمقلب سمور.

وفي يوم الثلاثاء تاسعه قدم أبو الخير النحاس إلى السلطان اثنين وسبعين فرسًا وثلاثين بغلاً.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان المذكور نهبت العبيد والمماليك الأجلاب النسوة اللاتي حضرن صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص رضي الله عنه بمصر القديمة وأفحشوا في ذلك إلى الغاية وكل مفعول جائز.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر استقر أبو الخير النحاس ناظر الذخيرة السلطانية ووكيل بيت المال.

وفي يوم الأحد حادي عشرينه أغلقت المماليك الأجلاب باب القلعة ومنعوا الأمراء والمباشرين من النزول إلى دورهم بسبب تعويق عليق خيولهم وفعلوا ذلك أيضًا من الغد إلى أن رسم لهم عوضًا عن كل عليقة مائتا درهم.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين شهر رمضان المقدم ذكره استقر خشقدم السيفي أردبغا الذي كان دودار القاني باي الحمزاوي نائب الشام في حربية طرابلس على سبعة آلاف دينار بعد عزل شادبك الصارمي.

وفي يوم الأحد ثامن عشرينه وصل إلى الديار المصرية جاكم الفرنجي ابن جوان صاحب جزيرة قبرس بطلب من السلطان ليلي عوضًا عن أبيه ملك قبرس وكان أهل قبرس ملكوا عليهم أخته مع وجوده كونه ابن زنا أو غير ذلك لأمر لا يجوز وليته في ملتهم.

وفي هذا الشهر أخذ الطادون في انحطاط من مدينة حلب وانتشر فيما حولها من البلدان والقرى بعد أن مات منها نحو من مائتي ألف إنسان.

ثم في يوم الخميس ثالث شوال ضربت المماليك الأجلاب أبا الخير النحاس وأخذوا عمامته من على رأسه فتزايد ما كان به من الضعف فإنه كان مستضعفًا قبل ذلك بمدة.

وأخذ أمره من يومئذ في انحطاط ولزم الفراش إلى أن مات حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي يوم السبت خامس شوال عمل السلطان الموكب بالحوش السلطاني من قلعة الجبل وأحضر جاكم بن جوان الفرنجي وخلع عليه كاملية وخلع على اثنين آخر من الفرنج الذين قدموا معه وأعطاه السلطان فرسًا بسرح ذهب وكنبوش زركش وركب الفرس المذكور وغيره مدة إقامته بالديار المصرية وولاه نيابة قبرس ووعد بالقيام معه وتخليص قبرس له.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شوال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل وهو الأمير بردك الدوادر الثاني وأمير الركب الأول الأمير كسباي من ششمان أحد أمراء العشرات.

وفي يوم الخميس أول ذي القعدة شرع السلطان في عمارة مراكب برسم المجاهد وإرسال جاكم صحبتهم إلى قبرس وجعل المتحدث على عمارة المراكب المذكورة سنقر الأشرفي الزردكاش المعروف بقرق شبق فباشر سنقر المذكور عمل المراكب أقبج مباشرة من ظلم وعسف وأخذ لإخشاب بأبخس إلاثمان إن وزن ثمنًا.

وفعل هذا الشقي أفعالًا لا يفعلها الخوارج عليه من الله ما يستحق من الخزي والنكال بحيث إنه جمع من هذا المال الخبيث جملة كبيرة خرجت منه بالمصادرة والنهب والحريق " [وما ربك بظلام للعبيد](#) ".

ثم في يوم الاثنين خامس ذي القعدة سافر تغري بردي الطياري الخاصكي قاصدًا قبرس ليخبر أهلها أن السلطان يريد ولاية جاكم هذا على قبرس مكان والده وعزل أخته ويلومهم على عدم ولاية جاكم هذا وتقديم أخته عليه.

وفي يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة مات الأمير بايزيد التمرغاوي أحد أمراء الألوف بالديار المصرية وأنعم السلطان بتقدمته وإقطاعه على الأمير سيودون الإينالي المؤيدي رأس نوبة ثان بمال بذله سيودون في ذلك وأنعم بإقطاع سيودون المذكور وهو إمرة طبلخاناه على الأمير خشكلدي القوامي الناصري.

واستهلت سنة أربع وستين وثمانمائة بيوم الأحد.

وفي يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم من السنة المذكورة وصلت الغزاة المتوجهة قبل تاريخه إلى بلاد الجرون بئر التركية لإحضار لإخشاب وكان مقدم هذا العسكر أربعة من الأمراء العشرات وهم: قاني باي قراسقل المؤيدي والأمير جانبك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكوهية والأمير مغلباي طاز المؤيدي والأمير بردك اليشبكي المشطوب.

وفي يوم سابع عشرينه الموافق لسادس عشر هاتور لبس السلطان القماش الصوف الملون وألبس الأمراء على العادة في كل سنة.

وفي هذا الشهر عظم الطادون بمدينة غزة وأباد الموت أهلها حتى تجاوز عدد الموتى بها في اليوم سبعمائة وقيل أكثر وأقل .

وفي يوم السبت ثاني عشر صفر خلع السلطان على فارس مملوك الطواشي فيروز الركني باستقراره وزيرًا بعد تسحب علي بن الأهناسي فلم يحسن فارس المذكور المباشرة سوى يوم واحد وعجز وكاد أن يهلك.

وكان لولايته أسباب منها: أنه كان يبرق ويرعد ويوسع في الكلام في نوع المباشرة وغيرها فحسب السامع أن " في السويداء رجالا " واستسمن ورمه فولاه فما هو إلا أن أرمى الخلعة على أكتافه حتى ظهر عليه العجز الفاضح في الحال وضاق عليه فضاء الدنيا وخسر في اليوم المذكور جملاً مستكثرة.

واستعفى وترامى على أكابر الدولة وكاد أن يهلك لولا أن أعفي وعزل بعد أن الزم بشيء له جرم على ما قيل وولي صاحب شمس الدين منصور الوزر عنه.

قلت: ما أحسن الأشياء في محلها وحينئذ اعطي القوس لراميه.

وفي يوم الخميس سابع عشر صفر ورد الخبر من الشام بموت الأمير علان شلق المؤيدي أتاك دمشق.

وفي يوم ثامن شهر ربيع الأول استقر الحاج محمد الأهناسي البرددار وزيرًا بعد عزل صاحب شمس الدين منصور من غير عجز بل لمعنى من المعاني.

والحاج محمد هذا هو والد علي بن الأهناسي المقدم ذكره في الوزر والأستادارية وولي الوزر قبل أن تسبق له رئاسة في نوع من الأنواع لأن كلا الوالد والولد عار عن الكتابة ومعرفة قلم الديونة ولم يكن لهما صنعة غير الرسلية والبرددارية لا غير فباشير الحاج محمد هذا الوزير أحد عشر يومًا وعزل وأعيد صاحب شمس الدين منصور للوزر ثانيًا.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأول استقر الأمير تغري بردي الأشرفي أحد أمراء العشرات نائب الكرك وأنعم بإقطاعه على ابن الأمير بردك الدوادر الثاني والمنعم عليه هو ابن بنت السلطان.

ثم في يوم الخميس ثاني عشرينه استقر الأمير تمرباي ططر الناصري أحد أمراء العشرات أمير حاج المحمل.

ثم في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الأول المذكور عمل السلطان المولد النبوي بالحوش السلطاني على العادة في كل سنة وأحضر السلطان جاكم الفرنجي ابن صاحب قبرس وأجلسه عند أعيان مباشري الدولة فعظم ذلك على الناس قاطبة.

قلت: ولعل السلطان ما أحضره في هذا المجلس إلا ليريه عز الإسلام وذل الكفر.

ثم في أول شهر ربيع الآخر ظهر الطادون بمدينة بليس وخانقاه سرياقوس.

من ضواحي القاهرة.

وكان أول الشهر يوم الجمعة الموافق لأول طوبة من شهور القبط فتخوف كل أحد من مجيء الطادون إلى القاهرة.

هذا مع ما الناس فيه من جهد البلاء من غلو الأسعار وظلم المماليك الأجلاب الذي خرج عن الحد وعدم الأمن وكثرة المخاوف في إلزقة والشوارع بحيث إن الشخص صار لا يقدر على خروجه من داره بعد أذان عشاء الآخرة حتى ولا لصلاة الجماعة ولو كان جار المسجد.

وإن أذن العشاء والشخص خارج عن داره هرول في مشيه واسرع لئلا تغلق عليه الدروب التي عمرتها رؤساء كل حارة خوفا على بيوتهم من المناسر والحرامية لأن والي القاهرة خيربك القصري حط عنه أمور الناس وانعكف على ما هو عليه من المفاسد وسببه أنه علم أن الذي يتعبث على الناس أو يسرق إنما هو من المماليك الأجلاب أو من أتباعهم وعلم مع ذلك ميل السلطان إلى الأجلاب واتفق بعد ذلك كثرة السراق وفتح البيوت وهجم المناسر على الحارات وكلمه السلطان في ذلك بكلام خشن ووبخه في الملأ وكان أن يفتك به فأوهم الوالي السلطان بالتلويح في كلامه أن الذي يفعل ذلك إنما هو من المماليك الأجلاب وكان الذي لوحه الوالي إلى السلطان قوله: " يا مولانا السلطان أنا ما لي شغل ولا حكم على من يلبس طاقية يعني المماليك وما حكمي إلا على العوام والحرامية " فسكت السلطان ولم يكلمه بعد ذلك إلا في غير هذا المعنى فوجد الوالي بذلك مندوحة لسائر أغراضه وحط عنه واستراح وانحل النظام وضاعت حقوق الناس وأخذ كل مفسد يتزيا بزى الجند ويفعل ما أراعه وصار الوالي هو كبير الحرامية ولا قوة إلا بالله.

وفي يوم السبت تاسع شهر ربيع الآخر اختفى صاحب شمس الدين منصور وتعطل بسبب غيابه رواتب المماليك السلطانية فاستغاثوا المماليك الأجلاب ومنعوا الأمراء يوم الأربعاء من طلوع القلعة وامتنعوا من طلوع الخدمة يوم الخميس أيضًا رابع عشره.

وطلع الأمير يونس الدوادار إلى القلعة بغير قماش الخدمة فلما وصل إلى باب القلعة احتاطت به المماليك الأجلاب وسألوه أن يكلم السلطان في أمرهم فدخل الأمير يونس المذكور إلى السلطان وذكر له ذلك.

ثم ترعرت الرسل بين السلطان وبينهم إلى أن آل الأمر إلى طلب سعد الدين فرج بن النحال واستقر وزيرًا على عادته أولاً على شروط ونزل من وقته وباشر الوزير وسكن الأمر.

وقد ذكر لي صاحب شمس الدين أنه لم يختف إلا بإذن السلطان.

وفي هذه الأيام

▲ فشا الطادون بالقاهرة

وكان عدة من ورد اسمه الديوان من الأموات في يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر المذكور الموافق لسابع عشر أمشير وهو يوم تنتقل الشمس إلى برج الحوت خمسة وثلاثين نقرًا ولها تفصيل وذلك خارج عن اليمارستان المنصوري والأوقاف والقرافتين والصحراء وبولاق ومصر القديمة.

وأما ضواحي القاهرة وإقليم الشرقية والغربية من الوجه البحري فقد تزايد الطادون فيها حتى خرج عن الحد وهو إلى الآن في زيادة.

وكان أمر الطادون في القرى أنه إذا وقع بقربة يفني غالب من بها ثم ينتقل إلى غيرها وربما اجتاز ببعض القرى ولم يدخلها فسبحانه يفعل في ملكه ما يريد.

وفي يوم الخميس حادي عشرينه ضرب المماليك الأجلاب الأمير زين الدين الأستاذار بسبب عليق الخيول ضربًا مبرحًا وانقطع بسبب ذلك عن الخدمة أيامًا كثيرة.

وفي يوم السبت ثالث عشرينه وقع من بعض المماليك الأجلاب إخراج في حق الأمير يونس الدوادار والشخص المذكور يسمى قانصوه وكان ذلك في الملاء من الناس ونزل الأمير يونس إلى داره وهو في غاية ما يكون من الغضب فما كفى قانصوه المذكور ما وقع منه في القلعة في حق الأمير يونس حتى نزل إليه بداره وأساء عليه ثانيًا بحضرة مماليكه وحواشيه فلم يسع الأمير يونس المذكور إلا أن قام من مجلسه وعزل نفسه عن الدوادارية ودخل إلى في داره من وقته وأقام بها من يومه.

ثم في الغد لم يقع من السلطان على قانصوه المذكور بسبب ما وقع منه في حق الأمير يونس كبير أمر ولا كلمه الكلام العرفي غير أن ابن السلطان الشهابي أحمد أرسل سأل الأمير يونس في الطلوع إلى القلعة وحضور الخدمة.

ثم إن بعض الأمراء أخذ قانصوه المذكور وأتى به إلى الأمير يونس حتى قبل يده ولازال ذلك الأمير وغيره بالأمير يونس حتى رضي عنه بعد أن أوسعه سبًا وتوبيخًا وذلك حيث لم يجد يونس له ناصرًا ولا معيّنًا.

وأغرب من هذا أنه بلغني أن قانصوه لما أفحش في أمر الأمير يونس أولًا ربما أضاف إليه السلطان في بعض إلساءة والسلطان يسمع كلامه.

قلت: إن صح هذا فهو مما يهون علي الأمير يونس ما وقع في حقه من قانصوه.

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه عجز الأمير زين الدين الأستاذار عن القيام بجامكية المماليك السلطانية فقام إلى السلطان شخص من الخاصكية الأجلاب يسمى جانيه المجنون وقال السلطان: " الملوك التي كانت قبلك كانوا ينفقون الجوامك لأي شيء أنت ما تعطي مثلهم ".

فغضب السلطان من كلامه وطلب العصي ليضربه فخرج جماعة من الأجلاب من خجداشيته وجذبه من بين يدي السلطان وتوجهوا به إلى الطبقة ولم يتكلم السلطان بكلمة واحدة.

هذا والطادون أمره في زيادة.

فلما استهل جمادى الأولى الموافق لتاسع عشرين أمشير كان في التعريف أعني عدة من يرد اسمه الديوان من الأموات ستين نفرًا وهذا خلاف لإماكن المقدم ذكرها من البيمارستان والطرحى والقرافتين والصحراء ومصر وبولاق.

وأما نواحي أرياف الوجه البحري ففي زيادة حتى قيل إنه كان يموت من خانقاه سرباقوس في اليوم ما يزيد على مائتي نفر.

ووصل في هذه الأيام عدة من يموت بالمحلة الكبرى إحدى قرى القاهرة كل يوم زيادة على مائتين وخمسين إنسانًا وهذا أمر كبير كون أن المحلة وإن كانت مدينة هي قرية من القرى ومثلها كثير من أعمال الديار المصرية.

غير أن ذلك كان نهاية الطادون بها وابتدائه بالقاهرة فإن الطادون كان وقع بإلرياف قبل القاهرة بمدة فلما أخذ الطادون في انحطاط من إلرياف أخذ في الزيادة بالقاهرة ومصر وضواحيها كما هي عادة الطادون وانتقاله من بلد إلى أخرى.

وفي يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى من سنة أربع وستين المذكورة أنعم السلطان على سودون الأفرم الظاهري الواصل قبل تاريخه من البلاد الشامية بإمرة عشرة بعد موت الأمير أسندمر الجقمقي.

وفي هذا اليوم أيضًا كان عدة من ورد التعريف بهم من الأموات بالقاهرة فقط مائة وعشرة نفر ولها تفصيل ما بين رجال ونساء وصبيان وموال وليس لذكر التفصيل هنا محل.

وكان من شأن هذا الطادون أنه ينقص في اليوم نقصًا قليلًا عن أمسه ثم يزيد في الغد كثيرًا إلى أن انتهى ونقص وهو على هن! الصفة.

وفي هذه الأيام بلغ عدة من يموت في اليوم بخانقاه سرباقوس أكثر من ثلاثمائة نفر ويقول المكثّر أربعمائة وبالمحلة ثلاثمائة وفي مدينة منف في يوم واحد نحوًا من مائتين وقس على هذا في سائر القرى وهذا نهاية النهاية الآن.

وفي يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى يوم تنتقل الشمس فيه إلى برج الحمل كان فيه عدة من ورد اسمه التعريف مائة وسبعين نفرًا وجاء في هذا اليوم عدة من صلي عليه من الأموات بمصلاة باب النصر على حدتها مائة نفر فكيف يكون التعريف كله مائة وسبعين وبالقاهرة مصلوات كثيرة نذكرها بعد ذلك في محلها!.

وأبلغ من هذا أن الأمير زين الدين الأستاذار ندب جماعة من الناس بأجرة معينة إلى ضبط جميع مصلوات القاهرة وظواهرها وكان ما حرروه ممن صلي عليه في اليوم ستمائة إنسان فعلى هذا لا عبرة بذكر التعريف المكتتب من ديوان المواريث غير أن فائدة ذكر التعريف تكون لمعرفة زيادة الوباء ونقصه لا غير ففي ذكره فائدة ما.

وفي يوم الجمعة عشرين جمادى الأولى كان فيه التعريف مائتين وتسعة نفر.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه أنعم السلطان على قاني باي الأشرفي المعروف بأخي قانصوه النوروزي بإمرة عشرة بعد موت الأمير يشبك الظاهري.

ثم في يوم الخميس سادس عشرينه استقر الأمير برسباي البجاسي حاجب الحجاب أمير آخور كبيرًا بعد موت يونس العلائي بالطادون واستقر سودون الإينالي المؤيدي المعروف بقراقاش في حجوبة الحجاب عوضًا عن برسباي البجاسي المقدم ذكره.

وفيه أيضًا أنعم السلطان بإقطاع يونس العلائي على الأمير جرباش المحمدي أمير مجلس وأنعم بإقطاع جرباش المذكور على الأمير جانبك الظاهري نائب بندر جدة وصار جانبك من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية وذلك زيادة على ما بيده من التحدث على بندر جدة بل على جميع الأقطار الحجازية وإلإقطاع الذي استولى عليه الأمير جرباش والذي خرج عنه كلاهما تقدمه ألف لكن متحصل خراجهما يتفاوت.

وفي يوم الخميس هذا كان عدة من ورد اسمه الديوان من الأموات نحوًا من مائتين وخمسة وثلاثين نفرًا وكان عدة المضبوط بالمصلاة ألفًا ومائة وثلاثة وخمسين نفرًا وذلك

خارج عما ذكرنا من مصر وبولاق والقرافتين والصحراء والأوقاف وزاوية الخدام خارج الحسينية.

وفي يوم السبت ثامن عشرين جمادى الأولى المقدم ذكرها استقر الشهابي أحمد بن قليب أستاذار السلطان بمدينة طرابلس في حجوية حجاب طرابلس زيادة على ما بيده من الأستادارية وغيرها وكانت ولايته للحجوية بعد موت خشقدم إاردبغاوي دوادار قاني باي الحمزاوي.

ثم استهل جمادى الآخرة أولها يوم الثلاثاء وقد كثر الوباء بالديار المصرية وانتشر بها وبظواهرها هذا مع الغلاء المفرط في الأسعار وظلم الممالك الأجلاب فصارت الناس بين ثلاثة أمور عظيمة: الطادون والغلاء والظلم وهذا من النوادر وقوع الوباء والغلاء معًا في وقت واحد فوقع ذلك وزيد ظلم الأجلاب ولله الأمر.

وكان التعريف في هذا اليوم ثلاثمائة وستة عشر نفرًا وكان الذي حرروه في السبع عشرة مصلاة ألف إنسان وتسعمائة إنسان وعشرة.

وأنكر ذلك غير واحد من الناس استقلالًا بل قال بعضهم وبالغ بأن عدة من يموت في اليوم بالقاهرة أكثر عن ثلاثة إلاف نفر واعتل بقوله إن الذين ندبوا لضبط المصلوات اشتغل كل منهم بنفسه وبمن عنده وبغلمانه.

قلت: الصواب بل لإصح مقالة الثاني لما شاهدناه من كثرة الجنائز وازدحام الناس بكل مصلاة والله أعلم.

وأما أمر الغلاء ففي هذا الشهر بيع فيه القمح كل إردب بستمئة درهم والبطة من الدقيق العلامة بمائة وسعين درهمًا والرطل الخبز بأربعة دراهم وهو عزيز الوجود بالحوانيت في كثير من الأوقات والشعير والبول كلاهما بأربعمائة درهم إاردب وهما في قلة إلى الغاية والنهاية والحمل التبن بأربعمائة درهم ولا بد له من حارس من الأجناد يحرسه من الممالك الأجلاب هذا والموت فيهم بالجريف وصلوات الله على سيدنا عزرائيل وما سوى ذلك من المأكّل فسعره متحسن لا كسعر كالشعير والتبن والقمح والبول كون هذه الأشياء يحتاج إليها الأجلاب فيأخذونها بأبخس الإثمان فترك الناس بيع هذه لإصناف إلا المحتاج فعز وجودها لذلك.

ووقع للأجلاب في هذا الوباء أمور عجيبة فإنهم لما فرغوا من أخذ بضائع الناس ظهر منهم في أيام الوباء أخذ إقطاعات الأجناد فصاروا إذا رأوا شخصًا على حانوت عطار أخذوه وقالوا له: " لعل الضعيف يكون له إقطاع " فإن كان له إقطاع عرفهم به وإن لم يكن للضعيف إقطاع طال أمره معهم إلا أن يخلصه منهم أحد من الأعيان.

ثم بدا لهم بعد ذلك أن كل من سمعوا له إقطاعًا من أولاد الناس أو الأجناد القرانيص أخذوا إقطاعه فإن كان صحيحًا يرتجون مرضه وإن كان ضعيفًا ينتظرون موته فعلى هذا الحكم خرج إقطاع غالب الناس الحي والميت حتى إنهم فعلوا ذلك بعضهم مع بعض.

فصار السلطان والناس في شغل شاغل لأن الأجلاب صاروا يزدحمون عليه لأخذهم إقطاعات الناس وعندما يتفرغ من الممالك الأجلاب يتظلم كل أحد إليه ممن خرج إقطاعه وهو في قيد الحياة فلم يسعه إلا رده عليه فصار لإقطاع يخرج اليوم ويرد إلى صاحبه في الغد فصار يكتب في اليوم الواحد عدة مناشير ما بين إخراج ورد واستمر الناس على ذلك من أول الفصل إلى آخره.

وأغرب من هذا أن بعض الأجلاب اجتاز في عظم أيام الوباء بالصحراء فحاذى جنازة امرأة على نعشها طرحة زركش فاختطفها وساق فرسه فلم يوقف له على أثر.

ووقع لبعض الأجلاب أيضًا أنه صدف في بعض الطرقات جنازة وهو سكران فأمره المدير بالوقوف لتمر الجنازة عليه فحنق منه وأراد ضرب المدير فهرب منه ف ضرب الميت على رأسه وقد شاهد ذلك جماعة كثيرة من الناس.

وفيما حكيناه كفاية عن فعل هؤلاء الظلمة " إلا لعنة الله على الظالمين " .

وفي يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة وصل إلى القاهرة تغري بردي الطياري الخاصكي المتوجه فى الرسلية إلى جزيرة قبرس وصحبته جماعة كثيرة من ملوك الفرنج وأهل قبرس.

والقادمون من الفرنج على قسمين: فرقة تسأل إبقاء ملك قبرس على الملكة المتولية وفرقة تسأل عزلها وتولية أخيها جاكم الفرنجي الذي قدم إلى القاهرة قبل تاريخه فلم يبت السلطان الأمر من ولاية ولا عزل في هذا اليوم وأحال الأمر إلى ما سيأتي ذكره.

وفي يوم الخميس ثالث جمادى الآخرة المذكورة عظم الطادون بالقاهرة وطواهرها واختلفت كلمة الحساب لاشتغال كل أحد بنفسه وبمن عنده فمنهم من قال: يموت في اليوم أربعة إلف إنسان ومنهم من قال: ثلاثة إلف وخمسمائة وقاس صاحب القول الثاني على عدة من صلي عليه في هذا اليوم المذكور بمصلاة باب النصر وقال: إن كل مائة ميت بمصلاة باب النصر بثلاثمائة وستين ميثًا وجاءت مصلاة المؤمني في هذا اليوم أربعمائة وسبعة عشر ميثًا وهذا كله تقريبًا لا تحرييرًا على الإوضاع.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة عمل السلطان الموكب بالحوش السلطاني لأجل قصاد الفرنج وحضرت الفرنج وقبلوا الأرض ونزلوا أيضًا على غير طائل.

وفي يوم الجمعة حادي عشره كان فيه التعريف مائتين وثمانين وجاءت مصلاة باب النصر على حدتها خمسمائة وسبعين.

وفيه ضربت المماليك الأجلاب الوزير سعد الدين فرج بن النحال ضربًا مبرحًا لكونه لم يزد راتب لحمهم.

وفي يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة كان فيه التعريف نحو ثلاثمائة إنسان منهم مماليك خمسة وسبدون: منهم خمسة وثلاثون من مماليك الأمراء وغيرهم ومن بقي سلطانية.

وأما الذي ضبط في هذا اليوم ممن صلي عليه من الأموات باثنتي عشرة مصلاة أربعة إلف إنسان وفي ذلك نظر لأن مصلاة باب النصر وحدها جاءت في هذا اليوم خمسمائة وسبعين ومصلاة البيطرة أربعمائة وسبعين وجامع الإزهر ثلاثمائة وستة وتسعين فمجموع هذه المصليات الثلاث من جملة سبع عشرة مصلاة أو أكثر ألف وأربعمائة وستة نفر فعلى هذا كيف يكون جميع من مات في هذا اليوم أربعة إلف! فهذا محال وهذا خارج عن القرافتين والحسينية والصحراء وبولاق ومصر القديمة إلا أن غالب من يموت صغار وعبيد وجوار.

غير أن هذا الطادون كان أمره غريبًا وهو أن الذي يطعن فيه قل أن يسلم حتى قال بعضهم: لعل إن من كل مائة مريض يسلم واحد فأنكر ذلك غيره وقال: ولا كل ألف مبالغة.

وفي يوم الأربعاء سادس عشره الموافق لرابع عشر برمودة ارتفع الوباء من بولاق وكان الذي مات بها في اليوم ثلاثة نفر وقيل سبعة وقيل عشرة.

هذا بعد أن كان يموت في اليوم ثلاثمائة وأربعمائة ويقول المكثر خمسمائة فسبحانه وتعالى فاعلاً مختارًا يفعل في ملكه ما وغيرها وعظم في القاهرة وما حولها من جهة الصليبية والقلعة وقناطر السباع.

وكان الذي مات من المماليك الأجلاب الإينالية في هذا الطادون إلى يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة ستمائة مملوك وثلاثين مملوكًا.

إلى لعنة الله وسقر إلى حيث ألفت.

ومما وقع لي من أوائل هذا الفصل قولي على سبيل المجاز: السريع قد جاءنا الفصل على بغتة مستجلبًا حل مجد الطلب من كثرة البغي وظلم بدا يخصه الله بمن كان جلب وفي يوم الاثنين حادي عشرين جمادى الآخرة الموافق لتاسع عشر برمودة وهو أول خمسين النصارى فيه ظهر نقص الطادون بالقاهرة وكان ابتداء النقص من يومي الخميس والجمعة.

وفي يوم الاثنين هذا كان عدة من صلي عليه بمصلاة باب النصر ثلاثمائة وخمسين إنسانًا وجامع إلهزهر ستمائة إنسان وهو أكثر ما وصل إليه العدة بالجامع المذكور لأن غالب الطادون الآن هو بالقاهرة وكان عدة من صلي عليه بمصلاة البيطرة مائتين وأربعة وهو بحكم النصف مما كان صلي عليه بها قبل ذلك وكان عدة من صلي عليه بمصلاة المؤمني مائتين وثمانين نفرًا وهو أقل من النصف أولًا.

ونحن نذكر إن شاء الله تعالى عدة هذه المصلوات في يوم الاثنين القابل ليعلم الناظر في هذا الكتاب كيفية انحطاط الطادون عند زواله من اليوم إلى مثله.

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشرينه الموعود بذكره كان فيه عدة من صلي عليه بمصلاة باب النصر مائة وتسعين وبالجامع إلهزهر زيادة على مائة وثلاثين وبمصلاة البيطرة مائة وأربعة عشر وبمصلاة المؤمني مائة وسبعة وثلاثين ونذكر إن شاء الله تعالى في يوم الاثنين إلاتي عدة ذلك أيضًا.

وفي يوم الخميس تاسع شهر رجب فيه فشا الطادون وانحط سعر الغلال وظهر الشعير والتبن والدريس لموت تلك الجبابرة والأجلاب.

وفيه طعن جامعهم ثم من الله تعالى بالعافية بعد أمور ولله الحمد على المهلة.

وفي يوم الجمعة ثالث شهر رجب المذكور الموافق لسلخ برمودة لبس السلطان القماش الأبيض البعلبكي المعتاد لبسه لأيام الصيف.

ثم في يوم الاثنين سادسه كان فيه عدة من صلي عليه من الأموات بمصلاة باب النصر مائة وقيل تسعين وبمصلاة البيطرة زيادة على الخمسين وبمصلاة المؤمني زيادة على التسعين.

ثم في يوم السبت حادي عشره استقر الأمير أرغون شاه الأشرفي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة أستاذار الصحة السلطانية بعد موت يشبك الأشرفي الأشقر.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب كان فيه عدة من صلي عليه من الأموات بمصلاة باب النصر نحوًا من خمسة وعشرين نفرًا وبمصلاة البيطرة ثلاثة وعشرين وبالجامع الأزهر خمسة نفر وبمصلاة المؤمني نيفًا وثلاثين نفرًا.

هذا والعلة موجودة في الأكابر والأعيان إلى آخر رجب.

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشره استقر القاضي تقي الدين بن نصر الله ناظر ديوان المفرد عوضًا عن صاحب شمس الدين منصور بن الصلي.

وفيه استقر الشيخ سراج الدين عمر العبادي الشافعي ناظر إباحاس بعد موت القاضي زين الدين عبد الرحيم العيني.

واستهل شعبان يوم الخميس وقد خف الطادون من الديار المصرية بالكلية فكان عدة من مات في هذا الطادون من المماليك الأجلاب الإينالية فقط ألقًا وأربعمئة نفر فالله يلحق بهم من بقي منهم وهذا خلاف من مات في هذا الطادون من المماليك السلطانية الذين هم من سائر الطوائف.

ثم في يوم الثلاثاء سادس شعبان المذكور من سنة أربع وستين وقع في المملكة أمر شنيع وهو أن السلطان جمع أعيان الفرنج القبارسة في الملاً بالحوش السلطاني وأراد بقاء الملكة صاحبة قبرس على عادتها وخلع على قصادها أعيان الفرنج واستقر تغري بردي الطياري مسفرها وعلى يده تقليدها وخلعتها.

وكان الفرنجي جاكم أخوها حاضر الموكب وقد جلس تحت مقدمي الألوف فعز عليه ولاية أخته وإبقاؤها على ملك الأفقسية من جزيرة قبرس مع وجوده فقام على قدميه واستغاث وتكلم بكلام معناه أنه قد جاء إلى مصر والتجأ إلى السلطان ودخل تحت كنفه وله عنده هذه المدة الطويلة وأنه أحق بالملك من أخته وبكى فلم يسمع السلطان له وصمم على ولاية أخته وأمره بالنزول إلى حيث هو سكنه.

فما هو إلا أن قام جاكم المذكور وخرج من باب الحوش إلاوسط.

ثم خرج بعده أخصامه حواشي أخته وعليهم الخلع السلطانية فمدت الأجلاب أيديها إلى أخصام جاكم من الفرنج وتناولوهم بالضرب والأخراق وتمزيق الخلع واستغاثوا بكلمة واحدة أنهم لا يريدون إلا تولية جاكم هذا مكان والده.

وعظمت الغوغاء فلم يسع السلطان إلا أن أذعن في الحال بعزل الملكة وتولية جاكم فتولى جاكم على رغم السلطان بعد أن أمعنوا المماليك الأجلاب في سب الأمير بردك الدوادار الثاني وقالوا له: " أنت إفرنجي وتحامي للفرنج ".

فاستغاث بردك المذكور ورمى وظيفة الدوادارية وطلب إلاقالة من المشي في الخدمة السلطانية فلم يسمع له السلطان وفي الحال خلع على جاكم ورسم بخروج تجريدة من

الأمراء إلى غزو قبرس تتوجه مع جاكم المذكور إلى قبرس حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى في وقته.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره رسم السلطان باسقرار الأمير قراجا الظاهري الخازندار حاجب الحجاب كان أتابك عساكر دمشق بعد موت الأمير علان المؤيدي بمال وعد به نحو عشرة إلاف دينار.

وفي يوم السبت سابع عشره استقر القاضي ولي الدين أحمد ابن القاضي تقي الدين محمد البلقيني قاضي قضاة دمشق الشافعية بعد عزل القاضي جمال الدين يوسف البادوني.

وفيه استقر القاضي زين الدين أبو بكر بن مزهر ناظر الجيوش المنصورة بعد عزل القاضي برهان الدين إبراهيم الديري.

وفي يوم الأحد ثامن عشره عرض السلطان المماليك السلطانية بالحوش وعين منهم جماعة للجهاد أعني للسفر صحبة جاكم الفرنجي إلى قبرس وقد تعين من يسافر إلى قبرس من الأمراء قبل ذلك.

وفيه ورد الخبر من مكة المشرفة بموت الأمير يرشباي الإينالي المؤيدي رأس المماليك المجاورين بها فأنعم السلطان بإقطاعه في يوم الثلاثاء على دولات باي الأشرفي الساقى وعلى خيربك من حديد الأشرفي الدوادار نصلين بالسوية لكل منهما إمرة عشرة.

واستهل شهر رمضان أوله الجمعة في يوم السبت ثانيه خلع السلطان على الأمير جانبك الظاهري أحد أمراء مقدمي الألوف بسفره إلى بندر جدة على عادته في كل سنة وخرج من الغد متوجهاً إلى جدة في غاية التجميل والحرمة.

وفي يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان المذكور عين السلطان الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أمير سلاح إلى سفر الوجه القبلي لقتال العرب الخارجة عن الطاعة وعين معه مائتي مملوك وسافروا يوم الثلاثاء ثاني عشره.

وفي هذا الشهر قوي إلهتمام بسفر المجاهدين وقاست الناس من أعوان سنقر الزردكاش شدائد يطول الشرح في ذكرها حتى قال بعض الشعراء الموالاة بليقاً تعرض فيه لظلم سنقر الزردكاش وحواشيه بقوله: قبل الغزا جاهد في الناس فصار الظلم أنواع وأجناس ووقع بسبب عمارة هذه المراكب مظالم لا تحصى من قطع أشجار الناس عسفاً وأخذهم ما يحتاجون إليه ظلماً.

وزاد ظلم سنقر هذا على الناس حتى جاوز الحد فلا جرم أن الله تعالى عامله بعد ذلك من جنس فعله في الدنيا بما قاساه من النفي والحبس وأخذ المال مع الذل والهوان والصغار وحل به كل مصيبة حتى أحرقت داره بجميع ما فيها ثم نهب ما فضل من الحريق وتشتت في البلاد على أقبح وجه هذا في الدنيا وأما الآخرة فأمره إلى الله تعالى.

وفي يوم الأحد أول شوال عين السلطان الأمير كزل السودوني المعلم والأمير برسباي الأشرفي الأمير أخور للتوجه إلى الإسكندرية وصحبتها مائة وخمسون مملوكاً من المماليك السلطانية لأخذ ما هناك من المراكب والتوجه بها إلى ثغر دمياط من البحر الملح ليكون سفر جميع المجاهدين من مينة واحدة وهي مينة دمياط.

ثم في يوم الأربعاء رابع شوال أنفق السلطان في المجاهدين من المماليك السلطانية للفارس والراجل سواء لكل واحد مبلغ خمسة عشر دينارًا وأنفق على كل مملوك من المماليك الذين يتوجهون مع كزل وبرسباي المقدم ذكرهما عشرة دنانير الواحد.

ثم في يوم الاثنين تاسعه نزل السلطان الملك الأشرف إبنال في موكب هائل من قلعة الجبل بأمرائه وخاصكيته وأعيان دولته إلى جزيرة أروى المعروفة بالوسطى بساحل النيل لينظر ما عمر من المراكب فسار إلى هناك في موكب عظيم ونظر المراكب وخلع على سنقر قرق شبق الزردكاش المقدم ذكره وعلى جماعة آخر ممن باشر عمل المراكب ثم عاد من حيث جاء من قناطر السباع فلم يبتهج الناس لنزوله لعظم ما قاسوه من الظلم في عمل هؤلاء المراكب من قلة الأنصاف والجور في حق العمال من أرباب الصنائع وغيرهم.

ولولا أن الأمر منسوب إلى نوع من أنواع الجهاد لذكرنا من فعل سنقر هذا ما هو أقيح من أن نذكره.

ثم في يوم الثلاثاء سابع عشر شوال سافر المجاهدون في بحر النيل إلى ثغر دمياط ومقدم العساكر يوم ذاك في البر الأمير يونس لإقبائي الدوادر الكبير وفي البحر الأمير قائم من صفر خجا المؤيدي التاجر أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية ومعهما بقية الأمراء ومنهم الأمير سودون الإينالي المؤيدي المعروف بقرقاش حاجب الحجاب وغيره.

وخلع السلطان على هؤلاء الثلاثة المذكورين وخلع أيضًا على جاكم الفرنجي خلعة نخ بقايم ونزل جميع الغزاة في خدمتهم إلى بحر النيل وسافر هؤلاء الأمراء الثلاثة إلى دمياط من يومهم وبقي من عداهم يسافرون إرسالًا في كل يوم إلى يوم الثلاثاء القابل لكثرة عدة العساكر.

وأما مقدار عدد من سافر في هذه الغزوة من الأمراء والجنود فعدة كبيرة.

فأولهم أمراء الألوف الثلاثة المقدم ذكرهم.

ثم من أمراء الطيلخانات ثلاثة أيضًا وهم: الأمير برديك البجمقدار الظاهري ثاني رأس نوبة وجانبك من أمير الخازندار الأشرفي ويشبك من سلمان شاه الفقيه المؤيدي رأس نوبة.

ومن أمراء العشرات جماعة وهم: جكم الأشرفي خال الملك العزيز يوسف ودقماق الشبكي وكسباي الششمانى المؤيدي وطوخ إلبو بكري المؤيدي رأس نوبة وقائم نعمة الأشرفي رأس نوبة وسنقر قرق شبق الأشرفي الزردكاش المقدم ذكره وقراجا الأعرج الطويل أحد مماليك السلطان القديمة.

وأما المماليك السلطانية فعدتهم تزيد على خمسمائة نفر تخيمًا.

وهذا خلا المطوعة وغيرهم من الخدم والمراكبية وأنواعهم.

وفي يوم الخميس تاسع عشر شوال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل وهو الأمير تمرباي من حمزة الناصري المعروف بططر أحد أمراء العشرات وأمير الركب الأول تنم الحسيني الأشرفي رأس نوبة.

وفي يوم الجمعة سابع عشرينه أمسك السلطان زين الدين الأستادار وجنزره وحبسه بالبحرة من الحوش السلطاني وندب صاحب شمس الدين منصور بن الصلي لمحاسبته فقأمت المماليك الأجلاب على منصور حمية لزين الدين فراج أمر زين الدين لذلك لعلم الناس أن السلطان مسلوب لإختيار مع ممالিকে الأجلاب.

واستمر زين الدين بالبحرة إلى يوم الأحد فأخرجه السلطان واستقر به أستادارا على عادته ولبس خلة الأستادارية من الغد في يوم الاثنين أول ذي القعدة.

ثم في يوم الأربعاء ثالث ذي القعدة وصل لإاميل خشقدم أمير سلاح من الوجه القبلي بمن معه من المماليك السلطانية.

وفي يوم الأربعاء سابع عشره قتل ابن غريب البدوي.

وفي يوم الاثنين هرب زين الدين الأستادار واختفى بحيث إنه لم يعرف له مكان واستقر صاحب شمس الدين في الأستادارية عوضه.

ثم استهل سنة خمس وستين وثمانمائة.

فكان أول المحرم الخميس.

ثم في يوم السبت ثالثه وصل الأمير جانبك الظاهري أحد مقدمي الألوف من بندر جدة إلى الديار المصرية بعد أن حج وحضر الموسم بمكة وبات بتربة الملك الأشرف إبنال بالصحراء وطلع إلى القلعة من الغد في يوم الأحد وخلع السلطان عليه ونزل إلى داره في موكب عظيم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين المحرم وصل أمير الركب الأول الأمير تم الحسيني الأشرفي وخلع عليه السلطان وأصبح في يوم الجمعة وصل أمير حاج المحمل تمرباي ططر بالمحمل وخلع السلطان عليه أيضًا.

وفي يوم الجمعة سلخ المحرم وصل إلى القاهرة جماعة من الغزاة وأخبروا أن العساكر الإسلامية بأجمعها خرجوا من جزيرة قبرس في يوم الجمعة ثالث عشرين المحرم وساروا على ظهر البحر الملح يريدون السواحل الإسلامية فهبت ريح عظيمة شتت شملهم وتوجهوا إلى عدة جهات بغير إرادة.

وكانت مركب هؤلاء وصلت إلى ساحل الطينة وأخبروا أيضًا بموت الأمير سودون قراقاش حاجب الحجاب.

ثم وصل من الغد برديك غرب الأشرفي الخاصكي وأخبر بنحو ما أخبر به هؤلاء المماليك وأعلم السلطان أيضًا أن الأمير يونس الدوادار ترك بجزيرة قبرس جماعة من المماليك السلطانية ومماليك الأمراء قوة لجاكم صاحب قبرس وجعل مقدمهم جانبك الأبلق الظاهري الخاصكي وأن جماعة كبيرة توفوا إلى رحمة الله تعالى من عظم الوخم.

واستهل صفر يوم السبت.

ثم في يوم الأربعاء خامسه استقر الأمير كسباي المؤيدي السمين نائب القلعة في نيابة الإسكندرية بعد الأمير جانبك نائب بعلبك النوروزي فاستقر خيربك القصري والي القاهرة نائب القلعة عوضًا عن كسباي المذكور بمال بذله في ذلك.

ثم في يوم الخميس سادس صفر استقر علي بن إسكندر والي القاهرة واستقر تنم من بخشاش الظاهري الخاصكي المعروف برصاص في حسبة قاهرة عوضًا عن علي بن إسكندر وكلاهما ولي بالبذل وتنم هذا هو أول تركي ولي الحسبة بالبذل ولم نسمع ذلك قبل تاريخه لا قديمًا ولا حديثًا.

وفي يوم الجمعة سابعه الموافق لخامس عشرين هاتور لبس السلطان القماش الصوف الملون المعتاد لبسه لأيام الشتاء وألبس الأمراء على العادة.

ثم في يوم السبت خامس عشره وصل المجاهدون جميعًا إلى ساحل بولاق وباتوا بالميدان الكبير عند بركة الناصرية وطلعوا إلى القلعة من الغد في يوم الأحد وقبلوا الأرض وخلع السلطان على الأمير يونس الدوادار أطلسين متمرًا وفوقانيًا بطرز زركش كما هي عادة خلعة الأتابكية فتعجب الناس من ذلك وقيد له فرسًا بسرج ذهب وكنبوش زركش.

ثم خلع السلطان على الأمير قائم المؤيدي أحد مقدمي الألوف فوقانيًا بطرز زركش.

وكذلك خلع على جميع الباشات من الأمراء.

ونزل الجميع في خدمة الأمير يونس الدوادار إلى بيته تجاه الكبش ثم عاد كل واحد إلى داره.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين صفر أنعم السلطان على الأمير يلبياي الإينالي المؤيدي الأمير آخور الثاني بإمرة مائة وتقدمة ألف بعد موت سودون قراقاش بقبرس وأنعم بإقطاع يلبياي المذكور وهو إمرة طبلخاناه على الأمير تمرباي من حمزة المعروف بططر وأنعم بإقطاع تمرباي ططر على جانبك الأشرفي قلقسيز فلم يقبله جانبك المذكور وأنعم به على الأمير قاني بك السيفي يشبك بن أزدمر وأنعم بإقطاع قاني بك المذكور وهو إمرة عشرة أيضًا على دولات باي الخاصكي الأشرفي المعروف بدولات باي سكسن أعني ثمانين ولم يكن دولات هذا أهلًا لذلك وإنما هي أرزاق مقسومة إلى البر والفاجر.

وفي يوم الخميس سابع عشرين صفر استقر الأمير بيبرس الأشرفي خال الملك العزيز يوسف حاجب الحجاب بالديار المصرية عوضًا عن سودون قراقاش بحكم وفاته بقبرس واستقر الأمير بردبك المحمدي الظاهري الهجين إلامي آخور الثالث أمير آخور ثانيًا عوضًا عن الأمير يلبياي المقدم ذكره واستقر قراجا الطويل الأعرج الأشرفي أمير آخور ثالثًا عوضًا عن بردبك الهجين.

ثم في يوم الخميس رابع شهر ربيع الأول استقر الأمير مغلبياي طاز الأوبكري المؤيدي أمير حاج المحمل واستقر تنبك البواب الأشرفي الخاصكي أمير الركب الأول.

ثم في يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول المذكور عمل السلطان المولد النبوي على العادة في كل سنة بالحوش السلطاني.

ثم سافر المقام الشهابي أحمد ابن السلطان إلى السرحة ومعه أخوه محمد من الغد في يوم الاثنين ثامن إلى جهة الوجه البحري شرقًا وغربًا وسافر معه جماعة من الأعيان وأمراء العشرات.

ثم في يوم الخميس سادس عشره استقر علي بن الأهناسي وزيرًا بعد استعفاء الصاحب فرج بن النحال.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه حبس السلطان القاضي صلاح الدين أمير حاج المكيني بحبس الرحبة وسبب ذلك أنه كان استبدل وقفاً فشكى عليه بسبب ذلك الوقف فرسم السلطان بحبسه فحبس إلى آخر النهار ثم أطلق من يومه بعد أن قرر عليه مبلغ من الذهب.

ثم في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر نودي بزينة القاهرة لقدم أولاد السلطان من السرحة ووصلا في يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر المذكور وشقا القاهرة في موكب هائل وطلعا إلى القلعة وخلع عليهما والدهما السلطان الملك الأشرف إينال ثم نزلا في وجوه الدولة إلى بيت المقام الشهابي أحمد وهو إلخ إلاكبر وأتابك العساكر بالديار المصرية.

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه استقر إينال الأشقر الظاهري الخاصكي والي القاهرة بعد عزل علي بن إسكندر.

واستهل جمادى الأولى يوم الخميس.

في ثاله يوم السبت مرض السلطان الملك الأشرف إينال مرض الموت ولزم الفراش.

فلما كان يوم الاثنين خامسه وصل الأمير بردبك الدوادر الثاني والأمير ناصرالدين نقيب الجيش من الطينة وكانا توجهها قبل تاريخه لينظرا مكان البرج الذي يريدون عمارته هناك.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشره أرجف بموت السلطان ولم يصح ذلك وأصبح الناس في هرج وماجوا ووقف جماعة من العامة عند باب المدرج أحد أبواب القلعة فنزل إليهم الوالي وبدد شملهم.

ثم نودي في الحال بالأمان والبيع والشراء وأن أحدا لا يتكلم بما لا يعنيه فسكن الأمر إلى يوم الأربعاء رابع عشره.

فلما كان ضحوة يوم الأربعاء المذكور طلب الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة وطلعت الأمراء والأعيان واجتمعوا الجميع بالدهيشة فلم يشك أحد في موت السلطان فلم يكن كذلك بل كان الطلب لسلطنة المقام الشهابي أحمد قبل موته.

فلما تكامل الجمع خلع السلطان نفسه من السلطنة بالمعنى لأنه ما كان إذ ذاك يستطيع الكلام بل كلمهم بما معناه أن الأمر يكون من بعده لولده فعلموا من ذلك أنه يريد خلع نفسه وسلطنة ولده ففعلوا ذلك كما سيأتي ذكره في محله في أول ترجمة الملك المؤيد أحمد إن شاء الله تعالى.

ومات الأشرف إينال في الغد حسبما نذكره.

وكانت

▲ مدة تحكم الملك الأشرف إينال

هذا من يوم تسلطن بعد خلع الملك المنصور عثمان إلى هذا اليوم وهو يوم خلع نفسه من السلطنة ثماني سنين وشهرين وستة أيام.

ومات في يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى بعد خلعه نفسه بيوم واحد بين الظهر والعصر فجهز من وقته وغسل وكفن وصلي عليه بباب القلة من قلعة الجبل ودفن من يومه بتربته التي عمرها بالصحراء وقد ناهز الثمانين من العمر.

وكان جاركسي الجنس وقد تقدم الكلام على أصله وجالبه إلى القاهرة وكيفية ترقيه إلى أن تسلطن في أول ترجمته من هذا الكتاب.

وكانت صفته - رحمه الله - أخضر اللون للسمره أقرب طولًا غالب طوله من وسطه ونازل قصير البشت رقيق الوجه نحيف اليد لحيته في حنكه وهي شعرات بيض ولهذا كان لا يعرف إلا بإينال إاجرود وفي كلامه رخو مع خنث كان في لهجته ولهذا لما لبس السواد خلعة السلطنة كان فيها غير مقبول الشكل لكونه أسمر اللون والخلعة سوداء فلم تتبجح الناس برؤيته ولذلك أسباب: السبب الأول ما ذكرناه من صفته وسواد الخلعة والسبب الثاني وهو لإغلب لعهد الناس من شكل الملك المنصور عثمان الشكل الظريف البهي والفرق واضح لأن المنصور كان سنه دون العشرين سنة من غير لحية وهو في غاية الحسن والجمال - أحسن الله دونه - والأشرف إينال هذا سنه فوق السبعين وقد علمت صفته مما ذكرناه فلا لوم على من لا يعجبه شكل الأشرف إينال ولا عتب.

وكان له محاسن ومساوىء والأول أكثر.

فأما محاسنه فكان ملكًا جليلاً عاقلاً رئيسًا سيوسًا كثير إلاحتمال عديم السر غير سباب ولا فحاش في حال غضبه ورضاه.

وكان عارقًا بالأمور والوقائع والحروب شجاعًا مقدمًا كثير التجارب للخطوب والقتال عظيم التروي في أفعاله ثابتًا في حركاته ومهماته له معرفة تامة بملوك الأقطار في البلاد الداخلة في حكمه وفي الخارجة عن حكمه أيضًا عارقًا بجهات ممالكه شرقًا وغربًا وفهمًا بفنون الفروسية وأنواعها لا يحب تحرك ساكن ولا إثارة فتنة وعنده تودة في كلامه واحتمال زائد يؤديه ذلك إلى عدم المروءة عند من لا يعرف طباعه.

ومن محاسنه أنه منذ سلطنته ما قتل أحدًا من الأمراء ولا من الأجناد الأعيان على قاعدة من تقدمه من الملوك إلا من وجب عليه القتل بالشرع أو بالسياسة وأيضًا أنه كان قليلًا ما يحبس أحدًا أو ينفية سوى من حبس في أوائل دولته من أعيان الأمراء كما هي عوائد أوائل الدولة.

ثم بعد ذلك لم يتعرض لأحد بسوء إلا انه نفى جماعة عندما ركبوا عليه ثابتًا في حدود سنة ستين وخلع الخليفة القائم بأمر الله حمزة بسبب موافقته لهم على قتاله ثم حبسه بالإسكندرية وهو معذور في ذلك ولو كان غيره من الملوك لفعل أضعاف ذلك بل وقتل منهم جماعة كثيرة.

وبالجملة فكانت أيامه سكونًا وهدوءًا ورياقة وحضور بال لولا ما شان سؤدده من ممالিকে الأجلاب وفسدت أحوال الديار المصرية بأفعالهم القبيحة ولولا أن الله تعالى لطف بموته لكان حصل الخلل بها وربما خربت وتلاشى أمرها.

هذا ما أوردناه من محاسنه بحسب القوة والباعثة.

وأما مساوئه فكان بخيلًا شحيحًا مسيكا يخل ويشح حتى على نفسه.

وكان عاريًا من العلوم والفنون المتعلقة بالفضائل.

كان أميًا لا يعرف القراءة والكتابة حتى كان لا يحسن العلامة على المناشير هذا مع طول مكثه في السعادة والرياسة والولايات الجليلة ثم السلطنة.

ومع هذا لم يهتد إلى معرفة الكتابة على المناشير ولا غيرها فهذا دليل على بلادة ذهنه وجمود فكره.

ولعله كان لا يحسن قراءة الفاتحة ولا غيرها من القرآن العزيز فيما أظن.

وكانت صلواته للمكتوبات صلاة عجيبة نقرات ينقر بها لا يعبأ الله بها.

وكان مع هذه الصلاة العجيبة لا يحب التملق ولا إطالة الدعاء بعد الصلاة بل ربما نهى الداعي عن تطويل الدعاء.

ولم يكن بالعفيف عن الفروج بل ربما اتهمه بعض الناس بحب الوجوه والملاح والصبح من الغلمان والله تعالى أعلم بحاله إلا أنه كان يعف عن تعاطي المنكرات المسكرات.

وكان في الغالب أموره وأحكامه مناقضة للشريعة لا سيما لما أنشئت مماليكه الأجلاب فإنهم قلبوا أحكام الشريعة ظهرًا لبطن وهو راض لهم بذلك وكان يمكنهم إرداعهم بكل ممكن ومن قال غير ذلك فهو مردود عليه وأحد أقوال الرد عليه قول من يقول: فكيف سطوة السلطنة مع عدم قوته لرد هؤلاء الشرذمة القليلة مع بغض العالم لهم وضعفهم عن ملاقاته بعد العوام! فكيف أنت بهم وقد ندب لهم طائفة من طوائف المماليك! ومثل هذا القول فكثير.

وأيضًا رضاه بما فعله سنقر قرق شبق الزردكاش عند عمارته لمراكب الغزاة لأن سنقر فعل أفعالًا لا يرتضيها من له حظ في الإسلام وكان يمكنه رده عن ذلك بكل طريق بل كان يخلع عليه في كل قليل ويشكر أفعاله فرضاه بفعل مماليكه الأجلاب وبفعل سنقر هذا وأشباه ذلك هو أعظم ذنوبه.

وما ساء منه الناس وأبغضته الخلائق وتمنوا زوال ملكه إلا هذا المعنى ومعنى آخر وهو ليس بالقوي وهو ثقل وطأة ولده وزوجته ومملوكه بردبك الدوادار.

قلت: وإلاصح عندي هو الذنب الأول.

وأما هؤلاء فكان ثقلهم علي مباشري الدولة أن على من يسعى عندهم في وظيفة من ولاية أو عزل أو أمر من الأمور فعلى هذا كان ضررهم خصوصًا لا عمومًا وأيضًا لا يشمل ضررهم إلا لمن جاء إلى بابهم أو قصدهم في حاجة دنيوية فهو أحق بما يحل به لأنه هو الساعي في إيذاء نفسه والمثل يقول: " من قتلته يديه لا بكاء عليه " .

نعم وكان من مساوئه مخافة السبل في أيامه بالقاهرة وإلإرياف حتى تجاوز الحد وعمرت الناس على بيوتهم الدروب لعظم خوفهم من دق المناسر وقطاع الطريق بإلإرياف مع أنه كان قاطعًا للمفسدين غير أن حمايات كانت كثيره في أيامه وهذا أكبر أسباب خراب الديار المصرية وقراها ومن يوم تجددت هذه حمايات فسدت أحوال إلإرياف قبلها وبحريها وهذا البلاء ما كثر وفشا في الدولة إلا بعد الدولة المؤيدية شيخ واستمرت هذه السنة القبيحة إلى يومنا هذا.

والعجب أنه ليس لها نفع على السلطان ولا على بلاده وإنما هي ضرر محض على السلطان والناس قاطبة والملك لا يلتفت إلى إزالتها مع أنه لو منع ذلك لم يضر أحد من

الناس وانتفع الناس جميعًا بمنعها وعمرت غالب البلاد وتساوت الناس وبالمساواة تعمر جميع الممالك غير أن الفهم والعقل والتدبير منح إلهية فلا يفيد الكلام في ذلك ولله در القائل: الوافر لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في الرماد وقد خرجنا عن المقصود.

ولما كثر فساد الممالك الأجلاب عمل بعض الظرفاء بليقًا ذكر فيه أفعال الأجلاب ومساوئهم واستطرد إلى أن قال في آخره: حاشا لله دوام هذي النقمه ونحن أفضل برية من أمه نبينا ما حد مثلو أزاح عنا كيد الكفار وقد رمينا بيد الإشرار فكل حد ماسك ديلو متى يزيح عنا هذي الدوله ويحكم الناس من لوصوله وترتاح البرية في عدلو فالله بجاه سيد عدنان عوض لنا منك بإحسان فوالله العظيم لم تمض عليه سنة بعد ذلك بل ولا ستة أشهر حتى مرض ومات.

فهذا ما ذكرناه من محاسن الملك الأشرف إينال ومساوئه ونرجو الله تعالى أن يكون ذلك على الأنصاف لا على التحامل.

السنة الأولى من سلطنة الأشرف إينال وهي سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

على أن الملك المنصور عثمان حكم منها إلى ثامن شهر ربيع الأول.

وفيها أعني سنة سبع وخمسين المذكورة توفي الشهابي أحمد ابن الأمير فخر الدين عبد الغني بن عبد الرزاق بن أبي الفرج متولي قطيا في أوائل المحرم وهو في الكهولية.

وتوفي السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق العلاني الظاهري في ليلة الثلاثاء ثالث صفر ودفن من يومه حسبما تشتم ذكره في ترجمته مستوفاة في هذا الكتاب فلتنظر في محله.

وتوفي الأمير اسنغا بن عبد الله الناصري الطياري رأس نوبة النوب في ليلة السبت سادس شهر ربيع الأول في أيام الفتنة وهو فى بيت الأمير قوصون وعليه آلة السلاح شبه الفجاءة.

وكانت مدة مرضه يومًا واحدًا وصلى عليه الأتابك إينال العلاني بدار قوصون المذكورة وجميع الأمراء وعليهم آلة السلاح ثم حمل ودفن من يومه في الصحراء ومات وهو في عشر الثمانين تخمينًا وكان من محاسن الدنيا كرمًا وعقلًا وشجاعة وتواضعًا ومعرفة.

كان كامل إلدوات قل أن ترى العيون مثله رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير جانبك بن عبد الله الشيبكي والي القاهرة ثم الزردكاش في ليلة الخميس ثامن عشر شهر ربيع الأول وهو في أوائل الكهولية ودفن من الغد.

وكان أصله من ممالك الأمير يشبك الحكمي الأمير آخور ثم اتصل بعد موته بخدمة السلطان ثم صار خاصكيًا في الدولة الأشرفية برسباي وصحب صاحب جمال الدين يوسف ابن كاتب جكم ناظر الخواص فروجه في المملكة حتى صار ساقيًا في الدولة الظاهرية جقمق ثم تأمر عشرة بعد مده طويلة وصار من جملة رؤوس النوب ثم استقر والي القاهرة ثم أضيف إليه حسبة القاهرة في سنة أربع وخمسين ثم انفصل من الحسبة واستمر في الولاية سنين كثيرة إلى أن نقل إلى وظيفة الزردكاشية في الدولة المنصورية عثمان بعد انتقال الأمير لاجين الظاهري إلى شد الشراب خاناه وتولى عوضه

ولاية القاهرة يشيك القرمي الظاهري فلم تطل أيامه زردكاشًا ومات في أوائل الدولة الأشرفية إينال حسبما تقدم ذكره.

وكان مليح الشكل متجملاً حسن المحاضرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أرنبغا اليونسي الناصري أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية في ليلة الجمعة تاسع عشر شهر ربيع الأول وسنه زيادة على السبعين وأنعم السلطان بتقدمته على الأمير دولاب باي المحمودي الدوادار بعد مجيئه من السجن بمدة.

وكان أرنبغا هذا تتري الجنس من مماليك الملك الناصر فرج وهو أخو سونجبغا الناصري وأرنبغا هذا هو الأكبر.

وتنقلت بأرنبغا هذا الأحوال إلى أن تأمر في دولة الملك الأشرف برسباي عشرة وصار من جملة رؤوس النوب وطالت أيامه وحج وجاور في مكة غير مرة ثم نقل في الدولة الظاهرية جقمق إلى إمرة طبلخاناه ثم صار في أوائل دولة الأشرف إينال أمير مائة ومقدم ألف فلم تطل مدته ومات في التاريخ المقدم ذكره.

وكان أميرًا شجاعًا مقدمًا عارفاً بالحروب وأنواعها إلا أنه كان مسرفًا على نفسه مع قلة تجمل في ملبسه ومماليكه وخدمه رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين سامح الحسيني الظاهري الحاجب الثاني وأحد العشرات في ليلة الاثنين سادس شهر ربيع الآخر ودفن من الغد وسنه نيف على السبعين.

وكان رجلًا ساكنًا قليل الخير والشر لا للسيف ولا للضيف.

وتوفي الشيخ الإمام المعتقد الواعظ أبو السادات يحيى ابن الشيخ المعتقد الواعظ شهاب الدين أحمد ابن الشيخ الإمام العارف بالله محمد وفاء الشاذلي المالكي المعروف بابن أبي الوفاء في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر ودفن بتربتهم بالقرافة الصغرى.

وكان جلس للوعظ والتذكير على عادتهم وصار على وعظه أنس وقبول من الناس إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة بدرالدين محمد ابن القاضي ناصرالدين محمد ابن العلامة شرف الدين عبد المنعم البغدادي الحنبلي قاضي الديار المصرية ورئيسها في ليلة الخميس سابع جمادى الأولى ودفن من الغد وحضر الخليفة القائم بأمر الله حمزة الصلاة عليه بصلاة باب النصر ودفن بالتربة الصوفية وكانت جنازته مشهودة.

كثراً أسف الناس عليه لحسن سيرته ولعفته عما يرمى به قضاة السوء.

ومات وهو في أوائل الكهولية.

وكان له اشتغال ومعرفة تامة بصناعة القضاء والشروط والأحكام وأما سياسة الناس ومحبته لأصحابه وكرمه وسؤدده فكان إليه المنتهى في ذلك.

وكان قامعًا لشهود الزور والمناحيس.

وبالجملة فكان بوجوده نفع للمسلمين رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير الوزير سيف الدين تغري بردي القلاوي الظاهري قتيلاً في واقعة كانت بينه وبين سونجبغا الناصري وهي واقعة عجيبة لأنهما تماسكا على الفرسين فقتل الواحد الآخر ثم قتل الآخر في الحال كلاهما مات على فرسه وذلك في يوم السبت سادس عشر جمادى الأولى وقد ذكرنا واقعتهما في تاريخنا " حوادث الدهور " مفصلاً فليُنظر هناك.

وكانت نسبته بالقلاوي إلى ناحية قلا لما كانت إقطاعاً لأستاذه الملك الظاهر جقمق لما كان أميراً ولم يكن تغري بودي هذا مشكور السيرة في ولايته عفا الله تعالى عنا وعنّه.

وتوفي الأمير سونجبغا اليونسي الناصري ببلاد الصعيد في وقعته مع تغري بردي القلاوي في يوم واحد حسبما تقدم ذكره وسنه زيادة على الستين.

وهو أخو أرنبغا المقدم ذكره غير أن أرنبغا كان مشهوراً بالشجاعة وإلقدام وسونجبغا هذا شجاعة ولا كرمًا.

وتوفي الشيخ عز الدين محمد الكتبي المعروف بالعز التكروري في يوم الأربعاء سابع عشرين جمادى الأولى.

وكان معدودًا من بياض الناس له حانوت يبيع فيه الكتب بسوق الكتبيين وكانت له فضيلة بحسب الحال.

وتوفي الأمير سيف الدين دولاب باي المحمودي المؤيدي الدوادار كان وهو أحد مقدمي الألو في يوم السبت أول جمادى الآخرة ودفن بالصحراء خارج القاهرة من يومه وسنه أزيد عن خمسين سنة.

وكان جاركسي الجنس جلبه خواجه محمد إلى الإسكندرية فاشتراه منه نائبها الأمير أقبردي المنقار وبلغ الملك المؤيد شيخا ذلك فبعث طلبه منه فأرسله إليه فأعتقه المؤيد أن كان أقبردي ما كان أعتقه وجعله خاصكياً ثم ساقياً في أواخر دولته.

فلما تسلطن الملك الأشرف برسباي عزله عن السقاية.

ودام خاصكياً دهرًا طويلًا إلى أن صحب الأمير جانم الأشرفي قريب الملك الأشرف برسباي ثم صاهره فتحرك سعده بصهارة جانم المذكور.

ولازال جانم به إلى أن نفعه بأن توجه بتقليد نائب صفد وخلعته بعد أن كان خلص له إمرة عشرة من الملك الأشرف مع بغض الأشرف في دولاب باي هذا.

فلما أمسك جانم مع من أمسك من أمراء الأشرفية لم ينفعه دولاب باي المذكور بكلمة واحدة هذا إن لم يكن حط عليه في الباطن ولا استبعد أنا ذلك لقرائن دلت على ذلك.

ولما تسلطن الملك الظاهر جقمق استقر بدولاب باي هذا أمير آخور ثانيًا بعد مسك الأمير نخشباي الأشرفي وحبسه.

ثم نقل دولاب باي بعد أيام إلى الدوادارية الثانية بعد الأمير أسنبغا الطياري بحكم انتقاله إلى إمرة مائة وتقدمة ألف كل ذلك في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

فباشر دولات باي الدوادارية بحرمة وافرة ونالته السعادة وأثرى وجمع إلاموال الكثيرة وعمر إلاملاك الهائلة إلى أن أنعم عليه السلطان بإمرة مائة وتقدمة ألف في صفر سنة ثلاث وخمسين بعد موت الأمير تمراز القرمشي الظاهري فلم تطل أيامه في التقدمة.

وولي الدوادارية الكبرى يمال بذله نحو العشرة إلاف دينار عوضًا عن قاني باي الجركسي بحكم انتقاله إلى الأمير آخورية الكبرى بعد موت الأمير قراخجا الحسني.

ولما ولي الدوادارية الكبرى خدمت ريجه وانحطت حرمة بالنسبة إلى ما كانت عليه أيام دوادارته الثانية والسببية واضحة وهي أنه كان أولًا مطلوبًا والآن صار طالبًا.

ثم سافر دولات باي أمير حاج المحمل بعد مدة وكان وليها مرة أولى في سنة تسع وأربعين فهذه المرة الثانية في سنة ست وخمسين وعاد في سنة سبع وخمسين وقد خلع الملك الظاهر جقمق نفسه من الملك وسلطن ولده الملك المنصور عثمان فأقام في دولة المنصور دوادارًا على حاله وقد خاف من صليير الصافر.

فلم يكن بعد أيام إلا وقبض عليه في يوم الخميس ثاني عشر صفر من السنة المذكورة وحمل إلى الإسكندرية فحبس بها شهرًا وأيامًا.

وأطلقه الملك الأشرف إينال وأحضره إلى القاهرة ثم أنعم عليه بعد مدة بإقطاع الأمير أرنبغا اليونسي فلم تطل أيامه إلا نحو الشهر ومرض ومات في التاريخ المقدم ذكره.

ولقد قال لي بعض الحداق إن سبب موته إنما كانت طربة يوم أمسك ودامت الطربة إلى أن قتله.

قلت: وأنا لا أستبعد هذا لما كان عنده من الجبن والحدرد وعدم إلامقدام.

على أنه كان مليح الشكل متجملاً في ملبسه ومركبه وقورًا في الدول إلا أنه لم يشهر بشجاعة ولا كرم في عمره.

وتوفي الأمير سيف الدين قانصوه بن عبد الله النوروزي أحد أمراء دمشق بها في أواخر جمادى الأولى وله من العمر نحو الستين سنة تخمينًا.

وكان أصله من مماليك الأمير نوروز الحافظي نائب الشام وصار خاصكيًا بعد موته في الدولة المؤيدية شيخ ثم تأمر عشرة بعد موت المؤيد ثم صار أمير طبلخاناه في دولة الظاهر ططر ودام على ذلك سنينًا كثيرة إلى أن أخرجه الملك الأشرف برسباي إلى نيابة طرسوس ثم نقله إلى حجوية حلب ثم تقدمة ألف بدمشق.

ثم خرج على الملك الظاهر جقمق ووافق الأمير إينال الجكمي على العصيان فلما كسر الجكمي اختفى قانصوه مدة ثم ظهر وتنقل أيضًا في عدة أماكن وهو في جميع ما يتحرك فيه مخمول الحركات إلى أن مات.

وكان مليح الشكل وعنده شجاعة ومعرفة برمي الشباب إلا أنه كان خاملاً ما أظنه ملك في عمره ألف دينار ولولا الحياء لقلت ولا سلاريًا ثانيًا وفي هذا كفاية.

وتوفي الأمير سيف الدين قشتم بن عبد الله المحمودي الناصري نائب البحيرة قتيلاً في واقعة كانت بينه وبين العربان الخارجة عن الطاعة في أواخر شهر رجب وقد ناهز الستين من العمر.

وكان أميرًا جليلاً عاقلاً حشماً وقوراً شجاعاً مقداماً كريماً متواضعاً مليح الشكل وهو ممن جمع بين الشجاعة والكرم والتواضع رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين بيغوت بن عبد الله من صفر خجا المؤيدي الأعرج نائب صفد بها في أواخر شعبان وقد جاوز الستين.

وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ في أيام إمرته وصار خاصكياً بعد موته إلى أن نفاه الملك الأشرف برسباني إلى الشام ثم أنعم عليه بإمرة طبلخاناه بدمشق ثم ولي نيابة حمص في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق مدة ثم نقل إلى نيابة صفد دفعة واحدة بعد الأمير قاني باي الأوبكري الناصري البهلوان بحكم توجهه إلى نيابة حماة ثم نقل بيغوت هذا إلى نيابة حماة ووقع له مع أهل حماة أمور وشكاوالت إلى تسحبه من حماة وتوجهه إلى ديار بكر بعد أن أمسك ولده إبراهيم بالقاهرة وحبس.

ووقع له أيضاً بديار بكر أمور ومحن وأمسك وحبس بقلعة الرها ثم أطلق وعاد طائئاً إلى السلطان الملك الظاهر جقمق وقدم القاهرة ثم عاد إلى دمشق بطالاً إلى أن أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بها بعد موت الأمير بردك العجمي الحكمي فدام على ذلك إلى أن نقله الظاهر إلى نيابة صفد ثانياً بعد موت يشبك الحمزاوي فدام بصفد إلى أن مات رحمه الله في التاريخ المقدم ذكره.

وكان رجلاً ديناً مشهوراً بالشجاعة والإقدام وقوراً في الدول.

وتولى نيابة صفد بعده إياس المحمدي الناصري الطويل.

وتوفي الشيخ المعتقد الصالح درويش وقيل محمد وقيل غيبي الرومي بظاهر خانقاه سرباقوس في يوم الاثنين ثالث ذي القعدة ودفن شرقي الخانقاه المذكورة.

وكان أصله من أقصراي وكان مليح الشكل منور الشيبة لا يدخر شيئاً وحج غير مرة من غير زاد ولا راحلة وهو أحد من أدركناه من الفقهاء الصالحاء رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين حطط بن عبد الله الناصري أتابك طرابلس بها في أوائل ذي الحجة وكان ولي نيابة قلعة حلب ثم نيابة غزة كل ذلك بالبذل فإنه كان لا للسيف ولا للضيف.

وتوفي الأمير سيف الدين علي باي من طراباي العجمي المؤيدي أتابك حلب بها في أواخر ذي الحجة وهو في عشر الستين.

وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ وبقي خاصكياً أيام المؤيد ودام خاصكياً عدة دول إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق في أوائل دولته بإمرة عشرة وجعله من جملة رؤوس النوب وصار له كلمة في الدولة وتوجه في الرسلية من السلطان إلى أصبهان بن قرا يوسف صاحب بغداد ثم بعد عوده إلى القاهرة بمدة نفاه الملك الظاهر إلى حلب على إمرة مائة وتقدمة ألف ثم نقل على أتابكية حلب بعد سودون الأوبكري المؤيدي لما ولي نيابة حماة فدام علي باي على ذلك إلى أن توفي.

وكان مليح الشكل فصيح العبارة عارفاً بأنواع الفروسية كريماً جواداً إلا أنه كان مجازفاً كذباً مسرفاً على نفسه عفا الله عنه.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم أعني القاعدة ثمانية أذرع وخمسة أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعًا واثان وعشرون إصبعًا.

السنة الثانية من سلطنة الأشرف إينال

وهي سنة ثمان وخمسين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير سيف الدين يلغا بن عبد الله الجاركسي أحد أمراء الطبلخانات بطالًا بعد مرض طويل في يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر.

وكان تركي الجنس أصله من مماليك جاركس القاسمي المصارع ثم صار بعد موت أستاذه خاصكيًا ودام على ذلك سنين طويلة لا يلتفت إليه في الدولة وقد شاخ وصار يخضب لحيته بالسواد إلى أن تحرك سعده وسعد خجداشه قاني باي الجاركسي بسلطنة الملك الظاهر جقمق فإنه كان أخا جاركس أستاذ هؤلاء المخاميل.

فلما تسلطن جقمق أمر يلغا هذا إمرة عشرة وجعله رأس نوبة لولده المقام الناصري محمد ثم ولاه نيابة دمياط ثم عزله وجعله أمير طبلخاناه فدام على ذلك إلى أن أخرج الملك الأشرف إينال إقطاعه فنعم ما فعل فاستمر بطالًا إلى أن مات كما تقدم ذكره.

وكان من مساوىء الدهر رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي ناصر الدين محمد ابن قاضي القضاة فخر الدين أحمد بن عبد الله الشهير بابن المخلطة أحد أعيان فقهاء المالكية ونواب الحكم وناظر البيمارستان المنصوري في يوم الأحد تاسع عشرين شهر ربيع الآخر.

وكان فقيهاً عالمًا بمذهبه عارفاً بصناعة القضاء والشروط والأحكام ناب في الحكم من سنة سبع عشرة وثمانمائة إلى أن مات وحمدت سيرته رحمه الله تعالى.

وتوفي المقام الغرسي خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج ابن السلطان الملك الظاهر برقوق ابن الأمير أنص الجاركسي الأصل بثغر دمياط في يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الأولى.

ومولده بقلعة الجبل في سنة أربع عشرة وثمانمائة وأمه أم ولد تسمى " لا أفح من ظلم " مولدة وبقي بقلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المؤيد شيخ مع أخيه محمد ابن الناصر فرج إلى الإسكندرية فحبسا بها إلى أن سألت عمتهما خوند زينب بنت الملك الظاهر برقوق زوجها الملك المؤيد شيخًا في إحضارهما من الإسكندرية إلى قلعة الجبل لتختنهما فحضرا إلى الديار المصرية وختنا بقلعة الجبل ثم أعيدا إلى الإسكندرية وداما بها بسجنها إلى أن مات أخوه محمد في طادون سنة ثلاث وثلاثين فأخرج خليل هذا من السجن ورسم له بأن يسكن حيث شاء بثغر إلسكندرية وأن يركب لصلاة الجمعة لا غير فبقي على ذلك إلى أن رسم له الملك الظاهر جقمق بعد أن تاهل بكريمتي أن يركب إلى جهة باب البحر ويسير ثم أذن له بعد ذلك بالحج.

وقدم القاهرة في شوال سنة ست وخمسين وحج في موسم السنة المذكورة ثم عاد وقد خلع الملك الظاهر نفسه وتسلطن ولده الملك المنصور عثمان فرسم له المنصور في يوم دخوله من الحج بالتوجه إلى الإسكندرية فطلب هو دمياط فرسم له بها.

وخرج إليها من يومه قبل أن يجل عن أحماله فلم تطل مدته بثغر دمياط ومات في التاريخ المذكور ودفن بدمياط أيامًا ثم نقل إلى بولاق.

ثم نقل إلى القاهره ودفن عند جدہ الملك الظاهر برقوق بالصحراء.

وكان في نفسه أمور توفاه الله قبل أن ينالها وأنا أعرف بحاله من غيري غير أنني لا أشكر ولا أذم وفي هذا كفاية.

وتوفي القاضي شمس الدين محمد بن عامر قاضي قضاة المالكية بصفد في أوائل جمادى الآخرة.

وكان معدودًا من فقهاء المالكية وناب في الحكم بالقاهرة سنين كثيرة وولي قضاء الإسكندرية غير مرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الشريف معزى بن هجاربن وبير أمير الينبع في أواخر جمادى الآخرة وتولى بعده ابن أخيه مقبل.

وتوفي الأمير جانبك بن عبد الله الزيني عبد الباسط بالقاهرة في يوم الأربعاء لعشر يقين من شهر رجب.

وكان من مماليك الزيني عبد الباسط بن خليل وولي الأستادارية في أيام أستاذة حسا ومعناه أستاذة.

ولولا أنه في الجملة ولي لإستادارية لما ذكرناه في هذا المحل.

وتوفي قاضي القضاة الحنابلة بحلب مجد الدين سالم بن سلامة الحنبلي خنقًا بقلعة حلب ب حكم الشرع في الظاهر لكونه قتل رجلًا بيده ممن اتهم بالزندقة والقتل من قبل الحكم رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر نائب أبلستين بها في باكر يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان وتولى أبلستين بعده ابنه ملك أصلان.

وتوفي الأمير سودون بن عبد الله الجكمي أحد أمراء العشرات بطالًا بالقاهرة في يوم السبت رابع ذي القعدة.

وهو أخو إينال الجكمي نائب الشام وهو إالصغر وبسببه تخومل حتى مات وكان من أعيان الدولة وممن له ذكر وسمعة رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة الحنفية بدمشق قوام الدين محمد بن قوام الدمشقي المولد والوفاة الحنفي المذهب بدمشق في ثامن ذي القعدة.

ومولده في ثامن ذي القعدة سنة ثمانمائة.

وكان فقيهاً فاضلاً ديناً خيراً مشكور السيرة وهو من القضاة الذين ولوا من غير بذل ومات غير قاض رحمه الله.

وتوفي المعلم ناصر الدين محمد الصغير القازاني المعروف بمحمد الصغير معلم رمي النشاب في ليلة الجمعة ثالث عشرين ذي الحجة وقد زاد سنه على الثمانين.

ومات ولم يخلف بعده مثله في حسن الرمي وتعليمه وعلومه.

وهو أحد إفراد الذين أدركناهم من أرباب الكمالات رحمه الله تعالى.
أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع وخمسة عشر إصبغًا.
مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا وأحد عشر إصبغًا.
وهي سنة تسع وخمسين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير سيف الدين مغلبي بن عبد الله الشهابي أحد أمراء العشرات بطالًا
بالقاهرة في ليلة الخميس عاشر المحرم.

وكان أصله من مماليك الشهابي أحمد بن جمال الدين الأستاذار ثم أعتقه الملك الناصر
فرج ثم صار خاصكيًا في الدولة الأشرفية برسباي ثم تأمر في دولة الملك الظاهر جقمق
وصار من حزب ولد الملك المنصور في الفتنة مع الأشرف إينال فأخرج إينال إقطاعه
بهذا المقتضى ودام بطالًا إلى أن مات.
وكان عاقلًا ساكنًا لا بأس به رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جليان بن عبد الله الأمير آخور نائب الشام بها في يوم الثلاثاء
سادس عشر صفر وقد ناهز الثمانين من العمر تخميًا.

وفي معتقه وجنسه أقوال كثيرة أما معتقه فقليل إنه من عتقاء الأمير تنبك الأمير آخور
الظاهري وقيل سودون طاز وقيل إينال حطب وأما جنسه فالمشهور أنه جاركسي
الجنس وقيل غير ذلك.

ثم خدم جليان المذكور عند الأمير جاركس القاسمي المصارع ثم عند الوالد ثم عند
الملك المؤيد شيخ أيام إمرته فلما تسلطن المؤيد جعله أمير آخور ثالثًا ثم أنعم عليه
بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم خرج إلى البلاد الشامية مجردًا إليها مع من خرج من الأمراء صحبة الأتابك الطنبيغا
القرمشي وقبض عليه مع من قبض عليه من الأمراء المؤيدية وحبس بالبلاد الشامية إلى
أن أطلقه الملك الأشرف برسباي وجعله أمير مائة ومقدم ألف بدمشق.

ثم نقله إلى نيابة حماة بعد الأمير جارقطلوا بحكم انتقاله إلى نيابة حلب بعد الأمير تنبك
البجاسي المنتقل إلى نيابة الشام بعد موت الأمير تنبك ميق العلائي في رجب سنة ست
وثلاثين وثمانمائة.

ودام جليان على نيابة حماة سنين كثيرة إلى أن نقله الملك الأشرف برسباي إلى نيابة
طرابلس بعد موت الأمير طرباي في شعبان سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وتولى بعده
الأمير قاني باي الحمزاوي.

ثم نقله الملك الظاهر جقمق إلى نيابة حلب بعد عصيان الأمير تغري برمش التركماني
في سلخ شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وتولى بعده طرابلس قاني باي
الحمزاوي أيضًا فلم تطل مئة جليان بحلب ونقل إلى نيابة دمشق بعد موت الأتابك أقبغا
التمرازي في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وتولى بعده حلب الأمير قاني باي
الحمزاوي فدام في نيابة دمشق عدة سنين إلى أن مات في التاريخ المذكور وتولى بعده
نيابة دمشق قاني باي الحمزاوي.

وكانت مدة نيابته على دمشق خمس عشرة سنة وهذا شيء لم يقع لغيره من نواب دمشق بعد الأمير تنكر الناصري.

وفي ترجمته غريبة أخرى وهي أنه لم ينتقل من نيابة إلى الأخرى في هذه المدة التي تزيد على ثلاثين سنة إلا ويستقر بعده قاني باي الحمزاوي.

ومع أن قاني باي الحمزاوي لم تطل مدته في الولايات وحضر إلى الديار المصرية أميرًا وأقام بها سنين ثم عاد إلى نيابة حلب بعد أن وليها غير واحد بعده فلما تولى قاني باي الحمزاوي حلب ثانيًا مات جليان هذا بعد مدة فنقل قاني باي إلى نيابة دمشق بعده على العادة فهذا اتفاق غريب لعله لم يقع لغيرهما في هذه السنين الطويلة والولايات الكثيرة.

وكان جليان المذكور من أجل الملوك طالت أيامه في السعادة وتنقل في ولايات جليلة إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي صاحب أمين الدين إبراهيم ابن الرئيس مجد الدين عبد الغني بن الهيصم بطالًا في ليلة الخميس مستهل شهر ربيع الآخر وقد قارب الستين من العمر.

وكان معدودًا من رؤساء الديار المصرية من بيت رئاسة وكتابة وجدهم الهيصم ينسب إلى المقوقس صاحب مصر.

وقد ولي صاحب أمين الدين هذا الوزير غير مرة وحج وتفقه على مذهب الحنفية وكان محبًا للفقراء وأهل الخير محبة زائدة وكان مشهورًا بالصلاح وكان يتجنب النصارى ولا يتزوج إلا من المسلمات وبالجملة فإنه نادرة في أبناء جنسه وله محاسن كثيرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير يشبك بن عبد الله الناصري أحد أمراء الطبلخانات ورأس نوبة ثان في يوم الأحد ثامن عشر صفر وقد ناهز السبعين.

وكان من مماليك الناصر فرج وخدم في أبواب الأمراء بعد موت أستاذه وانحط قدره إلى أن عاد إلى خدمة السلطان بعد موت الملك المؤيد شيخ وصار خاصكيًا إلى أن تآمر عشرة في أوائل سلطنة الملك الظاهر جقمق وصار من جملة رؤوس النوب.

ودام على ذلك إلى أن نقله الملك المنصور عثمان إلى إمرة طبلخاناه بعد انتقال جانبك القرماني إلى طبلخاناه الأمير يونس إلقبائي المشد بحكم انتقال يونس إلى مقدمة ألف ثم صار في دولة الملك الأشرف إينال ثاني رأس نوبة النوب فدام على ذلك إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره.

وكان يشبك المذكور من مساويء الدهر لا دنيا ولا دينًا ولا ذاتًا ولا أدوات عفا الله عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين خيربك بن عبد الله المؤيدي إلاجرود أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية في يوم الاثنين تاسع عشرين شهر ربيع الآخر وهو في حدود الستين وحضر المقام الشهابي أحمد ابن السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني.

وكان أصله من مماليك الملك المؤيد شيخ وترقى بعده حتى صار خاصكيًا في دولة الملك الأشرف برسباي.

ثم نفاه الأشرف إلى الشام وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه.

ثم صار أمير مائة ومقدم ألف بدمشق.

ثم صار أتابكًا بها.

ثم مسك وحبس إلى أن أطلقه الأشرف إينال فقدم القاهرة.

ثم صار أمير مائة ومقدم ألف بها إلى أن مات واستريح منه لأنه كان أيضًا من مقولة يشبك المقدم ذكره بل يزيد سوء الخلق والجنون.

وتوفي شاعر العصر الشيخ شمس الدين محمد بن حسن بن علي بن عثمان الشافعي الفقيه النواجي الشاعر المشهور في يوم الأربعاء سادس عشرين جمادى الأولى.

ومولده بالقاهرة في سنة ثمانين وثمانين وسبعمائة وأصله من نواح قرية بالغربية من عمل الوجه البحري من القاهرة ونشأ بالقاهرة وقرأ واشتغل إلى أن مهر وبرع في عدة علوم وفنون وغلب عليه نظم القريض حتى قال منه أحسنه وأنشدني كثيرًا من شعره ومما أنشدني من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى قوله: الوافر طببت وصاله فدنا لحربي يهز من القوام اللدن رمحا وسل من اللواظ مشر فيًا ليضرب قلت: لا بالله صفحا ومما أنشدني لنفسه أيضًا: الطويل خليلي هذا ربع عزة فاسعيا إليه وإن سألت به أدمعي طوفان فجفني جفا طيب المنام وجفنها جفاني فيا لله من شرك إلاجفان وقد استوعبنا من لفظه وشعره قطعة جيدة في ترجمته في تاريخنا " المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي " وأيضًا في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " إذ هما محل الإطناب انتهى.

وتوفي الشيخ المعتقد المجذوب محمد المغربي في صبيحة يوم الجمعة جامس جمادى الآخرة ودفن من يومه قبل صلاة الجمعة بتربة السلطان الملك الأشرف إينال التي أنشأها بالصحراء.

وكان يجلس داخل باب النصر على باب قاعة البغادة تحت الساباط تجاه الربع المعروف قديمًا بدار الجاولي بالقرب من باب جامع الحاكم.

وأقام بالموضع سنين كثيرة لا يقوم منه صيفًا ولا شتاء وهو جالس على مكان عال وتحتة حجارة وتأتيه الناس بالماكل والمشرب ولهم فيه اعتقاد حسن.

وكنت أزوره من بعد خوفًا مما كان حوله من النجاسة.

وكانت جذبته مطبقة.

والغريب أنه وجد له بعد موته في المكان الذي كان يجلس عليه جملة كبيرة من الذهب والفضة وهذا من الغريب العجيب فإنه لم يكن في " جذبته شك فكيف يهتدي لجمع المال!.

وأنا أقول شيئًا وهو أن المغاربة في الغالب يميلون لجمع المال فلعله كان هو أيضًا يميل لجمع المال بالطبع على قاعدة المغاربة والله أعلم.

وتوفي القاضي الرئيس صلاح الدين محمد المعروف بابن السابق الحموي الشافعي كاتب
سير حلب ثم دمشق وبها مات بطالاً بعد مرض طويل في يوم الأحد ثامن عشرين جمادى
الآخرة عن أربع وثمانين سنة.

ومولده بحماة وبها نشأ وتنقل لعدة وظائف سنية.

وكان مشكور السيرة في ولايته مع الدين والتقوى والأدب والحشمة والرياسة رحمه الله
تعالى.

وتوفي القاضي محب الدين محمد ابن الشيخ الإمام زين الدين أبي بكر القمني الشافعي
في يوم الاثنين رابع عشر شهر رجب رحمه الله.

وتوفيت خوند شاه زاده بنت الأمير أرخن بك بن محمد بك كرشجي بن يلدرم بايزيد بن
عثمان ملك الروم.

وكانت قدمت مع أخيها سليمان من بلاد الروم هرباً من مراد بك بن عثمان فلما كبرت
تزوجت الملك الأشرف برسباي ثم تزوجها بعده المحلك الظاهر جقمق ثم تزوجها بعده
الأمير برسباي البجاسي فماتت تحته رحمه الله تعالى.

وتوفي السيد الشريف زين الدين أبو زهير بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي
نمي محمد بن أبي سعيد حسن بن علي بن أبي غرير قتادة بن إدريس بن مطاعن بن
عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى
بن عبد الله المحض بن موسى بن الحسن بن علي بن أبي طالب المكي الحسيني أمير
مكة في بطن مر خارج مكة في يوم الاثنين تاسع شعبان وحمل إلى مكة فصلي عليه
بالحرم وطيف به على النعش أسبوعاً على عادة أشرف مكة ودفن بالمعلاة وولي إمرة
مكة بعده ابنه الشريف محمد.

وكان مولد بركات بمكة سنة إحدى وثمانمائة وأمه أم كامب بنت النصيح من ذوي عمر.

وولي إمرة مكة شريكاً لأبيه وأخيه أحمد سنة عشر وثمانمائة ثم استقل بإمرة مكة في
سنة تسع وعشرين من قبل الملك الأشرف برسباي فدام على إمرة مكة إلى أن عزله
الملك الظاهر جقمق بأخيه علي بن حسن في سنة خمس وأربعين.

وخرج بركات هذا إلى البر من جهة اليمن ووقع له أمور ذكرناها في " الحوادث " ثم عزل
علي عن إمرة مكة بأخيه أبي القاسم بن حسن بن عجلان كل ذلك وبركات مخرج إلى أن
قدم بركات الديار المصرية وولاه الملك الظاهر جقمق إمرة مكة على عادته.

وكان لقدمه القاهرة يوم مشهود وأقام بالقاهرة مدة ثم عاد إلى مكة فدام بها إلى أن
مات في التاريخ المذكور.

وكان رجلاً عاقلاً ساكناً شجاعاً مشكور السيرة أهلاً للإمرة إن لم يكن زبدياً على عادة
أشراف مكة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الشمسي المؤيدي أحد أمراء دمشق في
أواخر ذي القعدة أو أوائل ذي الحجة.

وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ اشتراه قبل سلطنته وأعتقه وصار بعد موت أستاذه من جملة أمراء طرابلس ثم نقل إلى حجووية حجاب حلب ثم عزل وصار من أمراء الطبلخانات بدمشق إلى أن مات.

وتوفي الشيخ الإمام العالم العلامة محب الدين محمد ابن العلامة زادة واسم زادة أحمد بن أبي يزيد محمد السيرامي الحنفي المصري سبط إلقصري المعروف بابن مولانا زادة إمام السلطان وشيخ المدرسة إلايتمشية بمكة المشرفة في يوم الجمعة ثالث ذي الحجة.

ومولده بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين وسبعمئة هكذا ذكر لي وكتب بخطه.

قلت: ونشأ بالقاهرة وقرأ القرآن الكريم وعدة مختصرات في فنون كثيرة وتفقه بجماعة من علماء عصره مثل الشيخ عز الدين بن جماعة وغيره ذكرنا غالبهم في تاريخنا " الحوادث " وبرع في عدة علوم وأفتى ودرس وتولى الوظائف الدينية ثم ولي وظيفة إمام السلطان الملك الأشرف برسباي فدام على ذلك مدة سنتين.

وأما بعدة ملوك إلى أن رغب هو عن ذلك وتركه وقعد بداره ملازمًا لإشغال وإلاشتغال إلى أن قصد المجاورة في هذه السنة بمكة المشرفة وكانت منيته بها بمرض البطن رحمه وتوفي الأمير سيف الدين أقبردي بن عبد الله الساقى الظاهري نائب ملطية بها في يوم الخميس خامس عشري ذي الحجة وحمل من ملطية إلى حلب ودفن بترته التي عمرها ومات وله من العمر نحو ثلاثين سنة.

وأصله من مماليك الملك الظاهر جقمق الصغار وصار ساقيًا في أيامه ثم نائب قلعة حلب دفعة واحدة فدام على ذلك إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى أتاكية حلب في سنة ثمان وخمسين ثم نقل إلى نيابة ملطية فمات بها في التاريخ المقدم ذكره.

وكان لا بأس به ولم تطل أيامه لتشكر أفعاله أو تدم رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع وخمسة أصابع.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا وأربعة عشر إصبعًا.

السنة الرابعة من سلطنة الأشرف إينال وهي سنة ستين وثمانمئة.

فيها توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي المحلي الشافعي قاضي الإسكندرية بقرية إدكو بالمزاحمتين في ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ودفن برشيد وهو في عشر السبعين.

وكان كثير المال قليل العلم رحمه الله.

وتوفي القاضي ظهير الدين محمد ابن قاضي القضاة أمين الدين عبد الوهاب ابن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن أبي بكر الطرابلسي الحنفي أحد نواب الحكم بمصر معزولًا بعد مرض طويل في يوم الجمعة سادس عشرين شعبان ودفن من الغد.

وكان مشكور السيرة فى أحكامه محبًا لأصحابه رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير أسنباي بن عبد الله الجمالي الظاهري الدوادر الثاني كان بطالاً بالقدس في شعبان وسنه دون الأربعين.

وكان الملك الظاهر جقمق اشتراه في أيام سلطنته وجعله خاصكياً ثم سلاحداراً ثم ساقياً ثم أمره عشرة ثم صار في الدولة المنصورية عثمان دواداراً ثانياً عوضاً عن تمرغا الظاهري فلم تطل مدته غير أيام ووقعت الفتنة بين المنصور وبين الأتابك إينال وهرب أسنباي واختفى ثم ظهر ورسم له بالتوجه إلى القدس فدام بالقدس بطالاً إلى أن مات. وهو من مقولة آقبردي المقدم ذكره رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير قاني باي بن عبد الله الناصري لإعمش نائب قلعة الجبل بها في ليلة الخميس سابع عشري ذي القعدة وعمره زيادة على الستين.

وكان أصله من مماليك الناصر فرج وصار خاصكياً بعد موت المؤيد شيخ ثم تأمر عشرة في دولة الملك الظاهر جقمق وصار من جملة رؤوس النوب إلى أن ولاه الملك الأشرف إينال نيابة القلعة بعد توجه يونس العلائي الناصري إلى نيابة الإسكندرية في شهر ربيع الأول سنة سبع وخمسين فدام في نيابة القلعة إلى أن مات في التاريخ لمذكور. وكان من المهملين المرزوقين.

و توفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله المحمودي المؤيدي أحد أمراء طرابلس بها في أواخر ذي القعدة وقد قارب الستين من العمر.

وهو أخو قاني بك المحمودي المؤيدي.

كان من عتقاء الملك المؤيد شيخ وصار خاصكياً في دولة المظفر أحمد أو في دولة الظاهر ططر ثم تأمر عشرة في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق وصار من جملة رؤوس النوب وبقي له كلمة في الدولة وزادت حرمة إلى أن كان منها زوال نعمته.

وأمسك وحبس بقلعة الجبل ثم أخرج أميراً بحلب ثم حبس أيضاً بحلب ثانياً مدة ثم اطلق وأعطى إمرة طبليخاناه بطرابلس فدام بطرابلس إلى أن مات.

وأحواله وأخلاقه مشهورة لا حاجة لنا في ذكر شيء من ذلك عفا الله عنا وعنه.

وفي هذه السنة زالت دولة بني رسول ملوك اليمن من اليمن بعد ما حكموا ممالك اليمن نحوًا من مائتين وثلاثين سنة وقد ذكرنا أسماء جميع ملوك اليمن منهم في كتابنا حوادث الدهور من أولهم الملك المنصور أبي الفتح عمر بن علي بن رسول إلى آخر من ملك منهم وهو الملك المسعود بن إسماعيل.

وقد ملك اليمن جميعه الآن شخص من العرب يسمى عبد الوهاب بن داود بن طاهر واستوثق أمره بها.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع وستة عشر إصبغًا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا واثنًا عشر إصبغًا.

وهي سنة إحدى وستين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير سيف الدين جانم بن عبد الله المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في يوم الخميس رابع المحرم وقد جاوز السبعين من العمر.

وكان أصله من مماليك الملك المؤيد شيخ قبل سلطنته وصار رأس نوبة السقاة بعد موت أستاذه المؤيد ثم تأمر عشرة في دولة الملك الأشرف إينال ثم صار من جملة رؤوس النوب فدام على ذلك إلى أن مات.

وكان هينًا لينًا حشمتًا رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جرباش بن عبد الله الكريمي الظاهري أمير سلاح بطالًا بداره بسويقة صاحب داخل القاهرة في ليلة السبت ثالث عشر المحرم وقد شاخ وكبر سنه حتى عجز عن الحركة إلا بعسر ودفن بترته التي أنشأها بالصحراء.

وكان يعرف بقاشق وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق أعتقه قبل واقعة الناصري ومنطاش في سلطنته الأولى هكذا ذكر لي من لفظه ثم صار سلاحدارًا في دولة الناصر فرج ثم أمير عشرة ورأس نوبة ثم صار أمير طبلخاناه في دولة الملك المؤيد شيخ ثم أمير مائة ومقدم ألف ثم صار في دولة الأشرف حاجب الحجاب بالديار المصرية بعد انتقال الأمير جقمق العلائي إلى الأمير أخورية الكبرى بعد توجه قصره من تمرارز إلى نيابة طرابلس بعد عزل إينال النوروزي وقدمه إلى القاهرة أمير مائة ومقدم ألف كل ذلك في سنة ست وعشرين وثمانمائة.

ثم نقله الأشرف إلى إمرة مجلس في يوم الاثنين خامس عشر شوال سنة تسع وعشرين عوضًا عن الأمير إينال الحكمي وقد انتقل الحكمي إلى إمرة سلاح بعد انتقال الأتابك يشبك الساقى الأعرج إلى أتابكية العساكر بعد موت الأتابك فجع واستقر الأمير قرقماس الشعباني حاجب الحجاب بعد موت جرباش هذا.

ثم ولي جرباش هذا نيابة طرابلس بعد انتقال قصره إلى نيابة حلب بعد عزل الأمير جارقطلو وقدمه إلى مصر أمير مائة ومقدم ألف وأمير مجلس عوضًا عن جرباش المذكور فلم تطل مدة جرباش بطرابلس وعزل عنها بالأمير طراياي الظاهري وقدم إلى القاهرة في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة أمير مجلس على عادته أولًا.

وقد انتقل جارقطلو عن إمرة مجلس إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية بعد موت الأتابك يشبك الساقى الأعرج فلم تطل مدة جرباش بالقاهرة وقبض عليه ونفي إلى ثغر دمياط بطالًا فدام بالثغر دهرًا طويلًا إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق في أوائل سلطنته وجعله أمير مجلس ثالث مرة عوضًا عن الأمير يشبك السودوني المنتقل إلى إمرة سلاح بعد انتقال الأمير أقبغا التمراري إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية بعد عصيان قرقماس الشعباني والقبض عليه وسجنه بالإسكندرية وذلك في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة فدام على إمرة مجلس إلى سنة ثلاث وخمسين فنقل إلى إمرة سلاح بعد موت الأمير تمرارز القرمشي.

وتولى بعده إمرة مجلس تتم من عبد الرزاق المؤيدي المعزول عن نيابة حلب فلم يزل على ذلك إلى أن أخرج الملك المنصور عثمان إقطاعه إلى الأمير قراجا الخازندار الظاهري ووظيفته إمرة سلاح إلى الأمير تتم المقدم ذكره فلزم جرباش من يوم ذلك داره إلى أن مات.

وكان رحمه الله تعالى وقورًا في الدول طالت أيامه في السعادة ودام أميرًا أكثر من خمسين سنة بما فيها من العطلة.

وكان منهمكًا في اللذات التي تهواها النفوس مع عدم شهرته بالشجاعة وذلك خرج الملوك لطلب الراحة انتهى.

وتوفي الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله حاجب حجاب طرابلس في يوم الأربعاء ثالث المحرم.

وكان من مماليك الأمير قاني باي البهلوان وسعى بعد موت أستاذه إلى أن ولي حجوية طرابلس بالبذل فلم تطل أيامه ومات ولم تكن فيه أهلية لتشكر أفعاله أو تدم.

وتوفي الأمير الطواشي الرومي زين الدين عبد اللطيف المنجكي ثم العثماني مقدم المماليك السلطانية كان بطالًا في ليلة الجمعة رابع عشرين صفر وقد أسن.

وكان من خدام الست فاطمة بنت الأمير منجك اليوسفي وعتيقها ثم اتصل بخدمة الأتابك الطنبغا العثماني وبه عرف بالعثماني ثم صار من جمدارية السلطان الخاص بخدمة السلطان إلى أن ولاه الملك الظاهر جقمق تقدم المماليك السلطانية بعد القبض على الأمير الطواشي خشقدم اليشكي فدام على ذلك عدة سنين وحج مرتين أمير الركب الأول ولما عاد من الثانية في سنة اثنتين وخمسين عزله السلطان بنائبه الأمير جوهر النوروزي الحبشي فدام بطالًا إلى أن مات.

وكان دينًا خيرًا لا بأس به رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة سراج الدين عمر بن موسى الحمصي الشافعي في صفر بطالًا وقد أناف على الثمانين.

وكان مولده بحمص وبها نشأ وطلب العلم وقدم القاهرة وحضر دروس السراج البلقيني وناب في الحكم عن ولده قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن سنين كثيرة ثم ولي القضاء بالوجه القبلي ثم نقل إلى قضاء طرابلس ثم قضاء حلب ثم قضاء دمشق غير مرة ورشح هو نفسه لقضاء الديار المصرية وكتابة السر بها فلم يقع له ذلك.

ثم ولي في أواخر عمره تدريس مقام الإمام الشافعي ثم عزل وأخرج إلى البلاد الشامية فمات بها.

وقد كان يستحضر من فروع مذهبه طرقًا وله نظم بحسب الحال.

وهو الذي كان نظم صداق كريمتي على قاضي القضاة جلال الدين البلقيني أكثر من ثلاثمائة بيت رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي قضاة مكة وعالمها جلال الدين أبو السعادات محمد بن أبي البركات محمد بن أبي السعود محمد بن الحسين بن علي بن أبي أحمد بن عطية بن ظهيرة المكي المخزومي الشافعي بمكة وهو قاض في تاسع صفر ودفن من الغد وتولى قضاء مكة بعده ابنه محب الدين محمد.

وكان مولده في سلخ شهر ربيع الأول سنة خمس وتسعين وسبعمائة بمكة وبها نشأ وتفقه بعلماء عصره إلى أن برع في عدة علوم وشارك في عدة فنون ونعت بعالم الحجاز وتولى قضاء مكة غير مرة.

وقد ذكرنا مشايخه وعدة وقائعه في تاريخنا " حوادث الدهور " وذكرنا أيضًا مصنفاة.

وكان له نظم جيد.

ومما أنشدني من لفظه لنفسه في القاضي كمال الدين ابن البارزي كاتب السر الشريف بالديار المصرية: السريع أبرزه الله بلا حاجب يحجبه عنا ولا حاجز فكل فضل من جميع الوري مكتسب من ذلك البارزي وتوفي الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله الأشرفي الطويل أحد أمراء الخمسات في يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين نوكار بن عبد الله الناصري أحد أمراء العشرات والزرديكاش في أواخر جمادى الآخرة مجردًا إلى بلاد ابن قرمان بمدينة غزة.

وكان من ممالك الناصر فرج وتخومل من بعده واحتاج إلى أن خدم في أبواب الأمراء وقاسى خطوب الدهر ألوانًا إلى أن عاد إلى باب السلطان بعد موت الملك المؤيد شيخ وصار خاصكيًا وأقام على ذلك سنين كثيرة إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمارة عشرة بعد سؤال كثير ثم صار حاجبًا ثانيًا فدام على ذلك لا يلتفت إليه في الدول إلى أن ولاه الملك الأشرف إينال الزردكاشية بعد موت جانبك بعد موت جانبك الوالي فاستمر على ذلك إلى أن مات.

وكان مهملاً يعيش بين الأكابر بالدعابة والمضحكة وليس فيه أهلية لحرب ولا ضرب ولا نوع من الأنواع سوى ما ذكرناه رحمه الله.

وتوفي قاضي القضاة ولي الدين محمد بن محمد بن عبد اللطيف السنباطي المالكي قاضي قضاة الديار المصرية في يوم الجمعة عاشر شهر رجب ودفن من يومه وقد زاد سنه على السبعين.

وكانت لديه فضيلة مع لين جانب وتدين ومع هذا لم تشكر سيرته في القضاء لسلامة باطنه ولحواشيه رحمه الله تعالى.

وتوفي شيخ الإسلام علامة زمانه كمال الدين محمد ابن الشيخ همام الدين عبد الواحد ابن القاضي حميد الدين عبد الحميد ابن القاضي سعد الدين مسعود الحنفي السيرامي الأصل المصري المولد والدار والوفاة العالم المشهور بابن الهمام في يوم الجمعة سابع شهر رمضان ودفن من يومه وكانت جنازته مشهودة.

ومات ولم يخلف بعده مثله في الجمع بين علمي المنقول والمعقول والدين والورع والعفة والوقار في سائر الدول.

ومولده في سنة ثمان أو تسع وثمانين وسبعمائة بالقاهرة وبها نشأ واشتغل على علماء عصره إلى أن برع وصار أعجوبة زمانه في علوم كثيرة بلا مدافعة وولي مشيخة المدرسة الأشرفية برسباي من الأشرف قبل سنة ثلاثين وثمانمائة ثم تركها رغبة منه ودام ملازمًا للأشغال وحج وجاور مرة غيره إلى أن ولاه الملك الظاهر جقمق مشيخة خانقاه شيخون واستمر بها ممة طويلة من السنين ثم تركها أيضًا وسافر إلى مكة وقد قصد المقام بها إلى أن يموت.

فلما حصل له ضعف في بدنه عاد إلى مصر ولزم الفراش إلى أن مات.

وقد ذكرنا من مصنفاته وأحواله ما هو أطول من هذا في تاريخنا " المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي " إذ هو محل إلتطاب رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله القرمانى الظاهري حاجب الحجاب بالديار المصرية بعد عوده من تجريدة ابن قرمان بالقرب من منزلة الصالحية فحمل إلى القاهرة ودفن بالقرافة الصغرى في يوم الجمعة ثاني عشر شوال وقد أناف على الثمانين.

وكان من عتقاء الملك الظاهر برقوق ووقع له محن في الدولة الناصرية فرج إلى أن تأمر بعد الملك المؤيد شيخ عشرة و صار من جملة معلمي الرمح إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى إمرة طبلخاناه.

و صار بعد ذلك رأس نوبة ثانيًا واستمر على ذلك إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى إمرة مائة وتقدمة ألف ثم ولاه حجوبية الحجاب.

ثم تجرد من جملة من تجرد من الأمراء إلى بلاد ابن قرمان فمات في عوده حسبما تقدم.

وكان ساكنًا عاقلاً إلا أنه كان لا يتجمل في نفسه ولا في مركبه رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدولة جكم بن عبد الله النوري المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بمدينة غزة وهو عائد من تجريدة ابن قرمان في يوم الاثنين ثامن شوال وقد قارب الستين.

وكان من مماليك المؤيد شيخ وتأمر في دولة الأشرف إينال عشرة و صار من جملة رؤوس النوب وكان من المهملين يعيش تحت ظل خجداشيته.

وتوفي القاضي زين الدين أبو العدل قاسم ابن قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي في يوم الأحد حادي عشرين شوال وهو في عشر السبعين.

وكان نشأ تحت كنف والده غير أن اشتغاله كان بالفقيري وناب في الحكم سنين وتولى نظر الجوالي.

وكان فيه كرم أفقره في أواخر عمره واحتاج منه إلى تحمل ديون والحاجة للناس فكان حاله كقول القائل: السريع كم من فتى أفقره جوده وعاش في الناس عيش الذليل فاشدد عرى مالك واستبقه فالخل خير من سؤال البخيل وتوفي الأمير سيف الدين أزيك بن عبد الله الششمانى المؤيدي أحد أمراء الخمسات في يوم السبت رابع عشرين ذي الحجة وسنه نحو الثمانين.

وكان أصله من مماليك الملك المؤيد شيخ قبل سلطنته وطالت أيامه في الجندية إلى أن تأمر خمسة في كل دولة الملك الأشرف إينال ومات بعد سنين.

وكان مكفوفًا عن الناس إما لخيره أو لشره رحمه الله تعالى.

وتوفي خشكلدي الزيني عبد الرحمن بن الكوبز أحد أمراء الطبلخاناه بدمشق.

وكان أصله من مماليك صاحبنا الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكوبز ثم صار من جملة دوادارية السلطان ثم سعى في دوادارية السلطان بدمشق حتى وليها بمال بذله في ذلك

فلم تطل مدته فعزل وقدم القاهرة وسعى ثانيًا إلى أن أعطي إمرة بدمشق فتوجه إليها ودام بها إلى أن مات.

وكانت لديه فضيلة في الفقه على قدر حاله رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع وثمانية أصابع.

السنة السادسة من سلطنة الأشرف إينال

وهي سنة اثنتين وستين وثمانمائة.

فيها توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن يوسف الشيرجي الشافعي أحد نواب الحكم بالديار المصرية في يوم الجمعة رابع عشر المحرم ودفن من يومه بعد صلاة الجمعة وقد أناف عن الثمانين.

وكان حضر دروس السراج البلقيني وله إمام بعلم الفرائض وناب في الحكم سنين وأفتى ودرس وكان غير محبب إلى أصحابه.

وتوفي الأمير سيف الدين أزيك بن عبد الله الأشرفي البواب أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في يوم الثلاثاء ثامن عشر المحرم.

وأصله من مماليك الأشرف برسباي ثم امتحن بعد موت أستاذه وحبس ثم أطلق وقدم القاهرة وتأمّر في أول دولة الأشرف إينال خمسة شريكًا لأزيك الششمانني المقدم ذكر وفاته في السنة الخالية فما مات أزيك المذكور أنعم بنصيبه من إلقطاع على شريكه أزيك هذا لتتمة إلقطاعه إمرة عشرة فعاش أزيك هذا بعد ذلك دون الشهر ومات فكان حاله كالمثل السائر: " إلى أن يسعد المعثر فرغ عمره ".

وتوفي القاضي علاء الدين علي بن محمد بن أقبرس الشافعي أحد نواب الحكم في يوم الأحد خامس عشر صفر بطالًا وهو في عشر السبعين.

وكان مولده بالقاهرة وبها نشأ وتكسب بعمل العنبر في حانوت بالعنبريين مدة سنين ثم اشتغل بالعلم وناب في الحكم وصحب الملك الظاهر جقمق قبل سلطنته فلما تسلطن قربه أو هو قرب نفسه وولي نظر الأوقاف ثم حسبة القاهرة ثم نظر لإحباس.

وتحرك له بعض سعد إلا أنه تبهدل غير مرة من السلطان لسوء سيرته فإنه لما ولي ما ولي ما عف ولا كف بل مد يدًا للأخذ إلى أن ساءت القالة فيه وانحط قدره لذلك كثيرًا فلما مات الملك الظاهر امتحن وصور وتخومل ولزم داره إلى أن مات.

وكان له نظم أحسنه في الهجو.

ومما هجا به عبد الرحمن ابن الديري ناظر القدس: الطويل أقول لمن وافى إلى القدس زائرًا وصلت إلى إلقصى من الفضل والخير تقرب إلى مولاك فيه عبادة وبيع بيع الرهبان وابتعد عن الديري وتوفي عبد الكريم ابن علي بن محمد شيخ مقام الشيخ أحمد البدوي بظاهر القاهرة في صبيحة ثامن عشر صفر: وجد ميثًا وقد اختلفت إلقوال في موته فمنهم من قال: تردى من سطح وهو ثمل ومنهم من قال: دس عليه شيخ العرب حسن بن بغداد من قتله وهو إلقشهر وأنا أقول: قتله سر الشيخ أحمد البدوي لانهماكه على

المعاصي وسوء سيرته فأراح الله الشيخ أحمد البدوي منه ولله الحمد وتولى عوضه شيخ المقام صبي من أقاربه دون البلوغ.

وتوفي الشيخ العارف بالله القدوة المسلك مدين الصوفي المالكي بزأوبته بخط المقس بظاهر القاهرة في يوم الأربعاء تاسع شهر ربيع الأول بزأوبته.

وكان له شهرة عظيمة وللناس فيه اعتقاد ومحبة لم يتفق لي مجالسته غير أنني رأيته غير مرة رحمه الله ونفعنا ببركته.

وتوفي الأمير جانم بن عبد الله الأشرفي البهلوان أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في يوم الاثنين سادس شهر ربيع الآخر ودفن من يومه وهو في الكهولية.

وكان من ممالك الملك الأشرف برسباي وخاصيته وتأمير بعد أمور في الدولة الأشرفية إينال.

وكان مليح الشكل مشهورًا بالشجاعة وإلقدام رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين طوخ بن عبد الله من تمرار الناصري أمير مجلس بطالاً بعد مرض طويل في ليلة الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر ودفن من الغد.

وكان من ممالك الناصر فرج وتأمير في أول الدولة الأشرفية برسباي عشرة وصار من جملة رؤوس النوب.

وكان يعرف بيني بازق أي غليظ الرقبة وكان قليل الخير والشر مكفوفًا عن الناس ليس له كلمة في الدولة.

وكان السلطان أنعم بإقطاعه قبل موته على الأمير برسباي البجاسي حاجب الحجاب وبوظيفته إمرة مجلس على الأمير جرباش المحمدي المعروف بكرد الأمير أخور.

وتوفي القاضي شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الدماصي الحنفي قاضي بولاق وكان يعرف بقرقماس في يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر ودفن من الغد رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله النوروزي المعروف بالسلاحدار نائب قلعة الجبل بها في ليلة الأحد سادس عشرين شهر ربيع الآخر ودفن من الغد وله نحو سبعين سنة.

وكان من ممالك نوروز الحافظي نائب الشام وصار بعده سلاحدارًا في الدولة الأشرفية برسباي ثم تأمر عشرة في دولة الملك الظاهر جقمق وصار من جملة رؤوس النوب ثم جعله الملك الأشرف إينال نائب قلعة الجبل بعد موت قاني باي الناصري لإعمش فدام في نيابة القلعة إلى أن مات وكان لا بأس به لولا إسراف كان فيه على نفسه عفا الله عنه.

وتوفي إستاذ المادح المغني ناصر الدين محمد المازوني الأصل المصري أحد إفراد في إنشاد القصيد وعمل السماع في ليلة الجمعة ثامن جمادى الأولى بعد أن أتلى بمرض الفالج وبطل نصفه وسكت حسه.

وكان من عجائب الدنيا في فنونه.

كان صوته صوتًا كاملًا أوًا وما مع شجاعة ونداوة وحلاوة كان رأسًا في إنشاد القصيد على الضروب والحدود.

سافر غير مرة إلى الحجاز حاديًا في خدمة الأكابر وكان له تسبيح هائل على المآذن ففي هذه الثلاثة كان إليه المنتهى وكان يشارك في الموسيقى جيدًا ويعظ في عقود الأنكحة وليس فيه بالماهر.

وفي الجملة إنه لم يخلف بعد مثله وفي شهرته ما يغني عن الإطناب في ذكره.

وتوفي الشريف موسى ابن الجمالي يوسف بن الصلي الكركي ناظر جيش طرابلس بها في ليلة الأحد ثامن شهر رجب وخلف ما لا كثيرًا وعدة أولاد.

وكان من مساوئ الدهر دميم الخلق مذموم الخلق.

وتوفي الشيخ الإمام العالم العلامة شرف الدين يحيى بن صالح بن علي بن محمد بن عقيل العجيسي المغربي الأصل والمولد والمنشأ المصري الدار والوفاة المالكي في يوم الأحد سابع عشرين شعبان.

ومولده في سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة.

وكان إمامًا في النحو والعربية ومعرفة تاريخ الصحابة وله مشاركة في فنون كثيرة مع حدة كانت فيه وسوء خلق رحمه الله.

وتوفي الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة بن المتوكل على الله أبي عبد الله محمد العباسي المصري بئر الإسكندرية مخلوعًا من الخلافة في سابع عشر شوال.

وقد مر ذكر نسبه في تراجم أسلافه في عدة مواطن من مصنفاتنا مثل " مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة " وغيره.

وكان القائم بأمر الله هذا ولي الخلافة بعد موت أخيه المستكفي سليمان بغير عهد اختاره الملك الظاهر جقمق فدام في الخلافة إلى أن خرج الأتابك إينال العلائي صاحب الترجدة على الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق فقام الخليفة هذا مع إينال على الملك المنصور عثمان أشد قيام.

فلما تسلطن إينال عرف له ذلك ورفع قدره ومحلّه إلى الغاية ونال في أيامه من الحرمة والوجاهة ما لا يقاربه أحد الخلفاء من أسلافه.

فاتفق بعد ذلك ركوب جماعة من صغار المماليك الظاهرية على الأشرف إينال وطلبوه فحضر عندهم ووافقهم أفضل موافاة فلم ينتج أمرهم وسكنت الفتنة في الحال وقد ذكرناها في أصل هذه الترجدة مفصلة.

فلما سكن الأمر طلبه السلطان إلى القلعة ووبخه على فعله وحبسه بالبحرة بقلعة الجبل وخلعه من الخلافة بأخيه المستنجد يوسف ثم أرسله إلى سجن الإسكندرية فحبس به

مدة ثم اطلق من السجن ورسم له بأن يسكن حيث شاء من الثغر فسكن به إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي الحاج خليل المدعو قاني باي اليوسفي المهمندار محتسب القاهرة بها في عشرين شوال وهو مناهز السبعين.

وكان أصله من مماليك قرا يوسف بن قرا محمد صاحب بغداد على ما زعم ثم قدم القاهرة في دولة الأشرف برسباي وسأله الأشرف عن أصله وجنسه فقال: " أنا من مماليك قرا يوسف جنسي جاركسي واسمي الأصلي قاني باي " فمشى ما قاله على الأشرف لضعف نقده وعدم معرفته وسماه قاني باي اليوسفي وجعله خاصكيًا ثم امتحن بعد موت الأشرف برسباي وحبس إلى أن عاد إلى رتبته في الدولة الأشرفية إينال وجعله مهمندارًا ثم محتسبًا إلى أن مات.

وتوفي يارعلي بن نصر الله العجمي الخراساني الطويل محتسب القاهرة بطالًا بعد مرض طويل في سادس عشرين ذي القعدة ودفن من الغد وسنه نيف على الثمانين وكان هو يدعي أكثر من ذلك وليس بصحيح.

وكان أصله فقيرًا مكديًا على عادة فقراء العجم وخدم الأمير سودون من عبد الرحمن نائب الشام لما كان هاربًا من الملك المؤيد شيخ بالعراق فلما عاد سودون إلى رتبته بالديار المصرية وصار دوادارًا كبيرًا في دولة الأشرف برسباي قدم عليه يار علي هذا ماشيًا على قدميه من بلاد العجم فأحسن إليه سودون ولما عمر مدرسته بخانقاه سرباقوس جعله شيخًا ودام على ذلك وقد حسنت حاله وركب فرسًا بحسب الحال إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فتحرك سعده لا لأمر أوجب ذلك بل هي حظوظ وأرزاق تصل لكل أحد.

ولا زال جقمق يرقيه حتى ولاه حسبة القاهرة غير مرة ثم نكبه وصادره وأمر بنفيه لسوء سيرته ولقبيح سريرته فإنه لما ولي حسبة القاهرة سار فيها أقبح سيرة وفتح له أبواب الظلم والإخذ فما عفا ولا كف وجدد في الحسبة مظالم تذكر به وإثمها وإثم من يعمل بها عليه إلى يوم القيامة وصار يأخذ من هذه المظالم ويخدم الملوك بها فانظر إلى حال هذا المسكين الذي ظلم نفسه وظلم الناس لغيره فلا قوة إلا بالله! اللهم اغننا بحلالك عن حرامك وبفضلك عن سواك.

وتوفي الشيخ المعتقد المجذوب إبراهيم الزيات بحيث هو إقامته بقنطرة قديدارا ودفن من يومه وهو اليوم الذي مات فيه الشيخ على المحتسب المقدم ذكره وكان للناس فيه اعتقاد ويقصد للزيارة وكانت جذبته مطبقة لا يصحو ويكثر من أكل الموز رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير الكبير سيف الدين تنبك بن عبد الله البرديكي الظاهري أتابك العساكر بالديار المصرية في يوم الاثنين رابع عشرين ذي القعدة ودفن من الغد وقد ناهز التسعين من العمر.

وكان من مماليك الظاهر برقوق وتزوج في أيامه وكان من إنيات الوالد وترقى في أوائل دولة الأشرف برسباي إلى أن صار أمير عشرة أو في أيام دولة الملك المظفر أحمد ومن جملة رؤوس النوب ثم صار في سنة سبع وعشرين نائب قلعة الجبل بعد تغري برمش البهسني التركماني بحكم انتقاله إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية وأنعم على تنبك بإمرة طيلخاناه عوضًا عن تغري برمش المذكور أيضًا فدام على ذلك مدة طويلة إلى أن نقل إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في أواخر الدولة الأشرفية.

ثم ولي نياحة قلعة الجبل ثانيًا في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق وهو أمير مائة ومقدم ألف ثم صار أمير حاج المحمل ثم ولي حجوية الحجاب بالديار المصرية ودام على ذلك سنين كثيرة وحج أمير حاج المحمل غير مرة إلى أن أمسكه السلطان الظاهر ونفاه إلى ثغر دمياط وأنعم بإقطاعه وحجويته على الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أحد أمراء الألوفا بدمشق فأقام بدمياط مدة.

ثم طلبه الملك الظاهر إلى الديار المصرية ورسم له بالمشي في الخدمة السلطانية فمشي إلى الخدمة أيامًا كثيرة من غير إقطاع إلى أن مات الشهابي أحمد بن علي بن إينال أحد مقدمي الألوفا بالديار المصرية فأنعم بإقطاعه على تنبك هذا ثم صار أمير مجلس في دولة الملك المنصور عثمان بعد انتقال تتم المؤيدي إلى إمرة سلاح بعد جرباش الكريمي بحكم لزومه بيته لكبر سنه وضعف بدنه فلم تطل أيامه.

واستقر أمير سلاح في ثاني يوم من سلطنة الملك الأشرف إينال عوضًا عن تتم المذكور بحكم القبض عليه وحبسه بسجن الإسكندرية فلم يتم له ذلك غير يوم واحد وأصبح استقر أتاك العساكر لما كثرت القالة في تولية الشهابي أحمد ابن الملك الأشرف إينال أتاك العساكر عوضًا عن أبيه فعزله وجعله من جملة أمراء الألوفا واستقر تنبك هذا عوضه فدام في الأتابكية مدة طويلة إلى أن مات في التاريخ المذكور وتولى المقام الشهابي أحمد عنه الأتابكية ثانيًا.

وكان من أمر تنبك هذا في ولايته الأتابكية غريبة وهو أن الذي أخذ عنه ولي عنه ولعل هذا لم يقع لأحد أبدًا.

وكان تنبك المذكور رجلًا دينًا خيرًا هنيئًا لينًا سليم الفطرة شحيحًا لا يتجمل في بركه ولا حواشيه رحمه الله تعالى.

وتوفي عظيم الدولة صاحب جمال الدين أبو المحاسن يوسف مدير المملكة وصاحب وظيفتي نظر الجيش والخاص معًا ابن الرئيس كريم الدين عبد الكريم ناظر الخاص ابن سعد الدين بركة المعروف بابن كاتب حكم في ليلة الخميس وقت التسيح الثامن عشر من ذي الحجة ودفن من الغد بالصحراء في تربته التي أنشأها.

وكانت جنازته مشهودة إلى الغاية وحضر المقام الشهابي أحمد أتاك العساكر الصلاة عليه بمصلاة باب النصر وحضر دفنه أيضًا ومات وسنه زيادة على أربعين سنة لأن مولده في سنة تسع عشرة وثمانمائة هكذا كتب لي بخطه رحمه الله.

ومات ولم يخلف بعده مثله رئاسة وسؤددًا بلا مدافعة وهو آخر من أدركنا والوجهة ووفور الحرمة ونفوذ الكلمة والعظمة الزائدة وكثرة ترداد الناس إليه وأعيان الدولة وأكابرها إلى بابه بل الوقوف في خدمته وهذا شيء لم ينله غيره في الدولة التركية مع علمي بمنزلة كريم الدين الكبير عند الناصر محمد بن قلاوون وبما ناله سعد الدين إبراهيم بن غراب في الدولة الناصرية فرج ثم بعظمة جمال الدين يوسف البيري الأستاذار في دولة الناصر فرج أيضًا ثم بخصوصية عبد الباسط بن خليل الدمشقي في دولة الأشرف برسباي ومع هذا كله ليس فيهم أحد وصل إلى ما وصل إليه جمال الدين هذا وقد برهنا عما قلناه في تاريخنا " حوادث الدهور " وأيضًا في تاريخنا " المنهل الصافي " فلينظر هناك وليس هذا الموطن محل إطناب رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع وثمانية أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعًا وخمسة عشر إصبغًا.

السنة السابعة من سلطنة الأشرف إينال وهي سنة ثلاث وستين وثمانمائة.

فيها توفى الأمير يشبك بن عبد الله النوروزي نائب طرابلس كان بطالاً بالقدس في يوم الاثنين تاسع المحرم وهو في عشر السبعين تخميناً.

وهو من عتقاء الأمير نوروز الحافظي وتنقل بعد موت أستاذه في خدم الأمراء وقاسى خطوب الدهر ألواناً إلى أن صار في أواخر دولة الأشرف برسباي من صغار أمراء دمشق.

ثم تنقل في دولة الملك الظاهر جقمق إلى أن صار حاجب حجاب طرابلس بالبذل.

ثم نقل إلى حجویة دمشق ثم إلى نيابة طرابلس بعد عزل يشبك الصوفي عنها كل ذلك يبذل المال فدام على نيابة طرابلس إلى أن أمسكه الملك الأشرف إينال في حدود سنة ستين وحبسه بقلعة المرقب إلى أن أطلقه في سنة اثنتين وستين وثمانمائة ورسم له بالتوجه إلى القدس بطالاً فاستمر بالقدس إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره.

وكان وضيعاً في الدول لم تسبق له رئاسة بالدولة المصرية حتى إنه لم يخدم في باب سلطان أبداً بل كان يخدم بأبواب الأمراء إلى كان من أمره ما كان.

وكان مع ذلك عنده طيش وخفة وتكبر ولم أدر لأي معنى من المعاني رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الإمام العالم العامل المحقق الفقه الصوفي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل البلاطنسي الشافعي نزيل دمشق بها في ليلة سابع عشرين صفر ودفن في صبيحة يوم الأربعاء وكانت جنازته مشهودة وكثر أسف الناس عليه.

ومولده ببلاطنس من أعمال طرابلس بعد سنة تسعين وسبعمئة ونشأ بها وقرأ العربية واشتغل ثم قدم طرابلس ولازم الشيخ محمد بن زهرة وبه تفقه وأخذ لإصول عن الشيخ سراج الدين وقرأ الحديث أيضاً بطرابلس على ابن البدر ثم رحل إلى دمشق قبل سنة عشرين واشتغل بها على العلماء ثم عاد إلى طرابلس.

ثم قدم إلى دمشق ثانياً بأهله واستوطنها ولازم علامة زمانه ووحيد دهره الشيخ علاء الدين محمد البخاري الحنفي وأخذ عنه فنوناً كثيرة إلى أن برع في الفقه والتصوف وجلس للإفادة والتدريس والإشغال إلى أن مات.

وكان قوياً بالحق قائماً في أمر الملهوفين لا تأخذه في الله لومة لائم وقد استوعبنا من أحواله نبذة كبيرة في تاريخنا " الحوادث " وغيره رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله من جانبك المؤيدي الصوفي أتابك دمشق بها في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر وهو اليوم الذي مات فيه البلاطنسي المقدم ذكره وقد ناهز الستين من العمر.

كان من صغار مماليك الملك المؤيد شيخ وصار خاصكياً بعد موت أستاذه وامتحن في دولة الملك الأشرف برسباي بالضرب والعصر والنفي بسبب الأتابك جانبك الصوفي.

ثم عاد بعد سنين إلى رتبته وصار خاصكياً على عادته إلى أن تأمر عشرة في دولة الملك الظاهر جقمق وصار من جملة رؤوس النوب وسافر إلى مكة مقدم المماليك السلطانية بمكة ثم عاد إلى القاهرة ودام بها مدة ثم نفي إلى حلب بعد سنة خمسين وثمانمائة ثم

نقله الملك الظاهر جقمق إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بحلب ثم نقله بعد ذلك إلى نيابة حماة ببذل المال ثم إلى نيابة طرابلس كذلك بعد انتقال الأمير برسباي الناصري إلى نيابة حلب في سنة اثنتين وخمسين فدام على نيابة طرابلس إلى سنة أربع وخمسين فطلب إلى القاهرة فلما حضر أمسكه السلطان الملك الظاهر وأرسله إلى دمياط بطالاً ثم نقل بعد مدة من دمياط إلى سجن الإسكندرية لأمر بلغ السلطان عنه فلم تطل مدته بسجن الإسكندرية واطلق وأرسل إلى دمياط ثانياً ثم نقل إلى القدس ثم طلب إلى الديار المصرية فأنعم عليه بأتابكية العساكر بدمشق بعد القبض على الأتابك خيربك المؤيدي لإجروء.

فدام يشبك هذا على أتابكية دمشق إلى أن حج أمير حاج المحمل الشامي في سنة اثنتين وستين وعاد إلى دمشق ومات بعد أيام.

وكان رجلاً طويلاً حسن الشكل حلو اللسان بعيد لإحسان عادلاً في الظاهر ظالماً في الباطن متواضعاً لمن كانت حاجته إليه مترفعاً علي من احتاج إليه كثير الخدع والتملق لأصحاب الشوكة بألف وجه وألف لسان مع كثرة أيمان الله والطلاق وشح وبخل.

وتوفي الشيخ بهاء الدين أحمد بن علي التتائي الأنصاري الشافعي نزيل مكة بها في ليلة الثلاثاء سابع عشرين صفر وحضرت أنا الصلاة عليه بالحرم بعد صلاة الصبح ودفن بالمعلاة وهو أخو القاضي شرف الدين موسى الأنصاري الأكبر.

كان مولده بتتا قرية بالمنوفية بالوجه البحري من أعمال القاهرة في سنة ثمان وثمانمئة.

وكان فيه محاسن ومكارم أخلاق وخط منسوب وفضيلة رحمه الله تعالى.

قلت: وكانت وفاة بهاء الدين هذا ويشبك الصوفي والبلاطنسي المقدم ذكرهما في ليلة واحدة وهذا من النوادر رحمهم الله.

وتتا بتاء مثناة مكسورة وتاء مثناة أيضاً مفتوحة وبعدهما ألف ممدودة.

وتوفي الأمير سيف الدين قاني باي بن عبد الله الحمزاوي نائب دمشق بها في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر وقد قارب الثمانين ودفن من الغد في يوم الخميس.

وكان أصله من مماليك سودون الحمزاوي الظاهري الدوادر ثم خدم بعد موته عند الوالد هو وجماعة كثيرة من خدائشيته مدة طويلة ثم صار في خدمة الملك المؤيد شيخ المحمودي قبل سلطنته فلما تسلطن أمره عشرة ثم صار أمير طبلخاناه ثم صار أمير مائة ومقدم ألف بعد موت الملك المؤيد شيخ وتولى نيابة الغيبة بالديار المصرية للملك المظفر أحمد بن شيخ لما سافر مع الأتابك ططر إلى دمشق ثم قبض عليه الملك الظاهر ططر لما عاد من دمشق وحبسه مدة إلى أن أطلقه الملك برسباي وجعله أتابك دمشق ثم طلبه بعد سنين إلى الديار المصرية وجعله بها أمير مائة ومقدم ألف.

واستقر الأمير تغري بردي المحمودي بعده أتابك دمشق فدام قاني باي بالقاهرة إلى أن ولاه الأشرف نيابة حماة بعد انتقال الأمير جليان إلى نيابة طرابلس بعد موت الأتابك طرباي في سنة سبع وثلاثين ثم نقل بعد مدة إلى نيابة طرابلس بعد الأمير جليان أيضاً بحكم انتقاله إلى نيابة حلب بعد عصيان تغري برمش التركماني البيهسني وخروجه عن الطاعة في سنة اثنتين وأربعين وثمانمئة فلم تطل مدته بها.

ونقل إلى نيابة حلب بعد انتقال جليان أيضًا إلى نيابة دمشق بعد موت الأتابك آقباغا التمرآزي في سنة ثلاث وأربعين وثمانمئة فدام في نيابة حلب إلى سنة ثمان وأربعين وثمانمئة فطلبه الملك الظاهر جقمق إلى الديار المصرية وعزله عن نيابة حلب بالأمير قاني باي البهلوان الناصري وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية عوضًا عن الأمير شادبك الجكمي المتولي نيابة حماة بعد انتقال قاني باي البهلوان المقدم ذكره إلى نيابة حلب.

فاستمر قاني باي الحمزاوي من أمراء الديار المصرية إلى أن أعاده الملك الظاهر جقمق ثانيًا إلى نيابة حلب بعد عزل الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي وقدمه إلى مصر على إقطاع قاني باي هذا فدام في نيابته هذه على حلب إلى أن نقله الملك الأشرف إينال إلى نيابة دمشق بعد موت الأمير جليان في سنة ستين وثمانمئة.

فاستمر على نيابة دمشق إلى أن مات بها وهو عاص على السلطنة في الباطن مقيم على الطاعة في الظاهر.

وقد وقع في أمر قاني باي هذا غرائب منها: أنه من يوم خرج من مصر إلى ولاية حلب ثانيًا في دولة الملك الظاهر جقمق عصى على السلطان في الباطن وعزم على أنه لا يعود إلى مصر أبدًا فلما مات الظاهر وتسلم ابنه المنصور عثمان ثم الأشرف إينال قوي أمر قاني باي هذا بحلب وفشا أمره عند كل أحد فلم يكشف الأشرف إينال ستر التغافل بينه وبين قاني باي المذكور بل صار كل منهما يتجاهل على الآخر فذاك يظهر الطاعة وامتنال المراسيم من غير أن يطأ بساط السلطان أو يحضر إلى القاهرة وهذا يرضى منه بذلك ويقول: " هذا داخل في طاعتي " ولا يرسل خلفه أبدًا بل يغالطه حتى لو أراد قاني باي الحضور إلى القاهرة ما مكنه إينال لمعرفته منه أن ذلك امتحان وصار كل منهما يتربص موت الآخر إلى أن مات قاني باي قبل وولى الأشرف إينال عوضه في نيابة دمشق الأمير جانم الأشرفي.

ومن الغرائب التي وقعت له أيضًا أن قاني باي هذا لم يل ولاية بلد مثل حماة وطرابلس وحلب والشام إلا بعد الأمير جليان مع طول مدة جليان في نيابته الشامية أزيد من ثلاثين سنة فهذا من النوادر الغربية كون أن قاني باي يعزل عن نيابة حلب ويصير أميرًا بمصر مدة سنين ويولي حلب بعده غير واحد ثم يعود إلى نيابة حلب ويقوم بها إلى أن ينتقل منها إلى نيابة الشام بعد موت جليان كما انتقل قبل ذلك بعده في كل بلد فهذا هو إلتفاق العجيب.

وتوفي الأمير شرف الدين عيسى بن عمر الهواري أمير عرب هواره ببلاد الصعيد في ليلة الخميس رابع شهر ربيع الآخر بعد عوده من الحج وولي بعده ابنه ثم عزل بعد أمور.

وكان عيسى هذا مليح الشكل دينًا خيرًا بالنسبة إلى أبناء جنسه وله مشاركة بحسب الحال وبتفقه على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

وتوفي الشيخ الإمام الفقيه العالم أبو عبد الله حمد بن سليمان بن داود الجزولي المغربي المالكي نزيل مكة بها في يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الآخر وحضرت الصلاة عليه بحرم مكة ودفن بالمعلاة.

وكان مولده في سنة سبع وثمانمئة بجزولة من بلاد المغرب.

وكان فقيهاً عالمًا بفروع مذهبه عارفاً بالنحو مشاركاً في التفسير والحديث وسمع ببلاده أشياء كثيرة وحدث ببعضها في مكة ودرس وأفتى وانتفع أهل مكة بدروسه وكان كريم النفس بخلاف المغاربة رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي محب الدين أبو البركات محمد بن عبد الرحيم الهيثمي الشافعي أحد نواب الحكم الشافعية بالديار المصرية في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى وحضرت الصلاة عليه بحرم مكة ودفن بالمعلاة وقد زاد عمره على الستين.

وكان فقيهاً نحوياً مشاركاً في فنون كثيرة كان يحفظ التوضيح لابن هشام في النحو وكان مستقيم الذهن جيد الذكاء ناب في الحكم بالديار المصرية أزيد من ثلاثين سنة ودرس وخطب وجاور بمكة غير مرة إلى أن مات في مجاورته هذه لإخيرة رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي ناصر الدين محمد بن أحمد بن حسين النبراوي الحنفي أحد نواب الحكم بالقاهرة في يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى الأولى.

وكان عارفاً من العلم عارفاً بصناعة القضاء.

وتوفي القاضي محب الدين محمد ابن الإمام شرف الدين عثمان بن سليمان بن رسول بن أمير يوسف بن خليل بن نوح الكراذي بفتح الراء المهملة القرمشي الأصل الحنفي المعروف بابن الأشقر شيخ شيوخ خانقاه سرياقوس ثم ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية ثم كاتب السر بها في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر رجب بالقاهرة بطالاً ودفن من الغد بترتبه بالصحراء خارج القاهرة.

وكانت وفاته بعد عزله من كتابة السر بشهرين وبعد وفاة ولده إبراهيم بدون الشهر.

وكان مولده بالقاهرة قبل سنة ثمانين ونشأ بها واشتغل في مبدأ أمره قليلاً ثم ولي مشيخة خانقاه سرياقوس في سنة أربع عشرة وثمانمائة ثم بعد سنين كثيرة ولي كتابة السر بمصر في دولة الملك الأشرف برسباي عوضاً عن القاضي كمال الدين بن البارزي بحكم عزله في رجب سنة تسع وثلاثين وبأشر الوظيفة إلى أن عزل عنها بالقاضي صلاح الدين بن نصرالله في ذي الحجة من سنة أربعين فلزم داره بطالاً إلى أن ولاه الملك الظاهر جقمق ناظر الجيوش المنصورة عوضاً عن الزيني عبد الباسط بحكم القبض عليه ومصادرتة في سنة اثنتين وأربعين ثم عزل عن وظيفة نظر الجيش غير مرة ثم ولي كتابة السر ثانيًا بعد وفاة القاضي كمال الدين ابن البارزي في سنة ست وخمسين فباشر الوظيفة إلى أن عزل عنها بالقاضي محب الدين ابن الشحنة ثم أعيد إليها بعد أشهر ودام بها مدة طويلة إلى أن عزل عنها ثانيًا بابن الشحنة في سنة ثلاث وستين وثمانمائة ومات بعد ذلك بشهرين حسب ما تقدم ذكره.

وكان معدودًا من رؤساء الديار المصرية وكان عنده حشمة وأدب وتواضع ومحاضرة حسنة إلا أنه كان رأسًا في البخل رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي محب الدين محمد ابن القاضي ناصر الدين محمد الفاقوسي أحد أعيان موقعي الدست بالديار المصرية في ليلة الاثنين خامس عشرين شهر رجب رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين خيربك بن عبد الله المؤيدي الأشقر الأمير آخور الثاني في يوم السبت مستهل شعبان وقد جاوز السبعين.

وكان من مماليك المؤيد شيخ وصار خاصكياً في دولة الملك الظاهر جقمق ومن جملة الدوادارية الصغار إلى أن أنعم عليه بإمرة عشرة بعد مسك جانبك المحمودي المؤيدي وجعله جقمق من جملة رؤوس النوب وحج أمير الركب الأول ثم نقل إلى الأمير أخورية الثانية في أوائل دولة الملك الأشرف إينال عوضاً عن سنقر العايق الظاهري فباشر الوظيفة بغير حرمة وصار فيها كل شيء إلى أن مات وتولى الأمير يلباي الإينالي المؤيدي الأمير أخورية الثانية من بعده.

وكان خيربك هذا كثير الفتن بين الطوائف وليس عنده همة لإثارة الحرب إلا بالكلام.

وتوفي الإمام شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد إلاخيمي أحد أئمة السلطان في يوم السبت تاسع عشرين شعبان رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير زين الدين قاسم بن جمعة القساسي الحلبي نائب قلعة حلب بها في شهر رمضان وكان ولي قبل ذلك حجوية حلب وغيرها الجميع بالبذل.

وتوفي القاضي معين الدين عبد اللطيف بن أبي بكر بن سليمان سبط ابن العجمي نائب كاتب السر بالديار المصرية يوم الجمعة رابع شوال وعمره نيف عن خمسين سنة.

وكان ولي في الدولة الأشرفية كتابة سر حلب ثم ولي نيابة كتابة السر بمصر بعد وفاة أبيه القاضي شرف الدين إلى أن مات وكان هو القائم بأعباء ديوان الأنشاء لمعرفته بصناعة الأنشاء ولما فيه من الفضيلة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله من سيدي بك الناصري القرماني أتابك حلب بطريق الحج في شوال.

وكان من مماليك الناصر فرج وانحط قدره وخدم في أبواب الأمراء إلى أن صار خاصكياً في الدولة الملك الظاهر ططر ثم صار ساقياً في دولة الملك الظاهر جقمق ثم تآمر عشرة ثم نقل إلى مقدمة ألف بحلب ثم صار أتابكاً في دولة الأشرف إينال ثم نقل إلى أتابكية طرابلس ثم اعيد بعد مدة إلى أتابكية حلب إلى أن مات.

وكان مهملاً مسرفاً على نفسه وعنده فشار كبير ومجازفات في كلامه رحمه الله.

وتوفي الشيخ الإمام الفقيه الواعظ الصوفي شمس الدين محمد بن محمد بن إبراهيم الحموي الأصل الحلبي الشافعي المعروف بابن الشماع في ذي القعدة بالمدينة الشريفة قاصداً الحج ودفن بالمدينة يوم دخول الحاج الشامي إليها.

وكان حلو اللسان مليح الشكل طلق العبارة والمحاضرة ولكلامه طلاوة ورونق وموقع في النفوس رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين قاني باي المؤيدي المعروف بقراسقل أحد أمراء العشرات بمدينة طرابلس في توجهه من الديار المصرية في البحر إلى الجرون صحبة الأمراء المصريين وقد ناهز الستين من العمر أو جاوزها بيسير.

وكان من مماليك الملك المؤيد شيخ ممن صار خاصكياً في دولة الظاهر جقمق وساقياً ثم تآمر عشرة إلى أن مات.

وكان ساكناً مهملاً مع إسراف على نفسه عفا الله عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين بايزيد بن عبد الله التمرغاوي أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية في يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة ودفن من يومه وقد ناهز السبعين.

وكان من مماليك الأمير تمرغا المشطوب الظاهري برقوق وخدم بعده عند جماعة من الأمراء وتشتت في البلاد إلى أن اتصل بخدمة الملك الظاهر ططر قبل سلطنته فلما تسلطن جعله خاصكياً ثم ساقياً في أوائل دولة الأشرف برسباي ودام على ذلك دهرًا طويلًا إلى أن أمره الأشرف عشرة في أواخر دولته فدام على تلك العشرة أيضًا دهرًا طويلًا إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف إينال بإمرة طبلخاناه ثم نقله إلى مقدمة ألف في حدود سنة ستين للين جانبه لا لمحله الرفيع ولا لعظم شوكته فدام على ذلك سنين ومات.

وكان رجلًا ساكنًا عاقلًا لم يشهر في عمره بشجاعة ولا كرم وكان إذا توجه في مهم إلى السلطان مع من سافر من الأمراء ووقع الحرب يدونه في الوطاق ليحرس الخيم وكذلك جعله الأشرف إينال في يوم الواقعة مع الملك المنصور عثمان يجلس على الباب رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم لم يحرر لغيابي بمكة المشرفة مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعًا وأصابع.

السنة الثامنة من سلطنة الأشرف إينال

وهي سنة أربع وستين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخ الإمام المحقق الفقيه العلامة جمال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي المصري بالقاهرة في يوم الأحد مستهل المحرم وسنة نحو السبعين تخمينًا.

وكان إمامًا علامة متبحرًا في العلوم.

كان بارعًا في الفقه والأصليين والعربية وعلمي المعاني والبيان وأفتى ودرس عدة سنين وانتفعت الطلبة به وله عدة مصنفات ولم يكمل بعضها ورشح لقضاء الديار المصرية غير مرة.

وكان في طباعه حدة مع عدم التكلف في ملبسه ومركبه إلى الغاية بحيث إنه كان إذا رآه من لا يعرفه يظنه من جملة العوام رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين قيز طوغان العلائي الأستاذار ثم نائب ملطية ثم أتابك حلب ثم أحد أمراء دمشق بطالاً بدمشق بالطادون وقد شاخ في العشر الأوسط من محرم.

وكان من عتقاء الأمير علان شلق الظاهري وخدم بعده عند الملوك إلى أن اتصل بخدمة السلطان وصار في دولة المؤيد شيخ رأس نوبة الجمدارية دهرًا طويلًا إلى أن تآمر عشرة في دولة الملك الظاهر جقمق وصار أمير آخور ثالثًا.

ثم ولي الأستاذارية بعد عزل الناصري محمد بن أبي الفرج فباشر أشهرًا ثم عزل وأخرج إلى البلاد الشامية وتنقل فيها إلى ما أشرنا إليه.

ثم حج وسافر أمير حاج المحمل الشامي فوقع منه بالمدينة الشريفة ما أوغر خاطر السلطان عليه وأمسك بعد عوده وحبس مدة بقلعة دمشق أو غيرها ثم أطلق ودام بطالاً إلى أن مات.

وكان أميراً جليلاً عارفاً شجاعاً مقداماً وفيه حشمة وأدب ومكارم رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ المقرئ إمام جامع إلازهر في يوم الأحد خامس عشر المحرم وكان ديناً خيراً من بيت قراءة وفضل ودين رحمه الله تعالى.

وتوفي زين الدين أبو الخير محمد ابن المعلم شمس الدين محمد ابن المعلم أحمد المعروف بالنحاس شهرة وصناعة ومكسباً في يوم الجمعة العشرين من المحرم ودفن من يومه بالصحراء.

وقد تقدم من ذكره في أصل هذا الكتاب ما يغني عن التعريف به في هذا المحل ثانياً وسقنا أمره محرراً من ابتداء أمره إلى آخره باليوم والشهر من تاريخنا المنهل الصافي ثم في مصنفنا أيضاً حوادث الدهور وذكرنا كيفيته وكيف كان تقربه إلى الملك الظاهر جقمق وعرفنا بحاله و تكسبه في دكان النحاسين ثم ما وقع له مع أبي العباس الوفاي ثم ترقيه وتوليه الوظائف السنية شيئاً بعد شيء ثم انحطاط قدره ونكبته ومصادرتة وضربه و نفيه بعد حبسه بحبس الرحبة مدة طويلة والآخراق به من العوام والمماليك السلطانية ثم خروجه من الديار المصرية على أقبح وجه بعد أن ادعى عليه عند القاضي المالكي بالكفر وأشيع ضرب رقبته ووضع الجنزير في رقبته ثم ما وقع له من الآخراق بمدينة طرسوس في مدة طويلة ثم حضوره إلى الديار المصرية بغير إذن الملك الظاهر جقمق خفية ثم طلوعه إلى السلطان وضرب السلطان له ثانياً بالحوش في الملاً العام ذلك الضرب المبرح ثم إخراجة ثانياً من القاهرة على أقبح وجه منفيّاً إلى طرابلس ثم إقامته بطرابلس إلى أن مات صاحب جمال الدين يوسف بن كاتب حكّم ثم طلبه الحضور إلى الديار المصرية غير مرة إلى أن حضر.

وظن المخمول أن الذي مضى سيعود وقدم عدة كبيرة من الخيول وولي الذخيرة ووظائف أخرى فلم يتحرك له سعد ولا نتج أمره بل صار كلما قام أقعده الدهر وكلما أراد القوة ضعف.

وزاد به القهر إلى أن مرض وأشتد مرضه وترادفت رسل السلطان إليه يطلب المال فعظم ما به من المرض من الخالق ومن المخلوق إلى أن مات واستراح وأراح بعد أن قاسى أهوالاً في مرضه وحمل عليّ فقص حمال على رأس رجل للمحاسبة لما ثقل في الضعف وقد حثه الطلب كل ذلك تأديباً من الله عز وجل لتعلم أن الله على كل شيء قدير.

وكانت صفته رجلاً طويلاً أسمر جسيماً عاماً؛ كانت صفته مشبهة لصناعته وأهلها في الكثافة إلا أنه كان يكتب المنسوب بحسب الحال ليس فيه بالماهر ويحفظ القرآن على طريق قراء إلاجواق من مواظبته لليالي جمع الإمام الليث لا يحفظه على طريق القراء.

وبالجملة فإن ابتداء ترقية كان عجبياً وانحطاطه كان أعجب رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين علان بن عبد الله المؤيدي أتاك دمشق المعروف بعلان جلق بدمشق في يوم الأربعاء تاسع صفر وقد زاد سنه على السبعين تخمياً.

وكان أصله من مماليك الملك المؤيد شيخ وصار في أيامه من جملة الأمير آخورية الأجناد ثم صار بعد موت أستاذه من جملة أمراء دمشق ثم بعد مدة نقل إلى نيابة البيرة ثم إلى حجویة حلب الكبرى ثم عزل من حلب بسبب شكوى نائبيها قاني باي الحمزاوي عليه توجه إلى طرابلس بطالاً ثم أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق بعد انتقال الأمير خشقدم الناصري المؤيدي عنها إلى حجویة الحجاب بالديار المصرية ثم نقل إلى أتابكية دمشق بعد موت يشبك الصوفي المؤيدي في سنة ثلاث وستين فلم تطل مدته ومات.

وكان مشهورًا بالشجاعة وإلقدام رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين طوغان من سقلسيز التركماني أمير التركمان في شهر ربيع الأول واستقر ولده في إمرة التركمان من بعده.

وتوفي القاضي سعد الدين إبراهيم بن فخر الدين عبد الغني بن علم الدين شاکر بن رشيد الدين خطير الدمياطي المصري القبطي المعروف بابن الجيعان ناظر الخزانة الشريفة في ليلة الجمعة ثالث عشرين شهر ربيع الأول وسنه نيف عن خمسين سنة.

وكان حشماً وقوراً وجيهاً عند الملوك وهو باني الجامع على بحر بولاق بالقرب من المنطرة الحجازية رحمه الله تعالى.

وتوفي عبد الله التركماني البهسني كاشف الشرقية بالوجه البحري من أعمال القاهرة بطالاً في يوم الأحد ثالث شهر ربيع الآخر وقد كبر سنه وشاخ.

وكان في أول قدومه إلى الديار المصرية يخدم شاداً في قرى القاهرة إلى أن اتصل بخدمة الملك الظاهر جقمق قبل سلطنته فلما تسلطن ولاه كشف الشرقية فلما ولي ما كف عن قبيح ولا عفا عن حرام إلا فعلهما فساءت سيرته في ولايته وحصل للناس منه شذائد لا سيما أهل بلبس وفلاحى الشرقية فإنه كان عليهم أشد من إبليس وشكاه غير واحد مرات عديدة إلى الملك الظاهر فلم يسمع فيه كلاماً.

وبالجملة فإنه كان من أوخاش الظلمة إلا لعنة الله على الظالمين.

وتوفي الشيخ أبو الفتح محمد الكاتب المجود صاحب الخط المنسوب وأحد نواب الحكم الشافعية وإمام الشهابي أحمد ابن الملك الأشرف إينال في يوم الأحد عاشر شهر ربيع الآخر رحمه الله.

وتوفي الأمير أسندمر بن عبد الله الجقمقى أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بعد عوده من مجاورته بمكة بمرض البطن في يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى وقد ناهز الستين من العمر.

وكان رومي الجنس وكان أصله من مماليك جقمق إلارغون شاوي الدوادار نائب الشام وكان أسندمر هذا يجيد الرمي بالنشاب وفيه إسراف على نفسه سامحه الله تعالى بفضله.

وتوفي سيف الدين خشقدم بن عبد الله إلاردبغاوي حاجب حجاب طرابلس في جمادى الأولى.

وكان أصله من مماليك أربغا نائب قلعة صفد ثم خدم عند قاني باي الحمزاوي وصار في أواخر عمره دوادارًا ثم سعى بعد الحمزاوي في حجوبية طرابلس حتى وليها فلم ظل مدته ومات في التاريخ المذكور.

و كان من الأوباش الذين لا أعرف لهم حبالا.

وتوفي الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله الظاهري أحد أمراء العشرات بالطادون في يوم السبت حادي عشرين جمادى الأولى وأخرج هو وولده معًا في جنازة واحدة.

وكان أصله من مماليك الملك الظاهر جقمق اشتراه في سلطنته وتأمّر في أيامه عشرة ثم نكب ثم تأمر ثانيًا في دولة الملك الأشرف عشره إلى أن مات.

وكان لا بأس به رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين يونس بن عبد الله العلاني الناصري الأمير آخور الكبير بالطادون في باكر يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الأولى وقد جاوز السبعين من العمر ودفن بترته التي أنشأها بالصحراء.

وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق الكتابية ثم ملكه الملك الناصر فرج وأعتقه ودام من جملة المماليك السلطانية سنين كثيرة لا يلتفت إليه في الدول إلى أن تأمر عشرة في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق مراعاة لخاطر الأمير إينال العلاني لإجروود أعني عن الأشرف هذا صاحب الترجدة لكونه كان خجداشه من تاجر واحد ودام من جملة أمراء العشرات أيامًا كثيرة إلى أن نقله الملك الظاهر إلى نيابة قلعة الجبل بعد عزل تغري برممش الفقيه وإخراجه إلى القدس في سنة تسع وأربعين.

قلت: وبئس البديل! وهذا من عدم الإنصاف.

كيف يكون هذا المهمل العاري من كل علم وفن موضع ذلك العالم الفاضل الذكي العارف بغالب فنون الفروسمة هع ما حواه من العلوم.

وقد أذكرتني هذه الواقعة قول بعض الأدباء المؤالة حيث قال: وتجعل الحرالذكي الوشواش يحكم عليه رديء الأصل يبقى لاش وأستمر يونس هذا في نيابة القلعة إلى أن تسلطن خجداشه الملك الأشرف إينال صاحب الترجدة وخلع عليه في صبيحة يوم السلطنة بنيابة الإسكندرية فتوجه إليها وأقام بها مدة ثم عزل وقدم إلى القاهرة على إمرته.

ثم بعد مدة من قدومه صار أمير مائه ومقدم ألف بالديار المصرية بعد خروج الأمير جانم الأشرفي إلى نيابة حلب وذلك في أواخر صفر سنة تسع وخمسين وتوجه لتقليد الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حلب بنيابة دمشق بعد موت الأمير جلبان فقلده وعاد وقد استغنى يونس بما أعطاه قاني باي الحمزاوي في حق طريقه من الذهب اثني عشر ألف دينار ومن القماش والخيول نحو خمسة آلاف دينار ثم نقل بعد ذلك الأمير آخورية الكبرى بعد انتقال الأمير جرباش المحمدي إلى إمرة مجلس بعد تعطل الأمير طوخ من تمرار ولزومه داره من مرض تمادى به وذلك في أوائل ذي الحجة سنة إحدى وستين وثمانمائة.

وعظم يونس عند خجداشه الملك الأشرف لكونه كان خجداشه.

وأنا أقول: ما كانت محبته له إلا لجنسية كانت بينهما في الإهمال لأن الجنسية علة الضم.

فلم يزل يونس المذكور في وظيفته إلى أن مات في التاريخ المقدم ذكره.

قلت: وما عسى أذكر من أمره والسكوت والإضراب عن الذكر أجمل وفي التلويح ما يغني عن التصريح.

وتوفي الأمير زين الدين هلال بن عبد الله الرومي الطواشي الظاهري الزمام بطالاً بالطادون في يوم الأحد تاسع عشرين جمادى الأولى وقد شاخ وناهز عشر المائة من العمر.

وكان من خدام الملك الظاهر برقوق ومن أعيان طواشيتته ثم صار شاد الحوش السلطاني مدة طويلة إلى أن بدا له أن يبذل المال في وظيفة الزمامية فوليها بعد موت الأمير جوهر القنقباي فباشر الوظيفة بقله حرمة فلم ينتج أمره وعزل وتخومل إلى أن مات وهو مجتهد في الزراعة والدولاب لتحصيل المال فلم ينل من ذلك شيئاً ومات فقيراً رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي زين الدين عبد الرحيم ابن قاضي القضاة بدرالدين محمود ابن القاضي شهاب الدين أحمد العيني الحنفي ناظر إلاحباس في يوم الثلاثاء ثاني عشرين جمادى الآخرة بالطادون وهو في الكهولية.

وكان من بيت علم ورياسة.

وتوفيت خوند زينب بنت الأمير جرباش الكريمي المعروف بقاشق في يوم السبت سادس عشرين جمادى الآخرة بالطادون وسنها فوق الثلاثين.

وكان الملك الظاهر جقمق تزوجها في أوائل سلطنته في حدود سنة اثنتين وأربعين أو التي بعدها ومات عنها فتزوجها القاضي شرف الدين موسى الأنصاري ناظر الجيوش المنصورة فماتت عنده ودفنت بمدرسة الظاهر برقوق بين القصرين لكون أمها ابنة قانباي ابن اخت الظاهر برقوق رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير قرم خجا بن عبد الله الظاهري أحد أمراء العشرات بطالاً في العشر الأول من شهر رجب وهو في عشر المائة من العمر.

كان من مماليك الظاهر برقوق وخاصكيته وكان فقيهاً ديناً خيراً تركي الجنس رحمه الله تعالى.

وتوفي السيفي يشبك بن عبد الله الأشرفي الأشقر أستاذار الصحة وأحد الخاصكية بالطادون في يوم الثلاثاء سابع شهر رجب ومستراح منه لأنه كان مهملًا مسرقًا على نفسه لا يرتجى لدين ولا لدنيا عفا الله عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله الساقى الظاهري بالطادون في يوم الأحد تاسع عشر شهر رجب بعد أن تأمر بأيام.

وكان مشهورًا بالشجاعة وإقدام.

قلعت عينه في واقعة الملك المنصور عثمان مع الأشرف إينال وكان من حزب ابن أستاذه الملك المنصور رحمه الله وعفا عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين يرشباي بن عبد الله الإينالي المؤيدي الأمير آخور الثاني كان واحد أمراء الطبلخانات الآن وهو مجاور بمكة المشرفة في شهر رجب وقد ناهز الستين من العمر.

وكان من ممالك الملك المؤيد شيخ اشتراه بعد سلطنته وصار خاصكياً بعد موته إلى أن تأمر عشرة في دولة الملك الظاهر جقمق وصار أمير آخور ثالثاً ثم نقل بعد مدة إلى الأمير آخورية الثانية وإمرة طبلخاناه بعد موت خداهشه سودون المحمدي المعروف بأمكجي فدام على ذلك إلى أن قبض عليه الملك المنصور عثمان مع دولات باي الدوادر ولباي الإينالي المؤيديين وحبس يرشباي هذا بسجن الإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الأشرف وأرسله مع خداهشه يلباي إلى دمياط ثم استقدمهما بعد أيام يسيرة إلى القاهرة وأنعم على يرشباي المذكور بإمرة عشرة ثم بإمرة طبلخاناه بعد انتقال الأمير بايزيد التمرغاوي إلى مقدمة ألف ثم سافر إلى مكة رأساً على الممالك السلطانية بها في سنة ثلاث وستين فمات بمكة رحمه الله تعالى.

وكان رجلاً طويلاً مليح الشكل والهيئة حشماً وقوراً مع إسراف على نفسه عفا الله عنه بمنه وكرمه.

وتوفي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن ظهيرة المكي المخزومي الشافعي قاضي جدة وهو معزول عنها بعد مرض طويل بالمدينة الشريفة.

وكان من خيار أقاربه ولديه فضيلة ومشاركة حسنة ومحاضرة جيدة بالشعر وأيام الناس وكان محبوباً في قومه وأهل بلده رحمه الله تعالى ولقد عز علينا موته.

وتوفي الأمير سيف الدين يشبك بن عبد الله المؤيدي أتابك دمشق بها في شعبان وقد جاوز الستين.

وكان يعرف ببشك طاز وكان مشكور السيرة لا بأس به رحمه الله.

وتوفي الشيخ الإمام العالم الفقيه زين الدين عبد الرحمن بن عنبر إلبوتيحي الشافعي أحد فقهاء الشافعية في صبيحة يوم الاثنين ثالث عشرين شوال وقد زاد سنه عن التسعين.

وكان عالماً وله اليد الطولى في علمي الفرائض والحساب وتصدر للإقراء بجامع إلازهر مدة طويلة وكان يعجبنى حاله إلا أنه ما حج حجة الإسلام عفا الله تعالى عنه.

وتوفيت خوند آسية بنت الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق في أوائل ذي الحجة وهي في عشر الستين وهي عزباء وأمها أم ولد حبشية تسمى ثريا.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع سواء.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وخمسة عشر إصبغاً.

سلطنة المؤيد أبي الفتح أحمد بن إينال هو السلطان السابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والثالث عشر من الجراكسة وأولادهم.

تسلطن في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى من سنة خمس وستين وثمانمائة الموافق لأول برمهات.

فلما كان ضحوة النهار المذكور نزل الزيني خشقدم لإحمدي الطواشي الساقى الظاهري بطلب القضاة الأربعة إلى القلعة ونزل غيره إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف فبادر كل منهم بالطلوع إلى القلعة حتى تكامل طلوع الجميع وجلس الكل بقاعة دهليز الدهيشة من قلعة الجبل وجلس الخليفة والمقام الأتابكي أحمد المذكور في صدر المجلس وجلس كل من القضاة في مراتبهم ودار الكلام بينهم في سلطنة الملك المؤيد هذا لكون أن والده الملك الأشرف إينال ما كان عهد إليه قبل ذلك بالسلطنة.

فتكلم القاضي كاتب السر محب الدين ابن الشحنة في أن تكون ولايته في السلطنة نيابة عن والده مدة حياته ثم استقلالاً بعد وفاته أو معناه فلم يحسن ذلك ببال من حضر.

وقام الجميع ودخلوا إلى قاعة الدهيشة وبها الملك الأشرف إينال مستلق على خطة ليسمعوا كلامه بالعهد لولده أحمد هذا فكلمه الأمير يونس الدوادار غير مرة في معنى العهد وهو لا يستطيع الرد وطال وقوف الجميع عنده وهو لا يتكلم فخرجوا إلى ولده المؤيد هذا وهو جالس بدهليز الدهيشة عند الشباك وعرفوه الحال ثم رجعوا إلى الملك الأشرف ثانياً وكرروا عليه السؤال وهو ساكت إلى أن تكلم بعد حين وقال باللغة التركية: " أعلم أعلم " يعني: " ابني ابني " فقال من حضر: " هذا إشارة بالعهد لولده فإنه لا يستطيع من الكلام أكثر من هذا " وخرجوا من وقتهم إلى الدهيشة.

وانتدب كاتب السر لتحليف الأمراء فحلف من حضر من الأمراء بالإيمان المؤكدة ولم ينهض أحد منهم أن يوري في يمينه ولا يدلس لأنهم أجنب من معرفة ذلك وأيضاً المحلف له فطن وكاتب سره رجل عالم وكان من جملة اليمين: المشي إلى الحاج كذا كذا مرة والطلاق والعتق وغير ذلك.

فلما انقضى التحليف وتمت البيعة قام كل أحد من الأمراء والخاصكية والأعيان وبادر إلى لبس الكلفتاة والتتري الأبيض كما هي العادة وأحضرت خلعة السلطنة الخليفية السوداء ولفت له عمامة سوداء حرير.

وقام المقام الشهابي المذكور ولبس الخلعة والعمامة على الفور وركب من باب الدهيشة فرس النوبة بسرج ذهب وكنبوش زركش ومشتت الأمراء والأعيان بين يديه من باب الحوش إلى أن اجتاز بباب الدور السلطانية فتلقته الجاوشية والزرديكاش ومعه القبة والطير وأبهة السلطنة فتناول الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أمير سلاح القبة والطير بإذن السلطان وحملها على رأسه وهو ماش وسار في موكب الملك بعظمة زائدة خارجة عن الحد وصار جميع الأمراء والقضاة مشاة بين يديه إلا الخليفة المستنجد بالله فإنه ركب فرساً من خيل السلطان ومشى بها خطوات ثم نزل عنها لقوتها عليها.

ولازال السلطان على تلك الهيئة حتى نزل على باب القصر السلطاني من قلعة الجبل ودخل وجلس على سرير الملك فلم تر العيون فيما رأت أحسن ولا أجمل منه في الخلعة السوداء لأنه كان أبيض اللون والخلعة سوداء مع حسن سمته وطول قامته حتى إنه لعله لم يكن أحد في العسكر يوم ذاك يدانيه في طول القامة.

ولما جلس على تخت الملك قبلت الأمراء الأرض بين يديه ودقت الكوسات ونودي في الحال بالدعاء للملك المؤيد أبي الفتح أحمد بشوارع القاهرة.

ثم في الوقت خلع على الخليفة فوقاني حرير بوجين أبيض وأخضر بطرز زركش وأنعم عليه بفرس بسرج ذهب وكنبوش زركش وأنعم عليه بقربة منبابة بالجيزة.

ثم خلع على الأمير خشقدم أمير سلاح أطلسين متمراً وفوقانيًا بطرز زركش بسرج ذهب وكنبوش زركش.

وأقام الملك المؤيد يومه وليته بالقصر وأصبح حضر الخدمة حسبما يأتي ذكره بعد أن نذكر وقت سلطنته.

وكان الطالع وقت مبايعته ولبسه خلعة السلطنة وجلوسه على سرير الملك السرطان وصاحب الطالع بالسنبلة وهو القمر قطع اثنتين وعشرين درجة و خمسين دقيقة والرأس بالسرطان أيضًا ست عشرة درجة وثلاثين دقيقة راجعًا والمشتري بالقوس صفرًا وسبعًا وعشرين دقيقة وزحل بالجدي أيضًا ثمانينًا وعشرين درجة وستًا وأربعين دقيقة والذنب بالجدي أيضًا ست عشرة درجة وثلاثين دقيقة والزهرة في الدلو ثلاث درجات وتسع عشرة دقيقة والليلة بالدلو أيضًا ثمانين درج و ثمانينًا وخمسين دقيقة وعطارد أيضًا بالدلو اثنتين وعشرين درجة وخمسين دقيقة والشمس في الحوت خمس عشرة درجة وأربعًا وخمسين دقيقة والساعة السادسة وهي للزهرة انتهى.

ولما كان صبيحة نهار الخميس المقدم ذكره وهو ثاني يوم من يوم سلطنته وهو عشر جمادى الأولى وقد عمل السلطان فيه الخدمة السلطانية وخلع على جماعة كثيرة من الأمراء بعدة وظائف فاستقر بالأمير خشقدم أمير سلاح أتابك العساكر عوضًا عن نفسه ولكن لم يجد له في ذلك اليوم خلعة الأتابكية لكونه كان لبسها في أمسه لما حمل القبة والطير على رأس السلطان فجددت له أخرى لم يفرغ عملها في هذا اليوم.

ثم أنعم السلطان على الأمير خشقدم المذكور بإقطاع نفسه وهو إقطاع الأتابكية.

ثم خلع على الأمير جرباش المحمدي أمير مجلسه باستقراره في إمرة سلاح عوضًا عن الأمير خشقدم بحكم استقراره أتابك العساكر.

واستقر الأمير قرقماس الأشرفي رأس نوبة النوب أمير مجلس عوضًا عن جرباش المقدم ذكره.

واستقر الأمير قائم من صفرخجا المؤيدي التاجر رأس نوبة النوب عوضًا عن قرقماس المذكور.

وأنعم السلطان بإقطاع الأتابك خشقدم على الأمير ببيرس الأشرفي خال الملك العزيز يوسف حاجب الحجاب لكون متحصل هذا الإقطاع يزيد عن متحصل الإقطاع الذي كان بيده أولًا وطلب الأمير جانبك من أمير الأشرفي الخازندار إقطاع ببيرس فتوقف السلطان فيه ووقع بسبب توقف السلطان في الأنعام على جانبك به بين جانبك المذكور وبين الأمير يونس الدوادر الكبير كلام فافحش الدوادر في الرد على جانبك ودام إقطاع موقوفًا لم ينعم به على أحد وانفض الموكب.

وقام السلطان الملك المؤيد أحمد من القصر وتوجه إلى الدهيشة وجلس بالشباك المطل على الحوش وأمر المنادي فنادى بين يديه بالحوش بأن النفقة في الممالك السلطانية تكون لكل واحد مائة دينار وتكون أول التفرقة يوم الثلاثاء عشرين الشهر فضج الناس له بالدعاء.

ثم قام ودخل إلى عند أبيه وهو في السياق فمات في اليوم وهو يوم الخميس المقدم ذكره بين الظهر والعصر فجهز من وقته وصلى عليه بباب القلة من قلعة الجبل ثم حمل

حتى دفن من يومه بترتبه التي أنشأها بالصحراء خارج القاهرة حسبما تقدم ذكر ذلك كله في ترجمته.

ثم أصبح الملك المؤيد يوم الجمعة صلي الجمعة بجامع الناصري بالقلعة مع الأمراء على العادة وخلع بعد انقضاء الصلاة على الأمير خشقدم الناصري المؤيدي خلعة الأتابكية على العادة.

واستمر السلطان إلى يوم الأحد ثامن عشره أعني جمادى الأولى فأنفق على الأمراء نفقة السلطنة فحمل إلى الأمير الكبير أربعة آلاف دينار تفصيلها: ألف دينار بسبب حملة القبة والطير على رأس السلطان يوم سلطنته والبقية نفقة السلطنة وحمل إلى أمير سلاح جرباش وغيره من أمراء الألوف من أصحاب الوظائف لكل واحد ألفين وخمسمائة دينار وإلى غير أرباب الوظائف من مقدمي الألوف لكل ألفي دينار فقط وحمل لكل أمير من أمراء الطبلخانات خمسمائة دينار ولكل أمير من أمراء العشرات مائتي دينار.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الأولى خلع السلطان على الأتابك خشقدم وعلى قائم رأس نوبة النوب خلع الأنظار المتعلقة بوظائفهما على العادة.

وأنعم السلطان علي الأمير يشبك البجاسي الأشرفي إينال أحد مقدمي الألوف بحلب بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية وهو إقطاع يببرس الذي وقع بين يونس الدوادار وبين جانبك الظريف الخازندار بسببه وأنعم بتقدمة يشبك المذكور التي بحلب على الأمير تمراز الأشرفي الدوادار كان وأنعم بإقطاع تمراز وهو إمرة طبلخاناه بطرابلس على الأمير لاجين الظاهري ويشبك هذا المنعم عليه بالتقدمة كان أصله من مماليك الأمير تنبك البجاسي نائب الشام وملكه بعد موت تنبك الأشرف إينال وهو من جملة الأمراء وأعتقه ورفاه حتى صار دواداره ثم أخذ له من الملك الظاهر جقمق إمرة بصفد فلما تسلطن رفع قدره إلى أن صار من جملة أمراء الألوف بحلب واتفق مجيئه إلى مصر لينظر أستاذه فاتفق في مجيئه ضعف أستاذه ثم موته.

وفيه أيضًا خلع السلطان على جماعة من الأمراء والخاصكية لتوجههم بحمل تقاليد نواب البلاد الشامية: فكان الأمير مغلباي إلابو بكري المؤيدي المعروف بطاز أحد أمراء العشرات ورأس نوبة يتوجه إلى نائب الشام الأمير جانم الأشرفي.

والأمير يببرس الأشرفي الأشقر أحد أمراء العشرات ورأس نوبة يتوجه إلى الأمير حاج إينال الإشبكي نائب حلب.

والسيفي برقوق الناصري الظاهري الساقى يتوجه إلى إياس المحمدي الناصري نائب طرابلس.

والسيفي آقبردي الساقى الأشرفي يتوجه لجانبك التاجي المؤيدي نائب حماة.

وتتم الفقيه إلابو بكري المؤيدي يتوجه لخيربك النوروزي نائب صفد ولبرديك العبد الرحمانى نائب غزة معًا.

وخلع على جماعة آخر من الخاصكية بتوجههم إلى جماعة آخر إلى البلاد الشامية والجميع خاصكية ما عدا مغلباي طاز وبببرس الأشقر.

ثم في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى المذكورة ابتداء السلطان بالنفقة في المماليك السلطانية من غير تسوية فأعلى من أخذ مائة دينار وأدنى من أخذ ثلاثين دينارًا

وأعطى لكل مملوك من الكتابية عشرة دنانير فاستمرت النفقة على المماليك السلطانية في كل يوم سبت وثلاثاء إلى ما يأتي ذكره.

ثم بعد أيام وصل القاهرة كتاب جانبك الأبلق الظاهري من قبرس أنه هو ومن معه من المماليك السلطانية وغيرهم من الفرنج واقعوا أهل شرينة في عاشر شهر ربيع الآخر وحاصروا قلعتها وقتلوا من الفرنج بشرينة ثمانية نفر وأسروا مثلهم.

ثم ذكر أيضًا أنه واقع ثانيًا أهل شرينة وقتل صاحب الشرطة بقلعتها وآخر من عظمائها أرمى نفسه إلى البحر فغرق.

قلت: " مما خطاياهم أغرقوا فأدخلوا نارًا ".

ثم ذكر جانبك أيضًا أنه قبض على خمسة منهم وأن الملكة صاحبة شرينة أخت جاكم صاحب قبرس قد توجهت من شرينة إلى رودس تستنجد بهم.

ثم ذكر أيضًا أنه ظفر بعدة مراكب ممن كان قدم من الفرنج نجدة للملكة المذكورة وأنه أسر منهم خلائق تزيد عدتهم على مائة نفر وأنه أخذ بالحصار عدة أبراج من أبراج قلعة باف بعد أن قاسوا منه شذائد وأنه يستحث السلطان في إرسال عسكر بسرعة قبل مجيء نجدة لهم من الفرنج أهل الماغوصة الجنوبية وإلى أهل شرينة من غير الجنوبية انتهى.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرينه استقر عميرة بن جميل بن يوسف شيخ عربان السخاوة بالغربية بعد موت أبيه.

قلت: والشيء بالشيء يذكر وقد أذكرني ولاية عميرة هذا حال أرياف الديار المصرية الآن فإنه من يوم تسلطن الملك المؤيد أحمد هذا حصل الأمن في جميع الأعمال برًا وبحرًا شرقًا وغربًا من غير أمر يوجب ذلك ووقع رعب السلطان في قلوب المفسدين حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يخرج من داره فكيف يقطع الطريق فانطلقت الألسن بالدعاء للملك المؤيد هذا وتبارك كل أحد بقدمه واستيلائه على الأمر ومالت النفوس إلى محبته ميلًا زائدًا خارجًا عن الحد فإنه أول ما تسلطن قمع ممالك أبيه الأجلاب عن تلك الإفعال التي كانوا يفعلونها أيام أبيه وهددهم بأنواع النكال إن لم يرجعوا فرجع الغالب منهم عن أشياء كثيرة مما تقدم ذكرها وعلم الناس من السلطان ذلك فطمع كل أحد في الأجلاب فانحط قدرهم حتى صار أحدهم لا يستطيع أن يزجر غلامه ولا خدمه فزاد حب الناس للملك المزيد لذلك فكل من أحبه فهو معذور لما قاست الناس منهم أيام أبيه من تلك الإفعال القبيحة.

على أن الملك المؤيد أيضًا كان له في أيام والده مساوئ كثيرة من جهة حماياته البلاد والمراكب بساحل النيل وأشياء أخر غير ذلك فقاست الناس من حماياته أهولًا فلما تسلطن ترك ذلك كله كأنه لم يكن وأقبل على العدل وإرداع المفسدين فبدل في أيامه الجور بالعدل والخوف بالأمن والراحة بعد التعب ولله الحمد.

وفيه عزل السلطان صاحب شمس الدين منصورًا عن الأستادارية وخلع من الغد على مجد الدين أبي الفضل البقري كاملية بمقلب سمور باستقراره في الأستادارية عوضًا عن الشمسي منصور ووعده بأنه يلبس خلعة وظيفة الأستادارية في يوم السبت أول جمادى الآخرة فوق ذلك.

ثم في يوم الخميس سادس جمادى الآخرة خلع السلطان على الصفوي جوهر النوروزي الطواشي الحبشي بإعادته إلى مقدمة المماليك السلطانية بعد موت الطواشي مرجان الحصني الحبشي.

وفي هذه الأيام أشيع بين الناس بركوب المماليك السلطانية على السلطان بعد النفقة ولم يعلم أحد من هو القائم بالفتنة فلم يلتفت السلطان لهذا الكلام.

ثم في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة قرىء تقليد السلطان الملك المؤيد بين يديه بالقصر الأبلق تولى قراءته القاضي محب الدين ابن الشحنة كاتب السر وهو من إنشائه وحضر الخليفة المستنجد القراءة والقضاة الأربعة وغالب أركان الدولة وأمرائها فلما تمت القراءة خلع السلطان على الخليفة فوقاني حرير بوجهين أخضر وأبيض بطرز زركش وقيده فرسًا بسرج ذهب وكنبوش زركش ثم خلع على القضاة كوامل بمقابل سمور وانفض الموكب.

وفي يوم السبت خامس عشر وصل إلى القاهرة قاصد الأمير جانم الأشرفي نائب الشام وعلى يده كتاب مرسله يتضمن أنه حصل له سرور زائد بسلطنة الملك المؤيد وأنه مستمر على طاعته ممثلاً أوامره.

وفيه أيضًا ورد الخبر بأن عرب لبيد العصاة نزلوا البحيرة ونهبوا إلاموال وشنوا الغارات فعين السلطان تجريدة من الأمراء وأمرهم بالتجهيز والسفر إلى البحيرة.

ثم في يوم الأربعاء رابع شهر رجب وصل الأمير تمراز الإينالي الأشرفي الدوادار كان من طرابلس إلى الديار المصرية بغير إذن السلطان ولم يجتز بمدينة قطيا ونزل عند الأتابك خشقدم وأرسل دواداره إلى الملك المؤيد أعلمه بمجيء تمراز المذكور فقامت قيامة السلطان لمجيئه على هذه الصورة وغضب غضبًا شديدًا ورسم بإخراجه من القاهرة لوقته فأخذ تمراز في أسباب الردود والخروج إلي خانقاه سرباقوس فشفعت الأمراء فيه في عصر يومه بالقصر فقبل السلطان شفاعتهم على أنه يقيم بالقاهرة ثلاثة أيام لعمل مصالحه ثم يسافر إلى حيث جاء منه فعاد تمراز من جهة الخانقاه إلى القاهرة.

فترقب كل أحد وقوع فتنة لأن تمراز هذا شر مكائًا ودأبه الفتنة وإثارة الفتن وهو من أوخاش بني آدم.

فأقام تمراز إلى يوم الجمعة سادسه فطلع إلى القلعة وقبل الأرض بين يدي السلطان وأخذ في الاعتذار الزائد لمجيئه بغير إذن فقبل السلطان عذره وخلع عليه كاملية بمقلب سمور وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق ورسم له أن يقيم بالقاهرة ثلاثة أيام من يومه هذا ويسافر فنزل إلى داره والناس على ما هم عليه من أن تمراز هذا لا بد له من إثارة فتنة وتحريك ساكن.

هذا والأمراء تكرر الشفاعة فيه ليقوم بالديار المصرية وخجداشيته الأشرفية في غاية ما يكون من الإجتهد في ذلك والسلطان مصمم على سفره إلى أن سافر حسبما يأتي ذكره.

وفي يوم الجمعة هذا الموافق لثاني عشرين برمودة لبس السلطان القماش الأبيض البعلبكي المعد للبس الصيف كما هي العادة.

وفي يوم الثلاثاء عاشر شهر رجب المذكور خلع السلطان الملك المؤيد على تمرار المذكور خلعة السفر وسافر من يومه إلى دمشق بعد أن أنعم السلطان عليه بخمسمائة دينار وعدة خيول وبغال وتوجه تمرار ولم يتحرك ساكن.

وفي يوم الخميس ثاني عشره استقر القاضي شرف الدين الأنصاري ناظر الجوالي بعد عزل ناصر الدين محمد بن أحمد بن أصيل.

وفيه وصل الأمير مغلبي طاز الأوبكري المؤيدي بعد أن بشر الأمير جانم نائب الشام بسلطنة المؤيد وعاد.

وفيه وصل السيفي شاهين الطواشي الساقى الظاهري المتوجه قبل تاريخه لإحضار تركة زوجة الأمير قاني باي الحمزاوي من دمشق وأحضر شيئًا كثيرًا جدًّا من الجواهر واللاآء وإلاقمشة وغير ذلك حتى إنه أبيع في أيام كثيرة.

ثم في يوم الجمعة العشرين من شهر رجب المذكور نزل السلطان الملك المؤيد أحمد من قلعة الجبل إلى جهة العارض بالقرافة الصغرى خلف القلعة وعاد بسرعة إلى القلعة وهذا أول نزوله من يوم تسلطن.

قلت: وآخر نزوله فإنه لم ينزل بعدها إلا بعد خلعه إلى الإسكندرية.

وفيه أمطرت السماء بردًا كل واحد مقدار بيضة الحمام فأتلقت غالب الزرع وأهلكت كثيرًا من ذوات الجناح وكان معظم هذا المطر بقرى الشرقية من أعمال القاهرة وبعض بلاد من المنوفية والغربية وقليلًا بإقليم البحيرة.

وفي يوم الخميس سادس عشرينه رسم السلطان بنفي سنطباي قرا الظاهري إلى البلاد الشامية وسببه أن سنطباي هذا كان من المنفيين إلى طرابلس في دولة الملك الأشرف إينال فلما سمع بموت الأشرف قدم القاهرة بغير إذن واختفى بها نحو الشهر عند بعض خجداشيته ففطن السلطان به فرسم بنفيه فاجتهدت خجداشيته الظاهرية في إقامته فلم تقبل فيه شفاعاة فخرج من يومه وعظم ذلك على خجداشيته الظاهرية في الباطن.

قلت: ولا بأس بما فعله السلطان في إخراج سنطباي المذكور على هذه الهيئة فإنه أخرج قبله تمرار من الأشرفية ثم أخرج هذا من الظاهرية فكأنه ساوى بين الطائفتين.

هذا والناس في رجيء من كثرة الإشاعة بوقوع فتنة.

ثم في يوم الاثنين سابع شعبان استقر شاد بك الصارمي أحد أمراء الألوف بدمشق أتابكًا بحلب على مال بذله في ذلك نحو العشرة إلاف دينار.

وفيه وصلت رسل السلطان إبراهيم بن قرمان إلى القاهرة بهدية إلى السلطان وقبل هدية مرسلهم ورحب بهم.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شعبان وصل إلى القاهرة الشرفي يحيى ابن الأمير جانم نائب الشام وطلع إلى السلطان من الغد وقبل الأرض نيابة عن أبيه وسأل سلطان في إطلاق الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي أمير سلاح كان والأمير قاني باي الجاركسي الأمير أخور كان من سجن الإسكندرية فلم يقبل السلطان شفاعته وسوف به إلى وقت غير معلوم.

وعلم السلطان أن مجيء ابن جانم هذا ليس هو بصدد الشفاعة فقط وإنما هو لتجسس الأخبار وعمل مصلحة والده مع خداشيته الأشرفية وغيرهم من الظاهرية والمؤيدية.

وكذا كان ولم يظهر الملك المؤيد لأحد وإنما أخذ في حساب جانم نائب الشام في الباطن والتدبير عليه بكل ما تصل القدرة إليه ولم يسعه يوم ذلك إلا أن تجاهل عليهم.

هذا الأمر أحد أسباب حضور جانم إلى الديار المصرية حسيماً يأتي ذكره مفصلاً إن شاء الله تعالى في ترجمة الملك الظاهر خشقدم لأن يحيى ولد جانم لما حضر هذه الأيام إلى الديار المصرية اتفق مع أعيان المماليك الظاهرية بعد أن اصطلحوا مع المماليك الأشرفية على عداوة كانت بينهم قديماً وحديثاً ورضوا الظاهرية بسلطنة جانم عليهم وهم أكره البرية فيه حيث لم يجدوا بداً من ذلك وما ذاك إلا خوفاً من الملك المؤيد هذا فكان أمرهم في هذا كقول القائل: الوافر وما من حبه أحنو عليه ولكن بغض قوم آخرين وسافر الشرفي يحيى من مصر إلى جهة أبيه في يوم الجمعة خامس عشرين شعبان بعد أن خلع عليه السلطان وأنعم عليه بخمسمائة دينار وقد مهد لأبيه الأمور بالديار المصرية مع الظاهرية.

وأما

▲ الأشرفية خداشيته

فهم من باب أولى لا يختلف على جانم منهم اثنان وما كان قصد جانم إلا رضاء الظاهرية وقد رضوا.

وسار يحيى وهو يظن أن أمر أبيه قد تم في سلطنة مصر ولم يفتن إلى تقلبات الدهر.

فلما أن وصل يحيى إلى والده حدثه بما وقع له بمصر مع زيد و عمرو وكان عند جانم رحمه الله تعالى خفة لما كان أوحى إليه الكذابون من أقوال الفقراء ورؤية المنامات وعبارات المنجمين فتحقق المسكين أنه لا بد له من السلطنة ووافق ذلك صغروياً دارها بالخيف إن مزارها قريب دون ذلك أهوال وقوى أمر جيى وخفة جانم اجتماع تمراز الأشرفي الدوادار المقدم ذكره بجانم في دمشق وقد صدق هذا الخبر لما في نفسه من الملك المؤيد هذا ومن أبيه الأشرف إينال لما عزله من الدوادارية الثانية وأخرجه من مصر بطالاً إلى القدس ثم وقع له معه ما حكيناه هذا مع كثرة فتن تمراز وقله عقله وسوء خلقه وشؤم طلعه فوافق تمراز يحيى وتسلفاً معاً على جانم ولا زلاً به حتى وافقهما في الباطن وأخذ في أسباب ذلك فلم يمتض إلا القليل ووقع لجانم ما سنذكره مع عوام دمشق من النهب والفتك به وإخراجه من دمشق على أقبح وجه حسيماً هو مقول في ترجمة الملك الظاهر خشقدم بعد خلع المؤيد.

وأما أمر الملك المؤيد هذا فإنه بعد خروج يحيى بن جانم أخذ يوسع الحيلة والتدبير في أخذ جانم بكل طريق فلم ير أحسن من أن يرسل يكاتب أعيان دمشق بالقبض على جانم المذكور إن أمكن وهذا القول لم أذكره يقيناً ولكن على قول من قال عنه ذلك وليس هو بعيد لأن أهل دمشق وحكامها ما في قدرتهم القيام على نائب الشام إلا بدسيسة من السلطان والله أعلم بحقيقة الأمر.

واستمر الملك المؤيد على ما هو عليه بالديار المصرية وأمره في انحطاط من عدم تدبيره في أواخر أمره وأيضاً من قلة المساعدة بالقول والفعل وإلا فتدبيره هو كان في غاية الحسن في أوائل أمره غير أنه كان لا يعرف مداخلة لإتراك ولا رأى تقلب الدول ولا حوله من رأي لأنه أبعد الناس عنه قاطبة وقرب الأمير بردبك الدوادار الثاني لكونه صهره

زوج أخته مملوك أبيه بل قيل إن تقريبه لبردك أيضًا ما كان على أليته فعلى هذا ضعف الأمر من كل جهة.

ونفرض أن أمر بردك كان على حقيقة فما عساه كان يفعل وهو أيضًا أجنبي عن معرفة ما قلناه فإنه ما ربي إلا عند أستاذه الأشرف إينال وهو أمير فلا يعرف أحوال المملكة إلا بعد سلطنة أستاذه أيام الأمن والسعادة انتهى.

وفي يوم الخميس تاسع شهر رمضان خلع السلطان الملك المؤيد على شرف الدين البقري باستقراره ناظر الإصطبلات السلطانية بعد عزل محمود بن الديري.

وفي يوم الجمعة عاشره أخذ قاع النيل فجاءت القاعدة أعني الماء القديم ستة أذرع ونصفًا.

وفي ليلة الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان المذكور خسف جميع جرم القمر وغاب في الخسف تسعين درجة وصارت النجوم في السماء قليلة تسع وعشرين الشهر ولعل ذلك يكون نادرًا جدًّا فإني لم أر في عمري مثل هذا الخسف.

هذا وأمر الملك المؤيد أخذ في اضطراب من يوم عين تجريدة إلى البحيرة.

ولم تخرج التجريدة وخالفه من كتب إليها من المماليك السلطانية فإنه لما عين التجريدة إلى البحيرة لم يعين من المماليك السلطانية أحدًا من مماليك أبيه الأجلاب فعظم ذلك على من عين من غيرهم وعلى من لم يعين أيضًا لمعرفتهم أنه كلموه في أمر مماليك أبيه واستمالوه لهم فإنه استفتح سلطنته بإبعادهم ومقتهم وإرداعهم فأحبه كل أحد فلما فطنوا الآن بميله إليهم نفرت القلوب منه وخافوا من أفعال الأجلاب القبيحة التي فعلوها في أيام أبيه أن تعود فصممت المماليك المعينة إلى البحيرة في عدم الخروج إلا إن عين معهم جماعة من أجلاب أبيه وساعدهم في ذلك المماليك السلطانية من كل طائفة مخافة من تقرب الأجلاب.

فأساء المؤيد التدبير من أنه لم يبت أمرًا لا بقوة ولا بدين بل سكت وسمع قول من أملاه المفسود من قوله: إذا أرسلت مماليك أبيك من يبقى حولك وإذا أبعدت مماليك والدك فمن تقرب فكأنه مال لهذا القول الواهي واستحسنه وهذا نوع مما كنا فيه أولًا من أنه ما كان عنده من يرشده إلى الطريق.

ثم كلم الملك المؤيد المماليك أيضًا في السفر فاعتلوا بطلب الجمال فأراد تفرقة الجمال فلم يأخذوها.

واستمروا على ذلك وسكنت حركة السفر بسكات السلطان وبذلك فشا انحطاط قدره وتلاشى أمره بعد أن كان له حرمة عظيمة ورعب في القلوب.

فلقد رأيت في تلك الأيام شخصًا من أوباش المماليك الظاهرية يكلم الأمير بردك الدوادار الثاني بكلام لو كلمه لمن يكون فيه شهامة لحمل السلطان على شنقه في الحال وكان ذلك هو الحزم على قول بعض النهاية: " إما إكديش أو نشابة للريش " وتلافي الأمور إما يكون بها أو عليها والحزم إنما هو الشد على من عين وتسفيرهم غضبًا فإن تم ذلك فقد هابه كل أحد وقد قيل: " من هاب خاف " أو اللين والتلطف بمن كتب والاعتذار لهم عن عدم كتابته لمماليك أبيه الأجلاب بقوله: " ما معني أن أكتب هؤلاء معكم إلا أنهم ليسوا بأهل لمرافقتكم فحيثما أحببتمو ذلك فأنا أكتب منهم جماعة " ثم يكتب منهم عدة فإن تم ذلك ومشى فالأمر إليك بعد سفرهم دبر ما شئت وإن لم يتم

فبادر للفعل الأول بكل ما تصر قدرتك إليه واستعمل قول المتنبي في قوله من قصيدته المشهورة: الكامل لا يخذعك من عدوك دمه وارحم شبابك من عدو ترحم لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم فلم يقع منه ذلك ولا ما يشبهه ولا أشار عليه أحد من أصدقائه بشيء يكون فيه مصلحة لثبات ملكه بل سكت كل أحد عنه وصار كالمتفرج إما لبغض فيه أولقلة معرفة بالأمور.

نكبة الملك المؤيد أحمد ابن إينال وخلعه من الملك لما كان آخر يوم الجمعة سابع عشر شهر رمضان من سنة خمس وستين المذكورة رسم السلطان الملك المؤيد أحمد لنقيب الجيش الأمير ناصر الدين محمد بن أبي الفرج أن يدور على الأمراء مقدمي الألوف ويعلمهم أن السلطان رسم بطلوعهم من الغد في يوم السبت إلى الحوش السلطاني من قلعة الجبل بغير قماش الموكب ولم يعلمهم لأي معنى يكون طلوعهم واجتماعهم في هذا اليوم بالقلعة وهو غير العادة فدار دوا دار نقيب الجيش على الأمراء وأعلمهم بما رسم به السلطان من طلوعهم إلى القلعة.

وأخذ الأمراء من هذا الأمر أمر مريح وخلا كل واحد بمن يثق به وعرفه الخبر وهو لا يشك أن السلطان يريد القبض عليه من الغد.

وماجت الناس وكثر الكلام بسبب ذلك وركبت الأعيان بعضها على بعض.

وأما الأمراء فكل منهم تحقق أنه مقبوض عليه من الغد ووجد لذلك من كان عنده كمين من الملك المؤيد أو يريد إثارة فتنة فرصة وحرص بعضهم بعضًا إلى أن ثارت المماليك الظاهرية في تلك الليلة وداروا على رفقتهم وإخوانهم وعلى من له غرض في القيام على الملك المؤيد وداموا على ذلك ليلتهم كلها.

فلما كان صبح نهار السبت تفرقوا على أكابر الدولة والأمراء في بيت الأتابك خشقدم لعمل المصلحة فداروا على الأمراء وأمسكوا منهم جماعة كبيرة وأحضرهم إلى بيت الأتابك خشقدم على كره من خشقدم وسارت فرقة في باكر النهار إلى بيت الأمير بردبك الأشرفي الدوادار الثاني الملاصق لمدرسة السلطان حسن وأحضره إلى بيت الأمير الكبير خشقدم بعد أن أخرجوا به.

هذا وقد اجتمعت طوائف المماليك مثل الناصرية فرج والمؤيدية شيخ والأشرفية برسباي والظاهرية جقمق والسيفية والجمع في بيت الأمير الكبير ولم يطلع إلى القلعة في هذا اليوم أحد من الأمراء والأعيان إلا جماعة يسيرة جدًا.

فلما تكامل جمعهم في بيت الأمير الكبير وأكثر الطوائف يوم ذاك الأشرفية والظاهرية وكبير الأشرفية الأمير قرقماس أمير مجلس ولا كلام له بل الكلام لجانبك القجماسي الأشرفي المشد ولجانبك من أمير الخازندار والظاهرية كبيرهم جانبك نائب جدة أحد مقدمي الألوف وقد صارت خجداشيته يوم ذاك في طوع يده وتحت أوامره لحسن سياسته وجودة تدبيره فانضمت كلمة الظاهرية به حتى صارت كلمة واحدة وهم حس وهو المعنى وهذا بخلاف الأشرفية فإنهم وإن كانوا هم أيضًا متفقين فالاختلاف بين أكابره موجود بالنسبة إلى هؤلاء وعدم اكتراثهم بهذا الأمر المهم ولتطلعهم على مجيء خجداشهم الأمير جانم نائب الشام ولو أن أمر المؤيد طرقهم على بغتة ما طأوعوا على الركوب في مثل هذا اليوم قبل مجيء خجداشهم فأخذ الأمير جانبك نائب جدة المذكور في تأليف الأشرفية على الظاهرية بحسن تدبير حتى تم له ذلك وصاروا على كلمة واحدة.

ثم شرعوا في الكلام بحضرة الأمراء في الاجتماع بسببه فتكلم بعض من حضر من الأمراء بأن قال: " أيش المقصود بهذا الجمع " أو معنى هذا الكلام فأجاب الجميع بلسان واحد: " نريد خلع الملك المؤيد أحمد من السلطنة وسلطنة غيره ."

وكان الباعث لهذه الفتنة ما قدمناه وأيضًا الظاهرية فإن الملك المؤيد لما تسلطن لم يحرك ساكنًا ولم يتغير أحد مما كان عليه فشق ذلك على الظاهرية وقال كل منهم في نفسه: كأن الملك الأشرف إينال ما مات فإن الغالب منهم كان أخذ ما بيده من الإقطاعات وحبس ونفي في أول سلطنة الأشرف إينال كما هي عادة أوائل الدول وبقي منهم جماعة كثيرة بلا رزق ولا إمرة ولم يجدوا عندهم قوة ليخلعوا الملك المؤيد هذا ويسلطنوا غيره وحدهم فكلّموا الأشرفية في هذا المعنى غير مرة وترفقوا لهم فلم يقبلوا منهم ذلك لنفرة كانت بين الطائفتين قديمًا وحديثًا وأيضًا فلسان حال الأشرفية يقول عندما سألوهم الظاهرية: نحن الآن في كفاية من الأرزاق والوظائف فعلام نحرك ساكنًا ونخاطر بأنفسنا فغجزوا فيهم الظاهرية وقد ثقل عليهم الملك المؤيد وكثر خوفهم منه فإنه أول ما تسلطن أبرق وأرعد فانخزى كل أحد وحسبوا أن في السويداء رجالاً ولهذا قلت فيما تقدم: لو فعل ما فعل لمشى له ذلك لمعرفتي بحال القوم وشجاعتهم.

وكان دخول المؤيد السلطنة بحرمة وافرة لأن سنه كان نحو الثلاثين سنة يوم تسلطن وكان ولي الأتابكية في أيام أبيه وأخذ وأعطى وسافر أمير حاج المحمل وحج قبل ذلك أيضًا وسافر البلاد ومارس الأمور في حياة والده.

وهذا كله بخلاف من تقدمه من سلاطين أولاد الملوك فإن الغالب منهم حدث السن يريد له من يديره فإنه ما يعرف ما يراد منه فيصير في حكم غيره من الأمراء فتتعلق الآمال بذلك الأمير وتتردد الناس إليه إلى أن يدبر في سلطنة نفسه بخلاف المؤيد هذا فإنه ولي السلطنة وهو يقول في نفسه إنه يدبر مع مملكة مصر ممالك العجم زيادة على تدبير مصر.

قلت: وكان كما زعم فإنه تقدم أنه كان عارقًا عاقلًا مباشرًا حسن التدبير عظيم التنفيذ شهيمًا وكان هو المتصرف في الأمور أيام أبيه في غالب الولايات والعزل وأمور المملكة فلما تسلطن ظن كل أحد أن لا سبيل في دخول المكيدة على مثل هذا لمعرفة الناس بحذقه وفطنته.

وكان مع هذه الأوصاف مليح الشكل وعنده تودة في كلامه وعقل وسكوت خارج عن الحد يؤديه ذلك إلى التكبر وهذا كان أعظم الأسباب لنفور خواطر الناس عنه فإنه كان في أيام سلطنته لا يتكلم مع أحد حتى ولا أكابر الأمراء إلا نادرًا ولأمر من الأمور الضروريات وفعل ذلك مع الكبير والصغير وما كفى هذا حتى صار يبلغ الأمراء أنه في خلوته يسامر الأطراف الأوباش الذين يستحى من تسميتهم فعظم ذلك على الناس فلو كان علم الكلام مع الناس قاطبة لهان على من صعب سكاته عليه من كون الرفيع يكون مبعدًا والوضيع مقربًا فهذا أمر عظيم لا تحمله النفوس إلا غصبا فلما وقع ذلك وجد من عنده عقد فرصة وأشاع عنه هذا المعنى وأمثاله وبشع في العبارة وشنع وقال هذا وغيره: إنه لا يلتفت إلى الممالك ويزدريهم وهو مستعز بممالك أبيه الأجلاب وأصهاره وحواشيه وخجداشية أبيه وبالمال الذي خلفه أبوه ومنهم من قال أيضًا: إنما هو مستعز بحسن تدبيره فإنه قد عبا لكل سؤال جوابًا ولكل حرب ضربًا.

وكان مع هذا قد قمع مباشري الدولة وأبادهم وضيّق عليهم ودقق في حسابهم كما هو في الخاطر وزيادة فما أحسن هذا لو كان دام واستمر!! فنفرت قلوب المباشرين أيضًا منه وحق لهم ذلك واستمرت هذه الحرمة من يوم تسلطن إلى مجيء يحيى بن جانم نائب الشام إلى القاهرة ثم إلى أن عين التجريدة إلى البحيرة فأخذ أمره في إدار لعدم

مثارته على سير طريقه الأول من سلطنته فلو جسر لكسر لكنه هاب فخاب ولكل أجل كتاب ولنعد إلى ذكر ما كنا بصدده: فلما تكامل الجمع في بيت الأمير الكبير خشقدم الناصري المؤيدي ومتكلم الأشرفية جانبك المشد وجانبك الظريف الخازندار ومن معهم من خجداشيتهم الأعيان ومتكلم الظاهرية الأمير جانبك نائب جدة أحد مقدمي الألوف وأعيان خجداشيتته مثل: الأمير أربك من ططخ الظاهري والأمير بردبك البجمقدار ثاني رأس نوبة جدة وقد وافقه الأشرفية وهم يظنون أن الجمع ما هو إلا لسلطنة الأمير جانم الشام لأنهم كانوا اتفقوا على ذلك حسبما تقدم ذكره وهو أن الظاهرية كانوا إذا شرعوا في الكلام مع الأشرفية في معنى الركوب يقولون: " بشرط أن لا يكون السلطان منا ولا منكم " وإنما يكون من غير الطائفتين فيقع بذلك الخلف بينهم ويتفرقون بغير طائل إلى أن استرابت الظاهرية من الملك المؤيد أحمد هذا وعظم تخوفهم منه فوافقوه على سلطنة جانم لما جاء ولده يحيى كما تقدم ذكره.

ثم وقع هذا الأمر بغتة وعلم جانبك نائب جدة أن الأمر خرج عن جانم لغيابه ولا بد من سلطنة غيره لأن الأمير ما فيه مهلة فلم يبد للأشرفية شيئاً من ذلك وأخذ فيما هو بصدده إلى أن يتم الأمر لغير جانم ثم يفعل له ما بدا له وكذا وقع حسبما يأتي ذكره في مجيء جانم وفي سلطنة الملك الظاهر خشقدم.

هذا وقد جلس جميع الأمراء بمقعد الأمير الكبير خشقدم.

فعندما تكامل جلوسهم قام الأمير جانبك نائب جدة إلى مكان بالبيت المذكور ومعه الأمير جانبك الأشرفي المشد والأمير جانبك الأشرفي الظريف الخازندار والأمير أربك من ططخ الظاهري والأمير بردبك البجمقدار الظاهري وجماعة آخر من أعيان الطائفتين وتكلموا فيمن يولونه السلطنة وعرض جانبك نائب جدة في سلطنة الأتابك خشقدم لا في سلطنة جانم نائب الشام غير أنه لا يسعه الآن إظهار ما ضميره خوفاً من نفرة الأشرفية وقال لهم ما معناه: " نحن قد كتبنا للأمير جانم بالحضور وبايعناه بالسلطنة وأنتم تعلمون ذلك عن يقين وقد دهمنا هذا الأمر على حين غفلة فما تكون الحيلة في ذلك ولا بد من قتال الملك المؤيد في يومنا والسلطان ما يقاتل إلا بسلطان مثله ومتى تهاونا في ذلك ذهب أرواحنا ".

فعلم كل أحد ممن حضر أن كلام جانبك نائب جدة صواب وطاوعه كل من حضر على مقالته هذه فلما وقع ذلك أجمع رأي الجميع على سلطنة أحد من أعيان الأمراء.

ثم تكلموا فيمن يكون هذا السلطان فدار الكلام بينهم في هذا المعنى إلى أن قال بعضهم: " سلطنوا الأمير جرباش المحمدي الناصري أمير سلاح " فلم تحسن هذه المقالة ببال الأمير جانبك ولم يقدر على منعه تصريحاً وقال: " جرباش أهل لذلك بلا مدافعة غير أنه متى تسلطن لا يمكنكم صرفه من السلطنة بغيره يعني بالأمير جانم تلويحاً لأنه رجل عظيم ومن الجنس وصهر خجداشنا بردبك البجمقدار وصهر خجداشكم خير بك البهلوان الأشرفي وغيره وقد قارب مجيء الأمير جانم من الشام والأمر إليكم ما شئتم افعلوا ".

فكان هذا كله إبعاداً لجرباش المذكور وأخذاً بخواطر الأشرفية فمال كل أحد إلى كلامه ثم قال جانبك: " الرأي عندي سلطنة الأمير الكبير خشقدم المؤيدي فإنه من غير الجنس يعني كونه رومي الجنس وأيضاً إنه رجل غريب ليس له شوكة ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب ".

فأعجب الجميع هذا الكلام وهم لا يعلمون مقصوده ولا غرضه فإن جل قصد جانبك كان سلطنة خشقدم فإنه مؤيدي وخجداشيتته جماعة يسيرة وأيضاً يستريح من جانم نائب الشام وتحكم أعدائه الأشرفية فيه وفي خجداشيتته الظاهرية ويعلم أيضاً أنه متى تم

سلطنة الأتابك خشقدم وأقام أيامًا عسر خلعه وبعثت السلطنة عن جانم وغيره فدير هذه المكيدة على الأشرفية فمشت عليهم أولًا إلى أن ملكوا القلعة وخلع الملك المؤيد بسرعة فتنهوا لها.

وكانت الأشرفية لما سمعوا كلام جانبك وقالوا: " نعم نرضى بالأمير الكبير " كان في ظنهم أن قتالهم يطول مع الملك المؤيد أيامًا كثيرة كما وقع في نوبة المنصور عثمان وبأتيهم جانم وهم في أشد القتال فلا يعدلون عنه لخشقدم فيتم لهم ما قصدوه فاتفقت كل طائفة مع الأخرى في الظاهر وباطن كل طائفة لواحد فساعد الدهر الظاهرية وانهمز الملك المؤيد في يوم واحد حسبما ذكره الآن.

فلما وقع هذا الكلام جاءت الطائفتان الأشرفية والظاهرية إلى الأمراء وهم جلوس بمقعد الأمير الكبير خشقدم والجميع جلوس بين يدي خشقدم فافتتح الأمير جانبك نائب جده الكلام وقال: " نحن يعني الظاهرية والأشرفية نريد رجلاً نسلطنه يكون لا يميز طائفة على أخرى بل تكون جميع الطوائف عنده سواء في الأخذ والعطاء والولاية والعزل وأن يطلق الأمراء المحبوسين من سائر الطوائف ويرسم في سلطنته بمجيء المنفيين من البلاد الشامية وغيرها إلى البلاد المصرية ويطلق الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي والملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق من برجي الإسكندرية ويسكننا الإسكندرية في أي دار شاءا ويأذن لهما في الركوب إلى الجامع وغيره بئثر الإسكندرية من غير تحفظ بهما " .

وكان كلام الأمير جانبك لجميع الأمراء لم يخص أحدًا منهم بكلام دون غيره فبادر الأتابك خشقدم بالكلام وقال: " نعم " ثم التفت جانبك إلى الجميع وقال: " فمن يكون السلطان على هذا الحكم " فبدأ سنقر قرق شبق الأشرفي الزردكاش وقال ما معناه: " ما نرضى إلا بالأمير جانم نائب الشام أنتم كتبتم له بالحضور وأذعنتم بسلطنته فكيف تسلطنوا غيره فنهزه الأمير خيربك من جديد الأشرفي لنفس كان بينهما قديمًا وقال: " لست بأهل الكلام في مثل هذا المجلس " .

فعند ذلك قال الأمير قائم التاجر المؤيدي أحد مقدمي الألوفا ما معناه: " يا جماعة إن كنتم كاتبتم الأمير جانم نائب الشام فلا تسلطنوا غيره إلى أن يحضر وسلطنوه فإنه لا يسعكم من الله أن تسلطنوا غيره الآن ثم تخلعوه عند حضور جانم فهذا شيء لا يكون " فلم يسمعوا كلامه وسمع في الغوغاء قول قائل لا يعرف: " سلطنوا الأمير جرباش! " .

فامتنع جرباش من ذلك وقال ما معناه: " إن هذا شيء راجع إلى الأمير الكبير " وقبل الأرض من وقته.

فقام الأمير جانبك الأشرفي الظريف الخازندار وبادر بأن قال: " السلطان الأمير الكبير " وقبل الأرض.

ثم فعل ذلك جميع من حضر من الأمراء ونودي بالحال بسلطنته بشوارع القاهرة ثم شرعوا بعد ذلك في قتال الملك المؤيد أحمد هذا.

كل ذلك والملك المؤيد في القلعة في أناس قليلة من مماليكه ومماليك أبيه الأجلاب ولم يكن عنده من الأمراء أحد غير مملوك والده قراجا الطويل الأعرج أحد أمراء العشرات وهو كلا شيء والأمير آخور الكبير برسباي البجاسي وليته لا كان عنده خيربك القصري نائب قلعة الجبل وكان أضر عليه من كل أحد حسبما يأتي ذكر فعله.

كل ذلك والملك المؤيد لا يعلم حقيقة ما العزم فيه غير أنه يعلم باجتماع المماليك والأمرء في بيت الأمير الكبير خشقدم وأنهم في أمر مريح غير أنه لا يعرف نص ما هم فيه.

وصار الملك المؤيد يسأل عن أحوالهم وينتظر مجيء أحد من مماليك أبيه إليه فلم يطلع إليه أحد منهم بل العجب أن غالبهم كان مع القوم عند الأمير الكبير مساعدة علي ابن أستاذهم وليتهم كانوا من المقبولين وإنما كانوا من المذبذبين لا غير.

على أن الملك الظاهر خشقدم لما تسلطن أبادهم وشوش عليهم بالمسك وإخراج أرزاقهم أكثر مما عمله مع الذين كانوا عند المؤيد فلا شلت يده.

وبقي الملك المؤيد كلما فحص عن أمر الفتنة لا يأتيه أحد بخبر شاف بل صارت الأخبار عنده مضطربة وأراؤه مفلوكة وهو في عدم حركة ويظهر عدم الاكتراث بأمر هذا الجمع إلى أن تزايد الأمر وخرج عن الحد وصار اللعب جدًا فعند ذلك تاهب من كان عنده من المماليك وقام الملك المؤيد من قاعة الدهيشة ومضى إلى القصر السلطاني المطل على الرميطة ثم نزل بمن معه إلى باب السلسلة وقبل أن يصل إلى الإسطبل جاءه الخبر بأن القوم أخذوا باب السلسلة وملكوا الإسطبل السلطاني وأخذوا الأمير برسباي البجاسي الأمير آخور الكبير أسيرًا إلى الأمير الكبير خشقدم وكان أخذ باب السلسلة مكيدة من برسباي المذكور.

فلما سمعت الأجلاب أخذ باب السلسلة نزل طائفة منهم وصدموها من بها من عساكر الأتابك خشقدم صدمة هزموهم فيها واستولوا على باب السلسلة ثانيًا وهو بلا أمير آخور.

وجلس السلطان الملك المؤيد بمقعد الإسطبل المطل على الرميطة وكان عدم نزول المؤيد إلى الإسطبل بسرعة له أسباب منها: أنه كان مطمئن الخاطر على باب السلسلة لكون الأمير آخور برسباي ليس هو من غرض أحد من الطائفتين وأيضًا كونه صهره زوج بنت أخته من الأمير بردبك الدوادر الثاني وقد صار بردبك من الممسوكين عند الأتابك خشقدم وأيضًا أن والده إينال هو الذي رقاها وخوله في النعم فلم يلتفت برسباي لشيء من ذلك وأنشد قول من قال: الوافر لعمرك و الأمور لها دواع لقد أبعدت يا عتب الفرارا ومنها: أنه صار ينتظر من يأتيه من أصحابه وحواشيه وخجداشية أبيه و مماليكه فلم ياتيه أحد منهم.

فلما ينس منهم قام من الدهيشة بعد أن جاءه الخبر بأخذ باب السلسلة واسترجاعها بيد مماليك أبيه الأجلاب.

ولما جلس بالمقعد و رأى القوم قد تكاثف جمعهم وكثر عددهم وهو فيما هو فيه من قلة العساكر و المقاتلة لم يكثر بذلك وأخذ في الدفع عن نفسه بمن عنده.

غير أن الكثرة غلبت الشجاعة وما ثم شجاعة ولا دربة بمقاومة الحروب وصار كذلك خذلًا من الله تعالى: فإنه لم يطلع إليه في هذا اليوم واحد من مماليك أبيه القديمة ولا خجداشيته وما كان عنده من الأمرء غير قراجا المقدم ذكره ومن أعيان الخاصكية فارس البكتمري أحد الدوادارية الأجناد ومقبل دواداره قديمًا قبل سلطنته وهؤلاء الثلاثة كلا شيء ولولا ذكر أسماء من كان عنده علم خبر ما ذكرت مثل هؤلاء الأصغر.

وكان عنده مع هؤلاء أجلاب أبيه الذين بالأطباق وهم عدة كبيرة نحو الألف أو دونها بيسير أو أكثر منها بقليل وهم الذين اشتراهم والده الأشرف بعد سلطنته من التجار وأما الذين اشتراهم من تركة الظاهر جقمق و من مماليك ولده الملك المنصور عثمان وعدتهم تزيد

على المائتين وهم أعيان ممالك الأشراف إينال وأصحاب الوظائف والإقطاعات فقد استمالهم الأمير جانبك نائب جدة قبل ذلك وقال لهم: " أنتم ظاهرة وشراء الأشراف لكم غير صحيح " فمالوا إلى كلامه وإحسانه وعطاياه الخارجة عن الحد في الكرم وصاروا من حزب الظاهرية.

و ركبت الجميع معه في هذا اليوم وقاتلوا ابن أستاذهم أشد قتال وصاروا هم يوم ذلك أعيان العسكر بالشبيبة والإمكان والكثرة هذا مع من كان الأتابك خشقدم من الناصرية والمؤيدية والظاهرية والسيفية.

فلما رأى الملك المؤيد كثرة هذه العساكر وميل ممالك والده معهم تعجب غاية العجب وعلم أن ذلك أمر رباني ليس فيه حيلة وما هو إلا بذن سلف دعوة مظلوم غفلوا عنها لم يغفل الله عنها أو للمجازاة لأن الجزاء من جنس العمل وقد ركب أبوه الملك الأشراف إينال على الملك المنصور عثمان بعا أن تخول في نعم الظاهر جقمق فإنه هو الذي رقاها وولاه الأتابكية فغدر به وخلعه من الملك وتسلمن مكانه وحبسه إلى أن مات.

وأغرب من هذا كله أن الملك المؤيد هذا كان له أيام والده جماعة كبيرة من أعيان الظاهرية والأشرفية والسيفية يصحبونه ويمشون في خدمته ويتوجهون معه في الرمايات والأسفار وإحسانه متصل إليهم من الأنعام والمساعدة في الأرزاق والوظائف فلم يطلع إليه واحد منهم وأيضًا فاؤوا الجميع للأتابك خشقدم ومن معه قبل أن يستفحل أمر خشقدم ويضعف أمر المؤيد فما ذاك إلا عدم موافاة لا غير.

وأعجب من هذا أن أصحاب المؤيد وممالك أبيه الذين تقدم ذكرهم ممن انضاف مع الأتابك خشقدم كانوا يوم الواقعة من الممقوتين لا من المتاهلين وذل الإبعاد لائح عليهم وكان يمكنهم تلافي الأمر والطلوع إلى الملك المؤيد ومساعدته فلم يقع ذلك فهذا هو السبب لقولي: إن هذا كله مجازاة لفعل والده السابق وقد ورد في الإسرائيليات: " يقول الرب: يا داود أنا الرب الودود أعامل الأبناء بما فعل الجدود ".

ثم التحم القتال بين الطائفتين مناوشة لا مصاففة غير أن كلا من الطائفتين مصر على قتال الطائفة الأخرى والملك المؤيد في قلة عظيمة من المقاتلة ممن يعرف مواقع الحرب وليس معه إلا أجلاب وهذا شيء لم يقع لأحد غيره من السلاطين أولاد السلاطين فإن الناس لم تنزل أغراضًا ووقع ذلك للعزیز مع الملك الظاهر جقمق فكان عند العزيز جماعة كثيرة من الأمراء والأعيان لا تدخل تحت حصر وكذلك للمنصور عثمان مع الملك الأشراف إينال وكان عنده خلائق من أعيان الأمراء مثل الأمير تنم المؤيدي أمير سلاح ومثل الأمير قاني باي الجاركسي الأمير أخور الكبير وغيرهما من أعيان أمراء أبيه ولا زالت الدنيا بالعرض فقوم مع هذا وقوم مع هذا.

غير أن الملك المؤيد هذا لم يكن عنده أحد البتة فانقلب الموضوع في شأنه فإنه كان يمكن الذي وقع له يكون للعزیز والمنصور فإنهما كانا حديثي سن والذي وقع لهما أعني العزيز والمنصور كان يكون للمؤيد لأنه كبير سن وصاحب عقل وتديبر فسبحان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

قلت: ولهذا لم تطل وقعة المؤيد هذا فإنه علم بذلك زوال ملكه وتركه برسايي الجاسي الأمير أخور وخيربك القصري نائب قلعة الجبل ونزلا إلى الأتابك خشقدم فإن العادة في الحروب إذا كان كل من الطائفتين يقابل الأخرى في القوة والكثرة يقع القتال بين الطائفتين وكل من الطائفتين يترجى النصر إلى أن يؤول النصر لإحدى الطائفتين وتذهب الأخرى إلا هذه الوقعة لم يكن عند المؤيد إلا من ذكرناه.

وأما عساكر الأتابك خشقدم فانتشرت على مفارق الطرق فوقف الأمير جانبك الظاهري نائب جدة بجماعة كثيرة من خجداشيته ومماليكه برأس سويقة منعم وتلقى قتال الملك المؤيد بنفسه وبحواشيه المذكورين وعظم أمر الأمير الكبير خشقدم به حتى تجاوز الحد واجتهد جانبك المذكور في حرب المؤيد حتى أباده.

وكان الملك المؤيد أولاً يقرب جانبك هذا في ابتداء سلطنته تقريبًا هيئًا مع عدم التفات إليه ولا إلى غيره لأنه كان يقول في نفسه: إن ابتداءه كانتهاء أبيه في العظمة ولما تسلطن أخذ في الأمر والنهي أولاً بغير حساب عواقب استعزازًا بكثرة ماله وبحواشيه ومماليك أبيه فسار في الناس بعدم استمالة خواطرهم وسار على ذلك مدة أيام وجعل جانبك هذا في أسوة من سلك معهم هذه الفعلة فاستشارني جانبك في أن يداخله لعله يرفع عليه أمره فإنه ما كان حمولاً للذل وإنما كان طبعه أن يبذل المال الجزيل في القدر اليسير في قيام الحرمة فأشرت عليه بالمداخلة فداخله.

وكنت أنا قبل ذلك داخلته أيامًا فإذا به جامد نفور بعيد الاستمالة إلا لمن ألفه وحدثه بما رأيته منه قبل أن أشير عليه بصحبته فقال ما معناه: إني أنا أخذ الشيء بعزة وتمهل وهو يدور مع الدهر كيفما دار.

ثم اجتمع بي بعد مدة أيام في يوم الجمعة بعد أن صلى معه الجمعة وقلع ما عليه من قماش الموكب ودخل إليه في الخلوة بقاعة الدهيشة ثم خرج من عنده وهو غير منشرح الصدر وقال لي: " القول ما قلته ".

ثم شرعنا فيما نحن في ذكره مجلسًا طويلًا وقمنا على غير رضاء من الملك المؤيد.

ووقع في أثناء ذلك ما ذكرناه من أمر الوقعة والفتنة ووقوف جانبك ومن معه برأس سويقة منعم هذا مع ما كان بلغ المؤيد في هذا اليوم وفي أمسه أن القائم بهذا الأمر كله جانبك نائب جدة وأنه هو أكبر الأسباب في زوال ملكه وفي اجتماع الناس على الأتابك خشقدم.

ثم رأى في هذا اليوم بعينه من قصر القلعة ووقوف جانبك على تلك الهيئة فعلم أن كل ما قيل عنه في أمسه ويومه صحيح فأخذ عند ذلك يعتذر وكتب كتابًا للأمير جانبك بخطه يعده فيه بأمور منها: أنه يجعله إن دخل في طاعته أتابك العساكر بالديار المصرية وأنه لا يخرج عن أوامره وأنه يكون هو صاحب عقده وحله ويترقق له وبسط الكلام في معنى ما ذكرناه أسطرًا كثيرة وهو يكرر السؤال فيه ويحلف له فيما وعده به ورأيت أنا الكتاب بعيني وفيه لحن كثير كأنه كان ما مارس العربية ولا له إمام بالمكاتبات على أنه كان حاذقًا فطنًا غير أن الفضيلة نوع آخر كما كانت رتبة المقام الناصري محمد ابن الملك الظاهر جقمق رحمهما الله تعالى فلم يرث جانبك لما تضمن هذا الكتاب ودام على ما هو عليه ونهر قاصده الحامل لهذا الكتاب وقال له: " إن عدت إلي مرة أخرى أرسلتك إلى الأمير الكبير ".

واستمر على ما هو عليه من الاجتهاد في القتال وصار أمر الملك المؤيد في إداره وعساكر الأتابك خشقدم في نمو وزيادة.

هذا والمناوشة بالقتال مستمرة بين الطائفتين وقد أفطر في هذا اليوم خلائق من شدة الحر وتعاطي القتال من الطائفتين وجرح جماعة كثيرة من الفريقين فلم ينقض النهار حتى آل أمر الملك إلى زوال وهو مع ذلك ينتظر من يجيء إليه لمساعدته وهو بين عسى ولعل وكاتب جماعة من أصحابه ممن كان عند الأتابك خشقدم فلم يلتفت إليه أحد لتحقق الناس زوال ملكه.

وبينما الناس في ذلك و إذا بخيربك القصري نائب قلعة الجبل ترك باب المدرج ونزل إلى الأمير الكبير خشقدم وصار من حزبه فعلم كل أحد أنه قد ذهب أمر الملك المؤيد ولو كان فيه بقية ما نزل نائب القلعة منها وانضاف إلى جهة الأمير الكبير.

وبقي باب القلعة بغير ضابط فأرسل الملك المؤيد في الحال بعض أصحابه وجلس مكان خيربك هذا فلم يشكر أحد خيربك المذكور على فعلته هذه.

كل ذلك وأمر المؤيد في انحطاط فاحش وصارت العامة تسمعه المكروه من تحت القلعة لا سيما لما دخل الليل فإنه بات بالقصر في قلة من الناس إلى الغاية لأن غالب من كان عنده تركه ونزل إلى تحت وكانوا في الأصل جمعًا يسيرًا وبات من هو أسفل وقد استفحل أمرهم وتأهبوا للقتال في غد وهمتهم قد عظمت من كثرة عددهم وتكاثف عساكرهم من كل طائفة حتى من ليس له غرض عند أحد بعينه جاء إلى الأمير الكبير مخافة على رزقه ونفسه لما علم من قوة شوكة الأمير الكبير وما يؤول أمره إليه.

هذا مع حضور الخليفة والقضاة الأربعة عند الأمير الكبير وجميع عيان الدولة من المباشرين وأرباب الوظائف وغيرهم والملك المؤيد في أناس قليلة جدًا.

ومضت ليلة الأحد المذكور والملك المؤيد في أقبح حال.

هذا وقد علم ترجي من كان عنده بالقلعة من نصرته وتقاعد غالب من كان عنده عن القتال وهم الأجلاب من مماليك أبيه لا غير.

فلما أصبح نهار الأحد تاسع عشر شهر رمضان من سنة خمس وستين وثمانمائة ظهر ذلك عليهم وبردت همتهم وركضت ريح عزائمهم وأخذ كل احد من أصحابه في مصلحة نفسه إما بالإذعان للأمير الكبير خشقدم أو بالتجهز للهرب والاختفاء.

وظهر ذلك للملك المؤيد عيانًا فأراد أن يسلم نفسه ثم أمسك عن ذلك من وقته.

كل ذلك وأصحاب الأمير الكبير لا يعلمون بذلك فقد أصبحوا في أفحل أمر وأقوى شوكة وأكثر عدد وقد تهيؤوا في هذا اليوم للقتال ومحاصرة قلعة الجبل زيادة على ما كانوا عليه في أمسه وفي نفوسهم أن أمر القتال يطول بينهم أيامًا.

وبينا هم في ذلك ورد عليهم خبر الملك المؤيد مفصلاً وحكي لهم انحلال برمه وانفلاك أمره وما هو فيه من أنه أراد غير مرة تسليم نفسه وزاد الحاكي وأمعن لغرض ما فقوى بذلك قلوب من هو أسفل وتشجع كل جبان فطلب المبارزة كل مول وتقدم كل من كان خاف هذا من هؤلاء فكيف أنت بالشجاع المقدام!.

فعند ذلك اجتمعوا على القتال وزحفوا على القلعة بقلب رجل واحد فقاتلهم عساكر الملك المؤيد قتالاً ليس بذاك ساعة هينة.

فلما رأى الملك المؤيد أن ذلك لا يفيد إلا شدة وقسوة أمر عساكره ومقاتلته بالكف عن القتال وقام من وقته وطلع القلعة بخواصه وأمر أصحابه بالانصراف إلى حيث شاؤوا.

ثم دخل هو إلى والدته خوند زينب بنت البدري حسن بن خاص بك وترك باب السلسلة لمن يأخذه بالتسليم وتمزقت عساكره في الحال كأنها لم تكن وزال ملكه في أقل ما يكون فسبحان من لا يزول ملكه وبقاؤه الدائم الأبدي.

فلما بلغ الأمير الكبير خشقدم الخبر قام من وقته بمن معه من أصحابه وعساكره وطلع إلى باب السلسلة واستولى على الإسطبل السلطاني وملك قلعة الجبل أيضًا في الحال من غير مقاتل ولا مدافع وأمر الأمير الكبير في الحال بقلع السلاح وآلة الحرب وسكن الأمر وخمدت الفتنة كأنها لم تكن.

ثم أرسل الأتابك خشقدم في الحال جماعة من أصحابه قبضوا على الملك المؤيد أحمد هذا من الدور السلطانية فأمسك من غير ممانعة وسلم نفسه وأخرج من الدور إلى البحرة من الحوش السلطاني وحبس هناك بعد أن قُتد واحتفظ به.

وأمسك أخوه محمد أيضًا وحبس معه بالبحرة فخرجت والدتهما خوند زينب المقدم ذكرها معهما وأقامت عندهما بالبحرة المذكورة وقد علمت وعلم كل أحد أيضًا بأن الذي وقع لهم من زوال ملكهم في أسرع وقت إنما هو بدعوة مظلوم غفلوا عنها لم يغفل الله عنها ولله در القائل: الوافر أرى الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار توبخي وفتكي قلت: " على قدر الصعود يكون الهبوط وكما تدين تدان وما ربك بظلام للعبيد والجزاء من جنس العمل "

وكان لسان حال إسكندرية قبل ذلك يقول: " كل ثان لا بد له من ثالث " .

فالأول ممن كان فيها من السلاطين أولاد الملوك: الملك العزيز ابن الملك الأشرف برسباي وقد خلعه الملك الظاهر جقمق وتسلطن مكانه ثم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق خلعه الملك الأشرف إينال وتسلطن عوضه وهو الثاني فاحتاجت الإسكندرية إلى ثالث ليجازي كل على فعله فكان المؤيد هذا خلعه الملك الظاهر خشقدم وتسلطن مكانه واستولى على جميع حواصل الملك المؤيد وذخائره فلم يجدوا فيها ما كان في ظنهم فطلبوا منه المال فذكر أنه أصرف جميع ما كان في خزانة والده في نفقة المماليك السلطانية لما تسلطن ولم يبق في الخزانة إلا دون المائة ألف دينار.

ثم تتبعوا حواصله وحواشيه بعد ذلك فأخذوا منهم زيادة على مائة ألف دينار وبعض متاع وصيني وقماش.

واستمر

▲ الملك المؤيد

محتفظًا به بالبحرة إلى ما سنذكره.

وكانت مدة تحكمه من يوم تسلطن إلى يوم خلع من السلطنة بالملك الظاهر خشقدم أربعة أشهر وستة أيام بغير تحرير وتحرير الأوقات والساعات: وخمسة أيام.

ولما نكب الملك المؤيد وخلع من السلطنة على هذا الوجه كثر أسف الناس عليه إلى الغاية والنهاية فإنه كان سار في سلطنته سيرة حسنة جميلة وقمع أهل الفساد وقطاع الطريق بجميع إقليم مصر وأمنت السبل في أيامه أمنًا زائدًا واطمأنت النفوس من تلك المخاوف التي كانت في أيام أبيه وزالت أفعال الأجلاب بالكلية مما أردعهم في أوائل سلطنته بالآخراق والوعيد وأبعدهم عنه.

ثم سلك الطريق الجميلة في الرعاية فعظم حب الناس له وانطلقت الألسن له بالدعاء والابتهاال سرًا وعلانية وسر بسلطنته كل أحد من الناس ومالت القلوب إليه لولا تكبر كان

فيه وعدم التفات إلى الأكاير حسبما تقدم ذكره وهذا كان أكبر الأسباب لتوغر خواطر الأمراء منه وإلا فكان أهلاً للسلطنة بلا نزاع.

فلو أنه سار مع الأمراء سيرة والده الأشرف من الملق وأخذ الخواطر مع إرادة الله تعالى لدامت أيامه مقدار المواهب الإلهية لأنه كان ملكاً عارفاً سيوساً فطنا عالي الهممة يقظاً لولا ما شان سؤدده من التكبر ومصاحبة الأحداث ولله در القائل: الطويل ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء فخراً أن تعد معايبه ودام الملك المؤيد هذا بالبحر من الحوش السلطاني بقلعة الجبل إلى يوم الثلاثاء حادي عشرين شهر رمضان فرسم السلطان الملك الظاهر خشقدم بتوجهه وتوجه أخيه محمد إلى سجن الإسكندرية.

فأنزلا في باكر النهار المذكور وأخرج الملك المؤيد هذا مقيداً وحمل على فرس ولم يركب خلفه أحد من الأوجاقية كما هي عادة من يحمل من أعيان الأمراء إلى سجن الإسكندرية فنزهوا مقامه عن ذلك وأنا أقول: لعل أنه ما قصدوا بذلك إجلاله فإنه ليس في القوم من هو أهل لهذه المعاني.

وإنما الملك المنصور عثمان كان لما أنزل من القلعة إلى الإسكندرية على هذه الهيئة لم يركب خلفه أوجاقي فظن القوم أن العادة لا يركب خلف السلطان أوجاقي ففعلوا بالمؤيد كذلك.

ولقد سمعت هذا المعنى من جماعة من أكابر الجهلة والمشهورين بالمعرفة فلو قيل له: وأي سلطان أنزل من القلعة بعد خلعه من السلطنة إلى الإسكندرية على هذا الوجه لما كان يسعه أن يقول رأيت ذلك في بلاد الجاركس انتهى.

وحمل أخوه محمد أيضاً على فرس آخر بغير قيد فيما أظن ونزل أمامه وبين يديهما مملوك أبيهما قراجا الأشرفي الطويل الأعرج على بغل بقيد وخلفه أوجاقي على عادة الأمراء بسكين.

وأنا أقول: عظم قراجا بهذا النزول مع هؤلاء الملوك في مثل هذا اليوم والذي أراه أنا أنه كان يتوجه بين يدي هؤلاء ماشياً إلى أن يصل إلى البحر وإلا فهذا إجلال لقدر هذا الوضع وإن كان فيه ما فيه من النكد ففيه نوع من رفع مقامه.

وسار الجميع والعساكر محتفظة بهم وعلى أكثرهم السلاح وآلة الحرب وجلست الناس بالحوانيت والطرقات والبيوت لرؤية الملك المؤيد هذا كما هي عادة العوام وغيرهم من المصريين وتوجهوا بهم من الصليبية إلى أن اجتازوا بالملك المؤيد وأخيه محمد على تلك الهيئة بدار أخته شقيقته زوجة الأمير يونس الدوادر الكبير وهو في حياض الموت لمرض طال به أشهرًا تجاه الكبش.

فلما وقع بصر زوجة الأمير يونس على أخويها وهما في تلك الحالة العجيبة المهولة صاحت بأعلى صوتها هي ومن حولها من الجواري والنسوة فقامت عيطة عظيمة من الصياح واللطم والرؤوس المكشوفة فحصل للناس من ذلك أمر عظيم من بكاء وخزن وعبرة على ما أصاب هؤلاء من النكبة والهوان بعد الأمن والعز الذي لا مزيد عليه وما أحسن قول من قال في هذا المعنى: البسيط جاد الزمان بصفو ثم كدره هذا بذاك ولا عتب على الزمن ودام سيرهم على هذه الصفة إلى أن وصلوا بهم إلى البحر بخط بولاق بساحل النيل فأنزل الملك المؤيد وأخوه ومعهما قراجا المذكور في مركب واحد وسافروا من وقتهم على الفور إلى الإسكندرية وقد كثر تأسف الناس عليهم إلى الغاية ما خلا المماليك الظاهرية فإنهم فرحوا به لما كان فعل الملك الأشرف إينال بابن أستاذهم الملك المنصور كذلك فجازوه بما فعلوه الآن مع ابنه الملك المؤيد هذا.

قلت: هكذا فعل الدهر يوم لك ويوم عليك.

ودام الملك المؤيد ومن معه مسافرًا في البحر إلى ثغر رشيد فسافروا على البر إلى أن وصلوا إلى الإسكندرية فسجنوا بها.

واستمر الملك المؤيد مسجونًا بقيده إلى أن استهلت سنة ست وستين فرسم السلطان الملك الظاهر خشقدم بكسر قيده فكسر وتوجهت والدته خوند زينب إليه وسكنت عنده بالثغر ومعها ابنتها زوجة الأمير يونس بعد موته.

ثم مرض ولدها محمد في أثناء السنة أيامًا كثيرة ومات بالثغر ودفن به في ذي الحجة.

وقبل موته ماتت ابنته بنت أشهر ولم يتهم أحد لموته لأن مرضه كان غير مرض المتهومين.

ولما وقع ذلك أرسلت والدته خوند زينب تستأذن السلطان في حمل رمة ولدها محمد المذكور من الإسكندرية إلى القاهرة لتدفنه عند أبيه الأشرف إينال فأذن لها في ذلك فحملته بعد أشهر وجاءت به إلى القاهرة في شهر ربيع الأول من سنة سبع وستين وثمانمائة ودفن محمد المذكور على أبيه في فسقية واحدة رحمهما الله تعالى والمسلمين.

ولم تحضر والدته المذكورة مع رمة ولدها محمد وإنما قامت عند ولدها الملك المؤيد أحمد بالإسكندرية لمرض كان حصل للملك المؤيد أبطل بعض أعضائه ثم عوفي بعد ذلك بمدة.

وحضرت بعد ذلك إلى القاهرة بطلب من السلطان بسبب المال وصادفت وفاة الأمير يونس المؤيدي الدوادر الكبير صهره زوج أخته بعد يوم ثم تزوجها الأمير كسباي الخشقدمي الدوادر الثاني فقبل دخولها ماتت معه.

وكان عمره وقت سلطنته نيفًا وثلاثين سنة فإن مولده وأبوه نائب بغزة.

وكانت مدة سلطنة الملك المؤيد أحمد على مصر أربعة أشهر وأربعة أيام مرت أيامه كالدقائق لسرعتها وحسن أوقاتها ودام في الإسكندرية وقد كمل له بها الآن مدة عشر سنين سواء.

ولما مات الظاهر خشقدم وتسلمن الملك الظاهر تمرغا الظاهري ففي أول يوم رسم بإطلاق الملك المؤيد أحمد من سجن الإسكندرية ورسم له بأن يسكن في الإسكندرية في أي بيت شاء وأنه يحضر صلاة الجمعة راكبًا وأرسل إليه خلعة وفرسًا بقماش ذهب فاستمر يركب.

ولما تسلمن صهره الملك الأشرف قايتباي زاد في إكرامه وبقي يسافر وصاهره على ابنته الأمير يشبك من مهدي الظاهري الدوادر الكبير ودام.

وهذه السنة وهي سنة خمس وستين وثمانمائة هي التي اتفق فيها أن حكم فيها ثلاثة ملوك حكم الملك الأشرف إينال من أولها إلى نصف جمادى الأولى وحكم ولده الملك المؤيد هذا من نصف جمادى الأولى المذكورة إلى تاسع عشر شهر رمضان فقط وحكم الملك الظاهر خشقدم من تاسع عشر شهر رمضان فقط إلى آخرها.

وسنذكر وفيات هذه السنة بتمامها في محلها في أول سنين سلطنة الملك الظاهر خشقدم حسبما اصطالحنا عليه في مصنفنا هذا إن شاء الله تعالى.

سلطنة الظاهر خشقدم على مصر هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد الله الناصري المؤيدي وهو السلطان الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والأول من الأورام بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر ملكًا أعني أول دولة الظاهر برقوق وهو القائم بدولة الجراكسة ابتداء.

وأما من سلف من ملوك الترك الجراكسة والأورام ففيهم اختلاف كثير لعدم ضبط المؤرخين هذا المعنى.

والذي تحرر منهم من دولة الملك الظاهر برقوق إلى يومنا هذا فأول الجراكسة برقوق وأول الأورام خشقدم هذا وبينهما إحدى وثمانون سنة لا تزيد ولا تنقص يومًا لأن كلا منهما تسلطن في تاسع عشر شهر رمضان فذاك أعني برقوقًا في سنة أربع وثمانين وسبعمائة وخشقدم هذا في سنة خمس وستين وثمانمائة تسلطن يوم خلع الملك المؤيد أبو الفتح أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال الأجرود في يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة بعد الزوال وهو يوم ملك القلعة من الملك المؤيد أحمد.

فلما كان وقت الزوال طلب الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة والأعيان وقد حضر جميع الأمراء في الإسطبل السلطاني بباب السلسلة بالحراقة وبوع بالسلطنة.

وكان قد بوع بها من بكرة يوم السبت ثامن عشر شهر رمضان قبل قتال الملك المؤيد أحمد حسبما تقدم ذكره في ترجمة الملك المؤيد أحمد ولقب بالملك الظاهر وكني بأبي سعيد.

ولما تم له الأمر لبس خلعة السلطنة السوداء من مبيت الحراقة وركب فرس النوبة وطلع إلى القصر السلطاني بشعار الملك والأمراء والعساكر مشاة بين يديه ما خلا الخليفة فإنه راكب معه وقد حمل القبة والطير على رأسه الأمير جرباش المحمدي الناصري المعروف بكرد أمير سلاح.

وجلس على تخت الملك وقبلت الأمراء والعساكر الأرض بين يديه ودقت البشائر في الوقت فازدحمت الناس لتهنئته وتقيل يديه إلى أن انتهى كل أحد.

ونودي في الحال بسلطنته في شوارع القاهرة وخلع على الخليفة المستنجد بالله يوسف فوقانيًا حريرا بوجهين أبيض وأخضر بطرز زركش وقدم له فرسًا بسرج ذهب وكنبوش زركش ثم خلع على الأمير جرباش المحمدي أطلسين متمرًا وفوقانيًا بوجهين بطرز زركش وأنعم عليه بفرس بقماش ذهب وهذه الخلعة لحمله القبة والطير على رأس السلطان وخلعة الأتابكية تكون بعد ذلك غير أن جرباش المذكور علم أنه قد صار أتابكًا لحمله القبة والطير على رأس السلطان.

ثم خلع السلطان على الأمير قرقماس الأشرفي أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضًا عن جرباش.

وكانت سلطنة الملك الظاهر خشقدم وجلوسه على تخت الملك وقت الظهر من يوم الأحد المقدم ذكره وكان الطالع وقت سلطنته وجلوسه على تخت الملك.

واستمر جلوس السلطان الملك الظاهر خشقدم بالقصر السلطاني من قلعة الجبل إلى الخميس وعنده جميع الأمراء على العادة.

ثم أصبح السلطان في يوم الاثنين العشرين من شهر رمضان خلع على الأمير جرباش المحمدي خلة الأتابكية وهي كخلعته بالأمس.

وفيه رسم السلطان بإطلاق الأميرين من سجن الإسكندرية الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي أمير سلاح كان والأمير قاني باي الجاركسي الأمير آخور الكبير كان وتوجههما إلى ثغر دمياط بطالين.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشرينه الثانية من النهار حمل الملك المؤيد أحمد وأخوه محمد من قلعة الجبل إلى جهة الإسكندرية ليحبسا بها.

قلت: وقبل أن نشرع في ذكر الحوادث نبدأ بالتعريف بأصل الملك الظاهر خشقدم هذا وسبب ترقيه إلى السلطنة فنقول: أصله رومي الجنس جلبه خواجا ناصر الدين إلى الديار المصرية في حدود سنة خمس عشرة وثمانمائة أو في أوائل سنة ست عشرة هكذا أملى علي من لفظه بعد سلطنته وسنه يوم ذلك دون البلوغ فاشتراه الملك المؤيد شيخ وجعله كتابيًا سنين كثيرة ثم أعتقه وجعله من جملة المماليك السلطانية إلى أن مات الملك المؤيد فصار خشقدم هذا خاصكيًا في دولة ولده الملك المظفر أحمد بن شيخ بسفارة أغاته الأمير تغري بردي قريب قصره.

ودام خاصكيًا مدة طويلة إلى أن صار ساقيًا في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق.

ثم أمره الملك الظاهر إمرة عشرة وجعله من جملة رؤوس النوب في حدود سنة ست وأربعين فدام على ذلك إلى سنة خمسين فأنعم عليه الملك الظاهر أيضًا بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق واستمر بدمشق إلى أن تغير خاطر الملك الظاهر جقمق على الأمير البرديكي حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذي نعتوه الناس بالصلاح ونفاه إلى ثغر دمياط بطالًا فرسم السلطان الملك الظاهر جقمق بطلب خشقدم هذا من مدينة دمشق ليكون عوضًا عن تنبك المذكور في حجوبية الحجاب وعلى إقطاعه أيضًا دفعة واحدة وذلك في صفر سنة أربع وخمسين وثمانمائة.

وكان مجيء خشقدم هذا إلى الديار المصرية بسفارة الأمير تمرغا الظاهري الدوادر الثاني وقيل على البذل على يد أبي الخير النحاس.

وأنعم السلطان بتقدمة خشقدم هذا التي بدمشق على الأمير علان جلق المؤيدي فاستمر خشقدم المذكور على الحجوبية إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فخلع عليه بإمرة سلاح عوضًا عن الأمير تنبك البرديكي الذي كان أخذ عنه الحجوبية بعد أن وقع لتنبك المذكور دورات وتنقلات فدام على وظيفة إمرة سلاح إلى أن سافر مقدم العساكر السلطانية إلى بلاد ابن قرمان.

ثم عاد واستمر على حاله إلى أن تسلطن الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف إينال فخلع عليه باستقراره أتاك العساكر عوضًا عن نفسه وذلك في يوم الجمعة سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس وستين.

فلم تطل أيامه وثار القوم بالملك المؤيد أحمد وقاتلوه حتى خلعه حسيما ذكرنا أمر الواقعة في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " .

وتسلطن الملك الظاهر خشقدم هذا.

ووقع في سلطنته نادرة غريبة وهي أن الملك الظاهر برقوقًا كان أول ملوك الجراكسة بالديار المصرية إن كان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير غير جاركسي وكانت سلطنة برقوق في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ولقب بالملك الظاهر وكانت سلطنة الملك الظاهر خشقدم هذا في يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة فتوافقا في اللقب والشهرة والتاريخ والشهر وذلك أول ملوك الجراكسة وهذا أول دولة الأورام فبينهما إحدى وثمانون سنة لا تزيد يومًا ولا تنقص يومًا لأن كلا منهما تسلطن بعد أذان الظهر في تاسع عشر شهر رمضان انتهى.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان على الأمير جانبك الظاهري نائب جدة باستقراره دوادارًا كبيرًا بعد موت الأمير يونس.

وخلع على الأمير جانبك من أمير الظريف الخازندار باستقراره دوادارًا ثانيًا عوضًا عن بردبك الأشرفي بحكم القبض عليه وولي الدوادارية الثانية على تقدمه ألف ولم يقع ذلك لغيره.

واستقر قائم طاز الأشرفي خازندارًا عوضًا عن جانبك من أمير.

وفي يوم الجمعة رابع عشرينه تواترت الأخبار بوصول الأمير جانم الأشرفي نائب الشام إلى منزلة الصالحية وأشيع هذا الخبر إلى وقت صلاة الجمعة فتحقق السلطان الإشاعة فحصل عليه من هذا الخبر أمر كبير وعظم مجيء جانم على السلطان إلى الغابة لأن جانم كان رشح لسلطنة مصر قبل ذلك عند مجيء ولده يحيى بن جانم إلى مصر في دولة الملك المؤيد أحمد وقد ذكرنا ذلك في وقته.

وخارت طباع الملك الظاهر خشقدم وما ذلك إلا لعظم جانم في النفوس وأيضًا لكثرة خجداشيته الأشرفية وزيادة على ذلك من كان كاتبه وأذعن لطاعته من أعيان الظاهرية الجقمقية.

ثم طلب السلطان الأمير جانبك الدوادار وكلمه بما سمعه من مجيء جانم وكان جانبك قد استحال عن جانم ومال بكليته إلى الملك الظاهر خشقدم وصار من جهته ظاهرًا وباطنًا فهون جانبك مجيئه على السلطان وأخذ في التدبير وقام وخجداشيته بنصرة الملك الظاهر خشقدم.

ووقع بسبب مجيء جانم أمور كثيرة وحكايات ذكرناها في تاريخنا " حوادث الدهور " ملخصها: أن جانم أقام بالخانقاه أيامًا وعاد إلى نيابة الشام ثانيًا بعد أن أمده السلطان بالأموال والخيول والقماش حسبما يأتي ذكره يوم سفره.

وفي يوم السبت خامس عشرينه نودي بنفقة المماليك السلطانية في يوم السبت الآتي.

وفيه أيضًا أنعم السلطان على عدة من الأمراء بتقادم ألوف وهم: الأمير أزيك من ططخ الظاهري وبردبك الظاهري الرأس نوبة الثاني وجانبك من قجماس الأشرفي المشد زيادة على إقطاعه الأول ووظيفته.

وأُنعِمَ السلطان أيضًا على جماعة من الخاصكية لكل واحد إمرة عشرة باستحقاق وغير استحقاق كما هي عادة أوائل الدول.

واستقر الأمير قايتباي المحمودي الظاهري أمير طبلخاناه وشاد الشراب خاناه عوضًا عن جانبك الأشرفي.

وأما ما جدده الملك الظاهر خشقدم من الوظائف مثل الدوادرية والسقاة والسلحدارية فكثير جدًا لا يدخل تحت حصر لعسر تحريره.

واستقر الأمير دولاب باي النجمي مسفر الأمير جانم نائب الشام واستقر تمرار الأشرفي أحد مقدمي الألوف بدمشق في نيابة صغد بعد عزل خيربك النوروزي عنها وتوجهه إلى دمشق مقدم ألف وأُنعِمَ السلطان أيضًا على تمرار المذكور بمبلغ كبير من المال وغيره.

وفي يوم الاثنين سابع عشرين رمضان استقر يشبك البجاسي أحد مقدمي الألوف بمصر في حجوية حلب وأُنعِمَ بتقدمته على الأمير جانبك الإينالي الأشرفي المعروف بقلقسيز انتقل إليها من إمرة عشرة بسفارة الأمير جانبك الدوادر.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرينه توجه القاضي محب الدين بن الشحنة كاتب السر إلى خانقاه سرياقوس لتحليف جانم نائب الشام المقدم ذكره.

وسافر جانم في يوم الجمعة ثاني شوال إلى محل كفالته على أقبح وجه وسافر بعده تمرار الذي استقر في نيابة صغد كل ذلك بتدبير عظيم الدولة جانبك الدوادر وقد انتهت إليه يوم ذلك رئاسة المماليك الظاهرية بديار مصر.

وأما الملك الظاهر فإنه لما سافر جانم أخذ في مكافأة العسكر واستجلاب خواطرهم ووجد عنده حاصلًا كبيرًا من الإقطاعات ليس ذلك مما كان في ديوان السلطان وإنما هو إقطاعات الأجلاب مماليك الأشرف إينال وأضاف إلى ذلك شيئًا كثيرًا من الذخيرة السلطانية ومن أوقاف الملك الأشرف إينال وأوقاف حواشيه حتى إنه صار يأخذ البلد العظيمة من ديوان المفرد وغيره وينعم بها على جماعة لكل واحد إمرة عشرة وتارة ينعم بها على خمسين مملوكًا من المماليك السلطانية وأكثر وأقل.

وقاسى الملك الظاهر من طلب المماليك أمورًا عظيمة وأهوالًا ولما قل ما عنده من الضياع بالديار المصرية مد يده إلى ضياع البلاد الشامية ففرق منها على أمراء مصر وأجنادهم ما شاء الله أن يفرق.

فلما كان يوم السبت ثالث شوال شرع السلطان في تفرقة نفقة المماليك السلطانية ففرقت في كل يوم طبقة واحدة لقلة متحصل الخزانة الشريفة لكل واحد مائة دينار ولمن يستخفون به خمسون دينارًا وبالجملة إنها فرقت أقبح تفرقة لعجز ظاهر وقلة موجود ومصادر الناس.

ولما كان يوم الاثنين خامس شوال أنعم السلطان بالخلع على جميع أمراء الألوف وأُنعِمَ على كل واحد بفرس بسرج ذهب وكنبوش زركش ورسم لهم بالنزول إلى دورهم وكان لهم من يوم قدم جانم نائب الشام إلى خانقاه سرياقوس مقيمين بجامع القلعة وكذلك القضاة فنزل الجميع إلا الخليفة فإنه دام بقلعة الجبل إلى يوم تاريخه وأظن ذلك صار عادة ممن يلي الملك بعده.

وفي هذه الأيام استقر خيربك القصري نائب قلعة الجبل في نياية غزة بعد عزل بردبك السيفي سودون من عبد الرحمن ورسم السلطان أن يفرج عن الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي وعن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق من محبسهما ببرج الإسكندرية ورسم لهما أن يسكنا بأي مكان اختارا بالثغر المذكور ورسم أيضًا بكسر قيد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال.

وفي يوم الأربعاء سابعه ماجت ممالك الأمراء ووقفوا في جمع كبير بالرميلة يطلبون نفقات أستاذيهم لينفق أستاذ كل واحد منهم في مماليكه وكان السلطان آخر نفقات الأمراء إلى أن تنتهي نفقة الممالك السلطانية وكانت العادة تفرقة النفقة على الأمراء قبل الممالك.

فلما بلغ السلطان ذلك شرع في إرسال النفقة إلى الأمراء وقد ذكرنا قدر ما أرسل لكل واحد منهم في تاريخنا " الحوادث " .

ثم في يوم الخميس ثامن شوال استقر الأمير قائم المؤيدي أمير مجلس عوضًا عن قرقماس الأشرفي بحكم انتقاله إلى إمرة سلاح قبل تاريخه واستقر الأمير بيبرس خال العزيز رأس نوبة عوضًا عن قائم واستقر يلباي الإينالي المؤيدي جاجب الحجاب عوضًا عن بيبرس المذكور ولبس الأمير جانبك الدوادر خلعة الأنظار المتعلقة بوظيفته ونزل في موكب هائل.

ثم في يوم الأحد حادي عشره وصل الأمير تمرغا الظاهري الدوادر الكبير كان من مكة المشرفة بطلب إلى القاهرة وأظنه كان خرج من مكة قبل أن يأتيه الطلب وطلع إلى القلعة وقبل الأرض وخلع السلطان عليه كاملية بمقلب سمور ونزل إلى داره التي بناها وجددها المعروفة قديمًا بدار منجك.

وكان الأمير جانبك الدوادر قبل مجيء الأمير تمرغا عظيم الممالك الظاهرية فلما حضر تمرغا هذا وجلس فوق الأمير جانبك لكونه كان أغاته بطبقة المستجدة أيام أستاذه ولعظمته في النفوس وسبقه للرئاسة صار هو عظيم الممالك الظاهرية وركضت ربح جانبك قليلًا واستمر على ذلك.

وفي يوم الأربعاء رابع عشره تسحب الأمير زين الدين عبد الرحمن بن الكويز ناظر الخاص الشريف بعد أن قام بالكلف السلطانية أتم قيام أعني بذلك عن الخلع التي خلعها السلطان في أول سلطنته وكانت خارجة عن الحد كثرة ثم عقيب ذلك خلع عيد الفطر بتمامها وكمالها وبينهما مسافة يسيرة من الأيام ولم يظهر العجز في ذلك جميعه يومًا واحدًا إلى أن طلب منه السلطان من ثمن البهار مائة ألف دينار لأجل النفقة السلطانية فعجز حينئذ وهرب.

واستقر عوضه في نظر الخاص القاضي شرف الدين الأنصاري وباشر هو أيضًا أحسن مباشرة وقام بالنفقة السلطانية هو والأمير جانبك الدوادر وتتم رصاص أتم قيام أعني أنهم اجتهدوا في تحصيل المال من وجوه كثيرة.

هذا ما وقع للملك الظاهر خشقدم من يوم تسلطن إلى يوم تاريخه مرارًا.

ومن الآن نشرع في ذكر نوادر الحوادث إلى أن تنتهي ترجمته خوفًا من الإطالة والملل فنقول: ولما كان يوم الاثنين ثالث ذي القعدة استقر القاضي نجم الدين يحيى بن حجي في نظر الجيش بعد أن صرف القاضي زين الدين بن مزهر عنها.

وفي يوم خامس عشر ذي القعدة عين السلطان تجريدة إلى قبرس نجدة لمن بها من العساكر الإسلامية ثم بطل ذلك بعد أيام.

وفي يوم الخميس سابع عشرينه استقر الصفوي جوهر التركماني زمامًا وخازندارًا عوضًا عن لؤلؤ الأشرفي الرومي.

وفي يوم الخميس سادس عشرين ذي الحجة أمسك السلطان بالقصر السلطاني بالقلعة جماعة من أمراء الألوف وغيرهم من الأشرافية وهم: بيبرس خال العزيز رأس نوبة النوب وجانبك من أمير الظريف الدوادر الثاني وأحد أمراء الألوف وجانبك المشد أحد أمراء الألوف أيضًا.

وأمسك من أمراء الطبلخانات والعشرات جماعة أيضًا مثل: قائم طاز الخازندار الكبير ونوروز الإسحافي وبرسبای الأمير آخور وكرتباي ودولات باي سكسن وأبرك البجمقدار وكلهم عشرات إلا قائم طاز أمير طبلخاناه.

فلما سمعت خداشيتهم بذلك ثاروا ووافقهم المماليك الأشرافية الإينالية وجماعة من الناصرية وتوجهوا الجميع إلى الأمير الكبير جرباش المحمدي الناصري وهو مقيم يوم ذاك بتربة الملك الظاهر برقوق التي بالصحراء وكان في التربة في ماتم ابنته التي ماتت قبل تاريخه بأيام واختفى جرباش المذكور منهم اختفاء ليس بذاك فظفروا به وأخذوه ومضوا له إلى بيت قوصون الذي سد بابه الآن من الرميطة تجاه باب السلسلة ومروا به من باب النصر من شارع القاهرة وبين يديه جماعة من أمراء الأشرافية وغيرهم وعليهم آله الحرب وقد لقبوه بالملك الناصر على لقب أستاذه الناصر فرج بن برقوق ولما وصلوا إلى بيت قوصون أجلسوه بمقعد البيت.

وعندما جلس بالمقعد ظهر على الأشرافية وغيرهم اختلال أمرهم لاختلاف كلمتهم من سوء آرائهم المفلوكة ولعدم تدبيرهم فإن الصواب كان جلوسه بالتربة المذكورة إلى أن يستفحل أمرهم وأيضًا إنهم لما أوصلوه إلى بيت قوصون ذهب غالبهم ليتجهز للقتال وبقي جرباش في أناس قليلة.

وأما الملك الظاهر خشقدم فإنه لما بلغ الملك الظاهر والظاهرية أمرهم طلعوا بأجمعهم إلى القلعة وانضم عليهم أيضًا خلائق لعظم شوكة السلطنة من خداشية السلطان المؤيدية وغيرهم وأخذوا السلطان ونزلوا به من القصر إلى مقعد الإسطبل السلطاني أعلى باب السلسلة وعليهم السلاح ودقت الكوسات بالقلعة وشرعوا في القتال.

وبينما هم في تناوش قتال جرباش وقد رأى جرباش أن أمره لا ينتج منه شيء تدارك فرطه وقام من وقته وركب وطلع إلى القلعة طائغًا إلى السلطان وقبل الأرض واعتذر بالأكراه فقبل السلطان منه عذره وفي النفس من ذلك شيء وانهمزمت الأشرافية الكبار.

وهذا ذنب ثان للأشرافية عند السلطان والذنب الأول قصة خداشهم جانم والثاني هذا وانهمز جميع من كان انضم على جرباش المذكور وتوجه كل منهم إلى حال سبيله فتجاهل السلطان عليهم وزعم أنه قبل أعدارهم إلى أن تم أمره فمذ يده يمسك وينفي ويكتب إلى التجاريد والسخر إلى أن أبادهم.

ثم في يوم الجمعة سابع عشرين ذي الحجة المذكور أخفوا الأمراء الممسوكين ونزلوا بهم إلى حبس الإسكندرية.

وفي يوم الاثنين سلخ ذي الحجة خلع السلطان على جميع أمراء الألوف كل واحد كاملية بمقلب سمور وأنعم على الأمير تمرغا الظاهري القادم من مكة بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية عوضًا عن جانبك المشد بحكم حبسه وخلع عليه باستقراره رأس نوبة النوب عوضًا عن بيبرس خال العزيز وأنعم بإقطاع بيبرس على يلباي المؤيدي الحاجب لكونه أكثر متحصلًا من إقطاعه وأنعم بإقطاع يلباي على خداشه قاني بك المحمودي المؤيدي أحد أمراء دمشق الألوف كان.

وفيه أيضًا استقر الأمير جانبك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكوهية دوادارًا ثانيًا عوضًا عن جانبك الظريف على إمرة عشرة وكان جانبك الظريف وليها على مقدمة ألف.

▲ سنة ست وستين وثمانمائة

ففي يوم الأربعاء ثاني المحرم وصل الخبر بأن الأمير إياسًا المحمدي الناصري نائب طرابلس وصل من جزيرة قبرس إلى ثغر دمياط بغير إذن السلطان.

وفيه نفى السلطان خيربك البهلوان وقام الصغير الأشرفيين إلى البلاد الشامية وكلاهما أمير عشرة.

وفي يوم الخميس ثالث المحرم عين السلطان مع سليمان بن عمر الهواري تجريدة من المماليك السلطانية وعليهم ثلاثة أمراء أشرفية: جكم خال العزيز وأيدكي ومغلباي فتأمل حال الأشرفية من الآن.

ثم في يوم الاثنين سابع المحرم استقر الأمير طوخ الأبوبكري المؤيدي زردكاشيًا عوضًا عن سنقر قرق شبق الأشرفي بحكم القبض عليه واستقر سودون الظاهري الأفرم خازندارًا كبيرًا عوضًا عن قائم طاز بحكم القبض عليه أيضًا.

وأنعم السلطان في هذا اليوم على جماعة كثيرة بأمرات وإقطاعات ووظائف باستحقاق وغير استحقاق كما هي عوائد أوائل الدول.

ثم في ليلة الثلاثاء ثامن المحرم سافر الأمير قاني باي المحمودي الظاهري المشد إلى ثغر دمياط للقبض على الأمير إياس الناصري نائب طرابلس وإيداعه السجن لكونه حضر من قبرس وترك من بها من عساكر المسلمين.

ثم عين السلطان جماعة من الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار إلى سفر قبرس وأميرهم مغلباي البجاسي أتاك طرابلس وكان مغلباي حضر مع إياس.

وفي يوم الاثنين رابع عشر المحرم استقر قراجا العمري ثاني رأس نوبة وأمير مائة ومقدم ألف بدمشق على إقطاع هين وقراجا هذا أيضًا ممن كان انضم على جرباش من خداشيته واستقر تم الحسيني الأشرفي عوضه رأس نوبة ثانيًا.

وفي يوم الخميس سابع عشر المحرم استقر برسباي البجاسي الأمير آخور الكبير نائب طرابلس عوضًا عن إياس المقبوض عليه واستقر عوضه في الأمير أخورية الكبرى يلباي المؤيدي حاجب الحجاب واستقر في حجوية الحجاب عوضه الأمير بردك الظاهري اليجمقدار وأنعم السلطان بإقطاع برسباي البجاسي على قاني بك المحمودي وأنعم بإقطاع قاني بك المحمودي على تمرباي ططر الناصري وكلاهما مقدمة ألف لكن الزيادة في المتحصل وفرق السلطان إقطاع تمرباي ططر على جماعة.

وفي يوم الاثنين حادي عشرين المحرم استقر الخواجا علاء الدين علي الصابوني ناظر الإسطنبول السلطاني بعد عزل شرف الدين بن البقري وأضيف إليه نظر وأمير الركب الأول تنبك الأشرفي.

وفي يوم الخميس ثاني صفر أعيد القاضي زين الدين بن مزهر إلى وظيفة نظر الجيش بعد عزل القاضي نجم الدين يحيى بن حجي.

وفي يوم الثلاثاء سابع صفر وصل إلى القاهرة رأس نوبة الأمير جانم نائب الشام ومعه مقدمة إلى السلطان تسعة مماليك لا غير من عند مخدومه واعتذر عن مخدومه أنه ليس له علم بتسحب الأمير تراز نائب صفد وأنه باق على طاعة السلطان وكان السلطان أرسل قبل تاريخه بمسك تراز المذكور فهرب تراز من صفد وله قصة حكيناها في " حوادث الدهور " .

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشره وصل أيضًا الزيني عبد القادر بن جانم نائب الشام يستعطف خاطر السلطان على أبيه وكان عبد القادر حديث السن وقد حضر معه الأمير قراجا الظاهري أتاك دمشق ليتلطف السلطان في أمر نائب الشام.

ولما وصل قراجا المذكور إلى منزلة الصالحية رسم السلطان بعوده إلى دمشق ومنعه من الدخول إلى مصر ورسم لعبد القادر المذكور بالمجيء فجاء الصبي ورد قراجا إلى الشام.

وفي هذا اليوم رسم السلطان بإحضار الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي أمير سلاح كان من ثغر دمياط وقد رشح لنيابة الشام عوضًا عن جانم المذكور.

ثم في ليلة الخميس سادس عشر صفر المذكور سافر الأمير تنم من نخشايش الظاهري المعروف برصاص محتسب القاهرة إلى دمشق على النجب والخيل ومعه جماعة كثيرة من الخاصكية مقدار ثلاثين نفرًا أيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال ثم في يوم الأربعاء عشرينه وصل الأمير تنم من ثغر دمياط وقبل الأرض وأجلسه السلطان فوق الأمير قرقماس أمير سلاح وخلع عليه.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرينه خلع عليه نيابة الشام واستقر مسفره الأمير بردبك هجين الظاهري الأمير أخور الثاني.

وخلع السلطان على الأمير قانصوه اليحياوي الظاهري بتوجهه إلى الأمير جانبك الناصري المعزل قبل تاريخه عن حجوية دمشق وعلى يده تقليده وتشريفه نيابة صفد عوضًا عن تراز الأشرفي.

وفي يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الأول وصل إلى القاهرة الأمير ازدمر الإبراهيمي وخجداشه قرقماس وقد كان مسافرًا مع الأمير تنم رصاص المحتسب إلى دمشق وأخبر ازدمر المذكور أن الأمير جانم نائب الشام خرج منها بمماليكه وحشمه بعد دخول تنم رصاص إلى دمشق ومراسلته ولم يقدر تنم على مسكه بل ولا على قتاله وكان خروج جانم من دمشق قبيل العصر من يوم الأحد سادس عشرين صفر ولم يكثر بأحد من الناس وتوجهه إلى جهة حسن بك بن قرايلك.

ثم في يوم الجمعة ثاني عشرين ربيع الأول ركب السلطان من قلعة الجبر ببعض أمرائه وخاصته ونزل إلى بيت الأمير تنم المستقر في نيابة الشام وسلم عليه وهذا أول نزوله من قلعة الجبل من يوم تسلطن.

ثم نزل السلطان بعد ذلك بقمماش الموكب في يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الآخر وسار إلى تربته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر وخلع على البدرى حسن بن الطولونى معلم السلطان وعلى غيره ثم توجه إلى مطعم الطير وجلس به واصطاد أمير شكار بين يديه ثم ركب وعاد إلى القلعة بعد أن شق القاهرة ودخل في عوده إلى بيت إنيه الأمير تنبك الأشرفى المعلم.

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره استقر شرف الدين يحيى بن الصنينة أحد الكتاب وزيرًا بالديار المصرية بعد عزل علي بن الأهناسى.

وفي يوم الاثنين أول جمادى الأولى أنعم السلطان على الأمير بردبك هجين الظاهري أمير آخور ثان بإمرة مائة وتقدمة ألف بعد موت تمرباي ططر وأنعم بإقطاع بردبك المذكور على مغلباي طاز المؤيدى وأنعم بإقطاع مغلباي على سودون الأفرم الظاهري الخازندار وأنعم بإقطاع سودون الأفرم على سودون البردبكي المؤيدى الفقيه.

وفي يوم السبت سادس جمادى الأولى وصل تنم رصاص.

ثم في يوم السبت استقر إينال الأشقر الظاهري والى القاهرة في نياية ملطية بعد موت قانى باي الحكمى.

وفي يوم الخميس ثامن عشره استقر الصارمى إبراهيم بن بيغوت نائب قلعة دمشق بعد موت سودون قندوره التركمانى الشبكي بحكم انتقاله إلى تقدمه ألف بدمشق.

وفي يوم الاثنين ثاني عشرين جمادى الأولى المذكورة خرج الأمير تنم نائب الشام إلى محل كفاله.

وفي آخر هذا الشهر وصل قاصد حسن بك بن علي بك بن قرابلك صاحب آمد وأخبر السلطان أن الأمير جانم نائب الشام جاء إليه واستشفع عند السلطان له.

وفي هذا الشهر ترادفت الأخبار بأن جانم نائب الشام أرسل يدعو تركمان الطاعة إلى موافقته وأن حسن بك المقدم ذكره دعا لجانم على منابر ديار بكر.

ثم في يوم الأربعاء سابع شهر رجب نودي بشوارع القاهرة بالزينة لدوران المحمل ونودي أيضًا بأن أحدًا من المماليك ولا غيرهم لا يحمل سلاحًا ولا عصاة في الليل فدامت الزينة إلى أن انتهى دوران المحمل في يوم الاثنين ثاني عشره ولم يحدث إلا الخير والسلامة.

وكان معلم الرماحة في هذه السنة الأمير قايتباي المحمودى الظاهري المشد والباشات الأربعة أمراء عشرات: برقوق الناصري ثم طومان باي الظاهري ثم جانبك الأبلق الظاهري ثم برسباي قرا الظاهري.

ثم في يوم الخميس خامس عشره عين السلطان تجريدة إلى الوجه القبلى أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية ومقدم العسكر الأمير جانبك الدوادر وصحبته من أمراء الألوف جانبك فلقسيز الأشرفى ومن أمراء الطبلخانات والعشرات نحو عشرين أميرًا وخرجوا بسرعة في ليلة السبت سابع عشر رجب.

وفي يوم الجمعة سادس عشره الموافق لحادي عشرين برمودة لبس السلطان القماش الأبيض البعلبكي المعد لأيام الصيف وابتدأ في يوم السبت سابع عشره يلعب الكرة على العادة في كل سنة.

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه عاد الأمير جانبك الدوادر بمن كان معه من بلاد الصعيد إلى الجيزة وطلع إلى السلطان من الغد بغير طائل ولا حرب وخلع السلطان عليه.

وفي ليلة الثلاثاء ثامن عشر شعبان سافرت خوند الأحمدية زوجة السلطان في محفة إلى ناحية طنندا بالغربية لزيارة سيدي أحمد البدوي.

وفي يوم الجمعة ثامن عشرينه سافرت الغزاة المعينون قبل تاريخه إلى قبرس انتهى.

وفي يوم الأحد ثامن شهر رمضان ورد الخبر بموت حاج إينال البشبيكي نائب حلب فخلع السلطان في يوم الخميس ثاني عشره على الأمير قايتباي شاد الشراب خاناه بتوجهه إلى حماة وعلى يده تقليد جانبك التاجي المؤيدي نائب حماة وتشريفه بنيابة حلب عوضًا عن الحاج إينال.

واستقر مغلبي طاز مسفر الأمير جانبك الناصري نائب صغد باستقراره في نيابة حماة.

واستقر في نيابة صغد خيربك القصري نائب غزة وتوجه بتقليده الأمير تمرباي الظاهري السلاحدار.

واستقر في نيابة غزة أتابك حلب شاد بك الصارمي ومسفره طومان باي الظاهري.

واستقر يشبك البجاسي حاجب حجاب حلب أتابكًا بها عوضًا عن شاد الصارمي.

واستقر تغري بردي بن يونس نائب قلعة حلب في حجوية حلب عوضًا عن يشبك البجاسي.

واستقر كمشبغا السيفي نخشباي أحد المماليك السلطانية بمصر في نيابة قلعة حلب دفعة واحدة من قبل أن تسبق له رئاسة مع عدم أهلية أيضًا وكانت ولايته بالمال ولا قوة إلا بالله.

وفي يوم الأربعاء تاسع شوال خرجت تجريدة إلى البحيرة وعليها ثلاثة أمراء من أمراء الألوف: قرقماس أمير سلاح ويشبك الفقيه وبردبك هجين الظاهري ومن أمراء الطيلخانات: خشكلدي القوامي الناصري وتم الحسيني الأشرفي ثاني رأس نوبة ومن أمراء العشرات: قاني باي السيفي يشبك بن أزدمر وقلمطاي الإسحافي وقنبك الصغير الأشرفيان وسنطباي قرا الظاهري.

وفيه ورد الخبر بأن جانم نائب الشام كان عدى الفرات في جمع كثير من المماليك وتركمان حسن بك بن قرايلك وسار بعساكره حتى وصل إلى تل باشر من أعمال حلب وتجهز نائب حلب لقتاله ففي الحال عين السلطان تجريدة إلى حلب لقتال جانم: أربعمئة مملوك ثم أضاف إليهم مائتين وعليهم أربعة أمراء من مقدمي الألوف وهم: جانبك الظاهري الدوادر الكبير ويلباي المؤيدي الأمير آخور الكبير وأزبك الظاهري وجانبك قلفسيز الأشرفي وثلاثة عشر أميرًا من أمراء الطيلخانات والعشرات.

ثم نودي في يوم الثلاثاء خامس عشر شوال بالنفقة فيمن عين إلى التجريدة المذكورة.

ثم أصبح الغد في يوم الأربعاء رسم بإبطال التجريدة وسبب ذلك ورود الخبر من نائب حلب بعود جانم على أقبح وجه وأن جماعة كثيرة من مماليكه فارقوه وقدموا إلى مدينة حلب.

وأمر رجوع جانم أنه كان لما وصل إلى تل باشر وقع بينه وبين تركمان حسن بك الذين كانوا معه كلام طويل ذكرناه في " الحوادث " فتركوه وعادوا فتلاشى أمر جانم لذلك وعاد.

وفي يوم الخميس سابع عشر شوال خرج الأمير برديك الظاهري أمير حاج المحمل بالمحمل إلى بركة الحاج دفعة واحدة وكانت العادة قديمًا أن ينزل بالريدانية ثم يرحل إلى بركة الحاج وكان أمير الركب الأول في هذه السنة الناصري محمد ابن الأتابك جرباش المحمدي.

وفي يوم الاثنين حادي عشرينه استقر القاضي محب الدين بن الشحنة قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية بعد استعفاء شيخ الإسلام سعد الدين بن الديرى لضعف بدنه وكبر سنه واستقر أخوه القاضي برهان الدين إبراهيم بن الديرى كاتب السر الشريف عوضًا عن قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة المقدم ذكره.

وفي يوم الخميس رابع عشرينه استقر القاضي نور الدين بن الإنبائي عين موقعي الدست الشريف في نيابة كتابة السر بعد عزل لسان الدين حفيد القاضي محب الدين بن الشحنة فحينئذ أعطي القوس لراميه والقلم لباريه فإنه حق لهذه الوظيفة وأهل لها.

ثم في رابع ذي القعدة توفيت بنت خوند الأحمدية زوجة السلطان وهي بنت أبرك الحكمي أحد أمراء دمشق وقد تزوجها الزيني عبد الرحيم ابن قاضي القضاة بدر الدين العيني فولدت منه الشهابي أحمد بن العيني الآتي ذكره في محله.

وفي يوم الاثنين سادس ذي القعدة عزل السلطان القاضي برهان الدين إبراهيم بن الديرى عن وظيفة كتابة السر بعد أن باشرها خمسة عشر يومًا وكان سبب عزله أنه لما ماتت بنت خوند المقدم ذكرها في يوم السبت قال ابن الديرى: ورد في الأخبار المنقولة عن الأفاضل أنه ما خرج من بيت ميت في يوم السبت إلا وتبعه اثنان من أكابر ذلك البيت.

وشغرت كتابة السر بعده مدة وباشر الوظيفة القاضي نور الدين الإنبائي نائب كاتب السر.

وفي يوم الخميس سادس عشره ورد الخبر من البحيرة بأن العسكر واقع عرب لبيد وقتل من عسكر السلطان أميران: تنك الصغير الأشرفي وسنطباي قرا الظاهري وجماعة من المماليك.

وسبب قتلهم أمر ذكرناه في " الحوادث " إذ هو محل إطناب في الواقع وحاصل الخبر أن الذين قتلوا هؤلاء هم عرب الطاعة في الغوغاء لا عرب لبيد.

ثم في يوم الاثنين عشرين من ذي القعدة خلع السلطان على القاضي زين الدين أبي بكر بن مزهر ناظر الجيش باستقراره في وظيفة كتابة السر مسؤولًا في ذلك مرغوبًا في ولايته واستقر القاضي تاج الدين عبد الله بن المقسي في وظيفة نظر الجيش عوضًا عنه.

وفي يوم الخميس ثاني عشرين ذي الحجة توعك السلطان في بدنه من إسهال حصل له ولم ينقطع عن صلاة الجمعة بجامع القلعة الناصري مع الأمراء على العادة واستمر به الإسهال إلى يوم سادس عشرينه فخرج من الدهيشة إلى الحوش وجلس على الدكة.

وحضرت أكبر الأمراء الخدمة بالحوش المذكور وعلى وجه السلطان أثر الضعف كل ذلك وهو ملازم للفراش غير أنه يتجلد ويجلس على الفرش بقاعة البيسرية والناس تدخل إليه بها للخدمة على العادة.

وفي هذا اليوم حضر إلى القاهرة مبشر الحاج وهو غير تركي رجل من العرب وهذا غير العادة وما ذاك إلا مخافة السبل وعدم الأمن بالطريق فأعاب الناس ذلك على أرباب المملكة.

وفي هذه السنة أخذ حسن بك بن علي بك بن قرايلك مدينة حصن كيفا ثم أخذ قلعتها في ذي القعدة بعد ما حاصرها سبعة أشهر وانقطع من الحصن ملك الأكراد الأيوبية بعدما ملكوها أكثر من مائتي سنة وذلك بعد قتل صاحبها الملك خلف بيد بعض أقاربه فاختلف الأكراد فيما بينهم فوجد حسن بك بذلك فرصة في أخذها فحاصرها حتى أخذها.

وقوي أمر حسن بأخذها فإنه أخذ بعد ذلك عدة قلاع وممن من أعمال ديار بكر من تعلقات الحصن وغيره.

سنة سبع وستين وثمانمائة وجميع نواب البلاد الشامية مقيمون بحلب مخافة هجوم جانم عليها والسلطان ملازم الفراش.

فلما كان أول المحرم دقت البشائر لعافية السلطان ثلاثة أيام.

وفي يوم الخميس سادس المحرم خلع السلطان على الأطباء وعلى السقاة وعلى من له عادة.

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشره وصل أمير الركب الأول الناصري محمد ابن الأتابك جرباش ودخل أمير حاج المحمل الأمير بردبك من الغد.

ومن غريب الاتفاق أني سألت الناصري محمد ابن الأتابك جرباش: " متى بلغكم مرض السلطان " فقال: " في المدينة الشريفة " فحسبنا الأيام فكان يوم سمعوا فيه خبر مرضه قبل أن يمرض بيوم أو يومين.

وفي يوم الخميس حادي عشر صفر استقر علي بن الأهناسي في وظيفتي الوزير والخاص وليس في هذا اليوم وظيفة الخاص عوضًا عن القاضي شرف الدين موسى الأنصاري والوزير عوضًا عن شرف الدين يحيى بن صنيعة.

وفي يوم الثلاثاء أول شهر ربيع الأول استقر القاضي علم الدين بن جلود كاتب الممالك السلطانية.

وفي يوم الأحد ثالث عشره عمل السلطان المولد النبوي بالحوش من الجبل على العادة من كل سنة وأصبح من الغد عمل مولدًا آخر لزوجته خوند الأحمدية.

ثم في يوم السبت سادس عشرينه استقر الزيني قاسم الكاشف أستاذًا بعد أن اختفى الأمير زين الدين الأستاذار.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر ورد الخبر من جانبك التاجي نائب حلب أن جانم نائب الشام قتل بمدينة الرها وقد اختلف في قتله على أقاويل ذكرناها في " الحوادث ".

وفي يوم الاثنين ثالث جمادى الأولى استقر بلاط دوادار الحاج إينال في نيابة صفد دفعة واحدة من غير تدرج ببذل المال عوضًا عن خيربك القصري وتوجه خيربك على إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق عوضًا عن يشبك أس قلق المؤيدي بحكم استقرار يشبك المذكور في نيابة غزة بعد موت شاد بك الصارمي ثم تغير ذلك بعد أيام لامتناع يشبك من نيابة غزة واستمر يشبك على إمرته بدمشق فصار خيربك بطالًا بالشام.

ثم رسم السلطان أن يستقر شاد بك الجلباني في نيابة غزة بعشرة آلاف دينار وإن امتنع شاد بك من نيابة غزة حمل إلى قلعة دمشق ويؤخذ منه العشرة آلاف دينار.

وفيه استقر أزدمر الإبراهيمي مسفر بلاط نائب صفد واستقر سودون البرديكي الفقيه المؤيدي مسفرًا لمن يستقر في نيابة غزة.

ثم في يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة استقر صاحب شمس الدين منصور أستاذًا عوضًا عن قاسم الكاشف.

وفي يوم السبت رابع عشره رسم السلطان بعزل إينال الأشقر عن نيابة ملطية بالأمير يشبك البجاسي أتابك حلب واستقر إينال الأشقر أتابك حلب عوضه.

وفي سلخ هذا الشهر سافرت خوند الأحمدية زوجة السلطان إلى زيارة الشيخ أحمد البدوي.

وفي يوم الاثنين أول شهر رجب سافرت الغزاة في بحر النيل إلى ثغر دمياط ليتوجهوا من الثغر إلى جزيرة قبرس وكان على هذه الغزاة الأمير بردبك الظاهري حاجب الحجاب والأمير جانبك قلقسيز الأشرفي واثنًا عشر أميرًا آخرهم: بردبك التاجي وقانصوه المحمدي وقانصوه الساقى ويشبك الأشقر ثم خيربك من حديد وقلطباي وكلهم أشرفية برسبائية ثم تم الفقيه المؤيدي ثم يشبك القرمي وتمرباي السلاح دار وقانصوه وهؤلاء الثلاثة ظاهرية جقمقية ثم من السيفية مغلباي الجقمقي وتنبك السيفي جانبك النور ونحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية وهذا خلاف المطوعة والخدم وأرباب الصنائع وغيرهم.

وفيه ظهر الأمير زين الدين وطلع إلى السلطان ولبس كاملية واستقر وفي يوم الاثنين خامس عشره أدير المحمل على العادة.

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره استقر الأمير جكم الأشرفي خال الملك العزيز في نيابة غزة بعدما شغرت مدة طويلة.

وفي يوم الاثنين تاسع عشرين رجب استقر بدرالدين حسين بن الصواف قاضي الحنفية بالديار المصرية عوضًا عن قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة بحكم عزله.

وفيه جهز السلطان تجريدة إلى البحيرة عليها أميران من أمراء الألوف وهما جانبك الناصري المرتد وقاني باي المحمودي المؤيدي وجماعة آخر من أمراء الطبلخانات والعشرات.

وفيه ثارت مماليك السلطان الأجلاب عليه ومنعوا أرباب الدولة والأمراء وغيرهم من الطلوع إلى القلعة للخدمة السلطانية وضربوا الأمير جوهراً مقدم المماليك وهجموا على سودون القصري نائب القلعة ثم بطلت الفتنة لأمر حكيناها في " الحوادث " .

وفي يوم الخميس خامس عشر شهر رمضان استقر الزيني مثقال الظاهري المعروف بمثقال الحبشي نائب مقدم المماليك بعد عزل صندل الظاهري بحكم عزله.

وفي ليلة السبت ثامن شوال تسحب علي بن الأهناسي وشغرت عنه وظيفتا الخاص والوزير فاستقر عوضه في الوزير صاحب مجد الدين بن البقري وفي الخاص القاضي تاج الدين بن المقسي مضافاً للجيش.

وفي يوم الاثنين سابع عشره خرج الأمير بردك هجين الظاهري أمير حاج المحمل بالمحمل إلى بركة الحاج وأمير الركب الأول الشهابي أحمد بن الأتابك تنبك.

وفي يوم الخميس العشرين من ذي القعدة أعيد قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني لمنصب القضاء بعد عزل قاضي القضاة شرف الدين المناوي.

وفي ليلة الجمعة سادس عشرين ذي القعدة عمل عظيم الدولة الأمير جانبك الظاهري الدوادار وليمة عظيمة بالقبة التي بناها تجاه جزيرة الروضة وقد احتفل لهذه الوليمة احتفالاً عظيماً وحضرها جميع أعيان الدولة بأسرهم ما خلا بعض أمراء الألو ف لعدم طلبهم وقد حكينا أمر هذه الوليمة في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " ومن عظم هذه الوليمة لهج الناس بأنها تمام سعده.

فلما كان يوم الثلاثاء أول ذي الحجة قتل الأمير جانبك المذكور بقلعة الجبل داخل باب القلة تجاه باب الجامع الناصري الشرقي في الغلس قبل تباين الوجوه وقتل معه خداشه الأمير تتم رصاص الظاهري محتسب القاهرة وأحد أمراء الطبلخانات وكان قتلها بيد المماليك الأجلاب الذين أنشأهم الملك الظاهر خشقدم.

ولما أن طلع النهار المذكور قبض السلطان في الحال على ستة أمراء من الظاهرية وهم: سودون الشمسي الأمير آخور الثاني وقانصوه اليحياوي وأزدمر وطومان باي ودمرداش وتغري بردي ططر والجميع رؤوس نوب فحمل سودون البرقي من الغد إلى سجن الإسكندرية وأطلق طومان باي وأزدمر ودمرداش وأخرج قانصوه وتغري بردي إلى البلاد الشامية.

واضطرب لهذه الواقعة أمور المملكة وتخوف كل أحد على نفسه وبأبى الله إلا ما أراد.

وفي يوم الاثنين سابع ذي الحجة استقر يشبك من سلمان شاه المؤيدي الفقيه دواداراً كبيراً بعد قتل الأمير جانبك فولي يشبك وظيفته ولم يل مجده ولا ثناءه ولا همته ولا حرمة ولاشهامته ولا عظمته ولقد كان به تجمل في الزمان ولا قوة إلا بالله.

واستقر سودون البردبكي المؤيدي في حسبة القاهرة عوضاً عن تتم رصاص بعد قتله أيضاً.

واستقر نانق الظاهري أمير آخور ثانياً عوضاً عن سودون الشمسي بحكم حبسه.

وفي يوم السبت ثالث عشره استقر المعلم محمد البباوي أحمد معاملي اللحم ناظر الدولة دفعة واحدة وترك زي الزفورية السوقة ولبس زي المباشرين الكتاب ولبس خفاً ومهمازاً وركب فرساً وهو أمني لا يحسم القراءة ولا الكتابة فكانت ولايته لهذه الوظيفة من أقبح ما وقع في الدولة التركية بالديار المصرية.

وقد استوعبنا من حال البياوي هذا نبذة كبيرة في تاريخنا " الحوادث " لا سيما لما ولي الوزارة فكان ذلك أدهى وأمر.

وبالجملة إن ولاية البياوي للوزر كان فيها عار على مملكة مصر إلى يوم القيامة.

وفي صبيحة يوم الاثنين ثامن عشرين ذي الحجة أمسك السلطان أربعة أمراء من أكابر أمراء الظاهرية بالقصر السلطاني وكان الذي تولى قبضهم جماعة أيضًا من المماليك الأجلاب.

وحبسوا بالبرج من قلعة الجبل وقيدوا إلى الرابعة من النهار المذكور وحملوا على البغال على العادة إلى سجن الإسكندرية.

والأمراء المذكورون أعظمهم تمرغا الظاهري رأس نوبة النوب وأزبك من ططخ الظاهري أحد مقدمي الألوف وبرقوق الناصري ثم الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة وقاني باي الساقي الظاهري أيضًا أحد أمراء العشرات ورأس نوبة.

ولما انفض الموكب منع السلطان الأمراء من النزول إلى دورهم ورسم بإقامتهم بالحوش السلطاني مخافة أن يحدث منهم أمر لا سيما ممن بقي من أمراء الظاهرية.

ولهج الناس بزوال الظاهرية وتهايا من بقي منهم وأوصى وكثرت المقالة بمصر وأرجف بالركوب والفتنة.

واستمر الأمراء بالحوش جلوسًا يومهم كله إلى أن دخلت ليلة الثلاثاء تاسع عشرين ذي الحجة ولم يتحرك أحد بحركة وقد عصم الخوف الناس جميعًا لأن السلطان صار يخاف من وثوب الظاهرية عليه والظاهرية تخاف من قبض السلطان عليهم والناس خائفون من الفتنة هذا والهرج موجود بين الناس.

فلما كان بعد صلاة العشاء الآخرة بلغ السلطان أن مماليكه الأجلاب الذين ملكهم من مماليك الملك الأشرف إينال وأجرى عليهم العتق وقربهم وجعلهم خاصكية وهم الذين قتلوا جانبك الدوادر وتنم رصاص وهم أيضًا الذين تولوا قبض الأمراء الأربعة قد اتفقوا مع بقية خجداشيتهم على قتل السلطان في هذه الليلة ثم على قتل جميع الأمراء بالحوش السلطاني ما خلا واحدًا منهم يبقوه ليسلطنوه عوضًا عن أستاذهم الملك الظاهر خشقدم ثم يصير بعد ذلك أمر المملكة بيدهم.

فلم يكذب السلطان هذا الخبر وحرار في نفسه كيف يفعل وضاق عليه فضاء الأرض لكون الذي طرقه إنما هو من مماليكه وهم الذين يستعز بهم على غيرهم من جنده فلم يجد بدًا من الاعتذار مع الظاهرية وأن يصطلح معهم ويعتذر إليهم في الليل ويطيب خاطرهم.

فأرسل من طلب الأمير قايتباي الظاهري شاد الشراب خاناه في الليلة المذكورة فحضر هو وجماعة كثيرة من خجداشيته وأصحابه وطلع من باب السلسلة إلى الحوش السلطاني ركبًا هو وجميع من حضر معه وكانوا خلأق ودخل قايتباي إلى السلطان بقاعة الدهيشة فقام إليه السلطان وعانقه واعتذر إليه وأمر في الحال بإحضار خجداشيته الذين أرسلهم إلى سجن الإسكندرية.

وطلع النهار فخرج السلطان من القاعة إلى مقعد البحرة بالحوش السلطاني وفعل ما أرضى به الظاهرية.

قلت: كان في تدبير الملك الظاهر في إحضار الظاهرية على الوجه المحكي وهم بالسلاح والرجال زوال ملكه لو قدر لغيره فإنه لما أرسل إلى الأمير قايتباي وجاء الأمير قايتباي ومعه تلك الخلائق وعليهم السلاح وليس عند السلطان سوى الأمراء الذين كانوا بالحوش وليس عند الأمراء أحد من مماليتهم ولا عليهم آلة الحرب ولا عند السلطان أيضًا بالقاءة من مماليتهم إلا جماعة قليلة جدًا وجميع من كان عند السلطان بأسرهم لا يقدر على دفع بعض من كان مع الأمير قايتباي بل لو أراد قايتباي المذكور الوثوب على الأمر والفتك بالسلطان لأمكنه ذلك.

ولم أدر ما طرق السلطان من الأمر العظيم حتى فعل ذلك وكان يمكنه أن يفعل ما شاء ولو كان ما طرقه أهم من ذلك وأعظم وما عسى أن تصل يدهم من الفعل به من شهامة السلطنة وعز الملك وعنده أمراؤه وأعيان مملكته ولم يملك أحد منه الزردخانه ولا بابًا من أبواب القلعة وباب السلسلة والإسطبل السلطاني بيده والمماليت السلطانية ملء الديار المصرية من سائر الطوائف ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

ثم أرسل السلطان في الحال بالإفراج عن الأمير تمرغا الظاهري وعن خداشيته الذين أمسكوا معه ومجيئهم إلى الديار المصرية بعز وإكرام.

فأفرج عنهم وحضروا إلى الديار المصرية في يوم الاثنين خامس المحرم من سنة ثمان وستين وثمانمائة وباتوا تلك الليلة في بيت يشبك الدوادر.

وطلعوا إلى القلعة من الغد وقبلوا الأرض فخلع السلطان على كل من تمرغا وأزيك كاملية بمقلب سمور ورسم لهم باستقرارهم على إقطاعاتهم ووظائفهم لأن السلطان ما كان أخرج عن أحد منهم إقطاعه ولا وظيفته فإن غضبه عليهم كان يومًا واحدًا وكذلك كان سجنهم بالإسكندرية.

وفي هذا اليوم استقر يونس بن عمر بن جريغا العمري دوادر الطواشي فيروز النوروزي وزيرًا وكانت خلعتة أطلسين بخلاف خلعة الوزر لكونه يتزيا بزي الجندي.

وفي يوم الخميس ثامن المحرم سنة ثمان وستين أعيد قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة إلى قضاء الحنفية بالديار المصرية بعد موت بدرالدين حسن بن الصواف.

وفي يوم الاثنين ثاني عشره نودي بشوارع القاهرة: أن أحدًا من الأعيان لا يستخدم ذميًا في ديوانه أعني من الكتبة وغيرهم قلت: ما أحسن هذا لو دام أو استمر.

فمنعت هذه المنادة أهل الذمة قاطبة من التصرف والمباشرة بقلم الديونة بوجه من الوجوه بأعمال مصر وكتب بذلك إلى سائر الأقطار.

ثم عقد السلطان بالصالحية بين القصرين عقد مجلس بالقضاة الأربعة وحضره الدوادر الكبير وجماعة من الأعيان بسبب هذا المعنى وقرئت العهود المكتتة قديمًا على أهل الذمة فوجدوا في بعضها أن أحدًا من أهل الذمة لا يباشر بقلم الديونة عند أحد من الأعيان ولا في عمل من الأعمال وأشياء من هذه المقولة إلى أن قال فيها: ولا يلف على رأسه أكثر من عشرة أذرع وأن نساءهم يتميزن من نساء المسلمين بالأزرق والأصفر على رؤوسهن في مشيهن بالأسواق وكذلك بشيء في الحمامات.

فحكم قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني الشافعي بإلزام أهل الذمة بذلك جميعه ما عدا الصرف والطب بشروطه.

وصمم السلطان على هذا الأمر وفرح المسلمون بذلك قاطبة فأسلم بسبب ذلك جماعة من أهل الذمة من المباشرين.

وعظم ذلك على أقباط مصر ودام ذلك نحو السنة وعاد كل شيء على حاله أولًا.

وبلغ السلطان ذلك فلم يتكلم بكلمة واحدة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأين هذا من همة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير رحمه الله لما قام في بطلان عيد شبرا وليس النصرى الأزرق واليهود الأصفر فله دره ما كان أعلى همته وأغزر دينه رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وفي يوم السبت رابع عشرين المحرم نفى السلطان مملوكه أزيك الذي كان من جملة مسفري الأمراء المتوجهين إلى الإسكندرية وكان نفيه لأمر يعلمه السلطان.

وفيه طلب السلطان جماعة من أمراء الألوفا إلى داخل قاعة الدهيشة وحلفهم على طاعته بأيمان مغلظة.

وفي يوم السبت ثاني صفر استقر أبو بكر بن صالح نائب البيرة في حجوية حجاب حلب بعد استقرار تغري بردي بن يونس في نيابة قلعة حلب واستقر كمشبغا السيفي نخشباي نائب قلعة حلب في نيابة البيرة.

وفي يوم الاثنين رابع صفر رسم السلطان أن يفرج عن الأمير سودون الشمسي المعروف بالبرقي من سجن الإسكندرية وحضوره إلى القاهرة بعد أن أنعم السلطان عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق.

ثم في يوم السبت أمسك السلطان برسباي الخاصكي أحد المماليك الذين أخذهم من تركة الملك الأشرف إينال وهو أحد من تولى قتل جانبك الدوادر ثم ممن أراد قتل السلطان بعد ذلك في تلك الليلة المقدم ذكرها وضربه بين يديه ضربًا مبرحًا ثم أمر بتوسطه فوسط بين يديه بالحوش وكان السلطان وسط قبله آخر من مماليكه يسمى قائم.

ثم في يوم الاثنين حادي عشره أعيد صاحب مجد الدين بن البقري إلى الوزر بعد تسحب يونس بن جريغا.

وفي يوم الخميس استقر شرامرد العثماني المؤيدي أحد أمراء العشرات بالديار المصرية دوادر السلطان بدمشق وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه عوضًا عن أزدمر الإبراهيمي بحكم القبض عليه.

وفي يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول أشيع بمجيء الغزاة من قبرس إلى سواحل البلاد الشامية وغيرها بغير إذن السلطان فغضب السلطان من ذلك غضبًا شديدًا ولم يسعه إلا السكات.

وفي يوم الأحد ثامن عمل السلطان المولد النبوي على العادة وعمل من الغد مولدًا آخر لزوجته.

وفي يوم الاثنين سادس عشره خلع السلطان على الشهابي أحمد بن عبد الرحيم بن العيني ابن بنت زوجة السلطان باستقراره أمير حاج المحمل بسفارة حج جدته زوجة السلطان في هذه السنة.

وفيه استقر صاحب مجد الدين بن البقري أستاذًا بعد اختفاء الأمير زين الدين وطلب السلطان المعلم محمدًا البباوي اللحام الذي كان استقر ناظر الدولة وقرره وزيرًا بالديار المصرية ولبس خلة الوزير في يوم الثلاثاء سابع عشره.

شعر: الطويل فيا نفس جدي إن دهرك هازل وقد ذكرنا أصل هذا البباوي وسبب استقراره في " الحوادث " .

ثم في يوم الجمعة سابع عشرينه وصلت الغزاة من سواحل متعددة وخلع السلطان على الأمير بردبك وعلى الأمير جانبك قلقسيز وأنعم على كل واحد منهما بفرس بسرج ذهب وكنبوش زركش وخلع على جميع من كان معهما من الأمراء فأقام الأمير بردبك إلى يوم الاثنين سادس جمادى الأولى وخلع عليه باستقراره في نيابة حلب بعد عزل جانبك التاجي المؤيدي ومجيئه إلى القاهرة على إقطاع بردبك.

وفي يوم الخميس تاسعه استقر الأمير أربك من ططخ الظاهري حاجب الحجاب عوضًا عن بردبك المذكور.

وفي يوم سلخه ورد الخبر بموت الأمير تنم نائب الشام وأحضر سيفه قانصوه الجلباني الحاجب الثاني بدمشق فرسم السلطان للأمير جانبك التاجي المعزول عن نيابة حلب باستقراره في نيابة دمشق عوضًا عن تنم وتعين قاني باي الحسنى المؤيدي مسفره.

وأنعم السلطان بإقطاع بردبك الذي كان عين لجانبك التاجي على الأمير يشبك الدوادر وأنعم بإقطاع يشبك على مغلباي طاز المؤيدي وكلاهما مقدمة ألف لكن التفاوت في كثرة المتحصل.

وأنعم بإقطاع مغلباي طاز على الأمير قايتباي شاد الشراخانا زيادة على إقطاعه ليكون قايتباي أيضًا من جملة مقدمي الألوف فزيدت المقدمون مقدمة أخرى.

واستقر نانق الظاهري الأمير آخور الثاني شاد الشراخانا عوضًا عن قايتباي واستقر جانبك من ططخ الفقيه أمير آخور ثانيًا عوضًا عن نانق.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة عين السلطان إلى البحيرة تجريدة عليها الأمير أربك حاجب الحجاب وصحبته من أمراء الطيلخانات جانبك الإسماعيلي كوهية الدوادر الثاني وكسباي الششماني الناصري ثم المؤيدي ومن العشرات أرغون شاه أستاذار الصحة وقانم نعة وجانم أمير شكار وتنك الأشقر والجميع أشرفية وتغري بردي الطياري وقانصوه وقاني باي الساقى وهما ظاهريان وأربعمئة مملوك من المماليك السلطانية.

وفي يوم الأحد ثامن عشره ركب السلطان ونزل إلى بيت الأمير بردبك نائب حلب ثم خرج من عند بردبك ودخل إلى برقوق الناصري فلم يجده.

وفي يوم الاثنين تاسع عشره وصل سيف الأمير جانبك التاجي المعزول عن نيابة حلب والمتولي نيابة الشام بحلب قبل أن يخرج منها.

فلما كان يوم الثلاثاء العشرون من جمادى الآخرة المذكورة رسم السلطان لبرسباي البجاسي نائب طرابلس نيابة دمشق عوضًا عن جانبك التاجي وصار قاني باي الحسيني مسفره أيضًا فإنه وافى قاني باي الحسيني موت جانبك وهو بقطيا متوجهًا إليه بتقليد نيابة الشام وتثريفه فقررر السلطان مسفر برسباي هذا كما كان مسفر جانبك.

ثم رسم السلطان بانتقال جانبك الناصري نائب حماة إلى نيابة طرابلس عوضًا عن برسباي البجاسي واستقر مسفره الأمير لاجين الظاهري.

واستقر بلاط نائب صفد في نيابة حماة ومسفره الأمير طوخ الأبوكرى المؤيدي الزردكاش.

واستقر يشبك أوش قلق المؤيدي أحد أمراء الألوفا بدمشق عوضًا عن بلاط في نيابة صفد واستقر الأمير خشكلدي البيسقي مسفر يشبك هذا وأنعم بإقطاع هذا على خجداشه شرامرد العثماني المؤيدي دوا دار السلطان بدمشق.

وفي يوم الجمعة ثالث عشرينه وصل قاصد صاحب قبرس جاكم وأخبر أنه أخذ مدينة الماغوصة وقلعتها من يد الفرنج وأنه سلمها للأمير جانبك الأبلق المقيم بجزيرة قبرس بمن بقي معه من المماليك السلطانية فأساء جانبك المذكور السيرة في أهل الماغوصة ومد يده لأخذ الصبيان الحسان من آبائهم أعيان أهل الماغوصة فشق ذلك عليهم وقالوا: " نحن سلمناكم البلد بالأمان وقد حلفت لنا أنكم لا تفعلوا معنا بعد أخذكم المدينة إلا كل خير وأنتم مسلمون فما هذا الحال " فلم يلتفت جانبك الأبلق إلى كلامهم واستمر على ما هو عليه فأرسل أهل الماغوصة إلى جاكم عرفوه الخبر فأرسل جاكم إلى جانبك ينهها عن هذه الفعلة فضرب جانبك القاصد المذكور بعد أن أوسعه سبًا فأرسل إليه قاصدًا آخر فضربه جانبك بالنشاب فركب جاكم إليه من الأقسية مدينة قبرس وجاء إليه وكلمه فلم يلتفت إليه وخشن عليه الكلام فكلمه جاكم ثانيًا فضربه بشيء كان في يده فسقط جاكم مغشيًا عليه فلما رأت الفرنج ذلك مدت أيديها إلى جانبك ومن معه من المسلمين بالسيوف فقتل جانبك وقتل معه خمسة وعشرون مملوكًا من المماليك السلطانية وهذا معنى ما حكاه يعقوب الفرنجي قاصد جاكم الذي حضر إلى القاهرة رسولًا من عند جاكم والله أعلم.

هذا مع اختلاف الروايات في قتل جانبك ورفقته.

واستولى جاكم على الماغوصة على أنه نائب بها عن السلطان وعلى كل حال صارت الماغوصة بيد جاكم صاحب قبرس.

ثم عين السلطان سودون المنصوري الساقى لتوجه قبرس مع يعقوب المذكور فسافر سودون المذكور ووقع له أمور ذكرناها في موضعها من تاريخنا " الحوادث " .

ثم في يوم السبت ثامن شهر رجب أعيد قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي إلى منصب قضاء الشافعية بعد موت قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني.

ثم في يوم الاثنين عاشر رجب أدير المحمل فلعبت الرماحة على العادة.

وفي يوم السبت ثاني عشرينه عين السلطان تجريدة إلى البحرية يردف بها الأمير قرقماس لأمر وقع له مع العرب قتل فيه جماعة من المماليك السلطانية.

ثم في يوم الأحد سابع شعبان وصل الأمير قرقماس بمن معه من البحيرة.

وفي هذا الشهر ورد الخبر بأخذ قلعة كركر وقتل نائبها جكم بحيلة من الأكراد.

وفي يوم الاثنين سادس شوال استقر الأمير برديك هجين أمير جاندار وكان لهذه الوظيفة مدة طويلة لا يليها إلا الأجناد وكانت في القديم أجل الوظائف.

ثم في يوم الجمعة تاسع عشرين ذي القعدة الموافق لعاشر مشرى أوفى النيل ونزل السلطان بنفسه وخلق المقياس وفتح خليج السد ثم ركب وعاد إلى القلعة وبين يديه أربعة من أمراء الألوفا وعليهم الخلع التي خلعاها السلطان عليهم وقيد لكل واحد منهم فرسًا بسرج ذهب وكنبوش زركش وهم: الأتابك جرباش وقرقماس أمير سلاح وقانم أمير مجلس وتمربغا رأس نوبة النوب وباقي الأمراء عليهم الخلع لا غير.

وتعجب الناس لنزول السلطان لكسر البحر لبعده عهد الناس من نزول السلاطين إلى هذا المعنى لأنه من سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ما نزل سلطان وكان الذي نزل في سنة ثلاث وثلاثين الملك الأشرف برسباي رحمه الله.

وفرغت هذه السنة.

▲ سنة تسع وستين وثمانمائة

ففي يوم السبت العشرين من المحرم أنعم السلطان على الأمير قانصوه المحمدي الساقى الأشرفى أحد أمراء العشرات بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق وأنعم ببعض إقطاع قانصوه هذا على الأمير قانصوه اليحياوى الظاهري.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه وصل الشرفى يحيى بن يشبك الفقيه الدوادار وهو أمير الركب الأول إلى القاهرة وأصبح من الغد وصل الشهابى أحمد بن العينى أمير حاج المحمل بالمحمل وصحبته جدته خوند زوجة السلطان.

وفي يوم الاثنين تاسع عشرينه استقر شرامرد العثماني حاجب حجاب دمشق.

وفي يوم الاثنين سابع عشرين صفر استقر الأمير منصور أستاذًا عوضًا عن الأمير زين الدين.

وفي يوم الاثنين رابع عشرين شهر ربيع الآخر استقر ألماس الأشرفى دوادار السلطان بحلب في نيابة البيرة بعد موت قانى باي طاز البكتمرى واستقر على بن الشيبانى عوضه فى دوادارية حلب.

وفي ثامن جمادى الأولى ورد الخبر بتسليم كركر إلى أعوان حسن بك ابن قرايلك.

وفي يوم الاثنين ثالث عشر شهر رجب أدير المحمل على العادة وقاست الناس من الأجلاب شدائد.

ثم فى يوم الخميس سلخ رجب قدم الخبر بموت الأمير جانبك الناصري نائب طرابلس.

وفي يوم الخميس سابع شعبان استقر سودون الأفرم الخازندار مسفر الناصري محمد بن المبارك من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس واستقر الأمير كسباى الششماني المؤيدى مسفر يشبك البجاسى أحد أمراء حلب باستقراره فى نيابة حماة وكلاهما صولح ولم يسافر.

وفي يوم السبت ثالث عشرينه نفى السلطان يشبك الساقى أحد مماليكه الأجلاب إلى الشام.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان رسم السلطان ينفي الأمير الكبير جرباش المحمدي الناصري المعروف بكرد إلى ثغر دمياط بطالاً فخرج من الغد.

وفي يوم الخميس العشرين من رمضان استقر الأمير قائم من صفر خجا المؤيدي المعروف بالتاجر أمير مجلس أتابك العساكر عوضاً عن جرباش المذكور.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرينه استقر الأمير تمرغا رأس نوبة النوب أمير مجلس بعد الأتابك قائم واستقر الأمير أزيك حاجب الحجاب عوضه رأس نوبة النوب واستقر الأمير جانبك قلقسيز الأشرفي حاجب الحجاب عوضاً عن العيني.

قلت: هنا نكتة طريفة وهي أن يوم رابع عشرين من الأيام السبعة المكروهة عند الناس وهؤلاء الأربعة الذين تولوا فيه لم يلقوا إلا كل خير فإن الأمير تمرغا لا يزال أمره ينمو ويزداد في هذه الوظيفة إلى أن صار سلطاناً وأزيك إلى أن صار أتابك العساكر وجانبك قلقسيز إلى أن صار أيضاً أتابك العساكر وابن العيني إلى إمرة مجلس.

والعجب أنهم من يوم تاريخه صاروا في خير وسلامة إلى أن كان من أمرهم ما كان فأى شؤم حصل بولايتهم في هذا اليوم! والحق هو ما أقوله: إن كل شيء لم يأت به كتاب الله ولا سنة رسول الله فهو مردود على قائله والسلام.

ودام جرباش كرد هذا بدمياط نحو سبع سنين.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشر ذي الحجة أوفى النيل ونزل السلطان خلق المقياس وفتح السد كما السنة الخالية.

سنة سبعين وثمانمائة ففي أولها رسم السلطان الظاهر خشقدم بتحويل السنة الخراجية على العادة.

وفي يوم السبت أول المحرم وصل نجاب وهو مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة.

وفي يوم الأربعاء ثاني عشره وصلت الأمراء الخمسة بمن معهم من أمراء الطبلخانات والعشرات والمماليك السلطانية من البحيرة.

وفيه استقر القاضي علاء الدين بن الصابوني قاضي قضاة دمشق الشافعية بعد عزل القاضي جمال الدين البادوني وأضيف إليه نظر جيش دمشق عوضاً عن البدرى حسن بن المزلق.

وباشر علاء الدين المذكور قضاء دمشق سنين كثيرة وهو مقيم بديار مصر ونوابه تحكم بدمشق وهذا شيء لم يقع لغيره في دولة من الدول.

وفي يوم السبت ثاني عشرينه وصل الأمير خشكلدي القوامي أمير الركب الأول ووصل من الغد أمير حاج المحمل جانبك قلقسيز بالمحمل وكان وصل قبلهما الأمير قاني بك المحمودي المؤيدي أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية وكان حج في هذه السنة.

وفي هذه الأيام زاد فساد المماليك الأجلاب وعظم شرهم وظلمهم.

فلما كان يوم السبت ثالث عشر صفر نودي بالقاهرة بأن أعيان التجار والسوقة تطلع من الغد إلى القلعة.

وظلعوا وقد ظن كل واحد منهم أن السلطان ينظر في أمرهم مع المماليك الأجلاب فعند طلوعهم ركب السلطان ونزل إلى جهة القرافة وغيرها ثم طلع إلى القلعة وجلس على الدكة.

وحضر التجار المطلوبون وغيرهم فلما تمثلوا بين يديه كلمهم السلطان بكلام معناه: أنهم لا يشترون شيئاً من القماش بالجريدة وأن يخبروا المشتري بالحق وأشياء من هذه المقولة ولم يبد في أمر الأجلاب بشيء فراحوا مثل ما جاءوا.

وفي يوم الخميس ثالث ربيع الأول استقر الأمير خيربك الخازندار الظاهري أمير حاج المحمل واستقر الأمير كسباي الششماني المؤيدي أمير الركب الأول.

وفي يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول استقر الأمير خشكلدي البيسقي محتسب القاهرة بعد عزل سودون البرديكي المؤيدي الفقيه.

وفي هذه الأيام عزل يشبك آس قلق المؤيدي عن نيابة صفد بحكم الأشرفي خال الملك العزيز يوسف نقلاً من نيابة غزة وتوجه يشبك المذكور على إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق واستقر في نيابة غزة الأمير إينال الأشقر الظاهري أتاك حلب واستقر في أتاكية حلب بعده ألماس الأشرفي نائب البيرة واستقر في نيابة البيرة شاد بك الصغير الجلباني وهو رجل من الأحداث قدمه المال.

وفي يوم الجمعة حادي عشره ثارت المماليك الجلبان على السلطان وأفحشوا في طلب تتريات صوف المعدة للأسفار والصيد ولهم حكاية طويلة ذكرناها في " الحوادث " .

وكان السلطان عزم على التوجه إلى الصيد فما وسعه إلا أنه أبطل الرواح إلى الصيد.

وفي يوم الأحد ثالث عشره عمل السلطان المولد النبوي بالحوش على العادة.

وفي يوم الخميس سابع عشره استقر الأمير برسباي قرا الظاهري مسفر حكّم نائب صفد واستقر كسباي الظاهري خشقدم أحد الدوادارية الصغار مسفر نائب غزة.

وفي يوم الاثنين ثامن عشره أمسك السلطان منصورًا الأستاذار وحبسه بقلعة الجبل وأمسك عن سداد لا عن عجز وأعيد الأمير زين الدين إلى الأستاذارية ودام منصور في الحبس والعقوبة إلى أن آل أمره إلى ضرب الرقبة بالشرع على ما زعموا.

وفي يوم السبت وصل سيف ملك أصلان بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر نائب أبلستين وذكروا أنه قتله فداوي ولا يلزمني ذكر اسم من أرسل إليه الفداوي.

وفي يوم الخميس تاسع عشره عزل السلطان الأمير جوهراً النوروزي مقدم المماليك السلطانية بنائيه الأمير مثقال الظاهري الحبشي واستقر عوضه في نيابة المقدم خادم أسود دكروري من أصاغر الخدام لا أعرفه قبل ذلك يسمى خالصًا.

وفي يوم السبت ثامن جمادى الآخرة عقد السلطان عقده على جاريته سوارباي الجاركسية أم ابنته وجعلها خوند الكبرى صاحبة القاعة وذلك بعد موت زوجته خوند

شكرباي الأحمدية الناصرية فرج بن برقوق وكان العاقد القاضي الحنفي محب الدين ابن الشحنة.

وفي يوم الخميس ثالث عشره ولي القاضي صلاح الدين المكي قضاة الشافعية بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة شرف الدين يحيى المناوي.

وفيه أيضًا استقر القاضي برهان الدين إبراهيم بن الديري قاضي قضاة الحنفية أيضًا بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفي.

وفيه استقر الأمير أرغون شاه الأشرفي أستاذار الصحبة أمير حاج الركب الأول بعد موت الأمير كسباي المؤيدي رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس ثالث عشره استقر قاسم صيرفي اللحم المعروف بجغيتة وزيرًا بالديار المصرية وقلع لبس العوام والسوقة وتزيا بزى الكتاب وركب فرسًا.

واستقر في نظر الدولة شخص آخر من مقولة قاسم جغيتة اسمه عبد القادر لم أعرفهما قبل تاريخه وكان لبسهما لهاتين الوظيفتين عارًا كبيرًا على ملوك مصر إلى يوم القيامة ولي على من ولاهما حجج لا يقوم أحد بجوابها وليس لأحد في ولايتهما عذر مقبول.

وأفة هذا كله عدم المعرفة وقلة التدبير وإلا ما ضيق الله على ملك مصر حتى يكون له وزير مثل هذا ومثل أستاذه محمد البياوي المقدم ذكره وقد تكلمنا في ولاية البياوي للوزر كلامًا طويلًا في كفاية عن الإعادة هنا وذلك في تاريخنا " حوادث الدهور " .

وقد أنشدني بعض رؤساء ديار مصر في يوم ولاية قاسم للوزر أبيات الطغرائي من قصيدته لامية العجم رحمه الله تعالى: البسيط ماكنت أوتر أن يمتد بي زمني حتى أرى دولة الأوغاد والسفل هذا جزاء أمرىء أقرانه درجوا من قبله فتمنى فسحة الأجل وفي هذه الأيام عين السلطان تجريدة إلى البلاد الحلبية نجدة لشاه بضع بن دلغار نائب أبلستين ليعينوه على قتال أخيه شاه سوار بن دلغار وفي التجريدة سبعة أمراء من أمراء الألوف وهم: الأتابك قائم وتمريغا أمير مجلس ولبياي الأمير آخور الكبير وقاني بك المحمودي المؤيدي وبرديك هجين أمير جاندار وقايتباي المحمودي الظاهري وجماعة كبيرة آخر من أمراء الطبلخانات والعشرات يأتي ذكر أسمائهم عند سفرهم إن تم ذلك ثم بطلت التجريدة بعد أيام.

وفي يوم الثلاثاء أول شعبان استقر الكاتب شرف الدين بن كاتب غريب أستاذارًا عوضًا عن الأمير زين الدين يحيى الأستاذار.

وفي يوم الجمعة أول شوال خطب فيه خطبتان بالقاهرة وغيرها وتشاءم الناس بذلك على الملك فلم يقع إلا خير.

وفي يوم السبت سادس عشر شوال استقر الأمير جانبك الأسماعيلي المعروف بكوهية الدوادار الثاني أمير مائة ومقدم ألف عوضًا عن الأمير جانبك الناصري المعروف بالمرتد بحكم كبر سنه وعجزه عن الحركة وخلع السلطان على مملوكه الأمير خير بك الخازندار باستقراره دوادارًا ثانيًا عوضًا عن جانبك كوهية.

وخير بك هذا هو أمير حاج المحمل في هذه السنة وسافر خيربك المذكور بالمحمل في يوم الاثنين ثامن عشره.

وفي يوم الأربعاء العشرين منه ضربت رقبة الأمير منصور الأستادار بسيف الشرع وكانت هذه الفعلة من غلطات الملك الظاهر خشقدم فإنه كان في بقائه له خاصة منفعة كبيرة من وجوه عديدة ولعله ندم على قتله بعد ذلك.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرينه استقر الأمير رستم بن ناصر الدين بك بن دلغادر في نيابة الأبلستين عوضًا عن ابن أخيه شاه بضع بحكم ضعف شاه بضع عن دفع أخيه سوار وأظن أن رستم هذا أضعف من شاه بضع في دفع شاه سوار.

وفي يوم الخميس العشرين من ذي القعدة استقر الأمير قاني باي الحسيني المؤيدي أحد أمراء الطبلخانات في نيابة طرابلس دفعة واحدة بعد عزل الناصري محمد بن المبارك وكانت ولاية قاني باي هذا لطرابلس أيضًا من الأمور المنكرة الخارجة عن العادة لأننا لا نعلم أن أحدًا ولي نيابة طرابلس غير مقدم ألف بالديار المصرية بل غالب من يلي نيابة طرابلس ينتقل إليها من وظيفة عظيمة جليلة إما أمير مجلس أو أمير آخور كبير أو رأس نوبة النوب أو ينتقل إليها من نيابة حماة بل إن الأتابك طرباي الظاهري ولها بعد الأتابكية ومع هذا كله ليته أهل لذلك بل هو من كبار المهملين انتهى.

سنة إحدى وسبعين وثمانمائة بيوم الأربعاء ويوافقه عشرون مسرى

فيه أوفى النيل ستة عشر ذراعًا وثلاثة أصابع وفتح الخليج وخلق المقياس الأتابك قائم بإذن السلطان.

وفي يوم الاثنين سادسه أعيد قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة إلى قضاء الحنفية بعد عزل قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن الدبري.

وفي يوم السبت حادي عشره استقر القاضي أبو السعادات البلقيني قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية بعد عزل صهره صلاح الدين المكياني.

وفي يوم الخميس سابع صفر استقر القاضي كمال الدين محمد ابن الصاحب جمال الدين يوسف بن كاتب حكيم ناظر الجيوش المنصورة عوضًا عن القاضي تاج الدين عبد الله بن المقسي وأبقى على ابن المقسي وظيفته نظر الخاص.

وفيه استقر الأمير زين الدين يحيى أستاذًا على عادته.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر صفر استقر الأمير يلبي الإينالي المؤيدي الأمير آخور الكبير أتابك العساكر بالديار المصرية بعد موت الأتابك قائم المؤيدي الآتي ذكره في الوفيات إن شاء الله تعالى.

وأنعم السلطان بإقطاع يلبي على الأمير بردك هجين أمير جاندار وأنعم بإقطاع بردك هجين على الأمير نانق شاد الشراب خاناه.

وفي يوم الخميس حادي عشرين صفر استقر الشهابي أحمد بن العيني أمير آخور كبيرًا بعد الأتابك يلبي.

وفيه استقر الأمير خشكلدي البيسقي أحد أمراء العشرات شاد الشراب خاناه بعد نانق المحمدي المقدم ذكره.

قلت: وعلى كل حال خشكلدي أليق لهذه الوظيفة من نانق.

وفي يوم الأحد رابع عشرينه ورد الخبر بموت الأمير برسباي الجاسي نائب الشام الآتي ذكره في الوفيات.

وفي يوم الخميس ثامن عشرينه رسم السلطان بانتقال الأمير بردك الظاهري نائب حلب من نيابة حلب إلى نيابة الشام عوضًا عن برسباي الجاسي واستقر نانق الظاهري أحد المقدمين مسفره.

واستقر في نيابة حلب عوضًا عن بردك يشبك الجاسي نائب حماة واستقر مسفره الشرفي يحيى بن يشبك الفقيه الدوادر الكبير.

واستقر تتم الحسيني الأشرفي ثاني رأس نوبة في نيابة حماة عوضًا عن يشبك الجاسي واستقر مسفرة تمر من محمود شاه الظاهري والي القاهرة.

واستقر الأمير تنبك المعلم الأشرفي عوضه رأس نوبة ثانيًا.

واستقر الأمير مغلبي مملوك السلطان قديمًا في حسبة القاهرة عوضًا عن خشكلدي.

وفي يوم الأحد ثامن شهر ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي على العادة وقاسى من حضر المولد من الأجلاب شدائد.

وفي يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول استقر نانق المحمدي المقم ذكره أمير حاج المحمل واستقر الأمير سيباي الظاهري الأمير أخور الثالث أمير الركب الأول واستقر الأمير دمرdash السيفي تغري بردي البكلمشي نائب قلعة حلب بعد عزل الشيباني.

وفي يوم السبت ثالث عشرينه ابتدأ السلطان بالحكم بين الناس لا بالإسطنبول السلطاني في يومي السبت والثلاثاء على قاعدة ملوك السلف ولم يقع له ذلك من يوم تسلطن لأن سلاطين زماننا هذا صاروا يجلسون بالدكة من الحوش السلطاني بقلعة الجبل ويتعاطون الأحكام بين الناس فلم يحتج الملك مع جلوسه بالحوش إلى النزول بالإسطنبول للحكم.

وكانت قاعدة ملوك السلف ممن أدركنا وسمعنا الاحتجاب عن الناس بالكلية ولم يقدر أحد من المماليك السلطانية أن يدخل الحوش بحاجة أو غير حاجة إلا بقماش الموكب ولا يجتمع أحد بالسلطان بالدهيشة والحوش إلا الخصيصين به لا غير ومن كان له مع السلطان حاجة يجتمع به في القصر السلطاني ليالي المواكب وأيام المواكب فهذا المقتضى كان يحتاج السلطان إلى النزول إلى الإسطنبول السلطاني للحكم بين الناس وإنصاف المظلوم من الظالم ويكون ذلك في الغالب أيام الشتاء وتكون مدة الحكم في يومي السبت والثلاثاء نحو شهرين وقد فهمت الآن معنى قولنا: " ولم يحكم السلطان بين الناس من يوم تسلطن " أعني بذلك نزوله إلى الإسطنبول أنتهى.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر شهر ربيع الآخر نزل السلطان إلى رماية البركة لصيد الكراكي وغيرها على العادة وهذا أيضًا أول نزوله إلى الصيد من يوم تسلطن وعاد من يومه وشرق القاهرة.

ثم تكرر من السلطان نزوله إلى الصيد في هذه السنة غيرمرة.

وفي هذه الأيام كانت واقعة أصباي البواب مع القتيلين اللذين قتلها وقد حكينا واقعة في " الحوادث " .

وفي يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى ثارت المماليك الأجلاب بالقلعة في الأطباق ومنعوا الناس من الطلوع إلى الخدمة السلطانية وطلبوا زيادة جوامك وكسوة وعليق ووقع أمور ثم وقع الأمر على شيء حكيناه بعد وهن في المملكة.

وفي يوم الخميس سادس عشره استقر القاضي ولي الدين الأسيوطي أحد نواب الحكم قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية بعد شغور القضاء عن أبي السعادات البلقيني أيامًا كثيرة.

وفي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة استقر جانبك الظاهري أحد الدوادارية الصغار في نيابة قلعة دمشق بعد عزل الصارمي إبراهيم بن بيغوت.

وفي يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الآخرة خرج الحاج الرجبي من القاهرة وأميره علان الأشرفي والعمدة في الركب المذكور على القاضي زين الدين بن مزهر كاتب السر الشريف لعظمة سار فيها وتجمل زائد إلى الغاية وفعل في هذه السفره أفعالاً جميلة حكيت عنه وشكرت.

وفي يوم الاثنين حادي عشر رجب أدير المحمل ولعبت الرماحة على العادة.

واستهل شعبان نذكر فيه نادرة وهي أن أرباب التقويم كانوا اجتمعوا على أن آخر مدة الملك الظاهر خشقدم في السلطنة تكون إلى ثامن عشر شهر رجب من هذه السنة فمضى رجب ولم يحصل للسلطان تكدير ولا نكد مؤلم ولا ضعف لزم منه الفراش ولا نوع من الأنواع المشوشة واستهل شعبان هذا وهو في أحسن حال وأخزي الله ك هؤلاء الكذبة الفسقة المدعين علم الغيب تعالى الله أن يظهر على غيبه إلا من أراد من أصلياته وأوليائه.

ثم استهل شوال يوم الثلاثاء ففيه أيضًا نكتة نذكرها وهي أنه كان في العام الماضي أول شوال يوم الجمعة فتشاءم الناس بذلك على الملك من وقوع خطبتين في نهار واحد ولم يقع إلا الخير والسلامة فاعتمد على أن هذا الكلام من الهذيان وما أعلم الذي قال ذلك أولاً ما دليله مع أن الخطبة من أعظم السنن ويحصل بها التذكير والخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والخشوع ورقة القلب فعلى هذا كلما تكررت في اليوم تكرر الخير والبركة والأجر وما أظن قائل هذا أولاً إلا رجلاً منافقاً يكره السنة وإلاقتداء بها انتهى.

وفي يوم الاثنين سابع شوال استقر الأمير شرف الدين موسى بن كاتب غريب أستاذًا عوضًا عن الأمير زين الدين يحيى.

وفي يوم السبت تاسع عشره خرج أمير حاج المحمل بالمحمل وهو نانق الظاهري وسيباي أمير الركب الأول.

بيوم الأحد وبوافقه تاسع مسرى.

ففي يوم السبت سابعه الموافق لخامس عشر مسرى أوفى النيل ستة عشر ذراعًا وسبعة أصابع ونزل السلطان الملك الظاهر خشقدم وعدى النيل وخلق المقياس وعاد وفتح خليج السد على العادة.

وفي يوم الخميس ثاني عشره ورد الخبر من نائب حلب يشبك الجاسي أن شاه سوار نائب أبلستين خرج عن طاعة السلطان ويريد المشي على البلاد الحلبية فرسم السلطان

في الحال بخروج نائب طرابلس ونائب حماة إلى جهة البلاد الحلبية لمعاونة نائب حلب إن حصل أمر.

ثم عين السلطان تجريدة من مصر إلى جهات البلاد الحلبية إن ألجأت الضرورة إلى سفرهم والذين عينهم في هذه التجريدة من أمراء الألوف: الأتابك يلباي وأمير سلاح قرقماس وأمير مجلس تمرغا وقاني بك المحمودي ومغلباي طاز المؤيدي وذكر أنه تعين عدة كبيرة من أمراء الطبلخانات والعشرات وألف مملوك من المماليك السلطانية.

هذا والسلطان قد بدأ فيه التوعك من يوم عاشوراء وهذا المرض الذي مات فيه.

ثم لهج السلطان بعزل يشبك البجاسي نائب حلب وتولية الأمير مغلباي طاز المؤيدي المقدم ذكره عوضه في نيابة حلب.

ثم في يوم الخميس تاسع عشره ورد الخبر بأن إقامة الحاج التي جهزت من القاهرة أخذت عن آخرها أخذها مبارك شيخ بني عقبة بمن كان معه من العرب وأنه قتل جماعة ممن كان مع الإقامة المذكورة منهم جارقطلو السيفي دولات باي أحد أمراء آخورية السلطان فعظم ذلك على السلطان وزاد توعكه وعلى الناس قاطبة وضر أخذ إقامة الحاج غاية الضرر وأشرف غالبهم على الموت.

فلما كان يوم الجمعة العشرين من المحرم وصل الحاج الرجبي وعظيم من كان فيه زين الدين بن مزهر كاتب السر المقدم ذكره وأمير حاج الركب الأول سيباي إلى بركة الحاج معًا بعد أن قاست الحجاج أهوالاً وشدائد من عدم الميرة والعلوفة وقلة الظهر ودخل نانق أمير الحاج من الغد.

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرين المحرم عين السلطان الأمير أربك رأس نوبة النوب الظاهري والأمير جانبك حاجب الحجاب الأشرفي المعروف بقلقسيص وصحبتهما أربعة من أمراء العشرات وهم دولات باي أبو بكري المؤيدي وقطلباي الأشرفي وتنبك الأشرفي وتغري بردي الطياري وعدة مماليك من المماليك السلطانية لقتال مبارك شيخ عرب بني عقبة ومن معه من الأعراب وكتب السلطان أيضًا لنائب الكرك الأمير بلاط ونائب غزة الأمير إينال الأشقر بالمسير إلى جهة الأمير أربك بعقبة أيلة ومساعدته على قتال مبارك المذكور وخرج الأمير أربك بمن عين معه من القاهرة في يوم الاثنين سابع صفر.

كل ذلك والسلطان متوعك بالإسهال وهو لا ينقطع عن الخروج إلى الجوش بل يتجلد غاية التجلد حتى إنه عمل الموكب في هذا اليوم بالقصر لأجل خروج الأمير أربك وهذا آخر موكب عمله الملك الظاهر خشقدم بالقصر السلطاني.

فلما كان يوم الخميس عاشر صفر أرجف بموته وأشيع ذلك إشاعة خفيفة في السنة العوام.

فلما كان يوم الجمعة حادي عشره خرج السلطان الملك الظاهر خشقدم إلى صلاة الجمعة من باب الحریم ماشيًا على قدميه من غير مساعدة وعليه قماش الموكب الفوقاني والسيف والكلفتاة على العادة وصلى الجمعة وسنتها قائمًا على قدميه هذا وقد أخذ منه المرض الحد المؤلم وهو يستعمل التجلد وإظهار القوة إلى أن فرغت الصلاة وعاد إلى الحریم ماشيًا أيضًا ولكن القاضي الشافعي أسرع في الخطبة والصلاة إلى الغاية حسبما كان أشار إلى السلطان بذلك بحيث إن الخطبة والصلاة كانت على نحو ثلاث درج رمل وبعض دقائق.

فلما عاد السلطان من الصلاة إلى الحرم سقط مغشيًا عليه لشدة ما ناله من التعب وعظم التجلد.

وهذه أيضًا آخر جمعة صلاها ولم يخرج بعدها من باب الحرم لا إلى صلاة ولا إلى غيرها وصارت الخدمة بعد ذلك في الحرم بقاعة البيسرية.

ثم أصبح السلطان في يوم السبت ثاني عشره رسم بالمناداة بشوارع القاهرة بأن أحدًا لا يخرج بعد صلاة المغرب من بيته ولا يفتح سوقي دكانه وهدد من خالف ذلك فلم يلتفت أحد إلى هذه المناداة وعلم أن المقصود من هذه المناداة عدم خروج المماليك في الليل وتوجه بعضهم لبعض لإثارة فتنة.

وفي هذه الأيام ورد الخبر من دمشق بأن الأمير بردبك نائب الشام خرج من دمشق بعساكرها في آخر المحرم إلى جهة حلب لمعاونة نائب حلب على قتال شاه سوار.

ثم في يوم الاثنين رابع عشر صفر عمل السلطان الخدمة بقاعة البيسرية من الحرم السلطاني لضعفه عن الخروج إلى قاعة الدهيشة وحضرت الأمراء المقدمون وغيرهم الخدمة السلطانية بالبيسرية ولكن بغير قماش وعلم السلطان على عدة مناشير ومراسيم دون العشرين علامة ولكن ظهر عليه المرض لكنه يتجلد ويقوم لمن دخل إليه من القضاة والعلماء.

فلما كان يوم الجمعة ثامن عشره لم يشهد فيه صلاة الجمعة وصلت الأمراء بجامع القلعة على العادة.

وبعد أن فرغت الصلاة دخلوا عليه وسلموا عليه واستوحشوا منه وجلسوا عنده إلى أن أسقاهم مشروب السكر وانصرفوا.

ثم في آخر يوم الاثنين حادي عشرينه وجد السلطان في نفسه نشاطًا فقام وتمشى خطوات فتباشر الناس بعافيته.

كل هذا وهو مستمر في أول النهار وفي آخره يعلم على المناشير والمراسيم لكن بحسب الحال تارة كثيرًا وتارة قليلًا.

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرينه لم يحضر السلطان فيه الصلاة أيضًا لثقله في المرض ودخلوا إليه الأمراء بعد صلاة الجمعة وجلسوا عنده وفعل معهم كفعله في الجمعة الماضية.

واستهل شهر ربيع الأول يوم الخميس والسلطان ملازم للفراش والناس في أمر مريح من توقف الأحوال لا سيما أرباب الحوائج الواردون من الأقطار.

هذا وجميع نواب البلاد الشامية قد خرجوا من أعمالهم إلى البلاد الحلبية لقتال شاه سوار بن دلغادر ما خلا جكم نائب صفد ونائب غزة قد خرج أيضًا إلى جهة العقبة لقتال مبارك شيخ عرب بني عقبة فبهذا المقتضى خلا الجو للمفسدين وقطاع الطريق وغيرهم بالدرب الشامي والمصري ومع هذا فالفتن لم تزل قائمة بأسفل مصر الشرقية والغربية وأيضًا بأعلى مصر الصعيد الأدنى والأعلى وتزايد ذلك بطول مرض السلطان.

وبينما الناس في ذلك ورد الخبر من يشبك من مهدي الظاهري الكاشف بالصعيد أن يونس بن عمر الهواري خرج عن طاعة السلطان وقاتل يشبك المذكور وقتل من عسكره

عدة كبيرة وانكسر يشبك منه بعد أن جرح في بدنه ثم أنهى يشبك أنه يريد ولاية سليمان بن الهواري عوضًا عن ابن عمه يونس وأنه يريد نجدة كبيرة من الديار المصرية.

فرسم السلطان في الحال بولاية سليمان بن عمر وتوجه إليه بالخلعة قجماس الظاهري ورسم السلطان بتعيين تجريدة إلى بلاد الصعيد.

فلما كان يوم السبت عين السلطان التجريدة المذكورة إلى بلاد الصعيد وعليها الأمير قرقماس الجلب الأشرفي أمير سلاح ويشبك من سلمان شاه الفقيه الدوادر الكبير ومن أمراء العشرات خمسة نفر: قلمطاي الإسحاقى وأرغون شاه أستاذار الصحبة ويشبك الإسحاقى وأيدكي ويشبك الأشقر والخمسة أشرفية وجماعة كبيرة من المماليك السلطانية أشرفية كبار وأشرفية صغار ونزل الأمير نقيب الجيش إلى المعينين وأمرهم على لسان السلطان بالسفر من يومهم إلى الصعيد فاعتذروا بعدم فراغ حوائجهم لكون الوقت يومًا واحدًا.

فلما كان آخر هذا النهار أرجف يموت السلطان فماجت الناس وكثر الهرج بشوارع القاهرة ولبس بعض المماليك آلة الحرب فاستمرت الحركة موجودة في الناس إلى قريب الصباح.

وأصبح في يوم الأحد رابع الأول و السلطان في قيد الحياة غير أنه انحط في المرض انحطاطًا يشعر العارف بموته ونودي في الحال بالأمان والبيع والشراء ودقت البشائر بعافية السلطان في باكر النهار وفي آخره أيامًا كثيرة وصار السلطان أمره إلى التلف وهم على ذلك.

فلما كان عصر نهار الأحد المذكور نزل الأمير تنبك المعلم الأشرفي الرأس نوبة الثاني إلى الأمير قرقماس أمير سلاح على لسان السلطان وأمره بالخروج إلى السفر من وقته بعد أن ذكر له كلاً ما حسناً من السلطان فخرج قرقماس من وقته وكذلك يشبك الفقيه الدوادر وتبعهما من بقي ممن عين إلى السفر ونزلوا إلى المراكب ووقفوا بساحل النيل ينتظرون من عين معهم من المماليك السلطانية فلم يأتهم أحد.

كل ذلك والسلطان صحيح الذهن والعقل يفهم الكلام ويحسن الرد وينفذ غالب الأمور وبولي ويعزل والناس لا تصدق ذلك وأنا اشاهده بالعين.

هذا والسلطان يستحث من ندب إلى الصعيد بالسفر في كل يوم.

وأصبح السلطان في يوم الاثنين على حاله وحضر عنده بعض أمراء وعلم على دون عشرة مناشير ومراسيم وهو في غاية من شدة المرض.

فلما نجزت العلامة استلقى على قفاه فرأيت وجهه كوجه الأموات.

وانفض الناس وخرجوا.

فلما كان بعد الظهر طلع إلى السلطان بعض أمراء الألوفا والأعيان وسلم عليه فيشكا إليه السلطان ما أشيع عنه من الموت ثم قال: " أنا ما أموت حتى أموت خلائق وأنا أعرف من أشاع هذا عني " يعني بذلك الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار.

قلت: قد عرفت الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار وأمرهما وما وقع في مرض السلطان من أوله إلى آخره في تاريخنا " الحوادث " وليس ما نذكر هنا إلا علم خبر لا غير انتهى.

ثم طلع القاضي كاتب السر بعد ظهر يوم الأحد المذكور وأحضر آلة العلامة فلم يطق السلطان أن يعلم شيئاً وقيل: إنه علم على أربعة مناشير وقيل غير ذلك وقيل إنه لم يطق الجلوس إلا بشدة.

هذا مع التجلد الذي لا مزيد عليه وكان هذا دأبه من أول مرضه إلى أن مات التجلد وعدم إظهار العجز ولله دره ما كان أجلده.

وبات السلطان في تلك الليلة على حاله والناس في أمره على أقوال كثيرة.

هذا وهو يستحث على سفر الأمراء المعينين إلى الصعيد والقصاد منه ترد إليهم وهم يعتذرون عن السفر بعدم حضور من عين معهم من المماليك السلطانية فيأمر بالمناداة بسفرهم فلم يخرج أحد.

فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء سادسه طلع الأمير الكبير يلبي إلى السلطان ومعه خجداشه قاني بك المحمودي وجانبك كوهية والثلاثة أمراء ألوف مؤبدية.

فلما دخلوا على السلطان لم ينهض إليهم للجلوس بل استمر على جنبه لشدة مرضه وشكا إليهم ما به فتألموا لذلك ودعوا له.

ثم أمر السلطان وهو على تلك الحالة أن ينادى بسفر العسكر إلى الصعيد.

ثم خلع على يوسف بن فطيس أستاذار السلطان بدمشق بمشيخة نابلس.

وخرج الناس من عند السلطان ولم يعلم شيئاً.

وهذا أول يوم منع السلطان فيه العلامة من يوم مرض إلى هذا اليوم.

وأصبح يوم الخميس تامنه وقد اشتد به المرض وبئس الناس منه وكذلك يوم الجمعة ولكن عقله واع ولسانه طلق وكلامه كلام الأصحاء.

وأصبح يوم السبت عاشر شهر ربيع الأول وهو في السياق.

فلما كان ضحوة النهار المذكور حدثت أمور ذكرناها في تاريخنا " الحوادث " .

واجتمع الأمراء الأكابر بمقعد الإسطبل السلطاني عند الأمير آخور الكبير والأمير آخور المذكور حس بلا معنى ليس له في المجلس إلا الحضور بالجتة وجلس الأتابك يلبي في صدر المجلس وبإزائه الأمير تمرغبا أمير مجلس وهو متكلم القوم ولم يحضر قرقماس أمير سلاح لإقامته بساحل النيل كما تقدم.

وحضر جماعة من أمراء الألوف وكبير الظاهرية الخشقدمية يوم ذاك خيربك الدوادر الثاني وأخذوا في الكلام إلى أن وقع الاتفاق بينهم على سلطنة الأتابك يلبي ورضي به عظيم الأمراء الظاهرية الكبار الأمير تمرغبا أمير مجلس وكبير الظاهرية الصغار الخشقدمية خيربك الدوادر وجميع من حضر وكان رضاء الظاهرية الكبار بسلطنة يلبي بخلاف الظن وكذلك الظاهرية الصغار.

ثم تكلم بعضهم بأن القوم يريدون من الأمير الكبير أن يحلف لهم بما يطمئن به قلوبهم وخواطرهم فتناول المصحف الشريف بيده وحلف لهم يميناً بما أرادوه ثم حلف الأمير تمرغبا أمير مجلس وشرح اليمين وكيفيته معروفة فإنه يمين لتمشية الحال.

وأرادوا خيربك أن يحلف فقال ما معناه: " نحن نخشاكم فحلفناكم فنحن نحلف على ماذا "

ثم انفض المجلس ونزل الأتابك يلباي إلى داره وبين يديه وجوه الأمراء.

ولم يحضر الأمير قايتبای الظاهري معهم عند الاتفاق واكتفى عن الحضور بكبيرهم الأمير تمرغا الظاهري كل ذلك قبل الظهر بيسير.

فلم يكن بعد أذان الظهر إلا بنحو ساعة رمل لا غير ومات السلطان بقاعة البيسرية بعد أذان الظهر بدرجات.

وفي حال وفاته طلعت جميع الأمراء إلى القلعة وأخذوا في تجهيز السلطان الملك الظاهر خشقدم رحمه الله تعالى وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه بباب القلعة من قلعة الجبل كل ذلك قبل أن تباع العساكر يلباي المذكور بالسلطنة كما سنذكره في سلطنة الأتابك يلباي.

وهذا الذي وقع من تجهيز السلطان وإخراجه قبل أن يتسلطن سلطان بخلاف العادة فإن العادة جرت أنه لا يجهز سلطان إلا بعد أن يتسلطن سلطان غيره ثم يأخذون بعد ذلك في تجهيزه انتهى.

ولما صلي عليه بباب القلعة وحمل نعشه وعلى نعشه مرقعة الفقراء ساروا به إلى أن أنزلوه من باب المدرج ولم يكن معه كثير خلق بل جميع من كان معه أمام نعشه وحوله وخلفه من الأمراء والخاصكية دون العشرين نفرًا والأكثر منهم أجناد فإنه لم ينزل معه أحد من أمراء الألوف كما هي العادة ولا أحد من المباشرين غير الأمير شرف الدين بن كاتب غريب الأستاذار وجماعة من أمراء الطيلخانات والعشرات.

وساروا به وقد ازدحمت الناس والعوام حول نعشه إلى أن أوصلوه إلى تربته ومدرسته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر ودفن بالقبة التي بالمدرسة المذكورة وحضرت أنا دفنه رحمه الله تعالى.

ولم تتأسف الناس عليه يوم موته ذاك التأسف العظيم لكن تأسفوا عليه بعد ذلك تأسفًا عظيمًا لما تسلطن بعده الأتابك يلباي بل عظم فقده عند سلطنة يلباي على الناس قاطبة.

ومات الملك الظاهر خشقدم رحمه الله تعالى وسنه نحو خمس وستين سنة تخمينًا هكذا أملى علي من لفظه بعد سلطنته.

وكان الملك الظاهر رحمه الله تعالى سلطانيًا جليلًا عظيمًا عاقلًا مهابةً عارفًا صبورًا مدبرًا سيوسًا حشمةً متجملًا في ملبسه ومركبه وشأنه إلى الغاية بحيث إنه كان لا يعجبه من البعلبكي الأبيض إلا ما تزيد قيمته على ثلاثين دينارًا فما بالك بالصوف والسمور وغير ذلك.

وكان يقتني من كل شيء أحسنه وكان مع هذا التأنق لائقًا في شكله وملبسه ومركبه نشأ على ذلك عمره كله أعرفه جندبًا إلى أن صار سلطانيًا وهو متجمل في ملبسه على ما حكيناه.

وكان مليح الشكل للطول أقرب أعني معتدل القامة نحيف البدن أبيض اللون تعلوه صفرة ذهبية حسنة كبير اللحية تضرب إلى شقرة قد شاب أكثرها حسن فيها وكان رشيق الحركات خليقًا للملك عارقًا بأنواع الملاعب كالرمح والكرة وسوق المحمل له عمر كبير في ذلك أيام شبوبيته وله مشاركة في غير ذلك من أنواع الملاعب جيدة.

وكان له إلمام ببعض القراءات وبحث مع الفقهاء وله فهم وفوق بحسب الحال.

وكان كثير الأدب ويجل العلماء ويقوم لغالبهم إن قدم أحد منهم عليه مع حشمة كانت فيه وأدب في كلامه ولفظه.

وكان يتكلم باللغة العربية كلامًا يقارب الفصاحة على عجمة كانت في لسانه قليلة وذلك بالنسبة إلى أبناء جنسه.

وكان يميل إلى جمع المال ويشره في ذلك من أي وجه كان جمعه وله في ذلك أعدار كثيرة مقبولة وغير مقبولة.

وعظم في أواخر عمره من سلطنته وضخم وكبرت هيئته في قلوب عساكره ورعيته لبطن صار فيه وإقدام على المهولات مع دربة ومعرفة فيما يفعله فإن كان المسيء ممن يتلافى أمره زجره ولقنه حجتة بدرية ولباقة وإن كان ممن لا يخاف عاقبته قاصصه بما يردع به أمثاله من الضرب المبرح والنفي وعد ذلك من معاييه.

يقول من قال: " القوة على الضعيف ضعف في القوة " .

ومن ذلك أيضًا أنه كان في الغالب يقدم على ما يفعله من غير مشورة ولا تأن ولهذا كانت أموره تنتقض في بعض الأحيان بل في كثير من الأحيان.

ومما كان يعاب به عليه إمساكه وتشويش المماليك الذين كان اشتراهم في سلطنته الأجلاب مع أنه رحمه الله تعالى كان كثيرًا ما ينهاهم عن أفعالهم القبيحة ويردع بعضهم بالحبس والضرب والنفي وأنواع النكال وهذا بخلاف من كان قبله من الملوك.

وكان له عذر مقبول في إنشائه هذه المماليك الأجلاب لا ينبغي لي ذكره يعرفه الحاذق.

ومن كل وجه فالمال محبوب على كل حال.

وبالجملة إنه كانت محاسنه أضعاف مساوئه وأيامه غرر أيام لولا ما شان سؤدده وممالكه ولله در القائل: الطويل ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء فخراً أن تعد معاييه وعلى كل وجه هو من عظماء الملوك وأجلاتهم وأخفهم وطأة مع شدة كانت فيه ولين وتكبر واتضاع وبخل وكرم فمن أصابه شره يلجأ لله ويجعل أجره على الله تعالى ومن أمطره خيره ورفده فليترحم عليه وأنا ممن هو بين النوعين لم يطرقني شره ولا أمطرني خيره غير أنه كان معظماً لي وكلامي عنده مقبول وحوائجي عنده مقضية وما قلته فيه فهو على الإنصاف إن شاء الله تعالى وبعد كل شيء فرحمه الله تعالى وعفا عنه.

وكانت مدة سلطنته على مصر ست سنين وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا بيوم سلطنته انتهى.

السنة الأولى من سلطنة الظاهر خشقدم وهي سنة خمس وستين وثمانمائة على أن السنة المذكورة حكم فيها ثلاثة ملوك: حكم الأشرف إينال من أولها إلى أن خلع نفسه وولي والده الملك المؤيد أحمد في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة ومات من الغد في يوم الخميس وحكم ولده الملك المؤيد أحمد من رابع عشر جمادى الآخرة إلى يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان.

ثم حكم في باقي السنة الملك الظاهر خشقدم إلى آخرها.

فيها توفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله الإينالي المؤيدي المعروف بقرقاش حاجب الحجاب بجزيرة قبرس في الغزاة من غير جراح بل مرض نحو عشرة أيام ومات في أول المحرم.

وقد عرفنا أحواله في تاريخنا " المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي " وأيضًا في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " بما فيه كفاية عن ذكره ثانيًا هنا.

ومات وقد زاد سنه على الستين وكان مخلطًا في أموره يقبل المدح والذم.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله النوروزي أحد أمراء الطبلخانات ونائب الإسكندرية بها في يوم السبت مستهل صفر وقد ناهز الثمانين من العمر.

وكان من مماليك الأمير نوروز الحافظي المتغلب على دمشق وولي أيام أستاذه نيابة بعلبك ولهذا كان يعرف بنائب بعلبك.

وكان من خيار أبناء جنسه.

كان شجاعًا مقدامًا كريمًا متواضعًا دينًا خيرًا قل أن ترى العيون مثله.

وتوفي الشيخ الصالح الزاهد العابد المعتقد عمر بن أبي بكر بن أحمد اليميني نزيل مكة في سحر ليلة الأربعاء ثالث شهر ربيع الأول بمكة ودفن بمقابر باب شبكية.

وكان فردًا في كثرة العبادة والزهد وقد سألت عنه بمكة من صاحبنا القدوة أحمد الفوي أعاد الله علينا من بركاته فقال: " هذا يشبه بعباد بني إسرائيل ".

وتوفي الشيخ الإمام العالم العلامة أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي البجائي المغربي المالكي غريبًا ببعض أعمال حلب وهو في الكهولية.

وكان إمامًا في المعقول والمنقول وشهرته القوية بالأول.

كان إمامًا في النحو والمنطق وعلم المعاني والبيان والأصليين والطب والحكمة وعلوم الأوائل.

وكان إذا حقق مسألة فقهية كان إلى كلامه المنتهى.

وبالجملة إنه كان نادرة من النوادر رحمه الله.

وتوفي الشيخ الإمام العالم الفقيه عز الدين محمد بن محمد بن عبد السلام أحد نواب الشافعية في ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر وكان آخر من حضر دروس الشيخ سراج الدين عمر البلقيني رحمه الله تعالى.

وتوفي السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال العلاني ثم الظاهري سلطان الديار المصرية في يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى وقد تقدم ذكره.

وتوفي جمال الدين جميل بن أحمد بن عميرة بن يوسف المعروف بابن يوسف شيخ العرب ببعض إقليم الغربية والسخاوية بالوجه البحري في جمادى الأولى وقد جاوز الستين.

وتوفي الزيني مرجان بن عبد الله الحصني الحبشي الطواشي مقدم المماليك السلطانية في آخر يوم الأحد ثاني جمادى الآخرة ودفن من الغد وقد ناهز الستين من العمر كان ضيقاً في مبدأ أمره وقاسى خطوب الدهر ألواناً وتغرب واحتاج في غربته إلى التكدى والسؤال ثم حسنت حاله وخدم عند خلائق من الأمراء إلى أن تحرك له بغيض سعد وترقى إلى أن ولي نيابة المقدم ثم التقدمة.

فلما ولي لم يراع النعمة بل أخذ في الإسراف على نفسه فما عفا ولا كف ودام على ذلك إلى أن مات وعلى كل حال فمستراح منه وهو ممن يقال في حقه: " يأكل ما كان وبضيق بمكان ".

وتوفي الوزير صاحب سعد الدين فرج بن مجد الدين ماجد بن النحال القبطي المصري بطالاً بالقاهرة في ليلة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة وقد جاوز الستين من العمر بعد أن ولي كتابة المماليك والوزير والأستادارية غير مرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين كزل بن عبد الله السوداني المعلم أحد أمراء العشرات في يوم السبت ثاني عشرين جمادى الآخرة ودفن من الغد بتربته التي أنشأها بالصحراء وسنه نحو التسعين سنة تخميناً وقد انتهت إليه رئاسة الرمح وتعليمه في زمانه.

وكان أصله من مماليك سيدي سودون نائب الشام قريب الملك الظاهر برقوق وقد ذكرنا من أمره نبذة في ترجمة الملك الظاهر في " المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي " رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير زين الدين فيروز بن عبد الله الطواشي الرومي النوروزي الزمام والخازندار في يوم الخميس رابع عشرين شعبان وقد شاخ وجاوز الثمانين من العمر.

وكان من عتقاء الأمير نوروز الحافظي نائب الشام ثم وقع له بعد موت أستاذه محن وخطوب ذكرناها في غير موضع من مصنفاتنا وليس هذا المحل محل إطناب في التراجم وإنما هو إخبار بما وقع وحدث على سبيل الاختصار في هذه الترجمة وغيرها.

ومات فيروز هذا بعد مرض طويل ودفن بتربته التي أنشأها بالصحراء وخلف مالا كثيراً لم يظفر السلطان إلا ببعضه وهو نحو المائة ألف دينار أو أزيد.

وكان رأساً في البخل والشح يمشي من طبقته بقلعة الجبل إلى السلطان بالدهيشة وإذا صلى الفريضة صلى جالساً إن صلى.

وتوفي الأمير شرف الدين يونس الأقبائي الدوادر الكبير بعد مرض طويل في يوم الأربعاء ثاني عشرين شهر رمضان ودفن من يومه بتربته التي أنشأها بالصحراء وقد جاوز الستين من العمر ولم يخلف بعده مثله سوؤداً وكرماً وحشمةً وشجاعةً ورئاسةً.

وبالجملة إنه كان به تجمل في الزمان رحمه الله تعالى.

وكان أصله من عتقاء الأمير آقباي المؤيدي نائب الشام حسبما ذكرنا محاسنه في غير موضع من تواريخنا.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله الأوبكري المؤيدي أتاك حلب بها في أواخر شهر رمضان وهو مناهز الستين من العمر.

وأصله من عتقاء الملك المؤيد شيخ.

وقد ولي أتاكية حلب غير مرة وولي في بعض الأحيان نيابة حماة ثم نقل إلى مقدمة ألف بدمشق ثم إلى أتاكية حلب.

وكان عاقلًا حشمتًا حسنة من حسنات الدنيا.

وتوفي الأمير سيف الدين خشكلدي بن عبد الله الكوجكي أحد أمراء طرابلس في أواخر شهر رمضان.

وكان له شهرة وولي نيابة حمص في وقت من الأوقات.

وتوفي الوزير تاج الدين بن عبد الوهاب بن الشمس نصر الله ابن الوجيه توما القبطي الأسلمي الشهير بالشيخ الخطير وهو لقب لوالده نصر الله بعدما شاخ في يوم الأربعاء خامس ذي القعدة.

وكان معدودًا من الكتبة وياشر الوزر بعجز لكنه كف عن المظالم فهو أحسن الوزراء سيرة والسداد ميسر.

وتوفي قاضي القضاة ولي الدين أحمد ابن القاضي تقي الدين ابن العلامة بدر الدين محمد ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي قاضي قضاة دمشق معزولاً بها بعد مرض طويل في ذي القعدة ومولده بالقاهرة في سنة أربع عشرة وثمانمائة.

وكان رحمه الله تعالى عالمًا فاضلاً ذكيًا فصيح العبارة مستقيم الذهن طلق اللسان جهوري الصوت مليح الشكل خطيبًا بليغًا مفوهًا كثير الاستحضار للشعر وأنواعه نادرة في أقاربه وأبناء جنسه إلا أنه كان قليل الحظ عند الملوك والأكابر كما هي عادات الدهر من تقديم الجهلاء وتأخير الفضلاء.

وتوفي الأمير سيف الدين خيربك بن عبد الله النوروزي بعد عزله عن نيابة صفد وتوجهه إلى دمشق أميرًا بها.

وكان يلي المناصب الجليلة بالبذل لعدم أهليته فإنه كان لا للسيف ولا للضيف.

وتوفي الشيخ المعتقد الصالح المجذوب أحمد بن خضر السطوحي المعروف بالشيخ خروف في يوم السبت سابع ذي الحجة ودفن بزاويته عند جامع ملكتمر الشيخوني المعروف بالجامع الأخضر بطريق بولاق.

وكان للناس فيه اعتقاد وكان يعجني حاله في المجاذيب رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي أفضل الدين محمود بن عمر القرمي الأصل الحنفي الفقيه المشهور أحد نواب الحكم الحنفية بالديار المصرية وهو عائد من مجاورته بمكة بالقاع الكبير في ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة وحمل إلى منزلة بدر فدفن بها وهو في عشر السبعين.

وكان معدودًا من فقهاء السادة الحنفية وله اشتغال قديم وفضل ومشاركة وناب في الحكم زيادة على ثلاثين سنة مع أدب وحشمة.

▲ أمر النيل في هذه السنة

: الماء القديم ستة أذرع ونصف.

مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعًا وواحد وعشرون إصبغًا.

وثبت إلى أيام من توت ومع هذا الثبات شرق بلاد كثيرة من عدم إتقان الجسور ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

السنة الثانية من سلطنة الظاهر خشقدم وهي سنة ست وستين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير سيف الدين بيبرس بن أحمد بن بقر شيخ العربان بالشرقية من أعمال القاهرة بالوجه البحري وقد ناهز السبعين من العمر في يوم الأربعاء مستهل صفر بالقاهرة.

وكان مشكور السيرة نادرة في أبناء جنسه رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الرباني الصوفي المعتقد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الفوي الشافعي نزيل القاهرة بها في ليلة السبت سلخ شهر ربيع الأول وهو في الثمانين تخمينًا ودفن من الغد بالصحراء.

وكان من تلامذة الشيخ المسلك إبراهيم بن عمر بن محمد الإدكاي وخدم غيره أيضًا من الصالحين.

وكان رحمه الله تعالى أحد من أدركنا من أرباب الصلاح والخير عفا الله تعالى عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين قاني باي بن عبد الله الجاركسي الأمير آخور الكبير كان بثغر دمياط بطالًا في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر وحمل ميتًا من دمياط إلى القاهرة فغسل بها وكفن وصلي عليه بمصلاة المؤمني وحضر السلطان الملك الظاهر خشقدم الصلاة عليه ودفن بترته التي جدها وبنها بالقرب من دار الضيافة.

وكان أستاذه الأمير جاركس القاسمي المصارع مدفونًا بها.

ومات قافي باي هذا وقد ناهز الثمانين من العمر وكان أصله من ممالك الأتابك يشبك الشعباني وأنعم به على الأمير جاركس القاسمي المصارع فأعتقه جاركس واستمر بخدمته إلى أن قتل في سنة عشر وثمانمائة وصار من جملة المماليك السلطانية.

ثم صار خاصكيًا بعد موت الملك المؤيد شيخ وعاش على ذلك دهرًا طويلًا إلى أن صار أمر الملك إلى الملك الظاهر جقمق في دولة الملك العزيز يوسف بن الملك الأشرف برسباي وأنعم عليه بإمرة عشرة لكونه من ممالك أخيه جاركس القاسمي وكان جاركس أكبر في السن من أخيه الملك الظاهر جقمق.

فلم يكن إلا مدة يسيرة وتسلطن الملك الظاهر جقمق وقرب قاني باي هذا ورقاه وجعله شاد الشراب خاناه وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف ودام على وظيفته وهو من جملة المقدمين ثم جعله دوادارًا كبيرًا ثم أمير آخور كبيرًا.

ونالته السعادة وعظم في الدولة الظاهرية حسبما ذكرنا أموره مفضلة في تاريخنا " الحوادث " ودام على ذلك إلى أن مات الملك الظاهر جقمق وتسلطن ولده الملك المنصور عثمان وخرج عليه الأتابك إينال العلاني وتسلطن عوضه فأمسك قاني باي هذا وحبسه بالإسكندرية سنين كثيرة إلى أن أخرجه الملك الظاهر خشقدم في أول سلطنته وسيره إلى دمياط بطالاً فدام بها إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وكان خيرًا دينًا سليم الباطن مع طيش وخفة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين تمرباي بن عبد الله من حمزة الناصري المعروف بتمرباي ططر أحد مقدمي الألو في ليلة السبت ثامن عشر من جمادى الآخرة وقد ناهز الثمانين.

وكان تركي الجنس من مماليك الملك الناصر فرج ونزل به الدهر ثم عاد إلى بيت السلطان وترقى ثانيًا إلى أن صار أمير مائة ومقدم ألف في دولة الملك الظاهر خشقدم.

وكان من المهملين المساكين.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الجكمي نائب ملطية بها في شهر ربيع الآخر وقد أسن لأنه من مماليك الأمير جكم من عوض نائب حلب كان.

وتوفي غيث بن ندى بن نصير الدين شيخ العربان بأحد جهات إقليم مصر ودفن خارج القاهرة في يوم الاثنين خامس شهر رجب وكان موته بعد قتل ابنه حمزة وسلخه بأثنين وعشرين يومًا ومستراح منه ومن ابنه حمزة ولله الحمد على موتهما.

وتوفي الأمير سيف الدين حاج إينال اليشبكي نائب حلب بها في ليلة الخميس سابع عشرين شعبان بحلب ودفن في يوم الخميس وقد قارب الستين من العمر أو جاوزها.

وكان أصله من مماليك الأمير يشبك الجمكي أمير آخور وولي حلب عوضه الأمير جانبك التاجي المؤيدي.

وكان إينال هذا ولي عدة أعمال بالبلاد الشامية: حماة وطرابلس وحلب غير أنه لم تسبق له رئاسة بمصر قط.

وكان لا بأس به لكنه لم يحمده الحليون في ولايته عليهم.

وتوفي الأمير سيف الدين تنبك بن عبد الله الأشرفي المعروف بالصغير أحد أمراء العشرات ورأس نوبة قتيلًا بيد العربان بالبحيرة وقد ذكرنا واقعته وكيفية قتله في " الحوادث " وكذلك الأمير سنطباي قرا الظاهري رحمه الله تعالى.

وتوفي المقام الناصري محمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال العلاني بثمر الإسكندرية في يوم الخميس مستهل ذي الحجة وعمره نحو سبع عشرة سنة وهو شقيق الملك المؤيد أحمد أمهما خوند زينب بنت بدرالدين بن خاص بك.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وعشرة أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعًا وستة أصابع.

وثبت إلى أواخر توت على نحو ثمانية عشر ذراعًا.

وهي سنة سبع وستين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير الطواشي عنبر الطنبذي الحبشي نائب مقدم المماليك السلطانية بطالاً في يوم السبت ثامن المحرم.

وكان من أصاغر أبناء طائفته.

كان من عتقاء التاجر نور الدين علي الطنبذي وبنى مدرسة بخط سوق الغنم قبل موته بمدة يسيرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جانم بن عبد الله الأشرفي نائب الشام قتيلاً بيد بعض مماليكه بمدينة الرها في ليلة الثلاثاء تاسع عشرين شهر ربيع الأول وهو نزيل حسن بك بن فرايلك صاحب ديار بكر.

وقد تقدم من ذكره في أول سلطنة الملك الظاهر هذا ما يغني عن التعريف بأمره ثانياً هنا.

وكان جانم رجلاً للقصر أقرب وفيه حدة مزاج وسرعة حركة مع تدين وجودة ومحبة للفقهاء والفقراء وأرباب الصلاح مع كرم وأدب وحشمة ورئاسة وعفة عن القاذورات والفواحش رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة شيخ الإسلام سعد الدين سعد ابن قاضي القضاة شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر بن مصلح بن أبي بكر بن سعد العيسوي الديري المقدسي الحنفي قاضي قضاة الديار المصرية وعالمها معزولاً عن القضاء بداره بمصر القديمة في ليلة الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني ودفن بتربة السلطان الملك الظاهر خشقدم بالصحراء.

ومولده بيت المقدس في شهر رجب سنة ثمان وستين وسبعمائة وبها نشأ وسمع الحديث على جماعة ذكرناهم في ترجمته في تاريخنا " المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي " وحفظ القرآن العزيز وعدة متون في الفقه وتفقه بأبيه وغيره إلى أن برع في الفقه وأصوله.

وأما فروع مذهبه والتفسير فكان فيهما آية من آيات الله ومات وقد انتهت إليه رئاسة الفقه في مذهبه شرقاً وغرباً مع أنه كان رأساً أيضاً في حفظ التفسير وله مشاركة في عدة فنون وبالجملة فإنه مات ولم يخلف بعده مثله رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين شاد بك بن عبد الله الصارمي نائب غزة بها في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الأول وقد قارب الستين.

وكان من عتقاء المقام الصارمي إبراهيم ابن الملك المؤيد شيخ المحمودي وكان ولي غزة بالبذل ومات قبل أن يستوفي ما بذله في ولايتها وخلف عليه ديوتاً عفا الله تعالى عنه.

وتوفيت خوند بنت السلطان الملك الظاهر جقمق زوجة الأمير أربك من ططخ الظاهري أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية في عصر يوم الاثنين عاشر جمادى الأولى وحضر السلطان الصلاة عليها بمصلاة المؤمني ودفنت عند أبيها بتربة الأمير قاني باي الجاركسي.

وكان موتها في غياب زوجها كان مسافرًا في السرحة وماتت وسنها دون ثلاثين سنة وأما خوند مغل أخت القاضي كمال الدين بن البارزي وهي في قيد الحياة.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله القوامي المؤيدي أحد أمراء العشرات بالقاهرة في يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الأولى وحضر السلطان الملك الظاهر خشقدم الصلاة عليه بمصلاة المؤمني وقت العصر.

وكان من عتقاء الملك المؤيد شيخ وكان من الخيرين الساكنين.

وتوفي الإمام علاء الدين علي المغربي الحنفي إمام الملك الأشرف إينال في يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة وهو في عشر الستين من العمر.

وكانت لديه فضيلة مع وسوسة وطيش وخفة وإسراف في الحال.

وبالجملة إنه كان من المخلطين رحمه الله تعالى.

وتوفي عظيم الدولة ومدبر المملكة الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الظاهري الدوادار الكبير المعروف بنائب جدة قتيلًا بيد المماليك الأجلاب باب القلة داخل قلعة الجبل وقت صلاة الصبح من يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة وقد ذكرنا قصة قتله في " الحوادث " مستوفاة لكن نذكرها هنا جملة وهي أنه ركب من بيته سحريوم الثلاثاء المذكور بغلس بعد صلاة الصبح بغير قماش الموكب ومعه نحو خمسة نفر وطلع إلى القلعة ومشى بمن كان معه إلى أن وصل إلى باب القلة فسلم على مقدم المماليك ثم مشى إلى أن جاوز العتبة الثانية من باب القلة والتفت عن يمينه إلى الجهة الموصلة إلى القصر السلطاني فوجد هناك جماعة من المماليك السلطانية الأجلاب فظن أن وقوفهم هناك لأجل أخذ الأضحية السلطانية على العادة في كل سنة فسلم عليهم فردوا عليه السلام بأعلى أصواتهم كما يفعلون ذلك مع أعيان الأمراء بطريق التجمل.

ثم مشى إلى أن التفت إلى نحو العتبة التي تكون على شماله تجاه باب الجامع الناصري فرأى على درجات الباب المذكور جماعة من المماليك الأجلاب من أول الدرج إلى آخرها فسلم عليهم كما فعل مع من صدفه منهم قبلهم فلم يرد أحد منهم السلام.

وحال أن وقع بصرهم عليه نزلوا إليه دفعة واحدة وأحاطوا به ونزلوا عليه من جهاته الأربع بالسيوف وغيرها وهرب من كان معه إلى جهة الحوش السلطاني والدهيشة.

ولما ضرب على رأسه سقط في الحال من وقته وضربه آخر في خاصرته بالسيف ثم نهض وارتكن بجائط الجامع ثم سقط من وقته فسحبه بعضهم برجله إلى طريق المطبخ فوجد به رمقًا فألقى على رأسه حجرًا هائلًا رضح رأسه فمات من وقته.

وكان مقدار قتله كلها من أول الإحاطة به إلى أن خرجت روحه دون نصف درجة رمل.

ولما تحققوا قتله أخذوا ما كان عليه من القماش وغطوه بحصير ورجعوا إلى باب القلة ليلقوا من ندبوا إلى قتله أيضًا من خجداشيته فوافوا الأمير تتم رصاص الظاهري المحتسب وأحد أمراء الطليخانات قد أقبل في أثر الأمير جانبك المذكور فقصدوه فاستجار بمقدم المماليك أو بجماعة من إنياته فلم يغنوا عنه شيئًا وتناولته الأيدي بالضرب فهج فيهم وخرج من بينهم وهو بغير سلاح ومضى إلى جهة القصر وهم في أثره في الظلام.

ثم عاد وهم في أثره إلى جهة الجامع حيث قتل الأمير جانبك وقد ظفر منهم بعصاة فضربهم بها ودفع عن نفسه مع كثرة عددهم وكاد أن ينجو منهم فبادره بعضهم وضربه بسيف ضربة طارت يده منها ثم تكاثروا عليه بالضرب حتى ظنوا أنه مات فحملته إنياته إلى طبقته وبه رمق وأخذوا في مداواة جراحه فمات بعد قليل ذلك والنجوم ظاهرة بالسماء.

ولما وقع هذا أغلقت أبواب القلعة وماجت الناس وذهب كل واحد من الأمراء والخاصكية إلى جهة من جهات القلعة.

وأما السلطان فإنه كان جالسًا بقاعة الدهيشة والشمعة تقدر بين يديه بعد أن صلى الصبح فدخل إليه جانم دودار الأمير جانبك المذكور ولم يعلم جانم بقتل أستاذه وعرف السلطان أن المماليك الأجلاب منعت أستاذه من الدخول إلى السلطان فسكت السلطان لعلمه بباطن الأمر.

ثم قال بعد ساعة: " أيش الخبر " فقال له بعض من حضر من الأمراء: " خير " فقال غيره: " وأي خير " والقائل الأول جانبك كوهية والثاني مغلبي طاز وكلاهما مؤيدي.

ثم سكتوا فقال الأمير يلباي المؤيدي الأمير آخور الكبير: " ما بقي اليوم خدمة " فقال السلطان: " بلى نخرج إلى الحوش ".

وخرج إلى الحوش وجلس على الدكة وذلك بعد طلوع الشمس وجميع أبواب الحوش والقلعة مغلقة.

فجلس السلطان ساعة وليس عنده الصحيح من خبر جانبك إلى أن جاءه نائب المقدم وغيره وأعلموا السلطان سرًا بواقعة الأمير جانبك وقتله فقال السلطان إلى الخازندار: " أخرج ثوبين بعلبكيا لتكفين الأمير جانبك وتتم رصاص ".

ثم أمر السلطان الأمير جانبك كوهية الدودار الثاني أن يخرج ويتولى أمرهما وتجهيزهما والصلاة عليهما فخرج وفعل ذلك وصلى عليهما بباب القلعة ووجههما على نعوشهما إلى محل دفنهما وليس معهما كثير ناس بل جميع من كان معهما دون عشرة نفر فدفن الأمير جانبك بترتبه التي أنشأها خارج باب القرافة ودفن الأمير تنم عند ليث بن سعد.

وكثر أسف الناس على الأمير جانبك إلى الغاية وعظمت مصيبته على أصحابه وخجداشيته وانطلقت الألسنة بالوقية في السلطان ورثاه بعضهم وقالت المذاكرة في أمره قطعًا في كيفية قتله وفي عدم وفاء السلطان على ما كان قام بأمره حتى سلطنه وثبت قواعده ملكه.

واضطرب ملك الملك الظاهر خشقدم بقتله وخاف كل أحد من خجداشيته وغيرهم على نفسه وماجت المملكة وكثر الكلام في الدولة ووقع أمور بعد ذلك ذكرناها في وقتها ليس لذكرها هنا محل انتهى.

ومات الأمير جانبك رحمه الله تعالى وهو في أوائل الكهولية غير أنه كان بادره الشيب ببعض لحيته.

وكان رحمه الله تعالى أصله جاركسي الجنس وجلب إلى الديار المصرية وتنقل من ملك واحد إلى آخر ذكرنا أسماءهم في ترجمته في غير موضع من مصنفاتنا إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق في أيام إمرته وأعتقه.

فلما تسلطن جعله خاصكيًا وقربه ولازال يرقيه حتى أمره وولاه بندر جدة.

ونالته السعادة في أيام أستاذه وعظم وضخم ونهض في إمرة جدة بحيث إنه صار في وقته حاكم الحجاز جميعه حتى مات في دولة أستاذه وفي دولة غيره وقد حررنا ذلك جميعه في " الحوادث " وغيره.

وعظم بآخره عظمة زائدة لا سيما لما ولي الدوادارية الكبرى في دولة الملك الظاهر خشقدم وصار هو مدير المملكة وشاع ذكره وبعد صيته حتى كاتبه ملوك الأقطار من كل جهه وقطر.

وأما ملوك اليمن والحجاز والهند فإنه أوقفني مرّةً على عدة كثيرة من مكاتبات ملوك الهند وبعضها مشتمل على نظم ونثر وفصاحة وبلاغة وأما ما كان يأتيه من ملوك الهند من الهدايا والتحف فشيء لا يحصر كثرةً.

وتضاعفت الهدايا له في هذه الدولة أضعاف ما كان يهدى إليه أولاً وقال له الدهر: خذ فأخذ وأعطى حتى أسرف ويذر بحيث إنه لم يكن أحد من خجداشيته وغيرهم من كثرتهم له مال إلا من إنعامه عليه أو هو ساكن في بيت أنعمه عليه.

والذي أعرف أنا أنه وهب تسعة دور من بيوت مقدمي الألوف بالديار المصرية على تسعة نفر من خجداشيته الأكابر الأمراء وغيرهم وقس على هذا من الخيول والقماش.

وكان في مجاورتي بمكة في سنة ثلاث وستين يلازمني وألازمه في الحرم كثيرًا ولم أنظره تصدق على أحد فيما تصدق به أقل من عشرة أشرفية هذا مع اقتنائه من كل شيء أحسنه وأجمله وأكثره لاسيما بركه وخيمه فكان إليها المنتهى في الحسن يضرب بها المثل.

وبكفيك من علو همته أنه أنشأ بداره بستانًا أزيد من مائة فدان بابه الأول من داره قريب من خط قناطر السباع وبابه الآخر تجاه الروضة ثم أنشأ له تلك القبة العظيمة والرصيف الهائل تجاه الروضة.

وبالجملة والتفصيل إن بابه كان محط الرحال وملجأ الطالبين الملهوفين ونصرة المظلومين وكثرة المحتاجين فإنه كان يعطي إلافين دينارًا دفعة واحدة إلى ما دونها وكان يعطي من المغل ألف إردب دفعة واحدة أيضًا في يوم واحد إلى ما دونها إلى عشرة أراذب وأعطى في يوم واحد لبعض أعيان خجداشيته مائة ناقة أتباعها يعرف هذا كل أحد فقس على كرمه أيها المتأمل ما شئت أن تقيس.

ثم اعلم أنه لم يخلف بعده مثله وإن أشكل عليك هذا القول فسل من أحد من أمرائك العصريين عشرة من إابل فإن أعطاك فاشكر مولاك واعلم أن الناس فيهم بقية كرم وإن لم يعطك فاشهد بصدق مقالتي.

وعل كل حال إنه كان ملكًا كريمًا جليلاً مهابًا شهيمًا عارفًا حازقًا فطنًا فصيح العبارة في اللغة العربية والتركية بالنسبة لأبناء جنسه.

وكان قصير القامة مع كيس في قده وظرف في تناسب أعضائه بعضها لبعض.

وكان سيوسيًا حسن التدبير ومن حسن سياسته أنه لم ينحط قدره بعد زوال دولة أستاذه الملك الظاهر جقمق بل زادت حرمة أضعاف ما كانت في أيام أستاذه مع كثرة حكام

الدولة الأشرفية الإينالية وتفرق كلمتهم فساس كل واحد بحسب حاله وأقام في دولتهم عظيمًا مبخلًا وبوجوده كان أكبر الأسباب في إعادة دولة خجداشيته بعد موت الملك الأشرف إينال.

وبالجملة إنه كان نادرة من نوادر دهره رحمه الله تعالى.

وقد استوعبت أحواله في غير هذا المصنف بأطول من هذا بحسب الباعثة والقريحة ورثيته بقصيدة نونية في غاية الحسن عفا الله عنه وصالح عنه أخصامه بمنه وكرمه.

وتوفي الأمير سيف الدين تم رصاص من نخشايش الظاهري المحتسب أحد أمراء الطبلخانات قتيلاً بيد المماليك الأجلاب مع الأمير جانبك الدوادار وقد تقدم ذكر قتله فيما تقدم.

وكان تم هذا من عتقاء الملك الظاهر جقمق وخاصكيته وترقى بعد موته إلى أن ولي حسبة القاهرة في أواخر دولة الملك الأشرف إينال ثم صار أمير عشرة في أوائل دولة الملك الظاهر خشقدم ثم نقل إلى إمرة طبلخاناه ودام على ذلك إلى أن قتل في التاريخ المذكور في قصة الأمير جانبك وهو يوم الثلاثاء أول ذي الحجة.

وكان شابًا مليح الشكل شجاعًا عارفًا كريمًا لسنًا متحررًا حاضر الجواب وكان أحد أعوان الأمير جانبك الدوادار في مقاصده رحمهما الله تعالى وعفا عنهما أجمعين.

وتوفي القاضي شمس الدين محمد بن أحمد القرافي المالكي أحد نواب الحكم المالكية وأعيان الفقهاء بالديار المصرية في ليلة الاثنين رابع عشر ذي الحجة ودفن صبيحة يومه بالقرافة وقد جاوز السبعين من العمر.

وكان له اشتغال كثير في ابتداء أمره وعمل جيد مع ذكاء وحسن تصور لا سيما في باب التوريق وصناعة القضاء والشروط رحمه الله تعالى وعفا عنه.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع وعشرون إصبغًا.

مغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا وسبعة أصابع.

وهي سنة ثمان وستين وثمانمائة.

فيها توفي قاضي القضاة بدرالدين حسن بن محمد بن أحمد بن الصواف الحنفي الحموي قاضي قضاة حماة ثم الديار المصرية إلى أن مات في يو الأحد رابع المحرم ودفن من الغد في يوم الاثنين وسنه نحو الستين سنة تخمينًا.

وكان أصله من حماة من أولاد التجار واشتغل بالعلم في مبدأ أمره يسيرًا ثم مال إلى المتجر وتحصيل المال إلى أن حصر على جانب كبير منه.

وولي قضاء حماة بالبذل سنين كثيرة وطال تكراره إلى القاهرة غير مرة وأخذ منه بوسائط جمل مستكثرة من المال غصبًا ورضًا.

ثم قدم القاهرة في سنة ست وستين لأمر من الأمور وحصل بينه وبين قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفي شنان بواسطة صهارة فسعى عليه وعزله وولي عوضه في ثاني عشرين شهر رجب من سنة سبع وستين إلى أن مات في المحرم من هذه

السنة بعد أن مرض نحو الشهر فكانت مدته كلها في القضاء خمسة أشهر وأيامًا بما فيها أيام مرضه ولقد تعب بولايته وأتعب واستراح بموته وأراح.

وتوفي السلطان الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن السلطان الملك الأشرف أبي النصر برسباي الدقماقي الظاهري بعد خلعه من السلطنة بسنين كثيرة بثغر الإسكندرية في يوم الاثنين تاسع عشر المحرم وهو في أوائل الكهولية لأن مولده بقلعة الجبل في سلطنة أبيه في سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأمه خوند خلبان أم ولد لأبيه جاركسية تزوجها أستاذها الملك الأشرف بعد أن ولدت الملك العزيز هذا وماتت أيام والده الأشرف ونشأ الملك العزيز تحت كف والده بالدور السلطانية إلى أن عهد له أبو الأشرف بالسلطنة في مرض موته ومات بعد أيام.

وتسلطن العزيز هذا بعد عصر نهار السبت ثالث عشر ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وهو السلطان الثالث والثلاثون من ملوك الترك بالديار المصرية وأولادهم والتاسع من الجراكسة وأولادهم.

وتم أمره في الملك وصار الأتابك جقمق مديبر مملكته وفرق النفقة على المماليك السلطانية كل واحد مائة دينار لا يتنفل أحد على أحد كائنًا من كان على قاعدة الملوك العظام بخلاف من جاء بعده من الملوك.

ودام في الملك إلى أن وقع بين الأتابك جقمق وبين ممالك أبيه لإشرفية أمور آلت إلى خلعه من السلطنة وسلطنة الأتابك جقمق عوضه في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة فكانت مدة ملكه نحوًا من خمسة وتسعين يومًا ليس له فيها إلا مجرد الاسم فقط.

وبعد خلعه من الملك رسم له بالسكن في قاعة من الحريم السلطاني بقلعة الجبل فسكن بها إلى أن حسن له بعض حواشيه التسحب منها والنزول من القلعة إلى القاهرة لتثور ممالك أبيه به على الملك الظاهر جقمق ففعل ذلك وتزيا في نزوله في زي بعض صبيان الطباخين ونزل بعد الفطر وقت صلاة المغرب إلى القاهرة من باب المدرج وكانت أيام شهر رمضان فنزل ولم يفطن به أحد لاشتغال الخدام وغيرهم بالفطر.

فلما نزل إلى تحت القلعة لم ير شيئًا مما قيل له فندم على نزوله وبقي لا يمكنه العود إلى مكانه فاختفى من وقته هو ومملوكه أزدمر وطواشيه صندل وطباخه إبراهيم ووقع له وللناس في اختفائه أمور ومحن ونكبت جماعة كثيرة من الناس بسببه وضرب جماعة من ممالك أبيه بسببه بالمقارع والكسارات ووسط بعضهم وقلق الملك الظاهر جقمق بسببه قلقًا زائدًا.

وضاقت الدنيا على الملك العزيز يوسف وتفرقت عنه أصحابه إلى أن ظفر به الملك الظاهر جقمق في أواخر شوال وكان الذي أمسكه الملك الظاهر يلباي وكان يوم ذاك أمير عشرة فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بقربة سرباقوس زيادة على ما بيده لكونه قبض على الملك العزيز في الليل وطلع به إلى السلطان.

ولما ظفر به الملك الظاهر جقمق حبسه بالدور السلطانية ثم بعثه إلى سجن الإسكندرية فحبس بها إلى أن أطلقه الملك الظاهر وخشقدم في أوائل سلطنته هو والملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق.

وسكن العزيز بدار في الإسكندرية إلى أن مات بها في التاريخ المقدم ذكره بعد أن قضى من عمره أيامًا عجيبة من حبس وقهر وتنغص عيش عوضه الله الجنة بمنه وكرمه.

وتوفي الشيخ الصالح المعتقد المجفوب بن إبراهيم البباني الكردي بسكنه بجامع قيّدان على الخليج بالقرب من قناطر الإوز خارج القاهرة في ليلة الجمعة سلخ محرم هذه السنة وصلي عليه ثلاث مرار مرة بجامع قيّدان حيث كان سكنه ووفاته ومرة في الطريق ومرة حيث دُفن بتربة الملك الظاهر حُشَقَدَم في الصحراء وكانت جنازته مشهودة إلى الغاية بحيث إن نعشه رُفِعَ على الأصابع من كثرة الناس مع هذا المدى البعيد ومات وقد جاوز السنين.

وكان أصله ببائنا - طائفة من الأكراد - وُلِدَ هناك وقَمَ القاهرة ونزل صوفيًا بخانقاه سعيد السعداء ودام على ذلك دهرًا إلى أن ظن منه نوع من الجنون الذي يسميه الفقراء جَدْبَةً فنقله أهل الخانقاه عنهم فسكن بدار ثم انتقل إلى جامع قيّدان فدام به سنين كثيرة وبه اشتهر بالصلاح وقصدته الناس للزيارة والتبرك بدعائه مع أنه كان لا يقبل من أحد شيئًا إلا نوع الأكل.

وكانت جَدْبَتُهُ غير مطبقة لأنه كان لا يخل بالمكتوبة بل يغتسل في الغالب لكل صلاة صيفًا وشتاءً.

وكان له في مبدأ أمره اشتغال ببلاده ولم يبلغني من كراماته شيء.

وبَيَّان ببائين ثاني الحروف مفتوحين وبعدهما ألف ونون ساكنة - أظنها قبيلة في الأكراد - رحمه الله تعالى.

وَتُوفِّيَ المقام الشهابي أحمد ابن الملك الأشرف بَرَسْبَاي الدُقْمَاقِي الظاهري بدار عمّه زوج أمه الأمير قرقماس الأشرفي أمير سلاح بخط التبتانة خارج القاهرة في يوم السبت سابع شهر ربيع الأول وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني ودفن بتربة واللي الملك الأشرف بَرَسْبَاي بالصحراء في قَسْقِيَّة واحدة.

وَبِمَوْتِ أحمد هذا انقرضت فرية الملك الأشرف بَرَسْبَاي لصلبه وكان سيدي أحمد هذا أصغر أولاد الملك الأشرف تركه حملًا وأمّه أم ولد جاركسية تزوجها الأمير قَرَقْمَاس الأشرفي الجَلَب وهو الذي تولى تربيته إلى أن كبر.

وماتت أمه فلم يتركه قَرَقْمَاس واستمر عنده وبهذا المقتضى لم يقدر أحد من السلاطين أن يأخذه منه ويرسله إلى ثغر الإسكندرية.

ولما كبر أراد غير واحد من الملوك أن يرسله إلى الإسكندرية عند أخيه الملك العزيز يوسف المقدم ذكر وفاته في هذه السنة فقال قَرَقْمَاس: " إذا خرج أحمد هذا إلى جهة من الجهات أخرج أنا أيضًا معه فسكت القائل.

ولا زال الشهابي أحمد مقيمًا بالقاهرة إلى أن صار في حدود الرجال غير أنه لم ينظره أحد قط ولم يخرج من بيته قط لأمر من الأمور حتى ولا إلى صلاة الجمعة ولا إلى العيدين بل يسمع الناس به ولا يروته إلى أن مات.

ومع هذا كله كانت الملوك مطمئنة بإقامته بالقاهرة لحسن طاعة قَرَقْمَاس للسلاطين.

وكان على ما قيل شابًا طويلاً جميلاً فاضلاً عارفاً وله محبة في الفضيلة ومطالعة الكتب ويكتب المنسوب.

وكان موته بعد أخيه العزيز من النوادر فإنه عاش بعد موت أخيه العزيز شهرًا وثمانية عشر يومًا والعجيب أنهما شابان كاملان مَاتَا في هذه المُدَّةِ اليسيرة من غير طاعون وإنما هي آجال متقاربة.

ومحل الظن بالملك وأظنه بريء من ذلك اللهم إن كان وقع شيء من غير الملك من جهة النسوة أو غيرها فيمكن - رحمه الله تعالى.

وَتُوْفِّي الشَّيْخُ جمالُ الدين عبد الله ابن الشيخ الإمام القدوة المسلك الرباني نور الدين أبي الحسن علي بن أثوب الدمشقي الأصل والمولد والمنشأ المصري الدار والوفاة خادم خانقاه سعيد السعداء في ليلة الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر وصُلِّي عليه بعد أذان العصر من يوم الأربعاء المذكور بمصلاة باب النصر ودفن بمقابر الصوفية.

وكان رحمه الله تعالى له اشتغال وفضيلة مع فصاحة وطلاقة لسان ومحاضرة حسنة وكرم نفس مع العُزَّةِ والقناعة مع التجميل في ملبسه وشأنه وكان الناس في أمن من يده ولسانه - عفا الله عنه.

وتُوْفِّي الأمير سيف الدين تَمَّ بن عبد الله من عبد الرزاق المؤيدي نائب الشام بها في يوم الأربعاء ثاني عشرين جمادى الأولى ودفن بدمشق بعد يومين لأمر اقتضى ذلك لتعلق كان عليه ومات وهو في عشر السبعين.

وكان جاركسي الجنس من عتقاء الملك المؤيد شيخ وخاصيته الصغار ثم جعله خازنًا صغيرًا ومات الملك المؤيد وهو على ذلك.

ثم صار في دولة الملك الأشرف بَرَسْبَاي رأس نوبة الجمدارية ثم أمير عشرة.

ثم وُلِّي حِسْبَةَ القاهرة في أوائل الدولة الملك الظاهر جقمق ثم نقل إلى نيابة إسكندرية ثم عزل 0وقدم القاهرة.

وبعد عزله بمدة يسيرة ولي نيابة حماة فلم تطل مدته بحماة ونقل إلى نيابة حلب فلم ينتج أمره في نيابة حلب ورجم من أهلها فعزله الملك الظاهر جقمق واستقدمه إلى مصر أمير مائة ومقدم ألف بها.

ثم صار أمير مجلس ثم صار في دولة الملك المنصور عثمان أمير سلاح بعد جرباش الكريمي قاشق بحكم عزله وعجزه ودام على ذلك إلى أن كانت الفتنة بين الملك المنصور عثمان وبين أتابكه إينال العلائي فكان تتم هذا من حزب الملك المنصور بالقلعة.

فلما تسلطن الأتابك إينال حسيب تتم المذكور بثرغر لإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الظاهر خشقدم وأطلق معه الأمير قاني باي الجاركسي وسيرهما إلى ثغر دمياط بطالين.

ثم بعد مدة يسيرة أحضره الظاهر خشقدم إلى القاهرة وولاه نيابة دمشق بعد عزل الأمير جانم الأشرفي فتوجه تتم إلى دمشق وحكمها فلم تحمد سيرته وتشكر طريقته إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وكان رحمه الله تعالى له مساوئ ومحاسن وأظن الأول أكثر.

ومن غريب ما اتفق في أمره أنه لما كان محبوبًا كان رجل من أصحابه ملتفتًا إلى أمره ولما يصير من شأنه فقصد الرجل بعض المشهورين بعلم النجوم وأرباب التقويم فعمل

الرجل لتتم المذكور زايرجاة وأتقن عملها فخرج له أبيات تشعر بسلطنة تتم المذكور فجاءني الرجل وهو مسرور وحكى لي ذلك فأجبت بكلام معناه: إن هؤلاء كذبة ليس لهم معرفة بهذه الأمور وكل ما يقولونه كذب وبهتان واختلاق نصبة على أخذ إلاموال فعظم ذلك عليه فقلت له: " لي معك شرط أكتب الأبيات فإن تسلطن فهو كما تقول وإن كانت الأخرى فأكتبها في ترجمة وفاته ليكون ذلك عبرة لمن يصدق كذب هؤلاء وإن الذي في السجن لا بد أنه يكون مليكاً للأنام عزيزاً فأوله تاء وآخر اسمه على القطع ميم كن عليه حريزاً وذلك كهل يا أخي وإنه لضخم القفا والصدر فاصغ مميزاً ولا بد أن يأتي الزمان بقوة ويعلو رقاباً للعدة محيزاً فزايرجة في نظمها نطقت بذا فكن لي بهذا العلم منك مجيزاً وهذا الذي عمل هذه الزايرجة الناس مجمدون على معرفته فما العجب من كذب هؤلاء الكذبة الجهلة الأوقاح وإنما العجب من تصديق الناس لكلامهم.

وقد رأيت جماعة من ذوي العقول تقول: " صدق فلان في قوله كذا وكذا " فأقول له: " ما صدق بل حزر مرة وثانية وثالثة ورابعة فأخطأ ثم أصاب في الخامسة وكل أحد يقدر على أن يقول مثل ذلك لأن الخير والشر والولاية والعزل واقع في كل أوان وزمان وكل منتصب لا بد له من العزل أو الموت فالفرق في هذا المعنى بين العارف والجاهل بباب الحزر واضح لا يحتاج إلى بيان "

وتوفي

▲ الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله التاجي

المؤيدي المعزول عن نيابة حلب والمرشح لنيابة الشام بعد موت تتم المقدم ذكره قبل أن يخرج حلب بدار سعادتها في يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة بعد أن مرض أياماً يسيرة وهو في عشر السبعين.

وكان جاركسي الجنس من صغار ممالك الملك المؤيد شيخ وصار خاصكياً بعد موته إلى أن صار نائب بيروت في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق ثم نقل إلى نيابة غزة ثم ولي نيابة صفد ثم حماة ذلك ببذل المال لاتضاع قدره.

ثم ولي نيابة حلب بعد موت الحاج إينال الإشبيكي فباشر ذلك إلى هذه السنة.

فرسم له أن يقدم إلى الديار المصرية أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية فتهياً للخروج من حلب فمات الأمير تتم نائب الشام فأقره الملك الظاهر خشقدم عوضه في نيابة الشام فمات جانبك هذا قبل أن يصل إليه الخبر بولاية دمشق وقيل بعد وصول الخبر بيوم.

وكان متوسط السيرة في ولايته ولم تسبق له رئاسة بالديار المصرية غير الخاصكية.

وكان غالب ولاياته ببذل المال والذي يبذل المال لا بد له من الظلم.

وقد بلغنا عنه أنه كان يستعمل لقيمة الفقراء الخضراء والله أعلم بصحة ذلك.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الأبلق أحد أمراء العشرات قتيلاً بيد الفرنج في الماغوصة بجزيرة قبرس في إحدى الجمادين وقد ذكرنا سبب قتله في " الحوادث ".

وحاصل الأمر: أنه لما ملك الماغوصة مد يده لأولاد أهل الماغوصة من الفرنج فعز على الفرنج ذلك لأنه كان أخذها بالأمان فشكوا ذلك إلى صاحب قبرس جاكم الفرنجي فنهاه عن ذلك فلم ينته فوقع بينهم تشاجر أدى ذلك إلى قتله ولم ينتطح في ذلك شاتان.

وبالجملة إن جانبك المذكور كان غير مشكور السيرة في مدة إقامته بقبرس رحمه الله تعالى.

وتوفي شيخ الإسلام قاضي القضاة علم الدين صالح ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير البلقيني الكناني الشافعي قاضي قضاة الديار المصرية وعالمها في يوم الأربعاء وقت الزوال خامس شهر رجب بعد أن مرض نحو عشرة أيام ودفن من الغد بمدرسة والده تجاه داره بحارة بهاء الدين بعد أن صلي عليه بالجامع الحاكمي وتوجهوا بجنازته من طريق الجمون العتيق ودخلوا بها من باب الجامع الذي بالشارع عند باب النصر وعادوا بنعشه من الباب الذي بالقرب من باب الفتوح وأعيد إلى مدفنه وكانت جنازته مشهودة إلى الغاية.

ومات وسنه سبع وسبدون سنة لأن مولده بعد عشاء ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

وهو من جملة الفقهاء الذين قرأت عليهم القرآن في صغري لأن أختي كانت تحت أخيه قاضي القضاة جلال الدين البلقيني فكنا بهذا المقتضى كشيء واحد.

وكان إمامًا عالمًا فقيهاً درس وأفتى سنين كثيرة وناب في الحكم عن أخيه جلال الدين المذكور ثم ولي القضاء بعد ذلك غير مرة وطالت أيامه في المنصب وانتهت إليه رئاسة مذهبه في زمانه.

وقد استوعبنا حاله في عدة مواضع من مصنفاتنا ليس لذكرها في هذا المختصر محل وفي شهرته ما يغني عن الإطناب في ذكره هنا رحمه الله تعالى ورضي عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين كمشبغا بن عبد الله السيفي نخشباي نائب البيرة بها في أوائل شوال.

وكان من عتقاء الأمير نخشباي الذي ضرب الملك الظاهر جقمق رقبته.

ثم خدم كمشبغا هذا في بيت السلطان ثم صار خاصكياً ودام على ذلك دهرًا إلى أن سعى في نيابة قلعة حلب فوليها دفعة واحدة بالبذل فلم تشكر سيرته وعزل ونقل إلى البيرة فلم تطل مدته بها ومات في التاريخ المذكور.

وكان لا ذات ولا أدوات ولولا أنه ولي هاتين الولايتين ما ذكرناه هنا.

وتوفي الشيخ أبو الفضل محمد ابن الشيخ الإمام الفقيه الصالح القدوة المسلك شمس الدين محمد بن حسن المعروف والده بالشيخ الحنفي في ليلة السبت ثامن ذي الحجة بجزيرة أروى المعروفة بالوسطانية بعد مجيئه من الوجه البحري وحمل من الجزيرة في باكر نهار السبت المذكور وصلي عليه ودفن بزاوية أبيه خارج قنطرة طقزدمر وهو في عشر الستين من العمر.

وكانت لديه فضيلة وله اشتغال بحسب الحال ولكنه لم يكن أمينًا على الأوقاف عفا الله تعالى عنه بمنه وكرمه.

وتوفي الوزير علاء الدين علي ابن الحاج محمد الأهناسي بمكة المشرفة بطالاً في حياة أبيه في ثاني عشرين ذي القعدة.

ومات وهو في أوائل الكهولية.

وقد ولي علي هذا الوزر والأستادارية والخاص غير مرة.

وعلي هذا وأبوه محمد هما من أطراف الناس الأوباش المعدودة رئاستهم من غلطات الدهر وقد ذكرنا من أحوال علي هذا وولاياته نبذة كبيرة في تاريخنا " الحوادث " تغني عن العيادة هنا انتهى رحمه الله تعالى.

وتوفي السلطان صارم الدين إبراهيم بن محمد بن علي بن قرمان صاحب بلاد الروم قونية ولارنده وقيسارية وغيرها في أواخر ذي القعدة أو أوائل في الحجة وقد ناهز الستين من العمر بعد أن ولي بلاد قرمان أكثر من خمس وأربعين سنة وتولى بعده ابنه إسحق في لغتهم إسحق ووقع الخلف بسبب ولاية إسحق بين أولاده.

وبنو قرمان هؤلاء من أصلاء الملوك كابرًا عن كابر أبًا عن جد فصاعدًا إلى السلطان علاء الدين السلجوقي.

وقيل إن بني قرمان هؤلاء من ذرية بايندر أحد أكابر أمراء جانكزخان ملك الترك الأعظم.

وتوفي القاضي شمس الدين محمد ابن الشيخ بدر الدين محمد بن السحماوي الشافعي أحد أعيان موقعي الدست الشريف بالديار المصرية في ليلة السبت خامس عشر ذي الحجة ودفن صبيحة يوم السبت المذكور عن اثنتين وثمانين سنة.

وكان لديه فضيلة وعنده حشمة وأدب وتواضع.

وباشر التوقيع أزيد من خمسين سنة وخدم بالتوقيع عند جماعة من أعيان الأمراء آخرهم الملك الظاهر خشقدم إلى أن تسلطن رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين طوخ بن عبد الله الحكمي الرأس نوبة الثاني كان وأحد أمراء الطيلخانات بطالاً بعد ما كف بصره في ليلة الأربعاء تاسع عشر ذي الحجة ودفن من الغد بالصحراء وقد زاد سنه على الثمانين ولم يحج حجة الإسلام.

وكان أصله من مماليك حكيم المتغلب على حلب.

وكان من مساويء الدهر لا يصلح لدين ولا لدنيا وكان مسرفًا على نفسه ما أظنه ترك الشرب إلا في مرض موته.

ولم يحج حجة الإسلام مع طول عمره وسعة ماله ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اللهم وفقنا لما تحب وترضى يا رب العالمين.

وتوفي الأمير سيف الدين بردبك بن عبد الله الأشرفي الدوادار الثاني كان قتيلًا بيد العربان بالقرب من منزلة خليص في عوده من الحج في يوم الاثنين سادس عشر ذي الحجة وقد ناهز الخمسين أو جاوزها.

وكان أصله من سبي قبرس قبيل سنة ثلاثين وثمانمئة مراهقًا ومملكه الملك الأشرف إينال أيام إمرته ورباه وأعتقه وأعله خازنداره وزوجه بابنته الكبرى ثم جعله دواداره.

ولما تسلطن أمره وجعله دوادارًا ثالثًا ثم جعله دوادارًا ثانيًا ونالته السعادة.

وعظم في الدولة وقصده الناس لقضاء حوائجهم وشاع ذكره وبعد صيته وحمدت سيرته وعمر الجوامع في عدة بلاد وله مآثر وذكر في الصدقات والإعطاء.

ودام على الدوادارية إلى أن نكب ابن أستاذه السلطان الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف إينال وخلع من السلطنة وأمسك برديك هذا وصور وأخذ منه نحو من مائتي ألف دينار ووقع له أمور.

وبالجملة إنه كان لا بأس به لولا محبته لجمع المال من أي وجه كان رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الفقيه العالم المقرئ تاج الدين محمد بن أحمد الفطيسي الإسكندري المالكي إمام السلطان ومدرس الحديث بالظاهرة العتيقة.

مات في نصف ذي القعدة ومولده سنة خمس عشرة وثمانمائة واشتغل كثيرًا في عدة علوم لكنه لم يكن ماهرًا في غير القراءات وحصلت له وجهة آخر عمره.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله اليشبيكي التركماني المعروف بسودون قندورة أحد مقدمي الألوف بدمشق وأمير حاج المحمل الشامي بعد خروجه من المدينة الشريفة إلى جهة الشام في أواخر ذي الحجة أو في المحرم وقد زاد سنه على الستين.

وكان من ممالك الأمير يشبك الحكمي الأمير آخور وبقي بعد أستاذه من جملة ممالك السلطان.

ودام على ذلك دهرًا طويلًا لا يلتفت إليه إلى أن تحرك له بعض سعد وانتهى للصاحب جمال الدين ناظر الخاص ابن كاتب حكم بواسطة خدائشه جانبك اليشبيكي والي القاهرة فولى بعض قلاع البلاد الشامية: قلعة صفد وقلعة الشام ثم تنقل في البلاد بالبذل إلى أن صار من أمره ما كان.

ولم يكن سودون هذا من أعيان الأمراء لتشكر أفعاله أو تدم.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وخمسة عشر إصبعًا.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعًا وثلاثة عشر إصبعًا.

السنة الخامسة من سلطنة الظاهر خشقدم وهي سنة تسع وستين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير سيف الدين قاني باي طاز بن عبد الله البكتمري نائب البيرة بها في أواخر شهر ربيع الأول أو أوائل شهر ربيع الآخر وهو في الثمانين تخمينًا.

وكان أصله من ممالك بكتمر جلق الظاهري نائب الشام وصار بعد موت أستاذه من ممالك السلطان ثم نقل في أواخر عمره إلى نيابة قلعة صفد ثم إلى نيابة البيرة إلى أن مات.

وهو من مقولة سودون تركمان المقدم ذكره في السنة الخالية.

وتوفي الأمير موسى بن محمد بن موسى صاحب حلي ابن يعقوب من بلاد اليمن في شهر ربيع الآخر بمدينة حلي ابن يعقوب.

وكان معدودًا من أعيان الأمراء ومن ذوي البيوت في الممالك ولجده موسى مع الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة وقائع ذكرناها في ترجمة حسن المذكور في تاريخنا " المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي " .

وتوفي الشهاب بديد بن شكر وزير الشريف محمد بن بركات صاحب مكة في ليلة السبت السابع من جمادى الأولى بوادي الأبار من عمل مكة وحمل بقية ليلته على الرقاب إلى بطن مكة فغسل بالبيت الذي أنشأه الشريف محمد بن بركات بمكة وصلي عليه صلاة الصبح بالحرم ودفن بالمعلاة على والده.

وكانت جنازته مشهودة وأسف الناس عليه لأنه كان مقصودًا للخير ومن بقية الشيوخ والأكابر المشار إليهم.

وبديد بباء موحدة ثانية الحروف مضمومة وبعدها دال مهملة مفتوحة ثم ياء آخر الحروف ثم دال ساكتين.

وتوفي القاضي بدر الدين محمد ابن قاضي القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي في يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة وقد جاوز الخمسين من العمر ولم يخلف قاضي القضاة ولدًا ذكرًا غيره ولا أنثى وبموته انقطع نسل ابن حجر من الذكور.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الناصري نائب طرابلس بها في يوم الأربعاء حادي عشرين شهر رجب وقد جاوز السبعين من العمر.

وكان من صغار ممالك الملك الناصر فرج وعتقائه ثم خدم بعد موت أستاذه عند خجداشه الأمير برساي حاجب حجاب دمشق وبخدمته عرف بين الناس ودام بخدمته إلى أن خرج الأمير إينال الجكمي نائب الشام على الملك الظاهر جقمق وانهزم فقبض جانبك عليه وقد ذكرنا كيفية القبض عليه في غير موضع من مصنفاتنا ليس لذكرها في هذا المختصر محل فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بإمرة طبلخاناه بدمشق ثم تنقل بعد ذلك بعدة وظائف وأعمال غالبها بالبذل إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير عجل بن نعيم أمير عرب آل فضل بالبلاد الشامية وهو بطلان بالقرب من أعمال حلب.

وتوفي السلطان خليل بن إبراهيم صاحب مملكة شماخي وما والاها في السنة الخالية فيما أظن بمدينة شماخي ولم تحرر وفاته إلا في هذه السنة لبعده المسافة ومات بعد أن ملك نحو أربعين سنة.

وكان من أجل ملوك الشرق قدرًا وأحسنهم سيرة وأجودهم بضاعة وأكثرهم سياسة وأحزمهم رأيًا وهو آخر من كان بقي من أكابر الملوك وهو أحد من أوصاه السلطان مراد بك بن محمد بن عثمان ملك الروم على ولده محمد صاحب الروم في زماننا هذا وقد ذكرنا أمره محررًا في " الحوادث " رحمه الله تعالى.

وتوفي الوزير شمس الدين محمد البياوي غريقًا ببحر النيل بساحل بولاق بالقرب من فم الخور وقت المغرب من يوم الأربعاء ثامن عشرين ذي الحجة وهو في الكهولية وكان سبب موته أنه توجه في مركب عقيمة إلى ناحية طنناش بالجيزة أو غيرها وعاد فغرق من شرده ربح وافى مركبه قلبتها ولله الحمد.

وكان البياوي هذا أصله من بيا الكبرى بالوجه القبلي: كان بها خفيًا وقيل راعيًا وقيل غير ذلك وقدّم القاهرة وصار بخدمة بعض الطبّاحين مرقدًا ثم صار صبيًا عند بعض معاملي اللحم.

ولا زال ينتقل في هذه الصناعات إلى أن صار معاملاً وحسنت حاله وركب حمارًا.

ولا زال أمره ينمو في صناعته إلى أن أثرى وحصل مالًا كثيرًا وصار معول الوزراء عليه في حمل اللحم المرتب للمماليك السلطانية وبقي يركب بغلاً بنصف رحل بسلخ جلد خروف ويلبس قميصًا أزرق كأكابر المعاملين.

وسمع الملك الظاهر خشقدم بسعة ماله وكان من الخسة والطمع في محل كبير فاحتال على أخذ ماله بأن ولاه نظر الدولة في أوائل ذي الحجة من سنة سبع وستين.

ولبس البياوي العمامة والفرجية والخف والمهماز وتزيا بزّي الكتاب وترك زي المعاملين فشق ذلك على الناس قاطبة وعدوا ذلك من قبائح الملك الظاهر خشقدم لأن البياوي هذا مع انحطاط قدره وجهله ووضاعته وسفالة أصله مع عدم معرفته بالكتابة والقراءة فإنه كان أميًا لا ينطق بحرف من حروف الهجاء إلا إن كان تلقينًا ومع هذا كله كان غير لائق في زيه فباشر نظر الدولة مدة يسيرة واختفى الأمير زين الدين الأستاذار وولي الأستاذارية من بعده المجد بن البقري وشغّر الوزير عنه وطلب السلطان البياوي هذا وولاه الوزير في يوم الثلاثاء سابع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثمان وستين وثمانمائة وصار وزير الديار المصرية فلم نعلم بأقبح حادثة وقعت في الديار المصرية قديمًا وحديثًا من ولاية البياوي هذا للوزير لأنه كان أحد الأعوام الأوباش الأطراف السوقة ووثب على هذه الوظيفة العظيمة التي هي أجل وظائف الدنيا بعد الخلافة شرقًا وغربًا.

وقد وليها قديمًا جماعة كثيره بالديار المصرية وغيرها من سادات الناس من زمن عبد الملك بن مروان إلى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري وهي إلى الآن أرفع الوظائف قدرًا في سائر بلاد الله وفي كل قطر من الأقطار إلا الديار المصرية فإنه انحط بها قدرها ووليها من الأوباش وصغار الكتبة جماعة من أوائل القرن التاسع إلى يومنا هذا.

فالذي وليها في عصرنا هذا ممن لا يصلح لولايتها ابن النجار وعلي بن الأهناسي البرردار وأبوه الحاج محمد المقدم ذكره ويونس بن جريغا دوادار فيروز النوروزي وغيرهم من هذه المقولة.

ومع هذا كله بلاء أعظم من بلاء وأعظم الكل ولاية البياوي هذه فإن كل واحد ممن ذكرنا من الذين ولوا الوزير كان لكل واحد ميزة في نفسه وقد تقدم له نوع من أنواع الخدم والمباشرات إلا البياوي هذا فإنه لم يتقدم له نوع من أنواع الرئاسة.

ومع هذه المساويء باشر بظلم وعسف وعدم حشمة وقلة أدب مع الأكابر والأعيان وساءت سيرته وكثر الدعاء عليه إلى أن أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر وأراح الله المسلمين منه.

وقد هجاه الشعراء بأهاج كثيرة ذكرنا بعضها في تاريخنا " الحوادث " .

وأنا أستغفر الله من لفظة وقعت مني في ترجمته فإني قلت في آخر ترجمته: ما ولي الوزير في الدنيا أحد أحسن من البياوي هذا ولا يليها أيضًا أقبح منه إلى يوم القيامة فوليتها بعد مدة شخص من غلمانه يقال له قاسم جغيتة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم سبعة أذرع سواء.

مبلغ الزيادة لم يتحرر نذكره في السنة الآتية عند انتهاء النيل.

السنة السادسة من سلطنة الظاهر خشقدم وهي سنة سبعين وثمانمائة.

فيها توفي الأمير سيف الدين قراجا بن عبد الله العمري الناصري أحد أمراء الألواف بدمشق بها في المحرم وقد ناهز الثمانين من العمر.

وهو من مماليك الناصر فرج بن برقوق وطالت أيامه في الجندية إلى أن استقر به الملك الظاهر جقمق والي القاهرة ثم تنقل بعد ذلك في عدة ولايات إلى أن صار أحد أمراء الألواف بدمشق إلى أن مات في هذه السنة.

وكان من المهملين المسرفين على أنفسهم مع شهرة بالشجاعة.

وتوفي الأمير إسحاق بن إبراهيم بن قرمان ملك الروم غريبًا عن بلاده بديار بكر عند حسن بك بن قرابك في أوائل المحرم بعد أن وقع له أمور وحروب لما ملك الروم وخالفه إخوته وقد ذكرنا أمره في تاريخنا " الحوادث " مفصلاً.

وتوفي الأمير سيف الدين جانم بن عبد الله المؤيدي المعروف بحرامي شكل أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بعد مرض طويل وعمر طويل أيضًا.

وكان من أوباش مماليك الملك المؤيد شيخ وطالت أيامه في الخمول والفقر إلى أن جعله الملك الظاهر جقمق بوابًا وأنعم عليه بإقطاع كبير فحسن حاله وامتنع عن الشحاتة من الأكابر.

ودام على ذلك إلى أن تسلطن الملك الأشرف إينال فطلب منه إمرة فلم يعطه شيئًا فقام بين يديه في الملأ وقال: " إما توسطني أو تعطيني إمرة " فضحك الناس وشفعوا له حتى أعطاه إمرة عشرة.

ثم صار من جملة رؤوس النوب ودام على ذلك إلى أن مات.

وكان له حكايات في البخل والجنون والندالة نستحي من ذكرها.

وبالجملة إنه كان بوجوده عارًا على جنس بني آدم.

وتوفي القاضي بدر الدين حسن الرهوني المالكي أحد نواب الحكم المالكية بالقاهرة في يوم الثلاثاء أول شهر ربيع الأول وقد قارب الستين من العمر.

وكانت لديه فضيلة إلا أنه كان متهورًا في أحكامه.

وتوفي القاضي نور الدين علي بن أحمد بن محمد الشيشيني الحنبلي أحد نواب الحكم الحنابلة في صفر وقد جاوز الكهولة.

وكان فاضلاً معدودًا من فقهاء الحنابلة.

وتوفي القاضي بدر الدين محمد ابن القاضي ناصر الدين محمد المعروف بابن المخلطة المالكي السكندري الأصل المصري المولد والمنشأ والوفاة في ليلة السبت تاسع عشر ربيع الأول ودفن من الغد بالصحراء وهو في عنفوان الشبيبة.

وكان ولي نيابة الحكم بالقاهرة ثم ولي قضاء الإسكندرية وحسنت سيرته إلى أن مرض وقدم القاهرة مريضًا ولازم الفراش إلى أن مات.

وكان فاضلاً عالمًا فقيهاً أديبًا حسنة من حسنات الدهر رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ المعتقد إبراهيم الغنام بداره بالحسينية خارج القاهرة في يوم الخميس مستهل ربيع الآخر وصلي عليه برحبة بالقرب من داره ودفن بها.

وكان من المعمرين وللناس فيه اعتقاد حسن وكان يبيع لبن المعز يسوقها أمامه بالطرقات على عادة بيعة اللبن وكان مشهورًا بالصلاح.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله من أمير الأشرفي المعروف بالظريف محبوبًا بقلعة صفد في هذه السنة وقد جاوز الكهولة.

وكان من صغار ممالك الملك الأشرف برسباي وصار خاصكيًا في دولة الملك الظاهر جقمق ثم خازندارًا صغيرًا ثم دوادارًا صغيرًا ثم تأمر عشرة ثم صار خازندارًا كبيرًا في دولة الملك الأشرف إينال ثم صار في دولة الملك الظاهر خشقدم دوادارًا ثانيًا بإمرة مائة وتقدمة ألف فلم تطل أيامه فيها وقبض عليه مع من قبض عليه من خدائشيتة الأشرفية وحبس سنين إلى أن مات في السجن.

وكان شابًا خفيًا وفيه طيش مع تكبر وتعظيم وبخل زائد لكنه كان عارفًا بأنواع الملاعب كالرمح والبرجاس وغير ذلك وعلى كل حال كانت مساوئه أكثر من محاسنه.

وتوفي الأمير سيف الدين مالك أصلان بن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلغادر نائب أبلستين قتيلاً بها بيد فداوي في صلاة الجمعة بالجامع وثب عليه الفداوي وضربه بسكين كان في يده إلى أن قتله وقتل الفداوي في الوقت وقيل إن الفداوي كان أرسله الملك الظاهر خشقدم.

وحضر سيفه إلى الديار المصرية في عاشر ربيع الآخر.

وولي بعده شاه بضع أخوه ووقع بعد ذلك أمور وفتن قائمة إلى يومنا هذا.

وتوفي الشيخ الإمام الخطيب البليغ الأديب المفنن برهان الدين إبراهيم ابن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن ناصر بن خليفة بن فرج بن عبد الله بن عبد الرحمن البادوني الأصل الدمشقي المولد والمنشأ والوفاة في يوم الخميس رابع عشرين شهر ربيع الأول ودفن من يومه وقد عمر.

ومولده في سابع عشرين شهر رمضان سنة سبع وسبعين وسبعمئة ونشأ بدمشق وطلب العلم وقرأ على علماء عصره إلى أن برع في عدة فنون من فقه وعربية وأدب وغلب عليه الأدبيات والشعر.

وله نظم رائق ونثر فائق وقفت على عدة كتب من مكاتباته تدل على فضل كبير وعلم غزير واتساع باع في الأدب وأنواعه.

وله رسالة عاطلة من النقط أبدع فيها وأتى بغرائب مع عدم التكلف وخمس ألفية ابن مالك في النحو وله غير ذلك من المصنفات.

وولي خطابة دمشق ومشيخة الباسطية وسئل بقضاء دمشق فامتنع وولياها أخوه القاضي جمال الدين يوسف الباغوني.

ولم يزل الشيخ برهان الدين على أحسن طريقة إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفيت خوند شكرباي الناصرية الأحمدية زوجة السلطان الملك الظاهر خشقدم في يوم الأربعاء سادس جمادى الأولى وصلي عليها تحت طبقة الزمام تجاه باب الستارة ودفنت بترية زوجها السلطان الملك الظاهر خشقدم التي أنشأها بالصحراء.

وأنزلت من القلعة ولم يغط نعشها ببشخاناه على عادة الخوندات بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للفقراء وجعل أمام نعشها أعلام أحمدية وكان ذلك بوصية منها.

وكان أصلها جاركسية الجنس من عتقاء الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق وتزوجت بعد موت أستاذها بالأمير أبرك الجكمي واستولدها أبرك أولادًا منهم: خاتون أم الشهابي أحمد ابن العيني.

وماتت خاتون المذكورة في سلطنة الملك الظاهر خشقدم ولم يتزوج السلطان الملك الناصر غيرها إلا بعدها.

وتوفي الأمير سيف الدين كسبائي بن عبد الله الششمانى الناصري ثم المؤيدي أحد أمراء الطبلخانات في ليلة الاثنين ثالث جمادى الآخرة ودفن بتريته التي أنشأها خارج القاهرة.

وكان أصله من مماليك الملك الناصر فرج ثم ملكه الملك المؤيد شيخ وأعتقه وصار خاصكيًا بعد موته ودام على ذلك إلى أن جعله الملك الظاهر جقمق دوادارًا صغيرًا ووقع له معه أمور ومحن إلى أن صار أميرًا في دولة الملك الأشرف إينال ثم صار من أمراء الطبلخانات في دولة خدائشه الملك الظاهر خشقدم إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وكان رأسًا في فنون الفروسية عارقًا بأنواع الملاعب كالرمح والنشاب والبرجاس وغير ذلك لكنه كان عنده خفة وطيش مع سلامة باطن رحمه الله تعالى وعفا عنه.

وتوفي القاضي فخر الدين محمد بن محمد بن أحمد الأسيوطي الشافعي أحد نواب الحكم الشافعية في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة وسنه أزيد من سبعين سنة.

وقد ناب في الحكم أزيد من أربعين سنة على أنه كان قليل العلم والعمل عفا الله عنه.

وتوفي الشيخ الواعظ المذكر أبو العباس أحمد بن عبد الله المقدسي الشافعي الواعظ بعد مرض طويل بالقاهرة في ليلة الأربعاء سادس عشرين جمادى الآخرة ودفن من الغد بالقرافة الصغرى ومولده في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة هكذا ذكر لي عندما استجارني.

وكان له اشتغال قديم وغلب عليه الوعظ والتذكير وعمل المواعيد.

وكان لتذكيره تأثير في القلوب وعليه أنس وله باع واسع في الحفظ للأحاديث والتفسير وكرامات الصالحين.

وكان له في التذكير القبول الزائد من كل أحد وأثرى من ذلك وجمع المال الكثير والناس فيه على قسمين ما بين معتقد ومنتقد والظن الثاني أكثر وكنت أنا من القسم الأول لولا ما وقع له مع الحافظ العلامة برهان الدين البقاعي ما وقع وحكايته معه مشهورة أضربت عن ذكرها لقرب عهد الناس منها.

وتوفي الخادم الرئيس صفي الدين جوهر بن عبد الله الأرغوني الظاهري الساقي الحبشي الجنس رأس نوبة الجمدارية في ليلة الخميس عاشر شعبان ودفن من الغد بتربة الأمير قاني باي الجاركسي وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني.
ومات وهو في عشر الستين ولم يخلف بعده مثله دينًا وأدبًا وحشمةً ورئاسةً وتواضعًا وعقلًا.

وبالمجمل إنه كان من حسنات الدهر رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين سودون بن عبد الله المؤيدي الفقيه الأشقر أحد أمراء العشرات بعد مرض طويل في يوم الخميس سابع شهر رمضان.

وكان من عتقاء الملك المؤيد شيخ وتأمّر في دولة الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف إينال فيما أظن ودام على ذلك إلى أن مات.

وكان فقيهاً دينًا خيرًا فاضلاً رحمه الله تعالى.

وتوفي الأديب الفاضل أبو العباس أحمد بن أبي السعود إسماعيل بن إبراهيم بن موسى بن سعيد بن علي المنوفي الشافعي المعروف بابن أبي السعود الشاعر المشهور بالمدينة الشريفة في خامس عشرين شهر رمضان ومولده في شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة بمنوف العليا.

ومن شعره في مליح منجم: الوافر لمحبي المنجم قلت يومًا فدتك النفس يا بدر الكمال براني الهجر فاكشف عن ضميري فهل يومًا أرى بدري وفي لي وقد ذكرنا من شعره قطعة جيدة في " الحوادث " وغيرها.

وتوفي القاضي جلال الدين عبد الرحمن ابن الشيخ نورالدين علي ابن العلامة سراج الدين عمر بن الملقن الشافعي في صبيحة يوم الجمعة ثامن شوال وقد جاوز الثمانين بأيام قليلة.

ومات فجأة.

وكان من بيت علم وفضل وناب في الحكم سنين وولي عدة وظائف دينية ودرس بعدة مدارس وكان مشكور السيرة دينًا عاقلًا مليح الوجه حسن السميت رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ زين الدين خالد بن أيوب بن خالد شيخ خانقاه سعيد السعداء في يوم الأربعاء ثالث عشر شوال بعد مرض طويل.

وولي المسجد بعده الشيخ تقي الدين عبد الرحمن القلقشندي رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير الوزير صاحب شمس الدين منصور بن الصفي قتيلاً.

ضربت رقبتة تجاه الصالحة بحكم قاضي القضاة حسام الدين بن حريز المالكي في يوم الأربعاء العشرين من شوال وسنه دون الأربعين سنة بعد أن قاسى شدائد من الضرب والعصر والمصادرات والسجن لتحامل أهل الدولة عليه.

وقد سقنا حكايته بتطويل في تاريخنا " الحوادث " رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن محمد المعروف بابن الفألتي الفقيه الشافعي في يوم الجمعة رابع عشر ذي القعدة وهو في أوائل الكهولة.

والفألتي كانت صناعة أبيه.

وكان أبوه وأعمامه ثلاثة إخوة: كان عمه الواحد أديبًا حكمًا لأدباء العوام عاميًا يجلس على الطرقات في وسط حلقة وعمه الآخر على قيد الحياة يتكسب بالتنجيم بالرمل وكان والد شمس الدين حكويًا يجلس على الطرقات وعليه حلقة كعادة العوام وكان مع هذا حكمًا للمصارعين.

ونشأ شمس الدين هذا على هيئة العوام إلا أنه حفظ القرآن العزيز فلما كبر حب إليه الاشتغال بالعلم فاشتغل على جماعة من العلماء في فنون كثيرة وعد من أعيان الفقهاء رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين تغري برمش السيفي قراخا الحسني أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في ليلة الخميس ثامن عشر ذي الحجة وقد ناهز الستين أو جاوزها بقليل.

ودفن من الغد وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني رحمه الله تعالى.

وتوفي بير بضع بن جهان شاه بن قرا يوسف بن قرا محمد التركماني الأصل صاحب بغداد والعراق قتيلاً بسيف والده جهان شاه بعد أن حصره ببغداد نحو ثلاث سنين.

وكان كآبائه وأجداده سييء الاعتقاد محلول العقيدة راحت روحه إلى سقر ويلحق الله به من بقي من أقاربه.

▲ أمر النيل في هذه السنة

: الماء القديم سبعة أذرع ونصف.

مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعًا وستة أصابع.

السنة السابعة من سلطنة الظاهر خشقدم وهي سنة إحدى وسبعين وثمانمائة.

فيها توفي أتابك العساكر بالديار المصرية الأمير قانم من صفر المؤيدي المعروف بالتاجر فجاءة في ليلة الاثنين حادي عشر صفر وسنه نحو السبعين.

وكان أصله من مماليك الملك المؤيد شيخ وأعتقه وصار خاصكيًا في دولة ولده المظفر أحمد ابن شيخ ولا زال على ذلك إلى أن تأمر عشرة في دولة الملك العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف برسباي.

واستمر في دولة الظاهر جقمق كلها على ذلك وحج أمير الركب الأول غير مرة وتوجه في الرسلية إلى جهان شاه بن قرا يوسف ملك الشرق ثم إلى خوندكار بن عثمان متمك

بلاد الروم ثم عاد ودام بمصر إلى أن صار في دولة الملك الأشرف إينال من جملة أمراء الطبلخانات ثم صار أمير مائة ومقدم ألف بعد موت خيربك النوروزي المؤيدي الأجرود ثم صار في دولة الملك المؤيد أحمد بن إينال رأس النوب بعد الأمير قرقماس الأشرفي بحكم انتقاله إلى إمرة مجلس واستمر على ذلك إلى أن نقله خجداشه الملك الظاهر خشقدم إلى إمرة جلس بعد انتقال قرقماس أيضًا إلى إمرة سلاح بعد انتقال الأمير جرباش إلى الأتابكية عوضًا عن الملك الظاهر خشقدم.

وعظم قائم في دولة خجداشه خشقدم المذكور ونالته السعادة زيادة على ما كان أولًا ودام على ذلك إلى أن نقله إلى الأتابكية بعد إخراج الأتابك جرباش المحمدي إلى ثغر دمياط بطالًا فدام على الأتابكية إلى أن مات فجاءة في التاريخ المقدم ذكره.

وكان من أجل الملوك وأعظمتهم لولا تكبر كان فيه رحمه الله تعالى وعفا عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين برسباي بن عبد الله البجاسي نائب الشام بها في يوم الاثنين ثامن عشر صفر وقد زاد سنه على الستين بعد مرض طويل.

وكان من عتقاء الأمير تنبك البجاسي نائب دمشق الذي كان خرج على الملك الأشرف برسباي وقتل في سنة سبع وعشرين وثمانمائة فكان بين وفاة برسباي هذا ووفاه أستاذه تنبك نحو أربع وأربعين سنة.

ولما قتل أستاذ برسباي هذا تنقل في الخدم حتى صار من جملة المماليك السلطانية وترقى إلى أن صار أمير عشرة في دولة الملك الظاهر جقمق ثم جعله نائب الإسكندرية ثم صار في دولة الأشرف إينال أمير مائة ومقدم ألف.

ثم لما مات حاجب الحجاب جانبك القرماني الظاهري في شوال سنة إحدى وستين جعل هذا موضعه حاجب الحجاب ثم نقل إلى الأمير أخورية الكبرى في سنة أربع وستين بعد موت يونس العلائي وذلك بعد أن صاهر السلطان وتزوج بنت الأمير بردبك الدوادر الثاني وهي بنت بنت السلطان فلم يكن مكافأة برسباي هذا للأشرف إينال على ما خوله من النعم إلا أنه لما خرج القوم على ولده الملك المؤيد أحمد بن إينال غدره ومال إلى الملك الظاهر خشقدم فعابه كل أحد على ذلك.

وليت الملك الظاهر خشقدم عرف له ذلك بل أخرجه بعد قليل إلى نيابة طرابلس ثم تنقل بعد نيابة طرابلس إلى نيابة الشام ببذل المال ولم يتنهأ بدمشق بل مرض وطال مرضه إلى أن مات.

وكان رجلًا عاقلًا عفيقًا عن المنكرات والفروج ولم يعف عن الأموال وكان بخيلًا جدًّا عفا الله عنه.

وتوفي شيخ مكة ومحدثها ومسندتها تقي الدين أبو الفضل محمد بن نجم الدين محمد بن أبي الخير محمد بن عبد الله بن فهد الهاشمي المكي الشافعي بمكة في يوم السبت سابع شهر ربيع الأول ومولده بأصفون الجبلين من صعيد مصر في يوم الثلاثاء خامس شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين وسبعمائة وقد استوعبنا ترجمته في تاريخنا " الحوادث "

وتوفي الأمير سيف الدين قائم بن عبد الله الأشرفي المعروف بقائم نعجة أحد أمراء العشرات ورأس نوبة شبه الفجاءة في ليلة الأحد سادس عشر جمادى الأولى وقد جاوز الستين.

وكان من مماليك الملك الأشرف برسباي وتأمّر في دولة الملك الأشرف إينال إلى أن مات.

وكان مسرفًا على نفسه منهمكًا في اللذات وعنده بطش وظلم.

وتوفي الأمير سيف الدين تمرّاز بن عبد الله الإينالي الأشرفي الدوادار الثاني كان مقتولًا بسيف الشرع بقلعة المرقب في يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى ومات وقد زاد سنه على الستين.

وحكاية تمرّاز هذا طويلة وما وقع له من الحبس والنفي والمحن يطول الشرح في ذكره استوعبنا غالب أموره في وقتها في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " .

وبالجملة إن تمرّاز هذا كان من مساويء الدهر لفظًا ومعنى عفا الله تعالى عنه.

وتوفي الخوaja التاجر بدر الدين حسن الطاهر اليميني الأصل والمولد والمنشأ المكي الدار والوفاة شاه بندر جدة بمكة في جمادى الأولى وقد عمر وشاخ وانتهت إليه رئاسة التجار بمكة في كثرة المال والبخل وقيل إنه كان زيدي المذهب مع جهل مفرط وبعد عن كل علم وفن.

وتوفي قاضي القضاة شرف الدين يحيى بن سعد الدين محمد بن محمد المناوي الشافعي قاضي قضاة الديار المصرية وعالمها معزولاً في ليلة الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ودفن من الغد بالقرافة الصغرى وقد زاد سنه على السبعين.

وحضر السلطان الصلاة عليه بمصلاة المؤمني وكانت جنازته مشهودة وكثر أسف الناس عليه لغزير فضله ودينه وحسن سيرته ومات ولم يخلف بعده مثله رحمه الله تعالى.

وتوفي القاضي زين الدين عبد الغفار بن مخلوف السمديسي المالكي أحد نواب الحكم بالديار المصرية وهو في آخر الكهولية وكان معدودًا من فضلاء المالكية.

وتوفي الإمام نور الدين علي بن أحمد بن علي السويدي المالكي إمام السلطان في يوم الخميس رابع عشر شهر رجب وهو في عشر المائة من العمر بعد أن خدم عدة ملوك وولي حسبة القاهرة رحمه الله تعالى.

وتوفي الحافظ تقي الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن قطب الدين أحمد القلقشندي الشافعي شيخ خانقاه سعيد السعداء الصلاحية في ليلة الثلاثاء ثالث شعبان ومولده في شهر رجب سنة سبع عشرة وثمانمائة.

وكان من الفضلاء وصحبي سنين كثيرة وسمعت أشياء عالية من الحديث بقراءته ذكرنا ذلك كله في ترجمته في " الحوادث " رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير شهاب الدين أحمد بن ناصر الدين محمد المعروف بابن قليب حاجب حجاب طرابلس وأستادار السلطان بها في يوم الخميس خامس شعبان.

وتوفي أميرزة بن شاه أحمد بن قرا يوسف في يوم السبت رابع ذي القعدة بالقاهرة بسكنه بباب الوزير خارج القاهرة وسنه زيادة على ثلاثين سنة وأظنه حفيد شاه أحمد بن قرا يوسف لا ولده رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين جانبك بن عبد الله الناصري المعروف بالمرتد أحد مقدمي الألوفا بالديار المصرية بطالاً بعدما شاخ وكبر سنه.

وكان من المهمين في أيام عمله وبطالته رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم ستة أذرع وعشرون إصبغاً.

مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً سواء.

سلطنة الظاهر أبي نصر يلباي الإينالي المؤيدي وهو السلطان التاسع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم والرابع عشر من الجراكسة وأولادهم.

تسلطن في آخر نهار السبت عاشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة قبل الغروب بنحو ثلاث درج رمل.

وسبب تأخيره إلى هذا الوقت أنه لما مات الملك الظاهر خشقدم بعد أذان ظهر يوم السبت المقدم ذكره طلع الأتابك يلباي المذكور وجميع الأمراء إلى القلعة وقبل أن يتكلموا في ولاية سلطان أخذوا في تجهيز الملك الظاهر خشقدم والصلاة عليه فغسلوه وأخرجوه وصلوا عليه عند باب القلعة ونزلوا به إلى حيث دفن بمدرسته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر وحضرت أنا دفنه ولم يحضره من أعيان الأمراء إلا جماعة يسيرة حسبما تقدم ذكره في وفاته وهذا كله بخلاف العادة فإن العادة سلطنة سلطان ثم يؤخذ في تجهيز السلطان الذي مات.

ولما أنزل نعيش الملك الظاهر خشقدم من القلعة شرعوا عند ذلك في سلطنة الأتابك يلباي وكان قد أنبرم أمره في ضحوة نهار السبت هذا مع الأمراء ومماليك الملك الظاهر خشقدم وكبيرهم يوم ذاك خير بك الدوادر الثاني وخشكلي البيسقي أحد مقدمي الألوفا.

ولما أذعن مماليك الظاهر الأجلاب بسلطنة يلباي لم يختلف عليه يومئذ أحد لأن الشوكة كانت للأجلاب وهم أرادوه والظاهرية الكبار تبع لهم وأما المؤيدية فخداشيته فتم أمره.

وكيفية سلطنته أنه لما عادوا من الصلاة على الملك الظاهر خشقدم جلسوا عند باب الستارة وقتاً هيناً وإذا بالأمير خيربك خرج من باب الحريم ومعه جماعة من خداشيته وأخذوا الأتابك يلباي وأدخلوه من باب الحريم ومضوا به إلى القصر السلطاني وخاطبوه بالسلطنة فامتنع امتناعاً هيناً فلم يلتفتوا إلى كلامه وأرسلوا إلى الأمراء أحضروهم إلى القصر من خارج فوجدوا القصر قد سقط بابه فدخلوا من الإيوان إلى القصر فتفائل الناس زواله بسرعة لغلق باب القصر.

فدخلت الأمراء قبل أن يحضر الخليفة والقضاة وطال جلوسهم عنده وقبلت الأمراء الأرض قبل المبايعه وهم في هرج لإحضار الخليفة والقضاة إلى أن حضروا بعد مشقة كبيرة لعسر طريق القصر إذ المصير إليه من الإيوان السلطاني وأيضاً حتى لبست الأمراء قماش الموكب وتكاملوا بعد أن فرغ النهار.

وقد أخذوا في بيعته وسلطنته ولبسوه خلعة السلطنة بالقصر وجلس على تخت الملك من غير أن يركب فرساً بأبهة الملك على العادة وقبلوا الأمراء الأرض بين يديه وتم أمره فكان جلوسه على كرسي السلطنة قبل الغروب بثلاث درج حسبما تقدم ذكره.

وخلع على الأمير تمرغا أمير مجلس بالأتابكية ثم خلع على الخليفة فدقت البشائر ونودي بسلطنته وتلقب بالملك الظاهر يلباي.

والآن نشرع في التعريف به قبل أن نأخذ فيما وقع له في سلطنته من الحوادث فنقول: أصله جاركسي الجنس جليه الأمير إينال ضضع من بلاد الجاركس إلى الديار المصرية في عدة ممالك فاشتراه الملك المؤيد شيخ قبل سنة عشرين وثمانمائة وأعتقه وجعله من جملة المماليك السلطانية وأسكنه بالقلعة بطبقة الرفرف.

ثم صار خاصكيًا بعد موت أستاذه ودام على ذلك إلى أن صار من أعيان الخاصكية.

وأنعم الأشرف برسباي عليه بثلاث قرية طحورية من الشرقية ثم نقله الملك العزيز يوسف ابن السلطان الأشرف برسباي إلى نصف بنها العسل بعد أيتمش المؤيدي.

ثم صار ساقيًا في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق فلم تطل أيامه في السقاية وأمره عشرة وجعله من جملة رؤوس النوب فدام على ذلك إلى أن تسحب الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي من قلعة الجبل واختفى إلى أن ظفر به يلباي هذا في بعض الأماكن وطلع به إلى الملك الظاهر جقمق فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بقرية سرياقوس زيادة على ما بيده وصار أمير طبلخاناه.

ودام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور عثمان ابن السلطان الملك الظاهر جقمق فقبض على يلباي هذا وعلى اثنين من خدائشيته: دولات باي الدوادر الكبير وبرشباي الأمير أخور الثاني وذلك في سنة سبع وخمسين وحبس بثغر الإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال من سجن الإسكندرية وأطلق خدائشيته المذكورين ووجهه إلى دمياط بطالًا ثم أحضره إلى القاهرة بعد أيام قليلة فاستمر بطالًا مدة يسيرة.

وقتل الأمير سونجبا اليونسي الناصري ببلاد الصعيد وكان سونجبا هو الذي أخذ إقطاع يلباي هذا بعد مسكه فأعاده الملك الأشرف إينال إليه وصار على عادته أولًا أمير طبلخاناه إلى أن مات الأمير خير بك المؤيدي الأشقر الأمير أخور الثاني فنقل يلباي هذا إلى الأمير أخورية الثانية من بعده فدام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف إينال بأمره مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية فدام على ذلك إلى أن نقله الملك الظاهر خشقدم إلى حجوية الحجاب بالديار المصرية عوضًا عن بيبرس خال العزيز بحكم انتقاله إلى وظيفة رأس نوبة النوب بعد انتقال الأمير قائم إلى إمرة مجلس بعد انتقال قرقماس إلى إمرة سلاح بحكم انتقال جرباش إلى الأتابكية عوضًا عن الملك الظاهر خشقدم وذلك في يوم الأربعاء سابع شوال.

فاستمر يلباي هذا على الحجوية إلى أن نقله الملك الظاهر خشقدم إلى الأمير أخورية الكبرى بعد توجه برسباي البجاسي إلى نيابة طرابلس بعد القبض على الأمير إياس المحمدي الناصري وذلك في يوم الخميس سابع عشر المحرم سنة ست وستين.

فدام يلباي هذا في هذه الوظيفة إلى أن نقل إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية بعد موت الأتابك قائم دفعة واحدة بعد أن كان يجلس في مجلس السلطان خامس رجل وذلك في يوم الاثنين ثامن عشر صفر سنة إحدى وسبعين وثمانمائة.

واستمر على ذلك إلى أن مرض الملك الظاهر خشقدم وثقل في مرضه وتكلم الناس فيمن يتسلطن فيما بينهم فرشح جماعة فاختارت الأجلاب يلباي هذا كونه أتابك العساكر وأيضًا خدائش أستاذهم فتسلطن وتم أمره حسبما تقدم ذكره انتهى.

قلت: ولما استمر جلوسه بالقصر السلطاني رسم في الحال بسفر الأمير قرقماس أمير سلاح بمن كان عين معه من الأمراء والمماليك السلطانية إلى الصعيد وكان له أيام مقيمًا بالمركب وكذلك جميع من كان عين معه وسافروا من يومهم أرسالًا.

ثم خلع الملك الظاهر يلباي على الأتابك تمرغا في يوم الاثنين ثاني عشره خلعه نظر البيمارستان المنصوري.

و خلع على خجداشه الأمير قاني بك المحمودي المؤيدي بإمرة مجلس عوضًا عن الأتابك تمرغا وأنعم عليه بإقطاع تمرغا أيضًا.

وخلع على تمر المحمودي والي القاهرة خلعة الاستمرار وكذلك على القاضي علم الدين كاتب المماليك.

وفيه ورد كتاب يشبك من مهدي كاشف الوجه القبلي يتضمن أنه ولي سليمان بن عمر الهواري عوضًا عن ابن عمه وأنه لا حاجة له بتجريدة فلم يلتفت السلطان إلى مقالته في عدم إرسال تجريدة إلى بلاد الصعيد لغرض يأتي بيانه.

ثم في يوم الخميس خامس عشره خلع السلطان على جميع مباشري الدولة باستمرارهم على وظائفهم.

وفيه نودي بأن نفقة المماليك تكون من أول الشهر يعني أول ربيع الآخر.

وفيه عمل المولد النبوي بالحوش على العادة.

وقبل أن يفرغ المولد ندب السلطان الأمير برسباي قرا الظاهري والأمير جكم الظاهري وطرباي الظاهري البواب أن يتجهزوا إلى الصعيد لمسك الأمير قرقماس أمير سلاح والأمير قلمطاي رأس نوبة والأمير أرغون شاه ويتوجهوا بهم إلى حبس الإسكندرية ولم يعلم أحد ما الموجب لذلك.

وفي يوم السبت سابع عشره أعاد السلطان القاضي قطب الدين الخيصري إلى كتابة السر بدمشق بعد عزل الشريف إبراهيم بن السيد محمد.

وفيه أيضًا استقر الصارمي إبراهيم بن بيغوت الأعرج حاجب الحجاب بدمشق عوضًا عن شرآمد العثماني المؤيدي.

وفيه وصل الخبر بقدم الأمير أزيك رأس نوبة النوب من تجريدة العقبة بعد أن أمسك مباركًا شيخ بني عقبة الذي قطع الطريق على إقامة الحجاج.

ثم وصل الأمير أزيك في يوم الاثنين تاسع عشره وخلع السلطان عليه وعلى رفيقه الأمير جانبك قلقسيوز حاجب الحجاب ورسم بتسمير مبارك شيخ بني عقبة المقدم ذكره ورفقته وكانوا أزيد من أربعين نفرًا فسمروا الجميع وطيف بهم الشوارع ثم وسطوا في آخر النهار عن آخرهم.

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه ورد الخبر على الملك الظاهر يلباي بعصيان الأمير بردك نائب الشام وأنه قتل جميع النواب المجردين معه لقتال شاه سوار بن دلغادر وكان الأمر غير ذلك.

ووقع أمور حكيناها مفصلة في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " محصولها أن بردبك المذكور كان تهاون في قتال شاه سوار المذكور وخذل العسكر الشامي لما كان في قلبه من الملك الظاهر خشقدم رحمه الله فكان ذلك سببًا لكسر العسكر الشامي والحلي وغيرهم ونهبهم وقتل في هذه الواقعة نائب طرابلس قاني باي الحسيني المؤيدي ونائب حماة تتم خوبي الحسيني الأشرفي وأتابك دمشق قراجا الخازندار الظاهري وأتابك حلب قانصوه المحمدي الأشرفي وغيرهم من أمراء البلاد الشامية وغيرهم حسبما يأتي ذكرهم في الوفيات على عادة هذا الكتاب انتهى.

قلت: وجاء هذا الخبر والديار المصرية غير مستقيمة الأحوال لعم المدير.

والطرق مخيفة والسبل غير آمنة.

وما ذاك إلا أن الملك الظاهر يلبي لما تسلطن وتم أمره غطاه المنصب وصار كالمذهول ولزم السكات وعدم الكلام وضعف عن بت الأمور وردع الأجلاب بل صارت الأجلاب في أيامه كما كانت أولًا وأعظم فلم يحسن ذلك ببال أحد وصار الأمير خيربك الدوادر الثاني هم صاحب الحل والعقد في مملكته وإليه جميع أمور المملكة.

وشاع ذلك في الناس والأقطار وسمته العوام: " أيش كنت أنا قل له " يعنون أن السلطان لما يسأل في شيء يقول: " أيش كنت أنا قل لخيربك " فهذا وأشباهه اضطربت أحوال الديار المصرية.

هذا مع ما ورد من البلاد الحلبية من أمر شاه سوار وقتل أكابر أمراء البلاد الشامية ونهبه للبلاد الحلبية وأخذه قلاع أعمالها وأن نائب الشام بردبك في أسره وأن يشبك الجاسي نائب حلب دخل إلى حلب على أقيح وجه فصار الناس بهذا المقتضى كالغنم بلا راع.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرين ربيع الأول المذكور خلع الملك الظاهر يلبي على الأمير أربك من ططخ الظاهري رأس نوبة النوب باستقراره في نيابة الشام عوضًا عن بردبك الظاهري بحكم انضمامه على شاه سوار.

وفيه استقر الأمير قاني بك المحمودي المؤيدي أمير مجلس أمير سلاح عوضًا عن قرقماس الأشرفي بحكم القبض عليه وحبسه بالإسكندرية واستقر قاني بك المذكور مقدم العساكر لقتال شاه سوار بن دلغار.

وعين السلطان في هذا اليوم عدة أمراء تجريدة لقتال شاه سوار فعين من أمراء الألوف قاني بك المقدم ذكره وجانبك الإينالي الأشرفي المعروف بقلقسيز حاجب الحجاب وبردبك هجين أمير جاندار وهؤلاء من أمراء الألوف وعين أيضًا عدة كثيرة من أمراء الطبلخانات والعشرات يأتي ذكر أسمائهم يوم سفرهم من القاهرة ثم عين صحبتهم ستمائة مملوك من المماليك السلطانية.

وفيه استقر الأمير إينال الأشقر الظاهري نائب غزة في نيابة حماة عوضًا عن ابن المبارك وكان الناصري محمد بن المبارك قد استقر في نيابة حماة قبل تاريخه عوضًا عن الأمير تتم الحسيني الأشرفي بحكم مرضه وعوده من تجريدة شاه سوار إلى حلب وكان الناصري محمد بن المبارك إلى الآن لم يخرج من الديار المصرية فعزل عنها قبل أن يحكمها أو يتوجه إليها.

وكان إينال الأشقر قدم إلى القاهرة مع الأمير أربك من تجريدة العقبة ثم رشح ابن المبارك إلى نيابة غزة فامتنع عن ولايتها.

ثم في يوم الخميس تاسع عشرين شهر ربيع الأول لبس إينال الأشقر خلة السفر.

ثم في يوم السبت ثاني شهر ربيع الآخر ابتداء السلطان بالنفقة على الممالك السلطانية لكل واحد مائة دينار ففرقت هذه النفقة على أقبح وجه وهو أن القوي يعطى والغائب يقطع والمسمن يعطى نصف نفقة أو ربع نفقة ومنع أولاد الناس والطواشية من الأخذ وعاداتهم أخذ النفقة فأحدث الظاهر يلباي هذا الحادث وكثر الدعاء عليه بسبب ذلك وتفاعل الناس بزوال ملكه لقطعه أرزاق الناس فكان كذلك.

ومنع السلطان أيضًا أمراء الألوفا وغيرهم من النفقة ولم يعط إلا من كتب منهم إلى السفر لا غير فهذا المقتضى وأمثاله نفرت القلوب من الظاهر يلباي وعظمت الوقعة في حقه وكثرت المقالة في بخله وعدت مساوئه ونسيت محاسنه إن كان له محاسن وصارت النفقة تفرق في كل يوم سبت وثلاثاء طبقة واحدة أو أقل من طبقة حتى تطول الأيام في التفرقة.

وبالجملة فكانت أيام الملك الظاهر يلباي نكدة قليلة الخير كثيرة الشر وعظم الغلاء في أيامه وتزايدت الأسعار وهو مع ذلك لا يأتي بشيء وجوده في الملك وعدمه سواء فإنه كان سالبة كلية لا يعرف القراءة ولا الهجاء ولا يحسن العلامة على المناشير والمراسم إلا بالنقط مع عسر في الكتابة.

وكان الناس قد أهمهم أمر الجلبان أيام أستاذهم الملك الظاهر خشقدم فزادوا بسلطنة الملك الظاهر يلباي هذا همًا على همهم.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر ربيع الآخر استقر الأمير جانبك قلقسيز أمير مجلس عوضًا عن قاني باي المحمودي المنتقل إلى إمرة سلاح واستقر الأمير بردبك هجين عوضه حاجب الحجاب.

وفيه أنعم السلطان على الأمير قايتباي المحمودي الظاهري بإقطاع الأمير أزيك نائب الشام واستقر عوضه أيضًا رأس نوبة النوب وأنعم بإقطاع الأمير قايتباي على الأمير سودون القصري نائب القلعة والإقطاع مقدمة ألف.

وفيه أيضًا استقر الأمير خشكلدي البيسقي في مقدمة الألوفا عوضًا عن قاني باي المحمودي المؤيدي.

ثم في يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الآخر استقر الأمير سودون البرديكي الفقيه المؤيدي نائب قلعة الجبل بعد سودون القصري.

وفي يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر رسم السلطان أن ينتقل الأمير إينال الأشقر المقدم ذكره من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس بعد فقد نائبها الأمير قاني باي المؤيدي الحسيني في واقعة شاه سوار وذلك بسعي من إينال المذكور وذلك قبل أن يصل إينال المذكور إلى حماة.

ثم في يوم الخميس رابع عشره استقر الناصري محمد بن المبارك في نيابة حماة كما كان وليها أولًا.

وفيه استقر مغلباي الظاهري المحتسب شاد الشراب خاناه بعد الأمير خشكلدي البيسقي واستقر طرباي البواب محتسب القاهرة عوضًا عن مغلباي المذكور واستقر سودون السيفي أحمد بن إينال أمير عشرة وأستادار الضحبة وسودون هذا من الأوباش الأطراف.

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأجلاب وغيرهم كل واحد بإمرة عشرة والذين أعطوا أزيد من خمسة عشر نفرًا.

فالذي أخذ من الأجلاب: أركماس البواب وقايت البواب وطرباي البواب الذي ولي الحسبة وأصباي البواب الذي كان قتل قتيلين أيام استأذه ولم ينتطح في ذلك عنزان وأصطمر البواب وجانم الدوادر ومغلباي الساقى ابن أخت الأمير قايتباي.

والذي أخذ الإمرة منهم من الظاهرية الكبار: أزيك الساقى وجانم قشير وقانم أمير شكار وجكم قرا أمير أخور الجمال وسودون الصغير الخازندار وقرقماس أمير أخور.

والذي أخذ من السيفية: تمرباي التمرازي المهمندار وبرسباي خازندار يونس الدوادر.

وفيه ورد الخبر بأن الأمير بردبك نائب الشام فارق شاه سوار وقدم إلى مرعش طائعا ثم سار إلى منزلة قارا في يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر.

ثم في يوم السبت سادس عشره تواترت الأخبار أن الأمير بردبك جاوز مدينة غزة فندب السلطان الأمير تمرباي المهمندار والأمير جكم الظاهري أن يخرجوا إليه وبأخذه ويتوجهها به إلى القدس الشريف بطالا.

ثم في يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر أضاف السلطان الأمير أزيك نائب الشام وخلع عليه كاملية بفرو سمور بمقلب سمور وهي خلعة السفر فسافر في بكرة يوم الاثنين ثامن عشره.

وفي يوم الاثنين هذا قرىء تقليد السلطان الملك الظاهر يلباي بالسلطنة وخلع السلطان على الخليفة وكاتب السر والقضاة وعلى من له عادة بلبس الخلعة في مثل هذا اليوم.

وأما أمر بردبك نائب الشام فإن السلطان لما أرسل تمرباي وجكم إلى ملاقاته وأخذه إلى القدس وسارا إلى جهته فبينما هم في أثناء الطريق بلغهم أنه توجه إلى جهة الديار المصرية من على البدوية ولم يجتز بمدينة قطيا وقيل إنه مر بقطيا لكنه فاتهم وأنه قد وصل إلى القاهرة فعادا من وقتهما فلما وصل بردبك إلى ظاهر القاهرة أرسل إلى خجداشه الأمير تمر والي القاهرة يعرفه بمكانه فعرف تمر السلطان بذلك فرسم السلطان في الحال للأمير أزدمر تمساح الظاهري أن يتوجه إليه وبأخذه إلى القدس بطالا ففعل أزدمر ذلك.

وقيل في مجيء بردبك غير هذا القول واللفظ مختلف والمعنى واحد.

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره استقر الأمير جانبك الإسماعيلي المؤيدي المعروف بكوهية أحد مقدمي الألوف أمير حاج المحمل واستقر تنبك المعلم الأشرفي ثاني رأس نوبة النوب أمير الركب الأول.

ثم استهل جمادى الأولى أوله الأحد والقالة موجودة بين الناس بركوب المماليك الأجلاب ولم يدر أحد صحة الخبر.

غير أن الأمراء المؤيدية خجداشية السلطان امتنعوا في هذه الأيام من طلوع الخدمة مخافة من الأمير خيربك الدوادر الثاني وخجداشيته الأجلاب أن يقبضوا عليهم بالقصر السلطاني واتفقت المؤيدية في الباطن مع الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار.

كل ذلك والأمر خفي على الناس إلا السلطان فإنه يعلم بأمره بل هو المدبر لهم فيما يفعلونه في الباطن حسبما يأتي ذكره من الوقعة وهي الواقعة التي خلع فيها الملك الظاهر يلباي من السلطنة.

▲ خلع الملك الظاهر يلباي من سلطنة مصر

ولما كان عصر يوم الأربعاء رابع جمادى الأولى المقدم ذكره وطلعت الأمراء الألوفا إلى القلعة لبيتوا بالقصر على العادة امتنعت المؤبدية عن الطلوع بمن وافقهم ما خلا الأمير جانبك الإينالي الأشرفي المعروف بقلقسيز أمير مجلس وهو كبير الأشرفية الكبار يومئذ فإنه طلع إلى القلعة ووافق الظاهرية الكبار والظاهرية الصغار الأجلاب.

فلما تكامل طلوع من طلع من الأمراء في عصر يوم الأربعاء المذكور امتنع الأمير يشبك الفقيه المؤبدي الدوادر الكبير وخداشيته وهم: الأمير قاني بك المحمودي المؤبدي أمير سلاح ومغلباي طاز أبو بكرى المؤبدي وجانبك الإسماعيلي المؤبدي المعروف بكوهية وهؤلاء الأربعة مقدمو أوف وجماعة آخر من خداشيتهم من أمر الطبلخانات والعشيرات أجلهم الأمير طوخ الزردكاش هو الذي حول غالب ما كان بزردخانات السلطان من آلات الحرب والنفوط وغير ذلك إلى بيت الأمير يشبك الدوادر وانضم عليهم جماعة كثيرة من أمراء العشيرات من الأشرفية الكبار وخداشيتهم أعيان الخاصكية وغيرهم بل غالب المماليك الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار وجماعة كثيرة أيضًا من أمراء السيفية وأعيان خاصكيتهم فصاروا في عسكر كبير وجمع هائل إلى الغاية.

لكن صار أمرهم لا ينتج في القتال لعدم من يقوم بأمرهم لأن يشبك الدوادر كان الملك الظاهر يلباي قد وعده عندما أملاه ما يفعله من شأن هذه الوقعة أنه ينزل إليه ومعه الظاهرية الكبار وفاته الحزم فإنه لم يحسب أنه يصير هو كالأسير في أيدي الأجلاب إذا حققوا وثوب الأمير يشبك وقتاله فصار يشبك بسبب ذلك كالمقيد عن القتال لما وقع القتال الآتي ذكره.

وكان الملك الظاهر يلباي لما وافق يشبك الدوادر على ما فعله قد ضاقت حصيرته وتغلب مع خير بك والأجلاب وخاف إن شرع في القبض عليهم لا يتم له ذلك فرم هذه المرمة ليأخذ الثأر بيد غيره وأنهم إذا استفحل أمرهم يسألهم الملك الظاهر يلباي ما الغرض من ركوبهم فيقولون: غرضنا نزول الأجلاب من الأطباق وإبعاد خيربك وغيره من خداشيته ويكون هذا القول عندما تنغلب الأجلاب فإذا أذعنوا بالنزل من الأطباق وخلت القلعة منهم فعل فيهم الملك الظاهر يلباي عند ذلك ما أراد.

وكان هذا التدبير لا بأس به لو أنه نزل إليهم في أوائل الأمر واجتمع بهم أو طلوعوا عنده وصاروا يدًا واحدة ففاته ذلك وأقام هو بالقلعة.

وفهم خيربك والأجلاب أن ذلك كله مكيدة منه لأخذهم فاحتاطوا به واحتاجوا إلى الإذعان للظاهرية الكبار ومطاوعتهم على أنهم يخلعون يلباي من السلطنة ويولون أحدًا من كبار أمراء الظاهرية فوافقهم الظاهرية على ذلك ومالوا إليهم.

واستمالت الظاهرية أيضًا الأمير جانبك قلقسيز الأشرفي أمير مجلس فمال إليهم ووعدهم بممالة خداشيته الأشرفية إليهم وخذلان يشبك الدوادر فعند ذلك صار الملك الظاهر يلباي وحده أسيرًا في أيدي القلعين فلما أصبحوا يوم الخميس خامس جمادى الأولى أعلن الأمير يشبك الفقيه الوثوب على الخشقدمية ولبسوا آلة الحرب وركب بمن معه من المؤبدية والأشرفية الكبار والأشرفية الصغار والسيفية ولبسوا آلة الحرب واجتمع عليهم خلائق من كل طائفة ومالت زعر الديار المصرية إليهم.

وبلغ من بالقلعة أمرهم فخافوهم خوفاً شديداً ولبسوا هم أيضاً آلة الحرب ونزلوا بالسلطان الملك الظاهر يلباي إلى مقعد الإسطبل السلطاني المطل على الرميلا وشرعوا في قتال الأمير يشبك بمن معه في الأزقة والشوارع بالصليبية وهم لا يعلمون حقيقة أمر يشبك ولم يقع بين الأجلاب والظاهرية الاتفاق المذكور إلى الآن فإن الاتفاق بما ذكرناه لم يقع بين الأجلاب والظاهرية بالقلعة إلا في آخر يوم الخميس وكذلك الاحتراز على السلطان لم يقع إلا في آخر يوم الخميس.

وأما أول نهار الخميس ما كانت القلعين إلا كالحيارى ولما وقع القتال بين أصحاب يشبك وبين القلعين تقاعد يشبك عن القتال ولم يركب بنفسه البتة بل صار يترقب نزول السلطان إليه هذا والقتال واقع بين الفريقين بشوارع الصليبية من أول النهار إلى آخره وقتل بين الفريقين جماعة كثيرة.

فلما رأى الناس تقاعد يشبك بنفسه عن القتال ظنوا أن ذلك عجز منه عن مقاومة القلعين فنفر لذلك عنه خلائق ووافق ذلك اتفاق الظاهرية الكبار مع الأجلاب بالقلعة.

وأصبح يوم الجمعة سادس جمادى الأولى والقتال عمال بين الفريقين بشوارع الصليبية من أول النهار إلى آخره.

فلما مالت الأشرفية الكبار إلى القلعين وفارقت يشبك خارت طباع الأشرفية الصغار ومالوا أيضاً للقلعين وكانت القلعين استمالتهم أيضاً فما أمسى الليل إلا ويشبك الدوادر بقي وحده مع خجداشيته المؤيدية لا غير.

فلما رأى أمره آل إلى ذلك قام من وقته واختفى وكذلك فعل غالب خجداشيته المؤيدية لا غير.

وأما الملك الظاهر يلباي فإنه لما نزل إلى المقعد بالإسطبل السلطاني في باكر يوم الخميس وشرع القتال بين القلعين وبين يشبك وأصحابه كان حينئذ إلى ذلك الوقت في عز السلطان ولم يظهر إلى ذلك الوقت أن الذي قعله يشبك كان صادراً عنه وبتدبيره.

فلما فهموا ذلك وأبرموا أمرهم مع الظاهرية الكبار حسبما ذكرناه في أول الكلام أخذوا في مقتله والازدراء به والتلويح له بما يكره بل ربما صرح له ذلك بعضهم في الوجه.

وطال هذا الأمر والحصار عليه يومي الخميس والجمعة وليس له فيها إلا الجلوس على المدورة والأتابك تمرىفا جالس بين يديه وقد رشح للسلطنة عوضه وهو يعرف هذا بالقرائن لأن الذي بقي يطلع إلى القلعة من الطوائف طائفاً يبوس له الأرض ثم يقبل يد الأتابك تمرىفا.

هذا والأمير قايتباي المحمودي رأس نوبة النوب والأمير جانبك قلقسيز أمير مجلس بمن معهم من خجداشيتهم الظاهرية والأشرفية ركاب على خيولهم لإرسال الأمداد لقتال يشبك الدوادر.

فلما جاء الليل ليلة السبت أدخل يلباي إلى مبيت الحراقة وبات به على هيئة عجيبة إلى أن أصبح النهار وأخذوه وطلعوا به إلى القصر الأبلق وحبسوه في المخبأة التي تحت الخرجة بعد أن طلعوا به ماشياً على هيئة الخلع من السلطنة وأخذوا الناس في سلطنة الملك الظاهر تمرىفا وزال ملك يلباي هذا كأنه لم يكن فسبحان من لا يزول ملكه.

وكانت مدة ملكه شهرين إلا أربعة أيام ليس له فيها إلا مجرد الاسم فقط.

ولم نعلم أحدًا من أكابر ملوك الترك في السن خاصة من مسه الرق خلع من السلطنة في أقل من مدة يلبي هذا وبعده الملك المظفر بيبرس الجاشنكير فإن مدة بيبرس أيضًا كانت سنة تنقص ثلاثة وعشرين يومًا ثم الملك العادل كتبغا المنصوري كانت مدة سلطنته سنتين وسبعة عشر يومًا وأما الملك الظاهر برقوق فإنه خلع بعد سلطنته بنحو سبع سنين ثم أعيد.

ومع هذه المدة اليسيرة كانت أيامه أعني الملك الظاهر يلبي أشد الأيام وأقبحها.

في أيامه زادت الأجلاب في الفساد وضيقت السبل وعظم قطع الطرقات على المسافرين مصرًا وشامًا.

وما برحت الفتنة في أيامه قائمة في الأرياف قبلها وبحريها وتوقفت أحوال الناس لا سيما الواردين من الأقطار وزادت الأسعار في جميع المأكولات وضاعت الحقوق وظلم الناس بعضهم بعضًا وصار في أيامه كل مفعول جائرًا وما ذلك إلا لعدم معرفته وسوء سيرته وضعفه عن تدبير الأمور وبت القضايا وتنفيذ أحوال الدولة وقلة عقله فإنه كان في القديم لا يعرف إلا بيلبي تلي أي يلبي المجنون فهذه كانت شهرته قديمًا وحديثًا في أيام شببته فما بالك به وقد شاخ وكبرسنه وذهل عقله وقل نظره وسمعته.

وقد حكى الأمير برسباي قرا الخازندار الظاهري أنه لما أخذه من مخبأة القصر الأبلق وتوجه به إلى البحرة ليحبس بها فاجتاز به من طريق الحريم السلطاني أنه عيى في الطريق وجلس ليسترخ ثم سأل الأمير برسباي المذكور: " إلى أين أروح " فقال له: " إلى البحرة يا مولانا السلطان معزورًا مكرمًا " فقال: " والله ما أنا سلطان! أنا أمير! وما كنت أفعل بالسلطنة وقد كبر سني وذهل عقلي وقل نظري وسمعتي! بالله سلم على السلطان وقل له إنني لست بسلطان وسله أن يرسلني إلى ثغر دمياط أو موضع آخر غير حبس فأكون فيه إلى أن أموت وأنا مأمون العاقبة لأنني ما عرفت أدبر المملكة وأنا مولى سلطانيًا فكيف يقع مني ما يكرهه السلطان! "

ثم بكى أولى وثانية.

قال برسباي: فشرعت أزيد في تعظيمه وأسليه وأعدته بكل خير "

والمقصود من هذه الحكاية اعترافه بالعجز عن القيام بأمور المملكة.

وبالجملة كانت سلطنته غلطة من غلطات الدهر.

ودام الملك الظاهر يلبي بالبحرة إلى ليلة الثلاثاء عاشر جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة فحمل إلى سجن الإسكندرية في بحر النيل ومسفره الأمير قانصوه اليحياوي الظاهري المستقر في نيابة الإسكندرية بعد عزل كسباي المؤيدي وتوجهه إلى دمياط بطالًا.

فحبس الملك الظاهر يلبي ببعض أبراج الإسكندرية إلى أن توفي بحبسه من البرج بإسكندرية في ليلة الاثنين مستهل ربيع الأول من سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وقد جاوز السبعين من العمر.

وكان ملكًا ضخمًا سليم الباطن مع قلة معرفته بأمور المملكة بل بغالب الأمور أميًا لا يحسن الكتابة ولا القراءة ولا الكلام العرفي إلا بمشقة.

وكان في ابتداء أمره يعرف بيلباي تلي أي مجنون.

وكان عديم التجمل في ملبسه ومركبه ومماليكه وسماطه مشهورًا بالبخر والشح.

نالته السعادة في ابتداء أمره إلى يوم تسلطن.

تنقل في أوائل أمره من منزلة سنبة إلى منزلة أخرى إلى يوم تسلطن فلما تسلطن كان ذلك نهاية سعده.

وأخذ أمره من يوم جلس على تخت الملك في إديار واعتراه الصمت والسكات وعجز عن تنفيذ الأمور وظهر عليه ذلك بحيث إنه علمه منه كل أحد وصارت أمور المملكة جميعها معذوقة بالأمير خيربك الدوادار وصار هو في السلطنة حسًا والمعنى خيربك وكل أمر لا يبتة خيربك المذكور فهو موقوف لا يقضى.

وعلم منه ذلك كل أحد ولهجت العوام عنه بقولهم: " أيش كنت أنا قل له " يعنون بذلك أنه إذا قدمت له مظلمة أو قصة بأمر من الأمور يقول لهم: " قولوا لخيربك " وأشياء من هذا النمط يطول شرحها ذكرنا غالبها في تاريخنا " الحوادث " مفصلة كل واقعة في وقتها.

وبالجملة إنه كان رجلًا ساكنًا غير أهل للسلطنة رحمه الله تعالى وعفا عنه.

سلطنة الظاهر أبي سعيد تمرغا الظاهري وهو السلطان الذي تكمل به عدة أربعين ملكًا من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والثاني من الأورام إذا لم يكن الملك المعز أيبك التركماني من الروم والملك المنصور لاجين المنصوري فإن كانا من الأورام فيكون الملك الظاهر تمرغا هذا الرابع منهم.

وكان وقت سلطنته باكر نهار السبت سابع جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة الموافق لثامن كيهك بعد أن اتفق جميع أكابر الأمراء من سائر الطوائف على سلطنته.

وقد جلس بصدر المقعد بالإسطنبول السلطاني المعروف بالحراقة وحضر الخليفة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف والقاضي الشافعي والقاضي الحنفي وت خلف المالكي لتوعكه والحنبلي لإبطائه وحضر غالب أرباب الدولة والأعيان وبايعوه بالسلطنة.

فقام من وقته ودخل مبيت الحراقة ولبس خلة السلطنة السواد الخيفتي.

ثم خرج من المبيت المذكور وركب فرس النوبة من سلم الحراقة بأبهة الملك وركب الخليفة أمامه ومشيت أكابر الأمراء بين يديه وجميع العسكر وحمل السنجق السلطاني على رأسه الأمير قايتباي المحمودي رأس نوبة النوب ولم تحمل القبة والطير على رأسه فإنهم لم يجدوها في الزردخاناه وكانت أخذت فيما أخذ يوم الوقعة لما نقل طوخ الزردكاش ما في الزردخاناه فجعلوا السنجق عوضًا عن القبة والطير.

وسار الملك الظاهر تمرغا في موكب السلطنة إلى أن طلع من باب سر القصر السلطاني وجلس على تخت الملك وقبلت الأمراء الأرض بين يديه وخلع على قايتباي رأس نوب النوب باستقراره أتاك العساكر عوضًا عن نفسه ولقب بالملك الظاهر أبي سعيد تمرغا.

وهذا ثالث سلطان لقب بالملك الظاهر واحدًا بعد واحد لم يكن بينهم أحد ولم يقع ذلك في دولة من الدول بسائر الأقطار.

ودقت البشائر ونودي باسمه بشوارع القاهرة ومصر وكان حين سلطته الثانية من النهار والساعة للمشتري والطلالعي الجدلي وزحل.

وتم أمر الملك الظاهر في الملك وزالت دولة الملك الظاهر يلباي كأنها لم تكن.

وطلع الأعيان لتهنئته أفواجًا وسر الناس بسلطنته سرورًا زائدًا تشارك فيه الخاص والعام قاطبة لكونه أهلاً للسلطنة بلا مدافعة.

فإننا لا نعلم في ملوك مصر في الدولة التركية أفضل منه ولا أجمع للفنون والفضائل مع علمي بمن ولي مصر قديمًا وحديثًا كما مر ذكره في هذا الكتاب من يوم افتتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى يوم تاريخه ولو شئت لقلت: ولا من بني أيوب مع علمي محاسن السلطان صلاح الدين السعيد الشهيد وما له من اليد البيضاء في الإسلام والموافق العظيمة والفتوحات الجليلة والهمم العالية أسكنه الله الجنة بمنه وكرمه.

غير أن الملك الظاهر تمرىغا هذا في نوع تحصيل الفنون والفضائل أجمع من الكل فإنه يصنع القوس بيده وكذلك النشاب ثم يرمي بهما رميًا لا يكاد يشاركه فيه أحد شرقًا ولا غربًا.

انتهت إليه رئاسة الرمي في زمانه وله مع هذا اليد الطولى في فن الرمح وتعليمه وكذلك البرجاس وسوق المحمل وتعبئة العساكر.

وأما فن اللجام ومعرفته والمهماز وأنواع الضرب به فلا يجارى فيهما ويعرف فن الضرب بالسيف.

وأما فن الدبوس فهو فيه أيضًا أستاذ مفتن بل تلامذته فيه أعيان الدنيا هذا مع معرفة الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه معرفة جيدة كثير الاستحضار لفروع المذاهب وغيرها ثم مشاركة كبيرة في التاريخ والشعر والأدب والمحاضرة الحسنة والمذاكرة الحلوة مع عقل تام وتؤدة في كلامه ولفظه غير فحاش ولا سباب.

وكان فيه أولًا في مبدأ أمره بعض شمم وتعاطف فلما نقل إلى المناصب الجليلة تغير عن ذلك كله لاسيما لما تسلطن صار كالماء الزلال وأظهر من الحشمة والأدب والاتضاع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وبقي يقوم لغالب من يأتيه من أصغر طلبة العلم ذهابًا وإيابًا ويجل العلماء والفقراء وسلك مع الناس مسالك استجلب بها قلوب الخاص والعام.

ولما دام جلوسه يومه كله بالقصر السلطاني جلوسًا عامًا لتهنئة الناس وهنأه الناس على قدر منازلهم فصار يلقي كل من دخل إليه بالبشاشة والإكرام وحسن الرد بلسان فصيح مع تؤدة ورئاسة وإنصاف فتزايد سرور الناس به أضعاف مسرتهم أولًا.

وبالله أقسم أني لم أر فيما رأيت أطلق وجهًا ولا أحسن عبارةً ولا أحشم مجلسًا في ملوك مصر منه.

ولما كان عصر نهار السبت المذكور أخذ الأمير قاني بك المحمودي المؤيدي أمير سلاح من اختفائه ببيت الشيخ سيف الدين الحنفي فقيده وحبس بعد أن نهبت العامة بيته وأخذت

أمواله من غير إذن السلطان ولا إذن أحد من أرباب الدولة بل بأمر الغوغاء والسواد الأعظم يوم الواقعة عند انهزام يشبك الفقيه الدوادر واختفائه.

وكان هذا المسكين جميع ماله من المال والسكر والقنود والأعسال والقماش في داره فنهب ذلك جميعه وما ذاك إلا لصدق الخير: " بشر مال البخيل بحادث أو وارث " وكذلك العامة والغوغاء في بيت الأمير يشبك الفقيه الدوادر ولكن ما أخذ من بيت قاني بك من المتاع والمال أكثر.

وفيه شفيع الأمير قايتباي المحمودي في الأمير مغلباي طاز المؤيدي فقبل السلطان شفاعته ورسم له بالتوجه إلى دمياط بطالاً.

وفيه رسم السلطان بإطلاق الملك المؤيد أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال من حبس الإسكندرية ورسم أن يسكن في الإسكندرية في أي بيت شاء وأنه يحضر صلاة الجمعة راكبًا وأرسل إليه فرسًا بقماش ذهب.

ثم رسم السلطان أيضًا للملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق بفرس بقماش ذهب وخلعة عظيمة ورسم له أن يركب ويخرج من أي باب شاء من أبواب الإسكندرية وأنه يتوجه حيث أراد من غير مانع يمنعه من ذلك.

قلت: وفعل الملك الظاهر تمرغا هذا مع الملك المنصور عثمان كان من أعظم المعروف فإنه ابن أستاذه وغرس نعمة والده.

وفيه أيضًا رسم السلطان بإطلاق الأمير قرقماس أمير سلاح ورفيقه قلمطاي وأرغون شاه الأشرفيين من سجن الإسكندرية وكتب أيضًا بإحضار دولات باي النجمي وتمراز الأشرفيين من ثغر دمياط.

وكتب أيضًا عدة مراسيم إلى البلاد الشامية والأقطار الحجازية بإطلاق من بها من المحابيس الأشرفية وغيرهم ومجيء البطالين.

وفيه رسم السلطان بأن كل من كانت له جامكية في بيت السلطان من المماليك الإينالية الأشرفية وقطعت قبل تاريخه تعاد إليه من غير مشورة فعم الناس السرور بهذه الأشياء من وجوه كثيرة وتباشرت الناس بيمين سلطنته.

قلت: وقبل أن نشرع في ذكر حوادث السلطان نذكر قبل ذلك التعريف به ثم نشرع في ذكر حوادثه فنقول: أصل الملك الظاهر تمرغا هذا رومي الجنس من قبيلة أرنووط وجلبه بعض التجار في صغره إلى البلاد الشامية في حدود سنة أربع وعشرين وثمانمائة فاشتراه الأمير شاهين الزردكاش نائب طرابلس كان.

ثم نقل إلى ملك غيره إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق وهو يوم ذاك الأمير آخور الكبير فرباه الملك الظاهر وأدبه وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الخواص به.

ودام على ذلك إلى أن تسلطن فقربه وأدناه وجعله خاصكياً سلاحدارًا مدة ثم جعله خازن دارًا.

ثم أمره في أواخر سنة ست وأربعين وثمانمائة إمرة عشرة عوضًا عن آقبردي الأمير آخور الأشرفي.

واستمر على ذلك مدة طويلة وهو معدود يوم ذاك من خواص الملك إلى أن نقله إلى الدوادارية الثانية عوضًا عن دولات باي المحمودي المؤيدي بحكم انتقاله إلى مقدمة ألف فباشر تمربغا هذا الدوادارية الثانية بحرمة وعظمة زائدة ونالته السعادة وعظم في الدولة وشاع اسمه في الأقطار وبعد صيته وقصدته أرباب الحوائج من البلاد والأقطار وصار أمر المملكة معذوقًا به والدوادار الكبير بالنسبة إليه في الحرمة ونفوذ الكلمة كأحد الدوادارية الصغار الأجناد.

واستمر على ذلك إلى أن مات الملك الظاهر جقمق رحمه الله تعالى وتسلطن بعده ولده الملك المنصور عثمان فصار تمربغا عند ذلك هو مدبر المملكة وصاحب عقدها وحلها والملك المنصور معه حس في الملك والمعنى هو لا سيما لما أمسك الملك المنصور الأمير دولات باي الدوادار والأمير يلباي المؤيدي هذا الذي تسلطن والأمير يرشباي المؤيدي الأمير آخور الثاني.

واستقر تمربغا هذا دوادارًا كبيرًا عوضًا عن دولات باي المذكور وبقي ملك مصر وأموره معذوقًا به والناس تحت أوامره فلم تطل أيامه بعد ذلك ووقعت الفتنة بين الملك المنصور عثمان وبين أتاكه الأشرف إينال وهي الواقعة التي خلع فيها الملك المنصور عثمان وتسلطن من بعده الأشرف إينال.

ودام القتال بين الطائفتين من يوم الاثنين إلى يوم الأحد أعني سبعة أيام والقتال عمال بين الطائفتين وكان القائم بحرب إينال بالقلعة هو الملك الظاهر تمربغا مع خجداشيتيه الظاهرية والمعول عليه فيها مع علمي بمن كان عند الملك المنصور غير تمربغا من أكابر الأمراء مثل تتم من عبد الرزاق أمير سلاح والأمير قاني باي الجاركسي الأمير آخور الكبير ومع هذا كله كان أمر القتال وتحصين القلعة والقيام بقتال الأتابك إينال متعلقًا بالملك الظاهر تمربغا هذا.

فلما تسلطن إينال وانتصر أمسك الملك الظاهر تمربغا هذا وسجنه بالإسكندرية أشهرًا ثم نقله إلى حبس الصببية بالبلاد الشامية فحبس بالصببية أكثر من خمس سنين.

وكانت مدة سجنه بالإسكندرية والصببية نحو ست سنين إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال في أواخر سنة اثنتين وستين وأمره أن يتوجه إلى دمشق ليتجهز بها ويتوجه مع موسم الحاج الشامي إلى مكة ويقيم بها.

فيسار إلى مكة وجاور بها سنة ثلاث وستين وكنت أنا أيضًا مجاورًا بمكة في تلك السنة فتأكدت الصحة بيني وبينه بها ووقعت لنا محاضرات ومجالسات.

ودام هو بمكة إلى أن تسلطن الملك الظاهر خشقدم في سنة خمس وستين وثمانمائة فقدم القاهرة فأجله الملك الظاهر وزاد في تعظيمه وأجلسه فوق جماعة كثيرة من أمراء الألوفا الأعيان.

ثم أنعم عليه في يوم الاثنين سلخ ذي الحجة من سنة خمس وستين وثمانمائة المذكورة بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضًا عن جانبك الأشرفي المشد بحكم القبض عليه وخلع عليه في اليوم المذكور باستقراره رأس نوبة النوب عوضًا عن بپيرس الأشرفي خال الملك العزيز يوسف بحكم القبض عليه أيضًا فدام على ذلك إلى أن أخرج الملك الظاهر خشقدم الأتابك جرباش إلى ثغر دمياط بطالًا واستقر عوضه في الأتابكية الأمير قائم أمير مجلس فنقل الملك الظاهر تمربغا إلى إمرة مجلس عوضًا عن قائم المذكور وذلك في شهر رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة فدام على إمرة مجلس إلى أن مات الملك الظاهر خشقدم في عاشر شهر ربيع الأول.

وتسلطن الملك الظاهر يلباي فصار الملك الظاهر تمرىغا هذا أتابك العساكر عوضًا عن الملك الظاهر يلباي المذكور فعند ذلك تحقق كل أحد أن الأمر يؤول إليه فكان كذلك حسبما تقدم ذكره.

ولنعد الآن إلى ما وعدنا بذكره من الحوادث: ولما كان يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى أنعم السلطان الملك الظاهر تمرىغا على جماعة من الأمراء بعدة وظائف: فاستقر الأمير جانبك قلقسيز أمير مجلس أمير سلاح عوضًا عن قاني بك المحمودي المؤيدي بحكم القبض عليه.

واستقر الشهابي أحمد بن العيني الأمير آخور الكبير أمير مجلس عوضًا عن جانبك قلقسيز.

واستقر الأمير بردك هجين الظاهري حاجب الحجاب أمير آخورًا كبيرًا عوضًا عن ابن العيني.

واستقر الأمير خير بك الظاهري الدوادر الثاني دوادارًا كبيرًا عوضًا عن يشيك الفقيه بحكم القبض عليه وإخراجه إلى القدس الشريف بطالًا.

واستقر الأمير كسباي الظاهري أحد أمراء العشرات دوادارًا ثانيًا عوضًا عن خيربك.

واستقر الأمير خشكلدي البيسقي رأس نوبة النوب عوضًا عن الأتابك قايتباي.

واستقر الأمير قانصوه اليحياوي الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في نيابة الإسكندرية عوضًا عن كسباي المؤيدي السمين بحكم عزله وتوجهه إلى دمياط بطالًا بعد أن أنعم الملك الظاهر على قانصوه المذكور بإمرة طبلخاناه عوضًا عن طوخ الزردكاش بحكم توجهه إلى دمياط بطالًا.

وفي ليلة الثلاثاء عاشره حمل الملك الظاهر يلباي في النيل إلى إسكندرية ليسجن بها ومسفره قانصوه اليحياوي وقد تقدم ذكر ذلك كله في ترجمة الظاهر يلباي.

وفي يوم الثلاثاء عاشره فرقت نفقة المماليك السلطانية وهي تمام تفرقة يلباي التي كان أنفق غالبها ولم يتم ولم يفرق الملك الظاهر تمرىغا نفقة على المماليك السلطانية لقلّة الموجود بالخزانة الشريفة.

ورسم الملك تمرىغا في هذا اليوم بإعطاء أولاد الناس النفقة الذين هم من جملة المماليك السلطانية وكان الملك الظاهر يلباي منعهم فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك حتى خلع وأحوجه الله إلى عشر من أعشارها.

فلما أمر الملك الظاهر تمرىغا بالنفقة عليهم كثر الدعاء له بذلك.

فلم يسلم من واسطة سوء وكلمة الشح مطاعة فتغير بعد ذلك فقراً بعض أولاد الناس هذه الآية الشريفة: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " - الرعد: 11 - بذل و خشوع وكسر خاطر فلم يفلح بعدها.

ولم يقع للظاهر تمرىغا في سلطنته ما يعاب عليه إلا هذه القضية فما شاء الله كان.

قلت: " واعجابه من رجل يملك تخت ملك مصر ثم تضعف همته من إعطاء مثل هذا النزر اليسير الذي يعوضه الملك العارف المدير من أي جهة شاء من الجهات الخفية عن العاري الضعيف التدبير وتطلق عليه بعدم الإعطاء السنة الخاص والعام وتكثر الشناعة والقالة في حقه بسبب ذلك ولكن العقول تتفاوت ".

وفيه أيضًا قدم الأمير أزدمر تمسيح إلى القاهرة بعدما أوصل الأمير برديك الظاهري نائب الشام إلى القدس ليقوم به بطالاً.

وفي يوم الخميس ثاني عشره

▲ خلع السلطان على الأتابك قايتباي

خلعة نظر البيمارستان المنصوري وكذلك خلع على خيربك الدوادر الكبير وعلى كسباي الدوادر الثاني كليهما خلعة الإنظار المتعلقة بوظائفهما.

وفيه أنعم السلطان على ستة نفر بتقادم ألوف بالديار المصرية فرق عليهم من الإقطاعات الشاغرة وأضاف إليها بلادًا آخر من الذخيرة السلطانية وغيرها وهم: الأمير لاجين الظاهري وسودون الأفرم الظاهري الخازندار وجانبك من طسخ الظاهري الفقيه الأمير آخور الثاني وتمر من محمود شاه الظاهري والي القاهرة.

واستقر تمر المذكور حاجب الحجاب بالديار المصرية دفعة واحدة عوضًا عن الأمير برديك هجين المنتقل إلى الأمير آخورية الكبرى وهؤلاء الأربعة مماليك الملك الظاهر جقمق.

ثم أنعم على الأمير تنبك المعلم الأشرفي رأس نوبة ثان أيضًا بتقدمة ألف ثم مغلباي الظاهري شاد الشراب خاناه.

فهؤلاء الستة المقدم ذكرهم منهم تيبك مملوك الأشرف برسباي ومغلباي مملوك الظاهر خشقدم.

ثم استقر برقوق الناصري الظاهري شاد الشراب خاناه عوضًا عن مغلباي.

واستقر تغري بردي ططر الظاهري نائب قلعة الجبل بعد عزل سودون البرديكي الفقيه المؤيدي ونفيه.

واستقر آصباي الظاهري أحد أمراء الأجلاب الذي كان قتل قتيلين أيام أستاذه الملك الظاهر خشقدم ولم ينتطح في ذلك شاتان والي القاهرة عوضًا عن تمر الظاهري.

وفي يوم السبت رابع عشر جمادى الأولى المقدم ذكره استقر الأمير تنبك المعلم أحد المقدمين أمير حاج المحمل عوضًا عن جانبك كوهية.

وكان تنبك هذا قد ولي قبل تاريخه إمرة الركب الأول فلما صار أحد مقدمي الألوف استقر أمير الحاج وولي بعده بمدة تنبك الأشقر الأشرفي أمير الركب الأول.

وفيه كان تمام المماليك السلطانية بعد أن فرقت على أقبح وجه وأظهر عجز لأنهم لم ينفقوا على أحد من الأمراء إلا من ندب إلى السفر ولا على أولاد الناس ولا على الخدام الطواشية ولا على أحد من المتعممين ومع هذا كله فرقت النفقة في مدة طويلة كإعطاء المديون المماطل لغريمه.

ولما فرقت النفقة خلع السلطان على القاضي علم الدين كاتب المماليك وعلى ولده بالتحدث عن خوند زوجة السلطان في تعلقاتهما.

وفيه استقر الأمير جكم الظاهري أحد الأمراء الأجلاب حاجبًا ثانيًا عوضًا عن الأمير قاني بك السيفي يشبك بن أزدمر بحكم استعفائه عن الإمرة والوظيفة معًا.

وفي يوم الإثنين سادس عشره استقر الأمير دولات باي حمام الأشرفي أحد أمراء العشرات رأس نوبة ثانيًا عوضًا عن تنبك المعلم على إمرة عشرة كما كان أولًا.

وفيه استقر الأمير برسباي قرا الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة خازندارًا عوضًا عن سودون الأفرم المنتقل إلى مقدمة ألف.

واستقر فارس السيفي دولات باي أحد أمراء العشرات زردكاشًا عوضًا عن طوخ الأبوبكري المؤيدي على إمرة عشرة وفي آخر هذا النهار وصل الأمير قرقماس أمير سلاح ورفيقاه قلمطاي وأرغون شاه من سجن الإسكندرية وباتوا بالميدان الناصري وطلعوا من الغد إلى القلعة فقام السلطان إلى قرقماس المذكور واعتنقه وأجلسه فوق أمير سلاح على ميسرته ثم خلع عليه كاملية بمقلب سمور ونزل هو ورفيقاه إلى دورهم.

وفيه فرق الملك الظاهر تمرغا نحو سبعين مئالًا أعني سبعين إقطاعًا على جماعة من المماليك السلطانية الكثير والقليل.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشره نفى السلطان خمسة أمراء من أمراء المؤيدية إلى البلاد الشامية وأخرج إقطاع بردك الشمسي أحد أمراء العشرات وأبقى بالقاهرة بطالًا.

والذين أخرجوا هم: سودون البرديكي الفقيه نائب القلعة وجقمق وجانم كسا وقاني باي ميق وجانبك البواب ومعهم جندي من المؤيدية غير أمير يسمى خشكلدي قرا الحسنيني وما على خشكلدي المذكور في نفيه أضر من كثرة متحصل إقطاعه لا غير.

وشفع في جانبك الزيني وتم الفقيه وطوغان ميق العمري ودولات باي الأبوبكري فهؤلاء الذين بقوا بمصر من أمراء المؤيدية ثم بعض أجناد لم يلتفت إليهم وهم نحو من عشرين نفرًا أو أقل كلهم من المؤيدية.

وفي يوم الخميس تاسع عشره أنعم السلطان الملك الظاهر تمرغا على نحو عشرين نفرًا بإمريات عشرة: من الأشرفية الكبار ومن الظاهرية الكبار ومن الأشرفية الصغار ومن الظاهرية الصغار الأجلاب ثم على بعض سيفية.

وفيه وصل دولات باي النجمي وتمراز الساقى الأشرفيان من ثغر دمياط وطلعا إلى السلطان في يوم السبت.

وفي يوم السبت حادي عشرينه أشيع بالقاهرة بإثارة فتنة وركوب الأمراء على السلطان ولم يعين أحد.

وفيه اشيع بموت جهان شاه بن قرا يوسف ملك الشرق والعراقين.

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرين جمادى الأولى المذكور استقر الأمير أرغون شاه الأشرفي في نيابة غزة عوضًا عن دمرداش العثماني قبل أن يصل دمرداش المذكور إليها أو يحكمها.

ثم استهل جمادى الآخرة أوله الاثنين ويوافقه أول طوبة.

في يوم الثلاثاء ثانيه نودي من قبل السلطان بأن السلطان ينزل إلى الإسطبل السلطاني في يومي السبت والثلاثاء للحكم بين الناس وإزالة المظالم.

وفي يوم الخميس رابعه استقر الأمير خيربك الدوادار ناظر خانقاه سرياقوس وناظر خانقاه سعيد السعداء وناظر قبة الصالح وذلك عوضًا عن الشهابي أحمد بن العيني أمير مجلس بحكم انحطاط قدره.

وفيه وصل رأس جهان شاه بن قرا يوسف ملك العراقيين والشرق على ما زعم حسن بك بن علي بك بن قرايلك متملك ديار بكر وعلقت الرأس على باب الملك الأفضل بن شاهنشاه المدعو الآن باب زويلة أيامًا.

وفي قتل حسن بك لجهان شاه المذكور روايات كثيرة مختلفة يناقض بعضها بعضًا.

وفي ليلة السبت سادسه سافر الأمير قرقماس أمير سلاح كان إلى ثغر دمياط بطالًا برغبته لذلك.

وفي يوم الاثنين ثامنه خلع الظاهر تمرغا على الأمير أزدمر تمساح بتوجهه إلى القدس الشريف وعلى يده تقليد الأمير بردك وتشريفه وعوده لنيابة حلب عوضًا عن يشبك البجاسي بحكم عزله وحبسه بقلعة دمشق.

وفي يوم الخميس حادي عشره خلع السلطان على الأمير أزدمر الطويل الإبراهيمي القادم قبل تاريخه من دمشق بتوجهه إلى حلب وعلى يده مرسوم شريف بتوجه الأمير يشبك البجاسي نائب حلب إلى القدس بطالًا ثم آل أمره إلى حبس دمشق وأزدمر هذا خلاف أزدمر تمساح المقدم ذكره.

وفي يوم السبت ثالث عشره وصل الأمير سودون البرقي أحد أمراء الألوف بدمشق إلى خانقاه سرياقوس فمنعه السلطان من الدخول إلى الديار المصرية وأرسل إليه بفرس بسرج ذهب وكنبوش زركش وكاملية بمقلب سمور وطيب خاطره.

وفي يوم السبت العشرين من جمادى الآخرة ضرب السلطان القاضي تقي الدين بن الطيوري الحلبي الحنفي المعروف بخروف بالإسطبل السلطاني في الملاء ضربًا مبرحًا لسوء سيرته وقبح سريرته وأرسله في الجنزير إلى بيت القاضي المالكي ليدعي عليه بأمر.

فاستمر في الجنزير إلى يوم الأحد ثامن عشرينه فأحضره إلى بيت القاضي كاتب السر الشريف فادعى عليه بأمر ذكرناه في " الحوادث " فحكم القاضي بدر الدين محمد بن القطان الشافعي فيه وضربه ثلاثين عصاة وكشف رأسه وأشهره وهو مكشوف الرأس مقطوع الأكمام إلى الحبس ثم نفي بعد ذلك إلى جهة البلاد الشامية.

وفي هذه الأيام قويت الإشاعة بأن الأمير خيربك يريد القبض على السلطان وعلى الأتابك قايتباي المحمودي إذا طلع إلى القلعة في ليالي الموكب وأنه قد اتفق مع خجداشيته الجراكسة الأجلاب على ذلك الذين هم من جنسه جنس أبزة وأن خجداشيته الجراكسة تخالفه وتميل إلى الأمير كسباي الدوادار الثاني وكسباي المذكور هو صهر الملك الظاهر تمرغا أخو زوجة السلطان.

وأما الأتابك قايتباي فإنه أخذ حذره من هذه الإشاعة واحترز على نفسه وامتنع في الغالب من الطلوع إلى القلعة في ليالي الموكب وصلاة الجمعة مع السلطان وصار يعتذر عن طلوع القلعة بأمور مقبولة وغير مقبولة لكن كان يطلع أيام الموكب في بكر النهار بقماش الموكب وينزل في الحال وكانت أعذاره عن الطلوع إلى القلعة بأنه تارةً يتوجه إلى الربيع وتارةً بغير ذلك والسلطان يسمع هذه الإشاعة ويعلم من الأتابك قايتباي ما يفعله ولا ينكر عليه عدم طلوعه ولا يجبره على الطلوع بل يتخوف هو أيضًا على نفسه وبأخذ قي إصلاح أمره بما هو أخف فلا يسلم ممن يسكن روعه وينفي عن خيربك المذكور هذه الإشاعة ممن له غرض في الباطن مع خير بك.

ثم يقوي جأش السلطان الأمير كسباي الدوادر مع كثرة خجداشيته فإنه مخالف لخجداشه خيربك الدوادر ويميل إلى ظهره الملك الظاهر تمرغا.

واستمر هذا الحال جمادى الآخرة كلها إلى أن استهل شهر رجب أوله يوم الأربعاء.

فيه سأل الأتابك قايتباي السلطان أن يتوجه إلى ناحية مربط جماله على الربيع ببعض قرى القليوبية من أعمال مصر فأذن له السلطان في ذلك.

فسافر الأتابك إلى تلك الجهة وغاب بها إلى يوم الأحد خامس رجب.

فحضر إلى القرآن في آخر النهار المذكور ولم يطلع تلك الليلة إلى القلعة كعادة طلوعه قبل تاريخه في ليالي الموكب وامتنع أيضًا من الطلوع في تلك الليلة جماعة آخر من مقدمي الألوف ولم يطلع إلا الأمير جانبك قلفسيس أمير سلاح والشهابي أحمد بن العيني أمير مجلس وسودون القصري وتنبك المعلم الأشرفي والأمير تمر حاجب الحجاب وخشكدي البيسقي رأس نوبة النوب وهو من أعظم أصحاب خير بك وكذلك الأمير مغلباي الظاهري.

فهؤلاء السبعة الذين طلوعوا إلى القلعة في تلك الليلة من مقدمي الألوف.

وأذن المغرب وهم بالقلعة وصلوا مع السلطان الملك الظاهر تمرغا صلاة المغرب.

ثم دخل الملك الظاهر إلى الخرجة المطلة على الرميطة على العادة وجلس بها.

خلع السلطان الظاهر أبو سعيد تمرغا ولما دخل الملك الظاهر تمرغا إلى الخرجة المقدم ذكرها وجلس بها سمع بالقصر بعض هرج بخارج القصر فسأل عن الخبر فقيل له ما معناه: " الأجلاب بينهم كلام ".

فراى السلطان ذلك فطلب خير بك الدوادر فدخل عليه فأخذ السلطان يتكلم معه وهو يتبرم من وجع رجليه على ما زعم.

ولم يطل جلوسه عند السلطان وخرج إلى خارج القصر.

فعظم الهرج بالقصر فأزعج السلطان ذلك فقام وخرج إلى القصر فلم يجلس به إلا يسيرًا وأشار عليه بعض أصحابه بالدخول إلى الخرجة فعاد إليها وطلب الأمير خشكدي البيسقي رأس نوبة النوب وسأله عن أمر هؤلاء فذكر أنه لا يعرف ما هم فيه.

وقام السلطان وصلى العشاء داخل الخرجة وهذا بخلاف العادة وصلى خشكدي معه.

ثم خرج وقد عظم الهرج وضرب أصحاب خيربك الأمير طرباي المحتسب أحد أصحاب كشيبي الدوادار ضربًا مبرحًا أشفى منه على الهلاك ونالوا من كسباي أيضًا وضربوه ضربًا ليس بذاك كل ذلك لدفع كسباي وطرباي المكروه عن السلطان.

وكان من الاتفاق الغريب أن الجراكسة أصحاب كسباي لم يطلع منهم في تلك الليلة إلا أناس قليلة وطلع من أصحاب خيربك جنس أبزة خلائق باتفاق من خيربك.

فلما وقع ذلك تحقق الملك الظاهر تمرىغا وقوع شيء ولم يسعه إلا السكات.

وكان عند السلطان جماعة من خجداشيته الأمراء والسلطان ومن عنده كالمأسورين في يد الأجلاب.

ثم تفرقت الأجلاب إلى الأطباق بقلعة الجبل ولبسوا آلة الحرب وعادوا إلى القصر بقوة زائدة وأمر كبير وتوجه بعضهم لإحضار الخليفة وتوجه بعضهم لنهب الحرم السلطاني بداخل الدور.

ثم أغلق باب الخرجة من قبل السلطان كأنه مخافة من هجوم بعض الأجلاب عليه.

ثم وقعت أمور سمعتها بالزائد والناقص على قدر الروايات فإننا لم نحضر شيئًا من ذلك وأل الأمر إلى الدخول على السلطان وإخراج خجداشيته من عنده ثم أرادوا إخراج من بقي عنده من السقاة فمنعهم السلطان من ذلك قليلاً ثم سكت فأخرجوهم وبقي السلطان في جماعة يسيرة من مماليكه وغيرهم.

ثم بعد ساعة دخل على السلطان ثلاثة أنفار من الجلبان ملبسة وهم ملثمون وأرادوا منه أن يقوم وينزل إلى المخبأة التي تحت الخرجة فامتنع قليلاً ثم قام معهم مخافة من الإخراق.

وأخذوه وأنزلوه إلى المخبأة من غير إخراج ولا بهدلة وأنزلوا فرسًا ومقعدًا ونزل معه بعض مماليكه وبعض الأجلاب أيضًا وأغلقوا عليه الطابوقة.

وأخذوا النمجة والدرقة والفوطة ودفعوهم إلى خير بك بعد أن أطلقوا عليه اسم السلطان وباس له الأرض جماعة من أعيان الأمراء وقيل إنهم لقبوه بالملك العادل كل ذلك بلا مبايعة ولا إجماع الكلمة على سلطنته بل بفعل هذه الأجلاب الأوباش غير أن خيربك لما أخذ النمجة والدرقة حدثته نفسه بالسلطنة وقام وأبعد في تدبير أمره وتحصين القلعة.

وأما الملك الظاهر تمرىغا لم يتم جلوسه بالمخبأة حتى أنزلوا عنده جماعة كبيرة من خجداشيته الأمراء واحدًا بعد واحد حتى تكمل عدتهم ثمانية أو تسعة وهم: الأمير تمر حاجب الحجاب وبرقوق المشد وبرسباي قرا الخازندار وأزبك ناظر الخاص وتغري بردي ططر نائب القلعة وقاني باي الساقى وقاني بك وقجماس واثنان آخران.

وقعد عندهم جماعة من الأجلاب كما تقدم ذكره.

وأما الأمير بردك هجين الأمير آخور الكبير فإنه بلغه الخبر في أوائل الأمر فلم يكذب ما سمع ونزل من الإسطبل السلطاني من وقته وأرسل أعلم الأتابك قايتباي بما وقع.

فركب الأتابك في الحال هو وأصحابه وخجداشيته وقد انضم عليه الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار بعد أمور وقعت فحضر الأتابك قايتباي إلى بيت قوصون الذي سد بابه من تجاه القلعة.

فلم يكد جلوس السلطان الملك الظاهر تمرغا بالمخبة إلا وقد انتشر أصحاب قايتباي بالرملة ورأهم السلطان الملك الظاهر تمرغا من شبك المخبة المطل على الرملة في جمع كثير وذلك قبل نصف الليل لأن إنزال الملك الظاهر تمرغا إلى المخبة كان بالتقريب قبل ثلث الليل الأخير والخبر الذي ورد على الأمير بردبك هجين كان بعد عشاء الآخرة.

وأما خيربك الدوادر الكبير فإنه لما أخذ النجمة والدرقة شرع في إصلاح أمره ليتم له ما أراد من ملك مصر ونزل إلى الإسطبل السلطاني في جمع كبير من خجداشيته الأجلاب ووقف بداخل باب السلسلة يترقب من يجيء إليه من الرملة.

والذي بلغني من غير ثقة أن جماعة من الطوائف المشهورة كانوا وافقوه على أن يفعل ما فعل وأنهم معه على السراء والضراء وفي كل ما يرومه.

فلما طال وقوف خيربك ولم يطلع إليه أحد علم أنهم خذلوه وغرروا به فندم حيث لا ينفعه الندم ولم يسعه إلا إتمام ما فعل.

فعاد خيربك إلى القلعة بعد أن أمر الأجلاب أن يصعدوا على سور القلعة ويقاتلوا من بالرملة من أصحاب قايتباي ففعلوا ذلك وقاتلوا قتالاً جرح فيه جماعة من الفريقين وقتل جماعة.

وظلع خيربك إلى القصر وقد علم أن أمره تلاشى وأدبرت سعادته.

وبينما هو في ذلك فر عنه غالب أصحابه الكبار مثل خشكلدي ومغلباي وغيرهما فعند ذلك لم يجد خيربك بداً من الإفراج عن الملك الظاهر تمرغا ومن معه من خجداشيته ومماليكه فأخرجوهم ونزل خيربك على رجل الملك الظاهر تمرغا يقبلها ويبكي ويسأله العفو عنه وقد أبدى من التضرع أنواعاً كثيرة فقبل السلطان عذره.

هذا وقد جلس السلطان الملك الظاهر تمرغا موضع جلوس السلطان على عادته وأخذ النجمة والدرقة وقد انهزم غالب الأجلاب ونزلوا من القلعة لا يلوي أحد منهم على أحد كل ذلك والأتابك قايتباي بمن معه من الأمراء بالرملة.

فلما تم جلوس الملك الظاهر تمرغا بالقصر على عادته أمر من كان عنده من أكابر الأمراء بالنزول إلى الأتابك قايتباي لمساعدته والذين أرسلهم هم: الأمير جانبك قلقسيز أمير سلاح وسودون القصري وتنبك المعلم.

فهؤلاء الثلاثة وأمثالهم كانوا عند خيربك في وقت مسك الملك الظاهر تمرغا وفي قبضته وقد أظهروا له الطاعة إما غصباً على ما زعموا وإما رضى على ما زعم بعضهم.

ثم أرسل السلطان بمن كان عنده ومحبوساً معه مثل الأمير تمر حاجب الحجاب وبرقوق شاد الشراب خاناه وغيرهما.

وكان إنزال هؤلاء الأمراء إلى الأتابك قايتباي هفوة من الملك الظاهر تمرغا فإنه لو لم يكن نزولهم ما كان ينبرم للأتابك قايتباي في غيبتهم أمر.

كل ذلك والخلائق تطلع إلى الملك الظاهر تمرىغا أفواجًا أفواجًا تهنئه بالنصر ويعوده إلى ملكه والعساكر وقوف بين يديه.

وطلع السيفي تتم الأجرود الظاهري الخاصكي إلى السلطان فلما رأى خيربك الدوادار واقفًا بين يدي السلطان أراد قتله بالسيف فمنعه الملك الظاهر من ذلك ثم أمر بحبسه داخل خزانة الخرجة فحبس بها.

ولما تم أمر الأتابك قايتباي من قتال الأجلاب وانتصر طلع بمن باب السلسلة وجلس بمقعد الإسطبل.

وكان لهج بعضى الأمراء عند طلوع قايتباي إلى الإسطبل بأن قال: " الله ينصر الملك الناصر قايتباي " وسمع بعض الناس ذلك.

ولما جلس الأتابك قايتباي بمقعد الحراقة بتلك العظمة الزائدة كلمه بعض الأمراء في السلطنة وحسنوا له ذلك فأخذ يمتنع امتناعًا ليس بذاك إلى أن قام بعضهم وقبل الأرض له وفعل غيره كذلك فامتنع بعد ذلك أيضًا فقالوا: " ما بقي يفيد الامتناع وقد قبلنا لك الأرض.

فإما تدعن وإما نسلطن غيرك "

فأجاب عند ذلك.

فقال بعض الظرفاء: " جلوسه بالمقعد والملك الظاهر تمرىغا بالقصر كان ذلك إجابة منه وإلا لو لم يكن له غرض في ذلك كان طلع إلى القصر عند السلطان دفعة واحدة "

فلما تم أمر الأتابك قايتباي في السلطنة طلع الأمير يشبك من مهدي الظاهري الكاشف بالوجه القبلي إلى الملك الظاهر تمرىغا وعرفه بسلطنة قايتباي وأخذه ودخل به إلى خزانة الخرجة الصغيرة وقد حبس بها خيربك قبل ذلك كما تقدم.

ولما استقر الملك الظاهر تمرىغا بالخزانة المذكورة كلمه يشبك من مهدي في أنه يتوجه إلى البحرة أو هو أراد فقبل أن يقوم من مجلسه تناول يشبك من يده النجمة والدرقة ودفعهما إلى تمرار الأشرفي فأخذهما تمرار وتوجه إلى الأتابك قايتباي.

وقام الملك الظاهر تمرىغا وتوجه في الحال إلى البحرة مكرمًا مبجلًا وبين يديه يشبك من مهدي المذكور وغيره وسار إلى البحرة من داخل الحريم السلطاني وجلس بالبحرة.

وتم أمر قايتباي في السلطنة حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

واستمر جلوس الملك الظاهر تمرىغا بالبحرة وأصحابه وحواشيه تترد إليه من غير مانع يمنعم من ذلك والملك الأشرف قايتباي يظهر تعظيمه وإكرامه بكل ما تصل قدرته إليه.

فلما كان ليلة الأربعاء ثامن شهر رجب المذكور رسم السلطان الملك الأشرف بسفره إلى ثغر دمياط برغبة الملك الظاهر تمرىغا في ذلك.

فلما كان بين العشاءين من ليلة الأربعاء خرج الملك الظاهر تمرىغا من قاعة البحرة وفي خدمته الخدام وغيرهم وسار من الحوش السلطاني إلى داخل الحريم وعرف الملك الأشرف قايتباي وقت خروجه من البحرة فقام من خرجة القصر مسرعًا في مشيه إلى

أن وافى الملك الظاهر تفرغاً بدهليز الدور السلطانية عند الشيخ البرديني فبادره السلطان الملك الأشرف قايتباي بالسلام فاعتنقه وأهوى إلى يده ليقبلها فمنعه الملك الظاهر تفرغاً من ذلك.

ثم أخذ الأشرف في الاعتذار له مما وقع منه والملك الظاهر يقبل منه عذره ويظهر له الفرح التام بسلطنته لأنه خجداشه وأمن على نفسه في دولته.

هذا والملك الأشرف مستمر على إكرامه وتعظيمه إلى غاية ما يكون ثم تكلم معه سرًا في خلوة لأن السلطان كان حضر معه الأتابك جانبك قلقسيز ويشبك من مهدي وتمر حاجب الحجاب وجماعة آخر من خواص الملكين وخجداشيتهما وطال الوقوف بينهما ساعة جيدة ثم تعانقا وتباكيا وافترقا على أحسن وجه وأجمل حال.

ثم نزل الملك الظاهر تفرغاً وركب فرسًا كعادته من خيله الجياد بعد أن ودعه أيضًا الأمراء الذين كانوا جاؤوا مع الملك الأشرف.

ولما قبل الأمير يشبك من مهدي يد الملك الظاهر تفرغاً دفع له ألفي دينار وقنطاري سكر مكرر وغير ذلك.

وسار الملك الظاهر تفرغاً من القلعة إلى ساحل النيل وهو في غاية الحشمة في مسيره من غير أوجاقي يركب خلفه بالسكين كما هي عادة الأمراء ولا غير ذلك والذين ساروا معه غالبهم كالمودعين له.

فلما وصل إلى المركب نزل إليها بعد أو ودعه من كان وصل معه إلى البحر من أعيان خجداشيتهم الأمراء وسافر من وقته من غير أن يتوجه معه مسفر من الأمراء ولا غيرهم بل سار هو بنفسه كما يسافر الشخص إلى جهة تعلقه وهذا بعد أن رسم له الملك الأشرف بالركوب ثغر دمياط إلى حيث أراد من سائر الجهات برًا وبحرًا وأشياء كثيرة من هذه المقولة حتى سير معه السلطان فرسًا في المواكب.

وسافر الملك الظاهر تفرغاً حتى وصل إلى ثغر دمياط ونزلها وسكن بأحسن دورها ومعه حشمه وخدمه وبعض حرمه.

ودام بالثغر إلى.

سلطنة الأشرف قايتباي المحمودي وهو السلطان الحادي والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والخامس عشر من الجراكسة وأولادهم.

وأمر سلطنته وكيفيتها أنه لما خلع الملك الظاهر تفرغاً وتم أمر قايتباي هذا بالإسطنبول السلطاني جلس بمبيت الحراقة من الإسطنبول المذكور وحضر الخليفة والقضاة وبايعوا الأتابك قايتباي بالسلطنة وليس خلعة السلطنة السواد الخليفي من مبيت الحراقة وركب فرس النوبة بقماش ذهب بأبهة الملك وحمل الأمير جانبك الإينالي الأشرفي المعروف بقلقسيز أمير سلاح السنجق على رأسه وذلك لفقد القبة والطير من الزردخاناه السلطانية في واقعة الملك الظاهر يلباي وسار وجميع العسكر بين يديه إلى أن طلع من باب سر القصر ودخل إلى القصر الكبير وجلس على تخت الملك وقبلت الأمراء الأرض بين يديه على العادة.

وتم أمره ونودي في الحال بسلطنته بشوارع القاهرة وتلقب بالملك الأشرف ودقت البشائر وخلع على الخليفة على العادة وعلى جانبك قلقسيز أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر عوضًا عن نفسه.

وكانت العادة أن الأمير الكبير يلبس ليوم خلعة حمل القبة والطير على رأس السلطان ثم بعد ذلك يلبس خلعة الأتابكية فيما بعد فالآن اقتصروا على خلعة واحدة ووفر غيرها.

ثم دخلت الناس لتهنئته بالسلطنة أرسالًا إلى أن انتهى ذلك.

وكان وقت بيعته بالسلطنة قبل أذان الظهر من يوم الاثنين سادس رجب من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة بثمانية عشر درجة والساعة للشمس والطلع الثور والزهرة وهو أيضًا يوم سادس أمشير لأن الشهر العربي والقبطي توافقا في هذا الشهر والشهر الخارج أيضًا.

وفي هذه السنة حكم فيها أربعة سلاطين.

وقبل أن نشرع في ذكر حوادثه وأموره نشرع في التعريف به فنقول: أصل الملك الأشرف قايتباي هذا أنه جاركسي الجنس جلب من بلاده إلى الديار المصرية في حدود سنة تسع وثلاثين وثمانمائة فاشتراه الملك الأشرف برسباي ولم يجر عليه عتقًا وجعله بطبقة الطازية من أطباق قلعة الجبل إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق وأعتقه وجعله خاصكيًا ثم دوا دارًا صغيرًا.

ثم امتحن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور عثمان.

ثم تراجع أمره عند الملك الأشرف إينال وصار دوا دارًا صغيرًا كما كان أولًا.

ثم أمره إينال إمرة عشرة فدام ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر خشقدم بإمرة طبلخاناه وجعله شاد الشراب خاناه بعد جانبك الأشرفي المشد فدام في المشدية أيامًا كثيرة.

وتوجه إلى تقليد نائب حلب ثم بعد عوده بمدة أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية.

فاستمر على ذلك إلى أن جعله الملك الظاهر يلباي رأس نوبة النوب بعد خروج الأمير أربك الظاهري إلى نيابة الشام وأنعم عليه بإقطاعه أيضًا.

فلم تطل أيام قايتباي هذا فيما ذكرناه ونقله الملك الظاهر تمرغا إلى الأتابكية عوضًا عن نفسه لما تسلطن فلم تطل أيامه أيضًا في الأتابكية وتسلطن حسبما ذكرناه.

ولما استقر جلوسه بالقصر وخلع عليه خلعة السلطنة أمر بحبس الأمير خير بك الدوادار بالركبخاناه وكذلك الأمير أحمد العيني أمير مجلس واختفى الأمير خشكلدي البيسقي رأس نوبة النوب ثم ظهر فرسم بنفيه.

انتهى كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة